رجب البنا

صناعة العداء للإسلام



دار المعارف

رجب البنا

صناعة العداء للإسلام



دار المعارف

تصميم الغلاف : عاطف عبد الغنى

الناشر دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة: ج.م.ع.

إهداء

إلى كل من يبحث عن الحقيقة
ولا يخشى فى الله لومة لائم

مقدمـــة

اشتد الهجوم فى الغرب على الإسلام والمسلمين بعد الهجوم على مركز التجارة العالمى فى نيويـورك، ومبنـى البنتـاجون فـى واشـنطن يـوم ١١ سـبتمبر ٢٠٠١، وأصبح الهجوم على الإسلام مـادة يوميـة فـى الصحافـة والتلفزيـون، وكـل مسـلم موضع اتهام فى الولايات المتحدة ودول أوربا بمجرد اكتشاف أنه مسلم.

ومع أن تصريحات القادة والزعماء فى الغرب قد أكدت أن الحرب التى تشـنها الولايات المتحدة وحلفاؤها على دول إسلامية هى حـرب علـى الإرهـاب وليسـت علـى الإسـلام إلا أن فلتـات لسـان هـؤلاء القـادة كشـفت غـير ذلـك ممـا تنطـوى عليه الصدور.

وفى عالمنا العربى والإسلامى يعلن كثيرون أنـه ليـس هنـاك عـداء مـن الغـرب للإسلام أو المسلمين، وأن ما يقال عندنا عن هذا العداء ليس إلا تعبيرًا عن الشعور بالنقص أمام الحضارة الغربية المتفوقة، أو تعبيرًا عن الإحبـاط فـى نفوسـنا لأننـا نعتبر أنفسنا أصحاب تاريخ مجيد ونستحق مكانا فى العالم أفضل مما نحن فيه، ولكننا نعانى من الشعور بـالنقص لأننـا نجـد أنفسـنا متخلفـين، وعـاجزين عـن الوصول إلى المكان اللائق بنا.

وهناك تفسيرات كثيرة يرددها من ينكرون، أو يرفضون الحقيقة وهـى وجـود تيار فكرى وثقافى فى الغرب رافض لعقائد ومبـادئ وأفكـار المسـلمين، ويـرى أن الإسلام هو السبب فى تخلف المسلمين، وهذا التيـار قديـم ولـه جـذور تاريخيـة يمكن أن نجدها منذ بداية ظهور الإسلام، وقد تبلورت فى السنوات الأخيرة فـى نظرية البروفيسور فرانسيس فوكوياما عن «نهاية التاريخ»، ونظرية البروفيسور صمويل هنتنجتون عن صراع الحضارات، ومؤدى النظريتين حتميـة الصدام بـين الإسلام والغرب.

وعندما ظهرت هاتان النظريتان فى الولايات المتحدة لم يلتفت إليهما أحد من مفكرى العالم الإسلامى، وكان الظن أنهما مجرد اجتهادات شخصية أو جنوح بالخيال، بعد أن شعر مفكرو الغرب بأن انتهاء الصراع ضد الاتحاد السوفيتى والأيدلوجية الشيوعية قد ترك فراغا فكريا وسياسيا، ربما يؤدى عدم وجود عدو للغرب إلى انتهاء الحاجة إلى الحشود العسكرية والترسانات المكدسة بالأسلحة والمصانع العملاقة ومراكز البحوث وعشرات الآلاف من العلماء، والأرقام الفلكيةللأموال التى تُنفق على الجيوش والأسلحة فى الغرب، مادام العدو الأكبر قد زال من الوجود، ولم يعد فى العالم سوى قوة وحيدة هى الغرب تقودها الولايات المتحدة.

كان هذا هو الظن فى البداية، ولكن لم تكد تمضى فترة قصيرة حتى أصبحت نظرية صراع الحضارات والثقافات تتردد فى كل مناسبة، وعلى كل لسان، وفى كل مستوى من مستويات القيادة السياسية والعسكرية فى الغرب. وكانت الصدمة الأولى عندما صدر قرار من حلف الأطلنطى - وهو حلف عسكرى أساسًا - باعتبار الإسلام هو العدو للغرب، بعد انتهاء الاتحاد السوفيتى، ثم توالى صدور تصريحات وبيانات على ألسنة الزعماء والقادة فى جميع دول الغرب تؤكد هذا المعنى، وأصبحت نظرية صراع الحضارات من المسلّمات التى فرغ الغرب من مناقشتها.. على رغم كل ما صدر من العالم الإسلامى من إنكار واستنكار لهذه النظرية، وتكرار التعبير عن حقيقة الإسلام كدين للتسامح والتعاون بين البشر، وأنه لا يؤمن بالصراع بين الحضارات أو الثقافات المختلفة، ويؤمن بالتعاون فيما بينها.

ولم يعد أمر العداء للإسلام فى الغرب خافيا على أحد فى العالم الإسلامى، بعد أن أعلن وزير الأوقاف الدكتور محمود حمدى زقزوق أن فى الغرب أكثر من ٦٠ ألف كتاب للهجوم على الإسلام. وأعتقد أن الذين ينكرون وجود هذا العداء هم فى الحقيقة يتهربون من مواجهة الحقيقة لأنها تفرض عليهم واجب العمل للدفاع عن الإسلام.

ولابد أن نسجل بعض الملاحظات التى لابد منها قبل قراءة هذا الكتاب:

الأولى: أن هناك محاولات سياسية لتفكيك العالم الإسلامى، وتفكيك العقيدة الإسلامية، وتغيير مناهج تدريس الدين الإسلامى، وتغيير المؤسسات الإسلامية، تحت شعار إدماج الإسلام فى العولمة. والحقيقة أن هذا العمل يتم لإدماج المسلمين فى النظام العالمى الذى تقوده الولايات المتحدة، وتفرض فيه على دول العالم إرادتها، وتتصرف على أنها هى القانون، وأنها هى الوحيدة التى تمتلك الصواب، وعلى الجميع أن يقبلوا الهيمنة الأمريكية عن طيب خاطر.

الثانية: أن هدف السيطرة على أرض وأسواق وثروات الدول الإسلامية هدف سياسى، البعض يصرح به في الغرب دون مواربة، والبعض الآخر يخفيه وراء شعارات ومبادئ وأفكار براقة زائفة مثل إكراه العالم الإسلامى على التغيير، وفرض النظام الديمقراطى الغربى والليبرالية الاقتصادية عليه بالقوة، وكذلك فرض أسلوب الحياة الأمريكى على العالم الإسلامى تحقيقا لهدف «أمركة» العالم، أى تحويل العالم إلى عالم أمريكى، فكرا وسلوكا بما فى ذلك الحرية الفردية التى تصل إلى الحرية الجنسية، وتفكيك نظام الأسرة المتماسكة فى العالم الإسلامى.

إن الذين يعملون فى الغرب بكل الطرق فى صناعة العداء للإسلام كثيرون، ولكن على الجانب الآخر فى الغرب مفكرون لهم قيمة علمية وفكرية يعملون على إنصاف الإسلام والدفاع عنه، ولكن أصحاب الصوت العالى هم صناع العداء. ولقد فكرت أن أجعل هذا الكتاب قسمين، الأول لفكر صناعة العداء، والثانى لفكر الانصاف للإسلام فى الغرب، ولكنى وجدت أن ذلك سيجعل حجم الكتاب أكبر مما يمكن احتماله، ولذلك فضلت أن أخصص هذا الكتاب للفئة الأولى، وأن أخصص كتابًا آخر للفئة الثانية.

كذلك فقد حرصت على أن تكون مادة هذا الكتاب مقصورة على كتابات وأفكار وأقوال مفكرين وقادة سياسيين من الغرب، ولم أعتمد على مصادر أو كتابات المفكرين العرب والمسلمين، لأنى حرصت على أن نعرف ما فى عقولهم ونفوسهم ونترك التحليل والتعليق بعد ذلك لكل من يريد.

وإن كان في الغرب من يرى أن الإرهاب ظاهرة ناشئة من الإسلام ذاته، ويقولون صراحة: إن الإسلام يدعو إلى الإرهاب ويستخدمون في ذلك كل أساليب المغالطة، فيقولون مثلا: إن الجهاد الذى يدعو الإسلام أنصاره إليه معناه أن المسلمين في حالة حرب دائمة ضد غير المسلمين، وأن قتل غير المسلمين واجب دينى على كل مسلم يثاب عليه في الآخرة، ودليلهم على ذلك وعود الإسلام للشهداء بالجنة والحياة عند ربهم يرزقون. ويتجاهلون قول علماء الإسلام من أن الجهاد حرب دفاعية وليس حربا هجومية، هى حرب المسلمين على من يحاربهم أو يعتدى على أرضهم أو أموالهم أو أعراضهم، وفى الإسلام: من مات دون ماله فهو شهيد، ومن مات دون أرضه فهو شهيد، ومن مات دون عرضه فهوشهيد. والإسلام يأمر المسلمين بالاَّ يبدءوا بالعدوان ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة - ١٩٠]. وليس هناك أمر واضح قاطع مثل هذا الأمر الإلهى. وفى نفس الوقت فإن الإسلام يأمر المؤمنين به أن يتوقفوا عن القتال في اللحظة التى يعلن فيها أعداؤهم السلام ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الانفال - ٦١].

والحقيقة أن الربط بين الإسلام والإرهاب ومقاومة الشعب الفلسطينى وتقديمها في الغرب على أنها وجوه متعددة لحقيقة واحدة هى الإسلام، فيه مغالطة مقصودة، وإن كان هناك أحيانا من يعترف بالحقيقة كما فعلت صحيفة الاوبزرفر البريطانية مثلا في عدد ٢٠ أكتوبر ٢٠٠٢ حين نشرت مقالا بعنوان «الغرب لم يعد بريئًا» قالت فيه: إن على الدول الغربية أن تعترف بأنه لن يكون هناك حل للتطرف الإسلامى غير تسوية المشكلة الفلسطينية، وينبغى أن يصدق العالم الغربى أن الديون والفقر وعدم المساواة جانب من الأرض الخصبة التى تثمر الغضب واليأس، وكذلك ينبغى أن تتخلى دول الغرب عن تلك النظرة المتعالية تجاه المسلمين، وعن القول بأن العالم الإسلامى هو المسئول وحده عن التخلف الذى يعيش فيه، ويستحق العقاب إذا استمر في مقاومة العولمة. وأخيرًا على دول الغرب - وعلى رأسها الولايات المتحدة - التوقف عن الكذب والإدعاء بأن الحرب على العالم الإسلامى التى يقتلون فيها المسلمين هى حرب من أجل السلام والديمقراطية وحقوق الإنسان بينما هى حرب من أجل البترول. وعلى الغرب أن

يسعى إلى تحقيق مصالحه بطريقة عادلة ومستنيرة. وأنه لن يكون هناك ضمان لعدم تكرار حوادث الإرهاب غير التعامل مع العالم الإسلامي بالعدل.

وعلى الجانب الآخر نجد مفكرًا استراتيجيًا أمريكيًا مثل بريجنسكي يقول في نيويورك تايمز (في أول سبتمبر ٢٠٠٢): «هناك جهات لها مصالح استراتيجية تروج للعداء بين أمريكا والعرب..» ويشير إلى رئيس وزراء إسرائيل بالاسم ضمن هؤلاء الأعداء. كذلك فإن رئيس لجنة «الإسلاموفوبيا» في بريطانيا البروفيسور جوردون كونواي نائب رئيس جامعة ساسكس يعلن تقرير اللجنة بإدانة تفشي ظاهرة الخوف من الإسلام في بريطانيا والغرب، وانتشار الصورة النمطية في الإعلام عن الإسلام والمسلمين وربطها دائما بالإرهاب والتخلف والبربرية.

وإذا كنا جادين في إيجاد طريق للمصالحة بين الغرب والإسلام، واقناع الغرب بأن الإسلام دين قبول وحوار وتعاون مع المختلفين معه، فإن علينا أن ندرك أن ذلك لا يكون بأن يغير الغرب أفكاره ومواقفه فقط، ولكن علينا أن نخطو نحن أيضًا نحو الغرب خطوة؛ أولا بإدراك طبيعة هذا العصر والاندماج فيه دون تفريط في ثوابت العقيدة الإسلامية ثم بإعادة النظر في التفسيرات الرجعية للإسلام، ورفض الجماعات التي تدعى أنها سدنة الإسلام وأن لهم وحدهم حق الاحتكار للحقيقة وما يخالفها باطل. فلابد أن يعود الإسلام بسيطا بدون كهنة أو وسطاء، ولابد من أن يقف جميع المسلمين صفا واحدا ضد الذين يريدون إشعال حرب دينية بأية صورة من الصور.

وأخيرًا فلقد ترددت كثيرا في ذكر الاتهامات والسباب التي وُجِّهَت للدين الإسلامي، وللقرآن الكريم، وللرسول ﷺ، ولكني وجدت أن هذه الاتهامات ليست جديدة، فقد وجهت إلى الرسول ﷺ ذاته والوحي ينزل، وقد خلدها القرآن في آيات نتلوها ونتعبد بها، لندرك أن العداء للإسلام قديم وسوف يستمر إلى يوم القيامة ولن ينتهي أبدًا، وعلى المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم وعن دينهم إلى يوم الدين. ومن هذه الآيات قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الفرقان - ٨].

﴿ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص - ٤].

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ [الأحقاف ٧ - ٨].

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل - ١٠٣].

وفى المحاكم حين تنظر قضايا السب والقذف لابد أن يذكر فى الاتهام وفى الحكم ألفاظ السب والقذف حتى يتبين إن كانت تدخل فى نطاق مفهوم هذه الجريمة أو لا تدخل، لذلك ذكرت بعض ما يوجه إلى الإسلام والقرآن والرسول من سب وقذف وشعرت بالحرج فى كتابة الباقى، وتعالى الله عما يصفون.

ومن الضرورى أن أشير إلى أن هذا الكتاب فى الأصل مجموعة مقالات نشرت فى مجلة أكتوبر، وقد يجد القارئ تكرارًا فى بعض المواضع، ولكنه تكرار مقصود لتذكير القارئ، أو للتدليل على تواتر الاتهامات وامتلاء الكتب والصحف ومراكز الأبحاث فى الغرب بهذه الأقوال والأفكار.

وفى الحقيقة فإن هذا الكتاب ليس إلا «ملف معلومات» لكل من يريد أن يعرف «ماذا يقولون عن الإسلام والمسلمين».. وما فيه ليس إلا نماذج وأمثلة، أما حصر وتوثيق كل ما قيل ويقال فإنه يحتاج إلى عشرات الكتب.

وأدعو الله أن يكون هذا الكتاب جرس إنذار ينبه الغافلين، ويلزم المنكرين للحقيقة بالاعتراف بالواقع، فيواجهوا هذه الحرب التى لا يعرف أحد متى وكيف تنتهى؟ ولكى يُغَيِّرَ المسلمون من أنفسهم ويعملوا بما علمهم الله من أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وإن كان الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر - ٩] فإن على المسلمين أن يفتحوا عيونهم لما يدور فى العالم حولهم، ليقولوا للعالم ما هى حقيقة الإسلام وليواجهوا أعداءه.

والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

رجب البنا

القاهرة - يناير ٢٠٠٣

حرب جديدة على الإسلام !

قامت جامعة ساندرن كونيكتيكت الأمريكية بالتحقيق مع أستاذ جامعى مصرى المولد اسمه شوقى كراس فلتاؤوس بتهمة ترويج كتيبات مضللة حول الإسلام بين الطلبة، والدكتور فلتاؤوس خارج على الكنيسة المصرية ومعارض لها ويرأس منظمة تمولها جهات عديدة مجهولة اسمها «الاتحاد القبطى المصرى». ونشاط هذا الأستاذ موجه للهجوم على مصر وعلى الإسلام. ويجد دعما وترحيبا من هيئات صهيونية فى أمريكا وأوربا.

وفى عام ٢٠٠٢ نظمت الأمم المتحدة مؤتمرا فى جنيف لبحث موضوع «الإسلام وحقوق الانسان» شارك فيه حشد من المفكرين والباحثين، وكما هو واضح من العنوان فإن هذا المؤتمر لم يكن سوى حلقة من سلسلة طويلة من الحلقات لتأكيد الادعاءات بأن الإسلام دين تتعارض مبادئه وتعاليمه مع قيم التقدم والديمقراطية ومبادئ حقوق الإنسان. وقد عقدت مئات الندوات والمؤتمرات وحلقات البحث فى السنوات الأخيرة فى مختلف أنحاء العالم، ودعى إليها مفكرون وأساتذة جامعات ورجال سياسة من أوربا وآسيا وأمريكا لكى يبحثوا أمر هذا الدين الذى يرون أنه لا يحترم حرية الإنسان، وكرامته، ويدعو إلى الإرهاب ويبيح لأنصاره الاعتداء على المخالفين لهم فى العقيدة والرأى!.. إلخ.

وقائمة الاتهامات التى توجه إلى الإسلام طويلة، وتكاد تكون محفوظة يتكرر تقديمها فى كل مناسبة مع إضافة بنود وأدلة جديدة يجتهد الباحثون فى مراكز البحوث فى أوربا وأمريكا فى إعدادها بمهارة معززة بأدلة منطقية وتاريخية يخلطون فيها الحقائق بالأكاذيب، والمبادئ بالممارسات، ويسندون إلى الإسلام ذاته أفعال المنحرفين والشاذين والخارجين على مبادئه وتعاليمه وأخلاقياته. ويقدمونهم فى الإعلام الغربى على أنهم المثلون الحقيقيون للإسلام والمسلمين.

وفي قائمة الاتهامات على سبيل المثال: أن الإسلام يقر المحاكمات غير العادلة على النحو الذى حدث فى الماضى أو يحدث فى الحاضر فى بعض بلاد المسلمين...

وأن الإسلام دين يقوم على ممارسة العنف بكل أشكاله، ويدعو أبناءه إلى الاعتداء على الآخرين. وأن مفهوم الجهاد فى الإسلام يقوم على مشروعية قتال وقتل كل من لا يعتنق الإسلام، وللمسلم الذى يمارس هذا النوع من الجهاد ضد «الكفار» أجر وثواب عند الله. بل إن هذا القتل والقتال واجب على كل مسلم ومسلمة، ومن لا يقتل ويقاتل «غير المسلمين» فإنه ليس مسلما، ويكون هو ذاته كافرا.. وكذلك يقولون: إن العنف فى الإسلام يمتد إلى استخدام عقوبات فيها قسوة لا تتفق مع الرحمة والإنسانية مثل قطع الأيدى، والرجم، وغير ذلك. ومثل مبدأ «العين بالعين والسن بالسن» و «لكم فى القصاص حياة».. ولعل كلمات الرئيس الأمريكى بيل كلينتون التى قالها فى خطابه أمام المؤتمر الوطنى الفلسطينى، ووصف بأنه خطاب تاريخى، مازالت تتردد فى آذان الملايين الذين تابعوه وهو يتحدث بسخرية عن مبدأ «العين بالعين والسن بالسن» ويقول: إن تطبيق هذا المبدأ سيجعل الجميع عميان..!

فى قائمة الاتهامات أيضا أن الإسلام ضد المرأة، وأن مبادئه قائمة على إهانة المرأة ومعاملتها معاملة غير إنسانية، وأنه يعتبر الرجل هو الإنسان، أما المرأة فيعتبرها إنسانا ناقصا وتحتاج إلى الوصاية على تصرفاتها طَوال حياتها.. ولا تلقى معاملة فيها احترام، وفى بعض البلاد الإسلامية المرأة محرومة من التعليم أو العمل أو المشاركة فى الحياة العامة، ولا يسمح للمرأة فى كثير من البلاد الإسلامية بالخروج للعمل لتحسين وضعها الاقتصادى، فتعيش على المعونات والصدقات ولا تجد الفرصة لتكون قوة منتجة، وفى بعض البلاد غير مسموح للمرأة بقيادة سيارة، وأمام المحاكم المرأة نصف الرجل حين تدلى بشهادتها، ولها نصف الميراث الذى يحصل عليه شقيقها الذكر، وفى العالم الإسلامى لا تجد الأقليات غير المسلمة معاملة فيها قبول أو تسامح!.. الخ.

اتهامات كثيرة حين كانت تتردد فى الماضى، كان التصور السائد أن الغرب معذور لأنه لم يفهم الإسلام على حقيقته، ولم يتعايش مع الحياة الإسلامية

الحقيقية، ولكنه أخذ النماذج الشاذة غير المعبرة عن الإسلام، ودرس حالات الخارجين على الإسلام وأصحاب الأفكار الغريبة فى التاريخ الإسلامى ولها نماذج شاذة فى الكتب التى تردد الأفكار الغريبة التى دسها المنافقون وأعداء الإسلام الذين ظلوا يحاربون الإسلام من الداخل ويحاولون تشويهه والتشكيك فيه على مدى أربعة عشر قرنا ..

كان هذا مفهوما، والعذر مقبول فى الماضى، ولكن هذا العذر لم يعد مقبولا الآن وقد أصبح الغرب مدركا للفارق بين مبادئ الإسلام كما جاءت فى الكتاب الذى أنزله الله والسنة الصحيحة التى جاءت عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وبين التفسيرات والتأويلات والأفكار التى جاءت من البشر بحسن نية أو بسوء قصد.. وبما فى عقول البشر من قصور أحيانا أو مغالاة وتشدد فى حالات أخرى..

وفى الغرب علماء يعرفون حقيقة الإسلام كما جاءت من عند الله.. ولكنهم يكتمون الحق، ويضعون علمهم فى خدمة أهداف غير بريئة لتشويه صورة الإسلام والمسلمين، ليكون ذلك مبررا لإثارة الكراهية لهذا الدين.. بادعاء أنه يتنافى مع مبادئ الإنسانية، ويدعو إلى القسوة والوحشية والاستعباد وإباحة الدماء لمجرد الاختلاف فى العقيدة الدينية أو فى الرأى والتفسير..

وفى إحدى الندوات التى عقدت عن الإسلام وحقوق الإنسان بمناسبة مرور خمسين عاما على صدور الإعلان العالمى لحقوق الإنسان قدم المفكر المعروف الدكتور أحمد كمال أبو المجد بحثا مستفيضا كشف فيه أن أكثر الباحثين فى حقوق الإنسان من غير المسلمين لا يتوقفون أمام حقيقة مهمة يواجهها المسلمون، هى أن الغرب يطلب من المسلمين أن يغيروا حضارتهم، وثقافتهم، وحياتهم اليومية لكى تتفق مع أفكار ومبادئ أخلاقية وقانونية نشأت وتنمو داخل حضارة أخرى ولا تنطلق من نصوص دينية مقدسة، ولا يعترف الباحثون الغربيون بشرعية وقدسية النصوص الدينية الإسلامية التى تتصل بالقضايا الاجتماعية والقانونية، وهذا ما يفسر الاستخفاف الذى يتعامل به بعض المفكرين غير المسلمين مع مبادئ الإسلام، فيوجهون إلى المسلمين دعوة صريحة وسافرة إلى إصلاح ثقافتهم، وشريعتهم جذريا، والهدف الحقيقى أن يقتلعها عن أصولها الفكرية والأخلاقية الكبرى، وينسى هؤلاء أن مثل هذا العمل حتى لو قام به

باحثون مسلمون فسوف يظل قليل القيمة والتأثير على جموع المسلمين وعلمائهم، لأنه لا يقوم على «الشرعية الثقافية الإسلامية».. ومن أمثلة ذلك ما يدعو إليه محمود طه في السودان وبسام طيبي والنعيمي من إبعاد الشريعة الإسلامية عن التدخل في ميدان حقوق الإنسان، أو إسقاط الالتزام بالنصوص حين يتصل الأمر بحقوق الإنسان..! وكان رد الدكتور أبو المجد على هذا الاتجاه بأنه سيؤدى إلى «العصيان» ورفض المسلمين لمحاولة غرس مبادئ ليست نابعة من داخل التصور الإسلامي للحياة، كما سيؤدى إلى تشدد «المقاومة الثقافية» المعلنة لمحاولات فرض ثقافة من جانب الآخرين خاصة حين تكون هذه المحاولات خالية من الكياسة واحترام الآخرين..

إننا نشهد ظاهرة حديثة، هي تسييس الجهود الدولية لحماية حقوق الإنسان، نتيجة انفراد قوة سياسية واحدة بقيادة العالم داخل المنظمات الدولية وخارجها، مما عجل بانهيار الحدود بين ما هو «محلي» وما هو «دولي» وإن كان ذلك في الظاهر خير وتقدم، إلا أن هذه الصبغة السياسية هي التي تجعل التدخل الدولي باسم حقوق الإنسان مشبوها، وغير مشروع لفرض رؤية ثقافية خاصة، أو لخدمة مصالح سياسية واقتصادية لدولة معينة على حساب غيرها وكثيرا ما تتخذ حماية حقوق الإنسان ذريعة للتدخل سعيا لتحقيق أهداف لا صلة لها بتلك الحقوق، خصوصا حين يجعل من رؤية إحدى الثقافات معيارا يزن به ما يجرى داخل مجتمعات تخالف ما يسود في الدول التي تريد أن تفرض ثقافتها ومنظوماتها الأخلاقية والقانونية.

والمفارقات بين القول والفعل تثير قلق الغرب حين يتحدث عن ظواهر في المجتمعات الإسلامية، ولا تثير قلقه بالنسبة للمجتمعات الغربية، على الرغم من أنها موجودة في الغرب أيضا.. ولا يريد الغرب أن يدرك أن حالة الديمقراطية والتسامح وحقوق الإنسان في بعض المجتمعات الإسلامية ليست نتيجة عوامل تتصل بالإسلام ولا دخل للإسلام بها، ولكنها نتيجة عوامل سياسية واقتصادية وبيئية وتاريخية في كل مجتمع..

ولكن رجال الفكر والسياسة في الغرب يفضلون إلصاق كل تهمة بالإسلام ذاته..!

ومن يرد أن يتحدث عن موقف الإسلام من حقوق الإنسان فعليه أولا أن يفرق بين أمرين: بين ما هو إلهى جاء به الوحى بالقرآن والسنة، وبين فكر واجتهاد إنسانى فى الفقه والتفسير. فالوحى من عند الله والفقه من عقول البشر.

وأيضا لابد من التفرقة بين «الإسلام» وما يحدث فى «بلاد المسلمين».

فالذين يقولون: إن الإسلام لا يحترم حرية الإنسان، ولا يضع ضمانات لحماية الفرد وحقوقه، وإنه يجعل الفرد مجرد تابع للجماعة أو للدولة، هؤلاء يروجون أفكارا ليست فى الإسلام. فالإنسان الفرد مخلوق له كرامة وتكريم بصرف النظر عن لونه، أو جنسه، أو ديانته، أو سلطته، وإنما التكريم لأنه إنسان.. وهذا المبدأ مقرر فى الإسلام بنص مباشر فى الآية الكريمة: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء - ٧٠] التكريم ليس للمسلمين، وليس للعرب، وليس لأمة دون أمة، والإنسان فى الإسلام مخلوق مسئول، عليه واجبات وله حقوق، وهو ملزم باحترام الأفراد الآخرين بصرف النظر عن دياناتهم أو لونهم أو جنسهم.. ملزم بحماية أموالهم، وأعراضهم، وحقهم فى الخصوصية..

والخطأ فى فهم موقف الإسلام من حقوق الإنسان الذى يقع فيه الباحثون الغربيون ذوو النوايا الحسنة، سببه أنهم لا يدركون الفرق بين الشريعة والفقه.. الشريعة الإسلامية ليست هى الفقه الإسلامى.. الفقه عمل العلماء المتخصصين فى تفسير نصوص القرآن والسنة واستخلاص الأحكام العامة من الأدلة الجزئية.. ولذلك فإن الفقه عمل إنسانى..

والفقه يحتمل الاختلاف.. وهذا الاختلاف ليس خروجا على الإسلام ولكنه اجتهاد. ولكل مسلم أن يأخذ من الفقه أو يترك.. دون أن يكون كافرا ولا آثما.. وله أن يأخذ من كل فقيه ما يرتاح إليه ضميره ولا يعتبر ذلك خطأ.. والفقه ليس ثابتا ولا جامدا.. ولكنه يتغير بتغير المكان كما فعل الشافعى حين انتقل من العراق إلى مصر. ويتطور مع الزمن بتطور العقول والعلوم والمجتمعات، وللعقل والمنطق دور كبير فى ذلك. والبناء الفقهى الذى تركه لنا علماء القرون السبعة الأولى لا يزال مرجعا.. وكثير مما فيه لا يزال صالحا ونافعا.. ولكن اجتهاد علماء تلك القرون ليس نهاية المطاف فى تطور الفقه، بل إن التجديد فى الفقه

مطلوب، والحاجة إليه قائمة، مع ما فى التجديد من مهمة شاقة، لأنه يحتاج إلى مناهج ومهارات ذهنية، أكبر مما كان لدى الفقهاء الأوائل، فقد عاش هؤلاء الأوائل فى زمن قريب من الدعوة، ولقد ابتعد بنا الزمن. . وهم وضعوا اجتهاداتهم فى وقت لم تكن المسافة الزمنية بين النصوص وبين الواقع الاجتماعى قد اتسعت كما هو الحال أمام علماء عصرنا الآن.

والتجديد فى الفقه الإسلامى له مداخل أولها: ربط الفتوى بمقاصد الشريعة، فالنصوص الشرعية علامات، ولابد من قياس الفتوى على ما يقصده الشرع، وثانيها: الاعتماد على «المصلحة» دليلا شرعيا ومصدرا مكملا من مصادر التشريع، وثالثها: وضع «الأولويات» فى الاعتبار عند الفتوى، فالمصالح درجات، وللأوقات والأزمات والأحوال الاعتبار الواجب فى ترتيب هذه الأولويات، والفتوى بدون مراعاة ظروف وأحوال ومصالح الناس ابتعاد بالفقه عن الواقع وعن حياة ومشاكل الناس الذين جاءت الشريعة من أجلهم. . ورابع هذه المداخل: اعتماد «التيسير» منهجا فى الفتوى والاجتهاد، وكما قيل بحق، ليس العلم فى التشديد فإنه يحسنه كل أحد، وإنما العلم الرخصة والتيسير من عالم ثقة. . وليتذكر المتشددون والمعسرون أن مهمة الشريعة ليست المنع والحظر والتحريم، وإنما هى المنح، والإباحة، وحل كل شىء، وكل تصرف، وصحة كل معاملة، إلا حين يرد الدليل الفقهى على المنع والحظر والتحريم. . ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام - ١١٩] وخامس المبادئ أو المداخل فى الفقه الإسلامى البحث عن كل ما يفيد من فكر وتجارب الآخرين مسلمين وغير مسلمين. . قدماء ومحدثين. . فى بلاد الإسلام وغيرها من بلاد العالم. . والمبدأ أن «الحكمة ضالة المؤمن». . وليس شرطا لقبول نظام أو فكر أن يكون قد جرى العمل به فى صدر الإسلام. . المبدأ «حيث تكون المصلحة فثم شرع الله». . والعبرة فى التشريع بالمقاصد وليست بالألفاظ.

هذه هى مبادئ الفقه الإسلامى كما عددها الدكتور أبو المجد، عقول منفتحة وليست مغلقة. . وإرادة التطور هى المحرك. ، ومعايشة الجديد فى العلوم والنظم الاجتماعية. . وعدم الانفصال عن الواقع. . فليس الدين شيئا معزولا عن حياة الناس ولكنه أساسها وجوهرها. .

هل الإسلام ضد مبدأ المساواة..؟

شيء غريب أن يتردد في كتابات الغربيين أن الإسلام ضد مبدأ المساواة بين البشر، وربما يكون ذلك تحت تأثير دراساتهم للفكر اليهودى الذى يفرق بين «اليهود» ويعتبرهم مخلوقات تستحق التكريم والسيادة، وبين «الأغيار» أى غير اليهود ويعتبرهم مخلوقات خلقها الله لتكون أدوات ووسائل لليهود. السيادة لليهود.. والمهانة لغيرهم. أما الإسلام فإنه قائم على المساواة بين البشر جميعا لأنهم من أصل واحد:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾. [النساء -١]واختلاف البشر نعمة ليكون سببا لتبادل المصلحة والمعرفة والتجربة وليس سببا للصراع: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾. [الحجرات - ١٣]

وقد حرص الرسول ﷺ قبل أن يترك الدنيا على أن يغرس هذا المعنى الجليل في عقول وقلوب المؤمنين من بعده فقال: «أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى فضل إلا بالتقوى».

هكذا جاءت العقيدة الإسلامية بمبدأ المساواة بين البشر في كل شيء.. المساواة السياسية والاجتماعية.. والمساواة في الكرامة.. والمساواة في الحقوق والواجبات.. والناس سواسية كأسنان المشط.. لا تفرقة.. جاء هذا في وقت لم تكن فيه الإنسانية تعرف المساواة، وكانت تعيش في عصر العبودية والإقطاع واستبداد القوى بالضعيف..

المساواة أصل في العقيدة والأخلاق، وفي النظام الاجتماعي والتشريعي.. فلماذا المغالطة والتشويه للإساءة إلى الدين الإسلامي، وإلى الحضارة الإسلامية، وإلى الثقافة الإسلامية، وإلى كل المسلمين..؟

وحتى لو كان الهدف في الغرب هو التمهيد واختلاق أسباب للعدوان على الشعوب الإسلامية، فلماذا لا يسفر هذا العدوان عن وجهه الحقيقي ودوافعه

الحقيقية، وهى دوافع وأهداف سياسية.. وأطماع اقتصادية.. لماذا يتجه العدوان والتشويه إلى الدين الإسلامى ذاته، ولا يكتفى بالهجوم على المسلمين ؟

هل لأن جماعات من المسلمين انحرفت عن الفهم الصحيح للإسلام وترتكب جرائم باسمه. .؟

وهل هناك دين يدعو إلى الانحراف والجريمة. .؟

أو لأن هناك مجتمعات إسلامية تهدر حقوق الإنسان. .؟

وهل ذلك مرتبط بتخلف هذه المجتمعات اجتماعيا وحضاريا وثقافيا أو مرتبط بتمسكها بالإسلام. ؟

وهل هذا الادعاء صحيح أو هو غطاء ووسيلة لإسكات المطالبين بالإصلاح. .؟

وهل سلوك المسلمين جميعا. أو سلوك المسيحيين أو اليهود جميعا ترجمة دقيقة وكاملة لشرائعهم. .؟

أليس من العقل أن يفرق الغرب بين الإسلام كدين وبين المسلمين كبشر. . وبين الحق والباطل فى دعاوى من ينتسبون للإسلام بدلا من التعميم وإلصاق التهمة بالجميع. .؟

ومادام الغرب قد اختار ميدان العقيدة لإعلان الحرب على الإسلام والمسلمين. . فلابد أن يحتشد المفكرون المعتدلون الكبار لمواجهة هذا العدوان الجديد الذى يهدد مستقبل الإسلام والمسلمين. .

هل سيبقى الإسلام والمسلمون في قفص الاتهام ؟!

في رسالة مختصرة قال لى الدكتور وجيه شندى وزير السياحة الأسبق، ورئيس الجمعية المصرية لخريجي الجامعات الأمريكية: إنه كان في الولايات المتحدة أثناءالاعتداء على مبنى التجارة العالمى والبنتاجون فى الحادى عشر من سبتمبر، ولمس بنفسه كيف استطاعت بعض أجهزة الإعلام ذات الاتجاهات السياسية المغرضة إلصاق صفة الإرهاب بالعرب والمسلمين .

وقال إنه رأى اللوبى اليهودى فى أمريكا وقد استغل هذا الحادث ليقدم للرأى العام الأمريكى صورة مضللة عن حجم المعاناة التى يعيش فيها الإسرائيليون منذ أكثر من خمسين عاما محاصرين وسط «الأعداء» المحيطين بهم من كل جانب، وكيف يتحملون المتاعب والتضحيات وهم يتعاملون مع النشاط الإرهابى المحيط بهم من خطف الطائرات، وتفجير المبانى، إلى قتل المدنيين... ولبراعة الإعلام الأمريكي ومقدرته على قلب الحقائق، وإقناع الناس العاديين بالأكاذيب، استطاع اللوبى اليهودى أن يؤثر فى الرأى العام. والمعروف أن معظم الشعب الأمريكى لايعرف كثيرا أو قليلا عن الإسلام أو العرب ولا يتابع أو يهتم بمعرفة الحقيقة فى الصراع العربى الإسرائيلى. . وهو شعب لا يهتم بما يجرى خارج بلاده. . ولايتعب نفسه فى البحث عن الحقيقة ويكتفى بما يقال له فى التليفزيون ويصدقه على أنه الحقيقة. . وهو عموما شعب مشغول بحياته اليومية وأموره الخاصة وليس مشغولا بالسياسة الخارجية. . فيما عدا قلة محدودة من المشتغلين بالسياسة والدراسات الاستراتيجية. . وهذا ما أعطى الفرصة لخبراء الإعلام المعادين للعرب والإسلام والمسلمين لينصبوا أنفسهم خبراء وعالمين ببواطن الأمور فى العالمين العربى والإسلامى، وخبراء فى التعامل مع الإرهاب «الإسلامى». !

وقال الدكتور وجيه شندى أيضا: إن بعض العرب الذين دعوا للحديث فى وسائل الإعلام الأمريكية عن موقف الدول العربية، وعن موقف الإسلام والمسلمين من أحداث سبتمبر لم تسعفهم اللغة الإنجليزية فى التعبير بدقة عن وجهات نظرهم، فضلا عن قلة دراية بعضهم بالأساليب الفنية للحديث فى وسائل الإعلام، وبالتالى لم يستطيعوا إقناع المشاهدين والمستمعين وبعضهم حقق نتائج عكسية .

وقد نوقش هذا الموضوع فى مجلس إدارة الجمعية المصرية لخريجى الجامعات الأمريكية المصرية، واتفق الجميع على عقد ندوات متخصصة يتحدث فيها نخبة من كبار المفكرين والأساتذة . الأولى بعنوان «نحو فهم جديد للإسلام» والثانية عن «الإسلام والعالم العولمى» والثالثة عن «الإسلام والآخر» والرابعة عن «مفهوم الجهاد والحرب العادلة فى الإسلام»، والمتحدثون فى هذه الندوات من المصريين والعرب، ولكنها ستكون باللغة الإنجليزية حتى يمكن للمدعوين إليها من ممثلى السفارات الغربية والصحافة وشبكات التليفزيون العالمية نقل جانب مما سيدور فيها .

وقد توقفت طويلا أمام ماقاله الدكتور وجيه شندى لأنه شخصية معروفة بالاعتدال والتوازن فى أقواله وأحكامه، ولا يمكن أن يصل إلى هذه الدرجة من الانزعاج مما رآه وسمعه فى الولايات المتحدة إلا إذا كان قد أدرك بيقين أن الأمر قد وصل إلى درجة الخطر، ووجد نفسه - مع زملائه - مضطرين للتحرك على قدر إمكانهم وفى حدود قدراتهم، مادامت الدول العربية، والجامعة العربية، والمؤسسات العربية ذات الطنين الشديد والصخب الفارغ، لم تتحرك فى الوقت المناسب .

والجمعية المصرية لخريجى الجامعات الأمريكية تضم مجموعة من صفوة المصريين الحاصلين على الدكتوراه من الجامعات الأمريكية المعترف بها، ومضى على حصولهم على الدكتوراه عامان على الأقل، أى إنهم من النخبة المتعلمة المثقفة. عاشوا فى الولايات المتحدة ولديهم تجارب وخبرات تجعلهم قادرين على فهم المجتمع الأمريكى، والشعب الأمريكى، والعقلية الأمريكية، وفهم

ما يجرى هناك تحت السطح، بعيدا عن التصريحات الوردية التى يطلقها الرسميون عادة للاستهلاك المحلى، أو الاستهلاك الخارجى .

وقبل ذلك بأيام كانت الإذاعة البريطانية (بى. بى. سى) قد أذاعت تقريرا من نيويورك بعنوان «جالية تحت الحصار» قال فيه مراسلها ريان ديلى: إن المسلمين فى أمريكا قد أصبحوا هدفا للغضب نتيجة هجمات سبتمبر، والاعتقاد بأن أسامة بن لادن هو المتهم الأول فى هذه الهجمات التى هزت أمريكا، حتى إن عربيا صاحب مقهى اسمه «مقهى كابول» كان يرتجف، وقد علق العلم الأمريكى بحجم كبير جدا على واجهة المقهى، بعد أن تزايدت موجات الاعتداء بالسباب والضرب على المسلمين الأمريكيين خاصة من ينتمى منهم إلى أصول عربية، وأصبحت حوادث الاعتداء عليهم فقرة لا تخلو منها نشرات الأخبار. وإن كان صاحب المقهى قد قال: إن ما يطمئنه تعهد عمدة نيويورك الذى أعلنه فى التلفزيون بعدم التهاون مع أية جريمة ضد المسلمين، ووجود الشرطة الدائم أمام المقهى .

ويقول التقرير أيضا: إن أحد العاملين فى مسجد فى نيويورك قال لمندوب الـ(بى. بى. سى) إن جرس التليفون يدق فى منزله ويقول له أشخاص على الطرف الآخر: إنكم خونة. . اخرجوا من هذا البلد . بالإضافة إلى إساءات لفظية كثيرة يتعرض لها المسلمون، وإن كانت الإهانات والشتائم توجه إليهم قبل هذه الأحداث، إلا أنها زادت بعدها .

ويقول تقرير الـ (بى. بى. سى): إن الخوف من الانتقام دعا كثيرا من المسلمين والعرب إلى تقييد حريتهم والإقلال من تحركهم وتفضيل البقاء فى البيوت، حتى إن عدد الذين يحضرون صلاة الجمعة انخفض إلى النصف. وقال أحد المسلمين واسمه محمد منير: إنه هووزوجته وابنه البالغ من العمر سبعة أعوام ليست لديهم الجرأة على مغادرة المسكن فى بروكلين بنيويورك .

وفى التقرير أيضا أن أمام مدخل المسجد توضع أكوام من صحيفة «ميرور انترناشيونال» الأسبوعية، وفى الصفحة الأخيرة منها نصائح للمسلمين المقيمين فى أمريكا منها: ألا يخرجوا إلا فى جماعات تفاديا لأى هجوم، وأن يهيئوا أنفسهم لأية مضايقات فى المطارات، وإذا تلقوا أية إساءات فعليهم أن يتذكروا

موقف الرسول عندما أهين فى الطائف، وكانت نصائح إمام المسجد للمصلين المسلمين الأمريكيين: لا تورطوا أنفسكم فى أية عملية شراء سلاح للدفاع عن أنفسكم، وإذا عرض عليكم شخص سلاحا فاعلموا أن تلك حيلة، يهدفون من ورائها إلى إيجاد ذريعة لسجنكم باعتباركم إرهابيين. ويوجه إمام المسجد نصائحه للنساء اللآتى يغطين شعورهن قائلا: إذا أرادت أخواتنا ألا يتعرض لهن أحد فعليهن الاكتفاء بربط شعورهن .

وقال إمام المسجد أيضا: إن تغطية التليفزيون الإخبارية التى تكررت تحت عنوان «الحرب الجديدة لأمريكا» تثير مشاعر العداء للمسلمين، وعندما يستثار الناس فإنهم يقتلون، ويفجرون القنابل، ويدمرون المبانى، ونحن لن ندع الآخرين يؤذون نساءنا وأطفالنا . ويقول إمام المسجد إن من بين ضحايا مركز التجارة العالمى مسلمين . ولكن لا يذكرهم أحد .

وهكذا يمضى تقرير (بى. بى. سى) يصور الرعب الذى يعيش فيه المسلمون الأمريكيون. . ويعبر عن هذا الخوف صاحب محل فى حى كوينز فى نيويورك، وآخر فى شارع ستانيواى الذى يعتبر حى الأمريكيين من أصول عربية، ويشير التقرير إلى محلات مغلقة وعلى بعضها لافتات: «سنعود لفتح المحل إن شاء الله» .

يتحدث التقرير باستفاضة عن المشاعر المعادية للمسلمين . وفى الوقت نفسه صدرت أقوال من شخصيات أمريكية مهمة تدعو للقلق. .

مارتن انديك سفير الولايات المتحدة السابق فى إسرائيل والمسئول بوزارة الخارجية قال فى كلمة له أمام معهد بروكينجز بواشنطن: إن النظم العربية فضلت توجيه المعارضة ضدنا. وصحيفة «واشنطن بوست» تقول: إن الحكومات العربية التى تدعى تأييد الحملة الأمريكية ضد الإرهاب، وتطالب الولايات المتحدة بالضغط على إسرائيل، وبعدم توجيه ضربات للعراق، هى أكبر سبب للتطرف والإرهاب .

وعندما اشتدت حملة الكراهية والعداء بدأت الإدارة الأمريكية فى اتخاذ خطوات على المستوى الرسمى لإنقاذ الموقف، ولإظهار التعاطف مع الإسلام والمسلمين، بينما استمرت حملة العداء والكراهية إعلاميا وسياسيا. .

وفى شهر رمضان عام ٢٠٠٢ استضاف وزير الخارجية كولن باول ١٣٠ من قيادات الأمريكيين المسلمين والعرب وعددا من كبار المسئولين فى وزارة الخارجية وفيهم عدد من المسلمين، وأدى المسلمون صلاة المغرب فى قاعة خاصة، ثم تجمعوا على مائدة رمضانية. . وتعهد كولن باول بأن تتصدى الحكومة الأمريكية لأى تمييز ضد المسلمين، وقال إن الأحداث الأخيرة ربما تكون قد فتحت المجال أمام كثير من الأمريكيين لكى يتعلموا شيئا عن الإسلام والمسلمين، لأنه مازال هناك الكثير من الجهل والبلبلة حول الإسلام، وعلى مسلمى أمريكا أن يعملوا على توعية الأمريكيين من غير المسلمين بحقيقة الإسلام ومعتقداته وتقاليده .

وكان وزير الخارجية الأمريكى قد حرص على تنفيذ توصيات الخبراء بمنتهى الدقة. . فقد استهل الإفطار بإقامة الأذان من إمام جامع جورج تاون، ثم قرأ آيات من القرآن الكريم، وألقى الإمام كلمة شكر فيها الوزير على هذه الدعوة للوصول إلى الجاليتين العربية والإسلامية الأمريكية، وقام الوزير بتكريم ثلاثة من المسلمين الأمريكيين فى نيويورك ممن أسهموا إسهاما يستحق التقدير-كما قال - فى إنقاذ ضحايا الحادث الإرهابى على مبنى مركز التجارة العالمى-ووصف هؤلاء الثلاثة بأنهم «أبطال ١١ سبتمبر» وهم: عادل منتصر بدائرة شرطة نيويورك الذى قال عنه كولن باول إنه ساعد فى إنقاذ الأرواح من بين الأنقاض، كما ساعد على حفظ الأمن فى الموقع بعد الحادث مباشرة. وعادل منتصر شاب أمريكى مسلم من أصل يمنى فى العشرينات خدم فى سلاح البحرية الأمريكية، وعمل موظفا بخدمات المطافئ فى نيويورك، وكان ينقذ الأرواح ويساعد الجرحى فى أعقاب الحادث. والثانى الذى امتدحه الوزير الأمريكى هو إدريس بى موظف خدمات فى الطوارئ الطبية فى المطافئ فى نيويورك، وقال عنه كولن باول: إنه بذل جهدا خارقا لإنقاذ الأرواح، والثالث هو الشيخ إسحق الباشا إمام مسجد بنيويورك، وقال عنه كولن باول: إنه كان يعمل ليل نهار دون توقف لعدة أيام بعد الحادث يواسى أسر الضحايا وينظم الجنازات. .

وقال كولن باول: إن أمريكا أمة متعددة الأعراق، وهى بلد مكون من عناصر من شعوب من كل أنحاء العالم، ومن كل معتقد ودين، وهذه التعددية مصدر قوة وليست مصدر ضعف، وهى مصدر نجاح وليست مصدر فشل وإن أمريكا بلد يستمد قوته من كل بلاد العالم، كما يسهم فى كل بلاد العالم.

وقال وزير الخارجية أيضا فى هذه الليلة: «إن هذا قد يكون أول رمضان يمكن أن يكون فيه كثير من الأمريكيين غير المسلمين قد تعلموا فيه شيئا عن الأهمية العظيمة لشهر رمضان».

والغريب أن كولن باول عاد وكرر فى حديثه القول بأنه مازال فى أمريكا الكثير من الجهل والبلبلة حول الإسلام، وهذا يعطى لنا - نحن غير المسلمين - فرصة لأن نتعلم من المسلمين شيئا عن الإسلام، وفرصة أيضا للتواصل مع الأمريكيين غير المسلمين لتعريفهم بالإسلام، لكى يزيد تقدير أحدنا للآخر، ولتشجعوا الآخرين على أن يتحدثوا معكم عن معتقداتهم أيضًا.

وكان حديث كولن باول مؤثرا للغاية عندما اعترف بما يلاقيه المسلمون وقال: إنه أثناء الطعام استمع إلى قصص معاناة المسلمين «لأننى أنا شخصيا أحد أبناء الأقليات، وقد عوملت أيضا فى حياتى على أساس الصورة النمطية (للسود).. ولن أنسى أبدا خلفيتى، ولن أنسى ما فعله أولئك الذين ضحوا قبلى لكى أصل اليوم إلى منصبى الحالى».

هكذا جمع وزير الخارجية الأمريكى بين الاعتراف بما يلاقيه العرب والمسلمون الأمريكيون وما يلاقيه السود فى المجتمع الأمريكى. وقال أيضا «سأبقى ما حييت متفهما لقضاياكم بالنسبة للمعاملة والتمييز على أساس الصورة النمطية» (أى الاضطهاد لمجرد أن الشخص مسلم أو عربى على أساس الصورة النمطية فى العقل الأمريكى بأن كل عربى وكل مسلم إرهابى).

وكان من بين حضور هذه المناسبة جيمس زغبى رئيس المجلس العربى الأمريكى ونائب رئيس اللجنة الأمريكية لمكافحة التمييز، والدكتور يحيى

باشارئيس المجلس الأمريكي الإسلامي، وعمر أحمد رئيس مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية.

وكان حفل الإفطار وحديث كولن باول محاولة لإلقاء حفنة من الرمال على النار المشتعلة كما قال المدعوون. فهل انطفأت النار المشتعلة ضد العرب والمسلمين في أمريكا أومازالت مشتعلة وذهب الحفل والكلام أدراج الرياح. .؟

وعندما جاء عيد الفطر دعا الرئيس الأمريكي جورج بوش عددا من الشخصيات المعروفة من العرب والمسلمين الأمريكيين إلى البيت الأبيض ليقدم لهم الكعك والتهنئة بالعيد.

وقبل ذلك زار الرئيس الأمريكي المركز الإسلامي وتحدث عن سماحة الإسلام. .

ولكن حملة العداء والكراهية للعرب والمسلمين ظلت مشتعلة إعلاميا وسياسيا وفي تصرفات العامة من الأمريكيين يغذيها اللوبي اليهودي كما سنرى فيما بعد.

وأصبح على الإسلام والمسلمين والعرب أن يقفوا موقف الدفاع في مواجهة هذه الحملة القوية المنظمة التي تشوه صورة الإسلام في العقل الغربي بمختلف الأساليب مستغلة الحرب الأمريكية على الإرهاب، ووجود جماعات وأفراد مسلمين متهمين بالإرهاب. ويصورون كل مسلم وكل عربي وكل رافض للاحتلال الإسرائيلي على أنه إرهابي، حتى إن شارون وجد في نفسه الجرأة ليقول بأن عرفات (المناضل من أجل تحرير أرضه من الاحتلال) إرهابي مثل أسامة بن لادن!

ولا تتحدث أمريكا عن عشرات القرارات التي أصدرتها الأمم المتحدة باعتبار الضفة الغربية كلها والقدس الشرقية أرضا محتلة، وعدم شرعية الإجراءات الإسرائيلية التوسعية فيهما، ولا تتحدث عن المقدسات الإسلامية التي تتعرض للاغتصاب والإهانة من الاحتلال الإسرائيلي وأولها الحرم القدسي الشريف. ولا يتحدث أحد في أمريكا عن قرارات الأمم المتحدة

باعتبار جميع معالم القدس الشريف وشواهدها ومبانيها التاريخية ضمن التراث الثقافى الإنسانى الذى لا يجوز المساس به، أو تغيير معالمه، أو تزييف حقيقته التاريخية.

ولا يتحدث أحد فى أمريكا.. كما لا يتحدث أحد فى أوربا عن القرار الغريب الذى اتخذته الأكاديمية السويدية بمنحها جائزة نوبل فى الآداب لعام ٢٠٠١ للكاتب البريطانى ذى الأصل الهندى أ. س. نايبول وهو كاتب أهم ما يميز كتاباته مهاجمة الإسلام والمسلمين والدعوة إلى الكراهية بين الشعوب، ويسعى بكتاباته إلى تأجيج الصراع بين الثقافات والحضارات مما يتعارض مع المواثيق والإعلانات والتعهدات الدولية، ويتعارض أيضا مع القيم الإنسانية والمبادئ التى تقوم عليها جميع الأديان.. وهذا ما قاله كتاب غربيون فى نقد قرار الأكاديمية السويدية وكأنها أرادت أن تعلن هى الأخرى موقفها المعادى للإسلام والمسلمين.

وتحت ضغط الشعور بخطورة حالة العداء للعرب وللإسلام والمسلمين تحركت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، (إيسيسكو) وقررت عقد ندوة دولية متخصصة حول موضوع «صورة العالم الإسلامى فى الإعلام الغربى بين الإنصاف والإجحاف» فى الرباط يومى ٩ و ١٠ يناير ٢٠٠٢.

وقال المدير العام للمنظمة الإسلامية الدكتور عبد العزيز التويجرى: إننا نعيش فى عصر تزدهر فيه الحريات وحقوق الإنسان، وتتعالى فيه أصوات حكماء العالم ومحبى السلام بنداء لإقرار مبدأ ديمقراطية العلاقات الدولية، وإقرار مبادئ القانون الدولى، ومطالبة المجتمع الدولى بالحوار والتعايش بين الأمم والشعوب.. ولكن دوائر الإعلام الغربى ووسائله المختلفة وعلى جميع المستويات تعمل على ترويج صورة نمطية بالغة التشويه، قاتمة الملامح، عن العالم الإسلامى كله، وعن الإسلام والمسلمين جميعا، وعن كل ما يمت بصلة إلى المجتمعات الإسلامية فى كل مكان، سواء فى البلاد الإسلامية، أم فى بلاد الأقليات والجاليات الإسلامية.

وقال الدكتور التويجرى أيضا: إن العالم الإسلامى يتعرض فى المرحلة الراهنة إلى هجوم إعلامى كثيف موصول الحلقات، يهدف إلى الطعن والتزييف والتشويه فى الثوابت المتصلة بالعقيدة والحضارة الإسلامية، وبالأوضاع العامة فى البلاد الإسلامية، فى جوانبها السياسية، والأمنية والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والفكرية. وهذه الحملات المغرضة على العالم الإسلامى فى معظم وسا ئل الإعلام الغربية هى بكل المقاييس خرق للقوانين الدولية، وتجاوز للتقاليد المهنية للإعلام الحر والصادق والموضوعى، مما يتعارض مع أخلاقيات الإعلام. وهذه الحملات الظالمة ضد الإسلام والمسلمين، التى تكاد تعم وسائل الإعلام الغربية أصبحت تمارس على مستوى عال من الانحياز والعدوان على حقوق الإنسان، وتعمل على تزييف المفاهيم الإسلامية، وتشوه حقائق هذا الدين العظيم، وقداستغلت فى ذلك الأحداث الإجرامية فى ١١ سبتمبر. .

وقال تعبيرا عن انزعاج المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة: قررت عقد هذه الندوة لبحث ظاهرة الكراهية والعداء ضد المسلمين بصورة عامة، وضد كل ما له أدنى صلة بالعالم الإسلامى، على المستويات السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية والإعلامية على نحو لم يسبق له مثيل، وقد أصبحت موجات العداء والكراهية هذه تهدد المصالح العليا للعالمين العربى والإسلامى، وتلحق الأضرار بالدول الإسلامية جميعا ودون استثناء.

وقال مدير المنظمة الإسلامية: إن موجات الكراهية والعداء فى الدوائر الغربية ضد العالم الإسلامى قوبلت أحيانا بنوع من الاعتراض من طرف شخصيات غربية مسئولة، ومن بعض المفكرين الغربيين الأحرار. إلا أن ذلك لم يؤثر على الظاهرة فى مجملها، ولا تزال صورة العالم الإسلامى فى الإعلام الغربى منحازة لا تعكس حقيقة الإسلام، ولا تبرز جوهر الحضارة الإسلامية، ولا تعبر بأمانة أخلاقية ونزاهة مهنية عن روح الإسلام الحقيقية. .

ما هى الأسباب الحقيقية والعميقة لحالة الكراهية والعداء للإسلام والمسلمين والعرب. .؟

لابد من البحث عن الجذور والدوافع، ولابد من كشف القوى الخفية وراءها، وهذا يقتضى تجمع كل المؤسسات الإسلامية والثقافية والعلمية فى الدول العربية والإسلامية. .

ولابد أن نبحث بالتفصيل موقف الإعلام الغربى من العالم الإسلامى ومن الدين والحضارة الإسلامية.. ونحلل ما ينشر ويذاع فى الغرب لنرى ما فيه من انحياز فى تغطية الأحداث التى تتعلق بالعالم الإسلامى. . ولابد أن نفهم تأثير المواقف السياسية للدول الغربية فى صياغة الأخبار والتحليلات والمقالات والبرامج فى وسائل إعلام هذه الدول. . وأخيرا علينا أن نبحث: كيف نوجد مجالا إعلاميا حرا ومنصفا يقول الحق ويواجه صناعة العداء للإسلام؟

علينا أن نعمل الآن. . دون تأجيل أو انتظار. .

ونعمل معا. . جميعا. . كل المؤسسات الإعلامية والفكرية والثقافية والدينية فى كل الدول الإسلامية. .

وإذا لم نعمل بقوة. . وبسرعة. . وباستمرار. . فلا نلوم إلا أنفسنا فيما يحدث وما سيحدث لنا!.

ماذا يعلمون التلاميذ فى بريطانيا عن الصراع العربى الإسرائيلى؟

فى الولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية يقولون: إن مناهج الدراسة فى الدول العربية والإسلامية هى التى تكون عقلية الإرهاب، وتغرس الكراهية نحو «الآخر» سواء كان هذا «الآخر» هو الغرب أم إسرائيل.. ويطالبون بتغيير المناهج التعليمية لتربية الأجيال الجديدة من العرب على حب أمريكا والأمريكيين، وحب إسرائيل والإسرائيليين.

الغريب أنهم يطلبون ذلك من العرب والمسلمين ولا يطلبون ذلك من إسرائيل. . لايطلبون تغيير المناهج التى يدرسها التلاميذ فى المدارس الإسرائيلية بما فيها من مغالطات تاريخية وتشويه لحقائق الصراع العربى الإسرائيلى، وتصوير العرب على أنهم أعداء ومعتدون ويستحقون القتل والطرد والكراهية، وتصوير الإسرائيليين على أنهم الطيبون المعتدى عليهم وأصحاب الحق فى فلسطين، بينما الفلسطينيون هم الدخلاء! .

والأغرب من ذلك أن بعض الدول الإسلامية تتعرض لهجوم فى الصحافة الأمريكية بادعاء أنها تنشر «الإسلام المتزمت» حول العالم، وتمول وتشجع عناصر وتنظيمات إرهابية، وفى أول أبحاث المفكر الأمريكى فرانسيس فوكوياما عن «نهاية التاريخ» قال: إن حركة التاريخ انتهت فى لحظة انهيار الاتحاد السوفيتى وانفراد الولايات المتحدة بقيادة العالم، وإن الصراع القادم بعد ذلك سيكون بين «الغرب» من ناحية والإسلام والمسلمين من ناحية أخرى، وفى آخر أبحاثه قام بتطوير هذه الفكرة بصياغة جديدة لتمريرها فى عقول المسلمين، فذكر أن الصراع الحالى ليس صراعا ضد الإسلام كدين وحضارة، ولكنه صراع مع «الفاشية الإسلامية» والفاشية الإسلامية فى تفسيره هى الأفكار الإسلامية

الراديكالية المتزمتة وغير العصرية التى انتشرت فى العالم الإسلامى، وقالت صحيفة «الشرق الأوسط» السعودية التى تصدر فى لندن: إن «إصبع الاتهام تتجه بقوة إلى السعودية».. وهذا ما دعا الصحيفة إلى نشر حديث مع وزير التعليم العالى السعودى الدكتور خالد العنقرى تعليقاً على نظرية فوكوياما الجديدة التى تمهد لفصل جديد من العداء بين «الغرب» والإسلام والمسلمين عموما، والسعودية خصوصا، فقال الوزير: «إن فهم فوكوياما للإسلام والقرآن الكريم يبدو مشوها، مثل فهم أسامة بن لادن، وأسامة بن لادن ليس «وهابيا»، وكل ما حصل عليه من تعليم دينى لم يزد على ٨ ساعات، وليس فى السعودية كتاب يدعو إلى مثل هذه الأشياء اليوم، ويقصد ما ذكره فوكوياما من أن كتابا يدرس فيه تلاميذ الصف العاشر فى السعودية «أنه على جميع المسلمين التزام دينى بالولاء إلى بعضهم البعض، واعتبار الكفار أعداء لهم».

هكذا يعملون الآن على اصطياد كلمة أو جملة فى مقرر دراسى لادعاء أن الدول العربية تنشئ أبناءها على كراهية «الآخر» وتملأ نفوسهم بالرغبة فى الانتقام والاعتداء عليهم، وإذا لم يجدوا كلمة أو جملة ادعوها زورا وبهتانا كما فعل فوكوياما، وكشف وزير التعليم العالى السعودى هذا الزيف، وأضاف إلى ذلك قوله: إن خلفية فوكوياما لا تؤهله لعمل مهم مثل تفسير القرآن الكريم، وإذا كان تفسير الدستور الأمريكى يحتاج إلى علماء متخصصين، ويختلف المفسرون له بين متشدد وليبرالى، فإن ذلك أولى بالنسبة للقرآن الكريم وتفسيره. وفوكوياما ليس دارسا للأسباب والظروف وراء كل آية لكى يستوعب مضمونها ومعناها، وهو لا يدرك أن القرآن الكريم يجب النظر إليه نظرة شاملة ولا ينظر إليه نظرة انتقائية تخدم مصالح الشخص ووجهة نظره.

من ناحية أخرى لم يفكر فوكوياما أو غيره فى دراسة الكتب، والمناهج التى تدرس لتلاميذ المدارس فى إسرائيل، وتفسير التوراة، وكتب التاريخ بالذات، وكلها مليئة بالأكاذيب والمغالطات، وبروح العداء والكراهية والعدوانية.

كذلك لم يفكر فوكوياما أو غيره فى ذكر ما فى كتب ومناهج الدراسة فى الولايات المتحدة من الانحياز ضد العرب والمسلمين، سواء فى شرح وقائع التاريخ، أم فى تعليم الأمريكيين أسباب وتطورات الصراع العربى الإسرائيلى،

ومن ذلك أن أحد كتب التربية الاجتماعية المقررة على التلاميذ فى الولايات المتحدة تذكر صراحة أن سبب توتر العلاقات بين العرب والولايات المتحدة يرجع إلى انحياز أمريكا ومساعداتها العسكرية والسياسية والمالية لإسرائيل فى صراعها مع العرب !.

ومن دراسة أكاديمية للدكتور أحمد اللقانى أستاذ المناهج تتناول كيفية تدريس الصراع العربى الإسرائيلى فى منهج التاريخ لتلاميذ المرحلة الثانوية فى بريطانيا، نكتشف أن هذا المنهج ملىء بآراء ووجهات نظر مغايرة للحقيقة يتعلمها الطالب البريطانى وتنتقل إلى مجتمعات أخرى عن طريق الذين يدرسون المناهج البريطانية داخل وخارج بريطانيا وما أكثرهم، وهذا ما يؤدى إلى تكوين رأى عام معارض للحقوق الفلسطينية ومشبع بوجهة النظر الإسرائيلية وجاهل بوجهة النظر بالمواقف العربية.. وتكشف هذه الدراسة أن تعليم التلاميذ البريطانيين لتطورات الصراع العربى الإسرائيلى يفتقد الموضوعية، ولا يعرض وجهات النظر المختلفة، ومن هذه الدراسة أيضا نفهم لماذا يتكون الرأى العام فى بريطانيا بالصورة التى نشكو منها؟ ولماذا يشعر كثيرون فى بريطانيا بجفاء تجاه العرب والمسلمين.. على الرغم مما يبدو على السطح من توازن فى السياسة الرسمية أو فى بعض وسائل الإعلام؟

وأهمية هذه الدراسة أنها تمت تحت إشراف أستاذين بقسم التاريخ بمعهد التربية بجامعة لندن هما البروفيسور (دبليو. هـ. بيرستون) والبروفيسور (د. طومسون).. ومن خلال تحليل محتوى المنهج الذى يدرس للتلاميذ نجد أن كتاب التاريخ ركز على انتماء العرب واليهود إلى أرض فلسطين دون الإشارة إلى مراحل التطور الأخرى التالية التى أدت إلى ظهور المشكلة الحقيقة، كما يركز على أن المشكلة فى أساسها ترجع إلى أن كلا من اليهود والفلسطينيين لهم الحق فى أرض فلسطين، ولم يذكر الكتاب دليلا تاريخيا واحدًا لإثبات الحقائق المتعلقة بجذور المشكلة، بينما يشرح أحقية اليهود فى المنطقة، ويكتفى ببعض تلميحات للموقف العربى بصفة عامة وخاصة من الناحية الدينية، أما الموقف المصرى فلا ذكر له، وملحق بالكتاب فيلم يشاهده التلاميذ كوسيلة من وسائل الإيضاح يركز على توحيد القدس كما لو كانت المشكلة كلها هى مدينة القدس فقط، دون

ذكر لاغتصاب الأراضي الفلسطينية بالقوة، وإقامة المستوطنات عليها بالمخالفة لقرارات الشرعية الدولية، ودون ذكر للاتفاقات التى سبق لإسرائيل التوقيع عليها والتى تقر فيها ببعض حقوق الفلسطينيين.

ويشير المنهج إلى أن الدول الأوربية أصبحت أكثر اهتماما بمنطقة الصراع مع نهاية القرن التاسع عشر، وكان العرب فى ذلك الوقت خاضعين للحكم التركى وبدءوا فى السعى إلى التحرر منه، وتعاونت أمريكا وأوربا على إنشاء الوطن القومى لليهود، ويبين أن وجود اليهود فى القدس يرجع إلى التاريخ القديم، وفى الكتاب صورة للقاء بين وايزمان وبلفور فى القدس سنة ١٩٢٥، وبعده سيرة ذاتية لتيودور هرتزل وأهداف الحركة الصهيونية كما عرضها هرتزل فى إعلان مؤتمر بازل بسويسرا سنة ١٨٩٧، ثم السيرة الذاتية لهرتزل وجهوده فى سبيل الحركة الصهيونية.

والفصل الخاص لدراسة «أصول الصراع» لم يعرض أصول الصراع، ولم يذكر محاولات بريطانيا للسيطرة على المنطقة، والجانب الخاص بالحركة الصهيونية يتضح منه التحيز الواضح، إذ يشرح أصولها وأهدافها وفلسفتها والجهود التى بذلت من أجل الوطن القومى اليهودى، مع التركيز على الاضطهاد الذى تعرض له اليهود حتى يبدو كما لو كان اليهود هم أصحاب الحق فى المنطقة وهم الذين تعرضوا للاغتصاب! ، ودون عرض لموقف الفلسطينيين وحقوقهم فى وطنهم، وفى الكتاب خريطة تبين تاريخ اليهود فى الدول الأوروبية فى محاولة لإثبات حقهم التاريخى فى أرض فلسطين، بينما لا يتضمن فى مقابل ذلك خريطة تبين علاقة العرب الفلسطينيين بوطنهم، وبدلا من ذلك نجد خريطة تبين الدول العربية والإسلامية فى أقصى اتساع لها فى العصور الوسطى، للإيحاء بأن الفلسطينيين يمكن أن يجدوا الأرض الواسعة أمامهم خارج فلسطين. وأهم من ذلك أن خريطة الدول العربية هذه جاءت بلا حدود سياسية تحاشيا لبيان موضع فلسطين، أوذكر اسمها، وفى هذا الفصل شرح لنظرة بريطانيا إلى الأهمية الاستراتيجية للمنطقة بسبب قناة السويس والبترول.

ويدرس التلاميذ فى هذا المنهج جانبا من كتاب هرتزل بعنوان «دولة يهودية» الذى نشر عام ١٨٩٦ مع نص آخر يدعو العرب للنهضة والاتحاد نشر عام ١٩٦٢.. ويبين هذا الجزء موقف الحركة الصهيونية والجهود التى قام بها هرتزل، دون توضيح كاف للموقف العربى إلا من خلال إشارات إلى بعض محاولات التحرر من سيطرة الحكم العثمانى ودون توضيح لموقف الدول العربية من الحركة الصهيونية وموقف مصر خاصة.

وحين يشرح المنهج تأثير الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ على تطور الأحداث فى المنطقة يشير إلى مخاوف بريطانيا من دخول روسيا فى دائرة الصراع فى المنطقة، وأن بريطانيا كانت تهدف إلى تدعيم القومية العربية من خلال مساعدة الشريف حسين، ودور الكولونيل البريطانى لورانس فى مساعدة العرب فى حربهم مع الحكم التركى ومساعدته لفيصل بن الشريف حسين، ويعرض المنهج بعد ذلك للاتفاق السرى بين إنجلترا وفرنسا لتقسيم ممتلكات الإمبراطورية العثمانية بينهما (اتفاق سايكس - بيكو) وينتقل إلى عرض الحركة الصهيونية وكيف أنها وجدت ترحيبا وتشجيعا من بريطانيا نتيجة لرغبة بريطانيا فى الحصول على مساعدة يهود الولايات المتحدة للضغط على الحكومة الأمريكية لدخول الحرب إلى جانب بريطانيا وفرنسا، بالإضافة إلى أن هناك من البريطانيين الرسميين من رأوا ضرورة وجود شعب موال لبريطانيا فى هذه المنطقة يكون قريبًا من قناة السويس، وفى ذلك محاولة لتبرير وعد بلفور الذى يعرضه الكتاب وكأنه كان ضرورة أو «حتمية تاريخية».

ولا يشير المنهج إلى الدوافع الوطنية وراء حركة الاستقلال فى العالم العربى، ويغفل ما ترتب على الاتفاق السرى بين إنجلترا وفرنسا من تمزيق الوطن العربى والتمهيد لزرع إسرائيل، ويعرض تعاطف وتشجيع بريطانيا مع الحركة الصهيونية بينما يخفى معالم الموقف العربى من هذه الحركة، ويعرض المطامع الروسية فى المنطقة، ومطالب الشريف حسين، واتفاق سايكس بيكو، ويتجاهل عرض أطماع إنجلترا وفرنسا فى المنطقة!.

ويكتفى المنهج بعرض سيرة الشريف حسين ولورانس ويغفل الشخصيات العربية الأخرى التى كان لها دور فى هذه المرحلة، ويتوسع فى شرح الاضطهاد

الذى تعرض له اليهود فى أوربا، ولا يشير إلى المجازر التى تعرض لها الفلسطينيون على أيدى العصابات الصهيونية قبل ١٩٤٨، والمجازر التى تعرضوا لها تحت الاحتلال الإسرائيلي بعد ذلك فيما عدا إشارة عابرة إلى مذبحة دير ياسين فقط دون ذكر المذابح الأخرى وما أكثرها ! .

والأفكار التى يسعى المنهج إلى غرسها في عقول التلاميذ هى أن بريطانيا كانت تقوم بدور حضارى، وتسعى إلى دعم القومية العربية وتحرير الشعوب العربية من الحكم التركى. وهذا دور لم تقم به بريطانيا، بل كانت لها أهداف ومصالح تسعى إليها ولا يشير إليها الكتاب.. كذلك يهدف المنهج إلى غرس فكرة أن وعد بلفور كان أمرا ضروريا لإنقاذ اليهود من الاضطهاد، مع إغفال أن ذلك كان على حساب ضياع حقوق الفلسطينيين فى وطنهم، والانطباع الذى يخرج به الطالب هو أن الفلسطينيين هم المعتدون وليس الإسرائيليين، وحين يشرح المنهج الخلفية التى مهدت لبدء الحرب بين الطرفين العربى والإسرائيلى يبدو كما لو أن بريطانيا اتخذت موقفا متوازنا، بينما يظهر اليهود كما لو كانوا مناضلين لاسترداد حقوقهم من لعرب، أما الموقف المصرى فلم يظهر على الإطلاق فى هذه المرحلة إلا من خلال بيان أهمية قناة السويس.

وحين يتحدث الكتاب عن فترة الانتداب البريطانى فى فلسطين يشير إلى الهجرات اليهودية ومساندة بريطانيا لها ويكرر الحديث عن اضطهاد الألمان لليهود، ويظهر عدم التوازن فى عرض المشكلات التى وقعت بين العرب واليهود وأسبابها، فيشرح حجج اليهود ويغفل حقوق الفلسطينيين، ولا يبين قمع القوات الإنجليزية للفلسطينيين فى احتجاجهم على تشجيع سلطات الانتداب البريطانى لهجرات اليهود، ويظهر عدم التوازن أيضا فى شرح الكتاب لأسباب قبول اليهود لقرار تقسيم فلسطين وإغفال أسباب رفض العرب له، ويوضح تطور الهجرات اليهودية إلى فلسطين دون إشارة إلى تطور الأوضاع السكانية فى فلسطين وأسبابها، كما لا يتحدث عن عمليات اغتصاب أراضى الفلسطينيين وطردهم وتهجيرهم، ويتحدث الكتاب عن تقسيم الإمبراطورية التركية كما لو كان ذلك قد تم بفعل فاعل مجهول، دون ذكر شيء عن الدور البريطانى فى هذا التقسيم الذى غرس بذور الخلافات على الحدود بين الدول والإمارات العربية، والمغالطة

فى الكتاب واضحة فى تفسير معنى الانتداب البريطانى على فلسطين، بحيث تبدو بريطانيا كما لو كانت تقود حركة نهضة الشعوب العربية وتطورها، وتبدو هجرات اليهود إلى فلسطين كما لو كانوا هم أصحاب الحق فى الأرض الفلسطينية، ويتحدث عن سياسة بريطانيا كما لو كانت تعبيرا عن قيامها بمسئوليتها وليس لتسهيل المزيد من الهجرات اليهودية والتمهيد لإعلان بلفور وقيام دولة إسرائيل، وليس فى الكتاب ما يشير إلى حقوق الفلسطينيين فى وطنهم، ولا حديث عن الظلم الذى تعرض له الفلسطينيون، والحديث كله عن الاضطهاد الذى تعرض له اليهود، ويظهر فى الكتاب كما لو كانت المنطقة خالية من أية استجابة وطنية للموقف البريطانى المنحاز للصهيونية والهجرات اليهودية وتمكين الإسرائيليين من السيطرة على المواقع المهمة فى أرض فلسطين.

هكذا يعلم منهج التاريخ البريطانيين أن دولة إسرائيل قامت فى أرض اليهود وموطنهم الأصلى، وفى الكتاب صورة بن جوريون وهو يعلن قيام دولة إسرائيل فى مايو ١٩٤٨، ويركز على نقل الكنيست الإسرائيلى من تل أبيب إلى القدس، وإعلان القدس عاصمة لإسرائيل سنة ١٩٤٩ وصورة لمبنى الكنيست فى القدس، ويشرح بعد ذلك «قانون العودة» الإسرائيلى الذى صدر سنة ١٩٥٠ والذى يعطى لكل يهودى فى العالم الحق فى الهجرة إلى الوطن الجديد، مع صورة لتطوير الزراعة فى الأرض الصحراوية والمستعمرات والتطورات الاقتصادية فى إسرائيل، وصور للقرى الجديدة التى أنشأها الإسرائيليون وتطور القوات المسلحة الإسرائيلية، دون إشارة إلى تدهور الأوضاع فى الجانب الفلسطينى وما تعرضوا له من الضغط والإرهاب والتشريد، ويكتفى فقط بإشارة لمقابلة تليفزيونية عام ١٩٧٥ قال فيها أحد الإسرائيليين: إن الفلسطينيين لهم أيضًا حقوق فى أرض فلسطين.

وحتى عندما أشار المنهج إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣ اكتفى بالإشارة إلى أنها كانت فرصة أظهر فيها العرب توحدهم خاصة فى منع البترول عن الغرب، وإن كان المنهج يشير إلى مذبحة دير ياسين مع صورة لطابع بريد تذكارى صدر فى مصر فى ذكرى هذه المذبحة، وإشارة إلى حرب ١٩٤٨ التى انتهت باحتلال إسرائيل لبعض الأراضى العربية ورفضت إعادتها بعد ذلك، ويذكر أسباب انتصار إسرائيل فيلخصها فى: الاضطهاد الذى تعرض له اليهود، والمساعدات

الأمريكية، ودعم اليهود الأمريكيين، وقوة الجيش الإسرائيلى وتنظيمه وتدريبه على الرغم من أنه كان جيشا صغيرا، إلى جانب شرح تسليحه وقياداته ومنهم موشى ديان، ويتحدث المنهج عن سوء التنظيم والقيادة فى الجيوش العربية، ويشير إلى أنه لم يكن بين القادة سوى ضابط شاب مصرى كان على قدر من المهارة والشجاعة هو جمال عبد الناصر.

هذا ما يتعلمه التلاميذ البريطانيون في جزء من المنهج خاص بالتاريخ القديم حتى حرب ١٩٤٨، وهكذا يتم تكوين عقول الأجيال من البريطانيين. . هل يمكن أن نصدق ما يقال من أن المنهج البريطانى متوازن فى طرح الحقائق التاريخية. بينما كل سطر فيه يكشف الانحياز الواضح والتزييف والمغالطة وبالتالى يحق للعرب أن يطالبوا بتصحيحه ؟ !. .

إنهم فى الغرب يطلبون من العرب أن يغيروا مناهج الدراسة لتلاميذهم.. فلماذا لا يغيرون هم أيضا مناهج الدراسة عندهم لإزالة ما فيها من أخطاء، وانحياز ومغالطات ضد العرب وضد الإسلام والمسلمين ؟ .

ماذا يعرف البريطانيون عن الحقوق العربية !

تصيبنا الدهشة عندما نجد قطاعا من الرأى العام فى بريطانيا منحازا لإسرائيل، وأكثر تصديقا وتعاطفا مع الأكاذيب والمغالطات التى تؤسس عليها مواقفها، ويبدو غير مستعد للتجاوب مع الحقائق التى يستند إليها الحق الفلسطينى، ولكن هذه الدهشة سوف تزول عندما نستكمل القراءة عن على مراحل الصراع العربى الإسرائيلى فى منهج التاريخ الذى يدرس لتلاميذ المرحلة الثانوية فى بريطانيا.

هذا الموضوع الذى سبقت الإشارة إليه كان أحد مشروعات المجلس المدرسى البريطانى، كما كان موضوعا لدراسة أكاديمية للدكتور أحمد حسين اللقانى أستاذ المناهج فى مصر. وتم تحت اشراف اثنين من كبار الأساتذة البريطانيين كما ذكرنا..

والملاحظ أننا نجد فى الصحافة والإذاعة والتليفزيون البريطانى - حرصا على إظهار التوازن فى عرض الأخبار ومناقشة الخلافات بين الفلسطينيين والإسرائيليين - نشر وإذاعة صور للاعتداءات الإسرائيلية على الفلسطينيين، وفى نفس الوقت نجد الانحياز واضحا فى منهج الدراسة الذى يؤسس عقول البريطانيين ومشاعرهم، وسلوكهم، كذلك نجد التوازن إلى حد كبير عند تدريس تاريخ مصر وتاريخ العلاقات المصرية البريطانية، ولكن نجد الانحياز واختلال التوازن بوضوح عند تدريس العلاقات الفلسطينية البريطانية والعلاقات الإسرائيلية البريطانية.. ونجد الاهتمام ببيان جهود إسرائيل قبل عام ١٩٤٨ لجذب يهود جدد إلى الوطن الجديد، وتطوير اقتصادها وقواتها «الدفاعية»، دون إشارة إلى تأثير تلك الأحداث على تدهور أوضاع الفلسطينيين وأساليب الضغط والإرهاب التى تعرضوا لها..

وفى هذا الجزء من كتاب التاريخ نجد أن الوطن الإسرائيلى قام فى «موطن اليهود الأصلى» دون أن يتضمن شيئا عن حقوق الفلسطينيين فى هذه الأرض، ويكتفى بتسجيل إعلان قيام دولة إسرائيل وهجرات اليهود إليها، وتشجيع الحكومة البريطانية لهذه الهجرات.

وعندما يتطرق الكتاب إلى موضوع التطور فى مصر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية يحاول إظهار بريطانيا فى موقف المتحكم فى مجريات الأمور فى مصر، فيشير إلى أنها هى التى سمحت ببقاء عشرة آلاف جندى بريطانى فى منطقة القناة لمدة عشرين سنة دون إشارة إلى مقاومة الشعب المصرى للاحتلال البريطانى، ويعرض فترة حكم الملك فاروق فيشير إلى أن الشعب لم يكن راضيا عنه، وأن الأوضاع الاقتصادية كانت سيئة، خاصة فى وجود نظام الإقطاع، بينما كان معظم الشعب يعانى من الفقر. ويقدم بعد ذلك سيرة ذاتية مختصرة للملك فاروق، ويعرض صورة للقوات البريطانية فى منطقة القناة سنة ١٩٥١، ثم يعرض بإيجاز لأحداث ثورة ١٩٥٢ وتنظيم الضباط الأحرار، وإعلان الجمهورية والتغيرات الاقتصادية والاجتماعية بعد الثورة وإبعاد النفوذ البريطانى عن مصر، ويشير إلى أن جمال عبد الناصر كان موفقا فى مفاوضاته مع بريطانيا مما أدى إلى انسحاب القوات البريطانية من منطقة القناة، ويشرح بعد ذلك بالتفصيل معركة ١٩٥٦ ابتداء من تفكير جمال عبد الناصر فى بناء السد العالى ووعد أمريكا بتقديم قرض من البنك الدولى لهذا المشروع الذى كان عبدالناصر يعلق عليه أهمية كبيرة، ثم تأثير الولايات المتحدة فى سحب البنك الدولى للقرض بعد ذلك واضطرار عبد الناصر إلى تأميم القناة والاستعانة بالاتحادالسوفيتى لبناء السد، مع صورة لجمال عبد الناصر وخروشوف، وصورة أخرى لقناة السويس، وصورة ثالثة لسد أسوان، ونص إعلان تأميم شركة قناة السويس، ويشير بعد ذلك إلى أن تأميم القناة كان أحد الأسباب الرئيسية لحرب ١٩٥٦، ويبدو عرض هذا الجزء من المنهج متوازنا وموضوعيا..

بعد ذلك يعرض للتطورات الاقتصادية فى مصر، خاصة قوانين الإصلاح الزراعى وتحديد الملكية، وينتقل إلى وصف قيادة جمال عبد الناصر للعالم العربى وكيف أن بعض الدول العربية الأخرى حاولت أن تحذو حذوه، وكيف استطاع

عبد الناصر استخدام الإذاعة والإعلام وأن يفيد منهما، وكيف أعلن قبول التحدى لبريطانيا وفرنسا وإسرائيل فى عام ١٩٥٦. حتى أصبح محورا للقومية العربية بعد أزمة القناة، ويعرض الكتاب بعد ذلك دور عبد الناصر فى الوحدة بين مصر وسوريا، ومحاولة الوحدة بين مصر وسوريا والعراق، والمقاطعة للبضائع الإسرائيلية، وتبنى مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، ثم يعرض لحرب أكتوبر ١٩٧٣ واتفاق العرب على موقف واحد وخاصة بالنسبة للبترول. . ويقول الكتاب.. إن هذا الموقف العربى الموحد يختلف عما كان سائدا من علاقات التفكك والتعارض فى السياسات فى أواخر عهد عبد الناصر. .

ويغفل المنهج ثورات الشعب المصرى ضد الاحتلال البريطانى وتطور الحركة الوطنية، وإن كان يتحدث عن الثورة وعن عبد الناصر وأحداث تأميم القناة وحرب ١٩٥٦ والقومية العربية. إلا أنه يكتفى من حرب ٧٣ بجانب واحد هو توحد العرب وقطع البترول، ويغفل ما أحرزته القوات المصرية من انتصار. .

ويخصص الكتاب بعد ذلك فصلا عن حروب ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ويبدأ بخريطة تبين مشروع الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، ويقدم عرضا موجزا لمذبحة دير ياسين، وقيام جيوش مصر ولبنان والعراق وسوريا والأردن «بغزو» إسرائيل فور إعلان قيام الدولة فى ١٤ مايو ١٩٤٨.. ويقول: إن جيوش العرب حققت بعض التقدم، ولكن انتهى الأمر بانتصار إسرائيل واستيلائها على أراض عربية جديدة وعقد الهدنة سنة ١٩٤٩ دون أن يتحقق السلام الدائم، وبعد ذلك رفضت إسرائيل إعادة الأراضى العربية التى احتلتها، ورفض العرب الاعتراف بدولة إسرائيل أو إنهاء حالة الحرب معها. .

ويدرس التلاميذ فى بريطانيا أحداث حرب ١٩٥٦ والموقف فى غزة وشرم الشيخ ومضايق تيران من زاوية واحدة هى رفض مصر السماح للسفن الإسرائيلية بالعبور فى قناة السويس، وكأن ذلك كان اعتداء من مصر على حق إسرائيل، ويشير إلى مقاطعة الدول العربية للبضائع الإسرائيلية، ورفضها استخدام إسرائيل لأراضيها للعبور، كما يشير إلى موضوع حصول مصر على السلاح من تشيكوسلوفاكيا.. ويقول الكتاب: إن هذه الأسلحة فى الواقع كانت قادمة من روسيا، الأمر الذى يتعارض مع مصالح الولايات المتحدة فى المنطقة، وهذا

مادفعها إلى سحب القرض من البنك الدولى لمشروع السد العالى وما ترتب على ذلك من تأميم القناة، وقد تأثرت إنجلترا وفرنسا بهذا القرار لأنه يتعلق بإمدادها بالبترول من الشرق الأوسط، مما دفع البعض إلى تسمية جمال عبد الناصر «هتلر النيل» بالإضافة إلى شعور الفرنسيين بالأخطار المترتبة على مساعدة مصر للجزائر، وهكذا يبدو فى نظر التلاميذ أن عدوان ١٩٥٦ على مصر كان أمرا طبيعيا وكأنه أمر لمصلحة الغرب لابد منه.

ويعلم الكتاب التلاميذ ما جرى فى حرب ١٩٥٦ على أنه «الغزو» الإسرائيلى لمصر فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ دون إشارة إلى الدور البريطانى والفرنسى منذ البداية. ويشرح بعد ذلك استيلاء إسرائيل على منطقة الممرات والقسيمة وغزة وسيناء بأكملها، ثم يشير إلى المساعدات التى تلقتها إسرائيل فى هذا «الغزو»، ويدعم ذلك بخريطة لاتجاهات الهجوم الإسرائيلى البريطانى الفرنسى، وخريطة أخرى تبين المواقع التى سيطرت عليها إسرائيل فى سيناء ١٩٥٦، ثم يعرض الإنذار البريطانى الفرنسى لوقف إطلاق النار وانسحاب الطرفين المصرى والإسرائيلى ١٠ كيلو مترات على جانبى القناة بما كان يعنى أن تنسحب القوات المصرية من الأراضى المصرية شرق القناة أيضا، ورفض مصر لهذا الإنذار، وما أعقبه من تدخل القوات البريطانية والفرنسية وتقدمها إلى بورسعيد، وتعطيل مصر للملاحة فى القناة، والتدخل الحاسم لروسيا، وإنذارها بالتدخل فى الحرب وضرب القوات البريطانية والفرنسية، مما دفع الأمم المتحدة للضغط على بريطانيا وفرنسا لسحب قواتها واحتلال قوات الأمم المتحدة محلهما..

ويشرح الكتاب ما كسبته إسرائيل من حرب ١٩٥٦، وما ترتب على هذه الحرب من تزايد النفوذ السوفيتى فى المنطقة، ويعرض بعد ذلك بعض عناوين الصحف البريطانية الصادرة يوم غزو ١٩٥٦ فى ٣١ أكتوبر، كما يعرض ثلاث صور للقوات الإسرائيلية «بعد النصر» وصورة لطائرة مصرية يجلس تحتها بعض الجنود فى انتظار الأوامر فى شرم الشيخ.

أما حرب ١٩٦٧ فإن الكتاب المقرر على التلاميذ البريطانيين يتحدث عن نتائجها باستيلاء إسرائيل على مرتفعات الجولان والضفة الغربية وسيناء، ويرجع أسباب «النصر» الإسرائيلى إلى تفوق إسرائيل فى السلاح الجوى،

وتحطيم السلاح الجوى المصرى فى أربع ساعات، ويتضمن هذا الجزء صورة لموشى ديان فى بيت لحم، وصورة أخرى لأسرى مصريين، وصورة ثالثة تبين ما أصيب به العرب من انهيار بعد حرب الأيام الستة، وسيرة ذاتية عن موشى ديان. . ويقول الكتاب: بعد ذلك: وبالرغم من هذه النتيجة؛ فإن السلام لم يتحقق بين الطرفين، لأن العرب رفضوا الاعتراف بإسرائيل، وطالبوا بإعادة الأرض المحتلة، بينما حرصت إسرائيل على الاحتفاظ بالأرض المحتلة «ضمانا للحدود الآمنة».

وينتقل الكتاب بعد ذلك إلى «حرب كيبور» (العاشر من رمضان) سنة ١٩٧٣ والتعاون المصرى السورى فيها، والإمدادات العسكرية السوفيتية لهما، والإمدادات العسكرية الأمريكية لإسرائيل. ويتضمن هذا الجزء خريطتين إحداهما تبين تحركات القوات فى الحرب واتجاهات المساعدات السوفيتية والأمريكية للطرفين، والأخرى تبين اتفاق الفصل بين القوات المصرية والإسرائيلية وصورتين للملك حسين فى جولة فى الخطوط الأمامية، والأخرى لأحد الصواريخ السوفيتية الصنع. ثم يتحدث الكتاب عن التدخل الروسى الأمريكى ومجلس الأمن وإعلان وقف إطلاق النار، وتوقيع اتفاق الكيلو ١٠١. ويتحدث بعد ذلك عن الاختلافات بين هذه الحرب مع إسرائيل والحروب السابقة فيقول: إن العرب استفادوا من الحروب السابقة، وكانوا يملكون أسلحة متطورة أمدتهم بها روسيا، ممل يدل على أن إسرائيل لم تعد تملك القوة والسيادة فى المنطقة، كما يدل على أن العرب استعادوا قوتهم القتالية، وارتفعت معنوياتهم.

فى هذا الجزء من الكتاب المقرر نجد عرض الحروب الأربع بين العرب وإسرائيل يبدو متوازنا. ولكن ليس فيه إشارة إلى أوضاع الفلسطينيين تحت الاحتلال الإسرائيلى. . وأغفل الكتاب وجهة النظر الغربية للاعتداء على مصر سنة ١٩٥٦. . ويتحدث عن موشى ديان كقائد منتصر. . ويؤكد أن هذه الحرب كانت سببا فى ضعف العرب وانهيارهم، ولا يشير إلى الكفاءة المصرية فى التخطيط وإدارة العمليات فى حرب ١٩٧٣، ولكنه يرجع انتصار المصريين فى هذه الحرب إلى المساعدات الروسية فى الخطوط الأمامية، كما يعرض صورة الملك

حسين على الجبهة المصرية السورية دون إشارة إلى أحد من قادة حرب أكتوبر المصريين. ولا يشير إلى اجتياز المانع المائى وتحطيم خط بارليف، ويكتفى بالقول بأن المصريين استطاعوا العبور إلى الضفة الشرقية لقناة السويس.

ويكرر الكتاب الإشارة إلى الاضطهاد الذى تعرض له اليهود بقصد تأكيد فكرة أن اليهود لهذا السبب هم أصحاب الحق فى هذه الأرض موضوع النزاع العربى الإسرائيلى.. ويشرح منع مصر للسفن الإسرائيلية من المرور فى القناة كما لو كان لإسرائيل الحق فى ذلك وكأن منعها عدوان عليها، ويشرح عدوان ١٩٥٦ كما لو كان الغزو من إسرائيل وحدها ولم تشترك فيه بريطانيا وفرنسا منذ البداية منذ اتخاذ القرار والتخطيط والإعداد له، واشتراك قوات البلدين فى الغزو واحتلال بورسعيد .

والتلميذ البريطانى معذور إذا لم يعرف معظم المواقف العربية ويعرف بالتفصيل المواقف الإسرائيلية وتطور الصراع العربى الإسرائيلى من وجهة نظر إسرائيل. . وإن كان المنهج يشير إلى تغيير إسرائيل للحدود عقب كل حرب، لكنه يبرر ذلك بأنه لتوفير الحدود الآمنة لها لحمايتها من جيرانها العرب، بل يستثير شفقة التلاميذ على إسرائيل بشرح المشكلة التى واجهتها نتيجة لتلك التوسعات التى جعلتها مطالبة برعاية مليون عربى يعيشون فى تلك المناطق. . ويعرض الكتاب طابع بريد من سوريا للدعوة لمعونة المهاجرين الفلسطينيين، وصورة لمسجد عمر بالقدس، وصورة لمظاهرة بالقاهرة ضد اليهود سنة ١٩٦٧ وماترتب على ذلك من هجرة اليهود من مصر إلى إسرائيل، ويقول: إنه لم يبق فى مصر سوى ٢٥٠٠ يهودى فى القاهرة والإسكندرية عوملوا معاملة سيئة، ويشمل هذا الجزء أيضا صورة معلم إسرائيلى يدرس لتلاميذ من عرب فلسطين لكى يعطى الانطباع بأن الإسرائيليين يتعاملون مع الفلسطينيين ويساعدون أبناءهم، وصورة ثانية تشير إلى اعتبار عبد الناصر «هتلر آخر» وصورة طابع بريد ثانية أصدرته الجمهورية العربية المتحدة بمناسبة يوم فلسطين .

ولا يشير الكتاب إلى أن استيلاء إسرائيل على الأراضى العربية هو اغتصاب وعدوان على أرض الغير، ويكتفى بالإشارة إلى أهمية هذه الأراضى لأمن

إسرائيل، ويتحدث عن رعاية إسرائيل لمليون عربى دون إشارة إلى نزوح الفلسطينيين وترك ديارهم، ويقول الكتاب: إن أوضاع اليهود فى مصر كانت سيئة ولا يتحدث عن أوضاع الفلسطينيين تحت الاحتلال الإسرائيلى.

وطبيعى بعد ذلك أن يكون كل ما يعرفه البريطانيون هو حق إسرائيل فى اغتصاب أراضى العرب، وأن عبد الناصر «هتلر جديد»، بينما يجهلون ما يعانى منه الشعب الفلسطينى لأكثر من نصف قرن من القتل والاغتصاب والتشريد.

وحين يتحدث الكتاب عن مشكلة اللاجئين يشرح بالتفصيل أسباب رفض إسرائيل عودتهم، بل يقول الكتاب: إن القادة العرب أشاروا على الفلسطينيين بترك أراضيهم سنة ١٩٤٨ تحاشيا لهجوم الجيوش العربية على إسرائيل، ويبرر رفض إسرائيل لعودة اللاجئين بدواعي الأمن، ويقول: إن الدول العربية تهمل شئون الفلسطينيين ولا تتيح لهم فرص العمل لأسباب سياسية.

وماذا يتعلم البريطانيون عن المقاومة الفلسطينية للاحتلال؟

يتضمن الكتاب خطابا من شاب فلسطينى إلى أمه يشرح فيها آلامه ورفضه البقاء كلاجئ وقراره بالانضمام إلى إحدى المنظمات الفدائية، ويتضمن هذا الجزء سيرة ذاتية لياسر عرفات، وصورة مطار بيروت بعد هجوم الطيران الإسرائيلى عليه في ديسمبر ١٩٦٨، وصورة أخرى لمجموعة من أطفال إسرائيليين «بدون بيت أو أم» بعد هجوم الفدائيين الفلسطينيين عليهم سنة ١٩٧٠، وإشارة إلى حق إسرائيل فى قمع الفلسطينيين لوقف الاعتداءات الفلسطينية المتكررة عليها، ويقول الكتاب: إن العلاقات بين منظمات المقاومة والحكومات العربية مفككة، ويعرض لرفض الملك حسين لنشاط الفدائيين ضد إسرائيل، ويشير إلى دور عبدالناصر فى تطبيع العلاقات بين عرفات والملك حسين.

وفى الفصل الأخير من الكتاب شرح لجهود الأمم المتحدة، مع نصوص للقرارين ٢٤٢ و ٣٣٨، ويشرح دور الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فى الصراع بصورة متوازنة لأنه لا يمس موضوع حق الفلسطينيين فى وطنهم، ويعرض بطريقة غير موضوعية أهداف الولايات المتحدة من مد نفوذها فى المنطقة، خاصة عندما يذكر أن هدف أمريكا يتلخص فى دعم علاقات الصداقة بين

جميع دول المنطقة دون إشارة لحقيقة الأهداف الأمريكية سواء فى دعم إسرائيل وتجاهل الحقوق العربية أم فى التواجد العسكرى المباشر فى المنطقة .

وفى الفصل الخاص بالبحث عن السلام يعرض الكتاب موقف مصر وإسرائيل وأمريكا ومواقف المعارضة العربية لاتفاقية السلام التى وقعها السادات وبيجن برعاية الرئيس الأمريكى جيمى كارتر، مع صورة طفلين أحدهما عربى والآخر إسرائيلى يتصافحان دليلا على بدء رحلة «العيش فى سلام» .

بعد هذه الدراسة التحليلية الطويلة نعرف من أين تكونت الأفكار المغلوطة والمواقف غير المتوازنة وغير الموضوعية لقطاع كبير من البريطانيين . لأنهم تعلموا فى المدارس أن يكونوا كذلك .

وإذا كان الإعلام البريطانى يحاول أن يكون موضوعيا متوازنا إلى حد ما، فلماذا لا تكون مناهج الدراسة كذلك ؟

فلتات اللسان تكشف العداء للإسلام!

علماء النفس يقولون: إن ما يكشف حقيقة ما تخفيه العقول ليس ما يقوله الإنسان بعد تفكير وتَرَوٍّ، لأنه في هذه الحالة يختار الألفاظ لتعبر عما يجب أن يقوله نفاقا أو كذبًا أو لإرضاء الآخرين ، أما المشاعر الكامنة في الأعماق فإنها تظهر خلسة في فلتات اللسان، أو في رد الفعل السريع .

وبذلك يمكن أن نفهم المعنى والمغزى لفلتات اللسان التي ترددت على ألسنة بعض الزعماء والقادة وكبار رجال الدين في الغرب، ونفهم السلوك العدائي ضد المسلمين الذى جاء كرد فعل لحادث سبتمبر، ولا نكتفى بما قالوه بعد ذلك بأنها كانت مجرد فلتات لسان ، مادامت الكلمات الصادرة عن فلتات اللسان أكثر صدقا من الكلمات الصادرة عن العمد والانتباه والوعي .

وعلى سبيل المثال ، كيف نغفر ما جاء في المقال الذى نشرته مجلة «ناشيونال ريفيو» الأمريكية بقلم ريتش لورى أحد كتاب المجلة وقال: إن ضرب مكة المكرمة بقنبلة نووية سوف يكون رسالة للمسلمين.. وأثارت هذه الكلمات ملايين المسلمين في أنحاء العالم عندما تناقلتها الصحف ومواقع الإنترنت بمختلف اللغات، وكان مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكي أول من نبه إلى هذه الفكرة العدائية المجنونة التي وصلت إلى حد التحريض على تدمير أقدس مكان للمسلمين ، ومهما يقال من أن هذا الموقف لا يمثل الأمريكيين جميعا ، فقد كشف عن أن في أمريكا تيارًا يصل به العداء للإسلام والمسلمين إلى مثل هذا التفكير.

وقد أعاد هذا المقال الغريب إلى الأذهان وقائع ما جرى في أمريكا عقب أحداث ١١ سبتمبر والذى كان موضع دهشة واستغراب المسلمين في أنحاء العالم.. ففي أعقاب الهجوم الإرهابي على مركز التجارة العالمي والبنتاجون أعلن مجلس

العلاقات الإسلامية الأمريكية أن الحقوق والحريات المدنية للمسلمين فى أمريكا تواجه مخاطر غير مسبوقة ، وأن المجلس تلقى مئات الشكاوى من المسلمين فى أمريكا عن حالات القتل، وتهديد بالقتل ، والتحرش ، وتخريب الممتلكات، والاعتداءات من رجال الأمن ، والمضايقات فى المطارات والمدارس وأماكن العمل، ورسائل البريد التى تحمل الشتائم والتهديد ونشرت الصحف الأمريكية أن مئات من الشبان العرب فى أمريكا تلقوا استدعاءات من الشرطة فيما وصف بأنه«حملة» تستهدف العرب والمسلمين ووصل الأمر إلى حد أن بعض منظمات حقوق الإنسان الأمريكية أعلنت خشيتها من أن تكون السلطات قد بدأت حملة مكارثية جديدة ضد العرب والمسلمين بمن فيهم العرب الأمريكيون ، فقد تم وضع تليفوناتهم وتليفونات أصدقائهم وأقاربهم تحت المراقبة ، كما نشرت الصحف أيضًا أن أعدادا من الطلبة من بلاد إسلامية غادروا الولايات المتحدة لشعورهم بالخوف ، وأعلنت منظمات مسلمى أمريكا أنها تتعرض لحملة فى الإعلام ومضايقات من الدوائر السياسية لتشويه صورتها ، فضلا عما اتخذته الحكومة الأمريكية من تجميد أموال مؤسسات وبنوك وأفراد مسلمين من داخل وخارج أمريكا بدعوى أن لهم صلة بتنظيم القاعدة.

وتصاعدت هذه الحملة إلى حد أن الأستاذ محمد وهبه الصحفى المصرى الذى يعيش فى أمريكا منذ سنوات طويلة كتب مقالا بعنوان «رؤية شاهد عيان: محنة العرب والمسلمين فى أمريكا» قال فى بدايته : «اعترف بأننى للمرة الأولى بعد ما يقرب من ١٥ سنة قضيتها فى أمريكا أشعر بأننى لست أجنبيًا فقط، ولكننى قد أكون إنسانا غير مرغوب فيه. . ففى أمريكا وخاصة واشنطن و نيويورك على الساحل الشرقى ، ولوس أنجلوس على الساحل الغربى تختلط كل الأجناس والأديان مماكان يقلل إلى حد ما الشعور بأننى غريب عن أهل البلد كما شعرت فى الهند أوبريطانيا أو ألمانيا، ولكن هذا الشعور تبدل فى يوم واحد بعد الهجوم الإرهابى الرهيب على واشنطن حيث أعيش ، وعلى نيويورك حيث يعيش أكبر أبنائى الذى يسكن فى المنطقة التى استهدفها الهجوم ، وظل قابعا فى مسكنه لأيام بعد أن علم بأن بعض الأمريكيين العرب والمسلمين رجالا ونساء تعرضوا

للضرب والسباب بأفظع الألفاظ التى تزخر بها العامية الأمريكية ، وعندما استأنف عمله وجد أن كل سيارات التاكسي فى نيويورك قد خلت من الوجوه العربية الملامح التى كانت تميز عددا كبيرا من سائقيها بعد أن تم الاعتداء على بعضهم بجرهم وضربهم فى الشوارع، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد تنوعت أشكال الاعتداءات رغم نداءات الرئيس بوش والقيادات السياسية ، ولم يعد السؤال متى تنحسر هذه الاعتداءات؟ ، ولكن : هل يمكن أن تعود العلاقات بين الأمريكيين والمسلمين إلى ما كانت عليه. . وكيف بعد أن أعلن الكثيرون أن «الصدام الحضارى» بين الغرب والإسلام قد بدأ بالفعل ؟.

وقال الأستاذ محمد وهبة أيضًا : إن الأمريكيين العرب وعددهم ثلاثة ملايين، والأمريكيون المسلمون وعددهم سبعة ملايين يشكلون جزءًا لا يتجزأ من النسيج القومى الأمريكى، ويعانون أيضًا مما يعانى منه بقية الأمريكيين، وفقدوا أيضًا أقارب لهم فى الهجوم الإرهابى . فهم قاسوا من نوعين من الهجوم. . من الإرهاب ، ومن الأمريكيين. . على حد تعبير على أبو زعكوك المدير التنفيذى للمجلس الإسلامى الأمريكى. وقد قال الدكتور زياد عسلى المدير التنفيذى للجنة الأمريكية العربية لمكافحة التمييز، «كنا على وشك القيام بأول حملة إعلامية علمية لتصحيح صورة العرب فى أمريكا ولكن بدلا من ذلك قررنا تعطيل العمل فى المقر الرئيسى للمنظمة حتى لا يتعرض الموظفون للخطر. . وقد تلقيت مكالمة من رئيس الشرطة المسئول عن منطقتنا يستفسر إذا كنا نواجه أى تهديد فأبلغته بما تلقيته من رسائل فأرسل فريقا من الشرطة لحماية المكتب والموظفين .

وقد نشرت صحيفة «واشنطن بوست» الأمريكية مقالا عن التحيز ضد العرب والمسلمين فى الوظائف ، بقلم كريستين دونى جريمسلى قالت فيه إن العرب والمسلمين يواجهون التفرقة والتحيز ضدهم فى أماكن العمل أضعاف ما كانوا يواجهونه قبل سبتمبر ، وهذا ما أعلنته هيئة المساواة فى فرص العمل، وأعلنت أيضا أن أعدادًا كبيرة من المسلمين تعرضوا للطرد من وظائفهم . وقالت رئيسة الهيئة إن موجة العداء والتحرش بالعرب والمسلمين ازدادت. .

كما نشرت صحيفة «هيرالد تريبيون» الأمريكية مقالا بعنوان : «فلننتبه لما نقوله» طالبت فيه القادة السياسيين والمدنيين فى الولايات المتحدة بعدم إبداء التعصب ضد المسلمين كما يفعلون الآن دون تحفظ، وقالت إن المسلمين فى الولايات المتحدة تعرضوا للهجوم مما أدى إلى تأجج المشاعر ، خاصة مع تواجد القوات الأمريكية فى أراضى دول إسلامية.

وذكرت الصحيفة الأمريكية ما أعلنه القس فرانكلين جراهام فى خطابه يوم تولى الرئيس بوش الابن السلطة فقد قال : «نحن لا نهاجم الإسلام، ولكن الإسلام هو الذى يهاجمنا . . إن إله الإسلام ليس هو نفس الإله، إنه ليس ابن الإله كما فى العقيدة المسيحية، إنه إله مختلف ، وإننى اعتقد أن هذا الدين دين شرير ويدعو لإيذاء الغير» .

كما ذكرت الصحيفة ما قاله رئيس لجنة الإرهاب والأمن القومى التابعة للكونجرس والمرشح لرئاسة مجلس الشيوخ فى ولاية جورجيا «زيكسباى شامبليس» ، فقد أبدى اقتراحًا لمحاربة الإرهاب ملخصه : «فلنعط لعمدة كل مدينة الحرية فى القبض على كل مسلم يعبر الحدود» .

وعلقت الصحيفة على ذلك بأن الناس لا يتمتعون بالحكمة لإدراك أن مثل هذه التعبيرات غير المسئولة خطيرة ، وأن عليهم أن يدركوا أنهم يتسببون فى تشويه وضع الرئيس بوش، وأن مثل هذه التعليقات التى تصف المعركة القائمة بأنها معركة بين الغرب والإسلام ، أو تصف المسلمين بأنهم أعداء ، هذه التعليقات موضع ملاحظة في الداخل والخارج ، وتجعل جهود البيت الأبيض تبدو كاذبة .

وقالت الصحيفة إن شامبليس كانت لديه الشجاعة فأعلن اعتذاره ، وقال إن تعليقه كان أقرب إلى المزاح ! . . بينما لم يقدم القس جراهام اعتذارا . . بل زاد الأمر سوءا ببيان أصدره قال فيه إن لديه مخاوف بشأن تعاليم الإسلام الخاصة بمعاملة المرأة ، وقتل المسلمين لغير المسلمين، وقتلهم المرتدين تنفيذا لحد الردة وأشار إلى أنه سبق أن أفصح عن هذه المخاوف فى الماضى ، وأنه لا يريد أن يوجه للإسلام انتقادات أكثر من ذلك الآن ! .

أما رئيس وزراء إيطاليا سيلفيو برلسكوني فقد أثار المسلمين في العالم عندما قام بدون مناسبة بالإدلاء بتصريح غريب قال فيه : « إن الحضارة الإسلامية تتسم بالانحطاط والجهل وإنها حضارة متخلفة ولم تقدم للبشرية شيئًا ، بينما الحضارة الغربية هي الحضارة القائدة والرائدة منذ الحضارة اليونانية والرومانية حتى الحضارة الغربية الحديثة». وإن كان قد تراجع بعد ذلك وقام بزيارة إلى المركز الإسلامي في روما وألقى فيه خطابا وجه فيه التحية إلى المسلمين الذين يعيشون في المدن الإيطالية وقال عنهم: إن لهم دورًا اجتماعيًا مهما في إيطاليا ، وقال أيضا: إنه من غير المقبول أن يوصم بالإجرام دين عظيم يعتنقه أكثر من مليار إنسان بسبب أعمال العنف التي ارتكبها أفراد أو مجموعات تسعى إلى تحقيق مخططات سياسية بأعمالها الإجرامية. وإن من يستخدم الإسلام لتبرير إرهابه فإنه يهين الإسلام ويسيء إليه مثله في ذلك مثل من يستخدم اسم المسيحية لتبرير العنف فيسيء إلى المسيحية، وإن أوربا خرجت بصعوبة من العصور المظلمة التي أنتجت أيديولوجية متعسفة تسببت في حروب وأدت إلى اضطراب العالم وقيام مذابح فظيعة راح ضحيتها أبرياء ونتج عنها دمار غير مسبوق في التاريخ. وإن هذه الذكرى المؤلمة لما فعلته أوربا جعلت الجميع حريصين على طي هذه الصفحة وترسيخ جذور الديمقراطية وبدء مسيرة للمصالحة والدفاع عن كرامة الشعوب ولهذا تدخلت أوربا في البلقان حين اشتعلت نيران الحرب والكراهية العرقية والدينية ، وساعدت أوربا المسلمين في البلقان عسكريا وإنسانيا. .

وطبعا كانت كلمات الاعتذار مكتوبة ومعدة من مساعدي رئيس الوزراء من الخبراء والمتخصصين. . أما فلتة اللسان فكانت من برلسكوني ذاته في لحظة لم يستطع فيها إخفاء مشاعره وأفكاره التي كانت مضمرة لم يعلنها من قبل ، وقفزت ربما دون وعي منه في لحظة انفعال. .

البعض يشير إلى عبارة الرئيس الأمريكي بوش التي وصف بها الحرب في أفغانستان بأنها «حرب صليبية» ، ثم قال بعد ذلك: إنه لم يكن يقصد أنها حرب دينية أو ضد دين معين. والبعض الآخر يشير إلى عبارته عن «محور الشر» التي ذكر فيها ثلاث دول منها دولتان إسلاميتان. . ويقولون: إن ذلك التعبير هو

تكرار لتعبير «إمبراطورية الشر» التى كان الأمريكان يصفون بها الاتحاد السوفيتى، حين كان هو العدو فى فترة الحرب الباردة، ويستشهدون على ذلك بنظرية عالم اجتماع بريطانى هو إدوارد موريتمر بأن الغرب بحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتى وإمبراطورية الشر الشيوعية، ولهذا الغرض فإن الإسلام هو المناسب ليكون هو العدو، وبالفعل وقع اختيار الغرب على الإسلام كعدو بديل.. ويستشهدون أيضا بما جاء على لسان ويلى كلايس حين كان الأمين العام لحلف الأطلنطى، وما قاله «جيانى ديمكليز» حين كان ممثلا للاتحاد الأوروبى، وما قاله أيضا الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون فى كتابه «الفرصة السانحة» وكتابه «نصر بلا حرب» من عبارات تدل على أنهم اعتبروا الإسلام هو «العدو»..

فلتات اللسان كثيرة. . وأكثر منها ما تمتلئ به عشرات الآلاف من الكتب والدراسات والمقالات من هجوم على الإسلام والمسلمين بالإنجليزية والفرنسية والألمانية. . بل واللغة اللاتينية القديمة ترجع إلى قرون سابقة، وفى هذه الكتب والمقالات تشويه متعمد للإسلام، وللدكتور محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف دراسات متعمقة لبعض هذه الكتابات، وصل منها إلى أن هذا الاتجاه العدائى للإسلام ليس نتيجة أحداث الحاضر أو نتيجة ظروف طارئة، ولكنه نتيجة ترسبات قديمة ترسخت فى العقلية الغربية منذ الحروب الصليبية، وقبل الحروب الصليبية عندما فتح المسلمون الأندلس (أسبانيا) وفتح العثمانيون بعد ذلك القسطنطينية ووصلوا إلى النمسا وحاصروا فيينا العاصمة. .

وللدكتور محمود زقزوق أبحاث كثيرة عن المفكرين الذين رسخوا فى الغرب العداءللإسلام ووصفوه بأنه دين عدوانى متعصب وقالوا: إن كل مسلم شهوانى. . كسلان، ومتواكل، جاهل. . مستسلم للقدر، ولا تزال حتى الآن تدرس فى مدارس أوروبا وأمريكا مثل هذه المعلومات عن الإسلام والمسلمين، ولذلك تظهر على الألسنة عبارات تكشف ما فى الضمائر من سوء الفهم، والكراهية، وعمق آثار الميراث الفكرى والثقافى العدائى للإسلام. .

الحديث يطول عن مظاهر وأسباب وجذور العداء للإسلام فى الغرب. . والقصة طويلة فيها فصول من التاريخ والحروب والذكريات المؤلمة، وفيها اجتهادات

فكرية نزيهة واجتهادات مغرضة.. وفيها مصالح وأطماع وصراع إرادات.. المهم الآن أن الموضوع انتقل أخيرا من المستوى الفكرى البحت إلى المستوى السياسى ثم إلى المستوى العسكرى، وهذا ما جعل الوفد الرسمى المصرى فى مؤتمر اتحاد البرلمانات الإسلامية الذى عقد فى الرباط فى سبتمبر ٢٠٠١ يطالب بوضع حد لتشويه الإسلام، والابتعاد عن ربطه بالإرهاب وبأحداث سبتمبر فى الولايات المتحدة، لأن الإرهاب ظاهرة عالمية ليست فى منطقة واحدة من العالم، وليست مقصورة على فئة عرقية أو دينية أو حضارية بذاتها، وليست إفرازا إسلاميا ولا وهى معبرة عن مبادئه.. وهذا أيضا ما دعا مؤتمر وزراء وقادة الأمن العرب فى تونس فى أكتوبر ٢٠٠١ للدعوة إلى حماية العرب والمسلمين فى الغرب، وعبر هذا المؤتمر عن القلق الشديد لحملة التحريض ضد المسلمين والعرب والإساءة إليهم فى الولايات المتحدة - وغيرها - سواء من الجهات الرسمية أم من المواطنين، ووصل الأمر إلى حد اعتقال الكثيرين دون «سبب أو مبرر سوى كونهم مسلمين أو عربا، وأصدرت أمانة المؤتمر بيانا قالت فيه: إنه بالرغم من التصريحات التى أدلى بها كبار المسئولين الأمريكيين عن تقديرهم للدين الإسلامى وللمسلمين وتأكيدهم على الفصل بين الإسلام كدين وبين الإرهاب كجريمة فإن رعايا الدول العربية والإسلامية تعرضوا لمضايقات ومعاملة سيئة فى الولايات المتحدة، ولابد من وضع حد لهذه الممارسات وتأمين حسن معاملة الرعايا المسلمين والعرب فى الولايات المتحدة وغيرها من الدول، وضمان حقوقهم وحماية مصالحهم»..

ومن أمثلة الخطأ الشديد فى فهم العالم الإسلامى والحكم عليه بأحكام مسبقة ما كتبه جون بارنز فى «نيويورك تايمز» من أن البعض فى العالم الإسلامى أصبح ينظر إلى أسامة بن لادن بإعجاب ويعتبرونه «روبن هود» السياسى الإسلامى، وإن كان البعض الآخر فى العالم الإسلامى يوجهون إليه النقد ويرون أنه معبود زائف.. ونقل كاتب المقال عن عالم فرنسى له العديد من الكتب عن أفغانستان هو أوليفر أونى إن أسامة بن لادن مناضل سياسى أعطى النمط الإسلامى للإمبريالية الغربية، ولذلك يحظى بتأييد كثير من المسلمين، ليس لأنهم يرون فيه المقاتل المسلم الحقيقى، ولكن لأنهم يكرهون أمريكا، ولأنه الوحيد الذى يرون أنه

يحارب الأمريكيين. . ويعترف كاتب المقال في نفس الوقت بأن المسلمين المعتدلين في المساجد والمعاهد الإسلامية من المغرب إلى إندونيسيا يفسرون القرآن ليوضحوا أن المعنى الحقيقي للجهاد لا يمكن أن يتفق أبدا مع جريمة سبتمبر حتى مع الظلم الذى يعانى منه المسلمون من أمريكا فى القضايا التى حددها ابن لادن في شرائط الفيديو مثل: معاملة إسرائيل للفلسطينيين، وتواجد القوات الأمريكية فى الأراضى العربية، وفرض أمريكا العقوبات طويلة المدى على العراق. . ويقول علماء المسلمين: لا ترتكبوا خطأ التفكير فى أن ابن لادن هو الوجه الحقيقي لملايين المسلمين، أو أنه هو الصوت المعبر عن مبادئ القرآن. . وربما يكون هناك قلة جذبتهم بساطته وربما انجذبوا نتيجة الإحساس العميق لدى المسلمين بالإحباط، ولكن المسلمين فى عمومهم يعتبرونه مغامرًا أكثر من كونه زعيما إسلاميا، كما أن المسلمين يدركون أن مفهومه عن الجهاد خطأ. . أما المسلمون فى باكستان فإنهم يشعرون بخيبة الأمل للاختفاء المخزى لأسامة ابن لادن واكتفائه بالظهور على شرائط الفيديو ليطلب من غيره أن يقاتل ويضحى بنفسه، بينما يهرب هو ومن معه، ويدعى أنه صلاح الدين الذى حرر القدس من الصليبيين. . وفى القاهرة وبيروت وطهران ومراكز الفكر الإسلامى الأخرى يعتبرون فكر ابن لادن منحرفا عن الإسلام، وليس هناك أكثر من الشيخ محمد حسن نصر الله الزعيم الروحى لحزب الله الذى ينتقد إسرائيل والولايات المتحدة منذ ر بع قرن، ويقاوم الاحتلال الإسرائيلى فى لبنان. فقد أدان بقوة هجمات ابن لادن على أمريكا وقال: إنها لا تتفق مع الشريعة الإسلامية ولا مع مفهوم الجهاد في الإسلام، وإن المجرمين لا يعتبرون شهداء كما ادعى ابن لادن، لأنهم قتلوا مدنيين فى أرض بعيدة وليس فى بلد إسلامى. وقال الشيخ نصر الله أيضا: إن مفهوم الجهاد ليس العدوان، مستدلا فى ذلك بآيات من القرآن. . وقال أيضا: إن تفسير ابن لادن لآيات الجهاد اعتمد على «الدوافع النفسية الشخصية» بما فى ذلك الدوافع القبلية للانتقام. . هذا ما كتبه جون بارنز وهو يتحدث عن «جرائم المسلمين» ! !

وفى فرنسا كتب عالم معروف هو «جيلز كايل»: إن ابن لادن استمد آراءه من التفسير المتعصب العدوانى لبعض أقوال المفسرين مع الخبرة العدوانية التى

اكتسبها من الجهاد ضد الاحتلال السوفيتي في أفغانستان. . وابتداء من عام ١٩٨٩ بدأ «المجاهدون» في أفغانستان يعتقدون أنهم هم الذين دمروا الاتحاد السوفيتي وأن النضال الإسلامي أصبح قوة قادرة على الانتصار على أى عدو آخر، وتناسوا أن الذى هزم السوفيت هى الصواريخ التى زودتهم بها الولايات المتحدة وجعلتهم يتفوقون بها على قوات الاحتلال السوفيتي. .

وبعض المفكرين الأمريكيين يرون أن الصدام بين الإسلام والمسيحية أمر واقع، لأن الأديان في رأيهم، وإن كانت دافعا للتقدم، إلا أنها كانت على مدى التاريخ مصدرا للصراع بين البشر، وفى ظل العولمة الآن أصبح الدين قوة أساسية لمهاجمة التغير السياسى والاجتماعى، وهذا ما عبر عنه جيم هوجلاند فى مقاله فى صحيفة «واشنطن بوست» الأمريكية، وقال أيضا : إن الطلقات التى قضت على السلام والطمأنينة فى كثير من المناطق كانت موجهة تحت شعارات دينية وادعاءات بحماية العقيدة، وهذه الطلقات قتلت شعوبا تنتمى إلى الإنجيل والقرآن والتوراة، وقد أصبحت هذه الكتب المقدسة ملاذا للبعض، وسلاحا للبعض الآخر، وذلك بعد أن هدمت القوى الاقتصادية حائط العقيدة وحائط الهوية القومية وتسبب ذلك فى إشعال الغضب غير المفهوم.

وكدليل على ذلك يقول هوجلاند إن الحريصين على السلام حاولوا منع فصائل المسيحيين من الاستمرار فى قتل مسلمى البوسنة وكوسوفو، والآن يظهر الإسلام متوحدا مع الجماعات الإرهابية التى تقتل الأبرياء فى الشرق الأوسط وفى آسيا، وكذلك فإن اليهود فى إسرائيل يقومون بذبح العرب والمسلمين ويستندون فى ذلك بعقيدتهم لتبرير سفك دماء «الأعداء».

ويمضى هوجلاند فى شرح رؤيته فيقول: إن التاريخ اتخذ شكلا عكسيا فى الوقت الحالى بينما كان العالم منذ عام مضى يعتقد أنه يسير بثبات نحو مستقبل علمانى أكثر ازدهارا سوف تساهم فى تشكيله البورصات والأسواق المالية والإنترنت، وليس المتعصبون وأصحاب العقائد الدينية المتشددة التى يريدون أن تكون الأصابع دائما على زناد المدافع وأزرار الأسلحة النووية! والحقيقة - كما يقول - إن الصراعات إنما تدور حول الأرض والموارد، وهذا الصراع حول الأرض والموارد هو الذى يلعب الدور الأساسى فى الاضطراب السائد فى العالم فى هذه

المرحلة، وأضيف إلى هذا الصراع سيطرة التعصب الديني على السلطة والسياسة ، وكانت من نتيجة ذلك أن هذه الإفرازات لعصر العولمة أشعلت الغضب ضد الغرب وجاء أسامة بن لادن ليجعل هذا الغضب سلاحا لتهديد الغرب ، ومع انتشار تيار التشدد الديني والتعصب انتشرت عقيدة ملخصها: أن الخلاص في الطاعة وليس في الاختيار، لأن الاختيار لله وحده وليس للبشر، وبذلك أصبح الدين هو السياسة في العالم العربي وإيران ومعظم دول آسيا ، وانتهى عصر القومية العربية ، والإمبراطورية الفارسية، والأممية الشيوعية ، وأدى ذلك الانهيار إلى وجود فراغ أيديولوجي كبير ، ورغبة في البحث عن بديل للإجابة عن مشاكل الحياة .

ينتهي هوجلاند من ذلك إلى أن أمريكا أخطأت لأنها لم تستخدم نفوذها لحل الأزمات في الشرق الأوسط والخليج ووسط وجنوب آسيا ، وظهر هذا التفكك الاستراتيجي الأمريكي بعد انهيار حركة طالبان ، ويقول: إن واشنطن لا تتدخل في المسائل الدينية ، ولكنها بأعمالها تؤثر على التوازن في هذه المناطق بين القوى الدينية التي تتنافس على السلطة مستغلة فقدان ثقة الشعوب في حكوماتها بسبب الفساد أو عدم الكفاءة ، أو الإهمال . فقيام أمريكا بمساعدة العراق عسكريا في حربها ضد إيران في الثمانينات لم يكن له علاقة بالدين ، والحرب الأمريكية ضد طالبان كانت بسبب الإرهاب، وليس بسبب أشكال التدين الهمجي التي تمارسها طالبان .

يريد هوجلاند أن يقول: إن أمريكا هي التي حققت التوازن بين السنة والشيعة ، وهي التي ساعدت على إخماد الحملة الأيديولوجية الشيعية التي أعقبت ثورة إيران عام ١٩٧٩ وبعدها سعى زعماء الشيعة إلى تحويل أفغانستان إلى معمل تفريخ للتطرف والإرهاب، والقوة الأمريكية هي التي أحبطت تلك المحاولة . وكانت الميزة الوحيدة لحرب بوش هي إصراره على عدم تحويل الحرب في أفغانستان إلى حرب أمريكية ضد الإسلام ، فالدول الديمقراطية الصناعية تعلم أنها لا تستطيع تبرير الحروب الدينية ولا تقدر عليها . ولكن أمريكا في الوقت نفسه لا تستطيع تجاهل الدور الذي يلعبه الصراع الديني والمصادمات الدينية في إشعال الصراعات العرقية وزيادة التفكك الاجتماعي مما

يتطلب تدخل أمريكا.. هكذا أصبحت العولمة لا تقتصر على البورصات والأسواق المالية والتكنولوجية ولكنها تشمل أيضا الصدامات الدينية .

هكذا تبدو الأحداث الدامية التى تدور فى الشرق الأوسط وآسيا فى عيون أمريكية .

حتى رئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارجريت تاتشر كتبت مقالا فى«نيويورك تايمز» الأمريكية والجارديان البريطانية قالت فيه : إن التيار الإسلامى هو «البلشفية الجديدة» وقالت أيضا : إن الرؤية المألوفة فى العالم العربى والإسلامى عن أمريكا أنها دولة غنية وقوية ، ولكنها بلا قيم. وجاء هذا المقال صدمة للمسلمين ، والصحفى اليهودى الأمريكى توماس فريدمان فى نيويورك تايمز انتهز الفرصة وبنى على هذا المقال فقال : إن هناك حرب مبادئ وقيم بين الغرب والعالم الإسلامى ، وهكذا أصبح مثل هذا التفكير تعبيرا عن صراع الحضارات وربما يبرر أيضا حرب الأديان بعد ذلك ، ولذلك نقول: إنه تفكير خطير يجب أن ننتبه إليه ونتصدى له. .

وأخيرا . .

ما حدث فى أمريكا يوم ١١ سبتمبر جريمة إرهابية خطيرة جدا. . ليس فقط لأمريكا، ولكن للعالم كله. . وهى جريمة أدانها المسلمون من منطلق عقيدتهم الدينية .

هذه الجريمة قد يكون بعض من قام بها من المسلمين والعرب .

وقد يكون دافعَهم تفسيرٌ خاطئٌ ومنحرفٌ لمبادئ الإسلام والجهاد. .

وقد يكون محركَهم إيمانٌ بالنظرية التى بدأت فى أمريكا وانتشرت فى أوروبا عن صدام الحضارات وحتمية الصراع بين الغرب والإسلام. .

ولكن لابد من فهم الفرق الدقيق بين الإسلام كدين والمسلمين كبشر لهم أخطاؤهم، ولكى يفهم الغرب هذا الفرق عليه أن يتذكر أن شارون أو كاهانا أو قاتل رابين أو غيرهم هم إرهابيون ديانتهم اليهودية، ولكن ذلك لا يؤدى إلى القول بأن الدين اليهودى فى ذاته دين إرهابى. كذلك فإن تيموثى ماكفاى الذى

فجر المبنى الفيدرالى فى أوكلاهوما كـان مسـيحيا أمريكيـا وليـس معنـى ذلـك أن الدين المسيحى دين إرهابى أو أن الشعب الأمريكى شـعب إرهـابى. . كمـا أن فـى أيرلندا وأسبانيا وفرنسا جماعات إرهابية مسيحية وليـس معنـى ذلـك أن الديـن المسيحى إرهابى. . أو أن هذه الشعوب إرهابية. .

الخطأ الأكبر الذى يقع فيه كثير من المفكرين والسياسيين والصحفيين والمعلقين فى الغرب هو أن ينسبوا الإرهاب إلى ديانة معينة، أو إلى شـعب بأكملـه، وليـس هذا خطأ فقط، ولكنـه خطـر أيضـا، لأنـه يفتـح البـاب أمـام صـراع الحضـارات، أوصراع الأديان. . أى أنه يفتح الباب للشيطان، ليشعل العالم نتيجة اسـتفزازات وأفكار خاطئة. .

مرض جديد فى بريطانيا
اسمه «إسلاموفوبيا» !

فى صيف ٢٠٠١ خصصت القناة الرابعة بالتليفزيون البريطانى عدة حلقات عن الإسلام والمسلمين فى بريطانيا صورت فيه جماعات من المسلمين من باكستان ودول آسيوية أخرى يعيشون فى بريطانيا منعزلين عن المجتمع البريطانى، ويحملون الجنسية البريطانية ولكنهم لا يشعرون بالانتماء لهذا البلد الذى أعطاهم الجنسية والحماية وفرص الحياة والتعليم، وتوحى الحلقات بأن هؤلاء المسلمين يمثلون بؤرا للعنف وربما للإرهاب أيضًا. .

تصور الحلقات فى البداية شابا باكستانيا مسلما غادر بريطانيا لسنوات قليلة ثم عاد إليها، وقام بجولة مع مقدم البرنامج لزيارة أصدقائه ومعارفه القدامى فاكتشف أنهم تغيروا عما كانوا عليه، وأصبحوا يعتنقون فكرا سلفيا جامدا، ويرفضون مظاهر الحضارة الغربية التى هاجروا إليها من بلادهم طواعية ولم يأتوا مجبرين، كما يرفضون قيم وتقاليد المجتمع البريطانى، ويرفضون الثقافة البريطانية. ووجد صديقه الذى كان يرافقه كل ليلة فى سهرات الرقص وفى صالات «الديسكو» قد ارتدى جلبابا قصيرا وأطلق لحيته وترك كل شىء، حتى عمله القديم تركه أيضًا وفتح محلا صغيرا فى الحى الذى يعيش فيه المسلمون يبيع فيه الكتب والتسجيلات الإسلامية وزجاجات العطر والمسابح، وحين جلس معه ليسأله عن هذا الانقلاب الذى حدث فى حياته قال له إنه وجد المجتمع الغربى منحلا، ومخالفا للشريعة الإسلامية، وقد أقنعه بعض الدعاة بأن حياته خطأ فى خطأ وعليه أن يتوب إلى الله ويبعد بنفسه عن الضلال الذى يعيش فيه البريطانيون ! .

وينتقل مقدم البرنامج بعد ذلك ليقدم مشاهد فى شوارع الأحياء التى يعيش فيها المسلمون، وتنتقل الكاميرا بين النساء وهن يرتدين «النقاب» ولا تظهر غير

العيون فقط، والرجال وهم يرتدون الجلباب ويطلقون اللحى ويضعون فى أقدامهم شباشب، والفتيات الصغيرات عليهن ملابس طويلة وعلى رءوسهن «الخمار» والصبيان الصغار يلبسون الجلابيب والشباشب أيضًا، ويذهب الأطفال إلى مدارس إسلامية خاصة لا تخضع لإشراف الحكومة، لتحفيظ القرآن وتعليم الدين الإسلامى بالشروح والتفسيرات الأصولية المتشددة ، والمدرسات يجلسن داخل المدرسة بالنقاب ، ومدارس البنات لا يدخلها الرجال ولا الصبيان ، وكذلك مدارس الصبيان ليس فيها تلميذة أو معلمة واحدة. .

ويجرى مقدم البرنامج حوارات مع بعض من قابلهم من المسلمين من أصول باكستانية وإيرانية وغيرها وليس بينهم مسلمون من أصول عربية ، فيتبين من هذه الحوارات أنهم حصلوا على الجنسية البريطانية ولهم حقوق وامتيازات المواطنين البريطانيين فى العمل، ومعونة البطالة، والتأمين الصحى والعلاج المجانى. . الخ، وغالبية الجيل الأول من المهاجرين يعيشون فى بريطانيا ولا يعرفون من اللغة الإنجليزية غير كلمات تكفيهم للمعاملات الضرورية، أما الأبناء من الجيل الثانى والثالث فهم يجيدون اللغة الإنجليزية كما يجيدون لغات آبائهم ، ويعيشون فى بيوتهم بتقاليد وأسلوب الحياة فى بلادهم الأصلية، وحين سأل مقدم البرنامج : أين ولاؤك وانتماؤك: هل هما لبريطانيا التى تحمل جنسيتها، أجاب كل من سألهم : لا.. لا.. لا نشعر بالولاء لبريطانيا.. وحين سألهم: إذا كانت بريطانيا فى حرب مع مسلمين فهل تحارب فى صفوف بريطانيا أجابوا جميعًا: لا.. لن نحارب مسلمين.. فكل مسلم هو أخ لنا.. والولاء للإسلام وليس للوطن.. وقالوا أيضًا: إن البريطانيين يرفضون التعامل معنا على قدم المساواة كما يرفضون انضمامنا إليهم فى مجالسهم وحياتهم!. .

وهكذا تعمد البرنامج اختيار نماذج معينة لتعزيز الانزعاج الذى يشعر به البريطانيون من تجمعات المسلمين، خصوصا بعد أن أحرقوا بعض البيوت، واشتبكوا مع رجال البوليس وحرقوا سيارات الشرطة وسيارات الإطفاء، واضطرت السلطات البريطانية لاستدعاء قوات خاصة للسيطرة على الموقف. .

وقال المعلقون: إن ما حدث شيء جديد في بريطانيا يؤكد المخاوف من الإسلام والمسلمين !

ولم يكن الأمر محتاجا لهذا البرنامج، لأن بريطانيا بالفعل تعيش فى حالة من القلق من الإسلام والمسلمين. . تظهر فى محاولات دراسة الإسلام ومجتمعات المسلمين بقصد الفهم وتحديد الأسلوب المناسب للتعامل معهم. . كما تظهر فى تعليقات البعض التى تكشف الخوف والريبة. . وتظهر كذلك فى الحذر الذى يبديه بعض البريطانيين عندما يتعاملون مع مسلمين. . وفى عدم وضوح تعاليم الإسلام فى عقول معظم البريطانيين ويؤدى إلى الخلط بين الإسلام والعنف والإرهاب.. وتصور أن أسامة بن لادن هو «الرمز» أو «المثال» أو «النموذج» للمسلمين بعدائه للغرب. . وتحريضه لأنصاره، وفتواه بمشروعية كل عمل للتدمير والانتقام والتخريب فى المجتمعات الغربية. .

وفى زيارة إلى لندن قدم لى صديق بريطانى كتيبا صغيرا وجدت عنوانه مثيرًا للغاية ، والعنوان هو «إسلاموفوبيا» والفوبيا هى المخاوف المرضية ، فهناك مثلا أشخاص لديهم مخاوف مرضية وليست مخاوف عادية من الظلام أو من الأماكن المرتفعة أو من الفئران. . وهكذا.. وعنوان الكتاب يوحى بوجود مخاوف شديدة وصلت إلى الحد الذى يعتبره الأطباء النفسيون مرضا نفسيًا يحتاج إلى علاج.

وهذا الكتيب عبارة عن تقرير استشارى صادر عن لجنة تضم عددا من المفكرين والعلماء البريطانيين اسمها «المسلمون البريطانيون والاسلاموفوبيا» يرأسها البروفسيور جوردن كونواى نائب المستشار لجامعة ساسكس Sussex وقد أنشئت هذه اللجنة عام ١٩٩٦ - وفى مقدمة التقرير يقول البروفيسور جوردون كونواى: إذا كنت تشك فى وجود «الإسلامو فوبيا» فى بريطانيا ، فإننى أقترح عليك قضاء أسبوع فى قراءة الصحف المحلية والقومية كما فعلت أنا، وستجد أن المقالات التى تشير إلى المسلمين أو إلى الإسلام فيها تعليقات متحيزة ومعادية وهى فى الغالب غير مهذبة، بل فى بعض الأحيان تكون التعليقات وقحة. وحيث يسير الإعلام فإن معظم الناس يسيرون وراءه. . والمسلمون البريطانيون يعانون من التفرقة العنصرية فى أماكن الدراسة والعمل، وتنتشر أعمال التحرش والعنف ضد المسلمين فى المجتمع البريطانى. .

ويضيف البروفيسور جوردون كونواى: وقد وافقت على رئاسة لجنة «رانيميد» الخاصة بالمسلمين البريطانيين والإسلاموفوبيا لأننى أعتقد أن «الإسلاموفوبيا» ظاهرة خطيرة ومدمرة لمجتمعنا ، وقد علمتنى التجربة أن أتعايش وأعمل مع أشخاص ينتمون إلى عقائد وثقافات مختلفة فى آسيا وأفريقيا، ووجدت أن معظم حالات التحيز تنتج عن الفقر، والبطالة والتعليم المتدنى، والظروف السيئة فى العمل والسكن، كما وجدت أنه عن طريق المشاركة والتعلم من خبرات وأفكار بعضنا البعض نستطيع إيجاد وسائل جديدة لمعالجة أسباب الحرمان والتفرقة العنصرية. .

ويقول البروفيسور جوردون كونواى أيضًا فى المقدمة : «المقصود من هذه المقالة الاستشارية استثارة ردود الأفعال، وطرح مجموعة من الأسئلة، وفى التقرير النهائى نهدف إلى مناقشة ومعالجة قضايا التعليم، والتفرقة العنصرية ، والتحرش ، والعنف ، ونقدم مقترحات لإجراء بعض التعديلات الممكنة فى القوانين وفى سياسات الحكومة» .

ثم يقول إن كلمة «إسلاموفوبيا» مبتكرة وحديثة نسبيًا، ومن المحتمل أن تكون مشتقة على غرار Xinophobia (إرهاب الأجانب) والكلمة الأخيرة ظهرت فى القرن التاسع عشر مشتقة من الكلمة اليونانية Xeno غريب أو أجنبى، و Phobia معناها الرعب أو الخوف، وفى قاموس اكسفورد كلمة Xenophobia تعنى كراهية الأجانب أو المخاوف المرضية من الأجانب أو الكراهية العميقة للأجانب، وقد اكتسب هذا المصطلح معانى إضافية فى أوربا فى الثلاثين عاما الماضية، وأصبح المقصود به فى فرنسا وألمانيا مثلا المهاجرين الأجانب من المغرب والجزائر وتركيا ويوغوسلافيا ، وعندما تشير لجان الاتحاد الأوربى إلى هذه العبارة فإنهم يقصدون الأجانب داخل الدول الأوربية وليس الأجانب فى دول العالم عمومًا ، أما العبارة الجديدة المبتكرة «إسلاموفوبيا» فإنها تتضمن المخاوف بنوعيها.. مخاوف من المسلمين فى الخارج فى بلادهم، ومخاوف من المسلمين الذين يعيشون داخل بريطانيا، وبذلك فإن كثيرا من غير المسلمين يزدادون خوفا من الإسلام، وكراهية له، وتتضمن التشبيهات المتكررة التى تستخدم للإثارة

القول بأن المسلمين فى أوربا هم الطابور الخامس ، ورأس الجسر ، وجزر غريبة ، وحصان طروادة ، والعدو الداخلى . . إلخ.

ويقول التقرير بعد ذلك :

«الإسلامو فوبيا» معناها الكراهية أو الخوف من الإسلام والمسلمين ، وهى موجودة فى الدول الغربية وثقافاتها منذ قرون ، ولكنها ازدادت وضوحا وتطرفاوخطورة فى السنوات العشرين الأخيرة فى كل قطاعات الإعلام ، وتنتشر فى كل قطاعات المجتمع ، وإن كان هذا التقرير يهتم بالإسلاموفوبيا فى بريطانيا ، فإنه تجب الإشارة إلى أن الوضع فى بريطانيا يتأثر بالتطورات والأحداث التى تقع فى الأماكن الأخرى . ولذلك تجب مناقشة التأثير العملى للإسلاموفوبيا فى بريطانيا وكيف أنها تؤثر على مشاركة المسلمين فى الحياة العامة ، كما تؤثر فى نظام التعليم و مظاهر التفرقة العنصرية فى التوظف ، وتتسبب فى حوادث العنف ، وفى انتشار الفقر والحرمان. .

وإن نقد أو معارضة المعتقدات والتعاليم والممارسات الإسلامية ليست أمرًا يدعو للخوف فى ذاتها ، ففى إطار الديمقراطية وحرية الفكر ، يكون من الأمور الحتمية والصحية ممارسة النقد بشيء من الغلظة أحيانا للآراء والممارسات التى لا تتفق مع معتقداتهم وآرائهم ، ويكون من المنطقى أيضا توجيه النقد إلى نظم ودول إسلامية ، عندما تكون حكوماتها لا تعترف بالحريات وحقوق الإنسان ولا تمارس الديمقراطية ، وكذلك من المنطقى توجيه النقد إلى معاملة المرأة فى بعض الدول الإسلامية ، ونقد الآراء والاتجاهات التى يعتنقها بعض المسلمين عن الغرب ، ومن المهم إدراك أن المناظرات والاختلاف فى الرأى حول هذه القضايا يحدث بين المسلمين وغير المسلمين ، كما يحدث بين المسلمين أنفسهم. . إذن فكيف تمكن التفرقة بين النقد المنطقى والاختلاف فى الرأى من ناحية و «الإسلامو فوبيا» من ناحية أخرى ؟. .

ويقول التقرير :

إن المخاوف المرضية من الإسلام لها سبع سمات أساسية مرتبطة بعضها ببعض ، والحديث عن سمة منها يثير ضمنا بقية السمات ، وهذه السمات هى :

أولا : رؤية الثقافة الإسلامية على أنها متحجرة وغير قابلة للتغير.

ثانيا : الزعم بأن الثقافات الإسلامية تختلف اختلافا كاملا عن الثقافات الأخرى .

ثالثا : اعتبار الإسلام مصدر تهديد دائم .

رابعا : الزعم بأن أنصار الإسلام يستخدمون عقيدتهم أساسا استخدامًا سياسيا وعسكريا. .

خامسا : رفض انتقادات المسلمين الموجهة للمجتمعات والثقافات الغربية رفضا لا شعوريا. .

سادسًا : الخوف من الإسلام والعداء العنصرى لهجرة المسلمين إلى دول أوربا..

سابعا : اعتبار «الإسلاموفوبيا» أمرا طبيعيا ولا يمثل أية مشكلة. .

وعن السمة الأولى «للإسلاموفوبيا» يقول التقرير :

إن غير المسلمين يصورون الإسلام دائما على أنه جامد ومتحجر وغير متسامح مع من يختلف معه أو يدخل معه فى نزاع، وهذه الفكرة العامة لا تضع فى اعتبارها الاختلافات الجوهرية بين مجتمع وآخر فى العالم الإسلامى ، والتغيرات التى حدثت وتحدث فيها ، ولا تضع فى اعتبارها الحقيقة التى تشير إلى وجود توتر واختلافات بين المسلمين أنفسهم، وتتجاهل ما يجرى داخل العالم الإسلامى من جهود ومجادلات حول الحريات وحقوق الإنسان وتحسين العلاقات بين الإسلام والعقائد الأخرى، وبين الإسلام والحياة، وباختصار فإن هناك مناقشات واختلافات داخل المجتمعات الإسلامية تماثل ما يحدث فى المجتمعات الغربية ، ولا يلحظها الغربيون ولا يلتفتون إليها ، ونتيجة لتجاهل الاختلافات والتنوع داخل العالم الإسلامى فإن الانتقادات التى يوجهها الإعلام البريطانى إلى دول مثل العراق وإيران والسعودية تؤخذ على أنها هجمات منظمة على المسلمين فى المناطق البريطانية أيضا مثل براد فورد، وبرمنجهام وتاورهاملتز ، وبعض المقالات مثلا تربط بين الهجوم على المسلمين من أصل باكستانى فى برمنجهام والهجوم على صدام حسين وياسر عرفات والخومينى. .

وعن السمة الثانية للإسلاموفوبيا يقول التقرير :

إن تجاهل الاختلافات والتنوع داخل الثقافات الإسلامية والحديث عن الإسلام على أنه مفهوم واحد فى كل الدول الإسلامية وعن المسلمين على أنهم نمط واحد أو نموذج واحد متكرر يرجع إلى عدم إدراك الفروق بين المسلمين فى الشرق الأوسط والمسلمين فى جنوب آسيا. . بين الإيرانيين والعرب. . بين البوسنة والشيشان وباكستان وبنجلاديش ويضعهم جميعا فى سلة واحدة. . كما لا يدرك معظم المتحدثين عن الإسلام الفرق بين كثير من الحركات والأحزاب والمشروعات السياسية القائمة باسم الإسلام ، وحتى الذين يسميهم الغربيون «المتشددون» ليسوا فريقا واحدا، ولا يتفقون جميعا على فكر واحد، وليس بينهم اتفاق إلا فى قضايا محدودة، وأيضا لا يدرك الغربيون الفرق بين المسلمين الذين ينتقدون بشدة انتهاك حقوق الإنسان فى بعض الدول الإسلامية، والمسلمين الذين يرفضون التسليم بوجود هذا الانتهاك ، ويرجعون انتقادات الآخرين إلى أنها مجرد أعراض لظاهرة «الإسلاموفوبيا» ولا يفرق الغربيون أيضا بين الجيل الأول والجيل الثانى أو الثالث من المسلمين المهاجرين إلى أوربا، ولا يعرفون الفروق بين التفسيرات المختلفة للتعاليم والمفاهيم فى القرآن والسنة، كما لا يدركون الفوارق بين مفاهيم وخبرات الرجل والمرأة، وبين التيارات الفكرية وأساليب الحياة فى القرن العشرين على سبيل المثال والحركات الخاصة بإحياء الماضى، كذلك لا يدرك بعض الغربيين أن هناك فروقا بين أفراد الطبقات الاجتماعية المختلفة فى المعتقدات والأفكار الإسلامية. .

وعن السمة الثالثة للإسلاموفوبيا يقول التقرير :

إن هناك اعتقادا بوجود اختلاف كامل بين الإسلام من ناحية، والعالم غير الإسلامى من ناحية أخرى ، وهذا الإصرار على الاختلاف يتضمن بالتأكيد ادعاءات بشأن المسلمين وادعاءات أخرى عن غير المسلمين. ومن الأمثلة على الأفكار النمطية عن المجتمعات والثقافات الإسلامية وغير الإسلامية الادعاءات الآتية التى تتردد فى الإعلام وعلى الألسنة فى الغرب :

- إن الثقافة الإسلامية قائمة على إساءة معاملة المرأة ، بينما تخلصت الأديان والثقافات الأخرى من النظام الأبوى والتفرقة بين الجنسين وكراهية النساء. .
- إن المسلمين متشددون فى تفسيرهم للقرآن ، بينما لا تعرف العقائد الدينية الأخرى الجمود والتمسك بالحرفية فى فهم وتفسير النصوص الدينية. .
- إن المسلمين يوظفون المعتقدات الدينية لتدعيم وتبرير نواياهم وأهدافهم العسكرية والسياسية ، بينما المجتمعات المتأثرة بالأديان الأخرى لاتمارس مثل هذا الدمج بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية الذى يؤمن به المسلمون. .
- المسلمون لا يميزون بين المعتقدات الدينية من ناحية والعادات الاجتماعية من ناحية أخرى، وعلى سبيل المثال فإن العادات الريفية فى باكستان يمارسونها وكأنها جزء من العقائد الدينية ، بينما لا يحدث فى الأديان الأخرى مثل هذا الخلطأو التداخل بين العقيدة والثقافة المحلية. .
- المسلمون يواجهون صعوبات فى تنظيم أنفسهم وإرسال ممثلين عنهم إلى الهيئات الخارجية ، بينما لا تمثل قضايا التمثيل والشرعية أية مشاكل لأصحاب الديانات الأخرى. .
- المسلمون كتلة متحجرة، مغسولة الدماغ ، ذات صوت أحادى ولا تتسامح مع الآراء التى يختلف معهم ولا تحترم تعددية الآراء ، بينما نجد فى الأديان الأخرى أصواتا متعددة واختلافات ومناقشات داخلية صحية تدور بتسامح وبدون عنف. .

وعن السمة الرابعة يقول التقرير :

دائما ينظر الغربيون إلى الإسلام على أنه عدو دائم للعالم غير الإسلامى، وفى أوائل التسعينات قال : «بيريجرين ورستورن» إن الإسلام كان فى يوم ما حضارة عظيمة تستحق الحوار معها ، ولكنه غير رأيه وقال بعد ذلك إن الإسلام تحول الآن إلى عدو بدائى لا يناسبه إلا أن يتم إخضاعه. .

ويفترض بعض المعلقين أن خضوع الإسلام لسيطرة الشيطان فى الفترة الأخيرة لم يكن من قبيل المصادفة، إذ حدث ذلك فى نفس الوقت تقريبا الذى تحولت فيه «إمبراطورية الشر» الشيوعية إلى خطر حقيقى، وكانت الثقافة الشعبية والثقافة السياسية فى الغرب فى حالة بحث عن عدو جديد. . عدو دائم. . ليحل محل الاتحاد السوفيتى، وكذلك كانت صناعة السلاح فى الغرب تبحث عن سوق جديدة توجه فيها إلى عدو جديد، ومهما يكن الأمر فإن المؤكد أن الإسلام يتم تصويره على أنه دين شرير تماما فى الخطاب المتأثر فى الغرب بالإسلاموفوبيا، وهذا الخطاب استدعى تعبير «صراع الحضارات» الذى استخدمه صمويل هنتنجتون الأستاذ بجامعة هارفارد وانتشر فى الفكر السياسى والاستراتيجى فى أنحاء العالم، والخطاب المتأثر بالإسلاموفوبيا فى الغرب يتحدث عن الإسلام باعتباره الوريث للنازية والشيوعية، وأنه عقيدة قائمة على الغزو والتسلل.

وما يقال فى كتابات وعلى ألسنة المثقفين والعامة فى الغرب مما يعبر عن رؤية الإسلام كمصدر تهديد للدول، والشعوب، والثقافة، والحضارة الغربية، يتلخص فيما يلى :

- المخاوف من الاستعمار الإسلامى، وأن هناك تهديدا إسلاميا لأوربا المسيحية، وأن الإسلام ينمو ويتوسع تدريجيا وبخطوات بطيئة، وما زال من الممكن إيقافه، ولكن سياسات القوى الغربية فعلت كل ما فى إمكانها لمساعدته على النمو، ويستغل الاستعمار الإسلامى الانحرافات الروحية والاجتماعية فى المجتمعات الغربية ويجد الأرض المناسبة للتوسع عليها كما يقول الفريد شيرمان.
- الفكرة القائلة بأن الإسلام تهديد رئيسى للسلام فى العالم، وأن التعصب الإسلامى يتطور تطورا سريعا ليصبح مصدر تهديد للسلام والأمن، وسببا للاضطرابات المحلية والقومية باستخدام الإرهاب، وهذا التهديد الإسلامى يماثل التهديدات النازية والفاشية فى الثلاثينات والتهديدات الشيوعية فى الخمسينات من القرن العشرين كما يقول كلير هولينجز.

- الفكرة السائدة بأن الحرب مع الإسلام حتمية، فعمليات التدمير والإرهاب ينفذها إسلاميون متعصبون، وهم سعداء لأنهم وفقا لعقيدتهم سوف يذهبون إلى نعيم الجنة ، ويتوقع أصحاب هذه الفكرة أن هناك حروبا لابد منها سوف تشتعل خلال نصف قرن على الأكثر وسينتصر فيها المسلمون المتعصبون كما يقول برنارد ليفين الذى حمل المسلمين المتعصبين تفجير مبنى أوكلاهوما في الولايات المتحدة ثم تبين أن الذى قام بتفجير المبنى متعصب أمريكى اسمه تيموثى ماكفاى .
- النظرية التى تثير الرعب في قلوب الغربيين بالقول بأن «قبائل أصحاب العمامات ستنتصر». . وبأن أى إنسان غريب يمكن أن يحصل على الجنسية البريطانية ولكنه لن يكون بريطانيا ، حتى ولو كان يجيد اللغة الإنجليزية، أو كان مسيحيا، وأبيض اللون. . صحيح أن بريطانيا لغتها الإنجليزية وهي دولة مسيحية بيضاء . ولكن الرعب والغضب يتملكان البريطانيين إذا تصوروا احتمال أن تصبح اللغة الأردية أوالعربية مثلا هى اللغة الغالبة فيها ، أو أن يكون الإسلام سائدا ، أو تصبح الوجوه السمراء هى الأغلبية. . ويقول البعض إنه بسبب رفض البريطانيين للإنجاب فإن الحضارة الأوربية الغربية سوف تتلاشى تدريجيا وتحيا من جديد بدماء جديدة غير أوربية، ثم تنتصر قبائل أصحاب العمامات، ويُدَّرس القرآن فى المدارس البريطانية كما قال جيبون، وكما كتب تشارلز مور فى صحيفة «سبكتاتور» .

ثم هناك الزعم بأن أنصار الإسلام يستخدمون عقيدتهم كسلاح لتحقيق أهدافهم السياسية والعسكرية والاستراتيجية أكثر من استخدامها على أنها مجرد عقيدة دينية ونظام أخلاقى ، وقد ظهرت هذه الفكرة بقوة منذ سنوات فى رسم كاريكاتيرى نُشر لأول مرة في صحيفة «واشنطن بوست» الأمريكية، ثم نُشر بعد ذلك فى الصحافة الأوربية، وكان هذا الكاريكاتير يتكون من ثلاثة رسوم، الرسم الأول لرجل يرتدى العمامة وله لحية كبيرة يجلس فى الفراش يتمطى وتحته

تعليق : «آه. . هذا يوم جديد فى حياة رجل مسلم تقى» والرسم الثانى للرجل المسلم التقى وقد ترك الفراش ووقف يعد على أصابعه وهو يقول : «دعنا نر ما يجب علىّ عمله اليوم. . سأغلق الصحف. . وأقتل امرأة زانية. . وأجلد حبيبها. . وأطلق النار على الأكراد، وأرسل لهم بعض المال. . وأقوم باغتيال فرقة موسيقية فاسقة. .»أما الرسم الثالث فهو لنفس الرجل المسلم التقى وهو يهز كتفيه، ويفتح يديه ويقول : « لا تنس الله. . إذا دعانى استجيب له» ويعبر هذا الكاريكاتير عن النظرة للإسلام فى الغرب أبلغ تعبير، على أنه دين جامد، لا يقبل التنوع والتعدد كما لا يقبل الحوار والمناقشة، ويرفض التطور والإبداع. . وأن المسلم متعصب. . وهمجى. . ومصدر تهديد دائم. . وأن الإسلام ليس عقيدة وحضارة، ولا يمكن للآخرين التفاعل معه تفاعلا مثمرا أو أن يتعلموا منه شيئا له قيمة. . ويزعم هذا الكاريكاتير الذى انتشر، وكان له تأثير كبير، أن المسلمين يرتكبون الجرائم باسم الإسلام وينسبونها إلى الله: «إذا دعانى الله فأستجيب له».

وعن السمة الخامسة يقول التقرير:

يتم الخلط فى بريطانيا دائما بين الإسلاموفوبيا والعنصرية ، فهناك عنصرية فجة ضد الملونين السود، ومعظم المسلمين من ذوى البشرة السوداء أو السمراء. وأيضا فى بريطانيا تحيز ضد المهاجرين وما دام المسلمون فى بريطانيا لهم عادات مخالفة وخصوصا القادمين منهم من جنوب آسيا فإن البريطانيين يشعرون بالخوف من أن تهدد هذه العادات الغريبة بالقضاء على الثقافة الأصلية للشعب البريطانى، والتوحد بين المشاعر المعادية للإسلام والمشاعر المعادية للمهاجرين الآسيويين يمكن أن نلمسها بوضوح فى مقال ساخر ظهر منذ سنوات قليلة فى صحيفة «صن» البريطانية يسخر من معلمة فى مدرسة ابتدائية فى برمنجهام لأنها قررت إزالة صور الخنزير من اللوحات التوضيحية للحروف الأبجدية المطقة على جدران الفصول لأن صورة الخنزير مكروهة ومحرمة عند بعض الآباء والتلاميذ المسلمين فى المدرسة خاصة الذين ينتمون إلى أصل باكستانى، وتضمن

المقال السخرية أيضا من المسلمين فى الشرق الأوسط، هاجم بعد ذلك وجود الآسيويين فى بريطانيا وما تقدمه المطاعم الآسيوية من الأطعمة، كما هاجم نظام التعليم البريطانى لأنه يسمح للتلاميذ من الديانات والأعراق المختلفة بالاستفادة من الميزات والفرص التى يحصل عليها أبناء البريطانيين فى التعليم.

ويقول التقرير أيضا إن الناس فى الغرب عموما وفى بريطانيا خصوصا يرفضون - لا شعوريا - الانتقادات التى يوجهها المسلمون للحرية ، والحداثة ، والعلمانية الغربية ويرون أن هذه الانتقادات لا تستحق المناقشة ، بينما يدور فى الدول الغربية جدل واسع حول هذه الموضوعات، مثل حدود حرية القول، والمطالبة بأخذ المعتقدات الدينية واللاهوتية بجدية فى المناظرات العامة ، ومعايير التحفظ والاعتدال فى العلاقات الجنسية. . الخ. . وعلى الرغم من أن المسلمين لهم وجهات نظر ورؤية مهمة تمكنهم من المساهمة فى هذه المناقشات فإن «الإسلاموفوبيا» تمنع دعوة أو تشجيع المسلمين على أن يكون لهم دور فى هذه الحوارات والاستماع إلى آرائهم .

وفى مقال صحيفة «صن» الساخر الذى نشر فى ١٢ نوفمبر ١٩٩١: ورد أن تدريس اللغة الإنجليزية يتم بطريقة عنصرية موجهة للطبقة المتوسطة البيضاء ، وإذا كنا نريد تشجيع المهاجرين على الاندماج فى مجتمعنا فإنه يجب علينا مساعدتهم على تعلم لغتنا وبدلا من الطريقة القديمة التى تعلم الأطفال حروف اللغة الإنجليزية بوضعها فى أوائل كلمات مثل : تفاح - أو كرة - أو قطة ، نعلم أبناء المسلمين الحروف فى أوائل كلمات تناسبهم مثل : بغداد، وآيات الله، والأمير ، والكعبة ، وحزب الله، والقذافى، وياسر عرفات ، والجهاد، والانتفاضة ، ومكة ، وصدام ، والكلاب الصهاينة ، والإمبريالية العدوانية ، وهكذا يمضى المقال فى التعبير عن صورة من صور «الإسلاموفوبيا» المنتشرة فى الصحافة البريطانية.

ويقول تقرير «الإسلاموفوبيا : إن كثيرا من المفكرين والكتّاب يرون أن التعبير عن الأفكار والمشاعر المعادية للإسلام من الأمور الجديرة بالاحترام ، ومن هؤلاء

ثلاثة من أهم الكبار هم: «هو لينجسوارث، وليفين، وشيرمان» . ويقول أيضا ليست الصحف الصغيرة وحدها التى تشبه الإسلام بالشيطان، ولكن هناك عبارات ازدراء للإسلام تظهر بشكل منتظم فى جميع الصحف البريطانية، وفى عدد كبير من الكتب والكتيبات التى توزع على نحو واسع ، ففى الوقت الذى أثيرت فيه قضية سلمان رشدى مثلا ادعى «فاى ويلدون» فى تعقيب أصدره أن القرآن «غذاء لعدم التفكير. وهو ليس شيئا جميلا يمكن للمجتمع الاعتماد عليه ، وهو فقط سلاح وقوة للنوايا العدوانية العسكرية» وكتب «كيلر وى سيلك» فى صحيفة «ديلى اكسبريس» عن المسلمين «إنهم متخلفون ، وأشرار ، وإذا كنت بقولى هذا أعتبر عنصريا إذن فيجب على أن أكون عنصريا وأن أكون سعيدا وفخورا بأنى كذلك» ، وعندما طالب ولى العهد الأمير تشارلز فى خطابه فى ويلتون بارك فى ديسمبر ١٩٩٦ ببناء علاقات بين الإسلام والغرب، انتشرت فى الصحف البريطانية انتقادات صادرة عن «الإسلاموفوبيا»، ومنها مقال فى «ديلى اكسبريس» على سبيل المثال قال: «إن اقتراحات الأمير تشارلز يجب رفضها مادام معظم المسلمين البريطانيين يشعرون بأن انتماءهم الأول إلى المجتمع الإسلامى فى سائر أنحاء العالم، ويأتى شعورهم بالانتماء للمجتمع البريطانى فى المقام الثانى».

وكتب «ستيفن سنبدر» فى صحيفة «سبكتاتور» تعليقا على قضية سلمان رشدى: «إلى أى مدى يتم تدريس الديمقراطية فى المدارس البريطانية التى تضم أعدادا كبيرة من المهاجرين؟.. وقد وجدت نفسى أفكر بطريقة وطنية فيما يتعلق بالمدارس الأمريكية التى يبدأ التلاميذ يومهم فيها بتحية العلم ، وأتمنى أن يكون هناك علم للديمقراطية يرمز إلى حرية التعبير ليبدأ التلاميذ يومهم بتحيته فى المدارس البريطانية» وكان واضحا من سياق المقال أن كلمة «مهاجر» يقصد الكاتب بها «المسلم» وكان يعبر فى مقاله عن اعتقاده بأن الأطفال المسلمين فى بريطانيا متخلفون عن الأطفال الآخرين، ويحتاجون إلى تدريب خاص على الديمقراطية والوطنية. .

يقول التقرير: هكذا نرى أن الخطاب البريطانى المعبر عن الإسلاموفوبيا يكون فى بعض الأحيان متسما بالوقاحة ، وأحيانا كثيرة يكون لطيفا ، ولكن هذا الخطاب عموما جزء من نسيج الحياة اليومية فى بريطانيا الحديثة ، وهو يشبه الخطاب المعادى للسامية الذى كان سائدا فى أوائل القرن العشرين. والذين يطالبون بمقاومته أو وضع حد له لديهم – فى عقولهم – نفس التشبيهات التى كانت متداولة فى معاداة السامية، ولذلك فهم لا يستخفون بالصعوبات القائمة أمام محاولات التخفيف من أعراض «الإسلاموفوبيا» .

ومعنى ذلك - أن اللجنة العلمية المكلفة بدراسة كيفية تخليص المجتمع البريطانى من مرض الخوف من الإسلام توصلت بعد البحث إلى أن ذلك ليس بالأمر السهل.. !

اعترافات بالانحياز ضد الإسلام

بريطانيا بلد الديمقراطية العريقة والدفاع عن حقوق الإنسان. . البلد الذى يعلن أنه متعدد الثقافات والديانات ولا يعرف التفرقة أو التحيز. . يعانى فيه المسلمون من التفرقة ويعترف البريطانيون أنفسهم بذلك .

قد تكون مفاجأة للبعض اعتراف البريطانيين أنفسهم بوجود مشاعر عدائية تجاه الإسلام والمسلمين في بريطانيا. . وقد لا يصدق البعض أن لجنة خاصة شُكلت باسم«لجنة المسلمين البريطانيين والإسلاموفوبيا» مهمتها دراسة مظاهر ومخاطر ما اعتبروه مرضا نفسيا لدى البريطانيين يجعلهم يشعرون بالخوف من الإسلام والمسلمين ، وكانت هذه اللجنة برئاسة البروفيسور جوردون كونواى مستشار جامعة ساسكس Sussex.

وقد يدهش البعض أن البروفيسور جوردون كونواى قال فى تقرير اللجنة: إن المخاوف المرضية من الإسلام منتشرة فى بريطانيا ، وإن أعراضها تظهر بوضوح فى المقالات والتعليقات فى الصحف المحلية والقومية بما فيها من تحيز وعداء للإسلام والمسلمين وتستخدم غالبا أسلوبا مهذبا ، وأحيانا تستخدم أساليب وقحة وغير مهذبة فى التعبير عن هذا العداء. . وقال أيضا إن المسلمين البريطانيين يعانون من التفرقة العنصرية فى المدارس والعمل ، وتنتشر أعمال التحرش على الرغم من أنهم يحملون الجنسية البريطانية .

وبعد أن يستعرض التقرير مظاهر «الإسلاموفوبيا» انتقل إلى النتائج والعواقب التى يعانى منها المسلمون البريطانيون. . فقال إنهم يعانون من الظلم ، لأن مرض «الإسلاموفوبيا» يحول دون وجود التعددية الثقافية ويمنع وجود «العدل» ويفرض القيود على الحرية الشخصية ، ويؤثر على الشعور بالانتماء ، وإن «الإسلاموفوبيا» مصدر تهديد وخطر دائمين على المسلمين البريطانيين الذين

يبلغ عددهم مليون مسلم تقريبًا ، وهذا «المرض» يجعلهم لا يتمتعون بنفس الحقوق التى يتمتع بها البريطانيون الآخرون . كما أن هذا المرض يزيد احتمالات الفوضى الاجتماعية ويؤثر فى الاقتصاد والعدالة ويقتل الأفكار والأصوات المعتدلة بين المسلمين ، وعلى العكس من ذلك يدفعهم إلى الوقوع فى أيدى المتطرفين ويغذى الفكر الإرهابى فى الغرب. . أكثر من ذلك فإن «الإسلاموفوبيا» تمنع المسلمين وغير المسلمين من التعاون فى تشخيص وحل المشاكل التى تواجه المجتمع البريطانى ، وتَمنع أيضا البريطانيين غير المسلمين من تفهم حقيقة الميراث الثقافى والعلمى والفنى للإسلام والانتفاع منه والاستفادة من التعاليم الأخلاقية الإسلامية .

ويقول التقرير: إن مرض «الإسلاموفوبيا» موجود فى دول أخرى كثيرة وليس مقصورًا على بريطانيا وحدها ، ولذلك فإن كل ما يحدث فى بريطانيا يؤثر فى مواقع أخرى من العالم الغربى ، وبالتالى فإن عدم مواجهة هذه الظاهرة المرضية سيؤدى إلى تعقيد الأمور ويزيدها سوءا بسبب التأثيرات والأحداث والاتجاهات من مجتمعات أخرى ، ولا يغيب عن البال أن هذا العداء يدمر التعاون التجارى، والعلاقات الدبلوماسية والدولية ، ويزيد من صعوبة التعاون بين المسلمين وغير المسلمين فى حل المشاكل العامة ، وعلى سبيل المثال فإن الصراع الدموى فى يوغسلافيا السابقة كان الإسلام عاملا من أهم عوامل هذا الصراع ، مما جعل كثيرا من المسلمين يرون أن «الإسلاموفوبيا» هى التى حركت الأحداث وحددت المواقف الغربية فى هذا الصراع .

بعد ذلك يحدد التقرير خمس نقاط رئيسية من مظاهر وعواقب «الإسلاموفوبيا» وهى: الحرمان - والإقصاء - التفرقة فى التعليم - التفرقة فى المعاملة - التحرش والعنف - الصراع والمواجهة . ثم يناقش كلا منها. .

يقول التقرير عن ظاهرة «الحرمان والإقصاء» إن الإحصائيات المنشورة توضح أن المسلمين البريطانيين من أصول باكستانية أو من بنجلاديش يعانون من البطالة أكثر من غيرهم من الأقليات الأخرى فى بريطانيا ، كما أنهم يعيشون فى ظروف عمل متدنية ، ويعانون من الفقر ، والحياة فى مساكن رديئة يتكدسون فيها ، ويعيشون فى معاناة بسبب نقص الرعاية الصحية ، وفرص التعليم غير المتكافئة،

وفى تقرير لجمعية العمل من أجل الأطفال الفقراء يتبين أن نسبة البطالة بين الذكور من البريطانيين من باكستان أو بنجلاديش تصل إلى ٢٩٪ فى عمومها، وتزيد النسبة بين الشباب بين ١٦ و ٢٤ عاما لتصل إلى ٣٤٪ بينما معدل البطالة بين البريطانيين البيض فى الإجمالى ١١٪ وبين الشباب ١٨٪ ، وعدد الأسر التى تحصل على إعانة بطالة ومساعدات اجتماعية ثلاثة أضعاف عدد الأسر من البريطانيين البيض. ودخل الذكور من ذوى المؤهلات العليا وأصولهم من باكستان أو بنجلاديش ٦٨٪ من دخل الذكور البيض، ونسبة البطالة بين هؤلاء ١٠٪، بينما النسبة بين البيض ٤٪ بنفس المؤهلات . ونتيجة لهذا العائق المادى فإن كثيرا من المسلمين البريطانيين أصبحوا أقل قدرة على المشاركة فى الحياة العامة والحياة السياسية ، بسبب الاتجاهات السلبية السائدة تجاه الإسلام والتى تعتبر أيضا مسئولة عن حرمان المناطق التى يعيش فيها المسلمون من الإصلاح والتجديد ونقص مشروعات مكافحة الفقر فى هذه المناطق .

وكذلك يرى كثير من المسلمين أن «الإسلاموفوبيا» هى السبب فى إقصاء المسلمين وحرمانهم من المواقع البارزة فى الأحزاب السياسية . فلم يظهر أبدا حزب إسلامى أو عضو مسلم فى مجلس اللوردات ، ولم يظهر إلا فى الانتخابات الأخيرة مرشح واحد مسلم فى انتخابات مجلس العموم ، ولم تعرف بريطانيا مرشحين مسلمين فى الانتخابات العامة إلا فى عام ١٩٩٧ ومع ذلك كانت فرصة النجاح للمرشحين المسلمين محدودة جدا .

أما عن التفرقة فى التعليم فإن نصيب المسلمين البريطانيين من التعليم يظهر فى رسالة أرسلتها طالبة مسلمة فى مدرسة ثانوية إلى لجنة «رونيميدى»تتحدث فيها عن الآثار النفسية التى يعانى منها التلاميذ المسلمون. ومثل هذه الرسالة كانت الدافع للجنة لكى تطرح أربعة تساؤلات أساسية هى : إلى أى مدى تراعى المدارس الاحتياجات البسيطة للطلبة المسلمين ؟ وهل ينبغى على الحكومة أن تقدم إعانات لتمويل مدارس المسلمين ؟ وما الذى يجب أن يدرسه جميع التلاميذ البريطانيين عن الإسلام سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين ؟ وما هو العمل الذى يجب على المدارس القيام به لتقليل آثار «الإسلاموفوبيا» فى الحياة المدرسية عموما ؟

وفى السنوات الأخيرة تعرضت الحكومة البريطانية لضغوط شديدة لكى تشارك فى تمويل مدارس المسلمين البريطانيين لتقلل من الشعور بالتفرقة لدى التلاميذ المسلمين ، ولتتساوى مدارس المسلمين مع المدارس التابعة للكنيسة البريطانية ، والمدارس الكاثوليكية ، والمدارس اليهودية الموجودة فى بريطانيا. وتقوم هذه المدارس على أساس أنها مظهر من مظاهر المساواة فى المجتمع ، وعلى هذا الأساس يجب أن تكون لمدارس المسلمين نفس الحقوق التى تحصل عليها المدارس الدينية الأخرى ، وهذه المساواة هى التى يمكن أن تؤكد التزام الحكومة بما تعلنه من احترام التعددية العقائدية ، ولكن المعارضين لهذه المدارس يقولون : إنه لا لزوم لوجودها مع وجود أماكن خالية فى المدارس الحكومية، بينما يعتقد المسلمون البريطانيون أن السبب الحقيقى لحرمان مدارس المسلمين من الدعم المالى الحكومى هو المشاعر المعادية للإسلام. والجدير بالذكر أن فى بريطانيا ١٤ مدرسة إسلامية خاصة تضم أقل من ١٪ من مجموع التلاميذ المسلمين ، يتم تمويلها بالتبرعات، بينما يوجد ١٩٠٠ مدرسة تابعة لكنيسة إنجلترا ، و ١٨٠٠ مدرسة كاثوليكية ، و ١٧ مدرسة يهودية .

أما الرسالة الثانية التى كانت نقطة البداية لإثارة موضوع معاناة التلاميذ المسلمين فى مدارسهم فكانت من طالبة من بنجلاديش تقول ، إننى أبلغ من العمر خمسة عشر عاما . اعتنقت الإسلام مؤخرا، وقبل ذلك لم أكن أفهم ما هو الإسلام، ثم أدركت كم هو دين جميل ومثالى، وإننى أكتب إليكم حتى يشاركنى إنسان فى مشاعرى ، وأنا على يقين أنه سيفهم حقيقة مشاعرى ، فما إن بدأت أمارس الشعائر الإسلامية حتى تغيرت نظرة بعض المدرسين لى ، وأنا فى مدرسة أغلبية تلاميذها من أصول آسيوية ، ولذلك فإن التلاميذ لا يسببون لى أية مشكلة ، ولكن المشاكل من المدرسين الذين أجد المعاناة فى محاولة إقناعهم بأننى مسلمة ولست إرهابية ، ولكنهم لا يفهموننى ، ولا يفهمون دينى. . ومدرس الرياضيات واضح وصريح معى فهو يعلن أنه لا يحب المسلمين ، ويخرج عن حدود اللياقة ، ويهزأ بى وبزملائى المسلمين، والفتيات الأخريات اللاتى تحولن إلى الإسلام يواجهن نفس المعاناة التى أواجهها ، وقد يكون الوقت متأخرا بالنسبة لى لأننى لم يبق لى فى المدرسة سوى هذه السنة النهائية ، ولكنى مع

ذلك أود لو أستطيع أن أفعل شيئا لتغيير النظرة إلينا حتى لا يعانى الآخرون كما عانيت ، وأتمنى أن أجد نصيحة لما يمكن أن أقوم به لكى يحدث هذا التغيير .

هذه الرسالة وأمثالها من الشباب البريطانى المسلم أثارت اهتمام لجنة المسلمين البريطانيين والإسلاموفوبيا»، ويقول تقرير هذه اللجنة: إن كثيرا من المدارس حققت تقدما فى السنوات الأخيرة ولم يعد كل التلاميذ المسلمين يلاقون المعاملة من مدرسيهم بنفس الطريقة الخالية من الإحساس مثل صاحبة الرسالة ، وهناك دلائل تشير إلى أن التلاميذ من أصل باكستانى وبنجلاديشى ليسوا أقل من زملائهم البيض .

ويقول التقرير:

إن فى بريطانيا قانونا يمنع العنصرية والتمييز فى المعاملة على أساس اللون أو العنصر أو الجنسية أو على أساس الأصول القومية والعرقية، ولكن القانون لم ينص على منع التفرقة على أساس الدين، وعلى ذلك فإن هذا القانون لا يوفر الحماية الكاملة للمسلمين، والإحصائيات ليست متوافرة عن التمييز المباشر فى المعاملة ضد المسلمين، ومع ذلك وصلت إلى المحاكم حالات يشكو أصحابها من التمييز غير المباشر فى المعاملة ، وفى بعض القضايا تمكن المسلمون من الحصول على أحكام لصالحهم، وكمثال على ذلك إن القضاء أصدر حكما لصالح موظفة بريطانية مسلمة من أصل باكستانى ترتدى الملابس الطويلة لأن رئيسها فى العمل أرغمها على ارتداء ملابس قصيرة ، وفى قضية أخرى طلب مدير من مكتب التوظيف المحلى عدم ترشيح موظفين مسلمين وثبت للمحكمة أن هذا المدير متورط فى التمييز المباشر ضد طالبى الوظائف الآسيويين ، وفى قضية ثالثة وجدت المحكمة أن شركة أمرت موظفا مسلما بعدم أداء الصلاة فى مكان العمل، وقضية رابعة ثبت فيها للمحكمة أن شركة رفضت السماح للموظفين المسلمين بإجازة فى العيد، وكانت هناك أدلة كثيرة جدا على أن الموظفين البريطانيين المسيحيين واليهود من أصول غير بريطانية يتمتعون بحماية كاملة ويطبق عليهم قانون منع التمييز العنصرى، باعتبارهم ينتمون إلى مجموعات عرقية مميزة ، بينما لا تتوافر هذه الحماية لأصحاب العقائد الأخرى، والأمر غير الطبيعى أن حظر التمييز المباشر على أساس الدين على الوظائف واعتباره مخالفا للقانون

لا يطبق إلا فى جزء من المملكة المتحدة ، فى أيرلندا الشمالية ، وليس فى كل بريطانيا ، أما السبب فى عدم تدارك هذا الوضع الشاذ فإنه يرجع إلى «الإسلاموفوبيا» وما يترتب عليها من عدم اهتمام بمشاعر المسلمين ، مما يستلزم إصدار قانون جديد لمنع التفرقة على أساس الدين ليكون رسالة عامة واضحة بأن «الإسلاموفوبيا» لم تعد مقبولة ، وإن البريطانيين المسلمين لهم نفس الحقوق كسائر المواطنين .

بعد «التفرقة فى المعاملة» يتحدث التقرير عن «التحرش والعنف» فيقول: إن الإحصائيات غير متوافرة عن حالات العنف الجسدى والتحرش اللفظى ضد البريطانيين المسلمين ، لأن الشرطة لا تسجل الديانة أو الدول الأصلية التى ينتمى إليها الضحايا ، ولكن ما نشر من الإحصائيات يكفى لتوضيح أن المسلمين من أصول آسيوية مستهدفون أكثر من غيرهم ، وأن المناطق التى يسكن فيها المسلمون المتحررون من باكستان وبنجلاديش هى أكثر المناطق التى تنتشر فيها الهجمات العنصرية ، والمؤكد أن أغلبية الأشخاص الذين قتلوا بسبب العنف العنصرى فى السنوات الأخيرة كانوا مسلمين ، وتم قتلهم غالبا عن طريق المنظمات اليمينية مثل الحزب الوطنى البريطانى، وعلى سبيل المثال جاء فى أحد منشورات هذا الحزب أن فى بريطانيا مليونى مسلم يعيشون بيننا ومعظمهم ينتظرون اندلاع «حرب دينية» تتمزق فيها بريطانيا باسم الإسلام، ويقول المنشور: نحن نعتقد أن المسلمين البريطانيين والمهاجرين الآخرين من غير الأوروبيين يجب عليهم العودة إلى أوطانهم الأصلية» . وعندما اندلعت حرب الخليج ظهر رسم فى منطقة «روك ديلى» وتحته كلمات تقول : «مقابل كل جندى بريطانى قتل فى الخليج سيموت طفلان مسلمان»، ويقول التقرير: «إن الرقم الحقيقى للمسلمين البريطانيين هو مليون بريطانى مسلم» ولكن المنظمات اليمينية تحرص على مضاعفة العدد لكى تزيد من الشعور بالخطر .

وبعد ذلك يتحدث التقرير عن «المواجهة والصراع» فيقول إنه من السذاجة الادعاء - ولو للحظة - بعدم وجود صراعات بين الغرب والإسلام أو عدم وجود صراعات ملحوظة فى المجتمع البريطانى . وفى الماضى كانت هناك صراعات شملت الصليبيين، والفتوحات الإسلامية فى أسبانيا ، وانتشار الإسلام فى أوروبا

بـالغزو ، والاسـتعمار الأوروبـى للـدول الإسـلامية فـى الشـرق الأوسط وشمــال أفريقيا ، وفى الوقت الحاضر توجـد صراعـات المصـالح ، والصـراع الحـالى يتعلـق بإسرائيل وفلسطين ، وبالتحكم فى مصادر البترول فى الشـرق الأوسـط ، والصـراع فى البوسنة ، ومع عدم وجود العدل وعدم تحقيق المصالحة فى إسرائيل وفلسـطين والبوسنة ، ومع احتياج الدول الغربية إلى بترول الشرق الأوسـط ، فـهناك دائمـا احتمال بأن يؤدى تعارض المصالح إلى أن يعمل كـل طـرف علـى إخضـاع الآخـر ، ونتيجة للإخضاع سوف تتراكم المشاعر المعادية للإسلام فى بريطانيا مما يزيد من تعقيد الأمور ويجعل مقاومة «الإسلاموفوبيا» أمرا صعبـا ، ويزيـد الأمـر صعوبـة وجـود الصـراع فـى منـاطق أخـرى مثـل الشيشـان وأفغانسـتان والهنـد ، ونشـوء صراعات وتوترات سياسية بين الدول الإسلامية نفسها وفى داخلها أيضا ، وينظر الغربيون - والبريطانيون - إلى هذه الصراعات والتوترات علـى أنـها صـراع بـين الحداثة التى يمثلها الغرب مــن ناحيـة والإسـلام التقليـدى المتشدد مـن ناحيـة أخرى ، والجماعات الإسلامية هى التى تحرص على صبـغ كـل الأمـور بالصبغـة الإسلامية ، وهذا الصراع حين يبدأ فإنه سرعان ما يتحـول إلى دائـرة شـريرة مـن العداء المتبادل ، وتزيد قوة هذه الدوائر الشريرة بسـبب «الإسـلاموفوبيا» فيـؤدى إلى تصعيد الصراع . .

يصل التقرير إلى الجانب العملى بعد أن انتهى من شرح ظاهرة الإسـلاموفوبيا ومظاهرها وأسبابها ، فيطرح سؤالا : ما الذى يجب عمله ؟ ويقدم خمسـة مبـادئ أساسية يمكن أن تكون الأساس لعلاج هذه الظاهرة فى المجتمع البريطانى .

يقول التقرير : إن «الإسلاموفوبيا» أصبحت ظاهرة حقيقية وخطيرة فى الحيـاة وفى الثقافة المعاصرة ، ومن الضرورى أن يعمل الغرب على مواجهة هذه الظـاهرة والحد منها ، وإن الكثير من الشخصيات فى بريطانيا لها دور فعال لابد لها مــن القيام به على المستوى الفردى وعلى المسـتوى الجمـاعى بالتنسـيق فيمـا بينـهم ، وهـذه الشـخصيات تضـم السياسـيين ، والصحفيـين ، وأصحـاب الـرأى ، وصـانعى السياسات فى التعليم ، والتشريع ، والتوظيف ، والحكومة ، ورؤساء الكنائس ، والشـخصيات البـارزة فـى مجتمعـات المسـلمين ، ومطلـوب لذلـك القيـام بأعمـال متعددة ، ولا يكفى عمـل واحـد . مطلـوب تعديـل قـانون التميـيز فـى المعاملـة ،

وبالإضافة إلى ذلك مطلوب أيضا اتخاذ إجراءات محددة وملموسة بالنسبة للعقائد المختلفة ، وبناء الثقة والاحترام المتبادل بين أصحاب الديانات المختلفة . .
ويحتاج المسلمون وغير المسلمين إلى توضيح الفرق بين معارضة الإسلام في ذاته عن خوف أو كراهية، وبين النقد المنطقي الذى يعبر عن الاختلاف في الرأى، بحيث لا تكون كل الانتقادات الموجهة للإسلام صادرة بالضرورة عن كراهية أو عداء. . وإن كانت ظاهرة «الإسلاموفوبيا» في بريطانيا تتأثر بالاتجاهات والأحداث في مناطق أخرى، كما أن الموقف من الإسلام والمسلمين في بريطانيا يؤثر في مناطق أخرى، فإن البريطانيين في حاجة إلى الوعي بالبعد الدولى في الموضوع، ولكن ذلك ليس عذرا لعدم معالجة هذه الظاهرة داخل بريطانيا بجدية .

وفي ختام التقرير يقدم عددًا من التساؤلات. يقول إنها للمزيد من المناقشة وإثارة الاهتمام بالقضية، ويعلن أن لجنة «رونيميدى تراست» الخاصة بالمسلمين البريطانيين والإسلاموفوبيا ترحب بتلقى الآراء والاقتراحات بشأن هذه القضية ، وبخاصة في الموضوعات الآتية :

- القانون الحالى الخاص بتجريم التفرقة في المعاملة، وهل يحتاج الأمر إلى قانون جديد للنص على تحريم التفرقة في المعاملة في بريطانيا على أساس الدين واعتبار ذلك مخالفة قانونية يتعرض من يرتكبها للعقوبة ؟!
- هل يجب أن يكون في بريطانيا قانون آخر لمنع التحريض على كراهية الأديان وأصحابها وفرض عقوبات على ذلك ؟!
- ما هى الإجراءات التى يجب اتخاذها لضمان إعطاء المسلمين البريطانيين الفرصة للقيام بدورهم كاملا في الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية ؟
- هل مطلوب سياسات جديدة في نظام التعليم الحالى في بريطانيا ؟!
- هل يجب توجيه الإعلام البريطانى فيما تجب مراعاته عند تناول القضايا الحساسة ومناقشتها مثل قضية «الإسلاموفوبيا» ؟! وإذا كان ذلك لازما فما الذى يجب أن يتضمنه هذا التوجيه، ومن الذى يقوم به ؟

- هل يجب توجيه أصحاب الأعمال بعدم التصرف مع العاملين لديهم، وعدم معاملة طالبى الوظائف المسلمين بروح «الاسلاموفوبيا»؟ ومن الذى يمكن أن يقوم بهذا التوجيه ليكون فعالا ويحقق النتائج المطلوبة منه؟
- ما هى المسئوليات التى يجب أن يقوم بها قادة الرأى العام فى المجتمعات غير المسلمة ؟

وهل للقادة وأصحاب الرأى داخل مجتمعات المسلمين دور أو مسئولية فى الحد من «الإسلاموفوبيا» ؟

وأخيرا ما هى الإجراءات العملية المطلوبة لبناء الثقة فى داخل المجتمع البريطانى وفى السياسة الخارجية البريطانية ؟

هذا ما يقوله تقرير لجنة من كبار المفكرين وأساتذة الجامعات البريطانيين يرأسها البروفيسور جوردون كونواى نائب المستشار لجامعة ساسكس Sussex وأعضاؤها هم : القس ريتشارد شارتز أسقف لندن حتى ديسمبر ١٩٩٦ ، وأيان هارجريفز رئيس تحرير صحيفة «نيوستاتسمان»، والدكتور فيليب لويس مستشار شئون الأديان لأسقفية برادفور ، وتريفور فيليبس رئيس لجنة رونيميدى تراست ، والدكتور سيبستيان بولتر أستاذ القانون بجامعة سوث هامبتون، والسيدة أوشا برشا من هيئة الخدمة المدنية ، والدكتور ريتشارد ستون رئيس المجلس اليهودى لمنع التفرقة العنصرية ، والقس جون فيبر مستشار أسقف ستيبنى حتى ديسمبر ١٩٩٦ ، ومع هؤلاء عدد من كبار الأساتذة المسلمين البريطانيين .

لم أقل كلمة من عندى. . لأن التقرير فى ذاته وثيقة مهمة. . ووجود هذه اللجنة مهم فى ذاته. . وصدور هذا التقرير أهم. . وإن كان شهادة على وجود الشعور بالعداء والكراهية للإسلام والمسلمين فى بريطانيا. . فإنه فى نفس الوقت شهادة للديمقراطية البريطانية التى تسمح بالاعتراف بهذا الخلل والاعتداء على مبادئ الديمقراطية البريطانية بكل هذه الصراحة. . وبكل هذا الوضوح. .

وفى الصحافة البريطانية انتقادات للمدارس الإسلامية مرة بالقول بأنها تمنع تخصيص حصة للموسيقى لأن الطالبات المسلمات يرفضن ارتداء ملابس الرقص،

ومرة بالقول بأن هذه المدارس تدرس نظرية دارون عن التطور وتشكك فيها بينما يدرسها التلاميذ البريطانيون على أنها صحيحة وعليها أدلة تثبت صحتها، ومرة لأن هذه المدارس ترفض تدريس الجنس لأن المسلمين يرفضون الحديث عن كل ما يتصل بالجنس والتناسل .

واذكر أني قابلت مرة مسئولا في وزارة التعليم البريطاني وأراد أن يثبت لى أن الوزارة تحترم الدين الإسلامي فقال: إنهم إذا وجدوا عددا مناسبا من التلاميذ المسلمين فإنهم يدرسون لهم الدين الإسلامي فى حصة «الدين» وعندما لا يجدون إماما من أئمة المساجد فإنهم يعهدون إلى أحد رجال الدين المسيحى أو اليهودى بتدريس الإسلام للطلبة المسلمين. . باعتبار أنهم ما داموا رجال دين فإنهم قادرون على تدريس أى دين !

ولم أدهش، لأن لانتوس عضو الكونجرس الأمريكي اليهودى هو الذى يشرح الدين الإسلامى لأعضاء الكونجرس. . والنتيجة معروفة طبعا !

بعد انتهاء معاداة السامية
بدأت معاداة الإسلام !

انتهت فى الغرب موجة العداء للسامية ، أو كادت تنتهى، وبدأت حملة العداء للإسلام والمسلمين أقوى وأشد تأثيرا ، إلى الحد الذى يرى فيه البعض أنها الخلفية الحقيقية للحرب التى تقودها أمريكا بأحدث اسلحتها على بعض البلاد الإسلامية والحروب القادمة التى ستوجه إلى بلاد إسلامية أخرى ، بالإضافة إلى أن الحصار الاقتصادى المفروض على بعض الدول الإسلامية ليس مفروضا على أية دولة غير إسلامية فى العالم . وتظهر حملة العداء للإسلام فى المضايقات التى يواجهها المسلمون الذين يعيشون فى الغرب أو يذهبون للزيارة. . وتزداد فلتات اللسان من أمثال برلسكونى رئيس وزراء إيطاليا عن حضارة الإسلام الكريهة إلى الرئيس الأمريكى جورج بوش الذى أعلن «الحرب الصليبية» . .

وفى بحث أجراه مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية عن الظروف التى يعيش فيها المسلمون فى أمريكا فى يوليو وأغسطس ٢٠٠٢ تبين أن ٥٧٪ من المسلمين فى أمريكا تعرضوا للتمييز العنصرى والاضطهاد بعد أحداث ١١ سبتمبر، و ٤٨٪ تحولت حياتهم إلى الأسوأ ، و ٦٧٪ قالوا إن التحيز ضد الإسلام زاد فى الصحافة والتليفزيون فى أمريكا . وهذا البحث شارك فيه المسلمون الذين يعيشون فى٤٠ ولاية من الولايات المتحدة .

وفى شهر أغسطس ٢٠٠٢ دارت معركة فى الولايات المتحدة لأن جامعة نورث كارولينا الأمريكية اختارت ضمن كتب القراءة الصيفية كتابا عن الإسلام والقرآن من تأليف البروفيسور مايكل سيلس أستاذ علم الأديان المقارن بجامعة هارفارد وعنوانه «منهج القرآن: الوحى الأول»، واجتمعت لجنة فى برلمان ولاية نورث كارولينا وطالبت بوقف تمويل الجامعة بسبب اختيار هذا الكتاب . ورفعت إحدى الجمعيات المسيحية الأمريكية المحافظة دعوى أمام إحدى المحاكم ضد

الجامعة على أساس أنها تروج لدين «الأعداء» ، وتعرضت الجامعة لحملة من الانتقادات بسبب موافقتها على اختيار هذا الكتاب . ولم تتوقف الحملة حتى بعد أن تراجعت الجامعة ، وقررت جعل دراسة هذا الكتاب اختيارية على أن يقوم الطالب الذى يرفض قراءته بكتابة مقال يوضح فيه أسباب الرفض . ولم يجد مستشار الجامعة البروفيسور جيمس موسير اقتناعا من المعارضين بما أعلنه من أن اختيار الدين الإسلامى لتدريسه جاء استجابة لتزايد الاهتمام بدراسة هذا الدين بعد هجمات ١١ سبتمبر، وأن الدين الإسلامى هو الأكثر إثارة لاهتمام الأمريكيين، ولم يستمع أحد إلى إعلان بعض أساتذة الجامعة أن معارضة تدريس الإسلام يمثل اعتداء على الحرية الأكاديمية للجامعة. وأخيرًا اعترف أستاذ الدراسات الدينية بجامعة نورث كارولينا البروفيسور كارل أرنست بأن هناك تيارا قويا متحيزا ضد الإسلام، وأن هذا الموقف جزء من تاريخ طويل من العداء للإسلام، ومن السهل اقتطاع أجزاء من أى كتاب مقدس للإساءة إليه وتشويه مقاصده .

وحاول البروفيسور مايكل سيلس أن يعوم ضد التيار فكتب مقالا فى صحيفة «واشنطن بوست» الأمريكية يوم ٩ أغسطس ٢٠٠٢ ونشرته صحيفة هيرالد تريبيون فى نفس اليوم، بعنوان «الكتب المقدسة لا تؤخذ باستهتار»، أشار فيه إلى الدعوى المرفوعة أمام المحكمة ضد جامعة نورث كارولينا بسبب موافقتها على اختيار كتابه «منهج القرآن» ليكون ضمن كتب القراءة الصيفية لطلبة السنة الأولى، والتهمة الموجهة إلى الجامعة أنها تلقن الطلبة معلومات حول طبيعة الإسلام السلمية وهذه ادعاءات خاطئة، والجامعة بذلك تنتهك القانون والدستور الأمريكى بالفصل بين الدين والسياسة، وقال البروفيسور مايكل سيلس فى مقاله : إن كتابه هذا لا يتضمن أية ادعاءات أو دعايات عن الإسلام، وحاول الأستاذ أن يدافع عن نفسه قبل أن تلاحقه المنظمات المعادية للإسلام وتقضى على مستقبله الأكاديمى وربما تقضى على حياته، فقال فى مقاله : إن البعض يساوى بين فهم القرآن والتراخى فى محاربة الإرهاب الإسلامى ، وقال - لكى ينفى عن نفسه تهمة التحيز للإسلام -: إنه سبق أن ناشد الحكومة الأمريكية قبل ١١ سبتمبر الإطاحة بنظام طالبان الإجرامى، وسبق أن حذر من الخطر الذى يشكله المذهب الإسلامى المتطرف .

وبعد ذلك قال البروفيسورمايكل سيلس فى مقالــه إن وراء هـذه القضيــة ادعـاء تبشيريا قديما بأن الإسلام دين عنف بعكس المسيحية فهى دين الســلام ، ولذلـك يختصم المتقاضون القرآن نيابة عن الكتاب المقدس، وهم يستشهدون أمام المحكمة بآيات من القرآن تدعو المسلمين إلى قتل الكفار، بينما يفسر معظم المســلمين هـذه الآيات فى سياق الحرب بين محمد واتباعـه من جانب وأعدائهم فى ذلـك الوقت مـن جـانب آخـر، ولا تنطبـق هـذه الدعـوة للمسـلمين الآن إلى قتــل أصـــدقائهم وجيرانهم من غير المسلمين. وكما يعتبر المسيحيون واليهود أنفسهم مأمورين مـن الله فى الكتاب المقدس - مثل يسـوع - بنبـذ الملحديـن. وكمـا أن بعـض المسـيحيين يعتبرون أنفسهم «يسوع الجديد» كذلك يتصور بعض المســلمين أن مـن يــهاجمون الإسلام الآن مثل هؤلاء الذين هاجموا محمدا وأتباعه ويدعون إلى الجهاد ضدهـم، وهؤلاء قلة تمكن معرفتهم، وتحديدهم ، ومواجهـتهم ، على أن نتجنب افـتراض أن كل المسلمين يفسرون القرآن بنفس الطريقة .

وقال البروفيسور مايكل سيلس أيضا فى مقاله: إن بعض المسيحيين يتفـاخرون بأن المسيح لم يأمر اتباعه أبـدا بقتـل الملحديـن، ولكـن أمـر أن يـتركوا الحسـاب والعقاب فى الآخرة ، ولكن الكتب المقدسة تتصل بـالعنف بطـرق معقـدة، ففـى أيـام محـاكم التفتيـش الكاثوليكيـة كـانت تحكـم بـالإعدام علـى مـن تعتـــبرهم «هراطقة» وظلت تحاكم وتقتل خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وفـى هذا الزمن كان قتل المتهم بالهرطقة يعتبر فى نظرهم أكثر رحمة من السماح لـه بالتأثير على الآخرين وقيادتهم إلى التهلكة، وكانت«الرحمة» هى الحجــة التـى استخدمت لتـبرير اضطـهاد اليـهود . وكذلـك الحـال الآن ، فـإن طالبـان قــرءوا القرآن، وكذلك فإن المســلمين الذيـن اضطهدتــهم طالبـان وحكمـت عليـهم بـالكفر (وهى التهمة المساوية للهرطقة فى المسيحية) قـرءوا القرآن نفسه . والآيات التى ألهمت غاندى ثورته السلمية (وهو ليس مسلما) هى ذاتها الآيات التى يستشـهد بها هؤلاء الذين ذبحوا المسلمين غير المسلحين فـى الهنـد مؤخـرا . وأيضـا يـردد المتحدثون فى «شبكة السياسة العائليــة» كمـا يـردد بـات روبرتسـون آيـات مـن القرآن معزولة عن سياقها لإثبات وجهة نظرهـم بأن القرآن يطالب المسلمين بقتل «الملحدين» ، وبالنسبة لهم فـإن «الإسـلام هـو العـدو» بكـل وضـوح ، وبعـد ذلـك

يقولون : كيف لنا أن نثق فى جارنا وزميلنا المسلم إذا كنا نعرف أنه ربما يكون وراء ما يظهره من صداقة نية للقتل ؟!

ويتساءل البروفيسور مايكل سيلس فى مقاله: هل نسمح بدخول المسلمين فى جهاز الشرطة أو فى الجيش ؟ وإذا لم يكن ممكنا التعرف على المسلم باسمه أو بمظهره فهل نطلب منه وضع علامة تميزه حتى نتعرف عليه ؟ وقد أدت مثل هذه الأفكار الطائشة عن الإسلام ببعض المسيحيين فى البوسنة إلى مهاجمة جيرانهم المسلمين العزل ، ومع ذلك فإن الكثير من هؤلاء المسلمين أنفسهم حملوا الشموع تضامنا مع المسيحيين بعد هجمات ١١ سبتمبر على نيويورك وواشنطن .

وقال البروفيسور مايكل سيلس إن كتابه «منهج القرآن» ، يقدم السور والآيات التى يعتبرها المسلمون «المبادئ الأساسية للدين الإسلامى».

وفى نفس الوقت فإن الطلبة الذين يقرءون هذا الكتاب عن القرآن والإسلام يقرءون أجزاء من الكتاب المقدس تشمل روايات الذبح البشعة فى Joshua فهل مثل هذه الاختيارات تقدم وجهة نظر معتدلة عن الكتاب المقدس ؟ لذلك لا يجب اللجوء إلى تجزئة الكتب المقدسة وانتقاء آيات معينة وإخراجها من سياقها لإقامة أدلة وتعميم ادعاءات بشأن الدين والكتاب المقدس فى عمومة . وإذا كان جو جلوفر من شبكة السياسة العائلية التليفزيونية والإذاعية ينتقد محاولات تعريف الأمريكيين بجوهر الأفكار اللاهوتية فى القرآن، ويطالب بالتركيز على شىء واحد، هو «الإسلام والإرهاب» وهو الموضوع السائد فعلا على أرفف المكتبات فكيف يمكن فهم الإسلام بدون دراسته وكيف يمكن التعايش سلميا مع المسلمين بدون فهم عقائدهم .

هذا ما قاله الأستاذ الأمريكى المتخصص فى علم الأديان المقارن وهو يواجه حملة من الانتقادات والتهديدات لمجرد أنه وضع كتابا ليس فيه دفاع عن الإسلام ، وليس فيه دعوة إلى اعتناق الإسلام ، وليس فيه سوى محاولة فهم «العقيدة» الإسلامية بعيدا عن حملات التشويه وبرامج الدعاية المنظمة لتشويه الإسلام فى الإعلام الأمريكى وفى المدارس والجامعات أيضا .

ومن الكتب المهمة التى صدرت فى فرنسا كتاب بعنوان «فرنسا والإسلام» لباحث معروف هو «جاك فريمو»، استعرض فيه تطور علاقة فرنسا بالإسلام

والعالم الإسلامى منذ حملة نابليون على مصر التى كانت بداية عهد الاستعمار الأوربى للعالم العربى والإسلامى حتى العصر الحديث، كما استعرض الغزوات والحروب والصراعات التى شنها الغرب على الدول الإسلامية ، وأوضح أن هذه الصراعات اختلطت فيها الروح المسيحية المتحكمة فى الغرب وعقله مع النزعات العنصرية الغربية وطموحات الهيمنة الإمبراطورية . وقال: إن غزو نابليون لمصر أظهر الفارق بين «التقدم» الأوربى و «التخلف» العربى والإسلامى ، مما فتح شهية الدول الاستعمارية الأوربية لإقامة إمبراطوريات فيما وراء البحار ، وزيادة حدة المنافسة بين هذه الدول الاستعمارية على المتلكات التى لم يكن أهلها قادرين على حمايتها بعد أن أصبحت الإمبراطورية العثمانية «الرجل المريض» وظهرت المسألة الشرقية فى الفكر السياسى الغربى .

ويقول الكتاب: إن احتلال فرنسا للجزائر فى عهد نابليون الثالث نقل المشروع الاستعمارى الغربى إلى مرحلة جديدة أكثر دموية وعنفا لامتلاك الأرض وإبادة السكان الأصليين، وواكب ذلك نزعة عنصرية كانت هى الغطاء الأيديولوجى لتبرير الأطماع الاستعمارية، واكتمل المشروع الاستعمارى الغربى مع الحرب العالمية الأولى والتواطؤ الفرنسى البريطانى فى اتفاقية «سايكس - بيكو» ثم «وعد بلفور» واقتسام العالم العربى بين الدول المنتصرة فى الحرب، واغتنام الدول الغربية الفرصة لإقامة دولة إسرائيل لتكون «اليد الطولى للغرب» لقمع المشروع العربى للوحدة، والتحرر، والتقدم.. ويقدم الكتاب تحليلا لعوامل الصراع بين الغرب الاستعمارى والعالم العربى الإسلامى على امتداد قرنين، منذ ولادة المشروع الاستعمارى الفرنسى على يد نابليون بونابرت حتى الوقت الراهن ويقول: إن طموحات الدول الغربية الاستعمارية تجددت فى الوقت الحاضر ، ويرى أن فرنسا ضمن هذه الدول فى حكم فرنسوا ميتران . - إن الاستعمار الفرنسى بدأ عندما كانت البلاد العربية والإسلامية تبدو أمام الغرب مساحات شاسعة تعانى من الفراغ والتخلخل السكانى ، وكانت فرنسا أكبر قوة سكانية فى أوربا ، فيها ٣٠ مليون نسمة فى مساحة لا تزيد على نصف مليون كيلومتر مربع ، بينما كان المسلمون فى دول الشرق الأوسط لا يزيدون على ٢٠ مليون نسمة مبعثرين فى مساحة تزيد على ٥ أمثال مساحة فرنسا، وتحصدهم الأوبئة ونقص

الرعاية الصحية ، بينما تجد شعوب الغرب الحماية بالنظام الصحى السائد فيها. والدول الغربية دول صناعية متقدمة علميا وتكنولوجيا بينما الدول الإسلامية دول زراعية متخلفة. ولم تصل حركة الأفكار فى العالم الإسلامى إلى ما وصلت إليه فلسفة التنوير فى الغرب ، وباختصار لم تكن الشروط اللازمة لنشأة اقتصاد رأسمالى ومجتمع صناعى متوافرة فى العالم الإسلامى ، بينما كانت للدين مكانة مركزية ومرجعية للدولة، والقانون ، والأسرة. . وكان لرجال الدين الكلمة العليا والأثر الأكبر فى حياة الناس ابتداء من طقوس الولادة والموت إلى سلوك الناس ومعاملاتهم فى الحياة اليومية. وأصبح للدولة دين.. وكانت فرنسا فى ذلك الوقت هى الابنة الكبرى للكنيسة، وملكها مسيحى متشدد يرى أن له رسالة وعليه واجب هو نشر المسيحية الكاثوليكية ، وكان الملوك المسلمون أيضا هم المدافعين عن الدين، وهذا التماثل هو الذى كان يغذى التباعد ، بل كان يغذى «العداء». ويقول المؤلف: نادرا ما كان يشعر المؤمنون هنا وهناك باحترام «الآخر». . بينما الإسلام فى نظر الكاثوليك ليس إلا «هرطقة» فى أحسن الأحوال. .

ويضاف إلى كل ذلك - كما يقول جاك فريمو - كان الاختلاف فى كل شىء بين الغرب والمسلمين. . فى الغرب يتكلمون اللاتينية والأنجلوساكسونية ، وفى العالم العربى والإسلامى يتكلمون العربية. . وفى الغرب يحسبون الزمن بالتقويم الميلادى وفى العالم الإسلامى يحسبونه بالتقويم الهجرى.. بالاضافة إلى اختلاف الملبس. . والممنوعات من الطعام. . واختلاف حول الاختلاط بين الرجال والنساء ومشاركة المرأة فى المجتمع. . ويقول: إن كل ذلك جعل الأمر يبدو كأن الغرب المسيحى والشرق الإسلامى ينتمى كل منهما إلى كوكب مختلف عن الآخر. . وزاد التباعد اختلاف القيم، والعادات، والسلالات ، وتكوين العائلة والعلاقات بين أفرادها، والمفاهيم الاقتصادية والثقافية والحركات الفكرية والأزياء. . كل ذلك كان يجعل الفرنسيين أقرب إلى جيرانهم الأوربيين، وبعيدين عن الشعوب الإسلامية، وكانت أيديولوجيات الكفاح فى العالم الإسلامي ضد الاستعمار الغربى تقوى هذا الشعور بالتباعد. . كما كان الجهاد من جهة، وآثار الحروب الصليبية من جهة أخرى ضمن جذور «العداء» السائد فى الغرب تجاه الإسلام ، حتى لو لم يكن ذلك ظاهرا كل الوقت لكنه كان يظهر من وقت لآخر. . وكان السباق من

أجل السيطرة على البحر المتوسط فى القرن الثامن عشر يطيل أمد هذا الشعور بالعداء والبعد.. وهكذا نجد أن التعارض بين العالم المسيحى و «دار الإسلام» ليس ادعاء فارغا !

هذا ما يقوله الباحث الفرنسى ويضيف أن هذه الاعتبارات يجب أن تكون نقطة البدء للبحث وفهم العلاقة بين الغرب والإسلام .

وبعد استعراض طويل للتطور التاريخى لعلاقة فرنسا بالعالم الإسلامى، ومراحل الصدام مع الإسلام والمسلمين بعد احتلال فرنسا للجزائر ، يشرح جاك فريمو نتائج المؤتمر القربانى المسيحى الذى عقد فى قرطاجة، وبعده صدر قرار الفاتيكان فى سنة ١٩٢٢ بنقل مقر «مؤسسة نشر الأديان» من ليون بفرنسا إلى العاصمة الإيطالية روما وتوجيه البعثات التبشيرية إلى العمل على «توسيع مملكة المسيح» ، وظلت النقطة الساخنة دائما هى مصر، فقد استمر فيها الاضطراب ومقاومة الاحتلال البريطانى، ثم ظهرت نقطة ساخنة ثانية فى فلسطين وأصبحت مسرحا لاضطرابات دامية ، وفى نهاية ١٩٣١ عقد فى القدس المؤتمر العالمى للإسلام وكان موضوعه النضال ضد الاستعمار وحماية الأماكن الإسلامية المقدسة، وكان شكيب أرسلان قد أصدر مجلة «الأمة العربية» بالفرنسية فى جنيف فى نهاية سنة ١٩٣٠، وجعل منها آلة حرب. . ثم ظهرت مؤلفات عبد الرحمن عزام «العرب شعب المستقبل» تبشر بالوحدة العربية ، وكان عبد الرحمن عزام يحارب الإيطاليين فى ليبيا قبل أن يناضل ضد الاستعمار البريطانى فى مصر، وأصبح بعد ذلك أول أمين عام للجامعة العربية عند إنشائها. . بعد ذلك انتشرت أفكار الإصلاح الإسلامى المستلهمة من الشيخ محمد عبده ثم رشيد رضا من بعده، ووصلت أفكار الإصلاح الإسلامى إلى المغرب والجزائر على يد عبد الحميد باديس، وركز «الإصلاحيون» على مسألة «الهوية القومية» القائمة على الدين الإسلامى واللغة العربية.. وظهر فى المغرب علال الفاسى الذى بدأ العمل السياسى فى هذا الاتجاه. . وفى سنة ١٩٣٠ وقعت الاضطرابات فى المغرب حين أصدرت سلطات الاحتلال الفرنسى قرارا بإنشاء محكمة تطبق القوانين الفرنسية فى المغرب ، ونشط رجال الدين الكاثوليك فى مناطق البربر ، وظهرت حالات اعتناق المسيحية ، وظهرت معها الحساسية الدينية كما ظهرت جماعة

«القوميون المغاربة» فى المغرب ، وقبلها ظهرت جماعة «تونس الفتاة» فى تونس ، وكلتاهما عملتا بقوة على تعبئة الشعور القومى والدينى ، وازداد تدفق الجماهير على المساجد فى المغرب وأصبح يتردد بصوت عال الصياح بدعاء «اللطف يا لطيف. . يا لطيف» ومرت سنوات الغليان الشعبى فى المغرب وتونس ضد الاستعمار الفرنسى ، وازدادت المقاومة مع ازدياد سياسة القمع وفرض الرقابة على رجال الدين الإسلامى. . وتوثقت العلاقة بين الدين الإسلامى ومقاومة الاستعمار فى البلاد الإسلامية. . ولم تفلح محاولات فرنسا لفرض الوصاية والسيطرة على شيوخ المسلمين حتى عندما أنشأت فرنسا لجنة خاصة يرأسها موظف فرنسى يتبعه الشيوخ وعلماء المسلمين، كما لم تفلح سياسة فرنسا فى فرض الرقابة على الصحف، والتضييق على المدارس الإسلامية .

يقول جاك فريمو: إن الحال ازداد سوءا بعد إنشاء إسرائيل وهزيمة الجيوش العربية وطرد ٨٠٠ ألف فلسطينى ، وتسبب كل ذلك فى صدمة نفسية دائمة للرأى العام العربى. . ثم توترت العلاقات بين مصر وفرنسا بسبب دعم عبد الناصر لثورة الجزائر وتنمية الشعور بالتضامن العربى ، وزاد التوتر فى العلاقات بعد اشتراك فرنسا وبريطانيا مع إسرائيل فى العدوان على مصر بعد تأميم قناة السويس سنة ١٩٥٦. وهكذا فشلت فرنسا فى جعل الجزائر فرنسية ، واشتد النضال الجزائرى ضد الاستعمار الفرنسى وارتبط بالإسلام ، وظهرت عمليات التفجير فى فرنسا التى تنفذها منظمة الجيش السرى ، وأدى ذلك إلى وجود مناخ الحرب الأهلية فى فرنسا، واجتاحت باريس المظاهرات فى فبراير ١٩٦٢. . وأدت كل هذه العوامل إلى اتفاقيات «ايفيان» مع الحكومة الجزائرية المؤقتة ثم إعلان استقلال الجزائر. .

وبعد انتهاء حرب استقلال الجزائر خفت حدة التوتر بين فرنسا والعالم العربى والإسلامى وأصبح التقارب ممكنا .

أما علاقات فرنسا بإسرائيل فى فترة حكم ديجول فكانت قوية، وفى نفس الوقت ظلت فرنسا هى المصدر الأكبر لتسليح إسرائيل بأحدث طائرات الميراج التى كانت سلاح إسرائيل فى حرب يونيو ٦٧، وإن كانت فرنسا قد أدانت هذا العدوان وفرضت بسببه حظرا على تصدير الطائرات إلى إسرائيل. وذهب ديجول

إلى أبعد من ذلك في مؤتمر صحفي عقده يوم ٢٧ نوفمبر ٦٧ وأعلن فيه شكوكه في مشروعية إقامة دولة عربية ويهودية في فلسطين ، ولكنه في نفس الوقت وصف اليهود بأنهم «شعب الصفوة». . شعب واثق من نفسه وميَال للهيمنة. . وعندما قامت فرق الكوماندوز الإسرائيلية المحمولة بطائرات الهيلوكوبتر بغارة في ديسمبر ٦٨ على مطار بيروت ودمرت الطائرات المدنية اللبنانية وأعلنت إسرائيل أن هذه الغارة انتقام لمهاجمة الفدائيين الفلسطينيين إحدى طائرات شركة العال الإسرائيلية في مطار أثينا.. أعلن ديجول إدانته لهذا الهجوم الإسرائيلي على «بلد صديق» بأسلحة فرنسية !

الفكرة التي يستخلصها جاك فريمو هي أن فرنسا من خلال حرب الاستقلال في الجزائر وظهور الدعوة للقومية اكتشفت أن الإسلام هو المحرك ، وأول نداء أشعل ثورة الجزائر في نوفمبر ١٩٥٤ كان يدعو لمقاومة الاحتلال لإقامة دول جزائرية مستقلة ديمقراطية في إطار المبادئ الإسلامية ، وكانت حركة «العلماء» من رجال الدين الإسلامي هي الدعم الأكبر لهذه الثورة ضد الاستعمار الفرنسي .

بعد ذلك يتساءل : متى ظهر في فرنسا الشعور «بالخطر الإسلامي» ، ويجيب: بأنه ظهر في نهاية ١٩٧٩ حين أصبحت الثورة الإيرانية راديكالية واحتجزت الرهائن داخل مبنى السفارة الأمريكية في طهران في نوفمبر ١٩٧٩ وبعد حدوث التمرد في الحرم في مكة ، وبعد أن اندلعت الحرب بين العراق وإيران في سبتمبر ١٩٨٠ ، ثم اغتيال السادات في ١٩٨١. . كل ذلك أدى إلى انتشار مفاهيم وشعارات في الغرب عن «التعصب الإسلامي»و «الجهاد» ، وعاني الغرب من نقص البترول بسبب الحرب العراقية الإيرانية ، وانتشار حوادث إرهابية في فرنسا، ومحاولة «أنيس نقاش» اغتيال رئيس الوزراء الإيراني السابق شهبور بختيار في باريس في يوليو ١٩٨٠ ، وإلقاء قنبلة على الكنيست الإسرائيلي في أكتوبر ١٩٨٠ ، واغتيال سفير فرنسا في بيروت في سبتمبر ١٩٨١ ، وتفجير قنبلة في قطار باريس - تولوز في مارس ١٩٨٢، وتراشق بالرصاص في شارع روزييه بباريس في سبتمبر ١٩٨٢ ثم إعلان رئيس الوزراء بيير موروا أن العمال في شركة رينو للسيارات الذين قاموا باضطرابات كانت تحركهم جماعات دينية وكان يقصد جماعات إسلامية. وفي ربيع ١٩٨٥ خطف

العديد من الجنود الفرنسيين واحتجزوا كرهائن فـي لبنـان. وبـين نهايـة ١٩٨٥ وخريف١٩٨٦ حدثت عدة تفجيرات بالقنابل في الأماكن العامـة وأثـارت الذعـر في كل باريس .

ويصل جاك فريمو إلى أن نتيجة هذه الأحداث أن أصبح الفرنسيون يشعرون بأن المسلم يمكن أن يهدد أمنهم على أرضـهم وفـى عقـر دارهـم كمـا يقولـون، وليـس كما كان عليه الحال حتى عام ١٩٦٢. عندما كان الخطر الإسلامي قائمًا فى المناطق البعيدة فيمـا وراء البحار، أو فى الشرق المعقد كما كان يصفه ديجول. لذلك كانت فرنسا حريصة على ألا تنتصـر إيـران علـى العـراق حتـى لا يكـون ذلـك انتصـارا للإسلام الراديكالى .

تاريخ طويل من العلاقات المعقدة المليئة بالصراعـات . وهـى صراعـات سياسـية في حقيقتها. . وهذا ما كـان يجعـل جلادسـتون -الاسـتعمارى البريطـانى زعيـم الأحـرار الـذى توفـى عـام ١٨٩٨- يدعـو إلى إعـدام القـرآن، وتطـهير أوربـا من المسلمين، وهذا أيضا ما جعـل القـائد البريطـانى اللـورد اللنبـى عندمـا دخـل القدس بعـد انتصـاره علـى العثمـانيين فـى الحـرب العالميـة الأولى يصيـح: «الآن انتهت الحرب الصليبية» .

هل أصبح الإسلام (عدوًا) فى أمريكا و (مشكلة) فى أوربا ؟

فى واشنطن تجمع ٣٠ ألـف أمريكـى مسلم - ممـن عـانوا مـن المضايقـات بعـد الهجمات على نيويـورك وواشـنطن فـى ١١ سبتمبر- بمناسـبة مـرور عـام علـى الحادثة. بدأ مؤتمر الأمريكيين المسلمين يوم ٣١ أغسـطس ٢٠٠٢ واسـتمر أربعـة أيام، وقال رئيس الجمعية الإسلامية فى أمريكا الشمالية التى نظمت المؤتمر: إن هذا بلدنا ، ونحن نحرص على الخير لهذا البلد ولكل إنسان فيه، ولكننـا نعـانى من آثار ١١ سبتمبر على الحريات المدنية، وعلى الإسلام، وعلى الحياة السياسية فى الولايات المتحدة .

وقـال أمـين عـام الجمعيـة سيد سـعيد إن الجمعيـة تسـعى جـاهدة للتصـدى للتشويه الذى يتعرض له الإسلام والمسلمون، وتعمل على إبراز الفرق بين الصورة الحقيقية للإسلام والصور المتطرفة منه، وقد فعلنا كل مـا فـى وسـعنا لتوضيـح أن الإسلام لا يدعو إلى التطـرف، ولكـن كثـيرا مـن المسـلمين فـى أمريكـا عـانوا مـن أوقات صعبة، داهمت الشرطة عددا من الجمعيات الخيرية الإسلامية كما داهمت عددا كبيرا من المساجد.. وكان تعليق مراسل الإذاعة البريطانية فى واشنطن، إنه على الرغم من جهود المسلمين للحيلولة دون اعتبار دينـهم ديـن «الشيطان» فـإن الهجمات غيرت من صورة الإسلام، ولفترة من الوقت شعر المسـلمون فـى أمريكـا بالخطر يتهددهم، ولا يزال كثير منـهم حتـى الآن يـرون أن عليـهم الدفـاع عـن أنفسهم من الاتهامات الموجهة إليهم وإلى الإسلام.. وأخيرا تجمع عدد كبـير مـن أعضاء «التحالف لحماية الحرية السياسية» فى مسيرة كبيرة فى ميـدان الحريـة فى العاصمة الأمريكية.

هكذا، لم يجد المسلمون فى أمريكـا وسـيلة للتعبـير عمـا يلاقونـه مـن متـاعب وتحيز ضدهم سوى عقد المؤتمرات والقيام بالمسيرات، ومع ذلك استمرت الحملـة

على الإسلام والمسلمين ولم يشفع لهم احتفال المسلمين بذكرى هجمات سبتمبر وإقامة صلاة الغائب على أرواح الضحايا، وقد كشف استطلاع أجراه مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية أن ٥٧٪ من مسلمي أمريكا تعرضوا لممارسات عانوا فيها من العنصرية والتمييز، وأن ٨٧٪ يعرفون زملاء لهم تعرضوا لهذه الممارسات، و ٤٨٪ حياتهم تحولت إلى الأسوأ، وأتهم ٦٧٪ وسائل الإعلام الأمريكية بأنها أصبحت أكثر عدائية للإسلام والمسلمين .

مجلة «الأيكونومست» البريطانية نشرت تقريرين في عدد ١٠ أغسطس ٢٠٠٢ أولهما بعنوان «المسلمون في أوربا» والثاني بعنوان «تقرير خاص: المسلمون في أوربا الغربية» قالت في التقرير الأول: إن العقود الأخيرة تحولت فيها مشاعر اللامبالاة تجاه الإسلام إلى مشاعر ازدراء، ثم إلى شعور بالشك، ثم تحولت مؤخرا إلى شعور بالعداء، واختلطت بهذا الاتجاه العام مشاعر الأمريكيين تجاه الشيوخ المسيطرين على البترول، و «الإرهابيين» الفلسطينيين، وآيات الله في إيران، والهجرات الجماعية، ثم هجمات ١١ سبتمبر التي نفذها المسلمون المقيمون في الغرب، بتأييد ومساندة من نظام حكم بغيض في أفغانستان .

أكثر من ذلك قالت «الايكونومست» إن المسلمين وسط القلق المتزايد بسبب هجراتهم إلى الغرب أصبح عليهم مواجهة الاتهام بأن بعض الجوانب في دينهم تتعارض بشكل أساسي مع قيم التحرر والديمقراطية في الغرب، ففي بريطانيا مليون و ٣٠٠ ألف مسلم، وفي ألمانيا ٣ ملايين و٢٠٠ ألف، وفي فرنسا ٤ملايين و ٢٠٠ ألف، والإسلام أصبح أسرع الأديان نموا في الولايات المتحدة، بل أصبح أسرع الأديان نموا في العالم، وسيكون الأمر خطيرا إذا كان الإسلام يتعارض حقا مع قيم التحرر والديمقراطية.

وبعد التعبير عن مخاوف الغرب من العقيدة الإسلامية ومن زيادة أعداد المسلمين زيادة كبيرة حاولت «الايكونومست» أن تكون متوازنة، فقالت: إن قليلا من المسلمين هم الذين يؤمنون بأن السلطة الدينية لها الأولوية والسبق على قوانين البلاد التي يعيشون فيها، ومثلهم في ذلك مثل بعض المسيحيين في أمريكا والبلقان وأيرلندا الشمالية، ومثل بعض الهندوس على الرغم من أن الهند دولة ديمقراطية علمانية، ومثل بعض اليهود في إسرائيل الديمقراطية! فهؤلاء

أيضا يفكرون بنفس الطريقة. . ولكن المسلمين فى عمومهم يعيشون فى المجتمعات الغربية ويجدون الفرص للتقدم، فمنهم أصحاب محلات، وأثرياء، وأطباء مشهورون، وفيهم أغاخان، ومعظمهم يعمل بجد ويتمسك بقيم الأسرة ولا يرتكب أية جرائم.. ومع ذلك فلن يجدى التظاهر بأن المسلمين لا يمثلون مشاكل فى الغرب، وهذه المشاكل من نوعين: النوع الأول مشاكل مرتبطة بجماعات إسلامية مهاجرة من مناطق ريفية فقيرة، ومعظمهم قليل المعرفة، وتعليمهم ضعيف، ولون البشرة الأسمر يسبب لهم متاعب من أبناء الغرب الذين يشعرون بالخوف من الأجانب، وعموما يعانى هؤلاء من التمييز العنصرى، وأحيانا يزداد الأمر سوءا بسبب حملات السياسيين العنصريين، وهؤلاء المهاجرون المسلمون لا يجيدون لغة البلاد التى يهاجرون إليها، ولذلك يجدون صعوبة فى الحصول على وظائف، ويصارع أطفالهم فى المدارس، ويتكدس هؤلاء المهاجرون المسلمون فى أحياء فقيرة، ويميلون إلى الانسحاب من المجتمعات التى يهاجرون إليها ليعيشوا فى عالمهم الخاص، وينشئوا مجتمعات مستقلة مقصورة عليهم ومكتفية ذاتيا، وهذه ليست الطريقة الصحيحة للتكيف مع المجتمع الأوسع.

وعلى الجانب الآخر فإن الحكومات فى الغرب لا تعترف بحقوق هؤلاء المسلمين المهاجرين ولا تساعدهم على الاندماج ليصبحوا مواطنين صالحين فى البلاد التى هاجروا للإقامة فيها. أمامهم العراقيل لمنحهم الجنسية، وحق الانتخاب، وغير ذلك من الحقوق التى يتمتع بها المواطنون فى الدول الغربية، وعلى سبيل المثال فإن ١٠٪ فقط من المسلمين فى ألمانيا هم الذين يتمتعون بحق التصويت، وفى فرنسا اعتقاد سائد بأن المهاجرين يجب عليهم أولا التخلى عن جميع الخصائص الثقافية لمجتمعاتهم الأصلية. والدول الغربية تسمح بقبول «استيعاب» المسلمين المهاجرين ولكنها تقاوم «اندماج» هؤلاء فى المجتمعات الغربية.. كيف يمكن وضع نهاية للتمييز العنصرى؟.. فى بريطانيا منظمة لمقاومة التمييز العنصرى وضمان المساواة عمرها الآن ٣٦ عاما، وليس فى ألمانيا وفرنسا جهة مثلها يمكن أن يلجأ إليها بالشكوى من يعانى من الاضطهاد من المسلمين.

تقول الايكونومست: إن المسلمين المهاجرين عليهم أيضا الاجتهاد للاندماج فى المجتمعات الغربية ، خاصة أن الدين الإسلامى يمثل صعوبات عند الغربيين . وهذا يقود إلى الحديث إلى النوع الثانى من المشاكل التى يعانى منها المسلمون فى الغرب وهى مشاكل ثقافية ، والمأزق الذى يواجه المسلمين هو الاختلاف بين القيم والمبادئ الإسلامية والقيم والمبادئ الغربية. . مثل تعدد الزوجات. . ومثل ذبح عشرات الآلاف من الأغنام فى عيد الأضحى مما يسبب إزعاجًا للفرنسيين. . والأكثر من ذلك أن بعض المسلمين المهاجرين يرون أن التزاماتهم بمبادئ الإسلام تتضمن العداء الصريح لمبادئ المجتمعات الغربية. . وكثيرا ما تحدث مشاجرات بسبب الذبح الشرعى واللحم الحلال واللحم الحرام. . وتجد الحكومات صعوبة فى التعامل مع المسلمين لأنهم ليست لهم سلطة دينية يمكن التعامل معها، وبالتالى لا تعرف الحكومات مع من تتكلم حين تريد التفاهم مع المسلمين لتحديد قواعد التعايش وحل المشاكل. . فالمسلمون فى أوربا جماعات متفرقة وبينها اختلافات فى الثقافات والمفاهيم الدينية وما يراه البعض حلالا يراه البعض الآخر حراما، وما يراه البعض من ضرورات الإيمان ومن مبادئ الإسلام الأساسية لا يراه الآخرون كذلك. . والمنازعات بين الجماعات والمجموعات الإسلامية دائمة.. وهم قادمون من دول مفهوم الديمقراطية فيها غير معروف، وبعضهم قادم من دول الحكومات فيها ليست مسئولة أمام الشعوب ولكنها مسئولة أمام الله وحده ولا يسألها أحد غيره عما تفعل ، وهذا أمر يثير الدهشة فى الغرب. . ووظيفة «المفتى» فى الدول الإسلامية غير واضحة، فما يصل إليه من آراء وفتاوى غير ملزم بل يجد معارضة من المتطرفين.. فليس هناك إسلام واحد أمام الغرب .

بعض العلماء المسلمين فى الغرب يدعون إلى تطوير المفاهيم والثقافة الإسلامية لتضييق الفجوة بينهم وبين الغربيين فى القيم والمفاهيم. . وبعضهم يدعو إلى الاندماج فى المجتمعات ولكن هناك أيضا من يظل ولاؤهم لبلادهم الأصلية ويظهرون الولاء الزائف للدول الغربية التى يعيشون فيها، وبعضهم يستمد أفكار التطرف والكراهية من بلادهم .

واضح من تقرير الايكونومست أن هناك شعورا بالقلق والخوف فى الغرب من الإسلام والمسلمين ، لأنهم لا يندمجون فى المجتمعات الغربية، والغرب لا يريد

منهم مجرد «التواجد» أو «التعايش» ولكن يريد منهم «الاندماج» أو «الذوبان» بحيث يصبحون غربيين لحما ودما. . يتحدثون بلغة البلاد التى يعيشون فيها فى الغرب. . أفكارهم غربية والقيم التى يعتنقونها قيم غربية. . وسلوكهم سلوك غربى. . ولا مانع من أن تكون ديانتهم الإسلام بشرط أن يكون «إسلاما غربيا». .

باختصار هناك مشكلة للمسلمين فى الغرب. . مشكلة يعانى منها المسلمون. . ويشكو منها الغربيون أيضا، ويرون أن وجود الإسلام ومبادئه تتعارض مع الحضارة والثقافة الغربية .

والتقرير الثانى فى مجلة الايكونومست بدأته بسؤال : هل فى الإسلام ما يجعل من المستحيل على المسلمين التكيف مع المجتمعات الغربية المتحررة. .؟

وأجابت عن سؤالها بأن دول أوربا اعتادت منذ عشرات السنين على استقبال مهاجرين من أنحاء العالم دون أن تشعر بالقلق، ولكن أوربا الآن تشعر بالقلق من المهاجرين المسلمين على وجه الخصوص .

وفى تحليل الايكونومست لأسباب القلق فى أوربا من المسلمين أن هجمات ١١ سبتمبر، وتبرير أسامة بن لادن للعنف بأنه تعبير عن روح الإسلام كانا من أسباب هذا القلق، ونبه الغرب إلى أن بعض دول العالم الإسلامى تعيش فى ظل نظم حكم ثيوقراطية، وتعانى فيها المرأة من الاضطهاد، ويطالب فيها المتشددون بقطع الأيدى والرجم بالحجارة حتى الموت كعقوبات على بعض الجرائم . ومما ضاعف القلق فى الغرب أن بعض من قاموا بالهجوم على برجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك عاشوا لسنوات فى الغرب، ويشتد القلق أكثر بسبب وجود مجتمعات مغلقة من المسلمين المهاجرين داخل المجتمعات الغربية ومنفصلة عنها تقريبا ، وهذه المجتمعات المغلقة يتم فيها تلقين المهاجرين المسلمين وأبنائهم كراهية الغرب ، والتخطيط لخيانة الدول التى هاجروا إليها، ولا تدرى سلطات الدول التى تؤويهم بحقائق ما يجرى داخل هذه المجتمعات المغلقة، إلى أن جاءت الانتخابات الهولندية وفاز بيم فورتين فيها فوزا مذهلا بسبب حملته المعادية للهجرة، ولفت الأنظار أن الذين التفوا حوله واستجابوا لآرائه المعادية للإسلام والمسلمين لم يكونوا فقط من المتعصبين والعنصريين فى

هولندا ولكنهم كانوا من القاعدة الجماهيرية العريضة، وكانوا يؤيدونه فى قوله بأن الإسلام «دين بدائى متخلف» لا يتسامح مع الشذوذ الجنسى، ولا يعترف بحقوق المرأة، وكانت لهذه الحملة أصداء فيما وراء هولندا ، وظهرت فى تعليقات وزير خارجية ألمانيا الذى أعلن بعدها أنه أصبح من الضرورى اكتشاف مدى تعارض التعاليم الإسلامية مع القيم الغربية . أما المهاجرون المسلمون أنفسهم فقد تصاعدت شكواهم مما يعانونه من الفقر وصعوبة حصولهم على فرصة عمل أو سكن لائق، وحقيقة إن معظم المسلمين الباكستانيين هاجروا إلى بريطانيا على أمل أن تكون هجرة مؤقتة بحثا عن عمل ثم يعودوا إلى وطنهم الأصلى فى النهاية. . وكذلك ذهب المسلمون الأتراك إلى ألمانيا فى الستينات كعمال لفترة وتنتهى.. ومثلهم المسلمون من المغرب والجزائر وتونس ذهبوا إلى فرنسا وكانت لديهم أسباب مشابهة لترك أوطانهم ، وآمال مشابهة فى العودة، ولكنهم استقروا ولم يعودوا، وفى الوقت نفسه فشلوا فى إجادة الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية، وزادت أحوالهم سوءا عندما فقد معظمهم وظائفهم، ولم تعد أمامهم إلا فرص العمل فى أعمال الخدمة ، وحتى أطفالهم شب معظمهم على لغة وثقافة أهاليهم، ولذلك واجهوا الفشل فى المدارس. .

ويضاف إلى ذلك «الفجوة الحضارية الهائلة» بين الحياة فى قرى بنجلاديش وباكستان والحياة فى بريطانيا أو فرنسا، ثم إن هؤلاء جاءوا وليست لديهم مهارات ، ويعيشون فى الغرب بعقليات وأفكار وتقاليد تنتمى إلى النظم الإقطاعية التى ولدوا فيها ، وظلوا على انتمائهم لجماعة المهاجرين معهم من أبناء وطنهم، ولذلك يشعر البريطانيون بالدهشة حين يرون هؤلاء المسلمين المهاجرين وقد حصلوا على الجنسية البريطانية ، وأصبح لهم حق إعطاء أصواتهم فى الانتخابات البريطانية، ولكنهم يعطون أصواتهم معًا كأنهم فرد واحد، وفقا لما يمليه عليهم كبيرهم، وهكذا يعيشون فى الغرب بأجسامهم لا بأرواحهم، وبدلاً من أن يندمجوا فى الغرب فإنهم يستحضرون أساليب الحياة المتخلفة من بلادهم إلى الغرب، ولا يتزوجون من أبناء وبنات البلاد ولكن يتزوجون من رجال ونساء من بلادهم الأصلية ويحضرونهم للعيش فى هذه المجتمعات المغلقة المنفصلة تقريبا عن المجتمعات الغربية .

تقول الايكونومست: إن بريطانيا كانت أسرع من فرنسا وألمانيا فى السماح للمهاجرين من كل الديانات والجنسيات بالاحتفاظ بثقافاتهم ودياناتهم وانتماءاتهم لأوطانهم الأصلية ، ولكن مجتمعات المسلمين بالذات تعيش فى عزلة فى الغرب وكأنها عالم منفصل .

وتقول أيضا: إن وضع المرأة فى مجتمعات المسلمين مسألة تثير الناس فى الغرب، وتثير التساؤل : هل هذا الوضع المتدنى للمرأة يرجع لأسباب تاريخية أو ثقافية فى المجتمعات الإسلامية أو أن هذا الوضع ناشئ عن طبيعة الدين الإسلامى وهو الذى يأمر بذلك. . ؟

. وقد قال بيير بيدييه الوزير الفرنسى يوما: إنه لاحظ أن المهاجرين المسلمين لا يتعايشون مع الفرنسيين، ولا يشاهدون حتى برامج التليفزيون الفرنسى، ولا يشاهدون سوى الفضائيات التى تبثها دول إسلامية ، وهذه الفضائيات لا تتحدث إلا عن المحنة التى يعيشها الفلسطينيون وتردد أن العرب هم الضحايا. وكثير من المهاجرين المسلمين تظهر المبالغة والتشدد فى الطقوس ومظاهر التقوى لتأكيد هويتهم كمسلمين وللتعبير عن هويتهم، وكأنهم يريدون أن يؤكدوا للغربيين أنهم فخورون بأصولهم ولا يخجلون منها ، ولذلك ينتشر الحجاب بين السيدات والفتيات فى هذه المجتمعات.. وبالتأكيد تؤذى بعض الممارسات الإسلامية مشاعر الأوربيين. . مثل ذبح عشرات الآلاف من الأغنام فى عيد الأضحى وهذا يصدم الفرنسيين.. وكذلك فإن طريقة دفن موتى المسلمين يرى الغربيون أنها تتعارض مع قواعد الصحة العامة، ولذلك يتم نقل موتى المسلمين الأتراك من ألمانيا بالطائرات لدفنهم فى بلادهم، لأن ألمانيا لا تسمح بالدفن بالطريقة الإسلامية ولذلك ليس فيها مقابر للمسلمين، أما فرنسا فليس فيها سوى مقبرة واحدة للمسلمين. . ومثل هذه الممارسات تزيد روابط المسلمين المهاجرين بأوطانهم الأصلية. . ويضاف إليها أن معظم دول أوربا ترفض منح الجنسية للمهاجرين، ويمتد هذا الرفض لأطفالهم الذين يولدون فى أوربا. . ولكن لا شىء يعمق هذه الروابط على نحو مثير للقلق أكثر من المنظمات الإسلامية الموجودة فى أوربا ، والمساجد التى يتجمع فيها المسلمون فى أوربا ، ففى ألمانيا - على سبيل المثال - أكبر منظمة للمهاجرين المسلمين هى

منظمة D. I. T. I. B وهي امتداد لوزارة الشئون الدينية في الحكومة التركية، ومع أن تركيا دولة علمانية ومعادية للتعصب الديني إلا أن هذه المنظمة لا تسهم في تحقيق «الاندماج» في المجتمع الألماني، واهتمامها الأول هو تحقيق مصالح تركيا القومية، وتشجيع الأتراك في ألمانيا على أن يظلوا أتراكا، ولذلك فإن لهم صحافة وتليفزيونا باللغة التركية.. وفي ألمانيا ٣ ملايين و ٢٠٠ ألف تركي مسلم وفيها ١٩ جماعة إسلامية سياسية وأكبر هذه المنظمات منظمة «ميلي جورس» ذات الصلة بالحزب الإسلامي في تركيا، وهي لا تحرض على العنف، ولكن أعضاءها البالغ عددهم ٢٧ ألفا و ٥٠٠ عضو يتم تلقينهم أن الاندماج في المجتمعات الغربية خيانة للإسلام.

وهذه المنظمات الإسلامية تؤدي خدمات للمهاجرين مثل إيجاد فرص العمل والسكن، وفي برلين وحدها ١٨٠ ألف تركي، ومعدل البطالة بينهم ٤٠٪، ولا تعرف الدولة من الذي تتعامل معه في شئون المسلمين.. ومعظم المساجد في برلين قائمة على أساس الانتماء للبلاد الإسلامية.. ويرى الغربيون أن ما يقوله أئمة المساجد غريب وغير مفهوم بالنسبة لهم.. وفي لندن يبث أبو حمزة المصري في المصلين الكراهية لأمريكا في كل خطبة..وقد أعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن أن البوليس الإيطالي كان على علم بأن معهد الثقافة الإسلامية في مدينة ميلانو يؤوي خلية إرهابية. ومعظم المساجد في أوربا ليست مثل المساجد في الدول الإسلامية من حيث المباني الخاصة والقباب والمآذن، ولكنها عبارة عن قاعات أو جراجات. وتزيد الشكوك حولها كلما ترددت أخبار بأن الأئمة يحرضون المسلمين في هذه المساجد على العنف كما حدث مؤخرا في العاصمة الهولندية أمستردام. والمعتاد أن ترسل حكومات الدول الإسلامية أئمة لإعطاء الدروس للكبار والأطفال في ألمانيا من خلال منظمة D. I. T. I. B، وكذلك تفعل الجزائر والمغرب نفس الشيء في فرنسا، وفي «ليه فال فوريه» ، تم بناء مسجد بتمويل من السعودية، ولفترة كان في جهاز المخابرات الفرنسي إمام متطرف ! .

وتتساءل «الايكونومست»: لماذا تعتقد الحكومات في الدول الإسلامية أن من واجبها إنشاء المساجد وإرسال الأئمة إلى دول أجنبية؟ هل لحرص «حكومات

هذه الدول الإسلامية» على إبقاء المهاجرين منها على نفس الثقافة والقيم التى هاجروا بها وحمايتهم من التأثر بأفكار التحرر الأوربية ؟ أم لأن مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة ليس واضحا بعد فى أذهان المسلمين الذين يؤمنون بنظم الحكم الثيوقراطية ؟

والخوف من المتطرفين الإسلاميين ليس مقصورا على غير المسلمين فى الغرب، بل إن بعض المسلمين أيضا يعبرون عن مخاوفهم من التطرف الإسلامى فى أوربا، ومنهم مثلا «خول مولاى» أحد أئمة مارسيليا فى إيطاليا الذى يعلن صراحة مخاوفه من المتطرفين ليس فقط من الصومال أو اليمن ولكن من بريطانيا أيضا! ويقول صهيب بن شيخ مفتى مارسيليا إن من الضرورى تحصين المسلمين ضد التطرف الإسلامى الموجود فى أوربا، وكثيرون يطالبون بتدريب الآئمة الذين يتولون الإرشاد والخطابة فى مساجد أوربا. ولكن من أين ستأتى الأموال الكافية لإنشاء وإدارة المعاهد لتدريب هؤلاء.. بينما دولة مثل فرنسا يحظر دستورها تقديم أموال من الدولة للشئون الدينية، مع أن الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية تحصل على فوائد الضرائب... وهناك اقتراحات لتيسير إقامة معاهد تأهيل وتدريب الأئمة.. منها اقتراح بأن تقوم الحكومات بتأجير المبانى الحكومية بقيمة اسمية لإنشاء هذه المعاهد، واقتراح آخر للتحايل على الحظر القائم فى الدستور الفرنسى هو أن تنشئ الدولة معهدا إسلاميا لتدريب الأئمة فى منطقة «الزاك - لوريان» التى لم تكن جزءا من فرنسا عندما صدر قانون الفصل بين الكنيسة والدولة. . المهم أن هناك محاولات للبحث عن وسائل للتحايل على القوانين والدساتير الأوربية من أجل تطعيم الإسلام الأوربى بأفكار متحررة بعيدة عن التعصب. . وفى ألمانيا ينص الدستور على حق الأطفال فى الحصول على تعليم دينى فى المدارس، وفى بعض المقاطعات تشرف الكنيسة على نصف مدارس الأطفال تقريبا وتدفع لها الدولة ٦٠٪ من ميزانياتها. . أما الأطفال اليهود فإنهم يدرسون الديانة اليهودية تحت إشراف المجلس المركزى اليهودى، ولكن المسلمين فى ألمانيا لا يتلقون دروسا فى الدين الإسلامى فى مدارس الدولة مع أن عدد مسلمى ألمانيا ٣ ملايين و ٢٠٠ ألف مسلم، ولا يدرس الدين الإسلامى إلا فى المدارس الخاصة غير الحكومية، ويتولى المجلس المركزى للمسلمين هذه المهمة ، وقد بُدئ فى إنشاء معهد لإعداد مدرسى الدين الإسلامى..

أما أسبانيا فهي متخلفة عن ذلك كثيرا جدا . . وتقول الحكومة: إنها مازالت تبحث عن جهة أو سلطة تبحث معها كيفية التعامل مع المسلمين فى الدعوة والتعليم .

وتقول: يتمتع مواطنو دول الكومنولث بحق التصويت فى الانتخابات البريطانية، ومن هؤلاء مسلمون من بنجلاديش ، والهند، وباكستان، وبعض دول أفريقيا لهم حق التصويت فى الانتخابات بمجرد وصولهم إلى بريطانيا، وعلاوة على ذلك يعتبر أبناؤهم بريطانيين إذا ولدوا فى بريطانيا. . وعلى العكس من ذلك تمنح الجنسية فى فرنسا وألمانيا بصعوبة للمهاجرين .

وفى آخر التقرير تقول «الايكونومست» : إن المسلمين يمكنهم التكيف مع المجتمعات الغربية بدليل اندماج آلاف منهم ونجاحهم فى الغرب ، كذلك من الخطأ الاعتقاد بأن الإسلام دين يدعو بالضرورة للتعصب ، وصحيح أن بعض المسلمين غير متسامحين مع الجنسية المثلية، ويعاملون المرأة معاملة سيئة ، ولكن العلاقات الجنسية الشاذة كانت تعتبر جريمة فى معظم الدول الغربية إلى وقت قريب، ولم تحصل المرأة على حقها الكامل فى التصويت إلا فى عام ١٩٢٩ ، ولم يكن مسموحا للمرأة بتوقيع شيكات أو فتح حسابات باسمها فى البنوك حتى عام ١٩٦٢. ومع الوقت سوف يكتسب المسلمون المهاجرون الثقافة الأوربية ، ويقل حرصهم على الزواج من داخل مجتمعاتهم. . ومع ذلك ففى الغرب أيضا مثل هذا الحرص على الزواج من داخل المجتمعات. . فكثير من الكاثوليك يرفضون الزواج من البروتستانت مثلا. . ويبقى الشىء الخطير هو تشرذم المسلمين فى أوربا فى تجمعات ومجتمعات مغلقة تجعل اندماجهم فى المجتمعات الأوربية صعبا. .

وتختم «الايكونومست» تقريرها بأن المسلمين فى عمومهم أناس صالحون ويتبعون القوانين ويتمسكون بقيم الأسرة ، وأبناؤهم الذين يتلقون تعليما دينيا يكتسبون ثقة فى أنفسهم تساعدهم على التقدم ، ولكن الإسلام دين قابل للتحريف واعتناق التطرف مثل الأديان الأخرى، وليست هناك سلطة دينية تحكم المسلمين ، وكل إمام يقول ما يريد وما يعتقد أنه الإسلام الصحيح حتى ولو كان يعبر عن التطرف بوضوح .

المسلمون فى الغرب مشكلة لأنهم - كما تقول الايكونومست - منغلقون على أنفسهم ، ويرفضون الحضارة والثقافة الغربية المتقدمة ويريدون أن يفرضوا على الغرب ثقافتهم التى جاءوا بها من دول متخلفة .

هل هذا تعبير عن «صدام الحضارات» الذى تحدث عنه صمويل هنتنحتون وأصبح الحديث عنه على ألسنة الجميع بعد ذلك ؟ وهل تحول «صدام الحضارات» من صدام بين دول الغرب المتقدمة والدول المتخلفة إلى أن أصبح الصدام داخل المجتمعات الغربية ذاتها بعد أن انتقلت الثقافة والحضارة الإسلامية المتخلفة مع المهاجرين إليها ؟.. بعد أن تقول الايكونومست ذلك تتساءل: كيف سيكون مستقبل هذا الصدام ؟

وتقول قد نفهم وجود الخوف والعداء من الإسلام عند الغربيين ولكن لا نفهم الهجوم على المسلمين من المسلمين أنفسهم. .

ففى ١٩ يوليو ٢٠٠٢ وقف رئيس وزراء ماليزيا مهاتير محمد فى المؤتمر الدولى عن الإسلام الذى عقد فى كوالالبور عاصمة ماليزيا ، وتساءل: كيف حال العالم الإسلامى اليوم ؟ وأجاب : إن العالم الإسلامى اليوم ضعيف وميئوس منه وليس خطأ القول بأن العالم الإسلامى يمر اليوم بأكبر فترات الانحطاط وهو مستمر فى الانحطاط والتدهور. . ومنذ سقطت الإمبراطورية التركية أمام هجوم الدول الأوربية، تفكك العالم الإسلامى إلى دول صغيرة غير مؤثرة، ولم يستطع العالم الإسلامى إصلاح أحواله أو إعادة تواجده على المسرح الدولى، كما لم تستطع كل دولة من الدول الإسلامية أن تحقق لنفسها أى تقدم أو يكون لها أى تأثير. . وكل ما حدث أن تعاون المسلمون مع الأوربيين ليتخلصوا من الحكم التركى فلم يحققوا إلا شيئا واحدا هو استبدال سيد بسيد. . ذهب الأسياد الأتراك وجاء الأسياد المستعمرون البريطانيون والفرنسيون. . وظلوا تحت حكم الاستعمار سنوات طويلة ولم يتخلصوا منه إلا بصعوبة شديدة. . ولم يقدروا بعد الاستقلال على تطوير بلادهم وتعثروا فى مشكلات داخلية ظلت تعوق تقدمهم ، وحتى عندما جاءتهم الثروة لم يحققوا أى تقدم، والآن لا توجد دولة مسلمة واحدة ضمن دول العالم المتقدم. وعندما ظهرت الثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر كان العالم الإسلامى فى حالة أفضل. . لم يكن منقسما كما هو الآن. . ولكن المسلمين أصبحوا فى غيبة مما يحدث. . فلم يدركوا أن هناك ثورة صناعية ، وأسوأ من ذلك

أن المسلمين ظلوا لسنوات طويلة يرفضون نتائج الثورة الصناعية. . يرفضون تعلم العلوم التى قامت عليها. . ويرفضون المكاسب المادية التى حققتها. . ويرفضون النظم الجديدة التى جاءت معها. . وكان الرفض لأن هذه النظم «غير إسلامية». . ورفضوا لهذا السبب حتى الكهرباء، والسيارات ، والآلات لسنوات طويلة. . وضاع على المسلمين وقت طويل وثمين تقدمت فيه دول الغرب علميا وثقافيا وصناعيا وتكنولوجيا. . وظل المسلمون واقفين فى مكانهم. . وضاعت عليهم فرصة التقدم. .

مشكلة المسلمين - كما قال مهاتير محمد - أنهم مهتمون بالحرام ، ويبالغون فى التحريم، ويتحمسون لهذه المبالغة ، حتى وصلوا فى أفغانستان إلى أن إظهار أى جزء من وجه المرأة حرام. . بينما فى دول إسلامية مسموح بإظهار الوجه والكفين.. وفى دول إسلامية أخرى مسموح شرعا بما هو أكثر. . ولا أحد يعرف من الذى أصدر هذه الأحكام الخاصة بالأزياء الشرعية للرجال والنساء، بينما يتجاهلون تعاليم الإسلام فيما هو أهم. . فالمبدأ فى الكتاب «إنما المسلمون إخوة» ومع ذلك فإن هناك مسلمين يجعلون رسالتهم فى الحياة محاربة وقتل إخوتهم المسلمين ، ويوجهون أحكام الإدانة للمسلمين بأنهم كفار لتبرير عدائهم لهم. . ولو ساد هذا الفهم المغلوط فلن يتبقى فى العالم مسلمون. . مادام المسلمون يقتل بعضهم بعضا. مع أن الإسلام يحرم الحكم على مسلم بالكفر مادام ينطق بالشهادتين. . وبالمثل فإن الإسلام يأمر المسلمين أن يكتسبوا العلم ويسعوا إليه ، ولكن المسلمين يتجاهلون هذا الأمر الصادر إليهم من رسولهم «اطلبوا العلم» ونتيجة لذلك تدهور حال العلم والعلماء فى الدول الإسلامية بعد أن كان التقدم العلمى على أيدى علماء مسلمين عظام فى الرياضيات والطب والكيمياء والفلك والجغرافيا وسائر العلوم الأخرى. . وفى ذلك الوقت كانت للمسلمين حضارة مزدهرة... ولكن بعد أن جاء من أطفأ أنوار العقل، وادعى أن العلم هو العلم بالدين فقط، تقهقر المسلمون وعاشوا فى ظلام الجهل ، وحتى اليوم مازالوا متخلفين بينما هذا العصر عصر المعرفة. . وأصبح نصيب المسلمين فى التقدم العلمى ضئيلا. . ولا مكان لهم فى التنافس العلمى، وهم يقرءون فى كتاب الله الدعوة إلى امتلاك أسلحة القوة. . ومع ذلك لا يفهمون هذه الحقيقة ولا يعملون

بها. . بينما اليهود لا يزيدون على ١٣ مليونا فى العالم كله، ولكنهم - بامتلاكهم للمعرفة وعناصر القوة - قادرون على التفوق على ١٣٠٠ مليون مسلم. . والمسلمون الآن فى حال تجعل كل من يريد قهرهم قادرا على ذلك، ولم يعد أمامهم غير البكاء ومناشدة العالم بالقانون وطلب العدالة. . والواقع يشهد بأن العالم الإسلامى ضعيف ، ومتخلف بشكل ميئوس منه.. ولن يتقدم إلا إذا أدرك أن التقدم قائم على العلم والمعرفة ليس فقط بشئون الدين بل بشئون الدنيا أيضا. .

ولن تكون للمسلمين قيمة فى العالم إلا إذا كانوا قادرين على التقدم صناعيا وتكنولوجيا.. وقادرين على الاختراع والابتكار.. وقادرين على صناعة السلاح المتقدم.. وإذا لم يصلوا إلى هذه الدرجة فلماذا يعمل العالم لهم حسابا؟

هذا ما قاله مهاتير محمد ليؤكد ويعمق فكرة تخلف المسلمين لأنهم لا يفكرون ، ولايعايشون العصر، ولا يتفرغون للعلم والبحث العلمى ، ولا يؤمنون بقيمة العلم ، لأن مفهوم العلم عندهم هو العلم بشئون الدين والجدل حول الحلال والحرام ولا شىء قبل أو بعد ذلك، وبذلك تركوا التفوق فى الصناعات والتكنولوجيا لغيرهم .

وهذه هى الفكرة التى تغذى تيار الكراهية والعداء فى الغرب للإسلام باعتباره دينا يدعو للتعصب والكراهية للآخرين ويعادى العقل والتفكير والمعرفة العلمية. .

وما أكثر الذين يتلقفون هذه الفكرة ويصنعون منها الكثير من الصور المشوهة للإسلام والمسلمين. وما أكثر الذين أخذوا كلام مهاتير محمد ونشروه وروجوا له بكل وسيلة فى أوربا وأمريكا ليقولوا إن هذا اعتراف بأن الإسلام هو سبب تخلف المسلمين بلسان رئيس وزراء دولة إسلامية . !

أكبر مشاكل المسلمين أنهم حتى الآن لم يدركوا كيف ينظر إليهم الآخرون فى الغرب ، وماذا يقولون عنهم ، ولماذا تتزايد مشاعر العداء تجاههم ؟ .

فى واشنطن عقدت ندوة مهمة يوم ٢٦ مايو ١٩٩٤ موضوعها «الصحوة الإسلامية فى الشرق الأوسط» شارك فيها «روبرت بيللترو» الذى كان سفيرا لأمريكا فى القاهرة ثم مساعدا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى، وجون

ايسبوزيتو مدير مركز التفاهم الإسلامي المسيحى بجامعة جورج تاون بواشنطن، وادنيل بايبس الباحث ومحرر مجلة الشرق الأوسط الفصلية التى تصدر فى واشنطن، وقال بيللترو فيها: إن أهداف السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط تتلخص في: البترول، وإسرائيل، ومنع انتشار أسلحة الدمار الشامل فى المنطقة «مع استثناء إسرائيل» وترويج مبادئ المشاركة السياسية وحقوق الإنسان، ومحاربة الإرهاب، والخصخصة واقتصاد السوق، وتشجيع رجال الأعمال الأمريكيين على الحصول على فرص الاستثمار فى المنطقة. أما عن الإسلام فقال: إن أمريكا ضد الذين يستخدمون الدين الإسلامى لتعميق الشعور المناهض للغرب.

أما «دانيل بابيس» فطرح مباشرة السؤال الذى يدور فى عقول الأمريكيين: هل الإسلام هو العدو؟ وأجاب: لا. ثم تساءل: هل هناك أصوليون طيبون وأصوليون أشرار؟ وأجاب: لا. كلهم أشرار. والسبب هو طبيعة الأصولية ذاتها. فالأصوليون الإسلاميون ضد الغرب، وبالتالى فإن على الولايات المتحدة أن تعد «الحملات النشيطة ضدهم».

قيل هذا عام ٩٤ ولم يفهم المسلمون ما تعنيه عبارة «كلهم أشرار» وهو ضرورة قيام أمريكا بإعداد حملات نشيطة ضد الأصوليين الإسلاميين. وأظن أنه يمكن الآن فهم ما تعنيه هذه العبارة. ولا يهم أن تعتبر أمريكا أية دولة جماعة إسلامية أصولية. المهم أن توجه إليها «الحملات النشيطة» لإخضاعها. !

وقال «بايبس» أيضا إن على الغرب أن يمارس الضغوط على عدة دول إسلامية من بينها إيران والسودان وأفغانستان والعراق، وكذلك على الولايات المتحدة أن تقدم كل ما تملكه من تأييد لأمثال سلمان رشدى الذى وقف فى وجه الأصوليين.

طبعا المغالطة واضحة لأن سلمان رشدى كان يشوه تشويهًا متعمدا ومقصودا مبادئ الإسلام وشخصية نبى الإسلام وزوجاته، ويشكك فى أن القرآن كتاب الله، وهو بذلك ضد الإسلام ذاته وليس ضد الأصولية الإسلامية.

المهم أن هذه الندوة انتهت إلى ضرورة محاربة أو احتواء الأصولية الإسلامية، ومن الممكن أن يتعاون الغرب مع الأصوليين إذا كان فى ذلك مصلحة الغرب كما حدث فى دعم أمريكا للمنظمات الأصولية فى أفغانستان ، ولكن لا يمنع ذلك من الانقلاب عليهم بعد ذلك وفى الوقت المناسب بعد أن ينتهى تحالف المصلحة وهذا ما حدث فى أفغانستان وما سيحدث قريبا فى دول إسلامية أخرى .

وانتهت الندوة كذلك إلى أنه لا أمل للمسلمين فى تعاون الغرب معهم إلا أن «يكونوا مثلنا». . وهذا يعنى أن يتخلوا عن أفكارهم وأسلوب حياتهم أو على الأقل التخلص عن بعضها !

وعلق على الندوة الباحث الأمريكى «جون مونرو» فقال: إن الفارق كبير بين الغرب والإسلام، وإن التقارب غير ممكن. . فالأساس فى الإسلام هو «الطاعة» فى جميع الأحوال، ويشترك فى الإيمان بذلك جميع المسلمين المعتدلين والأصوليين، لأن الطاعة هى التى تجعل المسلم مسلما صالحا، بينما الطاعة ليست من القيم الغربية ، والقيمة الأولى فى الغرب هى «الحرية» فى التفكير. . الحرية فى التصرف. . الحرية فى أن تؤمن بما تود أن تؤمن به طبقا لما يمليه على كل فرد عقله وضميره. . وكذلك فإن الغرب والإسلام ينظران إلى «الله» وإلى «العالم» بنظرة مختلفة وهذا الاختلاف هو المصدر الرئيسى للاحتكاك والخلاف والانقسام. . المسلمون ينظرون إلى «العالم» من خلال عيون النبى والأئمة. . والغربيون ينظرون إلى العالم من خلال عيون العلماء الواقعيين والباحثين والمفكرين ومن خلال المصلحة والمنفعة. .

وهكذا يفكرون، ويعملون، من أجل البحث عن العدو، وإيجاد العدو حتى ولو لم يكن موجودا. وقد عبر عن هذا الاتجاه فى أمريكا «بول كروجمان» فى مقال فى «نيويورك تايمز» فى ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٢ بعنوان «اختراع الحقائق عند الضرورة» قال فيه: إن الفكر والسياسة فى أمريكا يقومان باختراع الحقائق التى تساعد على تحقيق الأهداف الأمريكية إذا لم تكن هذه الحقائق موجودة فى الواقع بالفعل.

وليس هنتنجتون وحده الذى بحث عن «العدو» للغرب ووجده فى «الإسلام». وقد تحدث عن ذلك بوضوح الكاتب البريطانى باتريك سيل فى مقال بعنوان

«التحالف الأمريكي الروسي ضد الإسلام» نشرته صحيفة الحياة اللندنية فـي ١٨ يناير ٢٠٠١ وحذر فيه من أفكار وزير الدفاع الأمريكى «دونالد رامسـفيلد» وقـال إن الغرب اعتاد الاختباء وراء عبـارة «الأصوليـة الإسـلامية» ، بينمـا يقصـد فـى الحقيقة «الإسلام» نفسه، ولذلك يتعمد الغربيون الخلط بين الإسـلام والإرهـاب، لأن مفهوم الأصولية الإسلامية عندهم هو الإسلام ذاته .

وأخيرا يجب أن يلفت النظر ما يقال من أن على أمريكا أن تقدم كـل مـا تملـك من دعم وتأييد لأمثال سلمان رشدى والادعاء بأنه وقـف فـى وجـه الأصوليـين. . بينما رواية سلمان رشـدى «آيـات شـيطانية» لم توجـه النقـد إلى الأصوليـة أو إلى الإرهاب أو إلى الأفكار المنحرفة التى تدعى أنها تعبير عن الإسلام، ولكنها مليئة بالسباب والإساءة والعداء الصريح للعقيدة الإسلامية ذاتها.

ولو قرأنا هذه العبارة مرة أخرى ربما نفهم لماذا تقدم أمريكـا الحمايـة والدعـم المالى والسياسى لأمثال سلمان رشدى وتقدمهم على أنهم أبطال حرية الفكر .

الإسلام ضحية الإعلام الأمريكى.. والصهيونى !

لابد أن نعترف بأن اللوبى الصهيونى قد نجح نجاحا كبيرا فى تشويه صورة العرب والمسلمين فى داخل إسرائيل وفى داخل الولايات المتحدة، وأنه وصل إلى تكوين صورة نمطية منفرة للعربى والمسلم فى عقول الإسرائيليين والأمريكيين.

واللوبى الصهيونى يتميز أولا بأنه يعمل وفق مخطط طويل المدى لسنوات وسنوات ويستمر فى التنفيذ بكل الوسائل،فى الإعلام، ومؤسسات التعليم والتربية، وحتى الجامعات ومراكز الأبحاث. ويتميز ثانيا بأنه يعمل بمجموعات من الخبراء والسياسيين ويتغلغل فى جميع المواقع تقريبا، ويصل إلى كل مجموعة من الناس بالأسلوب الذى يناسبها ، ويتميز ثالثا بأنه لا يشكو من نقص التمويل، أو قلة الكوادر المؤهلة علميا والمدربة والتى تحمل جنسية كل بلد تعمل فيه وتتحدث فى كل بلد بلغته، وتعرف جيدا المداخل المناسبة والأوتار الحساسة للتأثير على المشاعر والعقول فيه.

ففى إسرائيل لا تظهر الشخصية العربية والإسلامية فى أدوات الاتصال الجماهيرى والكتب المدرسية إلا شخصية مشوهة تبعث على الكراهية أو تثير السخرية. وقد نشرت صحيفة (هآرتس) منذ سنوات نتائج بحث أجرى فى قسم تأهيل معلمى اللغة العربية فى جامعة تل أبيب تحت إشراف البروفيسور حزاى بوروش، وتبين من هذا البحث أن الشخصية النمطية التى تدرس للعربى والمسلم فى المناهج الدراسية لم تتغير بعد معاهدة السلام مع مصر، ولا بعد معاهدة السلام مع الأردن، وإنها مازالت تقدم للتلاميذ فى جميع مراحل التعليم لتأكيد الاعتقاد بأن العرب والمسلمين فى مرتبة اقل من اليهود، وأن هذه المناهج فى عمومها تجعل الطلبة اليهود لا يجدون فى أنفسهم رغبة فى محاولة التعرف على أقرانهم من العرب والمسلمين أو الاشتراك معهم فى حوار أو نشاط.

وقد أعد البروفيسور حزاى بوروش بحثا قام فيه بتحليل ١٢ كتابا مدرسيا تدرس فى المرحلة الإعدادية فى المدارس الإسرائيلية، تم إعدادها بعد حرب ٦٧ ومازالت مقررة تدرس للتلاميذ حتى الآن. وقال البروفيسور بوروش فى بحثه: إن الرسائل الإعلامية فى هذه الكتب تقدم شخصية العربى والمسلم بما يبعث على النفور منها من حيث المظهر، والملابس، والعادات، وأسلوب المعيشة، والعلاقات داخل الأسرة، والأعمال التى تناسبها، وتتحدث عن علاقات العرب والمسلمين على أنها علاقات متوترة وعدائية، على الرغم من أن الشعار الرسمى المعلن لوزارة التعليم الإسرائيلية الذى تردده فى المناسبات هو (التعايش والتطبيع) والكتب التى تقررها فى المدارس تكشف عن حقيقة مغايرة، فقد أظهرت الدراسة أن قلة قليلة من النصوص فى الكتب الدراسية تتحدث عن الثقافة العربية أو الإسلامية وركزت الكتب على مجرد تدريس اللغة العربية.

وفى هذه الكتب التى يدرسها تلاميذ المدارس الإعدادية فى إسرائيل- وهم فى سن تكوين الصور النمطية والاتجاهات العقلية والنفسية - يظهر العربى التقليدى فى عدة مظاهر، فهو البدوى دائم الترحال أى لا أرض له ولا وطن!، أو هو الخادم الذى يعمل لدى سيده غير العربى وغير المسلم، أو هو الفلاح الجلف الجاهل الذى لا يعرف الذوق والأسلوب الحضارى فى التفاهم والتعامل مع الآخرين، دون أدنى إشارة إلى أحد من المثقفين أو العلماء أو الشخصيات البارزة من الفلسطينيين أو العرب أوالمسلمين عموما .. وحتى الفلاح العربى والمسلم لا تصوره الكتب المدرسية إلا فى صورة الجاهل المتخلف الذى يزرع الأرض بشكل تقليدى وشأنه شأن أغلبية العرب والمسلمين يتمسكون بما هم عليه من أسلوب حياة وأفكار تقليدية وبدائية، ويرفضون التجديد والتطور، ولا تقدم هذه الكتب العربى والمسلم إلا على أنه الفلاح، وعامل البناء، والنجار، والحلاق، وهو غالبا فقير، يعيش فى خيمة، ويركب الحمار، وليس أمامه مجال آخر يصلح له إلا عمله الذى يقوم به والذى يناسب قدراته الذهنية والتعليمية. أما (العربى العصرى) فلا يذكر فى الكتب المدرسية إلا بشكل عابر، ولذلك فإن الرسالة الإعلامية التى يهدف المنهج الإسرائيلى توصيلها للتلاميذ أن العرب والمسلمين مكانهم الطبيعى على هامش الحياة والمجتمع، ودورهم تأدية الخدمات التى

لا تناسب الإنسان المتحضر، وليس بينهم سوى قلة لا تذكر من المثقفين، وأما المرأة المسلمة فهى أكثر تخلفا .. ويصل الباحث الجامعى الإسرائيلى فى نهاية بحثه إلى أن كتب تعليم العربية للتلاميذ فى إسرائيل فإنها تعمق (التصنيف الثقافى) فى عقول الأجيال الجديدة، وتؤكد الإحساس بالتفوق الإسرائيلى والدونية للعربى والمسلم.

وما يدرس فى الإعدادى يدرس بتوسع أكبر فى الثانوى والجامعة، وما تنشره الصحف ومراكز البحوث، وما يقدمه التليفزيون ، والمسرح، لا يخرج عن هذا الإطار: التفوق الإسرائيلى، والدونية للعرب والمسلمين. وماذا يمكن أن تكون النتيجة ؟

الغريب أن الولايات المتحدة وإسرائيل تعملان بمنتهى القوة على تغيير مناهج الدراسة فى العالم العربى لغرس الثقة والاحترام فى الأمريكى والإسرائيلى ونشر (ثقافة السلام) ، بينما ينشرون هم (ثقافة الكراهية وثقافة العداء) .

أما الصورة النمطية للعرب والمسلمين فى الثقافة الشعبية الأمريكية فقد أعد لنا عنها البروفيسور جاك شاهين تقريرا بالغ الأهمية استغرق إعداده عشرين عاما ولم يورد فيه معلومة دون أن يحدد مصدرها، ويحلل ما فى الكتب وبرامج الإذاعة والتليفزيون وأفلام السينما الأمريكية، ويصل من هذا التحليل إلى أن (صناعة العقل الأمريكى) تعمل على تكوين صورة سلبية عن العرب والمسلمين فى الثقافة الشعبية أهم عناصرها: البداوة، والرمال، والخيام، والنخيل، والحريم. ومن حسن الحظ أن قام الدكتور السيد عمر بترجمة هذا التقرير .

صورة العرب والمسلمين تقدم فى الثقافة الشعبية الأمريكية فى صورة سهلة وجذابة حتى أصبحت عملة رائجة، وتؤكد هذه الدراسة أنه منذ الربع الأخير من القرن العشرين ظل العرب يمثلون (الآخر الخطير) فى المنظور الأمريكى، ويتردد بقوة أن الخطر (الأخضر) أى الإسلامى هو البديل للخطر «الأحمر» أى الشيوعية، وفى الذهن الأمريكى هناك معنى واحد للإسلام، والجهاد ، والكراهية، والتعصب، والعنف، وعدم التسامح، واضطهاد المرأة... وتشير الدراسة إلى استطلاع للرأى أجرى عام ١٩٩٤ بين ثلاثة آلاف شخص من

الأمريكيين البيض والسود وذوى الأصل الآسيوى واللاتينى حول العلاقة بين الطوائف الأمريكية فقال ٤٢٪ منهم إنهم يرون أن الإسلام دين يرتبط بالإرهاب ويؤيده ، و٤٧٪ يرون أن المسلمين معادون للغرب عموما وللأمريكيين خصوصا،و٦٢٪ يرون أن المسلمين يضطهدون المرأة ويسيئون معاملتها، كما تشير الدراسة إلى أن (الجهاد) فى الإعلام والأدب والسينما فى أمريكا يقدم على أنه (حرب مقدسة) يفرضها الإسلام على المسلمين ضد غير المسلمين، وأصبحت كلمة (الأصولية) مرتبطة بالإسلام والمسلمين وبالجماعات الإرهابية دون تفرقة، بالرغم من أن (الأصولية) ليست إسلامية أو عربية.ولكنها ظهرت عند الأمريكيين البروتستانت الذين يلتزمون التزاما حرفيا بالإنجيل، وفى الإعلام الأمريكى الآن يتكرر بصورة مقصودة وصف الإسلام بالأصولية وبالإرهاب على أنه لا يمكن الفصل أو التفرقة بينهما! ويردد الإعلام الأمريكى أن كل مسلم فى العالم هو صورة طبق الأصل من خومينى أو صدام حسين، ونجحوا فى الخلط بين العقائد الإسلامية والمواقف والحركات السياسية فى العالم الإسلامى وجعلوها حزمة واحدة .

وأكثر من ذلك وصل الخلط فى الذهن الأمريكى إلى حد أن بعض الأمريكيين يعتقدون أن إيران دولة عربية ، ويوجهون الإدانة إلى المسلمين عموما بالصورة التى كونوها عن إيران وثورة الخمينى، والدليل على أن الأمريكيين فى عمومهم لا يعرفون عن الإسلام والعرب غير الصورة المشوهة التى تقدم لهم أن الدراسة توصلت إلى أن معظم الأمريكيين يسحبون على العرب إدانتهم لإيران باعتبارها دولة فى محور الشر على حد تعبير الرئيس الأمريكى جورج بوش، ولا يعرف الأمريكيون أن العرب لا يمثلون سوى ١٢٪ من المسلمين، والشائع بينهم أن كل المسلمين عرب، وأن الإيرانيين عرب، وليس ذلك غريبا مع ما هو معروف من أن الأمريكيين يعتنقون الأفكار الجاهزة التى تقدم إليهم دون أن يشغلوا أنفسهم بالبحث عن مدى صدقها أو التفكير فى أنها منطقية أو غير منطقية، خاصة وآلة الإعلام الأمريكية تتبع أساليب سيكولوجية وعلمية وتكنولوجية شديدة التأثير وتجعل المتلقى يفقد القدرة على التمييز والنقد.

ونتيجة للتكرار والتنوع فى الإعلام والفنون وحتى فى دراسات مراكز البحوث والجامعات، ترسخت حالة نفسية من الكراهية للعرب والمسلمين بحيث أصبح من المعتاد إدانة جميع العرب والمسلمين على أية جرائم ترتكب، وقد عبر عن ذلك فيليب جيلين في صحيفة واشنطن بوست بأن الصحفيين الأمريكيين يعملون على أساس الصور النمطية المجسدة فى الرسوم الكاريكاتيرية، والتليفزيون، والسينما، والكلمة المكتوبة، إلى النظر إلى العرب على أنهم كلهم سواء، وإلى أخذ الجميع بجريرة القلة، بل إن بعض المفكرين يتحدثون عن (القبيلة العربية) و (الغرائز البدوية العربية) للإيحاء بأن العرب غير أكفاء للمواطنة أو الحكم، وأن العرب يلبسون ملابس ويحملون أسلحة تدعو للسخرية، ومع ترسخ هذه الرؤية السلبية المتحيزة عن العرب والمسلمين فإن التعصب ضدهم فى الغرب لا يجد معارضة.

ومن النتائج التى توصل إليها هذا البحث أن معظم الأمريكيين لا يعرفون شيئا عن تعاليم ومبادئ الإسلام، ولا يعرفون شيئا عن أعياد المسلمين، ولا يعلمون أن هناك نقاط اتفاق بين الديانات السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، وعلى الرغم من أن البلاد العربية فيها (ملايين من المسيحيين) هم عرب دما ولحما فإن الإعلام الأمريكى لا يشير إلى هذا الحقيقة، وكذلك لا يشير إلى أن الأمريكيين من أصل عربى معظمهم من المسيحيين و٣٠٪ منهم فقط من المسلمين، ورغم أن الولايات المتحدة فيها مسلمون أمريكيون عددهم الآن بين خمسة وثمانية ملايين وبذلك يعتبر الإسلام هو الديانة الثانية فى أمريكا.. ورغم أ ن الولايات المتحدة فيها ما يزيد على ٢٠٠ ألف مشروع أعمال إسلامى، و ١٥٠٠ مسجد و ١٦٥ مدرسة إسلامية، و٤٢٥ رابطة وجمعية إسلامية، و ٨٥ نشرة ومجلة إسلامية، فإن وسائل الإعلام تشوه صورة المسلمين ومؤسساتهم وتصور كل المسلمين الأمريكيين على أنهم من اتباع لويس فرخان.

و«لويس فراخان» زعيم طائفة من المسلمين الأمريكيين تتهمه الصحافة بأنه حصل على أموال أجنبية من بلاد إسلامية للتأثير على الانتخابات الأمريكية عام ١٩٩٦، وتدعى بأنه أعلن (أن الله سيدمر أمريكا على يد المسلمين) كما تدعى بأنه حين التقى مع الزعيم الليبى معمر القذافى قال له: إذا كان

بحاجة إلى مساعدة فإنه فى إمكانه أن يرسل إلى ليبيا أربعين مليون مسلم أمريكى، وهذا ادعاء لا أساس له وهو اقرب إلى الكاريكاتير، لأن اتباع «لويس فراخان» أقل من عشرين ألفا، وسائر المسلمين الأمريكيين يعارضون لويس فراخان. ومع أن المسلمين الأمريكيين وغير الأمريكيين يعيشون جنبا إلى جنب مع غيرهم من الطوائف إلا أن وسائل الإعلام تصورهم على أنهم خطر على المجتمع وعلى الأمن القومى، وأنهم يتساوون فى الخطورة مع مهربى المخدرات والمجرمين، ويساندون الأعمال الإرهابية وموالون للحكام الطغاة فى العالم الإسلامى .

وتشير هذه الدراسة إلى أن التشويه وصل إلى حد أن البعض يتحدث عن المسلمين على أنهم (يعبدون القمر)، ويذكر أمثلة على ذلك ما رددته جانيت بارشالز فى الإذاعة يوم ١٥ مايو ١٩٩٦ وكرره الدكتور روبرت مورى فى محاضرات ومطبوعات بعنوان (الله – إله القمر) و (الإسلام : ديانة إله القمر) و (الغزو الإسلامى: التصدى لأسرع الأديان انتشارا فى العالم) ويقول فيها إن دين الله – إله القمر الصحراوى – يشق طريقه إلى سجون كارولينا الجنوبية، وإن (إله المسلمين إله وثنى).

وأنا شخصيًا لا أصدق أن هناك إنسانًا عاقلا فى العالم يمكن أن يقول إن الإسلام ديانة إله القمر، لأن هذا هراء لا يصدر إلا عن «هلاوس» مجنون، ولكن ما يدهشنى أن يؤكد ذلك إبراهيم هوبر رئيس مجلس العلاقات الأمريكى الإسلامى ويقول: «إن فكرة إله القمر رائجة خاصة عند الإنجيليين الذين يؤيدون مثل هذه الخزعبلات فى كتبهم. ويكرر بعضهم مقولة دانتى عن الرسول صلى الله عليه وسلم: (بأنه الشخص الذى حطم قبضة المسيحية ويستحق على ذلك أشد عقوبة بأن يشق نصفين من رأسه إلى ما بين قدميه) كما يردد البعض قول واشنطن ايرفنج الذى كتب عام ١٨١٣ يقول (على الرغم من عبقرية النبى محمد فإن أحكامه نتاج للسقم والتعصب الدينى) وبعد ذلك بقرن كامل يكتب جونلويد ستيفنز: إن (كل مسلم مخلص لإسلامه يتزوج ستا وثلاثين عذراء ليشبع رغباته) ويرفق ذلك برسم توضيحى تظهر فيه سيدتان بدويتان نهودهما عارية ومكتوب تحت الرسم (هذا ما يتوقع كل مسلم تقى أن يجده فى الجنة).

قد لا يصدق البعض أن كل ذلك قيل ويقال فى أمريكا، ولكن هذه الدراسة العلمية تشير إلى قائمة طويلة تحمل عناوين منها (نيران الإسلام) و (الإسلام الملتهب) وتتردد نفس الأفكار فى مقالات تحمل عناوين مثل (الإسلام قد يكتسح الغرب) و (الحرب الإسلامية ضد الحداثة) و (القنبلة الزمنية الإسلامية)،وليس غريبًا أن تكون الفكرة الراسخة فى عقول الأمريكيين التى تكونت من قراءاتهم فى الصحف والكتب ومشاهداتهم للأفلام وبرامج التلفزيون أن المسلمين قساة غلاظ القلوب لا يعرفون التسامح، يعيشون على البداوة، أفكارهم متخلفة وجامدة، منعزلون عن تيار الحضارة الحديثة ويرفضون الالتحاق بها.. ومنافقون.. ومهووسون بالجنس.

أما صورة المرأة المسلمة فى وسائل الإعلام الأمريكية والكتب المدرسية فإن الدراسة تثبت أنها صورة سلبية، وفى كتاب المواد الاجتماعية للصف السادس يدرس التلاميذ فصلا عن الشرق الأوسط يتعلمون منه أن حياة العرب والمسلمين تتلخص فى الإبل، والخيام، والنساء المنقبات، وأن الفتاة المسلمة التقليدية لا تذهب إلى المدرسة، والمرأة فى المجتمعات الإسلامية لا يمكن أن تملك شيئا، وأن الرجل المسلم يستطيع أن يطلق زوجته بمجرد كلمة، ثم تتضمن الأسئلة فى نهاية الفصل سؤالا للطالبات: أتحب إحداكن أن تكون امرأة فى الشرق الأوسط؟

وفى وسائل الإعلام الأمريكية صورة نمطية للعربى والمسلم: رجل يلبس جلبابا وعمامة، شرير، وخطير، وماكر، شاغله الأول إيذاء الآخرين وخطف الطائرات وتفجير المبانى.. وذلك دون تمييز بين القلة الإرهابية والأمة الإسلامية التى تنتمى إليها هذه القلة .

وقد توصلت هذه الدراسة إلى أن المعيار الذى يحكم الإعلام الأمريكى فى عمومه هو: إذا كان بعض المسلمين والعرب متعصبين فإن معنى ذلك أن كل العرب متعصبون وميلهم للعنف أصيل. وإن وسائل الإعلام الجماهيرية فى أمريكا لم تعد تقدم اليهودى على أنه (شَره) أو الأيرلندى على أنه (سكير) أوالهندى على أنه (متوحش) وأصبحت صناعة غرس الكراهية والخوف من الأجانب موجهة فقط إلى العرب والمسلمين دون سواهم، حتى إن الصحفى الأمريكى جاى ستون كتب مرة يقول: (هل يمكن أن تخرج صورة العربى أو

المسلم في السينما عن تصويره على أنـه واحـد مـن ثلاثـة : مليونـير.. إرهـابى.. عربيد. فأين العرب والمسلمون العاديون في السينما الأمريكية وهل آن الأوان لكى تتوقف هوليود عن هذه الحرب) ويرسم سام كين مؤلـف كتـاب (أوجـه العـدو) الـذى صـدر عـام ١٩٨٦ الوجـه الآخـر للمأسـاة وهـى أن تشويه سمعـة العـرب والمسلمين مستمرة على العكس من أى جنس آخر، وذلك نتيجة لعدم تعـرض مـن يحط من شأن العـرب والمسلمين لمحاسبة أو عقـاب. ولذلـك فـإن العـالم العربـى والإسلامى فى التليفزيون والسـينما هـو عـالم سكانه جميعـا رجـال ذوو لِحًـى، وشيوخ مشبوهون بين الحريم، وإرهابيون، وبدو متخلفون لا أخلاق لهم، وحريم خانعات يرتدين ثيابا سوداء من قمة الرأس إلى أخمص القدم، ويسرن فى خضـوع و ذله وراء شيوخ متعسفين، ورءوسهن مطأطأة، وليـس لهـن وظيفـة غـير خدمـة الرجـال، والمـرأة المسلمة فـى الغـالب كـائن أخـرس غـير متعلـم، ومسـتعبد.. وباختصار فإن السينما والتليفزيون تعرضان دائما صورة العربى علـى أنـه يفتقـد (الوجه الإنسانى) ويعيش فى صحراء بها آبـار بـترول وخيـام ومسـاجد وأغنـام وجمال، أو فى قصور مليئة بالحريم والخدم .

وقد عرضت هوليود ما يتراوح بين ١٥ و٢٠ فيلما أسبوعيا فـى الفـترة مـن عـام ١٩٨٦ إلى ١٩٩٥ تسخر من العرب، وأقحمت صورة بغيضة للعرب والمسلمين فـى أكثر من مائة وخمسين فيلما لم يكن موضوعها عن العرب أو الشرق الأوسط، وإذا كان مارك توين فى عام ١٨٦٩ قال فى كتابه (أبرياء بالخارج): إن أتبـاع محمـد وثنيون .. ملاحدة.. متوحشـون.. عيونـهم قاسـية ومليئـة بالكراهيـة، فـإن فـى العشرينات قدمت صورة العربى والمسلم علـى أنـه تـاجر عبيـد، متوحـش، وفـى السبعينات والثمانينات قدمت صورة العرب والمسلمين على أنهم شيوخ البـترول، وفى التسعينات وإلى الآن أصبحت الصورة (إرهابى.. أصولى.. متعصب يصلى قبل أن يقتل الأبرياء) وعرب ومسلمو اليوم فى الإعلام والسينما الأمريكية: شيوخ .. يتميزون بالوقاحة.. غير متحضرين ويرفضون التحضر.. يدمرون اقتصاد العالم .. ويخطفون النساء الغربيات.. ويسعون إلى تدمير إسرائيل وأمريكا .

فى عام ١٩٩٠ عرض فيلم أمريكـى اسمـه (ليـس بـدون ابنتـى) يصـور رجـلا مسلما منافقا وكذابا يخطف زوجته الأمريكية إلى إيران، وهناك يسجنها ويسىء

معاملتها، ويصفعها على وجهها ويقول لها متباهيا (أنا مسلم) ويقسم للناس على القرآن ويحنث بالقسم، وتملأ الشاشة مشهد الرجل وهو يغادر المسجد ووراءه عائلته التى أصبحت تعيش فى الأسر والعبودية باسم الإسلام وخلفه صورة للخومينى للإيحاء بأن سلوك المسلمين جميعا تجاه أمريكا والأمريكيين يماثل سلوك الخومينى.

حقيقة جديرة بالاهتمام فى هذه الدراسة، وهى أن صورة اليهودى النمطية التى كان الإعلام فى ألمانيا يلصق بها كل السلبيات والنقائص ويجعل منها كبش فداء وسببا لكل مشكلات ألمانيا لم تعد موجودة الآن، وحلت محلها صورة الفلسطينى والعربى والمسلم بعد تحويرها وأصبح كل من هؤلاء هو (العدو الأول).. والحثالة .. والإرهابى.. والسوس فى قطعة الخشب .. وخنزير.. ومتشرد .. ووحش يقتل الأطفال، ويصور فيلم (أكاذيب حقيقية) إنتاج ١٩٩٤ وفيلم (القرار التنفيذى) عام ١٩٩٦ الفلسطينيين المسلمين على أنهم يتميزون بالعدوانية والسادية ويتلذذون بتعذيب وقتل الأمريكيين الأبرياء بل ويقتلون القساوسة دون اعتبار أو احترام لحرمة رجال الدين، ويقومون فى الفيلم بتفجير قنبلة نووية قبالة شاطئ فلوريدا. وبلغ الإسفاف فى ذلك الفيلم حدا دفع إيفى فيشر أحد أفراد فرقة كوماندوز إسرائيلية سابق ويعمل فى صناعة السينما بهوليود، يقول: (لقد حاربت، ولى أصدقاء عرب ومسلمون، ولكن ما تفعلونه ينزع الإنسانية تماما عن جماعة من البشر). وفى فيلم (القرار التنفيذى) تخطف مجموعة من المسلمين طائرة ركاب، ويقتلون إحدى المضيفات. ويعدون لتفريغ كمية من غاز الأعصاب تكفى لقتل ملايين من سكان العاصمة الأمريكية واشنطن.

ويتكرر فى الأفلام وتمثيليات التليفزيون مشهد الفلسطينى وهو ممسك بيده قنبلة وباليد الأخرى المصحف ويدخل قاعة فندق وينسف من فيها من رجال ونساء... والعنصرية فى الأفلام الأمريكية تظهر فى تصوير الأطفال الأمريكيين العرب على أنهم (همجيون) وتصور العربى والمسلم على أنه يبتلع الطعام مثل الخنزير.. وتهدف مثل هذه الأفلام إلى غرس الشعور بالدونية لدى الأمريكيين العرب واشعارهم بالخجل من أنهم من أصول عربية ومسلمون لكى ينتهى بهم

الأمر إلى التنكر لأصولهم العربية الإسلامية وإخفاء هويتهم، والخجل من إعلان أنهم من أصول عربية وأنهم مسلمون !

يرصد جاك شاهين أن السينما الأمريكية لم تقدم شخصية عربية أو إسلامية لها إنجاز علمي أو ثقافي، لأن صناع الصورة يعلمون ما يحدث عندما يتولى طرف تَصوير الآخر وكأنه لا وجود له، وهذا يولد فى الأسر الأمريكية العربية المسلمة شعورا بالعدمية، خاصة بعد أن يستمر عرض فيلم مثل (الرهائن) عام ١٩٩٣ لفترة طويلة وهو يقدم صورة للعرب والمسلمين على أنهم أوغاد يقتلون بأعصاب هادئة، وفى فيلم آخر اسمه (تحت الحصار) يقول وزير الخارجية الأمريكى لسفير دولة إسلامية: (إن أبناء وطنك برابرة) وعندما تحدث فى الفيلم حوادث تفجير فى البيت الأبيض وفى عدد من المتاجر يبحث مدير المخابرات الأمريكية فى سجلات أبناء الجالية العربية والإسلامية الأمريكية عن الإرهابيين الذين ارتكبوا هذه الجرائم. وفى ذلك إيحاء بأن أية حوادث إرهاب لا يمكن أن يقوم بها إلا عرب ومسلمون .

وعموما فإن الأفلام الأمريكية تصور المسلمين على أنهم فى حالة تناقض مع أمريكا، وعبر عن هذه الحقيقة باحث أمريكى بقوله: إن العرب مختلفون عن الأمريكيين فى عقليتهم، وفى تحديدهم لما هو صواب وما هو خطأ، وما هو جدير بالحياة من أجله، وما هو جدير بالموت من أجله، وينبغى أن نستيقظ، ولا نصر على معاملتهم كما لو كانوا مثلنا .

ومن أغرب ما فى هذه الدراسة شكوى الممثل الأمريكى نيقولاس كادى الذى يكتسب شهرته بتمثيل دور إرهابى عربى مسلم يلبس الكوفية، وقال فى حديث له : إنه نادرا ما يقول كلمة فى الأفلام التى قام بالتمثيل فيها .. وإن ما يطلب منه أن يوجه نظرات تهديد وأن يقول فى كل مرة : (أمريكا) ثم يبصق.

والصورة الكريهة للعربى والمسلم تظهر حتى فى الإعلانات التجارية. ويقول جاك شاهين: إنه من المفترض أن الديمقراطية الأمريكية مؤسسة على صحافة حرة تزود الأمريكيين بالمعلومات الصحيحة ، إلا أن هذا الفرض غير صحيح، والصحافة الأمريكية مليئة بالتضليل المتعمد والمعلومات المشوهة عن مسلمى الولايات المتحدة .

ويقول زهير كشميرى فى كتابه (الخليج من الداخل): إن موجة من العنصرية المعادية للعرب والمسلمين اجتاحت كندا وأمريكا وقت حربهما على العراق، ووجد معظم العرب والمسلمون فى أمريكا وكندا أنفسهم مصنفين على أنهم فى خندق العدو، وعانوا من المضايقات والعنف فى الشوارع، والمدارس، وأماكن العمل، واستمر ذلك حتى بعد وقف إطلاق النار، ولم يقتصر ذلك على الأمريكيين العاديين بل شارك فيه مسئولون وازداد الحال بعد تفجير مركز التجارة العالمى فى ٢٣ فبراير ١٩٩٣.. ووصل إلى الذروة بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ . وانتهزت الصحافة وشبكات التلفزيون الفرصة لتصوير المسلمين جميعا على أنهم إرهابيون، وأن تنظيمات طالبان والقاعدة والجهاد هى التعبير عن حقيقة الإسلام .

من الأمثلة التى تتكرر فى الصحافة الأمريكية ما كتبه ليسلى جيلب فى صحيفة (نيويورك تايمز) من أن الإسلام من حيث المبدأ لا يعترف بالتعايش.

وتشير الدراسة أيضا إلى العناوين الرئيسية لبعض الصحف الأمريكية، مثل عنوان (واشنطن بوست) فى ٥ مارس ١٩٩٣ الذى يقول: (الإسلام الجهادى يحارب القيم الغربية: العنف على هامش اليقظة الأصولية) أو العنوان الرئيسى لصحيفة (يو. إس. إيه تودى) واسعة الانتشار يوم ٩ مارس ١٩٩٤ الذى يقول: (المواجهة من جديد بين الإسلام الثورى والغرب).

ويعترف الصحفى ريتشارد كوهن فى صحيفة (واشنطن بوست) بأن الخوف من الإسلام متأصل فى الثقافة الغربية، ويقول: إن الوثائق الرسمية كشفت أن الذين أدينوا بارتكاب أعمال إرهابية فى أمريكا فى الثمانينات كانوا ١٧١ شخصا لم يكن بينهم سوى ١١ شخصا على علاقة بجماعات عربية بنسبة ٦٪ فقط والباقى أمريكيون !

وكتب ديرك جاكسون المحرر فى صحيفة بوسطن جلوب يقول : (إن بعض الصحفيين يكيلون بمكيالين، فعندما يرتكب مسلم جريمة يلصقونها بالمسلمين جميعا، ولا يفعلون ذلك عندما يرتكب مسيحى أو يهودى جريمة فإنهم ينسبونها إلى شخصه دون إشارة إلى ديانته. ولا يعممون صفة الإجرام أو الإرهاب

بالمسيحيين أو اليهود جميعا، فهم لم يصفوا إيجال عامير قاتل إسحاق رابين بأنه (إرهابى يهودى) أو (أصولى يهودى) ولم يصفوا ميتشل جريفى قاتل الدكتور ديفيد جن بأنه (متطرف مسيحى)، ولكن ستيفن أمرسون ظل يكتب على مدى عام كامل بعد حادث تفجير مركز التجارة العالمى عام ١٩٩٣ بأن (العالم الإسلامى فى حرب مع أمريكا) وظل يكرر (إن الراديكاليين الإسلاميين سيهاجمون الأمريكيين لا محالة) وظل يكرر فى عناوين مقالاته الاتهامات إلى (الجهاد) و (القنبلة الإسلامية) و (سيف الإسلام)

وعقب كل حادث إرهابى تظهر فى سلوك الأمريكيين آثار الصورة الذهنية التى غرستها وسائل الإعلام والسينما، فيتعرض العرب والمسلمون فى أمريكا لمضايقات وإهانات، كما يتعرضون لسيل من النكات، ويكون العربى والمسلم هو المتهم الجاهز لكل جريمة، وحتى عندما يظهر المتهم الحقيقى ويتبين أنه ليس عربيا وليس مسلما لا تكترث الصحف الأمريكية بالتصحيح أو الاعتذار .

فعندما وقع الانفجار فى مدينة أوكلاهوما فى ١٩ أبريل ١٩٩٥ وأودى بحياة ١٦٩ شخصا وأصاب أكثر من ٥٠٠ من أطفال ونساء ورجال، وثبت عدم تورط أى عربى أو مسلم فى الحادث، فإن الصحافة أجمعت على الإسراع فى اتهام مسلمين بارتكاب الجريمة، بل صرح مسئولون بأنه تمت مشاهدة أشخاص يبدو أنهم عرب وهم يلوذون بالفرار من مكان الحادث، ونشرت الصحف أن مرتكبى الحادث أشخاص من الشرق الأوسط. وبدأ التشكيك فى ولاء الأمريكيين العرب والمسلمين. وأذاعت شبكة تلفزيون (سى. إن. إن.) يوم ٢٠ أبريل ١٩٩٥ أن السلطات ألقت القبض على ثلاثة رجال من الشرق الأوسط وأعلنت أسماءهم على الرغم من عدم صلتهم بالحادث وثبوت براءتهم بعد ذلك. ووصف مراسلو (سى. إن. إن.) أن الحادث (انفجار سيارة مفخخة على غرار ما يحدث فى بيروت)، ونشرت صحيفة نيويورك تايمز يوم ٢٠ أبريل ١٩٩٥ أن مرتكبى الحادث إرهابيون عرب مسلمون وأنهم عقدوا اجتماعات فى أوكلاهوما وهى مدينة فيها ثلاثة مساجد.

ثم قالت شبكة سى. إن. إن. : إن مرتكبى العملية من منظمة حماس الإسلامية.

وقال ديفيد ايمرسون إن العرب والمسلمين هم وحدهم الذين يستخدمون الإرهاب ضد أمريكا ويسعون إلى إيقاع أكبر خسائر بشرية ممكنة ويجب ألا نصدقهم عندما ينكرون تورطهم فى هذه العملية.

وبعد الحادث بيومين نشرت صحيفة نيويورك بوست رسما لتمثال الحرية تحت الحصار وبجواره ثلاثة مسلمين ملتحون ويلبسون العمائم، يبتسمون وهم يحرقون العلم الأمريكى، وفى افتتاحية الصحيفة فسرت الفكرة التى تريد توصيلها إلى قرائها فقالت: إن هدف الإرهابيين إثارة الخوف، وسنعرف فى الوقت المناسب الجماعة التى ينتمى إليها أولئك الإرهابيون هل هى حماس؟ أو حزب الله؟ أو الجهاد الإسلامى؟

وما جرى بعد ذلك أن الإذاعي الأمريكي بوب جرانت عقب على رسالة من مستمع يدعو فيها إلى عدم التسرع في تحميل المسلمين مسئولية الحادث. كما علق إدوارد سعيد بمرارة: (إن افتراض أن عربيا أو مسلما ضالعا فى انفجار أو عمل مرعب يُحدِث هستيريا جماهيرية لم أشهد لها نظيرا فى حياتى). وحتى بعد ثلاثة أيام من ظهور نتائج التحقيق وثبوت أن مرتكبى الحادث ليسوا عربا ولا مسلمين لم يعتذر الصحفيون والمعلقون الذين روجوا الادعاء بأن المسلمين هم الجناة ولا يمكن أن يكون أحد غيرهم، وفسر ذلك مور تايمر زوكارمان رئيس تحرير صحيفة (يو. إس. نيوز. أند ورلد ريبورت) بأن (الطبيعى الاشتباه فى المسلمين، لأن المتطرفين الإسلاميين هم «الآخر» الذى يهدد المجتمع المدنى الأمريكى) - قيل ذلك فى عام ١٩٩٥ وهو لا يختلف فى شيء عما قيل فى أعقاب تفجير مركز التجارة العالمى فى نيويورك ومبنى البنتاجون فى واشنطن يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، مما يؤكد أن الفكرة الراسخة الثابتة فى الذهن الأمريكى تدفع إلى كراهية المسلمين والشعور تجاههم بالعداء وتوقع الشرور من جانبهم، وربما يفسر ذلك ما أعلنه الرئيس جورج دبليو بوش من أن محور الشر يضم إيران والعراق،وما طرح فى الكونجرس من اقتراح باعتبار سوريا دولة راعية للإرهاب، وما ينشر ويقال من تصريحات عدائية للسعودية، وما يتردد فى الصحافة والكونجرس من تهديدات لمصر واليمن وليبيا، وكل هذه دول يجمعها شيء واحد أنها دول إسلامية، ولذلك فإن العقل الأمريكى يتهمها جميعا بأنها دول راعية للإرهاب دون تمحيص أو دليل .

الغريب حقا أنه بعد أسبوع من إعلان اسم الإرهابي الأمريكي الذى ارتكب حادث تفجير مبنى أوكلاهوما واتضاح الحقيقة بأن المسلمين لا علاقة لهم بالحادث ، ظهرت بعض الصحف تكرر الاتهامات للمسلمين، كما فعلت صحيفة (جلوب) يوم ١٦ مايو ١٩٩٥ فقد قالت فى العنوان الرئيسى في صفحتها الأولى: (الإرهابيون العرب قاموا بتمويل مرتكبى حادث تفجير أوكلاهوما)، وفى استفتاء حول موقف الصحافة قال العديد من خبراء الإعلام وأساتذة الجامعات: إن الصحافة تصرفت بشكل مسئول ولم تقع فى أية أخطاء، وواصلت الصحافة الحديث عن خطر الإرهاب الإسلامى وضرورة التصدى له بعد أن ثبت أن مرتكبى الحادث هما تيموثي مكفاى، وتيرى نيكولاس، وهما أمريكيان أبا وأما وليسا مسلمين ولا عربيَّيْن ولا علاقة لهما بأحد من العرب والمسلمين. ومع ذلك ظل السائد فى الرأى العام الأمريكي أن المسلمين هم المتورطون فى ذلك الانفجار وواصل الأمريكيون الاتصال بالإذاعات وشبكات التليفزيون للتعبير عن هذا الاعتقاد.

والرأى العام الأمريكى معبأ ضد الإسلام والمسلمين منذ سنوات طويلة، وفي استطلاع للرأى أجرى عام ١٩٩٤ كشف أن ٣٩٪ من الأمريكيين يرون أن الإسلام يعرض أمن أمريكا والغرب للخطر، وأن الإسلام أصبح (قوة الشر) الجديدة في العالم بعد انهيار الشيوعية، وتعبيرا عن التيار السائد ضد الإسلام كتب مور تايمر زوكارمان في يونيو ١٩٩٦ يقول : إن النبى محمد ﷺ لم يكن أمينا، وكان من مبادئه عدم احترام المعاهدات، وقد يقتدى ياسر عرفات بتصرفات محمد ولا يحترم اتفاقاته مع إسرائيل، فعرفات يتبع مبدأ النبي محمد بإبرام معاهدات مع العدو حينما يكون ضعيفا، وانتهاكها حينما يصير قويا !

ويمكن الإشارة إلى مقالات كثيرة نشرتها الصحف الأمريكية فيما بين عامى ١٩٩٤ و ١٩٩٧ لتأكيد فكرة أن العرب يكرهون الشعوب المتحضرة عموما والأمريكيين والإسرائيليين خصوصا، وأن المسلمين لا يقبلون أى نقد أو خلاف معه، ويعارضون حرية الصحافة، وزعمت أن كل النساء فى العالم الإسلامى يعانين من الاضطهاد، بل وتزعم أن فى العالم الإسلامى أكثر من ٥٠ مليون امرأة تسعى كل منهن إلى اللجوء للغرب. وفى مارس ١٩٩٦ نشر مقال فى مجلة

(دايجست) كتبه بريان أيادس عن عودة الرق، وقال فيه (إن العبيد يتعرضون للضرب والاعتداء الجنسي في السودان، ويعاملون مثل قطعان الماشية ويتم تصديرهم إلى ليبيا ودول الخليج)! ولا يصف الكاتب تجار العبيد إلا بأنهم عرب مسلمون للإيحاء بأن كل العرب المسلمين تجار عبيد، مع أن المسألة كلها من اختراع الخيال.

وفي فبراير ١٩٩٧ كتب أ. م. روزنتال كاتب العمود الشهير في صحيفة نيويورك تايمز يقول في مقال بعنوان (لماذا نتسامح مع الإرهاب): إن الإرهاب يمس كل أمريكي، وكل الإرهاب الموجه إلى الولايات المتحدة مصدره الوحيد تقريبا الشرق الأوسط ، والدول التي ترعى الإرهاب هي: (العراق، وإيران، وليبيا، والسودان، وسوريا).

والإحصاءات الرسمية التي أعلنتها وزارة الخارجية الأمريكية عام ١٩٩٥ تقول إن ٩٦٪ ممن أدينوا في أعمال إرهابية بالولايات المتحدة ليسوا عربا، ولا إيرانيين، ومع ذلك تجاهلت الصحافة والإعلام الأمريكي هذا التقرير الرسمي واستمرت في حملتها. وفي ٢٢ أبريل ١٩٩٦ نشرت صحيفة (ميامي هيرالد) رسما لمخلوق يشبه القرد له لحية، ويرتدى عمامة، ويمسك هراوة، ومكتوب على عمامته (الإسلام) وفوقها كلمة (كافر) وتحت الصورة يقول القرد: (نحن نفجر النساء والأطفال و نمزقهم إربا. وفي دورة الألعاب الأولمبية عام ١٩٩٦ قال المعلق الرياضي سكوت سلوان في الإذاعة: (أشعر بالسأم من الأولمبياد، وحينما ذهب محمد علي كلاى ليضيء الشعلة خشيت أن يسقط على شخص من أبناء الشرق الأوسط ويفجر المكان) وحاولت المنظمات الإسلامية في أمريكا مطالبة المعلق بالاعتذار ولكنه لم يستجب لذلك. كما لم تفكر المحطة الإذاعية بالتنويه أو الاعتذار عن هذه الإساءة للمسلمين والإسلام بدون مناسبة.

وحين سقطت طائرة ركاب أمريكية في ١٧ يوليو ١٩٩٦ ارتفعت أصوات بمعاقبة إيران والعراق وسوريا وليبيا ومعاملتهم على أنهم كيان واحد، وقال جيفرى هارت صاحب العمود المعروف في صحيفة (واشنطن تايمز): (إن الرد الصحيح على هجوم إرهابي إسلامي هو شن هجوم فوري مدمر ضد دولة شرق أوسطية، ولا مبرر لعدم معاملة إيران، وسوريا، والعراق، وليبيا على أنهم كيان

واحد، وإذا قيل: إن ذلك سيسفر عن وقوع ضحايا من المدنيين فإن الرد: ماذا يضيرنا من تدمير رعاة الإبل وجامعي التمر؟ !)

ونتيجة هذه التعبئة للرأى العام الأمريكى ضد المسلمين والعرب أن تعرضوا لجرائم ومضايقات، وفى أعقاب كل حادث إرهابى يتحرش التلاميذ الأمريكيون بزملائهم المسلمين الأمريكيين حتى يعودوا إلى بيوتهم وهم يبكون! وحينما وقع انفجار أوكلاهوما تعرض العرب - وخاصة رجال الأعمال منهم - للتهديد بتفجير منازلهم ومحال أعمالهم، وألقى البعض القمامة على المساجد .

ويحدث فى أعقاب تفجير سبتمبر ٢٠٠١ ما حدث فى أعقاب تفجير أوكلاهوما الذى قام به إرهابى أمريكى عام ١٩٩٥، ووجهت اتهامات عشوائية إلى عرب ومسلمين، كذلك فعلوا مع إبراهيم أحمد وهو مواطن أمريكى من أصل أردنى ركب طائرة من مطار أوكلاهوما فى نفس يوم الحادث متجها إلى الأردن لزيارة أسرته هناك، وبعد ساعتين من وقوع الحادث أذيع أنه مشتبه فيه، وبدأ الأمريكيون فى إلقاء القمامة على باب منزله وبصقوا على زوجته، وقبضت عليه المخابرات الأمريكية وهو فى مطار شيكاغو وأخضعته للتحقيق ست ساعات متواصلة، ولم تجد دليلا ضده، فتركوه، وما إن وصل إلى لندن حتى قبضوا عليه ثانية هناك، وفتشوه، وقيدوا يديه، ووجهوا إليه الإهانات، وحققوا معه لمدة خمس ساعات ثم أعادوه إلى واشنطن مرة أخرى، وفى واشنطن جرى معه التحقيق لمدة يوم آخر ثم أطلق سراحه، مع أن إبراهيم أحمد عاش فى أوكلاهوما ١٤ عاما وهو معروف لجيرانه ودائرة عمله وللأجهزة التى تراقب العرب والمسلمين دون تفرقة بين المشتبه فيهم وغير المشتبه فيهم .. ورغم أن الجناة الحقيقيين تمت معرفتهم، وتأكدت براءته دون أدنى شك. فإنه لم يعد قادرا على العيش فى البلد الذى يعتبره بلده، فنظرات الشك والكراهية تحيط به، وسوء المعاملة استمر دون سبب ولم يعد أمامه إلا أن يترك أمريكا !

وفى هذه الدراسة أمثلة تؤكد أن الطلبة النابغين يحرمون من الفرص ويواجهون العقبات إذا كانوا مسلمين، مثلما حدث للطالب عمر عبد المتكلم فى مدرسة كليمنصو فى ميتشجن، ولا تهتم إدارات المدارس بشكوى أولياء أمور التلاميذ المسلمين من سوء معاملة أبنائهم، ومنها شكوى أم تلميذة فى ولاية

كاليفورنيا تقدمت بها إلى مدير المدرسة لأن ابنتها تعود باكية مـن سوء معاملـة زملائها لها فقال لها مدير المدرسة: إذا لم يعجبكـم البقـاء هنـا يـا رعـاة الإبـل فاخرجوا من المدينة! وفى كلورادو اشتكت أسرة أمريكية مسلمة لمديـر المدرسـة مما جاء فى كتاب التاريخ الذى يدرس لابنها من أن (الإسلام دين مزيـف) فـرد مدير المدرسة عليها بعبارات ساخرة. وفى مدينة دالاس نادى مدير مدرسة علـى طالب مسلم: (تحرك وإلا سأحرق خيمتك وأقتـل جملـك)! وفـى مـاريلاند شـكا التلاميذ المسلمون من أن المدرسـات عنـد الحديـث عـن الإسـلام يقلـن إن المسـلمين يؤمنون بآلهة كثيرة، وإن صيام رمضان المفروض على المسلمين فيه قسوة خصوصـا على الصغار .

وفى هذه الدراسة الشاملة أن الحملة ضـد الإسـلام فـى أمريكـا لا تقتصـر علـى الإعـلام والمدرسين ولكنـهـا تـأتى أيضـا مـن بعـض المسئولين، ويسـجل مـا قالـه السناتور ج. ج إيكسوت فى أغسطس ١٩٩٠ : (إن حياة الإنسان فى العالم العربـى ليست مهمة كما هى فى العالم غير العربـى) وقـول هـنرى كيسـنجر فـى عـام ١٩٩٢ : (ليـس بوسـع أحـد أن يصـدق أى شـيء يقولـه عربـى) ، وفـى ١٩ ينـاير ١٩٩٤ قدمت لجنـة مـن الحـزب الجمـهورى خاصـة بموضوع الإرهـاب والحـرب غـير التقليدية وثيقة إلى لجنة فـى مجلـس النـواب بعنـوان (الإسـلام ضـد الكنيسـة) تقول: إن المسلمين يسعون إلى مواجهة مع المسيحيين الغربيـين، وجـاء فـى تلـك الوثيقة (إن القيادة الإسلامية شنت منذ ديسمبر ١٩٩٣ مع المنظمات الإرهابيـة، سيلا من الهجوم ضد الكنيسة بسبب الخدمات الإنسانية التـى تقدمـها الكنيسـة فى أنحاء العالم الثالث ، والإسلاميون يخشـون مـن أن تـؤدى تلـك الخدمـات إلى تعليم أبنائهم تعليما غربيا، وتنشئة قيادات جديـدة فـى العـالم الثـالث معاديـة للإسلام).

هـذه الكلمـات والصـورة الكريهـة تنشـرها وسـائل الإعـلام ووكـالات الأنبـاء فى أرجـاء العـالم ممـا يعمـق سـوء الفـهم وينـذر بإمكـان الصـراع، والأدهـى مـن ذلـك أن السياسـات تتـأثر بتلـك الـرؤى والأحكـام المتحـيزة عميقـة الجـذور، فـى حـين يتصـدى البعـض لكـل محاولـة لبنـاء جسـور التفـاهم بـين الغـرب والإسلام، كما فعـل سـتيفن أمرسـون حـين اتـهم الرئيـس السـابق بيـل كلينتـون

وزوجته هيلارى بمداهنة الإرهابيين العرب والمسلمين، وكتب فى صحيفة (وول ستريت جورنال) يقول: (إن الرئيس وسيدة أمريكا الأولى احتضنا منظمة أصولية إسلامية بالولايات المتحدة مؤيدة لحماس، وهذه المنظمة هى المجلس الإسلامي الأمريكى التى تدافع عن المنظمات الإرهابية الإسلامية).

وهذا الذى قاله ستيفن أمرسون أكبر مثال على المغالطات التى يلجأ إليها أعداء الإسلام لتشويه كل المؤسسات التى تعمل فى أى مجال من مجالات العمل الإسلامى، فالمجلس الإسلامى الأمريكى لا علاقة له بأية منظمات ويعمل فقط فى تنظيم ندوات وإعطاء دروس لتعليم القرآن والمبادئ الإسلامية لأبناء المسلمين الأمريكيين، وليست له أية أنشطة خارج هذا الإطار وهذا معلوم لكل الأجهزة الأمريكية .

ولا تخلو الساحة الأمريكية من أصوات عاقلة ومعتدلة تحذر من عواقب هذا الاندفاع فى العداء للإسلام والمسلمين والعرب، كما فعلت ميج جرينفيلد كاتبة عمود فى مجلة نيوزويك، وكتبت تقول: إن هذه الصورة النمطية التى تتكرر عن العرب والمسلمين.. قد تعوق التوصل إلى سلام حقيقى فى الشرق الأوسط من نتيجة مشاعر التمييز الصريحة المعادية للعرب التى أصبحت ظاهرة فى الأماكن العامة فى الولايات المتحدة الآن.. ومن الأخطاء الجسيمة النظر إلى العرب والمسلمين عند رسم السياسة الخارجية الأمريكية على أنهم جميعا أمة مذنبة.

لماذا كل هذا العداء ؟

يجيب جاك شاهين بعد عشرين عاما من التفرغ لدراسة هذا الموضوع بأن هناك سببين : الجهل ، والتعصب . أما الجهل فيدلل عليه بأن المحررين والكتاب لا يعرفون شيئا يذكر عن الإسلام والعرب والعالم الإسلامى، ولا يوجد بينهم - تقريبا - عربى أو مسلم يصحح أو يقدم صورة صحيحة عن العرب والإسلام. ويذكر أن صحفية قالت فى مؤتمر صحفى عام ١٩٩٣ كان مذاعا على الهواء على شاشات التلفزيون: إنها كانت تظن أن إيران والعراق اسمان لدولة واحدة!

وتبين من إحدى الدراسات أن ٦٠٪ من محررى الشئون الدينية فى الصحف الأمريكية لم يتلقوا دراسة دينية، ويضاف إلى ذلك أن غالبية الصحفيين

الأمريكيين لا يفهمون الإسلام ، ولذلك يكتفون بترديد العبارات النمطية الشائعة بدلا من التفكير في مدى صحتها أو محاولة معرفة حقيقة الدين الإسلامي. وأخيرا فإن الصحفيين يدركون جيدا أنهم إذا أبدوا أقل تعاطف مع الإسلام والقضايا العربية فسوف توجه إليهم اتهامات بمعاداة إسرائيل وموالاة العرب، وهذه تهمة كفيلة بتهديد حياتهم، فضلا عن أن الشائع بين الأوروبيين والأمريكيين أن الإسلام دين غير عقلاني، ومعاد للعلم والتقدم والحضارة، ويغذى السياسيون هذه الأفكار، ويكفى مثلا ما أعلنه وزير الخارجية الأمريكي وارين كريستوفر عقب انفجار أوكلاهوما بأنه تم إرسال مترجمين عرب لمساعدة المحققين لتأكيد الفكرة السائدة بأن كل عمل إرهابي لابد أن يكون مصدره من عرب ومسلمين، وأكد هذه الفكرة ما أعلنه نائب أوكلاهوما في ذلك الوقت ديفيد ماكوردى على شبكات التليفزيون: من أن هناك دليلا واضحا للغاية على تورط منظمات إرهابية أصولية إسلامية.

ما أشبه الليلة بالبارحة .. أليس هذا هو ما قيل في اللحظة الأولى عقب انفجارات ١١ سبتمبر .. وما أعلنه الرئيس بوش من أنه سوف يعلن حربا صليبية على الإرهابيين ؟!

إن الأفلام الأمريكية التى تحط من شأن العرب والمسلمين تحقق أرباحا طائلة، فقد وصل إيراد فيلم (أكاذيب) ١٤٨ مليون دولار داخل أمريكا و ٢١٦ مليونا خارجها فيكون المجموع ٣٦٤ مليون دولار. وطالما يقبل المشاهدون فى أمريكا وأوروبا على مشاهدة الأفلام والمسرحيات والتمثيليات التى تشهر بالمسلمين والعرب فسوف يستمر إنتاج هذه الأعمال الفنية وتزداد (الصورة النمطية) رسوخا.

أين الدول والمنظمات والاتحادات الإسلامية والعربية؟!

لماذا لم تنتج حتى الآن فيلما واحدا يصور كيف كان العرب هم الضحية للاستعمار، والاستغلال، والصهيونية ؟

ولماذا يكتفى الجميع بالبكاء على انحياز الإعلام والثقافة فى أمريكا ضد المسلمين والعرب دون أن يفعلوا شيئا سوى عقد مؤتمرات فى الدول العربية والإسلامية وتبادل الخطب فيما بينهم لإقناع أنفسهم ببراءة الإسلام مما يوجه إليه من اتهامات؟!

لماذا لم يتحرك أحد حركة حقيقية بينما هناك من تحرك من الأمريكيين الذين استشعروا خطورة استمرار هذا الموقف. كما فعل دارت وآليني في دراسة مهمة بعنوان (تخطى الفجوة - الدين ووسائل الإعلام) واقترحا فيها عقد اجتماعات دورية غير رسمية بين رجال الإعلام والقادة المحليين والكتاب الإسلاميين لرسم خطوط إرشادية لتصحيح تعامل وسائل الإعلام مع الإسلام والمسلمين والعرب، وكما اقترح البروفيسور آرثر لوواى أستاذ العلاقات الدولية بإجراء حوار أمريكى مع المثقفين الإسلاميين فى العالم الإسلامى وفى الولايات المتحدة؛ لأن الغرب لم يحاول فهم الإسلام،وإن الحوار ضرورى ليكون بديلا عن المواجهة، والتغطية الإعلامية الدقيقة كفيلة بسد الفجوة بين الغرب والإسلام ولكن هل يكفى صوت واحد أو اثنين..؟

هذه هى الدراسة الميدانية التى اعتمدت فى كل كلمة فيها على مصادر أمريكية موثقة، ومنذ صدورها عام ١٩٩٧ وحتى اليوم لم يكذب أحد كلمة واحدة مما جاء فيها.

والبروفيسور جاك شاهين الأمريكى الجنسية، أستاذ الاتصال الجماهيرى بجامعة الينوى الجنوبية، وأستاذ زائر بمركز التفاهم الإسلامى المسيحى بجامعة جورج تاون ، وباحث بمؤسسة فولبرايت، ومستشار شبكة (سى. بى. إس) وتزيد مؤلفاته على ٣٠٠ كتاب وتقرير منها كتاب (العربى فى التليفزيون) عام ١٩٨٤، وله أيضا مقالات ودراسات عديدة عن تأثير الصور النمطية والقوالب الجاهزة فى الكتب المدرسية والجامعية والمجلات العلمية والدوريات الأمريكية .

وهذا ما فعله، فماذا فعل المسلمون والعرب للدفاع عن دينهم وقضاياهم غير الصراخ داخل بلادهم؟!

ألم يلفت النظر حالة القبول فى الرأى العام الأمريكى للمجازر والاعتداءات البشعة التى يقوم بها الجيش الإسرائيلى ضد الفلسطينيين نتيجة تعمق الشعور بالعداء للعرب والمسلمين؟!

هل يمكن أن يقوم أحد بعمل مًا؟!

دراسة تطالب بتغيير القرآن!

أثارت كوندوليزا رايس مستشارة الأمن القومي الأمريكي مشاعر المسلمين عندما أعلنت أن الولايات المتحدة سوف تكرس نفسها لتغيير العالم الإسلامي. وكشفت بذلك عن أن الحرب الأمريكية وراءها أسباب غير معلنة، وأعادت إلى الأذهان ما أعلنه الرئيس جورج دبليو بوش بأنه سوف يعلن حربا صليبية، كما أعاد إلى الأذهان إعلان رئيس وزراء إيطاليا برلسكوني بأن الحضارة الإسلامية متخلفة وعلى الغرب أن يغيرها. وإن كان ذلك مما يمكن التغاضي عنه، فإن ما قاله وزير الصحة الإسرائيلي نسيم دهان لا يغتفر، حيث وصف المسلمين وهم يصلون في الحرم القدسي بأنهم ثعالب ارتقوا، والآن هم أفاعٍ وعقارب وقال: إن المسلمين يتجولون اليوم بصورة آمنة في القدس، ولكننا سنشهد في المستقبل أياما سنعرف فيها من هم الأسياد؟ ومن هم العبيد؟

ما سر كل هذه العداوة للإسلام؟

وهل الحروب القادمة ستكون حتمية بين الإسلام والغرب كما يقال؟

حاولت مجلة الأيكونومست البريطانية وهي من أكثر المجلات احتراما في العالم، الإجابة عن ذلك في تقرير خاص بعنوان (الإسلام والغرب، الحرب القادمة كما يقولون) في عددها الصادر في ٦ أغسطس ١٩٩٤، وأفردت له عشرين صفحة وبدأته بالقول بان هذا التقرير عن فكرة، ربما تكون هي الفكرة الوحيدة المسيطرة على العالم. ونشرت رسما بحجم صفحة كاملة يمثل الحروب الصليبية وغزو أوربا للعالم الإسلامي وكتبت عليه (يجب ألا يتكرر ذلك ثانية

باسم الرب). وتريد بذلك أن تحذر أو تتنبأ بأن الحرب الصليبية سوف تتكرر ويجب منعها من الآن.

ونلخص هذا التقرير المهم فيما يلى دون تعليق:

إن الإسلام يتجاهل الحدود بين سلوك الإنسان فى حياته الخاصة وسلوكه فى حياته العامة، وبين الدين والسياسة، وربما تكون هذه هى آخر أفكار من هذا النوع يشهدها العالم، وإن أهم تنبؤات نهاية القرن العشرين أن العالم الإسلامى يسعى لمحاربة الدول الأخرى التى لا تؤمن بعقيدته عن (الدين السياسى) خاصة فى أوربا، وفى أوربا يتم تعذيب أبناء البوسنة المسلمين على أيدى الصرب المسيحيين. وعلى حدود آسيا وأوربا يضرب مسيحيو أرمينيا المسلمين بعنف يبعث على الاشمئزاز. ولا تزال الاشتباكات فى فلسطين قائمة بين شعب ديانته الإسلام وشعب ديانته اليهودية. وإذا اتجهنا شرقا نجد أن مسلمى الهند يعانون من الاعتداء عليهم فى كشمير، ويقوم الهندوس بتدمير مسجد أبو ضيا عام ١٩٩٢.. ومثل هذه الأمور تجعل المسلمين يشعرون بأن العالم ضدهم، ومادام الأمر كذلك فليس أمامهم إلا أن يقفوا ضد العالم، ونتيجة لذلك دفع (مرض الخوف من الأجانب) جماعات تتمسك بتعاليم القرآن إلى قتل الأجانب فى الجزائر ومصر، وكما قال البروفيسور صمويل هانتنجتون الأستاذ بجامعة هارفارد (إن للإسلام حدودا دموية)، وهانتنجتون هو الذى حدد الإطار الفكرى للمواجهة المحتملة بين الإسلام والغرب، فى مقاله المشهور بعنوان (صراع الحضارات) نشر فى صيف ١٩٩٣ فى مجلة (فورن أفيرز) أكد فيه أن الصراع القادم سيكون بين الثقافات أو الحضارات وكل منها تشمل مجموعة من البلاد، وتوجد فى العالم الآن ثلاث ثقافات أو حضارات هى التى ستكون ساحة للصراع، الأولى هى الحضارة الغربية الأوربية الأمريكية، وهى نتاج عصر النهضة وعصر الإصلاح والتنوير، وهى التى أفرزت الرأسمالية والديمقراطية المعاصرة، والثانية هى الحضارة الكونفوشية القائمة على الاحترام والخضوع للسلطة على أساس أن الحكومات الكونفوشية تستخدم السلطة بأمانة ولمصلحة الشعوب. وهذه العقيدة الصينية تتعارض مع تاريخ الصين الذى لا يخلو

من الكثير من الوحشية التى تميز بها الحكام وما عاناه المحكومون بما يفوق المظالم التى حدثت فى أى مكان آخر على الأرض .. وفكرة وجود تناغم أو تفاهم من نوع خاص بين الحكام والمحكومين فى شرقى آسيا ليست إلا دعاية لحماية الحكام فى بكين وسنغافورة وكوالالمبور وغيرها.

أما المنافس الثالث فهو الإسلام، وهو يقف وحده بصورة فريدة. وهناك سبب قوى جدا لنظرة الكثيرين إلى الإسلام، على أنه وحده المنافس فكريا للغرب، على عكس الكونفوشية، وحضارة أو ثقافة أمريكا اللاتينية، أو السلاف، واليابانيين، فإن الإسلام يظهر كعقيدة تعتمد على اليقين، اليقين من أنه قائم على كلمات الله التى أرسلها إلى محمد آية بعد آية وقام محمد صلى الله عليه وسلم بحفظها وتسجيلها فى (القرآن) .

ومن الظواهر التى لا تحدث فى أى مكان آخر، أن الكثيرين يتسابقون للانضمام إلى هذا الدين بشكل مستمر ومتزايد، سواء كان الاندماج فى الدين بسبب الهزائم أو الإحباطات المتكررة التى تواجه المسلمين من العالم الخارجى أم من عجز وفساد حكوماتهم، فإن ربع القرن الأخير شهد نموا متزايدا لما يسمى (الأصولية الإسلامية) وإن كان المسلمون أنفسهم يكرهون هذا التعبير مع أنه تعبير صحيح. هناك أعداد كبيرة يشعرون بالخزى مما حدث فى القرون الماضية، ويشعرون الآن أن فى إمكانهم العمل بصورة أفضل، وأن عليهم لتحقيق ذلك أن يقوموا بإعادة اكتشاف هويتهم بالعودة إلى القرآن، ويمكن تسمية هذه الحالة (صحوة) أو (انبعاث) أو (ولادة من جديد)، ولكن ذلك لا ينفى أنها عودة إلى الأصول. وهذا هو ما يسبب المخاوف والألم عند الأوربيين لأنهم يرون مسيرة الهلال الإسلامى – آخر العقائد – فى الزحف لتهديد التخوم الجنوبية والشرقية لأوربا. وربما تكون هناك حرب باردة جديدة فى الطريق، وحتما لن تتوقف عند هذه الحالة وتظل حربا باردة. وهناك بعض المسلمين يتصرفون بوحشية فى هذه الأيام ، كما أن هناك بعض الأمور السيئة تظهر فى أوروبا، وفى الماضى كانت هناك أوقات عصيبة بين أوربا والإسلام تمثلت أولا فى محاولة اقتحام جيوش المسلمين أعماق أوربا، كما تمثلت ثانيا فى الهجوم المضاد الذى يسمى (الحروب الصليبية) ثم سيطرة الإمبراطوريات الأوروبية على العالم الإسلامى فى القرن

التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ولم تكن العلاقة بين الإسلام وأوربا علاقة حسن جوار، ولكن كانت العداوات قائمة فى الماضى، والعلاقة فى الوقت الحالى تمر بحالة من التوتر، ولا ينبغى أن تكون هذه الحالة مقدمة لحتمية الحرب بين الإسلام والغرب.

وتقول الأيكونومست إن قليلا من الغربيين يقتنعون بأن القرآن من الله، ولا شك أن الدين كان أحد العناصر للحروب خاصة فى الوقت الذى وصلت فيه جيوش المسلمين إلى (بواتييه) فى جنوب فرنسا، والوقت الذى وصلت فيه جيوش الصليبيين حتى القدس، ولكن لم يكن الدين هو الدافع الوحيد لهذه الحروب. ولكن كانت الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية فى أوربا هما الحضارتين اللتين بلغتا من القوة ما جعل كلاً منهما تسعيان إلى التوسع وتأكيد الذات.

وتقول الأيكونومست: إن المشاكل تأتى عندما تكون مسالة البحث عن الأصالة وتأكيد الذات هى المسيطرة على الشعوب. ولكى يتعايش الغرب والإسلام فى سلام يحتاج المسلمون إلى البحث عن أسلوب للتوفيق بين عاداتهم ومتطلبات الحياة الحديثة وليس فى جوهر الإسلام ما يحول دون ذلك. لقد بدأت الثورة الإيرانية بإعلان عدائها للغرب ولا يزال الإيرانيون يزمجرون! وفى الجزائر يهدد المتمردون الإسلاميون الحكومة، والأصوليون هناك ذوو طبيعة دموية، مع سلسلة من الأخطاء ارتكبها الجنرالات الذين حكموا الجزائر وكذلك الأخطاء التى ارتكبتها معظم الحكومات الغربية مما سيؤدى إلى وصول مجموعة إلى الحكم يصعب التعامل معها، وهم يصبون غضبهم على فساد النظام الحاكم ويسعون إلى أن يكونوا هم البديل له، ويوجهون الغضب إلى الغرب أيضا لأنه يدعم هذا النظام، وإذا نجح هؤلاء فقد يمتد التأثير ليشمل العالم الإسلامى كله. والغضب الذى يشعر به بعض المسلمين تجاه الغرب قد يستنفر الاستياء فى الغرب ضد الإسلام، ويدور الغضب المتبادل فى دائرة.

وتحت عنوان (قنبلة يدوية فى رحلة طيران) تقول الأيكونومست: قد تشهد الفترة القادمة صداما مدمرا عبر المتوسط ! وتشير إلى حادثة هجوم (العصابات الإسلامية) على سجن بالقرب من (بطنة) بالجزائر وقيامهم بإطلاق سراح أكثر

من ألف سجين بمساعدة حراس السجن، وتقول: إن آلة الموت فى هذه الحرب الأهلية تردى ٢٠٠ قتيل كل شهر يمكن أن يقفز العدد إلى ٣٠٠ قتيل كل شهر، مع أنه لا يتم تسجيل حالات الذبح وتفجير القنابل وإطلاق الرصاص على الرأس. والشرطة السرية فى الجزائر يبلغ عددها ٢٠٠ ألف منهم ٤٠ ألفاً فقط يمكن الوثوق فيهم، والجماعات المسلحة تجند المزيد من الشباب وتحصل على المزيد من السلاح، وأساليبهم بشعة .. فهم يقتلون النساء لمجرد ظهورهن بدون النقاب، ويقتلون الأجانب دون تمييز، وأعمالهم الوحشية تمتد إلى الأطراف الغربية من البلاد. والشرطة لا تستطيع التحرك ليلا فى معظم أنحاء البلاد ولا تستطيع دخول بعض الضواحي والقرى حتى في النهار، وتقوم هذه الجماعات بجباية الضرائب، وتهدد كيان الدولة!

يشعر الغرب بالقلق مما يحدث في الجزائر ، ويخشى انتشار الفوضى والقتل باسم الإسلام وكراهية الغرب، وسيؤدى ذلك إلى زيادة القمع فى البلاد الإسلامية الأخرى. وقد تمتد توابع ما يحدث فى الجزائر إلى أقصى الشرق. وترى الأيكونومست أن تأثير هذا الزلزال القادم من شمال أفريقيا يمتد إلى أن يصل إلى أوروبا وخاصة فرنسا، وسوف تزداد أعداد المهاجرين المسلمين إلى دول الاتحاد الأوروبى، وأوربا فيها الآن ١٠ ملايين مسلم، وقد يحدث صراع بين المسلمين القادمين من مناطق الاضطرابات والمسلمين المقيمين فى أوربا، وفى مواجهة هذا الاحتمال يحاول الأوربيون منع الهجرة وإعادة المتسللين إلى بلادهم، وتقول الأيكونومست: إن هذه السياسة بطرد المهاجرين قد تؤدى إلى توتر العلاقات مع الدول الإسلامية وتخشى أوربا من وصول الجماعات إلى الحكم وستكون سوق الصواريخ متوسطة المدى قريبة منهم وكذلك الرءوس الكيماوية وربما النووية! وعلى أسوأ الافتراضات فإن حدوث تحالف بين القوى الإسلامية الحديثة والصين سيكون الخطر الذى يهدد كوكب الأرض فى القرن الحادى والعشرين.

وتقول الأيكونومست: إن على الراديكاليين الإسلاميين الذين يسعون إلى العودة إلى الأصول أن يسألوا أنفسهم كيف يمكن أن يتحقق الانسجام بين تعاليم محمد ﷺ التى ورثها للأجيال منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة مع مصالح

المسلمين فى هذا العصر بما فيه من منظمات اقتصادية، والإقرار بحقوق المرأة، والديمقراطية.

وتحت عنوان (تدفق الأموال بين يدى الله) تقول الأيكونومست: إن ما يحدث فى العالم الإسلامى الآن ثورة ضد الفساد والإذلال. تأخذ شكل العودة إلى الأصول الإسلامية، وهذه الصحوة لن تدوم أكثر من الصحوة المسيحية فى حركة الإحياء فى العصر الفيكتورى فى بريطانيا رغم استمرارها ثلثى قرن وساهمت فى بناء الإمبراطورية البريطانية، ولكنْ هؤلاء الأصوليون سيحاولون إثبات صحة ما يقولون به عن الاقتصاد والسياسة وفقا للقرآن، والإسلام يدعو إلى الاقتصاد الحر إذ لم يكن الاقتصاد الموجه معروفا عند ظهور الإسلام، ولم يضع النبى محمد ﷺ قيودا على السوق الحرة غير منع الاحتكار والاستغلال والغش وما إلى ذلك، وعلى ذلك فإن رجل الأعمال المسلم المثالى عليه أن يفعل الخير ويدفع لعماله أجورا عادلة ويحدد أسعارا للسلع مناسبة ولا ينفق أمواله فى الشر، وينفقها فى الاستثمار (وبذلك يقل التضخم) وعليه أن يعتنى بالبيئة التى خلقها الله وعلى البشر ألا يدمروها.ولكن هناك مشكلات مثل: من الذى يحدد الأجر المعقول، وأين دور الله فى الاختيار بين زراعة حقل أو بناء مصنع إليكترونيات مكانه؟، ومن يضمن ان تكون المنافسة بين المشروعات وفق قواعد تحقق مصلحة المجتمع ومصلحة العاملين بدلا من إفلاس بعض المشروعات بسبب المنافسة التى لا ترحم؟، مثل هذه المشاكل ليست غريبة على الاقتصاد الإسلامى، وفى الغرب هناك من يشارك فى البحث عن اشتراكية جديدة كبديل غير ماركسى للرأسمالية التقليدية. ويحاولون أن يجعلوا حرية السوق الموجهة للاقتصاد فى إطار أخلاقى يضمن رعاية الضعفاء وانضباط الأقوياء، كما عبر أحد الاقتصاديين المسلمين بقوله: (إن ما فشلت الشيوعية فى تحقيقه بسلطة الدولة يمكن أن يتحقق بالإنسان نفسه) وقد يكون هذا هو الشعار المناسب لاشتراكية القرن الحادى والعشرين.

والزكاة من الناحية الاقتصادية تساعد الفقراء دون حاجة لوجود مؤسسات، ولكن الدول التى فرضت الزكاة بقانون ولم تتركها اختيارية بل جعلتها إجبارية مثل باكستان كانت الحصيلة قليلة لا تزيد على نصف فى المائة من الدخل

القومى. والذين يجمعون الزكاة يحصلون على أجور تساوى ربع هذه الحصيلة. وفى ماليزيا كانت هناك حالات لمزارعين تم تحصيل الزكاة الإجبارية من فقرائهم وليس من الأغنياء، ولكن مع الأسف هناك إصرار على الدعوة إلى جعل الزكاة إجبارية مع أن نظام الضرائب فى الدول الغربية أكثر دقة ويحقق نفس الهدف بصورة أفضل!

هكذا توجه الأيكونومست نقدها إلى نظام الزكاة.

وتقول: إن النظام الوحيد المفيد الذى يقدمه الإسلام هو تحريم (الربا)، وبعض المسلمين يفسرون آية تحريم الربا بأنه (الربا أضعافا مضاعفة) أى الربا الفاحش، والمسيحية أيضا تحرم الربا الفاحش، وهذا ما كان يدفع المسيحيين إلى الاقتراض من اليهود فى العصور الوسطى. وتعرض الأيكونومست بالتفصيل لفتوى شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوى بأن العائد من إيداع الأموال فى البنوك حلال لأن البنوك توظف أموالها فى الاستثمار ، والبعض فى الغرب بدأت تستهويه فكرة (المرابحة) الإسلامية لأنها تؤكد المشاركة فى المسئولية بين البنك والمستثمر وهذا يجعل السوق الحرة أكثر انفتاحا وأكثر ديمقراطية .. وباختصار تنتهى الأيكونومست إلى القول بأن الاقتصاد الإسلامى ليس نظاما خاصا بالاسلام وحده كما يدعى المتحمسين له، وأيضا هو نظام لا يستحق هذه السخرية من الجاهلين فى الغرب.

وينتهى تقرير الأيكونومست من مناقشة (النظام الاقتصادى الإسلامى) إلى أن فيه جوانب إيجابية وجوانب سلبية وهو فى عمومه ليس جديدا لأن الفكر الاقتصادى الغربى فيه ما يتفق مع كثير من جوانبه.

وتحت عنوان (ماذا فعل الإسلام للنصف الآخر) تصف الأيكونومست مجموعة من السيدات فى ماليزيا لهن نشاط فى المطالبة بحقوق المرأة المسلمة، ويطلقن على أنفسهن اسم (أخوات فى الإسلام) وفيهن المحامية والصحفية وأستاذة الجامعة والموظفة، ومنذ عام ١٩٨٧ وهن يعملن على إثارة الشعور القومى لكى يتفهم المصاعب والمشاكل التى تواجه المرأة الماليزية المسلمة، وهذه الجماعة النسائية تقوم بجمع الأموال، ونشر مطبوعات وكتيبات وتنظيم ندوات وكتابة

مقالات فى الصحف بأسماء رجال، ويجدن الدعم من بعض رجال الأعمال المسلمين، وأكثرهن متزوجات ولهن أبناء، وفيما عدا الحجاب على الرءوس فإنهن لا يختلفن عن زميلاتهن فى لندن أو باريس أو نيويورك.

والحقيقة - كما تقول الأيكونومست - أن أحوال معظم النساء المسلمات ليست مرضية باستثناء بعض التجمعات القليلة مثل عضوات جماعة (أخوات فى الإسلام) فى ماليزيا وأمثالها، أما بدو الصحراء، ونساء الريف فى الدول الإسلامية عموما وفى جنوب شرقى آسيا، فإنهن خاضعات للزوج ويتعرضن للضرب تنفيذا للأوامر الإلهية كما جاءت فى القرآن! وفى مصر والسودان والصومال لا تزال معظم الفتيات يخضعن لعملية الختان وأبسط صور هذه العملية كفيلة بإصابة الإنسان بالفزع.

وتصل الأيكونومست إلى نتيجة : إذا سارت الأمور على ما هى عليه فإنه من الصعب تخيل وجود وفاق طبيعى بين المسلمين وغير المسلمين .

والنتيجة الثانية التى تقررها الأيكونومست: من الصعب حدوث تغيير فى أوضاع المرأة المسلمة، لأن وضعها المتدنى راسخ فى الأعماق بسبب القرآن والرسول محمد ﷺ!

والنتيجة الثالثة : أن الدول الإسلامية التى تتميز فيها المرأة بوضع أفضل يرجع ذلك إلى العادات التى ترسخت فيها قبل وصول الإسلام إليها !

النتيجة الرابعة : أن اقتصاد معظم البلاد الإسلامية لا يهدف إلى تحقيق إنصاف أو حماية للمرأة، مع ملاحظة أن استقلال المرأة اقتصاديا لم يتحقق فى الغرب إلا حديثا جدا، كما أن هذا الوضع المتخلف للمرأة لا يزال قائما فى بعض البلاد غير الإسلامية وغير الغربية .

النتيجة الخامسة : أن رجال الدين الإسلامى هم المسئولون عن تخلف المرأة، لأنهم وضعوا تفسير القرآن وأحكام الفقه فى القرون الثلاثة الأولى من الإسلام وقالوا (تلك حدود الله) مما يعنى أنه لا يمكن لأحد أن يختلف معها أو يفكر فى فهمها على نحو آخر، وأعلنوا قفل باب الاجتهاد والتفكير. ولم تكن عملية عزل أو إخفاء المرأة فى ثياب تغطيها من الرأس إلى القدمين إلا بدعة من الرجل،

مع أن القرآن يشير إلى ملكة سبأ باحترام، فلا غرابة أن تصبح المرأة المسلمة رئيسة وزراء أو رئيسة جمهورية كما حدث فى باكستان، وتركيا، وبنجلاديش ما دام القرآن لم يستنكر وجود امرأة تحكم سبأ ودلل- بالعكس - على حكمتها ورجاحة عقلها أكثر من حكمة ورجاحة عقل مستشاريها من الرجال.

وتركز الإيكونومست على موضوع تعدد الزوجات فى الإسلام، وتمييز الرجل على المرأة فى القرآن بأن يكون نصيبه ضعف نصيبها فى الميراث، وشهادته تساوى شهادة امرأتين أمام المحاكم..

ثم تنتقل الإيكونومست إلى ما هو أهم بالنسبة لها، فتقول إن القرآن مكتوب بلغة تناسب أسلوب القرنين السادس والسابع، وبلغة أقرب إلى الشعر، ولذلك فإنها تحتمل أكثر من تفسير، والآية ٣٤ من سورة النساء تعد أكبر هنات القرآن.. (هكذا تقول الإيكونومست) لأنها تنص على أن الرجال قوامون على النساء، وحين تعصى المرأة زوجها تستحق الضرب، ولكن البعض يتلطف فيقول إن الرجال قوامون على النساء بمعنى أنهم مسئولون عن حماية المرأة، ربما لأن الرجل فى القرنين السادس والسابع كان هو وحده الذى يكسب المال، أما عن الضرب فيقول بعض المفسرين المتلطفين إن المقصود مجرد لطمة لطيفة، ولكن هذه التفسيرات غير مقنعة وتظل هذه الآية مثارا للدهشة (!)

هذا ما تقوله الإيكونومست: ولم يفكر أحد فى إرسال رد يشرح فيه التفسير الصحيح لهذه الآية وسكت الأزهر وعلماء الدين عن القول بأن هذه الآية « من هنات القرآن» !

وتقول الإيكونومست إن معظم ما يقع على المرأة المسلمة يرجع إلى الظروف والبيئة والأحوال الاقتصادية عندما نزل القرآن، فقد بدأت نشأة الإسلام فى الصحراء العربية، فى مجتمع يشتغل فيه الرجال بالرعى، والحرب، والتجارة، ومثل هذه المجتمعات لابد أن يتولى الرجال فيها القيادة، وبعد ذلك انطلق الإسلام صوب الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية، وتأثر المسلمون ببعض عادات هذه البلاد ونقلوها مشوهة إلى بلادهم وطبّقوها على نسائهم، فقد رأى المسلمون الغزاة فى دمشق حين احتلوها أن بعض النساء من طبقة الأثرياء

يرتدين الحجاب لإثبات أنهن نساء متميزات لا يعملن، وهكذا صاحب انتشار الإسلام اختلاطه بثقافات وحضارات مختلفة، وكانت السلطة للأب فى العشيرة فى مجتمع بدوى، وبعد ذلك لم يكن اقتصاد معظم البلاد الإسلامية يسمح باستقلال المرأة اقتصاديا، لأنه اقتصاد يعتمد غالباً إما على الزراعة – والأغلبية من الفلاحين – وإما على التجارة المحدودة فى المدن، ولم تبدأ المرأة فى الحصول على فرصة عمل إلا فى العصر الحديث بعد نشأة المصانع والشركات التى فتحت أبوابها للمرأة التى تريد الهرب من التبعية الاقتصادية التى فرضت عليها منذ القرن السابع.

تقول الإيكونومست: لابد أن تتحرر إرادة المرأة المسلمة فورا، وإلا وجد الإسلام نفسه معزولا.

وتقول الأيكونومست: إن أهم الثورات الاجتماعية التى شهدها العالم هى الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ والثورة الروسية عام ١٩١٧ وحركة الطلبة فى باريس عام ١٩٦٨ وكلها كانت تهدف إلى إعادة تنظيم العلاقة الاجتماعية بين الرجل والمرأة، والآن تقف المرأة على قدميها فى معظم بلاد الغرب، ولكن ليس معلوما لماذا لا تحذو الكونفوشية، والهندوسية، والإسلام حذو الغرب.. والإسلام إذا لم يحذ حذو الغرب فسوف يعانى من العزلة، والانقسام الداخلى، وسوف تظل نصف الطاقة الاقتصادية فيه معطلة.

الحل الذى تطرحه الإيكونومست هو: التغيير.. وتقول إن هذا التغيير يحتاج إلى «رشاقة اقتصادية» وإلى حكومات ذات عقلية متفتحة، والأهم من ذلك لابد من تغيير المؤسسات التى تسعى إلى إبقاء المرأة المسلمة على ما هى عليه من تخلف.

وتقول: إن علماء الدين فى أيديهم تفسير القرآن، وهم الذين أخطئوا فى حق المرأة فى العصور الماضية ومازالوا مستمرين فى الخطأ، ولابد أن يغيروا ما فى عقولهم، ويسمحوا للمرأة بالوصول إلى أعلى مراتب التعليم، وأعلى المناصب، وتحقيق العدالة التى يأمر بها القرآن – فيما عدا آية أو اثنتين (!) – وإذا بدأ هذا لابد من إعادة النظر فى حدود سلطة العلماء، لكى تتحقق الديمقراطية، وغياب الديمقراطية فى العالم الإسلامى هو الموضوع الذى تركز عليه الإيكونومست.

فالمعركة متعددة الجبهات.

تحت عنوان «العائق الكبير أمام الديمقراطية عند المسلمين» تقول الإيكونومست إن أصعب اختبار لقدرات المسلمين لحصولهم على مزايا العالم الحديث هو غياب الديمقراطية.. وفى بحث شمل ٣٩ دولة إسلامية يمكن تجاوزاً القول بأن سبع دول فقط تتمتع بالديمقراطية.

تركيا تجرى فيها انتخابات بشكل منتظم ودورى، وقد تعرضت فى نفس الوقت إلى ثلاثة انقلابات عسكرية فى الفترة من ١٩٦٠ إلى ١٩٨٠، وماليزيا يحكمها ائتلاف أبدى يمثل تيار الوسط بين الماليزيين والصينيين ومهادنة المعارضة الإسلامية، ولا تزال ماليزيا ملتزمة بإجراء انتخابات، بعد ذلك فإن هناك محاولات فى باكستان وبنجلاديش أما لبنان فإنها تتحسس طريقها نحو الديمقراطية بعد الحرب الأهلية، ونحن نرفع القبعة احتراما للملك حسين لأنه سمح للمعارضة الإسلامية بالحصول على مقعد فى البرلمان. وكذلك تحية للثورة الإيرانية لأنها سمحت بإجراء انتخابات أفرزت حكومة معتدلة يمكن التعامل معها، ويمكن بعد ذلك وضع علامة استفهام حذرة حول الانتخابات فى السنغال ونيجيريا والملايو. وفيما عدا ذلك فإن الإسلام يعانى من قصور فى الديمقراطية.

وتحت عنوان «ليست بالشورى وحدها» تقول: إن هناك من يرى أنه من الظلم اتهام المسلمين بأنهم لم يمارسوا الديمقراطية فى العصور الوسطى. حيث لم يكن فى العالم من يمارس الديمقراطية غير أثينا وسويسرا، ولكن بعد ٢٠٠ سنة بدأت الديمقراطية فى الولايات المتحدة وأوربا. وعندما اقترب القرن التاسع عشر ابتلعت الإمبراطوريات الأوربية العالم الإسلامى، وفى الفترة بين عامى ١٩١٨ و ١٩٤٥ تولى الأمر فى العالم الإسلامى رجال يؤمنون بأن عملية البناء والتنمية أهم من الحرية السياسية، وكان معظم السياسيين المسلمين إما قوميين. وإما شبه ماركسيين ديماجوجيين، وإما رجالا لا هدف لهم غير ملء جيوبهم، ومثل هؤلاء لا يصنعون الديمقراطية، كما أن التخلف الاقتصادى كان العقبة النكداء أمام الديمقراطية، ولو كان السياسيون فى العالم الإسلامى لديهم وعى اقتصادى وأكثر أمانة لكان أداؤهم أفضل لمعالجة التخلف.

وكالعادة أرجعت «الإيكونومست» سر تخلف المسلمين إلى الإسلام ذاته، فقالت: إن معارضة الديمقراطية تستند إلى أن القرآن فيه منهج أكثر

صلاحيــة للبشــر، وأن الديمقراطيــة لهــا بديــل عنــد المسـلمين هــو «الشــورى»، فالحكومــة تستشـير النــاس، وتتسـاءل الإيكونومسـت بســخرية: هــل هنــاك ديمقراطية أكثر من ذلك؟ وتقول إن هناك أمرين مهمين: الأمـر الأول أن الرجـال الذين يستعينون بالشورى هم على قائمــة المبشـرين برحمـة الله حسـبما جـاء فـى (سورة الشورى-أية٣٨): ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وفى (سورة آل عمران – آيـة ١٥٩): ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

وتتساءل الإيكونومست: ما معنى الشورى؟ وتجيـب: إنـها مـا كـان يمارسـه بارونات العصور الوسطى، أو قادة الجيوش فى العصر الحديـث، فالحـاكم يسـأل الآخرين عما يرون ثم يتخذ هو القرار، فلا مكان للديمقراطية فى الشورى!

ولا تكتفى الإيكونومست فـى هـذه الدراسـة بتشـويه مبـدأ الشـورى، ولكنـها تواصل هجومها على مبدأ «الإجماع» فى الفقـه، وتقـول إنـه قـائم علـى أن الأمـة لا تجمع على خطأ، فما اتفقت الجماعة على ما ينبغى عمله فهو ما يجب عملــه، وقد يبدو ذلك ديمقراطيا، ولكن المشكلة أن هذا الإجماع هــو إجمـاع علمـاء الديـن وهم الذين يحددون الرأى الصواب، وليس مــن حـق فـرد مـن أفـراد المجتمـع أن ينطق بما يخالف ذلك وإلا يكون خارجا على الإجماع. فالقرآن عنـد المسـلمين هـو «كلمة الله» وكلمة الله تحتاج إلى تفسير، والتفسير تحتكره مجموعة تزعم قدرتـها على ذلك (!)

وتصل الإيكونومست إلى ما تريد أن تصـل إليـه منـذ البدايـة وهـو «أن الإسـلام لا يزال يعيش فى عصر الأوليجاركيــة (أى حكـم الأقليـة) وأنـه لا يـزال يؤمـن باليقين الثابت».

وتقول الإيكونومست إن الديمقراطية انبثقت عندما تم التخلى عن فكرة اليقـين وعن فكرة سيطرة يقين شخص على آراء شخص آخر، جاءت الديمقراطيــة وليـدة عصر الإصلاح منذ القرن السادس عشر تعلــن أن كـل إنسـان مسـئول أمـام الله عـن

الطريقة التى يعيش حياته بها، ربما يشرح القساوسة تعاليم وإرادة الرب لكن الاختيار فى النهاية للإنسان. وقد استغرق الأمر ثلاثة قرون لكى يتحقق انصهار هذا الأسلوب فى السياسة، وبعد ذلك جاءت النتائج ثورية، كان الملوك يعلنون للناس ما هو صالح لهم، وعلى الناس - نساء ورجالا- اتخاذ القرار، وهذه هى الديمقراطية التى انتشرت بسرعة فى أمريكا الشمالية وغرب أوربا، ولم تواجه الديمقراطية أى خطر بعد انتهاء اليقين الماركسى.

تقول الإيكونومست: إن القرآن يؤكد على مسئولية الفرد، ولا أحد يحمل أعباء الآخرين ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ لكن ليس هذا هو مفهوم المسئولية فى الغرب، فالإطار العام للقرآن هو الجبرية، الله يقدر، والإنسان مستسلم، فالإسلام فى النهاية يعنى الخضوع!

ولا تفهم الإيكونومست أن الإسلام يفرق بين الخضوع لله والخضوع للبشر، وكأنها تريد أن يكون الإنسان حرا أمام الله، فيريد غير ما يريده الله، أو يكون له رأى فيما أمره به الله.. أما فى المجتمع فإن القاعدة تؤكد الحرية «أنتم أدرى بشئون دنياكم» كما أرساها الرسول صلى الله عليه وسلم.

تقول الإيكونومست: هناك فارق كبير بين الطريقة التى ينظر بها المسلمون إلى العالم ونظرة الغرب المسيحى، فإذا عدنا إلى البدايات فإن آدم وحواء بعد أن أكلا التفاحة - الخطيئة الأولى - فإنهما حسب الرواية المسيحية استمعا إلى نصيحة الثعبان «ستصبحون مثل الآلهة» و«ستعرفون الفرق بين الخير والشر»، ولا شىء من هذا فى القرآن، وتفسير البعض أنك عندما تعرف الفرق بين الخطأ والصواب تستطيع الاختيار بينهما، ومن مفهوم الإرادة الحرة تخرج فكرة المسئولية الفردية. ومن هنا تبدأ ممارسة الديمقراطية، والقضية الأساسية أنه كلما زادت فرص الديمقراطية فى الإسلام زادت فرص تقدم الشعوب الإسلامية، وزادت فرص التعايش السلمى بين الإسلام والغرب، ولكن العقبة أن العلماء الذين يدعون المقدرة على تفسير إرادة الله يعتقدون أنهم يحتكرون اليقين وأنهم ليسوا مثل غيرهم. والسلاح القوى فى أيديهم اسمه «الاجتهاد»، والقرآن هو

كلام الله، وفى القرآن ٦ آلاف آية من بينها ٨٠ آية تضع القواعد والقوانين للحياة ويمكن تطبيقها الآن، والاجتهاد مطلوب ولكنه مقصور على عدد محدود وعلى المسلمين أن يتبعوهم. وهذا ما يجعل الحكومات قادرة على استخلاص ما تريد من فتاوى العلماء، والعلماء يقدمون الفتوى إلى القيادات السياسية العليا وليس إلى الجماهير.

من هذه العبارات ندرك كيف أن المفاهيم الإسلامية الأساسية غامضة فى أذهان الكتّاب الغربيين، فالدراسة التى نشرتها الإيكونومست كتبها مجموعة من كبار الباحثين البريطانيين المتخصصين فى الدراسات الإسلامية، ولكن مفهوم «الاجتهاد» ومفهوم «حرية الإرادة التى هى أساس الحساب فى الآخرة» ومفهوم «الاجتهاد» ودور المفتى الذى يتوجه بالفتوى إلى الله وليس إلى الحاكم.. كل ذلك غير واضح فى اذهانهم.

ولذلك تصل الدراسة إلى أنه يجب أن ينحسر دور علماء الإسلام، ويترك لكل إنسان بالغ عاقل حرية الاختيار والحكم، وعلى كل إنسان أن يحمل المسئولية عما يفعل. وقد يستغرق تحقيق ذلك زمنا طويلا لأن تغيير الأفكار لا يحدث فى يوم وليلة، وقد بدأ بعض المستنيرين من مفكرى المسلمين ينادون بعدم قصر الاجتهاد على القلة، وترك الحرية للإنسان ليختار طريقه ويتحمل المسئولية.

وتقول الدراسة: باختصار، على الإسلام أن يعمل على إصلاح نفسه لكى يتحرك نحو عالم الديمقراطية.

وتحت عنوان «نحن الآن فى عام ١٤١٥ » تقول الدراسة: إن جمال الدين الأفغانى أعلن منذ قرن من الزمان أن الإسلام فى حاجة إلى مارتن لوثر لتحريره من قبضة العلماء، وكان الأفغانى رجلا شديد المراس، وهو أصولى من النوع المزعج (!) وسبب الكثير من القلق لاتباعه، ولذلك لم يهتموا كثيرا بفكرته عن مارتن لوثر، ولكنه للحق كانت لديه القدرة على التنبؤ، وكلما أمعنت النظر فى أحوال الإسلام فى القرن الخامس عشر وجدته قريب الشبه بالمسيحية فى هذا القرن، وهى الفترة التى سبقت مباشرة دخول أوربا عصر الإصلاح.

وكانت قائمة الإصلاح كما يلى :

أولا : تحرير العقل من الأوهام فى الدين والسياسة ، فقد كانت موجة الاستياء السابقة على حركة الإصلاح فى أوربا موجهة أساسا ضد فساد ومادية الكنيسة الكاثوليكية ، دون أن تخلو من أهداف سياسية ، وقد تسبب البؤس الاقتصادى وسلطة الكنيسة المتحكمة فى ظهور المتمرد «وات تايلور» فى إنجلترا ، و«جاكيرى» فى فرنسا ، أما موجة الاستياء الحالية فى العالم الإسلامى فإنها موجهة أساسا إلى فساد السياسيين ، وقد تحول صرح الديانة الإسلامية إلى كيان متصدع يعلوه التراب (!) بسبب فساد هؤلاء السياسيين.

قد يقول البعض إنه لا يوجد مجال للمقارنة ، فالمسلمون لا يقودهم قساوسة ، ولا يوجد التنظيم الهيراركى لطبقات رجال الدين كما فى مسيحية القرون الوسطى ، والمؤسسة الإسلامية ليست بناء محكما مثل نظام الكنيسة المسيحية إلا فيما يتعلق بالأقلية الشيعية وهم ١٥٪ من المسلمين ، أما «الإمام» و«المفتى» و«علماء الدين» فهم يشكلون البناء الرسمى للإسلام ، والإصلاحيون الراديكاليون الذين يحلمون بصحوة إسلامية يرون فى هذا البناء الترهل والازدراء (!).

ثانيا : كان فى أوربا فى القرن الخامس عشر شعور عام باليأس بسبب الطاعون الذى تسبب فى موت ثلث السكان دون إنذار أو تفسير ، وأيضا بسبب تحلل الكنيسة الكاثوليكية التى كان يقودها بابا فى روما وبابا آخر فى افينون وكانا متنافسين ، بينما كانت عوامل الاستياء فى العالم الإسلامى لأسباب خارجية ، منها سلسلة الهزائم المذلة على الصعيد الدولى ، وموجات السلب والنهب التى كان يتعرض لها المسلمون من جيرانهم ، وشعور المسلمين المتزايد بالعزلة ، ومع هذه الاختلافات كانت النتائج واحدة ، وكان واضحا أن هناك شيئًا مَّا .. وأن الأمور تسير فى الاتجاه الخاطئ ، وعندما يستشعر الناس هذا الخطأ يأتون بأفعال خطيرة .

ثالثا : الرغبة فى وضع الأمور فى نصابها بالعودة إلى جذور الإيمان ، وبالنسبة للمتحمسين للصحوة الإسلامية فإن عبارة العودة إلى الجذور تعنى العودة إلى

بساطة الأيام الأولى للدعوة، وهذا ما كان يدعو إليه رجال من أمثال جون ويكليف، وجان هس، وقد أفرزت الفترة السابقة على الإصلاح الدينى فى أوروبا العديد من الفرق والطوائف كانت معظمها ترى أن واجبها التبشير بين الفقراء، والآن أيضاً أفرزت الصحوة الإسلامية عددا كبيرا من الجماعات ترى أن رسالتها إنشاء المستشفيات، وإقامة مائدة الرحمن فى رمضان، والمدارس الابتدائية فى ضواحى المدن، فالعودة إلى الجذور عندهم تعنى العودة إلى عمل الخير ورعاية المحتاجين أى «الإحسان». و«الزكاة».

رابعا: التشابه الذى يلفت النظر بين حركة الإصلاح المسيحية والإسلامية وجود عناصر إثارة خارجية، وفى رأى جورجين نيلسن مدير مركز العلاقات المسيحية الإسلامية بكلية «سيلى أوك» فى برمنجهام أن الذى ساعد على ظهور حركة الإصلاح عنصران قادمان من خارج أوربا، الأول امتزاج حضارة أوربا بالإمبراطورية العربية، وترى الدراسة أن هذا أمر يدعو للسخرية، لأن الحضارة العربية هى التى أعادت أوربا إلى جذورها الحضارية فى اليونان القديمة، وإلى الإفادة من إنجازات العرب فى العلوم والفنون، فساعد ذلك على ظهور عصر النهضة الذى ساهم بدوره فى ميلاد عصر الإصلاح، أما العنصر الخارجى الثانى فهو اكتشاف أمريكا عام ١٤٩٢ وأعقبه اكتشاف الذهب والفضة مما أنعش الاقتصاد الأوربى، وفى العالم الإسلامى كان لاكتشاف البترول أثر يماثل اكتشاف الذهب والفضة فى أوربا، فقد أدى البترول إلى إثراء بعض الدول الإسلامية، وجاءت صدمة البترول بين عامى ١٩٧٣ و ١٩٧٩ وارتفاع أسعاره فحوّل الدول الإسلامية الغنية إلى الأكثر غنى، وكما امتزجت الحضارة الأوربية بالحضارة العربية فى القرن الخامس فكان فى ذلك الشرارة للإصلاح، فإن هذا ما يحدث الآن - ويا للسخرية - من امتزاج الحضارة العربية بالحضارة الأوربية الحديثة، والإفادة من إنجازاتها التكنولوجية والعلمية.

هذه هى عناصر التشابه الأربعة بين عصر الإصلاح الدينى فى أوربا فى القرن الخامس عشر والإصلاح الدينى الآن فى العالم الإسلامى.

تريد دراسة الإيكونومست أن تقول: إن الإسلام متخلف خمسة قرون عن مسايرة العصر، وتضيف أن حركة الإصلاح الدينى فى الإسلام - كما يرى

المتشككون - لن تتحقق قبل زمن طويل.. ففى أوربا استغرقت المسيرة من عصر النهضة إلى عصر الإصلاح الدينى ١٥٠ عاما واستغرقت المسيرة من الإصلاح إلى النمو الفعلى للديمقراطية ٣٠٠ عام، ونحن لا نستطيع انتظار كل هذه السنين!

إذا كانت هذه الدراسة قد نشرت فى أكبر المجلات البريطانية، وأصبحت مرجعا لكثير من الباحثين والمعلقين الذين يتناولون الإسلام فى كتاباتهم، فماذا فعلت المؤسسات الإسلامية؟.. وإذا كان الرد أنه لا يمكنهم متابعة كل ما ينشر فى أنحاء العالم والرد عليه، فهذا هو الخطأ الذى نريد أن ننبه إليه لنقول إنه يجب أن يكون عندنا - كما فى الدول الكبرى - مركز أو مؤسسة أو جهاز يتابع كل ما ينشر، ويرد على ما فيه من أخطاء واتهامات أولا بأول، ولا يترك الساحة خالية لتشويه الإسلام فى الغرب.

يجب ألا نكتفى بالقول بأنهم مخطئون.. ولكن يجب أن نعترف بأننا مقصرون.

لماذا يكرهون الإسلام ؟

في أواخر عام ٢٠٠١ ثارت ضجة في إيطاليا عندما أعلن أن السفير الإيطالي في السعودية (توركوا توكارديللي) اعتنق الإسلام، يوم ١٦ نوفمبر، وأعلن أنه اهتدى إلى الإسلام بعد دراسة عميقة للقرآن والقيم والحضارة الإسلامية.

وعلقت صحيفة (لاستامبا) الإيطالية على هذا الحدث في عددها يوم ٢٦ نوفمبر فقالت: إن (كارديللي) انحاز إلى الإسلام في الوقت الذي احتدم فيه الصراع بين الحضارات والديانات، وإن اختيار السفير للإسلام يثير كثيرًا من الجدل، خصوصا أنه ليس أول دبلوماسي يعتنق الإسلام، فقد اعتنق الإسلام قبله (ماريو شيالوجا) الذى اعتنق الإسلام في عام ١٩٨٨ وتولى منصب سفير إيطاليا في السعودية عشر سنوات بعد إسلامه وأصبح رئيسا للمجلس الإسلامي الإيطالي ونائبا لرئيس رابطة العالم الإسلامي في مكة ولها فرع في العاصمة الإيطالية روما.

أما كارديللي السفير الذى شغل الصحافة والرأى العام في أوربا لاعتناقه الإسلام فهو باحث متعمق في شئون العالم الإسلامي، درس اللغات والحضارات الشرقية، كما درس الحياة السياسية في الشرق، وبدأ العمل في السلك الدبلوماسي عام ١٩٦٧ وتولى مناصب عديدة في سفارات إيطاليا في عديد من الدول الإسلامية منها سوريا والعراق وليبيا، وشغل منصب السفير في دار السلام عاصمة تانزانيا من عام ١٩٩٣ حتى ١٩٩٧، عاد بعدها إلى وزارة الخارجية الإيطالية، ومنذ عام ١٩٩٨ حتى ٢٠٠٠ شغل منصب أمين المجلس العام لشئون الإيطاليين بالخارج ثم نقل سفيرا في السعودية، فهو إذن شخصية لها وزن سياسي ودبلوماسي كبير في الخارجية الإيطالية، وهو من المثقفين والدارسين للحضارات والديانات، وعلى إلمام كبير بقضية صراع الحضارات التي تدور رحاها

فى الغرب، ولذلك فإن اختياره للإسلام وللحضارة الإسلامية فسّره بعض المعلقين فى الصحافة الغربية على أنه هزيمة للغرب ونقطة تحسب لصالح الإسلام ليس هذا هو الوقت المناسب لحصول الإسلام عليها كما قالوا.

وانشغلت الصحافة الغربية بالبحث عن كيفية اعتناق السفير الإيطالى للإسلام.. وهل تعرّض لضغوط من جهات مَّا.. أو وقع تحت إغراءات مَّا؟. فاكتشفوا أن الرجل أعلن أنه اختار الإسلام نتيجة بحث ودراسة لسنوات، وبعد قراءات وتأملات طويلة فى القرآن والأحاديث وكتب التفسير المعتمدة، وإن هذا التحول حدث فى وجدانه وعقله، قبل أن يصل إلى السعودية، وهذا ما حدث للسفير الآخر الذى سبقه (شيالوجا) فى عام ١٩٨٨ وكان وقتها دبلوماسيا يمثل بلاده فى نيويورك ويشغل منصب نائب المندوب الدائم لإيطاليا لدى الأمم المتحدة.. وعكف على دراسة الأديان.. وقال: شعرت بانبهار بالإسلام واليهودية لعلاقتهما البسيطة والمباشرة مع الله من خلال الصلاة، وعدم وجود وسطاء بين الإنسان والله، وعندما وصلت إلى الرياض كان الإسلام قد تمكن من قلبى وعقلى، ولكن من واقع منصبى كسفير اعتنق الإسلام لم أتمتع بأية امتيازات خاصة فى السعودية، وبعد إشهار إسلامى تمت الموافقة على أن أزور البيت الحرام وأشاهد الكعبة، ودخلت الكعبة مع الدبلوماسيين المسلمين فى السعودية فى مناسبة غسيل الكعبة، وكانت زيارتى للكعبة تجربة روحية يصعب وصفها،ولذلك سأدعو (كارديللى) إلى زيارتها حتى لا تفوته هذه التجربة..

كل هذا الكلام أشعل الخصومة للإسلام وهناك كثير ممن يدخلون فى الإسلام ويتحدثون عما جذبهم فيه كعقيدة توحيد تدعو للتسامح والإيجابية مما يثير أعداء الإسلام فتزيد الحملة على الإسلام والمسلمين.

وأعادت الضجة التى أحدثها إسلام السفير الإيطالى الحديث عن اعتناق الفيلسوف الفرنسى روجيه جارودى وهو من الشخصيات الغربية الشهيرة ويعتبر أحد رموز الفكر الأوروبى والحضارة الغربية عموما، وقصة إسلام جارودى جرَّت عليه وعلى الإسلام والمسلمين المتاعب وحملات الكراهية.

وجارودى أقام شهرته كمفكر يسارى، ولكنه اكتشف منذ عام ١٩٥٦ أن الشيوعية تسير فى طريق مسدود، بعد البيان الذى ألقاه الزعيم السوفيتى نيكيتا

خروشوف وكشف فيه الفضائح والفظائع التى كانت ترتكب فى عصر ستالين الذى كانت الدعايات الشيوعية تصوره على أنه العصر الذهبى وأن السوفيت يعيشون فى ظله فى النعيم، وبعد هذا البيان يقول جارودى: إنه استيقظ من غفوته ومر بمرحلة من الشك والقلق، وبدأ يبحث عن ملاذ جديد لليقين، مع تصميم بألا يؤمن إلا بناء على معرفة يقينية، ولا يصدق ما يقال إلا بعد الفحص والتحليل بمنتهى الدقة.

اكتشف جارودى فى مرحلة البحث والتأمل أن مركز الإبداع والحضارة ليس فى أوربا وأمريكا وحدهما كما كان يتصور، كما اكتشف أن المبدأ الماركسى القائل بأن الدين أفيون الشعوب ليس إلا هراء، وأن أفيون الشعوب الحقيقى هو الماركسية ذاتها، وأن الدين ضرورى للإنسان لأنه يوقظ فى الإنسان الشعور بالمسئولية والالتزام بالقيم سرا وعلانية، ويجعله حذِرًا من اقتراف الذنوب بينه وبين ضميره، وبعد دراسة لكل الأديان أعلن أنه وجد أن الإسلام فيه الإنقاذ للبشرية من الاحتضار الذى وصلت إليه الحضارة الغربية. ويقول جارودى: إنه توقف طويلا أمام مفهوم الجهاد كما ورد فى الحديث: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.. جهاد النفس» ورأى أنه درس مهم للثوريين الذين يحاولون تغيير كل شىء ما عدا أنفسهم!

والسبب الحقيقى لما واجه جارودى من اضطهاد أنه بدأ يعمل على رد الاعتبار إلى الإسلام وحضارته أمام الفكر الغربى الذى يتخذ موقف الجاحد والمتجاهل، وأغرقوه فى حملة من النقد والتشهير بعد أن أصدر كتابه (وعود الإسلام) وأراد به أن ينزع الكمامات عن عيون المفكرين فى الغرب ويخلصهم من الأحكام سابقة التجهيز التى يرددونها عن الإسلام.. هاجموه لأنه رفض نزعة الترفع العرقى لدى الغرب. والقيام بدور المعتدى على ثقافات وحضارات أخرى تستحق التقدير، وكرهوه لأنه قام بتعرية موقف الغرب وكشف الحقيقة وهى أن الهيمنة الاقتصادية للغرب هى الدافع إلى الهيمنة الثقافية، وهذه الأسباب الاقتصادية الإمبريالية هى التى تدفع مفكرى الغرب إلى ازدراء الإسلام وحضارته وثقافته.. فالرأسمالية الغربية تسعى إلى الهيمنة على العالم والسيطرة على العقول والعقائد أيضا، ولم يغفروا لجارودى أنه قال: إن الإسلام قوة روحية فى الماضى وسيظل

كذلك فى الحاضر والمستقبل، ويجب ألا يضيِّق الغرب نظرته للإسلام فلا يرى منه إلا جماعات متشددة تستخدم العنف فيقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه أصحاب النزعة الإلحادية القديمة الذين حاربوا المسيحية وخلطوا بين مبادئها وبين الكنيسة فى عهد قسطنطين وخلفائه، والحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش، والبابا بورجيا وبعض رجال الدين المتخلفين الذين كانوا قوة رجعية ضد الديمقراطية والتقدم..

هذا الخطأ الذى وقع فيه الملحدون قديما فى الغرب يقع فيه كثير من المثقفين والسياسيين والباحثين اليوم، ومنذ أكثر من ألف سنة، وما زال (الخوف) هو الذى يلون نظرتهم للإسلام، والخوف - كما يقول جارودى - ناصح مضلل يشوه أحكام كثير ممن يتصدى للإسلام فى الغرب. فالحرب الصليبية استغلها قادة أوربا لنشر صورة كريهة عن الإسلام وروجوا لها وسط جماهير غير مؤهلة للتمييز، ومن هؤلاء مثلا (جيبرت توجينت) المتوفى سنة ١١٢٤م - هذا الراهب له كتاب كان فى حقيقته برنامجا كاملا لجميع المواقف والأفكار المعادية للإسلام وكان كتابه بعنوان (الفرنسيون، الصليبيون أدوا مهمة الله) وبعدها ازدهرت حركة الاستشراق، ولم يكن هدفها البحث العلمى والمعرفة ولكن كان هدفها - كما يقول جارودى - خدمة السياسة والاستعمار والكنيسة وإعادة صياغة دول وشعوب (الشرق) وفقا لاحتياجات ولسيطرة (الغرب).. فكان الجد الأكبر لحركة الاستشراق لفرنسا وأوربا (سلفتر دى ساسى) المتوفى سنة ١٨٣٨ ميلادية أول أستاذ للغة العربية وأول مدير لمدرسة اللغات الشرقية فى باريس والأستاذ فى كوليج دى فرانس وكان يعمل فى نفس الوقت فى وظيفة أخرى فى وزارة الخارجية الفرنسية، وهو الذى كتب منشورات جيش نابليون ونداء الجيش الفرنسى عند احتلال الجزائر عام ١٨٣٠. وكان المستشرق ماكس مولر (١٨٢٣ - ١٩٠٠) الآمر الناهى فى جامعة اكسفورد البريطانية والمحاضر فى جامعة كامبريدج، وكان يتولى فى نفس الوقت تدريب وإعداد الإداريين الاستعماريين البريطانيين للهند وغيرها.. ومئات غيرهم من (المستشرقين) درسوا العربية والإسلام بقصد خدمة المشروعات التبشيرية والاستعمارية والسياسية لدول الغرب فى العالم العربى والإسلامى، وشاركوا فى صياغة

نظريات لتبرير الهيمنة الغربية، ولم يكونوا مخلصين أو موضوعيين فى عرض الإسلام على حقيقته، للرأى العام فى الغرب، ولكنهم كانوا يريدون إصدار أحكام إدانة على الإسلام والمسلمين انطلاقا من معايير غربية، كما لو كانت الحضارة الغربية هى النموذج الوحيد الذى يجب أن يعم العالم، وبالتالى تعمقت فكرة رفض الإسلام وحضارته، وهذا ما جعل فولتير يصور الرسول ﷺ فى كتابه (محمد) عام ١٧٤١ نموذجا للمكر الدينى فى خدمة الاستبداد السياسى.. يقول جارودى: إن الإسلام لم يدرس لذاته فى الغرب فى أية حالة من الحالات وإنما وفقا للصراعات الأيديولوجية ومصالح الغرب.. واستخدم الغرب الخداع للسيطرة على العالم الإسلامى، كما فعل نابليون بونابرت عندما وجَّه بيانا إلى شعب الإسكندرية عند نزول الحملة الفرنسية يوم ٢ يوليو ١٧٩٨ قال فيه: إننا نحن (جيش الاحتلال الفرنسى) المسلمون الحقيقيون! وقال نابليون: أيضا إنه جاء يقاتل من أجل الإسلام !

وسرد جارودى قائمة طويلة من كبار المفكرين الغربيين كتبوا ضد الإسلام كتابات أثرت فى العقل الغربى بعمق.. من هؤلاء فيكتور هوجو فى كتابه (شرقيات)، وشاتوبريان فى كتابه (رحلة من باريس إلى القدس) عام ١٨١١ وبعده جاء كتاب لا مارتين (رحلة إلى الشرق) عام ١٨٣٣ الذى قال فيه: عندما تسقط الإمبراطورية العثمانية سوف تأخذ كل واحدة من القوى الأوربية جزءا منها، وهذا النوع من الإقطاعية من السيادة المطلقة سيصبح من الحقوق الأوربية، وسيكون من حق كل دولة أوربية أن تقيم مستعمرات فى الجزء الذى يخصها.. وبعد ذلك قال جيرار دى نرفال بعد رحلة للشرق فى عامى ١٨٤٢ و١٨٤٣: إنه لم يجد فى الشرق إلا الفراغ، والقليل من المعرفة، وكتب فلوبير رواية (سالامبو) وقال: إنه يريد بها إيقاظ الشرق من هلوساته الإسلامية.. وهذا ما قاله لورانس العرب حين ادعى أنه ذهب إلى العالم العربى ليعمل على تشكيل أمة جديدة، وقال: إن جميع ولايات الإمبراطورية العثمانية لم تكن تساوى فى نظرى موت إنجليزى واحد!

ويشير جارودى إلى أن نزعة التحديث فى مصر ثم فى العالم العربى كان فيها تياران، تيار يرى أن مستقبل العالم العربى والإسلامى فى محاكاة أوربا، على

الصعيد السياسى باستيراد أنظمة الحكم الأوربية ابتداء من البرلمان إلى قوانين السوق الحرة. وعلى الصعيد الاقتصادى كان الاندماج فى أسواق الغرب وتسهيل انتقال السلع من الغرب إلى أسواق العالم العربى والإسلامى دون الوصول إلى مرحلة إنتاج هذه السلع. وعلى صعيد الثقافة كانت الحداثة هى الثقافة والقيم الغربية - الفردية - ونظرية أن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان! وبذلك فإن المعروض على العالم العربى والإسلامى هو السير فى نفس الطريق الذى سار فيه الغرب منذ أربعة قرون، واعتبار الماضى الأوربى هو المستقبل العربى والإسلامى!

أما التيار الآخر - كما يقول جارودى - فهو تيار السلفيين، وقضيتهم: كيف يستطيع العالم العربى - الإسلامى تأكيد حقه فى الوجود؟ وإجابتهم أن تحديث العالم العربى والإسلام لا يكون بتقليد هؤلاء الذين يقتلوننا وأن نصير مثلهم. ولكن بالعودة إلى الدين. إن المسلمين تخلفوا عندما ابتعدوا عن دينهم، وانطلاقا من هذه الفكرة قرروا احتجاز الإسلام فى قلعة وإغلاق الأبواب عليه بلا نوافذ ولا حتى فتحات للتهوية والنور، كما يقول جارودى، ومن هؤلاء ظهر أصحاب العقيدة المتصلبة. والإسلام ليس منغلقا إلى هذا الحد، والله أرسل لكل شعب رسوله لكى يستطيع كل شعب أن يفهم الرسالة بما يناسبه. ولذلك أيضا جاء الاجتهاد وظهرت المذاهب الفقهية كمحاولات للإجابة عن المشكلات الجديدة التى ظهرت بعد انتشار الإسلام فى مجتمعات مختلفة عن مجتمع الجزيرة العربية، وإغلاق باب الاجتهاد لم يأت بأمر إلهى، ولكن بقرار سياسى.

يقول جارودى: إن المشكلة هى هذا العقل المغلق الذى يتعارض فى حقيقته مع روح ومبادئ الإسلام كما جاءت فى القرآن، فالرسول ﷺ اعتبر نفسه مجددا ومكملا لرسالات اليهودية والمسيحية. ومعنى ذلك أن الإسلام منفتح على غيره من الأديان، وعظمة الإسلام أنه عرف كيف يدمج العقيدة السابقة عليه فى عقيدته ويجرى عملية تكامل مع أفضل ما فى الثقافات الأخرى ولم يرفضها ولم يغلق الأبواب على نفسه، ولم يبدأ الانحطاط إلا عندما بدأ الانغلاق. وحين تم خلط السنة بالتقاليد والعادات التى لا أساس لها فى القرآن وأعمال الرسول ﷺ وهكذا فرضوا الملابس الغريبة على المرأة وهى ملابس تنتمى إلى عصر الجاهلية قبل الإسلام.

ويشير جارودى إلى ما يلاحظه الغربيون من تناقضات فى سلوك المنغلقين من المسلمين، فهم يغلقون عقولهم عن كل فكر يأتيهم من الغرب، وفى نفس الوقت يستخدمون الوسائل التى تأتيهم من الغرب (من السيارة و الطائرة إلى السينما والتلفزيون والكمبيوتر والإنترنت) ومن طرق الغرب الجنونية فى الاستهلاك، والفردية الغربية المتوحشة.. ويصل جارودى إلى أن الغرب هو المسئول عن تخلف الدول الإسلامية.. والقضية الأساسية التى تكمن وراء جميع مشكلات العالم من مشكلة الفقر والجوع إلى مشكلة التسلح وهما وجهان لنفس المشكلة، ومن غياب معنى وهدف الحياة فى الغرب، وانتشار العنف بين الأفراد والجماعات والقمع فى الداخل.. كل هذه مشكلات مصدرها الغرب.. واقتصاد الغرب قائم على إنتاج كل شىء بكثرة سواء كان مفيدا أم ضارا.. حتى الأسلحة النووية وغير النووية.. ولابد من سوق لاستهلاك هذه المنتجات، ولابد من زيادة الطلب عليها، ولابد أن يقتنع الناس بأن السعادة والتقدم مرتبطان بكثرة المنتجات المستهلكة.. والغرب يوهم الجائعين فى الدول المتخلفة بأن خروجهم من دائرة البؤس التى يعيشون فيها لن يتم إلا بأن يقلدوا الغرب فى الاعتماد على التكنولوجيا الضرورية وغير الضرورية.. وزيادة الاستهلاك.. والنتيجة أن ثروة العالم تركزت لدى دول الغرب حتى إن أقل من ٣٠٪ من سكان العالم يملكون ٨٢٪ من الإنتاج العالمى، وينفقون ٨٥٪ من الأموال المخصصة للتسلح، و٥٠٠ مليون إنسان فى العالم يعيشون حياة غير إنسانية ويموتون من سوء التغذية وقلة الدخول، والبطالة، ويدعى الغرب أنه يقدم مساعدات مالية للدول الفقيرة، وهذه المساعدات ليست إلا واحدا على عشرين مما تنفقه دول الغرب على التسلح، وتتراكم الديون على الدول المتخلفة لصالح دول الغرب وتتعثر بسبب الأقساط والفوائد.. والنظام العالمى قائم على أن يزداد الأغنياء غنى ويزداد الفقراء فقرا.. ويقوم البنك الدولى وصندوق النقد الدولى بالدور الأكبر لتحقيق ذلك. وإن كان البترول موجودا فى العالم الإسلامى.. فإن أموال البترول موجودة فى بنوك الغرب ومعظمها فى الولايات المتحدة وتستطيع تجميدها كما فعلت من قبل.

وفى تحليل جارودى لأوضاع العالم فى هذا النظام العالمى الجديد الذى يحقق مصالح الغرب فقط يقول: إن عدد سكان الدول الصناعية سدس سكان العالم، ولكنهم يحصلون على ٦٠٪ من المنتجات الزراعية فى العالم.. وتستخدم ثلثيها

لتغذية الماشية، بينما يزداد الجوع فى دول العالم الثالث، ولهذا يصدق القول بأن طعام الفقراء يصل إلى ماشية الأغنياء!.

وفى النهاية وصل جارودى فى ضوء اختلال الموازين وضياع القيم الإنسانية فى العالم إلى أن الوقت قد حان للالتقاء بالإسلام وأن نعيش رؤية توحيدية للتاريخ التى كان إبراهيم وموسى ومحمد فيها دعوات تنبيه واستيقاظ. وبالإسلام نتجاوز شرائع الغاب ونبنى مجتمعا لا يمكن أن يوجد بدون الإيمان.. والثورة الإسلامية فى مرماها العميق مختلفة تمام الاختلاف عن الثورات الغربية سواء الثورة الفرنسية البرجوازية عام ١٧٨٩ أم الثورة الروسية الاشتراكية عام ١٩١٧.. لأنها ثورة قائمة على العدل والحرية الإنسانية..

وتساءل جارودى ما الذى يمكن أن يتعلمه العالم من الإسلام؟.

وأجاب: إن الإسلام عقيدة تلهم وتحرك.. وليس فى الإسلام عداء للمسيحية. والقرآن يذكر المسيح والسيدة مريم باحترام وإجلال، وفى القرآن الكريم: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ (سورة المائدة - الآية ٤٦)..

وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (سورة النساء - الآية ١٧١)..

وهذا يعنى أن الإسلام لا ينكر ولا يعادى المسيحية.. فلماذا يظن مفكرو الغرب أن عليهم معاداة الإسلام..؟.

وأثار جارودى ثائرة أعداء الإسلام فى الغرب حين أعلن: دعونا نفكر فى حلم عظيم، بأن نرى الأمم الغربية الكبرى التى ازدهر فيها الإسلام مثل قرطبة، وباليرمو، وباريس، لتعود هذه الأماكن مراكز لقاء لنشر ما يقوله الإسلام لنا.. إن التعاليم القرآنية تساعدنا على أن نكتشف الإنسان من جديد، لندرك أن الإنسان يحمل فى ذاته جميع درجات الوجود، وينطوى فيه العالم الصغير، والإنسان هو الذى حمل مسئولية الضمير والعقيدة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ﴾

(سورة الأحزاب - الآية ٧٢).. فالإنسان فى مفهوم الإسلام هو خليفة الله فى الأرض، مكلف بالمحافظة على توازن العالم، وأمامه كل ما فى الكون آيات تدل على حضور الواحد الأحد.

هكذا أسس جارودى إيمانه بالإسلام على فلسفة متكاملة تكاملت فيها حقائق الواقع بحقائق الإسلام.. وكان ذلك أهم أسباب الحملة التى وصلت إلى حد تهديده بالقتل، ثم تقديمه إلى المحاكمة بتهمة معاداة السامية بعد أن كشف بالتحليل والدليل بطلان الأساطير المؤسسة لإسرائيل.. وأولها: أسطورة أن فلسطين هى (أرض الميعاد) التى وعد الله بها اليهود، وثانيها: أسطورة أن اليهود هم (شعب الله المختار)، وثالثها: أسطورة التطهير العرقى فى سفر يشوع، ورابعها: أسطورة معاداة الصهيونية للفاشية، وخامسها: أن ضحايا الهولوكوست من اليهود بلغوا ستة ملايين يهودى، وسابعها: أن فلسطين (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض)، وأخيرا أسطورة المعجزة الإسرائيلية.

بذلك تجمع تيار المعادين للإسلام وتيار اللوبى الصهيونى، وتمت محاكمة جارودى طبقا لقانون فرنسى معروف باسم (قانون فابيوس - جيسو) وحكمت عليه المحكمة بغرامة ٢٠ ألف دولار، واستأنف جارودى الحكم وكانت القضية مناسبة انتهزها اللوبى الصهيونى ليعلن مدى قوته ونفوذه حتى إن جماعات صهيونية كانت تتجمع أمام المحكمة للاعتداء على الصحفيين ومراسلى شبكات التليفزيون من الدول العربية والإسلامية، وعدد منهم نقل إلى المستشفى مصابا بكسور ونزيف، وتلقى جارودى تهديدات بالقتل، وتم الاعتداء على المكتبات التى تبيع كتبه فى فرنسا وسويسرا واليونان حتى امتنعت عن بيعها، بالرغم من أن جارودى لم يطعن فى الديانة اليهودية، ولا فى التوراة، ولا فى أنبياء بنى إسرائيل، وكل ما حوكم بسببه هو دعوته إلى مراجعة لرقم ستة ملايين عدد ضحايا النازى من اليهود.. وصدر الحكم بسجن جارودى واستأنف الحكم أمام المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان.. وكل ذلك لأن الرجل أعلن اختياره للإسلام فى وسط معاد للإسلام، وحاول مناقشة وقائع تاريخية مناقشة علمية !!

أما الرجل الذى حظى بتكريم الزعماء والمثقفين وربح ملايين الدولارات من كتاب واحد فهو سلمان رشدى.

سلمان رشدى مؤلف رواية (آيات شيطانية) اكتسب شهرة هائلة وغمرته أضواء الإعلام فى دول الغرب لأنه لم يترك شخصية من شخصيات الصحابة إلا وجه إليها السباب والشتائم والاتهامات بألفاظ بذيئة، وأشار إلى الرسول ﷺ باسم (ماهاوند) وصوره على أنه رجل شرير، ونبى مزيف مصاب بالصرع والهلوسة، ولا يتورع من أى عمل ليحقق أغراضه مهما يكن متعارضا مع الأخلاق، ويصور زوجات الرسول أمهات المؤمنين رضى الله عنهن غانيات يعملن فى بيت للدعارة يحمل اسم (الحجاب) وكبيرتهن تروى كيف تزوجها النبى ﷺ هى والسيدة عائشة فى يوم واحد، ويقول عن الرسول ﷺ إنه نبى الجاهلية، ويقول: إن جبريل كبير الملائكة من مؤيدى اللواط، بذىء اللسان، وأن الشيطان خدع الرسول ﷺ وأجرى على لسانه آيات تجعل لأوثان الجاهلية اللات والعزى ومناة شفاعة ترتجى، ويقول أيضًا: إن الصحابى الجليل سلمان الفارسى - رضى الله عنه - قام بتزوير الوحى وخداع الرسول ﷺ.

هذا الكاتب البذىء الذى كان يصنف على أنه مؤلف روائى من الدرجة الثانية، أصبح أشهر مؤلفى الروايات، بعد أن قدم هذه الرواية المليئة بألفاظ وقحة، وبدلا من محاكمته بتهمة الإساءة إلى عقيدة دينية، حظى بالتكريم، وحصل على الجوائز، وقامت الحكومة البريطانية بتخصيص حراسة مشددة عليه حرصًا على حياته كلفت الخزانة البريطانية عشرات الملايين من الجنيهات الإسترلينية.. ودعاه رئيس الوزراء البريطانى (تونى بلير) للعشاء فى منزله، واستقبله رئيس الولايات المتحدة (بيل كلينتون) فى مكتبه فى البيت الأبيض، وأعلن الرئيس الأمريكى أن تكريمه لهذا الكاتب هو تعبير عن وقوف أمريكا خلف حرية الرأى وسلمان رشدى، بعد أن انحسرت عنه الأضواء عاد إلى الأضواء مرة أخرى بمقال نشره فى صحيفة (نيويورك تايمز) يوم ٢ نوفمبر ٢٠٠١ بعنوان (نعم، هذا عن الإسلام) قال فيه: إن قادة العالم يرددون القول بأن الحرب التى أعلنتها الولايات المتحدة ليست حربا على الإسلام، وهدفهم من ذلك تخفيف الهجمات الانتقامية التى يلاقيها المسلمون فى الغرب، ويريد هؤلاء القادة الحفاظ على الائتلاف ضد الإرهاب مع أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تفترض براءة الإسلام من الإرهاب من حيث المبدأ والمشكلة أن إنكار الصلة بين

الإرهاب والإسلام لا يعبر عن الحقيقة، وإذا لم يكن الإسلام هو الإرهـاب فلمـاذا قامت كل هذه المظاهرات مـن المسـلمين فـي أنحـاء العـالم لتـأييد أسـامة بـن لادن وتنظيـم القـاعدة، ولمـاذا احتشـد عشـرة آلاف مـن الرجـال المسلحين بالسـيوف والفئوس علـى الحـدود الباكسـتانية الأفغانيـة مسـتجيبين لدعـوة زعيـم طالبـان وزعيـم القـاعدة بالجـهاد؟.. ولمـاذا كـان أول ضحايـا بريطانيـا فـي الحـرب علـى الإرهاب في أفغانستان ثلاثة (مجـاهدين) مسـلمين بريطـانيين قتلتـهم القـوات الأمريكية وهم يقاتلون مع طالبان؟..

هكذا، ومنذ البداية يؤكد سلمان رشدى بكلمات قاطعة أن الإسلام ديـن يرتبـط بالإرهاب، وبالتالى فإن الحرب على الإرهاب يجب أن تكون حربا علـى الإسـلام دون مواربة، ولكى يقدم أوراق اعتماد جديدة إلى أعـداء الإسـلام فـي الغـرب زور الحقائق.. وادعـى أن المظاهرات قامت في العالم الإسلامى لتأييد ابن لادن وطالبان والقاعدة بينما الحقيقة أن المظاهرات في العـالم الإسـلامى قـامت احتجاجـا علـى المجازر التى أقامها شارون للفلسطينيين، والحرب التى أعلنها على هذا الشـعب الأعزل الذى يطالب بإنـهاء الاحتـلال والحصـول علـى الاسـتقلال وإقامـة دولتـه ليعيش حـرا فـي وطنـه كسـائر شـعوب العـالم.. قلـب سـلمان رشـدى الحقيقـة. المظاهرات قامت لتأييد الشعب الفلسطينى في نضالـه مـن أجـل الحريـة، فـادعى أنـها كانت لتأييد منظمات وقادة الإرهاب ليثير الغرب على المسلمين ويكسب مـن وراء ذلك ثروة جديدة باعتباره أداة الغرب في الهجوم على الإسـلام القـادر علـى اصطناع الأكاذيب التى تنطلى على العامة في الغرب.

ومضى سلمان رشدى في مقاله يقول: لماذا هـذه المعـاداة للسـامية التـى جعلـت المسلمين يرددون الافتراءات بالقول بأن اليهود هم الذين خططوا للـهجمات علـى مركز التجارة العالمى والبنتـاجون.. وبمـا يـردده أنصـار طالبـان والقـاعدة مـن أن هذين التنظيمين ليست لديهما قدرات أو مـهارات تكنولوجيـة لتنفيـذ مثـل هـذا العمل المعقد، ولماذا يقول (عمرو خان) البطل الرياضى الباكستانى الـذى تحـول إلى السياسة إنه يطالب الولايات المتحدة بتقديم الأدلة على مسئولية القـاعدة عـن هذه الهجمات؟ ولماذا ينشـرون تـهديدات قـادة تنظيـم القـاعدة للغـرب بأسـراب الطائرات وتحذير المسلمين فـي الغرب من السكن أو العمل في المبانى المرتفعـة؟..

ولماذا كل هذا الحديث عن الكفار من العسكريين الأمريكيين والقول بأنهم يدنسون التراب المقدس للسعودية؟.

يقول سلمان رشدى إجابة عن هذا التساؤلات المغرضة: بالتأكيد إنه الإسلام، ثم يسأل ماذا يعنى ذلك بالضبط؟.. ويجيب: إن معظم المسلمين ليسوا متعمقين فى فهم القرآن، وإيمانهم ليس قائمًا على الفهم والتحليل. وبالنسبة لمعظم المسلمين المتدينين يمثل الإسلام بالنسبة لهم الخوف من الله أكثر من حب الله، ويخضعون لمجموعة من الآراء، والعادات والممارسات بدون وعى، وهمهم ينصب على عزل المرأة. ويلقى شيوخهم الخطب التى تثير فى المسلمين الاشمئزاز من الحياة الحديثة، وكراهية المجتمعات المتقدمة لأنها مليئة بالكفر والجنس والموسيقى.. ويثيرون فى نفوسهم المخاوف من أن تنتشر فى المجتمع الإسلامى أساليب الحياة الغربية المتحررة. والمنظمات الإسلامية متورطة فى حركات سياسية راديكالية على مدى الثلاثين عاما الماضية، وهؤلاء الإسلاميون السياسيون هم الإخوان المسلمون فى مصر، والمقاتلون ذوو الأيدى المخضبة بالدماء فى جبهة الإنقاذ الإسلامية، والجماعة الإسلامية المسلحة فى الجزائر، والشيعة الثوار فى إيران، وطالبان، والفقر هو الذى يعاونهم، وجنون الاضطهاد لدى المسلمين ليس إلا ثمرة جهودهم.. وهذا هو (الإسلام المضطهد) الذى يلقى باللوم على الأجانب (الكفار) فى كل المحن التى تعيش فيها المجتمعات الإسلامية، وليس هناك حل سوى دفع هذه المجتمعات الإسلامية دفعا نحو الاقتراب من العالم وتنفيذ مشروع لتحديث هذه المجتمعات المتخلفة.

ويستطرد سلمان رشدى فى مقاله فيقول: إن هذا ليس تأييدا لنظرية صموئيل هنتجنتون عن صدام الحضارات، لسبب بسيط هو أن مشروع الإسلام السياسى لم يعد مقصورا على العداء للغرب ولليهود، ولكنه أصبح موجهًا ضد المسلمين أيضًا.. ومهما كان الظاهر فإن هناك قدرا من التعاون بين طالبان والحكم فى إيران.

ويقول أيضا: إن الدول الإسلامية فيها استياء من الغرب وفى نفس الوقت فإن الخلافات فيما بينها لا تقل عن خلافاتها مع الغرب.. ومن السخف إنكار أن

الإسلام مصاب بجنون الاضطهاد، ويبرئ نفسه من الجرائم التى يرتكبها، وهو فى نفس الوقت أيديولوجية تحظى بإعجاب واسع وانتشار.

ويقول سلمان رشدى: منذ عشرين عامًا، عندما كنت أكتب رواية عن الصراع على السلطة فى باكستان، كان من الأمور الضرورية فى العالم الإسلامى إلقاء اللوم على الغرب دائمًا ونسبة كل محنة تصيب المسلمين إلى الغرب، وخاصة الولايات المتحدة، وفى ذلك الوقت، وكما هو الحال الآن، كانت بعض هذه الانتقادات قائمة على أساس من الصحة. وليس من المفيد لأمريكا تكرار سياسات الحرب الباردة، والسياسة الخارجية المدمرة لأمريكا ودورها فى إنشاء وتأسيس نظم الحكم البغيضة ودعم القادة المكروهين من شعوبهم، ومع ذلك أليس من واجب المسلمين أن يتحملوا مسئوليتهم عما يصيبهم من الفشل والهزائم ويتعلموا كيف يواجهون مشاكلهم ويتغلبون عليها بأنفسهم؟. وإن كان كثير من المسلمين والمحللين العلمانيين الذين لهم جذور فى العالم الإسلامى يسألون مثل هذه الأسئلة الآن، ويتردد على ألسنة بعض الكتاب المسلمين القول (نعيب زماننا والعيب فينا، وما لزماننا عيب سوانا) وكتب مسلم بريطانى يقول: (الإسلام أصبح عدو نفسه).. وقال لى صديق لبنانى عائد من بيروت: إن النقد ازداد بدرجة كبيرة للإسلام السياسى فى أعقاب هجمات الحادى عشر من سبتمبر، ويتحدث كثير من المعلقين الآن عن الحاجة إلى الإصلاح فى العالم الإسلامى.. ويذكرنا ذلك بما كان يقوم به الاشتراكيون غير الشيوعيين من نقد للاشتراكية السوفيتية الاستبدادية، وكان لهؤلاء أهمية كبيرة، ولذلك فمن الضرورى تشجيع الأصوات التى تدعو إلى المصالحة بين الإسلام والحداثة، لكى تعلو هذه الأصوات أكثر وتطغى على غيرها.. حتى تدرك المجتمعات الإسلامية أن تقدمها واقترابها من الحضارة الحديثة مرتبط بالفصل بين الدين والسياسة، وإدراك أن الدين مسألة شخصية، لا تتجاوز النطاق الشخصى.. ويتحتم على العالم الإسلامى تبنى المبادئ العلمانية الإنسانية التى تمثل الأساس للحضارة الحديثة والتى بدونها ستظل الحرية فى الدول الإسلامية حلما بعيد المنال.

هكذا انتقل سلمان رشدى من الهجوم على الإسلام واتهامه بأنه دين زائف، وعلى نبى الإسلام واتهامه بالتضليل واتهام مبادئه بأنها سفسطة وخرافات، إلى

هجوم جديد يناسب الظروف بالقول بأنه دين يتضمن التحريض على الإرهاب، والهجوم على المجتمعات والدول الإسلامية بأنها متخلفة لأنها متمسكة بالإسلام.. ويمضى فى النفاق فيدعى أن المسلمين أعداء الغرب وأعداء اليهود أيضا! وذلك لكى يرضى عنه اللوبى الصهيونى. وبذلك يضمن سلمان رشدى أن يظل موضع اهتمام فى الغرب ما دام يقدم كل هذه الخدمات لتشويه الإسلام وتغذية الكراهية للمسلمين.

وما يقوله سلمان رشدى ليس إلا صياغة جديدة لما أعلنه مؤخرًا رئيس الوزراء الإيطالى سيليفيو بيرلسكونى فى مؤتمر صحفى وقال فيه: (إننا يجب أن نكون على دراية بسمو حضارتنا القائمة على ضمان الوجود واحترام حقوق الإنسان وتوفير مستوى المعيشة المناسب، على عكس ما يحدث فى الدول الإسلامية... إن النظام فى الغرب يحترم الحقوق الدينية والسياسية ويحترم قيم التسامح واختلاف الآراء، ولذلك سوف يستمر انتصار الغرب على الشعوب المتخلفة كما هزم الشيوعية حتى لو كان ذلك يعنى مواجهة حضارة أخرى مثل الإسلام الذى ظل جامدا منذ ١٤٠٠ سنة).

وجاءت تصريحات بيرلسكونى لتكشف مدى الكراهية والعداء للإسلام، ولم يستطع إخفاء حقيقة مشاعره رغم أن موقعه السياسى يفرض عليه الكياسة واستخدام لغة هادئة وعدم إظهار العداء لدول ترتبط ببلاده بمصالح اقتصادية وبروابط ثقافية، ولم يضع فى اعتباره التوقيت الذى أطلق فيه هذا الهجوم على الإسلام وصوره على أنه دين جامد ومتخلف وقائم على قيم تتعارض مع حضارة الغرب، وعلى الغرب أن يعلن الحرب عليه كما حارب الشيوعية.. كل هذا فى الوقت الذى يتعرض فيه العرب والمسلمون فى أوروبا وأمريكا لاعتداءات انتقامية.. مما دعا صحيفة هيرالد تريبيون إلى كتابة مقالها الافتتاحى يوم ٢ أكتوبر ٢٠٠١ بعنوان: (حديث صريح إلى بيرلسكونى) قالت فيه: إنه مما يزيد الأمر سوءًا أن هذه التصريحات صدرت على لسان رئيس دولة حليفة كبرى للولايات المتحدة، وأفسد بذلك محاولات الزعماء الغربيين للتفرقة بين الحرب على الإرهاب والحرب على الإسلام، فجاء بيرلسكونى ليرفض هذا التمييز، مما يؤدى إلى تحويل المعركة من معركة بين الإنسانية والإرهاب لتصبح

مواجهة أبدية لا يمكن لأحد أن يتحملها أو يرغب فى الخوض فيـها، والأجـدى القول بأن الحرب هى فقط على الذين يرفعون السلاح ضد المدنيين بغض النظر عن انتماءاتهم وعقائدهم الدينية، وعدم القدرة على رؤية هذا التمييز الواضـح يعنـى أن نكون مثل أسامة بن لادن فى دعوته للجهاد.

صحيح أن بيرلسكونى عاد بعد أيام ليقول إنه يأسف إذا كانت نظرياتـه تـؤذى مشاعر العرب والمسلمين.. ولكن هل يكفى ذلك للاقتناع بـأن القلـوب فـى الغـرب فيها ما فيها من كراهية وعداء للإسلام والمسلمين.

تزداد الحملـة علـى الإسـلام إلى الحـد الـذى دفـع المنظمـة الإسـلامية للتربيـة والعلوم (الايسيسكو) إلى عقد ندوة فى لندن يومى ٢١ و٢٢ يونيـو ٢٠٠٢ رأسـها الدكتور عبد العزيز التويجرى المدير العام للمنظمة، ودارت مناقشات هذه الندوة حول أربعة محاور هى: أولا: الصور النمطية وتشويه الحقـائق فـى الغـرب عـن الإسلام، وثانيا: إلى من ينتمى الإرهاب؟ وهل الإسلام هو المسـئول عـن الإرهـاب أو سياسات الغرب وإسرائيل؟.. وثالثـا: فلسـطين بـين سـطوة الاحتـلال وصمت العالم، ورابعا: الغرب والعالم الإسلامى تعاون أم مواجهـة؟

وأعلن فى هذه الندوة أن أغلب وسائل الإعلام الغربية تبتعد عن مبادئ الإعـلام النزيه الموضوعى المنصـف الـذى يلـتزم بالحقيقـة.. ويظـهـر الآن أمـام الجميـع أن الرأى العام فى الغرب يتلقى معلومات تثير فيه البلبلة وسوء الظـن، وتنشـر فـى الصحف وتبث فى التليفزيونات أخبــار، وتقـارير وموضوعـات عـن المجتمعـات الإسلامية تظـهـر صـورة الإسـلام بشـكل منفـر ومخيـف، ويـؤدى ذلـك إلى تـأزم العلاقات بين دول وحكومات وشعوب الغرب والمسلمين.. ويؤدى كذلك إلى توسيع دائرة الاختلاف وصعوبة الفهم عند كل جانب للآخر، وسـيؤدى ذلـك إلى إضـرار بالمصالح المشتركة للطرفين، اقتصاديا، وسياسيًا.

وأهـم مـن ذلـك أُعلـن أن منظمـة (الايسيسـكو) قـــامت بدراســات ميدانيــة وإحصائية لما تنشره الصحف والمجلات وتذيعه محطات الإذاعة والتليفزيـون فى دول الغرب. وفى أوروبا وأمريكا وبعض بلدان أمريكــا اللاتينيـة، وكشـفت هـذه الدراسات أن صورة الإسلام والمسلمين فى وسائل الإعلام الغربية مشوشة ولا تعبر أغلبها عن حقيقة الإسلام والمجتمعات الإسلامية، وتتكرر هذه الصـورة النمطيـة

لتشويه الإسلام عن قصد أو عن قلة معرفة، أو نتيجة للاعتماد على مصادر غير موثقة تتعمد تشويه الحقائق لأغراض ليست بريئة، والصورة النمطية عن الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي ترتبط في أغلبها بالإرهاب، بحيث يرتبط الإسلام في الذاكرة الجماعية للشعوب الغربية بالإرهاب في حين لا نجد في الإعلام الغربي مثل هذا الربط بين الإرهاب وأي دين من الأديان الأخرى.

قيل أيضًا: إن الإسلام خسر كثيرًا ولا يزال يخسر الكثير نتيجة الاتهامات الموجهة إليه من كل الأطراف بالضلوع في عمليات الإرهاب وتصديره، بينما الحقيقة التي يتم تجاهلها هي أن الإسلام فيه إدانة واضحة للإرهاب، ورفض لقتل الأرواح البريئة، وترويع الناس، والقرآن يؤكد على أن من قتل نفسا بغير حق كأنما قتل الناس جميعًا، والإسلام يلزم المسلمين بالمحافظة على الحياة الإنسانية، حتى حياة الجنين في بطن أمه مما لم تصل إليه القوانين الدولية إلى اليوم، وأن الشجاعة الأدبية وروح العدل والإنصاف تقتضي أن يتصف الإعلام الغربي بالشجاعة الأدبية لتصحيح هذه الصورة بناء على الحقائق ويعترف بما ردده من الأكاذيب.

وفي هذه الندوة تحدث مايك اوبراين وزير الدولة البريطاني للشئون الخارجية فقال: إن هناك تشويها، ومعلومات غير صحيحة في الصورة التي تقدمها بعض وسائل الإعلام في الغرب عن الإسلام والمسلمين، وألقى بالمسئولية في ذلك على المسلمين أيضًا لأنهم يجب عليهم أن ينشطوا لتوضيح صورة الإسلام، ونشر المعلومات الصحيحة عنه بين الرأي العام الغربي.. وقيل كلام كثير على هذا المنوال، وفي ختام الندوة لخص الدكتور التويجري نتائج المناقشات فقال: لقد خرجنا من هذه الندوة بتصور للمشهد الإعلامي الغربي وتعامله مع الإسلام وقضايا العالم الإسلامي، فوضحت لنا معالم الصورة النمطية غير الصحيحة التي تروجها بعض وسائل الإعلام في الغرب عن الإسلام والمسلمين، واستخلصنا من المناقشات وأوراق العمل أن الازدراء المتعمد بالدين الإسلامي سيؤدي إلى الإضرار بالمصالح المشتركة بين الغرب والعالم الإسلامي، والإضرار كذلك بالأمن والاستقرار فيهما، ولابد من أن نبدأ صفحة جديدة من علاقات التعاون في إطار الاحترام المتبادل.

لكن نـدوة واحـدة مـهما تكـن لـن تفلـح فـى إزالـة الركـام مـن العقـد النفسـية ومخلفات القرون من سموم الفكر الغربى، والأفكـار المسبقة وسوء الظـن والشـك والاتهامات الباطلة والشبهات التـى لا تقـوم علـى أسـاس.. ولا تغـير التصرفـات والمواقف المعادية للإسلام.

ندوة واحدة لا تكفى..

والدفاع عن الإسلام باللغة العربية بين المسلمين فى العالم الإسلامى لا يجدى.

الحرب العالمية الثالثة على من ؟

من يتابع ما ينشر فى الغرب عن الإسلام والمسلمين لابد أن يصاب بالذهول.

إنهم يتحدثون عن إسلام غير الإسلام الذى نعرفه ونؤمن به ونعيش فى ظلاله.

إنهم يتحدثون عن إسلام مليء بالشرور والكراهية والعنف والعدوان. إسلام يزرع الخوف وينشر الإرهاب فى جميع أنحاء العالم.

وكنا نقرأ ما تنشره الصحافة فى الولايات المتحدة ودول أوروبا من مقالات معادية للإسلام والمسلمين ونظن أنها مجرد آراء شخصية لكتّابها، وأنها أفكار مشوهة ناتجة عن الجهل والتأثر بالدعايات المعادية التى نعرف مصدرها، والتى لا نعرف مصدرها حتى الآن، ولكن الآن وقد انتقل موضوع الصراع بين الغرب والإسلام من موضوع للصحفيين والمفكرين إلى موضوع للسياسيين والعسكريين، فإن الأمر يدعو إلى القلق الشديد، والخوف مما يمكن أن يحدث، وكعادتنا نحسب أن ما سيحدث سيكون مفاجأة بينما ليس فى الأمر مفاجأة، وهم يعلنون كل نواياهم ولا يخفون شيئًا، ربما اعتمادا على أن العرب والمسلمين لا يقرءون، وإذا قرءوا لا يفهمون، وإذا فهموا لا يصدقون، وإذا صدقوا لا يعملون، كما قال عنهم موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى ذات يوم.

صحيفة التايمز البريطانية نشرت مقالا فى ٢٠ سبتمبر عام ١٩٩٩ كتبه وليام ريس موج بعنوان: (التوقعات عن صراع عالمى بسبب الإسلام أثبتت دقتها بصورة تبعث على الفزع) قال فيه: إن العنف سوف ينتشر فى جميع أنحاء العالم، وإن هناك تهديدات تنذر بما هو أسوأ، وإن ما نراه من حوادث العنف فى دول العالم لا تقع لأسباب محلية خاصة بكل دولة، ولكنّ وراءها أسبابا أكبر وأوسع ليست المسئولة عنها الولايات المتحدة أو الأمم المتحدة. فإن الصراع والعنف فى تيمور الشرقية، وكوسوفا، والعراق، وكشمير، كلها أجزاء لمشكلة عالمية واحدة وجميعها صراعات بين دول إسلامية وجماعات عرقية أو ثقافات أخرى. وحتى

صانع السلام العربى الملك حسين عاهل الأردن الراحل قال: إن حرب الخليج كانت حربا ضد كل العرب وكل المسلمين وليست ضد العراق وحده.

ويقول المقال: إن الغرب متورط فى الصراع فى تيمور الشرقية، لأن أبناءها يدينون بالكاثوليكية، والصراع فى كشمير بين باكستان الإسلامية والهند الهندوسية، والصراع فى الشيشان بين الإسلام وروسيا وهى قلب الأرثوذكسية السلافية، وتمثل كوسوفا وضعا غير عادى، فهو صراع بين الإسلام والأرثوذكسية السلافية.

نعود إلى نظرية صمويل هنتنجتون عن صراع الحضارات التى نشرها عام ١٩٩٣ فى مجلة (فورن افيرز) ثم طورها فى كتاب كامل وقال فيها: إنه بعد انتهاء الحرب الباردة سوف تسيطر الصراعات بين الحضارات. وقال إن (الإسلام تحيط به حدود دموية). ويقول كاتب المقال: يبدو أن ما يحدث فى تيمور الشرقية والشيشان وكوسوفا والعراق وكشمير يؤكد هذه الملاحظة وسواء اعتقد المرء ذلك أم لم يعتقد فإن اللوم يقع على الإسلام!

وفى عام ١٩٩٦ قدم هنتنجتون وجهة نظره فى كتاب بعنوان (صراع الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمى) وصفه هنرى كيسنجر بأنه يقدم إطارا جريئا لفهم السياسات العالمية فى القرن الحادى والعشرين، وقال كيسنجر: إن تحليلات هنتنجتون تثبت صحتها ودقتها إلى درجة تنذر بالخطر. وتتلخص نظريته فى أن الحضارات الرئيسية المعاصرة هى الحضارات الصينية، واليابانية، والهندوسية، والإسلامية، والأرثوذكسية، والغربية (أوروبا وأمريكا) وحضارة أمريكا اللاتينية، والحضارات الأربع الكبرى فى العالم هى الحضارات الصينية، والهندوسية، والإسلامية، والحضارة الغربية، وكل من هذه الحضارات تضم حوالى مليار نسمة، وكل حضارة منها لها دين مؤسس لها تشكلت وتبلورت حوله، وهذه الديانات هى: الإسلام، والمسيحية، والكونفوشية، والهندوسية، وتعتبر كل من الصين والهند قلبا أو محورا لحضارة كل منهما، أما الغرب فينظر إليه على أنه منقسم إلى محورين رئيسيين هما: الولايات المتحدة وأوروبا. وبالنسبة للإسلام فليست هناك دولة تمثل قلب أو محور حضارته، وهذا ما يجعل من الصعوبة فهم الإسلام وحضارته بالنسبة لمن هم خارج هذه الحضارة،

ويقول هنتنجتون أيضا: إن صراع الإسلام والغرب يثير مشكلات ضخمة للعالم بطريقة أو بأخرى.

ويقول المقال: إن الغرب يطالب بسيطرة فريدة على العالم، والمبرر لذلك أنه يمثل القوة العالمية القائمة على أساسين هما: تفوق التكنولوجيا الأمريكية، وتفوق الأيديولوجية العالمية القائمة على الليبرالية وحقوق الإنسان. وتنظر الحضارات الأخرى إلى الغرب على أنه يمتلك قوة عسكرية واقتصادية خطيرة، ولكنه منهار من الناحية الاجتماعية. ويتمثل هذا الانهيار الاجتماعي في التفكك الأسرى، وعدم التمسك بالمعتقدات الدينية، وانتشار الجريمة، والمخدرات، وارتفاع نسبة المسنين، وانتشار البطالة.. أما الغرب فإنه ينظر إلى نفسه على أنه نموذج لحضارة القرن الحادى والعشرين، وتنظر إليه الحضارات الأخرى على أنه نموذج سيئ يحسن تجنبه وليس محاكاته.

ويقول هنتنجتون: إن الغرب يسيطر على العالم الآن سيطرة كاملة، وسيظل مسيطرا ومتفوقا في القوة خلال القرن الحادى والعشرين، إلا أن التغييرات التدريجية والحتمية الأساسية تؤثر أيضا على توازن القوى بين الحضارات وستأخذ قوة الغرب في الاضمحلال. فخلال خمسة وسبعين عاما من ١٩٢٠ حتى ١٩٩٥ تراجعت السيطرة السياسية للغرب على المناطق العالمية بنسبة ٥٠٪، وتراجعت نسبة من يسيطر عليهم الغرب من سكان العالم ٨٠٪، وتراجعت سيطرة الغرب على الصناعة العالمية بنسبة ٣٥٪، أما سيطرة الغرب على القوة العسكرية فقد تراجعت بنسبة ٦٠٪.

وحين يتحدث هنتنجتون عن الإسلام يقول: إن في العالم ٤٥ دولة مستقلة تنضوى تحت راية الإسلام، وهو أقوى الديانات العالمية من حيث سيطرته الثقافية على المؤمنين به، كما أنه دين له ميزة اقتصادية كبرى، هي أنه يسيطر على معظم احتياطي البترول العالمي، ولن ينضب هذا البترول إلا بعد سنوات طويلة جدا، ولا يزال الإسلام يمر بمرحلة النمو السكاني السريع، ومن المتوقع أن يشكل المسلمون ٣٠٪ من سكان العالم في عام ٢٠٢٥، وقد تسببت الهجرة من الدول الإسلامية إلى دول أوروبا في ردود فعل شديدة في أوروبا، حتى إن نصف

عدد الأطفال في بروكسل – مقر الاتحاد الأوروبي – يولدون من أمهات عربيات، ويشكل الشباب المسلم الساخط العاطل عن العمل تهديدا لأوطانهم الأصلية ولدول الغرب التي هاجروا إليها.. أما الصحوة الإسلامية الجديدة فقد منحت المسلمين الثقة في شخصيتهم المميزة، وفي الإحساس بأهمية حضارتهم، وفي القيم الإسلامية بالمقارنة بالقيم والحضارة الغربية، ومما يثير الغضب بين المسلمين أن الغرب يعمل على نشر القيم والمؤسسات الغربية في العالم، ويسعى إلى التدخل في الصراعات القائمة في العالم الإسلامي، ويقول أيضا: إن الخطر يكمن في التفاعل بين هذه الصحوة والثقة الإسلامية التي تدعمها الزيادة السكانية المستمرة وبين مخاوف الحضارات المجاورة، وهذه الحضارات المجاورة لحضارة الإسلام لديها شعور كامل بالخوف من التهديد الإسلامي.. الغرب قلق بسبب البترول وهواجس الانتشار النووي في الدول الإسلامية، والهجرة من الدول الإسلامية، كما يشعر الغرب بالقلق على إسرائيل، والانتقاص من حقوق الإنسان في الدول الإسلامية. وكذلك فإن روسيا تشعر بالتهديد الإسلامي بصورة مباشرة، ويتمثل في انفصال الدول الإسلامية والمطالبة المسلحة للشيشان بالاستقلال، وكذلك يخشى الصرب من قيام (ألبانيا العظمى). وتخشى الهند من باكستان، ومن جاذبية الإسلام لنحو مائة مليون مسلم في الهند واحتمال انسلاخهم منها، والصين أيضا تشعر بالقلق تجاه المسلمين في آسيا الوسطى ومن مطالبة المسلمين في إقليم سنكيانج الصيني بالانفصال، والصينيين في إندونيسيا، بل إن سكان أفريقيا جنوب الصحراء من غير المسلمين لديهم مخاوف أيضا تجاه الإسلام.

أما مستقبل العلاقة بين الحضارات الأربع: الحضارة الغربية وحضارة الصين وحضارة الهند والحضارة الإسلامية فإن هنتنجتون يرى أن الصراع بينها حتمي، ويرى أن الإسلام يمثل مشكلة ليس لها حل، وليس أمام الغرب إلا أن يظهر تفهما أكبر للصحوة الإسلامية لأن هذه الصحوة سوف تتطور في المستقبل أكثر مما هي عليه الآن، وعلى الغرب أن يغير ردود فعله تجاه هذه الصحوة الإسلامية لأن موقف العجرفة والشعور بالتفوق الثقافي ومشاعر العداء الصريحة من جانب الغرب تجاه الإسلام هي أسوأ ردود فعل ممكنة، وإن كان هنتنحتون يصل أخيرا

إلى التنبؤ بأن الدول المجاورة للإسلام ستفعل كما حدث فى صربيا وتتصدى للصحوة الإسلامية، وكما كان الخوف من الألبان المسلمين هو الذى أتى بميلوسيفيتش عام ١٩٨٧ إلى السلطة على أمل أن يقضى بالمذابح على المسلمين، ولكن لن يجد العالم أن الأمر سهلا حين يسعى إلى تحجيم (الحدود الدموية) للإسلام وعدم اتساعها.

وهكذا فإن الخوف من الإسلام واعتباره هو (العدو) للحضارة الغربية وللحضارات الأخرى أصبح قائما على أساس نظرية متكاملة، لها جذور تاريخية قديمة، اكتملت وتبلورت على يد صمويل هنتنجتون أستاذ الدراسات الدولية فى جامعة هارفارد .. النظرية إذن نظرية أمريكية.. وهى فى حقيقتها ليست إلا تبريرا فلسفيا للحرب ضد الإسلام.. وقد ينكر بعض الأمريكيين أنهم يعتقدون فى صحة هذه النظرية.. ولكن ما تفعله أمريكا ليس إلا التطبيق العملى لها، وإن كان المسلمون حتى الآن لا يصدقون أن هذه النظرية يمكن أن يؤمن بها أحد، لأنهم ما زالوا يؤمنون بمبدأ الحوار والتعاون بين الحضارات استلهاما من قوله الله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ (سورة الحجرات-١٣) فالمسلمون - وفقا لما علمهم ربهم - يمدون أيديهم إلى كل من يختلف معهم فى الدين واللغة والثقافة لأنهم - كما فى عقيدتهم الدينية - ينتمون فى النهاية إلى نفس الأصل (كلكم لآدم). والاختلاف بين الحضارات يمثل حكمة الله لكى تتفاعل هذه الحضارات المختلفة وتتبادل المنافع.. هذا هو المفهوم الإسلامى.. أما المفهوم الغربى فهو فى هذا القرن -كما عبّر عنه هنتنجتون، وكما نرى فى كتابات المفكرين والمحللين، وتصريحات السياسيين، ومواقف الدول الغربية، وكما نرى على أرض الواقع..- حوار بالصواريخ والطائرات والقنابل الذكية وآلة الحرب الهائلة التى تتحرك لتدمير دول إسلامية.

والدليل على نظرية هنتنجتون عن حتمية الصراع بين الإسلام والحضارة الغربية ما نراه فى مناهج تدريس التاريخ للتلاميذ فى أمريكا والدول الغربية، من تصوير المسلمين وفقا لأنماط ذهنية ثابتة Stereotypes فى الوعى الأمريكى والأوربى تعكس التحيز وفقدان الموضوعية عند الحديث عن الإسلام والمسلمين،

وفي دراسة للدكتورة فوزية العشماوى للكتب المدرسية فى المناهج الأمريكية والأوربية أن ما يدرسه التلاميذ عن الإسلام والعالم الإسلامى لا يزيد على ٣٪ من المقرر الدراسى و٩٧٪ من المقرر مخصصة لتاريخ أوروبا وأمريكا، وفى الغالب يكون الجزء المخصص للعالم الإسلامى فى إطار بلاد العالم الثالث سواء من الناحية الجغرافية أم التاريخية، أم فى إطار توزيع الثروات الطبيعية فى العالم وخاصة البترول، بينما تجعل المناهج من أوروبا وأمريكا المحور الذى تدور حوله الأحداث التاريخية المهمة وكأن الدول الإسلامية هوامش أو زوائد، ويتبين ذلك من إغفال الأحداث التاريخية المهمة التى تعتبر علامات ثابتة فى التاريخ العربى والإسلامى، ويتم التركيز فقط على الأحداث التى تبرز تفوق الغرب وانتصاره على المسلمين، مما يؤكد حرص واضعى المناهج الدراسية على غرس الاتجاه لرفض (الآخر) العربى والمسلم، على أساس أنه مختلف عن الإنسان الغربى، وعدم تفهم دوره فى التاريخ وقيمة هذا الدور، وتشير الدكتورة فوزية العشماوى إلى دراسة قامت بها تحت إشراف اليونسكو عن صورة المسلم فى الكتب المدرسية فى فرنسا وأسبانيا واليونان وخاصة كتب التاريخ فى نهاية المرحلة الابتدائية وكانت نتيجة البحث أن التاريخ الذى يتم تدريسه للتلاميذ الأوروبيين الصغار يعلمهم أشياء مختلفة تماما عما يتم تدريسه للتلاميذ العرب والمسلمين، وتقدم للتلاميذ الإسلام والرسول ﷺ بمعلومات تجرح شعور المسلمين، فتجد نبى الإسلام ﷺ يتم تقديمه أحيانا على أنه شاعر يرى رؤى خارقة، ويشار إليه بألفاظ توحى بالشك فى مصداقيته، وفى أغلب الأحيان يبدأ تدريس الإسلام بذكر الانتشار السريع المخيف للإسلام بالغزوات فى صدر الإسلام ثم بالفتوحات فى القرنين السابع والثامن الميلاديين، وكيف أن جيوش المسلمين زحفت إلى أوروبا واكتسحت تلك البلاد واستولت عليها بقوة السيف، ونهبت أموالهم وثرواتهم إلى أن تمت هزيمة المسلمين على يد (شارل مارتال) القائد الفرنسى الذى أوقف الغزو الإسلامى فى معركة (بواتييه) فى جنوب فرنسا عام ٧٣٢ ميلادية.

كذلك يتم تصوير العرب فى حروبهم على أنهم يتعاملون بوحشية، وتؤدى هذه الكتابات إلى أن تثبت فى أذهان الغربيين صورة المسلمين على أنهم الغزاة

المتوحشون الذين يثيرون الرعب، ويمثلون تهديدا دائما لجيرانهم. وفى الفصل الخاص بالحروب الصليبية تصور المناهج هذه الحروب على أنها كانت بهدف (تحرير بيت المقدس من أيدى الكفار) المسلمين الذين كانوا يحتلونها ويسيئون معاملة الحجاج المسيحيين القادمين من أوروبا لزيارة الأماكن المسيحية المقدسة في القدس. ويدل على ذلك أن الأوروبيين ما زالوا يرددون حتى اليوم الوصف الذى كان يطلق على المسلمين فى أوروبا فى القرون الوسطى، وهو أنهم كفار دون محاولة من مؤلف الكتاب المدرسى لتصحيح هذا المفهوم الخاطئ.. وفى نفس الوقت تغفل المناهج الدراسية الإشارة إلى وحشية جيوش الصليبيين وعدم تسامحهم مع المسلمين سكان القدس حين انتزعوها من أيدى المسلمين عام ١٠٩٩، بينما تعترف الموسوعات العلمية الكبرى بأن الصليبيين ذبحوا أكثر من ٧٠ ألفا من أهالى القدس المدنيين دون تمييز بين النساء والأطفال والشيوخ، أو بين مسلمين ويهود، وحتى بين المسيحيين من أهالى المدينة العزل، ولا تشير المناهج إلى تسامح المسلمين حين استعادوا القدس عام ١١٨٧ على يد صلاح الدين الأيوبى الذى أصدر العفو عن كل الذين أساءوا إلى أهل المدينة، وهذه واقعة سجلها التاريخ، ولا يعلمها الغربيون لأنهم لم يدرسوها فى مدارسهم، وتغفل المناهج الدراسية فضل العلماء والفلاسفة العرب المسلمين على النهضة الأوروبية فى القرن الخامس عشر الميلادى، ونادرا ما يذكر ابن رشد وابن المقفع والخوارزمى وابن سينا وابن النفيس الذين كانوا أساتذة ومعلمين لأوروبا بأسرها منذ القرن التاسع الميلادى، ولهم اكتشافات علمية واختراعات ونظريات علمية وفلسفية كانت الأساس للنهضة الأوروبية حين ترجمت أعمالهم إلى اللاتينية ثم إلى اللغات الأوربية، وكثير من علماء عصر النهضة الأوروبية نسبوا لأنفسهم أفكار، واكتشافات ونظريات المسلمين إلى أن بدأ بعض المستشرقين الغربيين يعترفون بفضل العرب والمسلمين على النهضة الأوربية.

هكذا يعلمون تلاميذهم فى الغرب عن الإسلام والمسلمين ما يغرس الكراهية والعداء منذ الصغر فلا غرابة أن يعبروا عن هذه الروح العدائية عندما يكبرون، ولا غرابة أن تظهر عندهم نظرية صراع الحضارات وحتمية الحرب العالمية الثالثة ضد الإسلام هذه المرة!.

وفى ألمانيا ترسخ الصورة المعادية فى أذهان الكثيرين، وقد ساهمت وسائل الإعلام بتقاريرها وتحليلاتها فى نشر هذه الروح المعادية للإسلام وربطه بالأصولية والتطرف، وظهرت هذه النزعة واضحة فى (ملتقى الإعلام فى شمال الراين - فستفاليا عام ٢٠٠١) الذى تجمع فيه حشد من الصحفيين ورجال الفكر مع جمهور كبير، وقد نشرت وكالة (انترناشيونال برس) تقريرا عن هذا الملتقى كتبه محررها بيرند روسله أشار فيها إلى محاضرة البروفيسور (يوخن هيبلر) أستاذ العلوم السياسية فى جامعة دويسبرج فى هذا الملتقى وكانت بعنوان (الصورة المعادية للإسلام فى وسائل الإعلام الألمانية) أشار فيها إلى أنَّ صورة الإسلام أصبحت ذات طابع أيديولوجى وسياسى أكثر من الطابع الدينى، بحيث أصبحت معرفة الإسلام والمسلمين تتم من خلال التقارير التى تنشر عن حركة طالبان وجماعات المجاهدين فى أفغانستان..

ومن هذا المنطلق ارتبط الإسلام بالأصولية وجرى التمييز بين دول إسلامية (جيدة) ودول إسلامية (سيئة) أو (شريرة) ويتناسى أصحاب هذا التصنيف أن بعض الدول الإسلامية التى تدخل فى دائرة الدول الإسلامية الجيدة فيها نظام حكم استبدادى أكثر من الدول الأخرى.. وقال البروفيسور هيبلر: إن وسائل الإعلام فى دول الغرب عموما تعمل وفق قوالب معينة وتصف السياسة الغربية تجاه الدول الإسلامية بأنها (برجماتية) ومنطقية، بينما تصف سياسات الدول العربية والإسلامية بأنها عاطفية ومتناقضة وغير واضحة وغير منطقية!.. ويظهر الانحياز فى عرض الاعتداءات الإسرائيلية على الفلسطينيين حيث يقال: إن الإسرائيليين يضربون الفلسطينيين بالطلقات المطاطية فقط ولا يتحدثون عن الصواريخ والدبابات.

وفى هذا الملتقى تحدثت مراسلة البرنامج الثانى فى التليفزيون الروسى (اينا روك) فقالت: إن صورة العداء للإسلام موجودة أيضا فى وسائل الإعلام الروسية، ويظهر ذلك فى التقارير التى تنشر وتذاع عن الجمهوريات الإسلامية التى انفصلت عن الاتحاد السوفيتى السابق، كما تبرز وسائل الإعلام فى روسيا الحرب فى الشيشان على أنها حرب ضد المتطرفين المسلمين، هذه الصورة العدائية تبناها بعض رجال السياسة الألمان، وفى نفس الوقت يواجه الصحفيون مصاعب عديدة إذا حاولوا الاقتراب من الحقيقة.

وتحدثت أيضا فى هذا الملتقى الدكتورة فيولا شفيق الأستاذة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عن تطور الأصولية الإسلامية فى مصر، وكيفية تناول السينما المصرية لهذا الموضوع، وعرضت بعض الأفلام السينمائية المصرية التى تناولت الأصولية والعنف الإسلامى، وشكا بعض المشاركين فى الملتقى من قلة التقارير الموضوعية عن حقيقة الإسلام وثقافته وعن حقيقة الأحداث التى تجرى فى الدول الإسلامية، بدلا من تركيز وسائل الإعلام الغربية على الأمور الشكلية مثل ملابس الرجال المسلمين، أو غطاء الرأس الذى تضعه المسلمات علما بأن كلمة (الحجاب) أو (الخمار) من الكلمات التى أصبحت تثير الكراهية.

وموضوع الإسلام المشوه فى ألمانيا يستحق وقفة خاصة..

وكلما وقعت فى أيدينا صحيفة أوروبية أو أمريكية نجد فيها مقالا يربط بين الإرهاب والإسلام.. وعندما أرادت صحيفة الفيجارو الفرنسية تحليل الموقف فى روسيا نشرت مقالا كتبته هيلين كارير فى ١٨ سبتمبر عام ١٩٩٩ قالت فيه: إن الحوادث الإرهابية التى شهدتها روسيا فى هذا العام وسببت حالة من الهلع والصدمة لدى الشعب الروسى كان مدبروها هم (الإرهابيين الإسلاميين) والشيشان هى المصدر لتوريد هؤلاء الإرهابيين الإسلاميين، وقد قال فلاديمير بوتين (وكان وقتها رئيس الوزراء ثم أصبح رئيس الدولة).. إن هناك مؤامرة دولية هدفها السيطرة على الدول الإسلامية التى كانت تابعة للاتحاد السوفيتى والهدف الحقيقى لهذه المؤامرة تهديد حدود روسيا الجنوبية، والشيشان هى الموطن الأصلى للإرهاب وهى فى نفس الوقت قاعدة لمؤامرة أوسع تمتد إلى أفغانستان، وهناك مخطط لشغل روسيا بحرب فى الشيشان كحرب الجزائر، وتشمل المؤامرة إقامة حكم إسلامى متطرف فى الشيشان. ويشير مقال الفيجارو إلى حركة الاستقلال فى الشيشان على أنها (إرهاب إسلامى) كما يشير إلى المخاوف من زيادة أعداد المساجد والجامعات الإسلامية والتعليم الدينى فى داغستان، وتوجه الاتهامات إلى السعودية لتبرعها لبناء المساجد وتشير إلى أن ما يحدث فى الشيشان صورة جديدة للإرهاب الدولى.

وهكذا يتم الخلط بين الإسلام والإرهاب، كما يتم الخلط بين حركات الاستقلال واعتبارها جزءا من (الإرهاب الإسلامى الدولى) أو جزءًا من مؤامرة إسلامية

كبرى ضد دول الغرب بما فيها روسيا، وكأن الإسلام والمسلمين فقط هم وحدهم الذين يحركون الفتن ويدبرون حوادث الإرهاب فى جميع أنحاء العالم.

ونعود إلى الصحافة الأمريكية وإلى بعض ما كتبه توماس فريدمان وهو كاتب معروف بأنه قريب من البيت الأبيض ووزارة الخارجية والمخابرات الأمريكية، فنجده فى مقال فى صحيفة نيويورك تايمز يوم ١٧ ديسمبر ٢٠٠١ بعنوان (لإنهاء التعصب مطلوب حركة تنوير إسلامى) يقول فيه: لقد قمت مؤخرا أنا وأصدقائى بتأسيس جماعة يهودية جديدة، وعقدنا اجتماعنا فى الكنيسة المجاورة وهذا هو التسامح الدينى فى أمريكا، وإن كان فى أمريكا بعض التعصب الدينى فإنه ليس القاعدة، بينما يتباهى أسامة بن لادن بقيامه بجرائم القتل الجماعى، وهناك آلاف من شيوخ المسلمين يتعاطفون مع الدكتاتورية الدينية ونحن حتى الآن لم نضع خطة لتغيير تفكيرهم، والجميع يتساءلون ما هى الدولة التى سوف تهاجمها أمريكا بعد أفغانستان.. العراق أم الصومال؟.. وما يهمنا أن يبدأ المسلمون بأنفسهم بإصلاح الإسلام بطريقة تجعله متوافقا مع التعليم الحديث، ومع التسامح الدينى، وقبول التعددية. ويشير توماس فريدمان إلى برنامج فى قناة الجزيرة تساءل فيه المتحدث: لماذا لا يتمتع المسلمون بالتسامح؟.. لماذا لغة الكراهية فى كل الخطب الدينية وكل الكتب المدرسية ونحن لا نحتاج إلى أن تتدخل أمريكا وتقوم بتعليمنا أصول العبادة، ولكننا نحتاج إلى عوامل قوية تدفعنا إلى تغيير المناهج والدروس الدينية التى تدعو إلى التطرف.

مقال توماس فريدمان يدس بين السطور أن الإسلام دين تعصب ودكتاتورية وعنف، ويحرض أمريكا من طرف خفى على التدخل بالقوة لتغيير نظم الحكم ومناهج تدريس الدين الإسلامى وفقا للمفاهيم الأمريكية، وفى مقال آخر فى نيويورك تايمز أيضا فى ٦ مايو ٢٠٠٢ بعنوان (الشباب المسلمون لديهم صورة مشوهة) يقول فيه: إن أعدادًا كبيرة من المسلمين يشعرون بالغضب من أمريكا وإسرائيل لأن إسرائيل تجاوزت الحدود، والمسلمون نفد صبرهم، ولأن المسلمين ينظر إليهم فى أمريكا على أنهم قتلة ويعاملون فى أمريكا على أنهم إرهابيون

ويوجه إليهم اللوم على شيء لم يفعلوه، وأيضا لشعورهم بأن وسائل الإعلام الأمريكية تقوم بنشر صورة مشوهة عن الإسلام، والإعلام الأمريكى منتشر ومؤثر فى العالم. ويقول توماس فريدمان: إن الدول الإسلامية فشلت فى فهم التحديث ولا شك أن نشر الديمقراطية فى العالم الإسلامى سيساعد على اقتلاع الإرهاب وفهم المسلمين للحقائق، ولكن ذلك لن يحدث قريبا، وبدلا من أن يطالب أمريكا بمراجعة موقفها المعادى للحق العربى والمؤيد للاحتلال والعدوان الإسرائيلى فإنه يطالبها بعدم عرض مشاهد الاعتداءات الإسرائيلية على شاشات التليفزيون حتى لا يشاهدها العرب، ويرى أن ذلك كفيل بإزالة جانب من كراهية المسلمين لأمريكا وإسرائيل. ويطالب أمريكا بأن تبذل جهدا أكبر فى الإعلام والدعاية فى العالم الإسلامى لإزالة الغضب الذى يشعر به المسلمون تجاهها لأن الغضب الأعمى يمكن أن يتحول إلى سلاح للدمار الشامل، وحماية أمريكا من هذا الغضب لا يقل أهمية عن مشروع حمايتها بحائط الصواريخ الذى سيتكلف عشرات المليارات من الدولارات.

وفى مقالة بعنوان (المسلمون يؤخرهم غضبهم) فى نيويورك تايمز يوم ٧ مارس ٢٠٠٢ كتب توماس فريدمان مندهشا لماذا يسكت المسلمون عندما يقتل الهندوس ٦٠٠ مسلم هندى. ويثورون عندما يقتل الإسرائيليون ١٢ مسلما فقط فى يوم واحد؟

ويفسر فريدمان أزمة المسلمين بأنها ترجع إلى سبب عميق جدا يتعلق بالاختلاف بين مفهوم المسلمين عن الإسلام بأنه الدين الأكثر كمالا ومثالية بين أديان التوحيد وبين ظروف الفقر والقمع والتخلف التى يعيش فيها معظم المسلمين اليوم. ويذكر أن أحد الدبلوماسيين الأمريكيين فى الشرق الأوسط قال له إن وجود إسرائيل يذكّر المسلمين بضعفهم، ويجعلهم يتحسرون على أحوالهم: كيف أن دولة يهودية صغيرة استطاعت أن تجمع بين القوة الاقتصادية والقوة العسكرية بينما يؤمن المسلمون بأنهم هم الأقرب إلى الرب؟.

ويتساءل فريدمان لماذا يغضب المسلمون من السياسات الأمريكية ويمارسون الإرهاب الانتحارى ضدها؟.. هل السبب هو تأييد أمريكا لإسرائيل؟.. بينما ليس أمام المسلمين إلا أن يتركوا الغضب.

هكذا ينظر فريدمان إلى قضية المصير الفلسطيني بمثل هذا الاستخفاف ويصور الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين على أنه صراع دينى بين اليهود والمسلمين ويتعمد إنكار الحقيقة وهى أن الصراع صراع سياسى على أرض يريد أصحابها استعادتها وتريد إسرائيل اغتصابها بالاحتلال فى زمن انتهى فيه الاحتلال فى العالم.

قبل ذلك وفى ١١ فبراير ٢٠٠٢ كتب توماس فريدمان فى نيويورك تايمز أيضا مقالا بعنوان (المسلمون يحتاجون إلى الوصول إلى إجابات أفضل) قال فيه إنه سئل: هل اليهود وراء الحملات الإعلامية لتشويه الإسلام؟. فأجاب بأن الغضب الأمريكى من المسلمين بسبب الإرهاب الإسلامى الذى يقوده أسامة بن لادن. والعالم الإسلامى لا يريد أن يواجه الأسباب الحقيقية للفشل الذى أصابه فلم يحقق التنمية الاقتصادية، ولا التعليم الجيد، ولا التقدم العلمى والتكنولوجى، ولا الديمقراطية. وبدلا من أن يتحمل المسلمون المسئولية عن هذا الفشل هم وقادتهم فإنهم يرجعون كل مشاكلهم وأسباب الإحباط الذى يعانون منه إلى مؤامرة ضد المسلمين.

ثم يردد توماس فريدمان النغمة التى تتردد فى الإعلام والفكر الغربى عند الحديث عن الإسلام والمسلمين، والتى تدل على النظرة الاستعلائية والعنصرية والتشويه المتعمد، بادعاء أن المسلمين فى العالم هم الذين يجمعون بين الجهل والتخلف، والدكتاتورية، والإرهاب، بينما الغرب هو الذى يعيش بالقيم الديمقراطية وحرية الرأى ولذلك حقق التقدم وازدهرت حضارته.

فى هذا السياق نشرت صحيفة الفيجارو الفرنسية دراسة عن الإسلام قالت فيها: إنه دين لم يعرف التسامح أبدا، والمسلمون يلجئون إلى المغالطة حين يقولون: إن دينهم قائم على التسامح، وقالت إن الرسول كان يتخلص من أعدائه عن طريق القتل المبرمج! وفى تفسيرها للقرآن الكريم قالت: إنه تضمن آيات ملغاة (منسوخة). وتزعم هذه الرسالة أن ٤٣ سورة فقط هى التى لم يشملها الإلغاء أو النسخ من ١١٤ سورة يشملها القرآن! وإن الآية التى تنص على أنه ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ (سورة البقرة-٢٥٦) ضمن الآيات التى تم إلغاؤها أو نسخها وعلى ذلك يجب ألا يُعتمد عليها للقول بحرية العقيدة فى الإسلام!.

وتزعم الدراسة أيضا أن القرآن فيه آيات عديدة تفرض على المسلمين الجهاد ضد غير المسلمين لإجبارهم على اعتناق الإسلام! وتدعى أن الآية﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ نزلت فى مكة حين كان الإسلام ضعيفا. ولكن عندما قوى اختلفت اللهجة ونزلت ما أسمته الصحيفة(آية السيف) وهى الآية التى تقول: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ (سورة التوبة-٢٩) وتقول الصحيفة: إن هذه الآية هى الأكثر عنفا ضد أهل الكتاب. وتقول أيضا: إن أسلوب العنف المسلح يحظى بالإجماع بين كل فقهاء الإسلام وعلماء الشريعة، وتصل الصحيفة إلى أن الإسلام يدعو إلى العنف المسلح وإعلان الحرب على غير المسلمين.

ويوم نشرت الفيجارو هذه الدراسة أرسلها السفير على ماهر سفير مصر فى فرنسا فى ذلك الوقت إلى أمين عام رابطة الجامعات الإسلامية فى ذلك الوقت الدكتور جعفر عبد السلام للرد على هذه الافتراءات، وتم تشكيل لجنة من عدد من أساتذة الأزهر أعدت تقريرا كشفت فيه تزييف الفيجارو لحقيقة الإسلام.

وقالت اللجنة فى ردها: إن منهج الدعوة الإسلامية ليس كما تدعى الصحيفة بالقوة والسلاح والإرهاب ولكن (بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) كما أمرهم الله. وإن الجهاد مقرر لحماية حرية العقيدة ضد من يعتدى عليها، وضد الفتنة فى الدين، ورد العدوان على الوطن الإسلامى، وحروب الرسول ﷺ لم تكن ضد المخالفين فى الدين إلا حين كانوا يعتدون على المسلمين فكان الجهاد لرد العدوان، أو بسبب سعيهم نحو فتنة المسلمين وردهم عن دينهم، فكلها حروب دفاعية لا كما يقال الآن.

أما موضوع النسخ فلم يحدث إلا فى الفروع، ولم يحدث فى أصول العقيدة مثل التوحيد، والإيمان بالله وكتبه ورسله دون تفرقة بين أحد من رسله. والآيات المنسوخة تعد على الأصابع مثل نسخ اتجاه القبلة تجاه بيت المقدس، ومثل تقديم صدقة عند مناجاة الرسول ﷺ. أما ادعاء الدراسة بأن الآية ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾

نزلت في مكة حين كان المسلمون فى حالة ضعف ونسخت عندما أصبحوا أقوياء فى المدينة. فإن هذا يكذبه أن سورة البقرة التى تضمنت هذه الآية من السور التى نزلت فى المدينة، فما تقوله الصحيفة كاذب من أساسه.. أما موضوع (الجزية) التى يرددها البعض فى الدعايات المضادة للإسلام: فإن الجزية فرضت حين كان غير المسلمين لا يشاركون فى الدفاع عن البلاد. والمسلمون هم الملزمون بالدفاع عنهم، والمسلمون يدفعون الزكاة، والجزية تقابل الزكاة، وليست مفروضة على الشيوخ ولا على النساء ولا على ذوى العاهات والمرضى، بل مقصورة على الشباب فى سن التجنيد، وهى تمثل ضريبة دفاع بينما يتم تجنيد الشباب المسلم لكى تتوازن الحقوق والواجبات فى الدولة بين المسلمين وغير المسلمين.

وما تقوله الصحيفة عن إجماع أهل الفقه والشريعة الإسلامية على العنف المسلح فليس فى الكتاب والسنة ما يدعو إلى ذلك، بل فيهما تأكيد على احترام المواثيق والمعاهدات والجنوح إلى السلم. وأخيرا فإن الجهاد مشروع فى القانون الدولى الحديث لرد العدوان والآيات التى تدعو للتسامح آيات محكمة وليست منسوخة.

ولكن ما قالته الفيجارو وصل إلى الفرنسيين ولم يلتفت منهم إلى رد الأزهر غير قلة لا تذكر.

وما زالت الحملة لتشويه الإسلام مستمرة!

مشكلة توماس فريدمان وغيره من أبواق الدعايات الأمريكية أنهم يتناولون القضايا بطريقة سطحية حتى إنه يعتبر منع عرض مشاهد قتل الفلسطينيين يكفى لنزع فتيل الكراهية للاحتلال الإسرائيلى. وإن حملات الدعاية الأمريكية تكفى للتغطية على ما ينشر فيها وفى أوروبا عن الكراهية ونزعة العداء فى الغرب للإسلام والمسلمين وإلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام، والقول بأن الحرب العالمية الثالثة ستكون بسبب الإسلام وستكون حربا من الغرب على الدول الإسلامية..

من أقوالهم.. وصحافتهم.. أليس من حق المسلمين أن يشعروا أنهم بالفعل (أمة فى خطر)! ومن مواقف كبار المسئولين فى الإدارة الأمريكية.. أليس من حق المسلمين.. بل من واجبهم أن يشعروا بالخوف من نواياهم المعلنة، وتهديداتهم للدول الإسلامية واحدة بعد الأخرى؟.

مَنْ يهدد مَنْ ؟

عندما كان بنيامين نيتنياهو رئيس وزراء إسرائيل الأسبق يتحدث أمام تجمع يهودى فى لندن فى صيف ٢٠٠٢ قال: إن إسرائيل فى معركة توراتيــة، وكشف بذلك عما فى أعماقه من أن الصراع العربى الإسرائيلى ليس صراعا سياسـيا فقط، ولكنه فى قرارة نفسه يؤمن بأنه فى جوهره صراع دينى وأن التوراة هى المرجعية الإسرائيلية فى هذا الصراع !.

هل مثل هذا الطرح هو أحد تطبيقات نظرية صراع الثقافات التى انتشـرت فـى الفكر الأمريكى وأصبحت المحرك لمفكـرين وسياسيين وعسكريين يعربون بشـكل أو بآخر عن أن (الإسلام هو العدو)؟! .

ميشيل هولبيك، كاتب فرنسـى، كتـب روايـة كلـها إساءة إلى الإسـلام، وفـى حديث صحفى قال: إن الإسلام أكثر الأديان غباء، وإن قراءة القـرآن تبعـث علـى الملل. ولا أحد يعرف ما هى مناسبة مثـل هـذا الكـلام إلا أن يكـون مسـاهمة فـى (الحرب على الإسلام).

ونعـود لنسـتكمل الدراسـة المطولـة التـى نشـرتها (الإيكونومسـت) فـى عدد ٦ أغسطس ١٩٩٤ ولم تلفت نظر أحد من المسئولين عـن المؤسسـات الإسـلامية الكثـيرة فـى داخـل وخـارج الـدول الإسـلامية، تحـت عنـوان: (اليـد الخفيـة، واليد الخفية) تقـول الدراسـة: إنـه بعـد تحديـد السـبل التـى تـؤدى إلى تغيـير المسلمين، لكى يصبـح الإسـلام والغـرب شـركاء فـى القـرن الحـادى والعشـرين، فإن الغرب عليه دور يجب أن يقوم به، عليه أن يحدد مـا تريـد أمريكـا وأوروبـا تحقيقه من علاقتهما مع الإسلام. وفى الشق الخـاص بالسياسـة الخارجيـة علـى الغرب أن يستعد للتعـامل مـع الحقيقـة المزعجـة، وهـى أن الإسـلام علـى وشـك الدخول فى مرحلة الانقلابات السياسية المفاجئة!.

فكثير من الدول الإسلامية تفتقد الديمقراطية، وتقودها حكومات غير محبوبة وتفتقر إلى الكفاءة، ولا تُحكم قبضتها على الأمور، ولن يدوم الوضع الراهن طويلا، وإن كان الوضع الراهن - مع الأسف - يبدو مرضيا ومريحا للغرب، خاصة وأن للغرب، ولأمريكا، تفاهما مشتركا مع معظم حكومات المنطقة، ومن ثم فلا يفكر الطرفان في التغيير. والقوة قد تؤدى إلى قلب الكثير من الحكومات القائمة، وتثبت الحركات الإسلامية أنها حليف دائم للغرب، وأن سقوط الوضع الراهن سيؤدى على المدى القصير إلى كثير من النزاعات الغاضبة، إذا تعرضت المصالح الجوهرية للغرب في المنطقة للخطر، مثل سوق حرة للنفط، أو المرور الآمن بحرا وجوا، فإن الغرب سوف يتحرك للدفاع عن هذه المصالح، ولكن لابد أن يضع الغرب في اعتباره أن هذه المنازعات من المصاعب المعتادة لكل مرحلة انتقالية، وعندما تنتهى المرحلة الانتقالية يصبح الهدف هو إقامة علاقات سلسة بين الغرب و (الإسلام الحديث).

وتحت عنوان (الحاجة إلى تقليل التحول إلى رذاذ) تقول الدراسة: إن العنصر الثاني من مساهمة الغرب هو أن على الغرب أن يدرك أن ما يراه شاذا في الإسلام كان له وضع مماثل في التاريخ القديم للغرب، ويمكن للغرب أن يتفاعل مع الجانب الخاص بالاقتصاد في الإسلام، وهو يقوم على أن السوق الحرة لا يعنى أن تكون السوق بلا ضوابط، ولكنها تخضع لضوابط غير اقتصادية، وهناك اتجاه في الغرب نحو هذا المفهوم، كذلك فإن الغرب هزم الشيوعية وانتهت الحرب الباردة بفكرتين هما: السوق الحرة، والديمقراطية، وأساسهما أن الفرد وحرية الفرد والجهد الفردى هي المحركات للفرد والمجتمع. ولكن بدأ هذا الاتجاه ينقسم إلى اتجاهين: اتجاه ينادى بترك العنان للحرية الفردية بغير حدود، على أساس أن هذا يرفع درجة الكفاءة، والاتجاه الثاني ينادى بوضع ضوابط وقوانين تتحرك في إطارها طاقات الفرد لتشجيع الناس على العمل من أجل تبادل المنافع، ولحماية غير القادرين في نفس الوقت، ويمكن تسمية هذا الاتجاه (اليسار الجديد) وهذا اليسار الجديد ينظر إلى الإسلام برضا، ومن وجهة النظر هذه تبدو الحياة وكأنها رذاذ، ففى مجال الأعمال هناك تكنولوجيا حديثة جعلت كثيرا من الناس يقضون كل وقت العمل وحدهم كأفراد وليسوا أعضاء فريق،

وحتى داخل البيت فإن التكنولوجيا جعلت كل فرد يجلس وحده فى عزلة أمام كمبيوتر أو تليفزيون.

ونتيجة تحول الناس إلى أفراد كالرذاذ فى أوقات العمل وأوقات الفراغ نشأت ظاهرة تفكك الأسرة، حتى إن ٤٠٪ من الأمريكيين يعيشون وحدهم بدون أسرة، أو مع أحد الوالدين فقط (بعد تزايد حالات الطلاق والعلاقات بدون زواج)، كما تزايدت ظاهرة الانتقال من المدن الصغيرة إلى المدن الكبرى مما يعنى مزيدا من العزلة، ولقد دفع كل فرد فى الغرب فاتورة التشرذم، أو التحول إلى رذاذ، ويبدو أنه مع الزمن اعتاد الناس على التكيف مع الحياة الفردية، فى جمع المال، وفى إنفاقه أيضًا، لكن كثيرًا منهم لم يستطع التكيف، والدليل أن العلاقات بين الناس جعلت كل فرد وحدة ولا أحد ينتمى إلى أحد، وكلما قل انتماء الناس لبعضهم زادت القسوة والعنف، وتزايد وجود السلاح فى الأيدى، وأصبح متوافرا، وزادت العوامل التى تفقد الإنسان السيطرة على نفسه مثل الخمور والمخدرات، ولم تعد الحياة فى الغرب ممتعة كما كانت فى القرن ١٩ عند نشأة الطبقة المتوسطة، أما الطبقة المتوسطة الجديدة فإنها تشعر بأن الحياة أصبحت محفوفة بالمخاطر وأكثر وحشية، ولذلك فإن على الغرب أن يبحث عن وسيلة لوضع الدوافع الإنسانية والروح الخلاقة اللازمة للتقدم فى إطار من النظام الأخلاقى الذى هو الوسيلة الوحيدة لمعنى (التقدم).. والدين هو القوة التى تعمل على تشكيل هذا النظام الأخلاقى، ويبدأ بالإيمان بالله، ثم بالتفرقة بين الصواب والخطأ، وإلا فإن الغرب سيعيش فى آلة غاية فى الكفاءة لكنها بلا هدف.. ولكن القول دائما أسهل من الفعل، والذين يعملون على بناء (اليسار الجديد) يعترفون بأنهم مازالوا فى المراحل الأولى التى يتم فيها تطبيق مفهومهم عن الأخطاء فيما يدور حولهم من أحداث، ويبقى عليهم أن يتأكدوا أن مايعتقدون أنه الصواب يتفق مع دورة التاريخ التى بدأت بالإصلاح منذ القرن السادس عشر.

وتحت عنوان (وخزة فى الضلوع) تقول الدارسة: إن حركة الإصلاح فى أوربا حررت طموح الفرد وبذلك نشأ (الغرب الحديث) بما فيه من رأسمالية وديمقراطية، ولكن على مدى قرنين بعد الإصلاح ظلت هذه الروح تعمل داخل

هيكل من الانضباط المسيحى، ولكن مع حقبة التنوير فى القرن الثامن عشر انهار هذا الانضباط، وبدأ الناس يؤمنون بأن العقل الإنسانى قادر على الإجابة عن كل الأسئلة، فحدث اكتفاء ذاتى للجنس البشرى، وبدأ عصر اليقين العلمى، بما فيه من دعوى كارل ماركس المدمرة فى القرن التاسع عشر الذى زعم أنه اكتشف (اليقين السياسى).

وجاء انهيار اليقين الماركسى ليترك دوامة الطاقة الفردية للإنسان خارج إطار أى توجيه أخلاقى فى السياسة والاقتصاد، ومهمة اليسار السياسى الجديد إقامة نظام أخلاقى من جديد.

تقول الدراسة: عندئذ سيقول المسلمون: (مرحبا بعودتكم) إذ إن الملامح المميزة للإسلام عن كل الحضارات والثقافات العالمية هو إيمان الإسلام بأن حياة الإنسان اليومية المحسوسة تحيطها قوة أخرى غير مرئية، والاثنان مرتبطان برباط وثيق جدا، ولقد كان الغرب فى الماضى يؤمن بذلك، ولكن فى الوقت الحالى لم يعد بعض الغربيين وكثير من الأمريكيين يعملون على توثيق هذا الارتباط، وإذا استطاع الغرب إعادة هذا الارتباط أصبحت الفرصة أمامه أفضل لعلاج المشاكل، وأصبحت الفجوة أقل بين الغرب وعالم الإسلام الذى يضم ١٢٠٠ مليون مسلم.

وتنتهى الدراسة أخيرًا إلى أن الفارق كبير بين الحضارتين الإسلامية والغربية، والخلاف بينهما على مفهوم الله باعد السبل التى سار فيها كل منهما، وصار بينهما تاريخ دموى، وأصبح الالتقاء صعبا، إلا إذا توقف الإسلام والغرب عن النظر إلى الآخر على أنه متعصب وبلا أخلاق!، واحتكاك الغرب بالمسلمين قديما ساعد الغرب على التقدم، والآن، وبعد خمسة قرون، فإن الغرب عليه أن يساعد الإسلام على تحديث نفسه.

خلاصة هذا الجزء من الدراسة أن الغرب عليه تغيير الإسلام لكى يصبح مؤمنا بالقيم الغربية وبالنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية الغربية وبذلك يمكن للغرب التعامل معه.

وفى ذات العدد من (الإيكونومست) كتب جورجين نيلسين مدير مركز دراسات الإسلام والعلاقات الإسلامية المسيحية فى كليات سيلى أوك فى

برمنجهام يقول: إن المتطرفين الإسلاميين يخفون عنا رؤية وجه الإسلام المعتدل السائد بين أغلبية المسلمين، وإنه يعتقد أن الأغلبية الصامتة من المسلمين يتحررون اليوم من الاتجاهات المحافظة، ويستشهد بحديث للدكتور يوسف القرضاوى قال فيه: إنه من الضرورى تنمية مفهوم شامل جديد للشريعة الإسلامية بآراء مختلفة، ثم نبقى قلبا واحدا وتكون الأولوية للتجديد فى الفكر الإسلامى، والدكتور يوسف القرضاوى تخرج فى جامعة الأزهر، وتولى مناصب أكاديمية فى الكليات الإسلامية فى الخليج، وله تأثير على الشباب من شمال أفريقيا المقيمين فى فرنسا، وقد اتهمه بعض زملائه فى الأزهر منذ سنوات بأنه متطرف لأنه أعلن أن الشريعة الإسلامية لا تحكم بالإعدام على المرتد، وليس هو وحده الذى قال ذلك ولكن هناك من يرى هذا الرأى، وقد سبق أن أعلن الدكتور حسن الترابى - أمين الجبهة الإسلامية القومية فى السودان - عن معارضته لقرار الخومينى بإهدار دم الكاتب سلمان رشدى لارتداده عن الإسلام، واستند إلى ما جاء فى القرآن﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ ﴾ وأعلن عن هذا الرأى أيضا الدكتور راشد الغنوشى زعيم حزب النهضة الإسلامية فى تونس، ولكن تنفيذ هذه الآراء أمر شديد التعقيد، لأن الجبهة الإسلامية فى السودان هى التى أدخلت عقوبة الإعدام للمرتد عندما تولت السلطة ولذلك يمكن وصف الدكتور الترابى بالانتهازية. من ناحية أخرى تبدو ملامح تقدم ديمقراطى وثقافى فى المنطقة، يؤكد اهتمام الزعماء السياسيين والدينيين بالرأى العام، وهذا يفتح الباب للمثقفين فى الصحف ومحطات التليفزيون الفضائية الجديدة التى تبدو بعيدة عن سيطرة الحكومات لمناقشة قضايا مهمة مثل حقوق الإنسان، والديمقراطية والفقر، والثروة، وأوضاع المرأة، وهؤلاء الشباب ممن يحاولون كسر القيود المفروضة وكسر الجمود فى الفكر الإسلامى مع تقبلهم للأفكار القادمة من أمريكا وأوروبا، وتقول الدراسة: لقد أساء التطرف إلى الإسلام، وسادت حالة من نفاد الصبر تجاه هذا التطرف، وبالإضافة إلى ذلك فقد المتطرفون مصداقيتهم فى دول مثل مصر ولبنان، ونتيجة لذلك أصبح للمعتدلين كلمة مسموعة وأصبحوا هم المعبرين عن تراث الإسلام عن السماحة والاعتدال، وقد

أثبتت التجارب أن الدموية والعنف الذى تعمل به الجبهة الإسلامية في الجزائر، والنظام الإيراني وعبثية حكم طالبان في أفغانستان.. كل ذلك يبدو أنه يقترب من نهايته.

ويقول جورجين نيلسين في مقاله: إن الذعر من (صراع الحضارات) بدأ عندما أعلن البروفيسور صمويل هنتنجتون هذه النظرية وقال: إن العالم بعد أن انتهت الحرب الباردة وسقوط حائط برلين سيشهد صراعا بين الغرب والإسلام، وبدأ تداول فكرة أن الإسلام هو العدو. عن رؤيته للمسلمين الآن يقول: لقد حل التعب بالجيل القديم من علماء المسلمين لأنهم لم يحصلوا على الخير الموعود رغم تأييدهم للفساد والقهر في الأنظمة الحاكمة، ولم يعد إحساسهم بالغبن للمؤامرة العالمية في فلسطين تأثير على الأجيال الجديدة من أبنائهم وأحفادهم الذين تشغلهم قضايا الاقتصاد والثقافة الدولية تحت سيطرة أمريكية واضحة في النظام العالمي الجديد.. وحتى الآن لم تحسم المعركة بعد، فلازالت هناك حركة لأنصار الاتجاهات الإسلامية التقليدية يشتد عودها كلما انحازت أمريكا إلى إسرائيل.

من أشهر من كتب عن رؤية الغرب للإسلام الباحث الأمريكي الشهير جون اسبوزيتو، وأهم كتبه بعنوان (التهديد الإسلامي أسطورة أم حقيقة) وقد صدرت له أخيرًا ترجمة إلى اللغة العربية للدكتور قاسم عبده قاسم، يقول في سطوره الأولى: إن هناك من يظنون أن الحرب بين الغرب والمسلمين ستكون البديل للحرب بين الغرب والشيوعية، ويتساءل: هل الإسلام والغرب على طريق تصادم حتمي؟.. وهل الأصوليون الإسلاميون متعصبون من النوع الذى عرفته العصور الوسطى؟.. وهل الإسلام والديمقراطية لا يتوافقان؟.. وهل تشكل الأصولية الإسلامية تهديدا للاستقرار في العالم الإسلامي وللمصالح الأمريكية في المنطقة؟.. ويقول: إن هذه الأسئلة الحرجة نتيجة تاريخ غلب عليه الصراع وعدم الثقة المتبادلة، فمن آية الله الخوميني إلى صدام حسين وطالبان بأفغانستان. وعلى مدى عقدين تقريبًا، كانت رؤية الأصولية الإسلامية، أو (الإسلام المقاتل) تهديدًا للغرب استحوذ على تصورات الحكومات الغربية، فإدانة الخوميني لأمريكا باعتبارها (الشيطان الأكبر) ودعوة صدام (للجهاد) ضد الكفرة الأجانب،

وهتافات (الموت لأمريكا) وإدانة سلمان رشدى وروايته (آيات شيطانية) كل ذلك أعاد صورة الإسلام المقاتل باعتباره دين الغزو والتوسع، المعادى للأمريكيين، الذى يضمر العزم على شن الحرب على الغرب، وعلى الرغم من وجود جذور ومعتقدات دينية مشتركة فإن العلاقات الإسلامية - المسيحية على مدى التاريخ كانت تشوبها الصراعات حينما كانت الجيوش والدعاة من العالم الإسلامى، والمبشرون من العالم المسيحى، يتصارعون من أجل النفوذ، وهذه المواجهات تضمنت أحداثا مثل هزيمة البيزنطيين الأوائل (الرومان الشرقيين) على أيدى المسلمين فى القرن السابع، والمعارك الوحشية وفظائع الصليبيين خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر، وطرد المسلمين من أسبانيا، ومحاكم التفتيش، والتهديد العثمانى لأوروبا، والتوسع الاستعمارى الأوروبى (المسيحى)، والهيمنة التى شهدها القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، والتحدى السياسى والثقافى للقوى العظمى (أمريكا والاتحاد السوفيتى) فى النصف الأخير من القرن العشرين، ثم خلق دولة إسرائيل، والمنافسة الجارية الآن بين المبشرين المسيحيين والدعاة المسلمين، ثم الاستخدام المعاصر للإسلام فى الشئون السياسية.

هكذا يلخص جون اسبوزيتو جذور الصراع بين الغرب والإسلام ولكن دون أن يستخلص من هذا العرض السريع للتاريخ أن الغرب غالبا كان هو المعتدى من الحرب الصليبية إلى الاحتلال ثم الهيمنة الاقتصادية والسياسية.. الخ.. ولكنه فقط يركز على أن (الأصولية الإسلامية) هى التى تعتبر التهديد الأكبر للاستقرار الإقليمى فى الشرق الأوسط، والخطر على المصالح الغربية فى العالم الإسلامى، فالثورة الإيرانية والهجمات على السفارات الغربية، وخطف الطائرات والرهائن، والأعمال العنيفة التى تقوم بها جماعات مثل (جند الله) و (الجهاد) و (حزب الله) و (الناجون من النار) تشير إلى أن هناك (الإسلام المقاتل) فى طريقه إلى الصدام مع الغرب، كما أن القلاقل التى شهدتها الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى السابق، وفى كوسوفو بيوغوسلافيا، وفى كشمير، وفى سينكيانج بالصين، وفى الضفة الغربية وغزة، ومحاولة صدام حسين ضم الكويت، كل هذه الأمور فرضت صورا للإسلام على أنه ينطوى على نزعة توسعية، وإمكانية التفجر فى الأوساط السياسية العالمية.

ويقول جـون اسـبوزيتو إن الفـراغ النـاتج عـن انتـهاء الحـرب البـاردة تملـؤه المخاوف من الإسلام باعتباره (إمبراطورية الشر) الجديدة والمشتبك فى حرب مع النظام العالمى الجديد ويقول أيضا: إن افتتاحيات ومقـالات الصحـف فـى الغـرب تعكس الاعتقاد بأن الصدام بين القيم والحضارات سوف يؤدى إلى مواجهة خطيرة بين الإسلام والغرب، وهذه الحمـلات الصحفيـة تحمـل عنـاوين مثـل: (مـازالوا يحاربون الحملات الصليبية) و (الهلال الجديـد فـى أزمـة) و (الإسـلام الصـاعد ربما يهيمن على الغرب) و (جذور الغضب الإسلامى) و (الحرب الإسـلامية ضد التحديث) و (ذروة الأزمة: صدام الحضارات).. ومثل هذه العبارات تستولى على الانتباه وتستحوذ على الرأى العـام، وتشـوه الإسـلام، وتكـرس التنميـط الثقـافى للعرب والمسلمين، فبالنسبة للكثيرين فـى الغـرب فـإن العـرب فـى نظرهـم بـدو وشيوخ البترول، يعشقون الصحراء والنساء، وأنهم شعب انفعالى وغير عقلانـى، وغالبا ما تتم المساواة - بين الإسلام، والجهاد - والكراهية، والعنف، والتشدد، وقهر المرأة. ويؤكد جون اسبوزيتو أن قـادة الـدول الغربيـة عندمـا كـانوا يعـدون لتشكيل النظام العالمى الجديد تصاعدت فكـرة اعتبـار الإسـلام هـو العـدو العـالمى الجديد المتكتل ضد الغرب، وبالنسبة لبعض الأمريكيين الذين يبحثون عـن عـدو جديد يختبرون قوتهم ضده خاصة أنه بعد انتـهاء الشيوعية اعتـبر الإسـلام هـو الخصم، فالإسلام، والحركات الإسلامية يمثـلان التحـدى الدينـى والأيديولوجـى والخطر المحتمل ضد المسيحية والغرب. وصناع السياسة الأمريكيون، شأنهم شأن وسائل الإعـلام، يصـورون العـالم الإسـلامى والحركـات الإسـلامية كتلـة واحـدة صماء، ولا يرونها إلا على أنها التطرف والإرهاب.

يقول جون اسبوزيتو عن (جـذور الصـراع بـين الإسـلام والغـرب): إن النجـاح والتوسع للإسلام كانا التحدى للغرب علـى المستوى الدينـى والسياسـى والثقـافى وشكل تهديدا للغرب المسيحى، وكل من الإسلام والمسيحية لديـه شـعور برسـالة ومهمة عالمية، ولذلك كان محتما أن يؤدى ذلـك إلى المواجهـة بـدلا مـن التعـاون، وذلك أيضا بسبب تاريخ طويل كان العالم المسيحى خلاله يوجه السباب إلى النبـى (ﷺ) وإلى الإسلام الذى كانت صورته مشوهة جدا بالنسبة لهـم، وبسـبب تـاريخ حديث وضع الإسلام خلاله على قدم المساواة مع الإرهاب والتطرف. قديمًا جـاءت

الحروب الصليبيــة المثــال الأوضح للمسيحية العسـكرية، وهـذه الحـروب التـى أخذت اسمها من (الصليب) سلسلة من ثمانى حملات عسـكرية تمتـد مـن القـرن الحادى عشـر إلى القـرن الثـالث عشـر تم فيـها تعبئـة العـالم المسيحى (جيـوش الفرنجة) ضد الإسلام (جيوش المسلمين) ويمثل القرن الحادى عشر منعطفا مـهما فى العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامى، فقد كـان الغـرب حتـى القـرن الحـادى عشر، متخلفا أميا، يدافع عن نفسه بصعوبــة ضـد هجمـات الـبربر، بينمـا كـان الإسلام على امتداد أربعة قرون يتمتع بسلام داخلى وأمن، وبعيدا عــن الحـروب المحلية، تمكن من بناء ثقافة وحضارة، ثم تحول الموقف تحولا دراميا، إذ أعيـد إحياء التجارة فى الغرب، وظهرت المـدن والأسـواق، وتزايـد السـكان، وظـهرت الفنون والعلوم على نطاق لم يعــرف منـذ أيـام الإمبراطوريـة الرومانيـة، وخـرج الغرب مـن العصـور المظلمـة ليشـن هجومـا مضـادا لطـرد المسـلمين مـن أسـبانيا، وإيطاليـا، وصقليـة، والمتوسـط فـى وقـت كـان العـالم الإسـلامى قـد بـدأ يواجـــه اضطرابات سياسية ودينية أضعفت قواه.

ويقول اسبوزيتو: إن القدس فى ذلك الوقت كانت مدينة مقدسة لكل الديانـات منذ الحكم الإسلامى لهــا عـام ٦٣٨، وتحـت الحكـم الإسـلامى تُركـت الشـعوب والكنائس المسيحية بدون إزعاج، وصارت المزارات المسيحية المقدسـة مواقـع حـج شعبية للعالم المسيحى، أما اليهود الذيــن كـان الحكـام المسـيحيون قـد حرموهـم طويلا من العيش فى القدس فقد سمح لهـم المسـلمون بـالعودة والعبـادة، ولم تكـد تنتهى الحرب الصليبية حتى واجهت أوربا مرة أخـرى قـوة التـهديد الإسـلامى ممثلة فى الإمبراطوريـة العثمانيـة وكـان الأتـراك العثمـانيون هـم الذيـن زرعـوا الرعب فى قلب أوروبا المسيحية لدرجة وصفهم بأنهم (الرعب الحـالى للبشـرية) وسـيطر العثمـانيون علـى دولـة البلقـان وأخضعوهـا، وكـانت سياسـتهم تجــاه المسـيحيين والأقليـات الدينيـة الأرثوذكـس مرنـة تتنـاقض تمامـا مـع التطــرف المتعصب فى الدول المسيحية فـى ذلـك الوقـت، وقـد اعتـاد الفلاحـون البلقـانيون المسيحيون فى زمن حكم محمد على لمصر القول بأن عمامة التركى أفضل من إكليل البابا. وعلى الجانب الآخر بدأ الهجوم على الإسلام والمســلمين، والنتيجـة التـى يصل إليها جون اسبوزيتو أن الصـدام لم يكـن فـى حقيقتـه دينيـا بـين المسيحية

والإسلام في الحروب الصليبية أو ضد الأتراك، ولكنه كان بسبب المصالح السياسية والاقتصادية..

ويقول: إن عصر الإصلاح الديني في أوروبا جاء بنوع آخر من العداوة عبر عنها مارتن لوثر بقوله: (إن الإسلام حركة من العنف في خدمة المسيح الدجال، ولا يمكن تنصير المسلمين لأنهم أغلقوا باب العقل، ولا تمكن مقاومة الإسلام إلا بالسيف).. وفي القرون الأخيرة ظهرت دراسات وكتب عدائية عن الإسلام.. مثل كتاب فولتير (التعصب أو محمد النبي) صور النبي محمد (ﷺ) طاغية دينيا، وأعلن المستشرق الشهير أرنست رينان أن الإسلام لا يتوافق مع العلم، والمسلم لا يقدر على أن يتعلم شيئا، أو ينفتح على فكرة جديدة، ويقول اسبوزيتو: إن الإسلام أثبت أنه تهديد مزدوج ديني وسياسي، ولو لم يتم صد الجيوش الإسلامية في بواتييه في فرنسا وعند بوابات النمسا فربما صارت اللغة العربية هي لغة أوروبا.

وإذا كانت القرون العشرة الأولى مباراة غير متوازنة كانت المسيحية أثناءها تحت الحصار بالمعنى الحرفي، فإن بداية الاستعمار الأوروبي كان بداية تحول القوة، ومن بعدها حكم الاستعمار المسلمين وسيطر على عقولهم، وظل الاستعمار مستمرا في التأثير على العلاقات بين الغرب والإسلام حتى اليوم على نحو ما كشفت الثورة الإيرانية وحرب الخليج، وبقيت بعد ذلك صور الصليبيين والإمبريالية الغربية تراثا حيا، وتجربة حية في وعي المسلمين وفي خطابهم السياسي.

وتحت عنوان (الغرب الظافر) يتحدث عن الإسلام فيصفه بأنه يحمل تهديدًا محتملاً للغرب المسيحي.. وأيضًا بوصفه قوة رجعية ومصدرًا للتخلف والتدهور في العالم الإسلامي، هذه الصورة هي التي حكمت النظرة العالمية للاستعمار الأوروبي، وقدمت المبرر للموظفين الاستعماريين والمبشرين المسيحيين الذين كانوا الطليعة للتوسع الأوروبي والهيمنة الإمبريالية في العالم الإسلامي.. كانت الحضارة الغربية فخورة بنفسها ودفعها الشعور بالانتصار إلى احتقار كل ما هو غير أوربي، وأثبت الرجل الأبيض نفسه، وتجمع ضد أي شيء يأتي من الخارج.

وينقل موقف اللورد كرومر، المندوب السامى البريطانى فى مصر من ١٨٨٣ إلى ١٩٠٧ أثناء الاحتلال البريطانى لمصر بأن الإسلام ديانة توحيدية نبيلة، ولكنه كنظام سياسى كان فاشلا فشلا ذريعا، فالإسلام يضع النساء فى مكانة دونية، ويبلور الدين والفقه فى وحدة لا تنفصم ولا تتغير، ويسمح بالرق، واتجاهه العام التسامح إزاء الديانات الأخرى، ولا يشجع تطوير الفكر المنطقى، ومن ثم لا يكاد المسلمون يتطلعون إلى حكم أنفسهم أو إصلاح مجتمعاتهم.. ومع ذلك فإن الإسلام يمكن أن يولد شعورا جماهيريا يمكن أن يحطم الروابط التى أنشأها المصلح الأوروبى.

الخوف من (ثورة الإسلام) لم يكن بعيدا عن فكر كرومر كما ينقل اسبوزيتو، ويقول: إن الحالة المتدهورة للعالم الإسلامى جعلت منه هدفا واضحا للبعثات التبشيرية المسيحية، وكانت الفكرة السائدة أن الإسلام بطبيعته يشجع الجمود الثقافى، ويعوق التطور..

ومع القرن التاسع عشر وجد المسلمون أنفسهم فى موقف دفاعى إزاء التوسع الأوربى، وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أصبح الغرب يمثل تحديا للإسلام على المستوى السياسى، والاقتصادى، والأخلاقى، والثقافى، وهدد الاستعمار والإمبريالية الأوروبية هوية الإسلام السياسية والدينية والثقافية، ومع بداية السيادة الأوروبية على العالم الإسلامى اهتزت صورة الإسلام ومكانته.

وكشفت خريطة العالم الإسلامى عقب الحرب العالمية الأولى مدى اتساع السيادة الأجنبية، فالفرنسيون فى شمال وشرق ومناطق خط الاستواء فى أفريقيا وشرق البحر المتوسط، والبريطانيون فى فلسطين وشرق الأردن والعراق ومصر والخليج العربى، وشبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا والملايو وسنغافورة وبروناى، والهولنديون فى إندونيسيا، وكانت استجابة المسلمين تتراوح بين الرفض والتقليد، بين المواجهة والإعجاب، ولكن الحالة السائدة كانت حالة الصراع، ولم تأت أوروبا بجيوشها وموظفيها فقط، وإنما جاءت بالبعثات التبشيرية أيضا، وكان وصف مارشال فرنسا بوجو لذلك بقوله: إن القساوسة يكسبون لنا قلوب العرب الذين أخضعناهم بقوة السلاح.

يقول اسبوزيتو: إن القومية العربية وشخصية جمال عبد الناصر حشدت معظم أنحاء العالم العربى بالتحدى للقوى الغربية فى الخمسينات فصاعدًا، وظهرت فى الدول العربية حكومات تردد مواقف عبد الناصر ضد الإمبريالية الغربية وتدعو إلى النضال ضد الاستعمار وبناء نظام اجتماعي جديد، وربما لم يستحوذ أى زعيم عربى حديث على خيال العالم العربى والعالم الثالث على نحو ما فعل جمال عبد الناصر، ومازالت ذكراه تلقي بظلالها على التطور السياسى فى الشرق الأوسط، إذ ارتبط اسمه بالمواجهتين اللتين ترمزان إلى الحالة المعادية للإمبريالية وسياسات تلك الفترة: السويس، وفلسطين. وبوصفه زعيما كاريزميا كانت قدرته على الهيمنة على الجماهير محل حسد كل سياسى عربى، كما كان منغصا لأعدائه، وألهب خيال العرب والمسلمين.

ثم ينتقل فى تحليله لجذور العداء إلى قضية فلسطين، فيقول: إن خلق إسرائيل كان المثال الأكثر جسارة على ازدواجية معايير الاستعمار ورغبته فى أن يبقى العرب فى حالة الانقسام والضعف، وإسرائيل تعتبر نفسها مستعمرة أوروبية أمريكية وسط الأمة العربية، وكانت هزائم العرب فى ٤٨ و ٥٦ و ٦٧ مزيدا من الإهانة. وبالنسبة للقادة العرب كانت فلسطين تقدم لهم قضية لاخسارة فيها، يمكن لكل منهم أن يستغلها داخليا وعالميا ويتبارى الحكام فى عنف الشجب والإدانة، والمسلمون يشاطرون الفلسطينيين معاناتهم، والنضال ضد إسرائيل يرمز إلى المعركة ضد الإمبريالية ويقدم قضية عامة وإحساسا بالوحدة، ويلهى عن فشل الأنظمة، وفشل القومية العربية، ووجد الناشطون الإسلاميون فى تحرير فلسطين هدفا للجهاد ضد الإمبريالية الغربية.

ويقول إنه بعد انتهاء الحرب الباردة تعالت أصوات فى أمريكا وأوروبا (المسلمون قادمون، المسلمون قادمون) وأنهم ليسوا خطرا سياسيا فقط ولكنهم خطر سكانى أيضا.. واستمرت التصريحات من جانب زعماء الدول وقادة الرأى والسياسيين البارزين فى إشاعة مفاهيم التهديد الإسلامى، وصدام الحضارات، حتى إن نائب الرئيس الأمريكى دان كويل فى فترة إدارة بوش الأب تحدث عن خطر الأصولية الإسلامية الراديكالية، وربط بينها وبين النازية والشيوعية، وزادت المقالات التى تتحدث عن حرب الإسلام ضد الغرب، وعدم توافق الإسلام

مع الديمقراطية، وأن (الإرهاب الإسلامى) تم تصديره إلى ميادين معارك أخرى فى أمريكا وأوروبا، حتى أعلنت إدارة كلينتون تجميد كل الأصول فى الولايات المتحدة المملوكة لثلاثين منظمة وفردا يعتقد أنهم على علاقة بالمناضلين الإسلاميين فى الخارج، وأعلنت إدارة كلينتون مواجهة (الشبكة الإسلامية الأصولية الدولية)، وأعلن نيوت جنجريتش حين كان رئيسًا لمجلس النواب الأمريكى أن هناك ظاهرة منتشرة فى العالم تتمثل فى ذلك الحزب الإسلامى الذى تموله وتوجهه إيران إلى حد كبير، وجدد تفجير مركز التجارة العالمى فى نيويورك فى مارس ١٩٩٣ المخاوف من (أصولية عالمية) تشن الجهاد على أمريكا، وللمرة الأولى تم حشد الغضب الأمريكى على (التهديد الإسلامى) وانتشرت الاتهامات للأصوليين الإسلاميين الذين لهم قواعد فى الولايات المتحدة وأوروبا، وأدى خطف طائرة (اير فرانس) فى ٢٤ ديسمبر ١٩٩٤ على يد المتطرفين الجزائريين والتقرير الذى نشر عن أنهم كانوا يخططون لتفجيرها فوق باريس، إلى إعادة تأكيد المخاوف من تهديد إسلامى داخلى فى طريقه لأن يكتسح أوروبا.

وزاد الاعتقاد فى أمريكا وأوروبا بأن صداما وشيكا بين العالم الإسلامى والغرب، من خلال عناوين مثل (حرب مقدسة تتجه نحونا)، و (الجهاد فى أمريكا) و (انتبهوا: الرعب الإسلامى.. مجموعة انتحارية عالمية).. و (أنا مؤمن بالخوف من الإسلام) و (جزائريون فى لندن يمولون الإرهاب الإسلامى) و (فرنسا تتعذب من جديد).

ويشير إلى فهم واستجابة الغرب للأحداث التى تجرى فى العالم الإسلامى وفقا للأنماط الشائعة، وهى النظر إلى الإسلام باعتباره تهديدا عالميا، وعدوا تاريخيا تتعارض ديانته وأولوياته مع ديانة الغرب وأولوياته ويقول إن اتجاه الحكومات ووسائل الإعلام فى الغرب إلى المساواة بين الإسلام والإرهاب ونزعة معاداة الغرب هو ما يعوق فهم الغرب للإسلام ويحدد رد فعل العالم الإسلامى تجاه الغرب، وتكون النتيجة شعورا متبادلا بالنفور بين الإسلام والغرب بحيث يعتبر كل منهما الآخر تهديدا واعتبار كل منهما أن المواجهة والصدام بينهما أمر لا مفر منه.. ويعترف جون اسبوزيتو بأن الغرب فيه تربة أيديولوجية لهذا العداء، ومازال مقيدًا بما يحمله من الماضى، وبآثار الجهل

والتنميط وكل هذا يعمى حتى من يتمتعون بحسن القصد عندما يتناولون العالم الإسلامى، وكثيرون يرون أن تاريخ الإسلام وتعاملات العالم الإسلامى مع الغرب هو تاريخ من الافتراس والقهر، وهم يرددون بأن (المسيحية المقاتلة) و (اليهودية المقاتلة) وراء فشل وعدم استقرار المجتمعات الإسلامية كما حدث فى عدوانية الحروبَ الصليبية، ومحاكم التفتيش والاستعمار الأوروبى وتقسيم أوروبا للعالم العربى والإسلامى، وتأسيس إسرائيل، واحتلال إسرائيل للأراضى العربية، والدور الذى لعبته المصالح البترولية فى دعم نظم الحكم الفردى. وإذا كان الغربيون يشعرون بالخوف من التهديد الإسلامى، فإن كثيرا من المسلمين يعتقدون أن هناك أيضا تهديدا غربيا من الإمبريالية الاقتصادية والسياسية والاحتلال السياسى، والغزو الثقافى، والنتيجة (عملية متبادلة لتصوير الآخر فى صورة الشيطان) ويبدو أحيانا أن موقف الغرب تجاه الشيوعية قد تم نقله لإظهار تهديد جديد من الإسلام.. وكثيرا ما كتب علماء بارزون ومعلقون سياسيون مقالات تعلن: (لا تبحثوا عن المعتدلين فى الثورة الإسلامية) و..(الجهاد يتجه نحونا).. و(صدام الثقافات) صعود الإسلام فى فرنسا يزعج عامة الشعب ويؤدى بنا إلى حركة رجعية و(انتبهوا.. الإرهاب الإسلامى فرقة انتحارية عالمية).. و (الأمير تشارلز على خطأ. الإسلام يهدد الغرب فعلا). ويؤكد اسبوزيتو بعد ذلك بأن هناك معلقين غربيين كثيرين يرون أن الإسلام والغرب يسيران على طريق الصدام، وأن الإسلام يحمل تهديدا ثلاثيا للغرب: سياسيا، وحضاريا، وسكانيا، وهناك كتابان كان لهما تأثير خاص الأول كتاب (جذور الهياج الإسلامى) تأليف برنارد لويس، والثانى نظرية (صدام الحضارات) التى ذاعت بعد كتابات صمويل هنتجتون.

لقد كان برنارد لويس هو الذى قدم الصورة التى صدمت الغرب عن الإسلام والمسلمين فى كتابه (الأصولية الإسلامية) باعتبارهم أصوليين مقاتلين خطرين وكان هذا الكتاب فى أصله محاضرة ألقاها برنارد لويس لعام ١٩٩٠ باسم (محاضرة جيفرسون) وهى أعلى شرف تسبغه حكومة الولايات المتحدة على أى باحث تقديرا لمكانته التى وصل إليها فى مجال الدراسات الإنسانية، ثم نشرت بعد ذلك منقحة تحت عنوان (جذور الهياج الإسلامى) ونشرت كموضوع رئيسى

فى مجلة اتلانتك الشهرية. وبسبب مكانة برنارد لويس الدولية كباحث وخبير فى شئون الشرق الأوسط فقد كان لهذا المقال رد فعل واسع، وكان لـه تأثير عالمى فى الفهم الغربى للإسلام.

ومع عنوان المقال نشرت مجلة اتلانتك صورة مسلم معمم بلحية كبيرة وفى عينيه المتوهجتين أعلام أمريكية، وداخل المجلة نشرت رسما يصور حية ضخمة وعليها نجوم العلم الأمريكى وهى تزحف على الصحراء، ورسما آخر لنفس الحية وهى كامنة وراء مسلم يؤدى الصلاة، والمسلم فى هذه الرسوم يظهر وكأنه يعيش فى العصور الوسطى، وقد علق على المقال والرسوم جون اسبوزيتو فقال: إن عنوان (جذور الهياج الإسلامى) فى ذاته يخلق توجسا. فهل نرى مقالات تتحدث عن الغضب المسيحى أو الغضب اليهودى؟.. ولماذا الإصرار على تسمية القدرات النووية الباكستانية (القنبلة الإسلامية) وليس (القنبلة الباكستانية) كما يقال (القنبلة الهندية) وليس «القنبلة الهندوسية»، ويقال (القنبلة الإسرائيلية) ولايقال (القنبلة اليهودية) وكما يقال (القنبلة الأمريكية) ولا يقال (القنبلة المسيحية)؟.

يقول برنارد لويس: (إن الصراع بين الإسلام والغرب استمر حتى الآن على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان، وقد جاء تكوينه من سلسلة طويلة من الهجمات والهجمات المضادة.. الجهاد.. والحملات الصليبية.. والغزو.. واليوم فإن معظم العالم الإسلامى تسيطر عليه مرة أخرى حالة استياء عنيفة ضد الغرب، وفجأة صارت أمريكا العدو الأكبر، وتجسيدا للشر الذى يهدد المسلمين ويهدد الإسلام.. لماذا؟.. ويعلق جون اسبوزيتو على ذلك بأنه بسبب تصوير الإسلام والمسلمين فى صورة المحرضين طوال أربعة عشر قرنا.. أى إن الإسلام عدوانى.. والإسلام والمسلمون مسئولون عن الهجمات بينما الغرب دفاعى يرد هجمات مضادة.. ويورد اسبوزيتو عبارة لمعلق إسرائيلى يقول فيها: لا يهم كيف كانت الشيوعية سيئة، فإنها لم تكن أبدا خطوة للعودة إلى العصور الوسطى، أما ما يصعب علينا تصوره هو كيف ستتمكن ديمقراطيات القرن الحادى والعشرين من العيش فى سلام مع قوى عقدت العزم على أن تبرهن أن الألف سنة الأخيرة لم تحدث وهو يقصد الإسلام والمسلمين.

يقول اسبوزيتو: إن الصحافة البريطانية (التايمز، والديلى تلجراف، وسبكتاتور) عكست الخوف من الإسلام (اسلامو فوبيا) وكتبت كلير هولينجسورث: (إن الأصولية الإسلامية أصبحت بسرعة التهديد الرئيسى للسلام والأمن العالمى، كما تحولت بالإرهاب إلى سبب من أسباب الاضطراب الوطنى والمحلى، وهى مثل التهديد الذى شكلته النازية والفاشية فى ثلاثينات القرن العشرين، ثم الشيوعية فى الخمسينات.

وكتب برنارد ليفين فى صحيفة التايمز يقول: هل تدركون أنه ربما فى غضون نصف قرن لا أكثر، وربما أقل من ذلك كثيرا، ستكون هناك حروب سوف يكسبها المسلمون المتعصبون؟.. وعندما ألقى الأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا خطبة داعيا إلى بناء جسر بين الإسلام والغرب كان تعليق صحيفة ديلى تلجراف: (إن الأمير تشارلز على خطأ - الإسلام يهدد الغرب فعلا) وفى تقرير لجنة (رينميبر) البريطانية بعنوان (الإسلامو فوبيا) قالت: إن الخطاب النابع من الخوف من الإسلام صاخب أحيانا، وغالبا ما يكون محملا بالرموز هو جزء من نسيج الحياة اليومية فى بريطانيا، بنفس الروح التى كان عليها خطاب معاداة السامية يؤخذ كأمر مسلم به فى فترة سابقة من القرن العشرين.

ويورد جون اسبوزيتو نماذج كثيرة بلا حصر، ويحدد مكان وتاريخ نشر كل كلمة مثل:

مجلة دير شبيجل الألمانية التى كتبت بعد تفكك يوغسلافيا والحرب على المسلمين فى البوسنة: (سرعان ما سيكون فى أوروبا دولة دينية (ثيوقراطية) متعصبة جاثمة على أعتابها).. وكتبت أيضا: (فى الشرق الأوسط على وجه الخصوص، وهو المركز والمهد للإسلام، يمثل الملتحون المتطرفون دائما صورة مقاتل تتحدد ملامحه بالجهاد والتضحية بالدم والتعصب والعنف وعدم التسامح وقهر المرأة).

وفى فرنسا فإن النزعة تجاه المسلمين تتحدد باعتبارهم قوما معادين للتقدم من أهل العنف، ويمكن شرح ذلك من خلال أصول دينهم، فإنه دين يدعو إلى الحرب، متعطش للغزو، ومليء بالاحتقار لغير المسلمين.

وفى استفتاء تبين أن ثلاثة من بين كل أربعة فرنسيين تم سؤالهم يرون أن كلمة متعصب تنطبق تماما على الإسلام، وقضية منع التلميذات من لبس الحجاب تمثل الفجوة التى تتسع باستمرار بين المجتمع الفرنسى والأقلية المسلمة. وبعد ثلاثة عشر قرنا تقريبا من تصدى شارل مارتل للغزو الإسلامى لفرنسا عند مدينة بواتييه، فإن معركة بواتييه الجديدة تتضمن فى طياتها الشك المتصاعد، والعداوة، تجاه الدين الإسلامى فى أوروبا.

ويقول اسبوزيتو: إن مخاوف الغربيين يعبرون عنها بقولهم: لقد كان المهاجرون الذين وفدوا إلينا من قبل أوروبيين، أما هؤلاء فليسوا كذلك.. البنات يبدين الإصرار على ارتداء الحجاب فى مدارسنا، فهن لسن فرنسيات ولا يردن أن يكن كذلك.. إن ماضى أوربا أبيض، ويهودى - مسيحى، أما المستقبل فليس كذلك وهناك شك فى أن مؤسساتنا وهياكلنا القديمة سوف تصمد لهذه الضغوط.

وأقوال أخرى كثيرة يقتبسها اسبوزيتو مثل: (بينما استطاعت أوروبا أن تتغلب على الحرب الباردة فإنها تخاطر الآن بخلق نزاعات جديدة باعتبارها القلعة البيضاء المسيحية الغنية التى تصارع ضد عالم إسلامى شديد الفقر).

وعندما بدأ إنشاء الجامع الكبير فى باريس ظهرت مخاوف ووجد مقاومة شديدة من السلطات الفرنسية وقيل: إنه سيكون مكانا لتفريخ المتطرفين، انسياقا وراء الفكرة السائدة بأن المسلمين متطرفون، وأن كل مسجد هو مكان لتفريخ المتطرفين، وأعلن حزب (الجبهة الوطنية) اليمينية المتطرفة التى يقودها لوبن، -وهو حزب يعادى الإسلام والمسلمين والمهاجرين- وزعيمه يعلن بكل وضوح أنه عندما يصل إلى الحكم فسوف يطرد كل (الأجانب) من فرنسا لتبقى فرنسا للفرنسيين فقط، وفى حملته الانتخابية حين كان لوبن مرشحا للرئاسة ومنافسا للرئيس جاك شيراك أعلن عداءه الصريح لكل ما يمت للإسلام بصلة، وكاد يفوز بالرئاسة، وحصل على أصوات جعلته يدخل انتخابات الإعادة بينه وبين شيراك، مما يدل على القوة التى وصل إليها التيار المحافظ المعادى للأجانب وللإسلام والمسلمين حتى فى فرنسا بلد الحرية والإخاء والمساواة.

ويقول: ويبدو المسلمون فى الغرب أولا مختلفين عن غيرهم من المـهاجرين، أو الأهـالى الذيـن اعتنقـوا الإسـلام ممـن يشـتركون فـى ثقافـة يهوديـة - مسـيحية مشتركة أيـًا كـانت اختلافاتـهم العرقيـة. والمسـلمون مثـل اليـهود فـى المـاضى، يجدون أنفسهم فى سياقات ثقافيـة غربية يعتبرون فيها هم (الآخر) بكل معنـى الكلمة، ومـن ثـم فإنـهم يشـكلون تـهديدا. كمـا قـالت صحيفـة (نيـو ريبـابلك) الأمريكية فى مقال بعنوان (المهاجرون) يوم ١٩ أبريـل ١٩٩٣: إن المـرء لا يمكـن أن ينكر أن هنـاك ثقافـة عربيـة فـى بروكلـين، وجيرسـى سـيتى، وديـترويت، يتغذى عليها المجرمون، ويحصلون على نشوة غريبة منها، وهم لا يعترفون بأن بلادنا بلادهم، ولا يشـاطروننا قيمنـا... ويعلـق اسـبوزيتو علـى ذلـك بقولـه: إن السبب فى هذه الكراهية ليس الجهل بالإسلام فقط، أو مساواة الإسلام بـالتطرف والإرهاب فقط، ولكن يضاف إلى هذين السببين الفشـل فـى التعـرف علـى المدى الذى يكون فيه الإسلام جزءا من الموروث اليهودى المسيحى الإسلامى، وغالبا مـا تكون التقسيمات التى تضع الإسلام فى مواجهة الغرب قـد فرضتـها رؤى فكريـة ودينية تميز تراثا يهوديا مسيحيا، وتضعه فى مرتبة أعلى من الديانات الأخرى وفى مواجهة معها.. ولذلك فإن الإسـلام بالرغم من أنه ديانة توحيـد ولـه نبـى، يضعه الغـرب ضمـن مجموعـات (الديانـات الأجنبيـة) تمامـا مثـل الهندوسـية، والبوذية، والتاوية (الديانة السائدة فى الصين) ويضاف إلى ذلك أن الغرب ينظـر إلى المسلمين على أنهم أعداء التحرريـة الليبراليـة، لأنـهم يجعلـون الإسـلام هـو الهوية بينما الغرب لا يرى أن هوية شعب تتوقف على ديانته.. يقول اسـبوزيتو أيضـا: إن تلويـن الإسـلام بـالعنف جعـل النظـرة إلى المسـلمين تمـاثل النظـرة إلى مجموعة (بويرتو ريكان) الإرهابية فى نيويورك، وعصبـة الدفـاع اليـهودى، والجيش الجمهورى فى أيرلندا، والمافيـا، والمتطرفـين المسـيحيين الذيـن يسـمون أنفسهم (جيش الرب).

وكذلك ليست هناك تفرقة بين حركات التحرير والمقاومة من ناحية والمنظمـات الإرهابية من ناحية أخرى، وأيضا هناك من يرون تناقضا بـين الإسـلام والـتراث اليهودى - المسيحى فى قضايا مثل: العنف، والجهاد، والسلام، والثأر بالإضافة إلى اختلافات ثقافية ودينية، وفروق جوهرية تجعل من المسـتحيل التوفيـق بـين

مبادئ الإسلام، والمبادئ والقيم السائدة فى الغرب، وهذا كله أدى إلى وجود هذا الاتجاه الذى صنع الغربة والتهميش والتشدد.

ويتوقف اسبوزيتو عند القضية التقليدية التى تثار فى الغرب، وهى أن الإسلام غير ديمقراطى بطبيعته وغير متسامح مع الآخرين، أو هو فى أحسن الأحوال لا يرحب بالديمقراطية، وعلى الرغم من النفوذ الغربى فى الدول الإسلامية ووجود واجهة برلمانية فى بعض البلاد الإسلامية فإن الحقيقة وراء ذلك هى الحكم الاستبدادى، وجمعيات برلمانية يسيطر عليها حزب واحد، وقد تم وصف الدول العربية بأنها دول حكم بوليس ومخابرات، ويعتمد استقرار حكامها على القوات العسكرية وقوات الأمن، وغالبا ما يفرض الحظر على الأحزاب والاتحادات، أما مؤسسات المجتمع المدنى الثقافية فهى ضعيفة وليس لها تأثير.

والحديث عن التحول الديمقراطى يزعج الحكام فى العالم الإسلامى، والدول الغربية تخشى تحول الدول الإسلامية إلى الديمقراطية، لأن ذلك قد يؤدى إلى تغيير الأصدقاء القدامى الذين يعتمد عليهم الغرب، أو يؤدى إلى أن تصبح الدول الإسلامية أكثر استقلالا فلا يمكن التنبؤ بأفعالها وعلى ذلك فإن الاستقرار فى هذه الدول والحفاظ على الوضع الراهن يضمن استقرار مصالح الغرب.

واسبوزيتو له كتاب عن (الإسلام والديمقراطية) يطرح فيه سؤالا: هل الإسلام يتعارض مع الديمقراطية بالضرورة ؟.. ويقول إن كثيرين يرون أن القيم الإسلامية تتصادم بطبيعتها مع القيم الديمقراطية على نحو ما شوهد فى قضية مثل عدم المساواة بين المؤمنين وغير المؤمنين وعدم المساواة بين الرجال والنساء، وقد حدث تغير فى الفكر اليهودى المسيحى ولم يحدث تغير مماثل فى الفكر الإسلامى، فقد كان الفكر اليهودى المسيحى فى مرحلة سابقة يؤيد الحكم المطلق، والاستبداد، والحق الإلهى للملوك فى الحكم ثم أعيد تفسير الفكر لكى يلائم الديمقراطية. والإسلام يستخدم لتبرير النظم سواء فى ذلك النظم الديكتاتورية أم الديمقراطية أم الملكية، أم الجمهورية، وقد أعلن بعض قادة الحركات الإسلامية أنهم ضد الديمقراطية الغربية ونظم الحكم البرلمانى وقالوا: إن الإسلام مكتف ذاتيا، وله نظام شرعه الله يقوم على السلطة الإلهية وعلى الشريعة

والحاكمية لله، وهذا يتعارض تماما مع مفاهيم السلطة الشعبية والقانون المدنى، وحتى بعض الإسلاميين المعتدلين يعلنون أن الديمقراطية نظام غربى غريب عن الإسلام، وينقل اسبوزيتو عن مجلة (مرآة الشرق الأوسط) عدد ٣٠ مارس ١٩٩٢ قول أحد الحكام فى العالم الإسلامى: (إن النظام الديمقراطى السائد فى العالم لا يناسب هذه المنطقة.. فالنظام الانتخابى لا وجود له فى العقيدة الإسلامية التى تدعو إلى حكومة قائمة على الشورى، وانفتاح الراعى على الرعية، وتجعل الحاكم مسئولا أمام الله وأمام شعبه.. وإن كان كثير من المسلمين قد تقبلوا مفهوم الديمقراطية فإنهم قبلوها بشكل مختلف عن معناها الدقيق فكانت أسلمة الديمقراطية تقوم على إعادة تفسير المفاهيم الإسلامية التقليدية عن الشورى، والإجماع والاجتهاد). ويقول اسبوزيتو إن بعض الراديكاليين الإسلاميين رفضوا الديمقراطية البرلمانية، وبعضهم رأى قبولها والاستفادة منها للدخول فيها ومعارضة أنظمة الحكم، وهذا هو موقف الإخوان فى مصر والجماعة الإسلامية فى باكستان وكشمير، والهند وبنجلاديش، وحزب الرفاه فى تركيا، وجبهة الإنقاذ فى الجزائر، وحزب النهضة فى تونس، وجمعية الإصلاح فى الكويت، والمحمدية ونهضة العلماء فى إندونيسيا، وغيرها، كلهم حبذوا الانتخابات ويشاركون فيها، يقول أحد الدبلوماسيين الغربيين: إن الحكام فى العالم الإسلامى يقبلون (ديمقراطية بلا مخاطر) أو (ديمقراطية بدون معارضة).

هكذا نرى أن صورة الإسلام كما تنعكس فى كتابات جون اسبوزيتو مليئة بالتشويه، وهو الذى يوصف بأنه أكثر الباحثين الأمريكيين موضوعية وتفهما للإسلام: فالإسلام -كما يدعى- إذا وصل إلى السلطة لا يعرف إلا الحكم الدكتاتورى ولا يسمح باختلاف أو معارضة سياسية لأن الحاكم يحكم بالشريعة، أى أنه يحكم بما أنزل الله وأية معارضة ستكون معارضة لله، ولن تكون للأقليات حرية، ولن تجد المرأة إلا المكانة المنحطة التى وضعتها فيها حكومة طالبان فى أفغانستان، ويقول اسبوزيتو أكثر من ذلك: إن المسلمين يستسهلون الحديث عن التسامح وحقوق الإنسان فى الإسلام ولا يمارسونها فى الواقع، والمسلمون يقولون: إن هناك فرقا بين تعاليم الإسلام وما يفعله بعض المسلمين، وهذا نوع من التضليل لأن ما يفعله هؤلاء البعض يستندون فيه إلى النصوص المقدسة، والمسلمون

يقولون: إنهم يعترفون بالأديان السابقة عليهم وهذا غير صحيح بدليل أنهم يعتبرون دينهم قد نسخ الأديان الأخرى، بينما يؤمن المسيحيون بأنهم أصحاب الوحى الأخير والكامل، وأن المسيح عندهم ابن الرب وليس نبيا، وأن لديهم تكليفا عالميا بتحويل العالم إلى المسيحية، وبعض المسلمين مثل بعض المسيحيين واليهود غير متسامحين قولا وفعلا، وبعض المسلمين والمسيحيين تفرض عليهم مواقعهم الدينية نوعا من الجمود الدينى، وشعورا بأنهم وحدهم على الحق، والآخرون على الباطل، وهم يؤكدون على صحة ديانتهم، يرحبون بالحوار مع المؤمنين الآخرين عندما يدركون حقائق العالم المعاصر الذى يقوم على التعددية والاعتماد المتبادل. وبدون إعادة تفسير الشريعة الإسلامية التى تعتبر الأقليات غير المسلمة من أهل الذمة، ويؤكد اسبوزيتو مثل جميع الباحثين فى الغرب إن أية دولة إسلامية تقوم على أيديولوجية دينية لن تكون دولة ديمقراطية، وفى أحسن الفروض ستكون الديمقراطية فيها محدودة.

كل هذا وجون اسبوزيتو يعتبر دارسا موضوعيا ومنصفا للإسلام!

إذا كان هذا رأى أكثر الباحثين الأمريكيين فهما للإسلام وإنصافا له، فماذا ننتظر ممن لم يدرسوه ولم يفهموه؟ وهل فكرت جهة إسلامية فى دعوته وأمثاله إلى حوار لتصحيح هذه المفاهيم الظالمة للإسلام والمسلمين؟.. وهل فكرت جهة فى تكوين جماعات من المفكرين والمثقفين الدارسين للإسلام والمتابعين للتيارات المعادية له فى الغرب والمدركين لطبيعة عصر العولمة الذى أصبح مستعدا لإعلان الحرب على كل من يختلف مع القيم والمفاهيم السياسية والاقتصادية التى جاءت مع العولمة؟!.

ماذا فعلنا.. وماذا يجب أن نفعل لإقناع العالم بأن الإسلام دين الناس الطيبين وليس دين الشياطين والأشرار المخربين؟!.

هيستريا العداء للمسلمين

خصصت صحيفة واشنطن بوست أشهر الصحف الأمريكية افتتاحيتها يوم ٨ أكتوبر٢٠٠٢ عن موقف الإدارة الأمريكية من الإسلام بقيادة الرئيس جورج بوش، تحت عنوان (بوش والكارهون للإسلام) قالت فيها: إن الرئيس الأمريكى طالب الأمريكيين بعدم إدانة الإسلام بسبب أفعال الإرهابيين الذين يرتكبون الجرائم باسم عقيدتهم، وزار الرئيس بوش المركز الإسلامى فى واشنطن وقال فى كلمته هناك: (إن الإسلام دين سلام) ووجه كلمة إلى الأمريكيين طالبهم فيها بعدم توجيه غضبهم إلى المسلمين والعرب الأمريكيين الأبرياء. وفى حديث آخر قال الرئيس بوش: إن الإرهابيين (خونة لديانتهم)، وإن تعاليم أسامة بن لادن كانت تشويها بشعا لدين عظيم.

وقالت فى بقية المقال: إن بعض القادة البارزين فى تيار اليمين الدينى فى أمريكا يعارضون هذا الاتجاه، وهم من الحلفاء المقربين للرئيس الأمريكى، والرئيس بوش نفسه لا يعارض الأفكار التى يعلنونها والخطط التى ينفذونها تعبيرا عن التعصب الدينى المعادى للمسلمين، ويبدو كأن الرئيس الأمريكى لا يرى ما يفعلونه،ولايسمع ما يقولونه. وتقول واشنطن بوست: -وهى أقرب الصحف الأمريكية إلى البيت الأبيض والمخابرات الأمريكية - إن هؤلاء القادة المتعصبين يعتبرون بوش واحدا منهم، ومنهم القس فرانكلين جراهام، وهو ابن وخليفة بيل جراهام، وقد شارك فى مراسم تسلم الرئيس بوش رئاسة أمريكا، وقد أعلن: (أن الإسلام دين شرير وكريه جدا)، ومن هذه المجموعة أيضا بات روبرتسون وهو مؤسس الائتلاف المسيحى وصاحب برنامج دينى للتبشير فى التليفزيون، وقد قال: (إن الظن بأن الإسلام دين سلام هو نوع من التفكير المخادع) وقال عن النبى محمد (صلى الله عليه وسلم): (إنه متعصب، راديكالى، لص يسرق علنا، وقاتل يقتل علنا). . ومن هذه المجموعة كذلك جيرى فالويل،

وقد ظهر فى البرنامج الشهير (ستون دقيقة) فى شبكة (سى. بى. إس) قال: (إن نبى الإسلام إرهابى) .

وقالت أيضا: إن هذه المواقف والأقوال ليست صادرة عن حركة متطرفة، ولكنها صادرة عن شخصيات لهم تأثيرهم، ولهم مواقع قيادية فى الساحة السياسية الأمريكية، وهم من قادة اليمين الدينى ، وهى حركة قريبة من فكر ومواقف الرئيس بوش، الذى يتحدث بلغتهم، ويعتنق معهم نفس المبادئ، وإذا كان الرئيس بوش حقيقة يؤمن بالتسامح مع الإسلام والمسلمين، فعليه أن يخرج عن سكوته على تحريفهم الصريح، وعليه أن يبتعد عنهم بمسافة تعطى لأقواله مصداقية وتحدد الفارق بينه وبين لغتهم المتطرفة. أما استمرار صمت الرئيس بوش على مواقف بعض من فى الدائرة الضيقة المحيطة به فإنه يعنى أن هناك وحدة فكر تجمع بينهم، وإذا كانت مواقفهم لا تتفق مع موقفه فمن الضرورى أن يعلن ذلك ويتبرأ منهم... هذا ما قالته واشنطن بوست!.

ومن المقربين إلى الرئيس الأمريكى جورج بوش القس جيرى فالويل، من تيار اليمين الدينى الذى ينتمى إليه بوش، وهو أيضا من الذين ساعدوه بقوة فى الوصول إلى البيت الأبيض، وله موقع باسمه على الإنترنت ملىء بالمعلومات المشوهة عن العقيدة الإسلامية والتاريخ الإسلامى، وفى شهر أكتوبر ٢٠٠٢ ظهر فى برنامج تلفزيونى على شبكة (سى. بى. إس) قال فيه: إنه قرأ التاريخ الإسلامى جيدا، والنتيجة التى توصل إليها من قراءاته هذه أن رسول الإسلام ﷺ رجل عنف، وإرهابى. وإن كان قد حاول التهرب من انتقادات المسلمين فى أمريكا بالقول بعد ذلك بأنه لم يقصد الإساءة إلى المسلمين الملتزمين بالقانون دون أن يتراجع عما قاله عن الرسول وعن الدين الإسلامى.

والحيلة القانونية التى يستخدمها أعداء الإسلام فى الغرب هى القول بأنهم لا يعلنون الازدراء للمسلمين، ولكن يشعرون بالازدراء للإسلام، وذلك لتفادى القوانين التى تعاقب على التمييز والازدراء لطائفة من الناس ولا تعاقب على ازدراء الأديان، وهذا ما فعله أيضا ميشيل هولبيك الكاتب الفرنسى صاحب رواية (بلاتفورم) الذى قال فى حديث مع مجلة (لير) الأدبية: (إن الإسلام فى النهاية هو أغبى الأديان على الإطلاق، وعندما تقرأ القرآن تشعر بالملل، وعندما

رفعت أربع مؤسسات إسلامية فى فرنسا دعوى أمـام المحكمـة، وانضمت إليـها رابطـة حقوق الإنسـان الفرنسية وأعلنـت أن تصريحـات هولبيـك تعـبر عـن (إسلاموفوبيا) أى (الخوف من الإسلام).. وقف الكاتب الفرنسـى أمـام المحكمـة ليقول: إننى لم أظهر أى ازدراء للمسـلمين، ولكـن ازدرائـى الشـديد للإسلام لم يتغير وإننى أشـعر أن القـرآن أقـل منزلـة مـن الإنجيـل مـن الناحيـة الأدبيـة، فالإنجيل له أكثر من كاتب بعضهم جيد وبعضهم ردىء ، أما القـرآن فلـه مصدر واحد وأسلوبه متوسط. . وقد فاز هولبيك بجائزة إمباك وهى أكـبر جـائزة أدبيـة فى فرنسا، وكتب فى روايته (بلاتفورم) على لسان بطل الروايـة (إننـى أشـعر برعشة سعادة فى كل مرة أسمع فيها بمقتل إرهابى فلسطينى) .

وربما كان هذا ما دفع مـهاتير محمـد رئيـس وزراء ماليزيـا إلى أن يوجـه فـى مؤتمر عام انتقادات حادة إلى الولايات المتحدة بسبب هيستريا العداء للمسـلمين، إلى حد أن ضباط الأمن فى مطار نيويـورك صعـدوا إلى الطـائرة التـى كـان مـهاتير محمد يستقلها فى طريقه للعودة إلى بلاده بعد زيارة رسمية إلى الولايات المتحـدة وتحرشوا بالمرافقين له بطريقـة وصفتـها وكـالات الأنبـاء بأنـها طريقـة مهينـة. أما نائب رئيس الوزراء الماليزى عبد الله بدوى فقد قـام رجـال الأمـن الأمريكيـون بتفتيشه بطريقة فظة وأرغموه على أن يخلع حذاءه وحزامه. . وعندما عاد رئيس الوزراء الماليزى قال فى خطاب له : إن المسلمين يتعرضون للإهانات والاسـتغلال فـى جميـع أرجـاء العـالم، وذلـك بسـبب ضعفـهم، ويجـب عليـهم أن يرفضـوا الاستغلال وأن يكونوا أقوياء، وان يقللوا من اعتمادهم على الآخرين، وأن يسـعوا إلى امتلاك المعرفة، وتحدث فى هذا الخطاب طويلا عن شعوره بالمرارة مـن حالـة العداء التى تحاصر المسلمين خاصة فى أعقاب هجمات سبتمبر ٢٠٠١.

وقريب من هذا ما قالته الدكتورة انجريد ماتسون أستاذة الأديان بكلية هـارت فورد بولاية كنتاكت، وقد أعلنـت إسـلامها منـذ سـنوات وتشـغل منصـب نـائب رئيس الاتحاد الإسلامى لأمريكا الشمالية، فقد ظهرت فى برنـامج تليفزيونى عن صورة الإسلام فى أمريكا وقـالت: إن اليمنيـين المسـيحيين فـى أمريكـا يكرهـون الإسلام كعقيدة وكدين وكثقافة وكتاريخ، وقالت: إن ابنى يذهب إلى مدرسة عامة، وهو يعانى ممايحدث له مع زملائه الذيـن يرفضـون أن يلعـب معـهم لأنـه مسـلم،

وقالت: إن الإسلام يظهر على شاشات التليفزيون على أنه شيء مخيف، وبالنسبة للأطفال المسلمين فى أمريكا فإنهم يواجهون تحديا يتطلب منهم قدرا غير عادى من الشجاعة، لأن الأمر ليس إيجابيا فيما يخص الهوية الإسلامية للمسلم.

والحملة لتشويه صورة الإسلام لا تقتصر على التليفزيون فقط، أو على تيار اليمين الدينى المتطرف فقط، ولكن يبدو أنها أبعد من ذلك، ففى المراكز الأكاديمية للأبحاث توجه هذه الحملة ضد الإسلام والعالم الإسلامى، وفى الحكومة الأمريكية يمكن أن نجد صدى لهذا التوجه، فقد نشرت مجلة (تايم) الأمريكية على سبيل المثال فى عدد ١٣ يناير ١٩٨٦ واقعة غريبة، ملخصها أن الدكتور د. نداف سفران وهو أستاذ يهودى، مصرى الأصل، أمريكى الجنسية، وتلقى بصفته مدير مركز دراسات الشرق الأوسط فى جامعة هارفارد مبلغ ٤٥ ألف دولار من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لعقد مؤتمر دولى عن (الأصولية الإسلامية) يبدو مؤتمرا للبحث العلمى الأكاديمى المحايد، ويشترك فيه عدد من الباحثين والمفكرين المسلمين واليهود والمسيحيين. وأرجو أن يتوقف المسلمون عند هذه الواقعة لأنها مفتاح لفهم الكثير مما يجرى هناك.. وهنا!

وموضوع دراسات الشرق الأوسط فى أمريكا وأوروبا يمثل قاعدة واسعة تضم عشرات الآلاف من الباحثين مهمتهم رصد ودراسة وتحليل كل ما فى العالم الإسلامى والعربى ابتداء من العقيدة والثقافة والفنون إلى الزراعة والأمثال والأغانى الشعبية السائدة، وهناك مئات المجلات والدوريات المتخصصة الجادة غير الحكومية تصدر فى أمريكا ودول أوروبا عن الإسلام والمسلمين والعالم العربى، هذا بالإضافة إلى المراكز القائمة داخل البلاد الإسلامية تحت مسميات مختلفة متفرغة للرصد والجمع والتحليل لكل المعلومات، وبالإضافة أيضا إلى ما تقوم به الجامعات والمراكز الأكاديمية. ويقول نورمان دانييل فى كتابه (الإسلام والغرب) إن معظم ما يكتب فى الغرب عن الإسلام والمسلمين ليس من باب البحث العلمى النزيه، وإنما هو عمل مخطط توجهه وتدعمه الحكومات والشركات لمصالحها، وكثير من الباحثين مجندون لتحقيق نفس الغايات التى تجند لها الجيوش.

ويتلخص رأى الباحث الأمريكى المعروف جون اسبوزيتو فى رؤيته لتناقضات الموقف فى الولايات المتحدة من الإسلام، فى أن الحكومة الأمريكية تعلن الحرب على الأصولية الإسلامية وفى نفس الوقت تجرى اتصالات وتقدم مساعدات إلى الحركات الأصولية الإسلامية عندما تجد أن هذه الحركات تحقق المصالح والأهداف الأمريكية، والحكومة الأمريكية توجه إلى الحكومات فى الدول الإسلامية انتقادات حادة لأنها تعمل على قمع الحركات الأصولية الإسلامية، وتعتبر ذلك اعتداء على الديمقراطية وحقوق الإنسان، وفى نفس الوقت فإنها تطلب من الحكومات الإسلامية كبح جماح الحركات الأصولية، ويقول اسبوزيتو: إن الحكومة الأمريكية تعتبر الأصولية الإسلامية خطرا بينما لا تعتبر الأصولية الدينية كذلك فى إسرائيل وجنوب أفريقيا، وبولندا، وأمريكا اللاتينية، وشرق أوربا، وغالبا ما يغيب التناول العادل ويتضح التمييز عندما يكون الأمر متعلقا بالإسلام، وقد قام الرئيس الأمريكى الأسبق بقصف ليبيا بحجة ضرب الحركة الأصولية الإسلامية، فى حين اعتبر المسلمون ذلك تعبيرا عن عداء أمريكى للإسلام وللعالم الإسلامى، وكذلك فإن ما قاله كويل نائب الرئيس الأمريكى فى حفل التخرج فى الأكاديمية البحرية عام ١٩٩٩ عن التشابه بين النازية والأصولية الإسلامية، وقد أصبح منظور (الخطر الإسلامى) يحرك سياسة الولايات المتحدة التى لا تعترف بوجود فوارق أيديولوجية بين الغرب والإسلام، وتريد أن تفرض على الإسلام الأيديولوجية الغربية، وقد عبر السياسى المعروف روبرت بلليترو عن الموقف الأمريكى بقوله: (إن صورة الإسلام فى ذهن قارئ الصحف العادى هى صورة عن فكر جامد يحمل العداء للغرب، ومستعد لاستخدام العنف والإرهاب).

وحين تم تفجير سفارتى الولايات المتحدة فى كينيا وتنزانيا فى ٧ أغسطس ١٩٩٨ وأدى إلى قتل ٢٦٣ شخصا وإصابة أكثر من خمسة آلاف، كان العنوان الرئيس فى صحيفة واشنطن بوست (الإسلام متعهد الإرهاب)، وبعدها بأيام فى ٢٧ أغسطس قصفت الطائرات الأمريكية مصنع الأدوية فى السودان الذى ينتج ٩٠٪ من الأدوية التى يحتاج إليها السودان وأعلنت أن هذا المصنع ينتج أسلحة كيماوية، كما أعلنت أن هذه بداية مرحلة جديدة من الحرب ضد (الإرهاب

الإسلامى)، وبعد أن دعا السودان الأمم المتحدة إلى إرسال فريق تفتيش، وقام عدد كبير من الدبلوماسيين والصحفيين الغربيين بتفتيش بقايا المصنع بعد تدميره فلم يجدوا أى دليل على أنه كان ينتج أية كيماويات خطرة، اعترف المتحدث الرسمى باسم الولايات المتحدة بأنهم بنوا استنتاجهم على أساس تقرير غير كاف من المخابرات الأمريكية !

ولم يكن ذلك إلا تعبيرا عن هيستريا العداء للإسلام !

ويقول اسبوزيتو: إن التسعينات شهدت سلسلة من الهجمات والتفجيرات وحوادث الاغتيال فى دول إسلامية وغربية، مثل حادث الاعتداء على السياح فى الأقصر، وذبح آلاف فى الجزائر، والهجوم على القوات الأمريكية فى الرياض والظهران، وتفجير السفارتين الأمريكيتين فى كينيا وتنزانيا، كانت بالنسبة لكثيرين فى الحكومة الأمريكية (حرب إرهاب عالمية يشنها الإرهابيون الإسلاميون ضد الولايات المتحدة ومصالحها) وصار الرمز لتلك الحرب هو أسامة بن لادن، المليونير السعودى الذى يسمونه فى كتاباتهم (الأب الروحى للإرهاب الإسلامى العالمى ومقاول الإرهاب) ويعتبره بعض المسلمين (المجاهد الحقيقى) و (المحارب فى سبيل الحرية). وأسامة بن لادن المليونير السعودى الأصل، المتعلم تعليما جيدا، الذى ترك بلاده وذهب إلى أفغانستان لمحاربة الاحتلال السوفيتى، وكان حليفا للولايات المتحدة، وكانت المخابرات الأمريكية تزوده بالسلاح والمتطوعين من أنحاء العالم الإسلامى، سرعان ما أصبح القائد لكثيرين من (الأفغان العرب) الذين جاءوا من دول العالم الإسلامى للمشاركة فى (الجهاد ضد الاحتلال السوفيتى وتحرير أرض الإسلام)، وبعد رحيل الاحتلال السوفيتى عاد إلى بلده، ولكنه اعترض بشدة على حرب الخليج عام ١٩٩١ وعلى الوجود العسكرى الأمريكى فى السعودية، وهذا ما جعله يصطدم بحكومته وذهب إلى السودان، وفى سنة ١٩٩٦ طلبت الحكومة السودانية منه أن يرحل بعد أن تزايدت اتهامات الولايات المتحدة له ولحكومة السودان لاستخدامه أراضى السودان قاعدة لتدريب الإرهابيين وتخطيط أعماله الإرهابية العالمية. وتتهم الولايات المتحدة أسامة بن لادن الآن بأنه مؤسس جماعات الإرهاب الإسلامى، والممول للجماعة التى فجرت مركز التجارة العالمى فى نيويورك، وأنه

كذلك الممول للقتال المدمر فى الصومال سنة ١٩٩٣، ولحادث تفجير أبراج الخبر فى الظهران عام ١٩٩٦ (وقد أعلن إنكاره لهذه الاتهامات) وحادث قتل ٥٨ سائحا فى الأقصر عام ١٩٩٧، وتفجيرات تنزانيا وكينيا، وأخيرا تفجير مطعم وملهى فى جزيرة بالى بإندونيسيا أسفر عن مقتل ٢٠٠ شخص أغلبهم من السياح الأستراليين، وقد اعترف بمشاركته فى الهجمات بالصومال، واعتبر الذين قاموا بتفجيرات الرياض والظهران (أبطالا) رغم إنكاره التورط فيها، وهدد بشن هجمات ضد الأمريكيين فى السعودية، ووعد بالرد عالميا على هجمات أمريكا بصواريخ كروز على أفغانستان، وفى عام ١٩٩٨ أعلن تكوين (تحالف عالمى) لجماعات المتطرفين باسم (الجبهة الإسلامية للجهاد ضد اليهود والصليبيين).

ويقول: إن رسالة أسامة بن لادن تتفق مع مشاعر الكثيرين فى العالم العربى والإسلامى، وفى انتقاد شديد لسياسة الولايات المتحدة تجاه العالم الإسلامى، ودعمها المنحاز لإسرائيل، ورفضها إدانة قصف إسرائيل للمدنيين فى مذبحة قانا بلبنان سنة ١٩٩٦، وإصرارها على فرض العقوبات على العراق مما أدى إلى وفاة مئات آلاف من المدنيين والأطفال العراقيين، كما أنه يرفض الحملات الصليبية الجديدة فى الخليج والوجود العسكرى والاقتصادى الأمريكى المكثف، وأضاف إلى ذلك قضايا جماهيرية أخرى مثل البوسنة، وكوسوفو، والشيشان، وكشمير.

وتعليقا على ذلك يقول اسبوزيتو: إن التركيز على أسامة بن لادن يحمل مخاطر الوقوف أمام مصدر واحد للإرهاب، وإغفال التعدد فى المصادر العالمية للإرهاب من إرهاب دولة، وإرهاب لا ترعاه دولة، وإرهاب إسلامى، وإرهاب غير إسلامى.. ويقول أيضا: إن التركيز يجعل دفاع أمريكا الثابت عن الديمقراطية، وعن الحملة الصليبية على الإرهاب العالمى، يتحول إلى جعل أسامةبن لادن بطلا فى أنحاء كثيرة من العالم الإسلامى، والفكر الأمريكى لم يعد يفرق بين (الثورة) وبين (الإرهاب) وبين (الاستخدام المشروع للقوة) و (الاستخدام غير المشروع للقوة) وبين (المسلمين المعتدلين) و (المتطرفين) وبين (الحركات الجماهيرية) و (المنظمات الإرهابية)، والغربيون واليهود يعلنون الحرب، ويستخدمون القوة والعنف، ولكنهم يعتبرون حروبهم حروبا دفاعية وحروب المسلمين حروبا

عدوانية، ويعتبرون حروبهم عادلة وحروب المسلمين حروبا ظالمة نابعة من الكراهية والعداء للغرب، ولا يفرق الغربيون والإسرائيليون بين المقاومة والإرهاب ولا يعترفون بالخط الفاصل بين حركات التحرير الوطنى والمنظمات الإرهابية، ويكررون ما حدث فى التاريخ، فقد كان أبطال الثورة الأمريكية عصاة ومتمردين وإرهابيين فى نظر الاحتلال البريطانى لأمريكا، كما كان نيلسون مانديلا وياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية فى نظر خصومهم إرهابيين يقودون حركات إرهابية، وفى النهاية يمكن أن تضيع الفوارق بين ما هو حق وما هو باطل.. وعلى سبيل المثال فإن الحزام الأمنى الذى أقامته إسرائيل ليس موجودا فى داخل الأراضى التى أقيمت عليها الدولة الصهيونية ظلما وعدوانا منذ أكثر من نصف قرن، وإنما هو موجود داخل حدود دولة أخرى ذات سيادة هى دولة لبنان، والمسألة ليست مسألة وجهات نظر مختلفة، ولكنها مسألة قانون دولى وحقوق مشروعة لشعب ودولة لبنان.

ويتساءل عن الإسلام هل هو تحد أو تهديد؟ ويقول إن (الأصولية الإسلامية) تُعرف على مدى أكثر من عشر سنوات على أنها تهديد للعالم الغربى، وهذا الاعتقاد نشأ من تأثير الثورة الإيرانية، وإعلانها مبدأ تصدير الثورة، وربط القذافى والخومينى بالإرهاب العالمى والهجمات التى شنتها جماعات متطرفة سرية، وحذر كثيرون فى الغرب من تكرار نموذج إيران في الغرب ، وأدى ذلك إلى اعتبار الإسلام ظاهرة مرضية. ولا يمكن اعتبار (الأصولية) وليدة الفقر والبطالة، فإن كان المؤيدون لجبهة الإنقاذ الإسلامية فى الجزائر من الشباب العاطل، فإن (الإخوان المسلمين) فى مصر والأردن معظمهم من المهنيين أبناء الطبقة المتوسطة والعليا من معلمين وأطباء ومهندسين ومحامين. وكذلك فإن التركيز على اعتبار (الأصولية الإسلامية) تهديدا عالميا أدى إلى مساواة الإرهاب بالإسلام، وإلى الخلط بين الإرهاب والاستخدام المشروع للقوة دفاعا عن النفس. وهذا مقياس لا يطبق فى الغرب على اليهودية والمسيحية، كما أن ذلك خلق مناخا من الخوف جعل الإسلام والمنظمات الإسلامية مذنبين حتى تثبت براءتهم، وجعل الأفعال الدنيئة التى يرتكبها مسلمون تنسب إلى الإسلام ولا تنسب إلى التفسيرات المنحرفة للدين الإسلامى. فالمسيحية

والدول الغربية لها سجل تاريخى فى إشعال الحروب، وتطوير أسلحة الدمار الشامل، وفرض الهيمنة الاستعمارية، ومع ذلك فإن الإسلام والثقافة الإسلامية هى التى يتم تصويرها فى صورة من لديهم نزعة توسعية، وميل إلى العنف والحرب باسم الجهاد، والمخاطرة اليوم تتمثل فى أن المخاوف المبالغ فيها من الإسلام تؤدى إلى معيار مزدوج للديمقراطية وحقوق الإنسان فى العالم الإسلامى. وتظهر هذه الازدواجية فى الاهتمام الغربى بتطوير الاتحاد السوفييتى وأوربا الشرقية وعدم الاهتمام بتطوير الديمقراطية فى الشرق الأوسط، أو الدفاع عن المسلمين فى البوسنة والهرسك، وكوسوفا، والشيشان، وإذا كان فى العالم الإسلامى حكومات تحكم شعوبها بالقوة والتسلط فإن الغرب يعتبر أن هذا هو المفهوم الإسلامى للحكم.

هذا ما يقوله الباحث الأمريكى الشهير جون اسبوزيتو مع وضد الإسلام، وهو على أية حال من القلة التى تتحدث عن الإسلام بقدر من الموضوعية والفهم، بينما أكثر الذين يتحدثون عن الإسلام يهاجمون كل ما فيه دون محاولة لفهم حقيقته.

وعلى سبيل المثال فإن باحثا آخر هو رولاند جاكار حين أراد تقديم الإسلام فى كتابه (فتوى ضد الغرب) لم يجد نموذجا غير شركات توظيف الأموال فى مصر، وتحدث طويلا عن شركة الريان التى اجتذبت أموال المسلمين وقد بلغت مليارات الدولارات، وتمكن الريان من اكتساب ثقة جماهير المودعين بشركته (الإسلامية) التى تمنح المودعين ٢٠٪ سنويا، واشترى ذمم بعض الكبار بكشوف البركة التى ضمت أسماء عدد من الشخصيات المهمة كانت تتعامل معه وتسانده وتستفيد من عائد مميز على ودائعهم تقترب من ١٠٠٪، ثم حوكم بتهمة الغش، والتحايل، وتهريب الذهب، وتهريب الأسلحة، مع أن البوليس المصرى لم يكن بعيدا عن متابعة هذه الإمبراطورية المالية الإسلامية الغامضة.

ثم قدم رولاند جاكار نموذجا آخر يمثل الإسلام والمسلمين، هو (الجماعات الإسلامية) المتطرفة المنتشرة فى أنحاء العالم، ويقول: إن الدعم المالى يأتيهما من (البنوك الإسلامية) و (الجمعيات الخيرية الإسلامية) مشيرا إلى بنك التقوى الذى تم إنشاؤه فى ناسو عاصمة جزر البهاما عام ١٩٨٧ ويقول إن هذا البنك من

أهم مصادر المنظمات التى تشكل عصب الحـرب التـى يشـنها الإسـلاميون ولذلـك لا تنقصهم الوسائل والمصادر للحصول على ما يحتاجون إليه لتنفيذ عملياتهم.

ومعظم الأمريكيين لا يرون من يمثـل المسـلمين غـير أسـامة بـن لادن.. ولهـذا يخصص رولاند جاكـار فصـلا مسـتقلا عـن أسـامة بـن لادن المليـاردير السـعودى ويقول: إنــه أصبـح إحـدى الشـخصيات الخرافيـة وأكثرهـا غموضـا فيمـا يتعلـق بالقضية الإسلامية وتطوراتـها علـى الصعيـد العـالمى، وقـد انتشـرت شـائعة فـى هوليوود عن إنتاج فيلم سـينمائى عـن ابـن لادن يقـوم ببطولتـه الممثـل الأمريكـى روبرت نيرو يصور كيف أصبح العدو الأول لكل من واشـنطن والريـاض باعتبـاره المسئول عن الحركات الإسلامية فى أوربا والشرق الأوسط، وتورطـه فـى عمليـات الإرهاب الدولى، الذى يعمل على زعزعـة اسـتقرار السـعودية مسـتندا إلى فتـاوى تصدرها تنظيمات إسلامية عديدة بالتكفير وإهدار الدماء، وعلـى رأسـها (لجنـة الفتوى والإصلاح) التى تتخـذ مـن لنـدن مقـرا لهـا ويرأسـها خـالد الفـواز رجـل ابن لادن فى أوربا، وتحظى هذه اللجنة بتـأييد عشـرات الآلاف مـن السـعوديين داخل المملكة على حد قول رولاند جاكـار. ويعتمـد ابـن لادن فـى نشـر وتوصيـل رسائله وبياناته على شبكة من أتباعه فى أوربا وعلى بعـض المواقـع علـى شـبكة الإنترنت العالمية، وقد نفى مسئوليته عن الهجمات ضد الأمريكيين فى الأراضـى السعودية، لكنه وجه التحيـة لهـذه العمليـات، بينمـا أقـر بـدوره الحـرب فـى الصومال، وأتهم حكومة فرنسا بتأييد حكام الجزائر ضـد الإسـلاميين، واتـهمـها أيضا باضطهاد المسلمين فى فرنسا، وبعد الهجوم على سـفارتى الولايـات المتحـدة فى كينيا وتنزانيا فى أغسطس ١٩٩٨ وجهت واشـنطن صواريـخ تومـا هـوك علـى معسكرات التدريب التى يمولها ابن لادن فى أفغانستان، لكنه لم يكـن متواجـدا بـها وقت الهجوم، ومنذ ذلك الحين لم يعد أحد يعرف مقر إقامته، وهكذا يرسخ جاكار فى أذهان الغربيين أن النموذج الإسلامى هو ابن لادن.

وفى فصل آخر يتحدث رولاند جاكار عـن (خيـوط العنكبـوت الإسـلامية) فـى أوربا، ويقول فيه: إن التهديد الإرهـابى الإسـلامى حقيقـة واقعـة فـى العاصمـة البريطانية لندن منذ الاعتداء الذى تعرضت له السفارة الإسرائيلية هناك بسـيارة مفخخة فى يوليـو ١٩٩٤، ويقـول: إن لنـدن أصبحـت الملجـأ الآمـن للإسـلاميين

الجزائريين، والحكومة البريطانية تعطى حرية كبيرة للمتطرفين الإسلاميين مقابل ضمان بالا تكون هدفا لعملياتهم ولذلك لم تحدث أية عمليات إرهابية ضد أهداف بريطانية!

ويقول رولاند جاكار: إن الرئيس المصرى حسنى مبارك كان أول من لفت الأنظار إلى الحرية التى تتمتع بها الشبكات المتطرفة فى لندن خاصة فى أعقاب الهجوم الإرهابى فى الأقصر، وفى مواجهة هذه الاتهامات وعدت السلطات البريطانية بإجراء تعديلات تشريعية لمكافحة الإرهاب.

ويتحدث رولاند جاكار بعد ذلك عن التواجد الإسلامى فى دول أوربا الأخرى فيقول: إن الدانمرك يعيش فيها ٢٤ ألف لاجئ مسلم بينهم متطرفون ينتمون إلى الجماعة الإسلامية التى تضم مصريين وباكستانيين وسودانيين، وفى بلجيكا يعتبر المجتمع الإسلامى فيها أكثر أهمية حيث يزيد عدد المسلمين على ٣٠٠ ألف شخص، والمساجد تلعب فيها دورًا أيديولوجيا ملموسا، وفى السويد يوجد إيرانيون تحت غطاء حزب الله، وفى ألمانيا أصبحت الجماعات الإرهابية مصدر قلق كبير للسلطات، وفى ألمانيا مليونان و ٢٠٠ ألف مسلم، وهى ملتقى تجمع المهاجرين من المغرب وتركيا، ولا تخفى السلطات الألمانية أنها تجد صعوبة كبيرة فى مراقبة الجماعات المتطرفة لتعددها وارتباطها بشبكات إرهابية دولية، وفى هولندا ٤٠٠ ألف مسلم يثيرون مشاكل لا يستهان بها على الصعيد الأمنى، وفى إيطاليا يمثل (المركز الثقافى الإسلامى) بمدينة ميلانو أهم بؤر الدعاية المتطرفة - كما يقول رولاند جاكار - ويضيف: إن مدير المركز، وهو مصرى الجنسية، على اتصال بالجماعات المصرية المتطرفة التى تصدر بياناتها عن طريقه، وتربطه علاقة وطيدة بالشيخ عمر عبد الرحمن إمام مسجد بروكلين الذى حكم عليه بالسجن فى أمريكا لمسئوليته عن الهجوم الأول على مركز التجارة العالمى بنيويورك.. أما فى سويسرا فيقول: إن فيها منظمات إسلامية عديدة منتشرة فى المدن، والمركز الإسلامى فى جنيف على سبيل المثال هو إحدى البؤر لتوجيه نشاط هذه المنظمات. وقد تم إنشاؤه فى عام ١٩٦١ بمبادرة من الدكتور سعيد رمضان حفيد حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين فى مصر، وكذلك فإن المركز الإسلامى فى ميونخ ظل أكثر من ثلاثين عاما المنبر

الوحيد للإخوان المسلمين فى أوربا. أما أسبانيا فيقول رولاند جاكار: إنـها تمثـل أحد المعابر الاستراتيجية للمتطرفين الإسلاميين هى ومدينة مرسيليا الفرنسية، كما تعتبر أسبانيا منفذا ثانيا لتهريب البضائع والمخدرات والأسلحة. وفى ختـام هذا الفصل يقـول جاكـار: إنـه توجـد اتصـالات وثيقـة وتعـاون بـين التنظيمـات الإسلامية التـى تؤمـن باسـتخدام القـوة المسلحة، ويتحـدث عـن عـدوى انتشـار الحركات الأصولية الإسلامية المتطرفة فى دول المغرب العربى وانتقالها إلى القارة الأفريقية وخاصـة فـى السـنغال، والنيجـر، والجـابون، بتشـجيع مـن السـودان وإيران لتنشر أفكار التطرف كما يقول.

والهجـوم علـى الإسـلام ليـس وليـد تفجـيرات سـبتمبر ٢٠٠١ فـى نيويـورك وواشنطن ولكنه قبل ذلك بعشرات السنين، وقد عبَّرت عن ذلـك صحيفـة هـيرالد تريبيون الأمريكية فى عدد ٤ يناير ١٩٩٥ فى مقال بعنـوان (إن اعتقـاد واشـنطن بكسب صداقة الإسلاميين وهم ساذج) قالت فيه إن الإسلام مثل جميـع السـلفيات الدينية الأخرى كلها تتسم بالدكتاتورية بطبيعتها، وقد يكون مـن السـهل رسـم صورة كاريكاتوريـة للبحـث عـن (معتدلـين) إسـلاميين. وإن تبديـد المفـهوم عـن الانتصار الإسلامى المحتوم يجب أن يمثـل الهـدف الرئيسـى لأيـة اسـتراتيجية أمريكية. وقالت الصحيفة فى المقال الذى كتبه بيترو رودمان: إن عـداء المسـلمين للغرب يرجع إلى الانحطاط الثقافى والفساد وهما نتاج العقيدة الإسـلامية ذاتـها، ويرون أن أمريكا القوة العظمى الوحيدة، فهى تجسد كل ما يكرهونه ويزدرونـه. والصحوة الإسلامية هدفها محاربة الحكومات العربية المعتدلة المواليـة للغـرب، وسذاجة واشنطن أنها تصورت أن فى إمكانها كسـب صداقـة الإسـلاميين لتغيـير موقفهم من سياسات الولايات المتحدة فى الشـرق الأوسـط، ومـن الممكـن أن تكـون عملية السلام العربية الإسرائيلية هى الضحية إذ يعتبرهـا الإسـلاميون خيانـة، وقال كاتب المقال: فى النهاية لابد من التسليم بأن التيار الإسلامى فـى أى مكـان يمثل ضررا بالغا للشعوب المتحضرة وللذين يقفون علـى خطـوط المواجهـة لمقاومـة هذا التيار.

وقد كتبت تيريزا واتنابى تقريـرا لوكالـة (لـوس أنجليـس تـايمز) الأمريكيـة نشرته صحيفة الشرق الأوسط يوم ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٢ قالت فيه: إن تعـامل بعـض

الأمريكيين مع المسلمين يتسم بالقسوة، وقد نشر خلال عام ٢٠٠٢ وحده أكثر من عشرين كتابا عن (الخطر الإسلامى) وأكثر الكتب بيعا فى أمريكا كتاب (الإرهابيون بين ظهرانينا) من تأليف ستيفن أميرسون وكتاب (الإسلام المقاتل يصل إلى أمريكا) تأليف دانيال بايبس، وقد أصدر قادة طوائف انجليكانية بيانات تزعم أن الإسلام دين شرير، وتدل الاستطلاعات على أن الأمريكيين صاروا أقل قبولا للإسلام أو رضا عنه، وفى استطلاع أجرته صحيفة (لوس أنجلوس تايمز) قال ٣٧٪ من الأمريكيين: إن انطباعهم عن الإسلام سلبى، وقال ٢٥٪: إن انطباعهم عن المسلمين الأمريكيين سلبى. والسياسيون فى أمريكا يتأثرون بهذه الاتجاهات، ولذلك أصبح إقبال السياسيين على المؤتمرات الإسلامية ضعيفا جدا، وعلى سبيل المثال لم يحضر أى سياسى على أى مستوى مؤتمرا إسلاميا عُقد بعد أحداث ١١ سبتمبر فى واشنطن وحضره ٣٠ ألفا من المسلمين. وظاهرة عزل المسلمين شملت البيت الأبيض، وإن كان الرئيس بوش قد التقى ببعض المسلمين وزار المركز الإسلامى بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ لكنه لم يلتق بأحد من المسلمين بعد ذلك، على الرغم من أن المسلمين الأمريكيين أيدوا بوش فى الانتخابات عام ٢٠٠٠ تأييدا شبه إجماعى، ويضيف التقرير إن هذا الجو السياسى المحفوف بالمخاطر بدد الأمل فى أن يخوض عدد من المسلمين الأمريكيين الانتخابات التكميلية للكونجرس عام ٢٠٠٢. وقد زاد قلق المسلمين الأمريكيين بعد اعتقال بعض المسلمين فى نيويورك وفلوريدا وغيرهما بتهمة دعم الإرهاب، وما يردده خصوم المسلمين من أن هناك طابورًا خامسًا من المسلمين داخل أمريكا. ولا يلقى المسلمون فى أمريكا تسامحا من القادة السياسيين والدينيين، خاصة فى المنطقة التى تسمى (حزام الإنجيل) وتشمل أماكن مثل جرينفيل وتكساس حيث تتزايد كثافة المعمدانيين. وكان القس (سام دوجلاس) قد وجه الدعوة إلى أحد المسلمين الذين ارتدوا عن الإسلام واعتنقوا المسيحية ليتحدث أمام مجموعة من أعضاء الكنيسة المعمدانية عن تجربته، وبعد ذلك قدم القس سام دوجلاس رؤيته الشخصية للإسلام فقال: إنه درس الإسلام عندما كان قسيسًا فى الجامعة، والدين الإسلامى لا يحترم قيمة الحياة الإنسانية، ويمثل تهديدا لكل من يمكن أن يوصف بأنه (كافر) أى أن كل من ليس مسلما معرض

للخطر على أيدى المسلمين، وقال فى ختام كلمته: إنه يحب المسلمين ولكنه لا يحب ديانتهم.

وفى مجلة تايم الأمريكية كتب نيوكلاس لوكسن مقالا فى يونيو ٢٠٠٢ بعنوان الإسلام فى أوربا قال فيه: إن الشريعة الإسلامية هى أسلوب الحياة للمسلمين ولكنهم حولوه إلى قانون للعقوبات. والغربيون لا يرون فى الشريعة الإسلامية سوى قطع الأيدى والأرجل والرجم والقتل وقمع المرأة وحرمانها من دور إيجابى فى المجتمع، ويلاقى المسلمون فى أوربا الاضطهاد، ففى فرنسا طردوا التلميذات المحجبات من المدارس. وفى بعض المناطق البريطانية مثل لوتون تلاقى الجالية الإسلامية صعوبات في الحصول على العمل، ولا يوجد عضو واحد مسلم فى البرلمان الفرنسى رغم أن فيها أربعة ملايين مسلم، ورغم أن البعض مثل الدكتور بسام طيبى أستاذ العلاقات الدولية بجامعة جوتنجن صاغوا مصطلح (الإسلام الأوربى) ويعنى التزاوج بين الإسلام والقيم السياسية الغربية مثل التعددية، والتسامح، وفصل الدين عن الدولة، والمجتمع المدنى، والديمقراطية، وحقوق وحرية الفرد. ويردد طيبى أن أمام المسلمين خيارين لا ثالث لهما، إما الإسلام الأوربى، وإما الانغلاق والانعزال عن المجتمع، وفى بريطانيا مسلمون على هذا الرأى ينادون بامتزاج الإسلام بالقيم الغربية ويقولون: إذا كان هناك تغيير اجتماعى فلابد أن يكون هناك تغيير عقائدى أيضًا، ولذلك يجب أن يكون هناك تفسير جديد للإسلام، ويقول نيكولاس لوكسن: إن فكرة (الأمة الإسلامية) مجرد فكرة فلسفية وليست واقعا ديموجرافيا، فالمسلمون موزعون فى جميع قارات العالم، ومنقسمون إلى شيعة وسنة، وهم فى أوربا منقسمون تبعا للدولة التى جاءوا منها والدولة التى يقيمون فيها، ويقول البعض: إن تأسيس الدولة الإسلامية بدأ فى المدينة أى فى أرض (الشتات) التى هاجر إليها المسلمون، ولهذا كان للهجرة - أى الشتات - أهمية بالغة فى خلق عادات المسلمين، والمهمة التى يجب على المسلمين الموجودين حاليا فى (الشتات) فى أوربا القيام بها هى اكتساب عادات معتدلة وملائمة للمستقبل.

هكذا نرى كيف يحاولون الربط بين فكرة (الشتات) اليهودية وتواجد المسلمين فى المجتمعات الغربية، بما يوحى بالتماثل بين هجرة اليهود إلى إسرائيل وإقامة دولتهم فيها وهجرة الرسول ﷺ وجماعة المسلمين إلى

المدينة وتأسيس دولة الإسلام فيها، ويكفي ذلك للدلالة على مدى المغالطات التى لا تنتمى للإساءة إلى الإسلام واختلاق شرعية دينية وتاريخية لإسرائيل.

ومحاولة تأسيس (إسلام أوربى) تتكرر فى كتابات أمريكية وأوربية، وعلى سبيل المثال فإن صحيفة لوموند دبلوماتيك الفرنسية التى تحظى باحترام المثقفين فى العالم نشرت مقالا مطولا بقلم جوسلين سيزارى فى عام ٢٠٠١ بعنوان (إسلام أمريكى وإسلام أوربى) قال فيه: إن فى الدول الأوربية الرئيسية الآن أحد عشر مليون مسلم، وإعادة تشكيل هؤلاء مهمة ضرورية، ومن هنا بدأت تظهر عبارة (الكيان الإسلامى) وتزايدت الاعتراضات والتساؤلات حول ظاهرة الوجود الإسلامى فى أوربا. بينما الوجود الإسلامى فى الولايات المتحدة ظاهرة حديثة، وعلى الرغم من التواجد الملموس للمسلمين بين العبيد الذين جلبهم تجار العبيد من أفريقيا إلى أمريكا فى الماضى فإن تاريخ الإسلام لم يبدأ حقيقة فى أمريكا إلا مع موجات الهجرة المتتالية خلال القرن العشرين عندما بدأ تدفق مسلمى الهند وباكستان وإندونيسيا وأفغانستان، وأخذوا منذ السبعينات ينشئون المساجد والمدارس والمجلات والصحف الإسلامية. وهذه الديناميكية الدينية تختلف عن حال المهاجرين المسلمين من العرب فى مطلع القرن الذين غلب عليهم الاتجاه نحو الاندماج فى المجتمع الأمريكى، وتزايد انتشار الإسلام بين السود داخل المجتمع الأمريكى، ومن بين العدد الإجمالى للمسلمين فى أمريكا -وهو عدد يتراوح بين أربعة وستة ملايين مسلم- فإن نصفهم على الأقل من الأمريكيين السود الذين اعتنقوا الإسلام. وانتقال المهاجرين من دول إسلامية إلى بيئة غير إسلامية متعددة الأجناس، وعلمانية، شجعهم على اكتساب عادات جديدة لممارسة الشعائر الإسلامية، وهذه العادات نشأت من تفاعل ثقافات المهاجرين الأصلية مع ثقافة كل مجتمع من المجتمعات الغربية التى هاجروا إليها. ونتيجة لذلك انقسم المسلمون فى الغرب إلى قسمين : قسم ظل توجهه إلى موطنه الأصلى أو ما يسمونه (دار الإسلام) وهذا القسم يواجه صعوبات وتحديات فى المجتمع الغربى الذى هاجر إليه كما حدث فى مشكلة رفض الحجاب للتلميذات المسلمات فى مدارس فرنسا، ومشكلة تهميش المسلمين فى ألمانيا، وانغلاق المسلمين اجتماعيا واقتصاديا فى بريطانيا والولايات المتحدة. أما القسم الثانى الأقل عددا

فيشمل المسلمين المهاجرين الذين قبلوا الاندماج فى المجتمعات الغربية التى يعيشون فيها واعتبروا أنفسهم جزءا من هذه المجتمعات.

ويقول المقال فى تحليل أوضاع المسلمين فى الغرب: إن الصدام فى أوربا واضح بين المسلمين المهاجرين والأوربيين نتيجة الصبغة الدنيوية للعادات والعقليات الأوربية والصبغة الدينية للعادات والعقليات الإسلامية، مما يجعل الاعتراف بالإسلام فى أوربا أمرا أكثر تعقيدا مما فى الولايات المتحدة. وتبدو مسألة تنظيم المؤسسات الإسلامية قضية تقلق أوربا لأنها ترتبط بخصائص العلاقة بين الكنائس والدولة، أكثر من ارتباطها بعجز المسلمين عن التكيف مع مبدأ فصل الدين عن الدولة، أو فصل الدين عن السياسة، وجميع الدول الأوربية تعترف بحرية العبادة، ولكن مشكلة الدول الأوربية فى كيفية إدخال الإسلام فى الإطار القانونى القائم فيها. وفى الدول التى يوجد فيها اعتراف قانونى بجميع الأديان مثل بلجيكا، وإيطاليا، وأسبانيا، نجد القوانين فيها تنظم عمل المؤسسات الإسلامية؛ فقد أصدرت أسبانيا فى ٢٦ يناير ١٩٩٢ قانونا يقر أداء الشعائر الإسلامية من خلال اللجنة الإسلامية الأسبانية. وهذه اللجنة تضم الجمعيات والاتحادات الإسلامية. وفى بلجيكا أقرت الدولة إقامة الشعائر الإسلامية رغم تأخر انتخاب مجلس إسلامى يمثل المسلمين فى التعامل مع الدولة. ولكن العقليات السائدة فى أوربا مازالت تعترض على الاعتراف بالإسلام، وهذا ما يفسر رفض الاعتراف بالجمعيات الإسلامية الرئيسية كمنظمات دينية وإعفائها من الضرائب كغيرها من المنظمات الأخرى، مما يدل على عدم استعداد المجتمع لتقبل الإسلام كدين معترف به. وفى الحالات التى يوجد بها دين للدولة مثل بريطانيا، والدانمرك، واليونان، أو يكون فى الدول دين غالب، فإن الأقلية الدينية تتمتع بنفس حقوق الأغلبية ولكن ذلك يحدث متأخرا دائما، فالمسلمون البريطانيون يناضلون منذ سنوات طويلة للحصول على الموافقة بإقامة مدارس إسلامية معترف بها من الدولة، وبعد أن اعتنق الإسلام ستيفن مغنى البوب فى السبعينات وأصبح اسمه يوسف إسلام بدأ يرعى عددا من المدارس الإسلامية وحصل أخيرًا على اعتراف بهذه المدارس، ولكن ذلك ليس إلا تطورًا محدودًا. وأما الدول التى تلتزم بالفصل التام بين الدولة والكنيسة مثل فرنسا فلا تزال شرعية الإسلام المؤسسى مطروحة، ومنذ

عام ١٩٨٩ أصبح تنظيم الإسلام مسألة تخص الدولة، وقد فشل وزير الداخلية في محاولاته للتوفيق بين التيارات والجمعيات الإسلامية التي تتنازع حول الزعامة الإسلامية في فرنسا. وفي أكتوبر ١٩٩٩ اقترح وزير الداخلية على الجمعيات الإسلامية المختلفة الاتفاق والتوقيع على وثيقة تشمل تحديد المبادئ التي تؤسس عليها العلاقة بين الدولة ونشاط العبادات الإسلامية، ووجد هذا الاقتراح مماطلة من بعض قادة الجمعيات الإسلامية، وأخيرا قام جميع ممثلي الإسلام الفرنسيين بالتوقيع على هذه الوثيقة في ٢٨ يناير ٢٠٠٠ والمشاورات جارية لتنفيذ ما جاء في هذه الوثيقة .

وتأتي المشاكل في فرنسا من تمسك الفرنسيين باستبعاد المسائل الدينية، على الرغم من أن مجلس الوزراء يؤكد منذ عام ١٩٨٩ على أن الانتماء الديني لا يتعارض مع العلمانية. وعلى الرغم من الفصل التام بين الدين والدولة فإن الولايات المتحدة ما تزال هي الدولة الأكثر تدينا في المجتمع الغربي، و ٧٠٪ من الأمريكيين يؤمنون بالله، و ٩٠٪ يؤدون الصلاة يوميا أو مرة كل أسبوع، و ٧٠٪ أعضاء في الكنائس أو المعابد، و ٤٠٪ يحضرون القداس في الكنائس كل يوم أحد، وفي نفس الوقت بدأ التمسك بالتعاليم الدينية يتدهور على نحو مشابه لما يحدث في أوربا، مثل التخلي عن الطقوس الدينية الأساسية، ومثل الحرية الجنسية، وهذا التناقض في المجتمع الأمريكي سمح بظهور ممارسات دينية خاصة ومخالفات للدين والخروج عليه، أما أوربا فهي الوحيدة التي استقرت فيها العلمانية، واستقر فيها مبدأ فصل المؤسسات الدينية عن الدولة، وعدم الالتزام بالمبادئ الدينية.

وهذا ما يفسر الصعوبات التي يواجهها المسلمون في أوربا، بينما ينتشر الإسلام في المجتمع الأمريكي بشكل لا يقارن بما في أوربا.. وفي نفس الوقت يجب ألا نستخلص من ذلك أن المجتمع الأمريكي يتقبل الإسلام بصورة كاملة، فمازالت الأحكام المسبقة وعمليات التمييز ضد الإسلام قائمة من علامات التناقض الأمريكي، ويظهر الانحياز ضد الإسلام في وسائل الإعلام ابتداء من نشرات الأخبار إلى أفلام هوليوود التي تصور الإسلام بصورة مرادفة للإرهاب، وهذه الرؤية تؤثر على حياة المسلمين اليومية في المجتمع الأمريكي، فبعد الاعتداء على مركز التجارة العالمي تعرض المسلمون الأمريكيون لأشكال مختلفة من

التهديد والتخويف، بمثل ما يحدث للشباب المغربى المسلم فى فرنسا خاصة بعد عمليات الاعتداء التى وقعت فى باريس عام ١٩٩٥. وهنا وهناك فإن الأساليب الشائعة فى الحديث عن الإسلام هى تصويره على أنه (عقيدة شيطانية) وقد أقام مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية قضايا عديدة ضد شركات وجهات تضطهد المسلمين، وتستخدم عبارات ورموز إسلامية بصورة مهينة فيها إساءة إلى معتقدات المسلمين، ولاضطهاد العاملين المسلمين بسبب عقيدتهم، ويناضل مجلس المسلمين الأمريكيين للحصول على اعتراف سياسى بالطائفة المسلمة يتساوى مع وضع الطوائف الدينية الأخرى، كما يسعى إلى تغيير صيغة (أمريكا مجتمع يهودى - مسيحى) إلى (أمريكا مجتمع يهودى - مسيحى - إسلامى) من أجل إقناع الجميع بأن الإسلام يتضمن نفس القيم التى تقوم عليها الأديان الأخرى.
ويحاول المسلمون فى أوربا إثبات أن الإسلام له نفس الأهداف والقيم التى للأديان الأخرى ولكنهم لم ينجحوا فى ذلك.. وفى أمريكا نسبة أكبر مما فى أوربا من الصفوة المسلمة المهاجرة إليها من أطباء وأساتذة جامعات ومهندسين ورؤساء شركات، ووجود المسلمين فى الجامعات الأمريكية أكبر من وجودهم فى الجامعات الأوربية، بينما الغالبية العظمى من المهاجرين إلى دول أوربا من فقراء المغرب، وأفريقيا، والهند، وباكستان، وهم الذين هاجروا هربا من أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية السيئة فى بلادهم، ولا يغير من ذلك كثيرا ظهور مسلمين من الطبقة المتوسطة وبعض الشخصيات المثقفة فى أوربا.

هذا التحليل أيضا يعكس أولاً: سوء أوضاع المسلمين فى أوربا وأمريكا بشكل عام، وسوء الفهم للإسلام والمسلمين، والنظرة السائدة إلى الإسلام على أنه (دين الشيطان) كما فى مقال جوسلين سيزارى.

إلى متى يظل الإسلام والمسلمون فى الغرب ضحية سوء الفهم وسوء المعاملة ؟

هل الأفضل أن نوجه السؤال إلى الدول الأوربية، أو إلى الحكومات والمؤسسات الإسلامية التى تخصص لها عشرات الملايين من الدولارات لخدمة الإسلام فلا تعمل شيئا سوى بناء مساجد وتوظيف جيوش من العاملين ولا تتعامل بجدية مع مفاتيح الرأى العام فى أوربا وأمريكا ولا تنظم حوارات جادة لإيجاد جسور للتفاهم واستعادة الثقة على الجانبين ؟

صناعة العداء للإسلام !

لاٍ ننكر أن فى الغرب مفكرين يتحدثون عن الإسلام بإنصاف، ولكن فى الغرب أيضاً صناعة ضخمة، هى صناعة الكراهية والعداء للإسلام والمسلمين.

الذين يحاولـون إنصـاف الإسـلام فـى الغـرب قلـة ، مـن أمثـال الدكتـور هانيس ديترفنتر السفير الألمانى السابق الذى كتب دراسة قال فيها: إنه لايمكن مساواة الإسلام السياسى كأيديولوجية للوصول إلى الحكم مع الإسلام كعقيدة ودين، وإن سوء استخدام الإسلام كأيديولوجية لأسباب سياسية - كما حدث فى الأديان السماوية الأخرى - هو الذى أدى إلى فهم خاطئ لدى الأوربيين، وجعلهم يشعرون بأن الإسلام يشكل خطرا عليهم. وهناك أسباب مختلفة لصناعة العداء للإسلام، منها؛ أن الغرب محتاج إلى وجود (عدو) يحفز قواه، ويستنفر طاقاته ورغبته فى الحرب والانتصار واثبات التفوق والحصول على مكاسب وينشط صناعات الأسلحة وتطويرها، وهى الصناعة الكبرى التى يعتمد عليها اقتصاد الغرب.. وذلك بعد زوال (الخطر الشيوعى).. وقد يكون الدافع رغبة الغرب فى إلحاق الهزيمة بكل العقائد التى تختلف عنه لكى يفرض على العالم العقائد والفكر الغربى، وقد يكون السبب أن الإسلام موجود فى مجموعة الدول المتخلفة التى تسمى (العالم الثالث) ومن الطبيعى أن ينفر المتقدمون من المتخلفين، وأن يقلل الأغنياء من شأن الفقراء، وأن يتعالى المتعلمون على الجهلاء !.

يتساءل المفكر الألمانى الدكتور هاينس ديترفنتر: لماذا تحول النقاش عن الإسلام كعدو، إلى موضوع لإعداد مخططات الحرب والسياسات الأمنية للغرب فى السنوات الأخيرة؟.. والأحداث التى تقع فى (الحزام المتأزم) الممتد من المغرب إلى الخليج العربى هل تبرر التحدث عن الإسلام على أنه عدو وخطر محدق بالغرب ؟.

ويقول المفكر الألماني: لا شك أن هناك تفهما عميقا للاستياء الشديد من الأعمال الإرهابية التى يرتكبها الإسلاميون فى الجزائر أو فى غيرها، ومن حق الغرب أن يشعر بالمخاوف من أن تنتقل إليه هذه الأحداث الإرهابية، وقد زادت المخاوف بعد الثورة الإسلامية فى إيران التى أشعلها الخوميني، ومع اندلاع الحرب العراقية - الإيرانية، وبعد عمليات الخطف والتفجيرات التى قامت بها المجموعات الإسلامية. ولكن النقاش حول الإسلام كعدو يهدد أمن الدول الغربية قد ازداد فى نهاية الثمانينات وبداية التسعينات، بعد زوال الاتحاد السوفيتي وانتصار الغرب بعد أربعين عاما من الصراع والمواجهة بين الغرب والشرق، ثم جاءت حرب الخليج لتؤكد أن المنطقة العربية الإسلامية المتاخمة لأوربا من الجنوب تمثل الخطر الهائل المحتمل، وبعد أن أعلن صدام حسين فى ندائه الديماجوجي دعوة العرب والمسلمين إلى شن حرب (الجهاد) ضد الغرب، أصبح من السهل على القيادات العسكرية والمسئولين عن الأمن فى الغرب أن يحددوا الخطر والعدو، ولذلك فإن الحديث منذ عام ١٩٩٠ عن (الأخطار القادمة من الجنوب) هو موضوع البحث فى منظمة حلف شمال الأطلنطى والوثائق الصادرة عنه، وكذلك فى جيش ألمانيا، وفى تقرير صادر عن حلف شمال الأطلنطى أن الأخطار التى تهدد دول حلف الأطلنطى مصدرها الحركات الإسلامية المعروفة بعدائها للقيم الغربية، وقد كتب السكرتير العام السابق لحلف الأطلنطى، مانفريد فورنر فى رسالة موجهة إلى الحلف عام ١٩٩٠ جاء فيها: (تنشأ على طول الحدود الجنوبية لدول حلف الأطلنطى كتلة من التوترات تمتد من المغرب إلى الشرق الأوسط ويجرى تصعيدها من حكام متسلطين مثل صدام حسين، هذه المنطقة تعانى من مشاكل اقتصادية متأصلة ستؤدى حتما إلى مواصلة تفاقم مشكلة السكان، وإلى نشأة صراعات حول الموارد، وإلى زيادة التعصب الديني، وزيادة الإرهاب).

أما القائد الأعلى السابق لقوات حلف الأطلنطى، جون كلفان، فقد قالها بصراحة وبوضوح، ودون التفاف وراء عبارات وكلمات مراوغة، وأعلن فى محاضرة ألقاها فى عام ١٩٩١: (لقد عرف هذا القرن أطول مجابهة بين الغرب والإسلام منذ أكثر من ألف سنة، امتدت من الحروب الصليبية حتى

العصر الحديث.. وبعد أن انتصر الغرب فى الحرب الباردة ها هو ذا الصراع يعود إلى المحور الرئيسى، وهو المواجهة بين الغرب والإسلام، والسؤال هو: هل سيستعيد التاريخ العسكرى الغربى محوره الرئيسى الصحيح، أى المجابهة مع الإسلام، بعد أن انشغل عنه منذ هزيمة الجيش التركى على أبواب فيينا عام ١٦٨٣؟ هل سيسلط (سيف الإسلام) الحرب ضد أوروبا مدججا هذه المرة بأسلحة حديثة، قد تكون منها (القنبلة النووية الإسلامية؟).

ويضيف الباحث الألمانى هاينس ديترفنتر إلى أقوال قائد قوات حلف الأطلنطى السابق أنه من الصعب التغاضى عن أقوال كلفان الذى يتهم أكثر من مليار مسلم فى العالم بأنهم أعداء محتملين للغرب، وهذا الرأى يلقى انتشارا فى التفكير السياسى الغربى، فبعد عامين من إعلان قادة حلف الناتو عن أن (العدو هو الإسلام) ظهرت نظرية صموئيل هنتنجتون عن صراع الحضارات، وقال فيها: (إن الصراع القائم فى السياسة الدولية بعد انتهاء الحرب الباردة هو صراع بين الحضارة الغربية والحضارات الأخرى وأولها الإسلام).. ولا شك أن مواقف هنتنجتون وكلفان وغيرهما لها انعكاسات سلبية على علاقة الغرب بالعالم العربى والإسلامى، وتشجع التفكير العدائى ضد الإسلام فى الغرب، وتجعل العقل الغربى يرى أن الإسلام هو الإرهاب والأعمال المتطرفة للمجموعات الإسلامية.

يقول المفكر الألمانى فى تحليل موقف الغرب والفكر السائد فيه: إن هناك قلقا لدى المسئولين والسياسيين فى العالم الإسلامى والعالم العربى من العداء المتزايد للإسلام فى الغرب، مما قد يؤدى إلى قيام صراع جديد، وقد عبر عن هذا القلق الرئيس المصرى حسنى مبارك: فى حديث قال فيه: (لا يريد المسلمون أبداً أن يعاملوا على أنهم إرهابيون يقومون بالأعمال السرية فى النظام العالمى الجديد، بل يريدون التأكيد على أن لهم مصلحة فى التعاون مع كافة دول العالم على قدم المساواة، ولتحقيق ذلك يجب تصحيح الصورة المشوهة عن العرب والمسلمين فى عيون العالم، بناء على الأعمال الإجرامية التى يقوم بها المتطرفون المسلمون، وللأسف فإن الغرب يقيم نظريته انطلاقا من نشاط هذه المجموعات دون أن يستوعب الحقيقة وهى أن الإسلام لا يشكل خطرا من أى نوع،

وبعض الدوائر فى الغرب تصب الزيت على النار عندما تتناول العلاقة بين الغرب والإسلام).

وفى دراسة المفكر الألمانى يقول: إن الأمر لا يتعلق فقط بالاستيعاب الصحيح أو الخاطئ فى الغرب عن الإسلام، ولكنْ هناك حقائق تغذى مشاعر العداء فى الغرب، فقد زادت الأعمال الإرهابية التى تقوم بها الجماعات الإسلامية، وإذا قيل إن دوافع الإرهاب ترجع إلى الوضع الاقتصادى والاجتماعى للشعوب الإسلامية ولا ترجع إلى الدين الإسلامى ذاته، فإن السؤال الآن: كيف تمكن هؤلاء من استخدام الدين الإسلامى لأهداف سياسية، وكيف أصبحت لهم شعبية تؤيدهم منذ ١٩٨٩ وما بعدها؟.

ويجيب عن ذلك بقوله: إن الإسلام السياسى تطور منذ السبعينات، وكان قد لقى دفعة قوية بعد هزيمة الدول العربية عام ١٩٦٧ فى حربها مع إسرائيل، كما كان للتغيرات التى حدثت فى السياسة العالمية منذ نهاية الثمانينات وبداية التسعينات تأثير مباشر دعم هذا التيار، ويشير المفكر الألمانى إلى مخاوف الغرب من عمليات الإرهاب فى الجزائر، كما يشير إلى منظمتى حماس وحزب الله فى فلسطين على أن أعمالهما أعمال إرهابية، ويشير أيضا إلى موجة الإرهاب التى شهدتها مصر والسودان بعد أن استولى الترابى على السلطة. ويرى الغرب أن التيار الإسلامى هى قوة المعارضة فى كل الدول العربية، فى حين كانت المعارضة فى الستينات تتألف من القوى القومية، وترجع أسباب صعود القوى الإسلامية إلى الاحتلال الإسرائيلى للأراضى الفلسطينية، وتدهور الأوضاع الاقتصادية فى الجزائر وتضخم عدد السكان. وانتشار البطالة بين الشباب، ونشاط الإسلام المتطرف الراديكالى فى صفوف الطائفة الشيعية فى لبنان نتيجة الاعتداء الإسرائيلى عام ١٩٨٢ وما تبعه من احتلال لبنان، إلا أن حركات الرفض هذه تبدو وكأن أسبابها محلية، فإن لها علاقة مباشرة بالتطورات الاقتصادية العالمية التى تترك آثارا سلبية على تطور دول العالم الثالث، وأهمها مسألة الديون التى تخضع تحت أعبائها هذه الدول، ولهذا فليس غريبا أن يستغل الإسلاميون هذه الأمور ويتخذوها ذريعة لمهاجمة الغرب، كما يهاجمون النظام العالمى الجديد الذى ظهر إلى الوجود بعد حرب الخليج، لأن هذا النظام لم يأت بجديد لهذه

الشعوب، ولم يتضمن أى برنامج لصالحها، وبالإضافة إلى ذلك فإن تدخل الغرب فى الشئون الداخلية للعالم العربى والعالم الإسلامى يمثل سببا مهما لتوتر العلاقات، ولا يخفى الغرب أنه يتدخل فى الشئون الداخلية، وقد قالت مجلة (الإنسان) التى تصدر فى باريس والتى تعالج موضوعات ذات صيغة عالمية: (إن التدخل فى الشئون الداخلية، وخرق السيادة الوطنية، هما من خصائص النظام العالمى الجديد) وأشارت المجلة بالاتهام إلى التحيز فى النظام العالمى الجديد، فهو ضد تسليح العراق ولكنه مؤيد لتسليح إسرائيل، وهو ضد احتلال العراق للكويت، وأزال هذا الاحتلال بالقوة العسكرية، ولكنه مؤيد لاحتلال إسرائيل الضفة الغربية، وهذا النظام يعلن أنه يسعى إلى فرض الديمقراطية فى جميع دول العالم، ولكنه مؤيد للحكومة الجزائرية فى موقفها ضد الديمقراطية عندما قامت بإلغاء الانتخابات التى نجح فيها الإسلاميون.

ويقول المفكر الألمانى: إن شعبية الإسلام السياسى ازدادت بعد حرب الخليج، وظهر كحركة تمرد ضد سيطرة الغرب على العالم، ونوع من الرد على النظام العالمى الجديد بعد أن أعلن الرئيس الأمريكى جورج بوش (الأب) أن الحرب ضد العراق هدفها تأكيد قيادة النظام العالمى الجديد، وقد فسر أحد علماء السياسة الألمان، هو أولريش البرشت انتشار الحركات الإسلامية بأنها رفض من العالم الثالث للطرق التى يريد الغرب فرضها لتحقيق التقدم والتنمية، ورفض للمفاهيم والاستراتيجيات الغربية، ولكن - مع ذلك - لم يبرهن الإسلاميون على أن باستطاعتهم وضع بديل معقول لحل القضايا المتأزمة التى تعانى منها شعوب العالم الثالث، ولا يزال للحركات الإسلامية تأثير كحركات للرفض، وقد جاء فى البيان الصادر عن قمة الدول الغنية فى (نادى روما): (سوف تزداد الهوة بين الأغنياء والفقراء، وبين الشمال والجنوب، وبخاصة سوف يزداد الشعور بالغبن وغياب العدالة فى الشعوب العربية والإسلامية).

ويقول الباحث الألمانى: إنه فى فترة من الفترات شجع الغرب القوى الإسلامية لتكون ضد قوى القومية العربية، وحدث ذلك بتأييد من الولايات المتحدة، كما نظمت جماعات المجاهدين فى أفغانستان وأمدتهم بالأموال والسلاح بطريق مباشر وغير مباشر لمحاربة الاتحاد السوفيتى، وهذه الجماعات التى

نشأت برعاية أمريكا هي التى تمثل الجماعات الإرهابية التى تحارب أمريكا العالم بدعوى القضاء عليها، وتفسير هذا التغير فى المواقف الأمريكية أن المصالح الأمريكية تغيرت بعد انتهاء الحرب الباردة، ورغم أن الولايات المتحدة تعلن أنها تسعى إلى فرض الديمقراطية وحقوق الإنسان والتسامح وغيرها مما تسمية القيم الأمريكية، فإنها تساند الدول المعادية للديمقراطية ما دام ذلك يحقق مصالحها مما يدل على أن الدافع الأول لأمريكا هو مصالحها وليس القيم أو المبادئ أو الدفاع عن الديمقراطية! وسبق أن وجهت أمريكا القوى الإسلامية ضد النظم الاشتراكية، كما وجهتها ضد القومية العربية، والنتيجة أن الثغرة التى تركتها الأيديولوجية القومية والاشتراكية تملؤها اليوم أيديولوجية القوى الإسلامية. وهدف الحركات الإسلامية من معارضة أنظمة الحكم القائمة الوصول إلى السلطة. وفى صفوف الإسلاميين اتجاه معتدل يتحرك فى إطار الشرعية، كالمشاركة فى الانتخابات، ولديهم استعداد للاندماج فى النظام السياسى فى بلادهم إلى أن يصلوا إلى الحكم. وهناك اتجاه ثان يسعى إلى القضاء على النظم القائمة بالقوة وبالأعمال الإرهابية، ودلت التطورات على أن الاتجاه الإسلامى يغير الخط الذى ينتهجه، فمثلا كان الاتجاه المعتدل هو الغالب فى الجزائر فى بداية التسعينات وكان يسعى إلى السيطرة على الحكم عن طريق الانتخابات، ونجحوا فى تحقيق ذلك وحصلوا على أغلبية المقاعد فى الانتخابات لولا أن الجيش تسلم الحكم وقام بإلغاء نتيجة الانتخابات، وتغير أسلوب العمل فأصبح العنف هو وسيلة الإسلاميين فى الجزائر للسيطرة على الحكم.

يقول الباحث الألمانى الدكتور هاينس ديتر فنتر: إن من واجب كل دولة تأمين وحماية مواطنيها وضيوفها الأجانب، وبالأخص حمايتهم من الإرهاب والعنف، وكذلك واجبها المحافظة على الأمن والنظام من المحاولات الهادفة إلى إشاعة القلق وعدم الاستقرار، ومن الضرورى التصدى للأسباب التى تساعد على صعود الإسلاميين فى كل بلد، وقد دلت التجارب على أن القوى الإسلامية المتطرفة تلقى التجاوب فى المناطق المهملة من الدولة.

ويقول: إن مخاوف الغرب ليست ناتجة من محاولات الجماعات نشر الرعب وعدم الاستقرار فى بلادهم، ولكن الخوف من أن تنتقل هذه الأعمال

الإرهابية إلى الدول الغربية عن طريق المسلمين المقيمين فى الغرب والذين يتزايد عددهم باستمرار، وفى مناقشة نشرت فى مجلة (فورن افيرز) Foreign Affaires جاء فيها: (إنه من المعتقد وجود مركز إسلامى دولى، أو قيادة إسلامية دولية، توجه العمليات الإرهابية فى أنحاء العالم، على غرار تنظيم (الشيوعية الأممية) التى كانت تديرها موسكو سابقا، وهناك دلائل تشير إلى أن إيران تمثل هذا المركز، وفى الغرب مخاوف من أن تؤدى طموحات الإسلاميين إلى إعادة قيام إمبراطورية إسلامية مما يهدد دول الغرب، والحقيقة أن إيران أو بعض قادتها، يقدمون المساعدات للجماعات الإسلامية فى الدول الإسلامية بهدف تحقيق أطماع خارجية لإيران، ولكن نظرا لشدة الاختلافات وتضارب المصالح السياسية والاقتصادية بين الدول العربية والإسلامية، والتناقضات فيما بينها، فإنه من المستبعد أن تقوم دولة عربية موحدة، أو دولة إسلامية موحدة، لأن القاعدة السياسية والاقتصادية لقيام مثل تلك الدولة غير موجودة، وأقصى ما يمكن أن تصل إليه إيران بوزنها الإقليمى، وطاقاتها الاقتصادية، وموقعها، هو السعى إلى تحقيق (نوع من السيطرة) فى منطقة الخليج، وهذا مطمع سياسى لا علاقة له بالإسلام، وحكم الشاه السابق على قيام الثورة الإسلامية كان يسعى إلى تحقيق نفس الأهداف.

وبالرغم من ذلك فإن فكرة إمكان وصول القوى الإسلامية إلى السلطة فى بعض الدول تبعث على الخوف فى الغرب. والسؤال: هل ستشكل مثل هذه الدول خطرا على السلام فى العالم وعلى الأمن فى أوربا؟.

والإجابة عند الباحث الألمانى: (ليس هناك دولة عربية واحدة تملك الموارد والإمكانات التى تسمح لها بالحصول على التكنولوجيا الحديثة التى تملكها دول الغرب. وبالنسبة للدول الإسلامية الغنية فمن المستبعد أن تصل القوى الإسلامية إلى الحكم. وأيضا من المستبعد امتلاك دول إسلامية لأسلحة نووية. ولكن الذى يعوق حظر امتلاك أسلحة نووية فى منطقة الشرق الأوسط أن إسرائيل تمتلك هذه الأسلحة بالفعل وترفض نزع الأسلحة النووية من المنطقة. وإيران نفسها اضطرت إلى اتباع سياسة معتدلة، بعد وصول محمد خاتمى إلى الحكم، ولم تعد مسألة تصدير الثورة الإسلامية من أولويات الحكومة، بل إنها تسعى إلى إقامة علاقات

جيدة مع الغرب وخصوصا العلاقات الاقتصادية ، وقد استطاع هذا الاتجاه البراجماتى أن يفرض نفسه ضمن القيادات المتصارعة فى الساحة السياسية الإيرانية. ولكن – مع كل ذلك – ما يزال الاحتمال قائماً إذا فشل النظام الإسلامى فى أى بلد أن يلجأ إلى توجيه الغضب الشعبى نحو الغرب، ويثير الشعور بأن البلاد تواجه التهديد الخارجى، ومثل هذه المغامرات السياسية تمثل خطرا دائما للغرب حتى وإن لم تكن لها علاقة بالإسلام، ومفكر مثل كالفان يرى أن العالم سوف يشهد فترة جديدة من الحروب بين الغرب والإسلام، وسوف تؤدى الأزمات الاقتصادية وتضخم السكان فى الدول الإسلامية إلى دفع أعداد هائلة من المسلمين إلى الكفاح تحت راية الإسلام ضد الأنظمة المحلية وضد سيطرة الغرب، وقد كان عدد سكان العالم العربى فى ظل الإمبراطورية العثمانية التى سقطت عام ١٩١٨ يبلغ ٣٥ مليون نسمة، وعندما قامت ثورة يوليو عام ١٩٥٢ كان سكان العالم العربى ٨٠ مليون نسمة، وعندما أصيب العرب بهزيمة ١٩٦٧ كان عددهم ١١٥ مليون نسمة، والآن يزيد عددهم على ٢٠٠ مليون نسمة، ومن المنتظر أن يتضاعف هذا العدد فى خلال ربع قرن. وتبلغ نسبة الشباب أقل من ١٥ سنة ٤٥٪ أى ما يعادل ٨٩ مليون شاب، ماذا سيكون موقفهم فى ظروف الفقر وفقدان الأمل فى أن يساعدهم الغرب الغنى؟.

يقول المفكر الألمانى إذا كان الغرب يريد تفادى الزحف الإسلامى فعليه أن يساعد على علاج الأسباب التى تؤدى إلى نشأة ونمو التطرف والعنف فى العالم الإسلامى، ولكن من الواضح غياب استراتيجية مشتركة لدول الغرب لمساعدة الدول الإسلامية خصوصا الدول المتاخمة لحوض البحر المتوسط القريبة من أوروبا.

وفى البحث عن جذور العداء، يقول الباحث الألمانى: إن الدول الأوروبية والولايات المتحدة لا تساعد بما فيه الكفاية على حل مشاكل الدول الإسلامية، ولا تقدم للعالم الإسلامى الدليل على الإنصاف والعدالة من جانب الغرب تجاه القضايا المصيرية فى الدول الإسلامية. بل إن النظام الاقتصادى العالمى الحالى قائم على إنتاج التخلف. وبالرغم من أن السياسة الرسمية فى الغرب تعلن رفضها لنظريات العداء للإسلام إلا أن التعامل الفعلى للغرب مع الدول الإسلامية،

والمناخ العام السائد فى الغرب عموما يبشران بصراع الحضارات، وفى ألمانيا على سبيل المثال عندما يجرى الحديث عن المنطقة المتأزمة التى تشمل دول الجنوب الإسلامية يتبع ذلك دائماً الحديث عن التدخل العسكرى للجيش الألمانى، ولا يدور حديث عن إزالة الأسباب الداعية للأزمات والنزاعات وحلها بالطرق السلمية، أو عن إعادة النظر فى علاقات دول الغرب بالدول العربية والإسلامية على أساس المساواة والعدالة، وهناك الكثير من الدلائل التى تشير إلى عودة العلاقة بين دول الغرب ودول الجنوب عموما إلى مرحلة علاقة (سيد ومسود)، وفى أسوأ الأحوال قد تؤدى هذه العلاقة إلى عزل دول الغرب فى حصن محاط بالأسوار لحمايتها من الأخطار التى تهددها من جيوش النازحين القادمين من الشاطئ الآخر للبحر المتوسط - وفى مثل هذا الموقف من الغرب لدول الجنوب فإن تصوير الإسلام والمسلمين على أنهم (العدو) ونشر هذه الصورة بين الرأى العام، من الوسائل التى لا غنى عنها لسياسة الدول الغربية. والولايات المتحدة تقسم الدول العربية والإسلامية والقوى السياسية فيها إلى قسمين: قسم يقبل سيطرة الغرب على المنطقة، وقسم يرفض هذه السيطرة، وهذا القسم هو الذى يمثل الدول التى توجه إليها الولايات المتحدة الاتهام بالإرهاب، وتتخذ الإجراءات لمعاقبتها من وقت لآخر بغرض الحصار الاقتصادى عليها، أو ربما باستخدام عصا التدخل العسكرى الغليظة ضدها، وفى نفس الوقت تتظاهر الولايات المتحدة أمام الدول العربية النفطية بأنها هى التى تقوم بحمايتها ومستعدة للتدخل العسكرى من أجل ذلك إذا تطلب الأمر. لكن مثل هذه السياسة تلقى الرفض تدريجيا من الدول التابعة للولايات المتحدة، لأن سياسة التبعية هذه تعطى للإسلام السياسى الحجة فى دعايته المعادية للغرب، وللأسف فإن هذه السياسة الأمريكية تلقى الدعم غالباً من حكومات الدول الغربية.

ينتهى الباحث الألمانى الدكتور هاينس ديتر فنتر إلى أنه: قد حان الوقت لكى تضع دول أوربا لنفسها سياسة مستقلة، للتعامل مع الدول العربية الإسلامية القريبة منها، مستفيدة من دروس التاريخ الذى يعود إلى أكثر من ألف سنة، فالمنطقة الممتدة من المغرب إلى الخليج ملأى بالقضايا الساخنة، وهناك حالة من الاستياء المتزايد بين شعوب المنطقة تجاه العلاقة بين الغرب والدول العربية

والإسلامية، وأن التطورات الحالية فى المنطقة يجب أن تجد الانتباه الكافى من جانب دول الغرب وهى تتطور بشكل دراماتيكى، وتشكل عاملا يبعث على عدم الاستقرار فى العلاقات الدولية، ويجب ألا تحمل هذه التطورات أوربا على تثبيت أو تكبير صور العداء للإسلام، لأن هذا لا يجدى وهو خطر فى آن واحد. والأفضل من ذلك البحث عن أسباب انتشار الإسلام السياسى والقوى المتطرفة فيه، لأن الغرب يتحمل مسئولية كبيرة فى ذلك، فلقد كانت الدول العربية تحت الاستعمار والحماية الأوروبية بعد الحرب العالمية الأولى، والدول الغربية هى التى قسمت المنطقة ووضعت بذور المشاكل التى تعانى منها حتى اليوم، هذا إلى جانب مشاكل التخلف والفقر التى تعانى منها نتيجة السياسة الاقتصادية التى تتبعها الدول الصناعية المتقدمة الغنية. أى إن الأمر يتوقف على الغرب أساسا، ويجب أن يكون للدول العربية والإسلامية موقع ملائم داخل النظام العالمى الجديد.

ويختتم بحثه بالقول: بأن الغرب إذا أراد أن ينزع فتيل الأزمة بينه وبين والإسلام فعليه أن يشعر بمسئوليته ويقوم بالمبادرة والبدء بفتح الطريق لذلك.. بالمساعدة على حل القضية الفلسطينية حلا حقيقيا وعادلا، وعدم تجاهل الحقوق العربية، أو فرض حلول جزئية، أو طمس الأسباب الحقيقية للنزاع، ومن الضرورى أن يشعر العرب والمسلمون بعدالة الحل، وخاصة فى مسألة القدس التى تمس أكثر من مليار مسلم، ويجب أن يشعر الفلسطينيون بتحسن ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية، ومن الضرورى وضع خطة اقتصادية للمنطقة مثل مشروع مارشال لإنعاش الدول العربية وتشارك دول الغرب فى هذا المشروع، ويمكن إنشاء هيئة لحل الخلافات وتحقيق التنسيق بين دول الغرب ودول المنطقة، والمطلوب من الولايات المتحدة والدول الأوروبية الإسراع فى إقامة نظام للسلام فى المنطقة، ولا يمكن أن يتحقق ذلك دون احترام استقلال أصحاب الشأن فى المنطقة وعدم إجبارهم على القبول بالنموذج الغربى، ووضع حد للدعايات المنتشرة فى دول الغرب التى تعمد إلى نشر صور عدائية عن الإسلام والحديث عن صراع الحضارات.. وعلى الغرب أن يعمل على تفهم قضايا العالم العربى

والإسلامى واحترام الدين الإسلامى، والثقافة والتقاليد السارية فى العالم الإسلامى، وإقامة الحوار والتعاون على أساس التكافؤ وليس المجابهة.

وفى آخر كلماته يقول الباحث الألمانى: إن الخطر الذى يهدد الغرب لا يأتى من الإسلام، بل من إخفاق السياسة الأمريكية والأوروبية فى التعامل مع دول الجنوب.

كثير مما قاله الدكتور هاينس ديترفنتر يمثل صوت العقل والتوازن والموضوعية فى الغرب.. ولكن - مع الأسف - فإن هذه الأصوات قليلة.. ولا تجد آذانا صاغية.. وغير مؤثرة فى وضع السياسات وصنع القرار.. ومع ذلك يجب أن نوجه إليها التحية، ولو كانت لدينا مؤسسات حية لمدت يدها إلى أصحاب هذه الأصوات وتدعمها وتساعدها على استكمال فهمها للإسلام..

تشويه الإسلام . . صناعة قديمة !

في دراسة للمستشرق الألماني جيرنوت روتر عن (الإسلام والغرب: الجاران المتخاصمان) يقول تحت عنوان (الإسلام.. العدو الوهمي الجديد للغرب).. إن الأمور كانت بسيطة في أذهان الغرب منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى انهيار الدول الشيوعية، فقد كنا نحن الأخيار الطيبين، أما الآخرون فكانوا دائما هم الأعداء الأشرار. وهكذا كانت صورة (العدو الوهمي) بسيطة وسهلة الفهم. ولكن بعد انهيار المعسكر الشرقي عام ١٩٩٠ أصيبت هذه الصورة عن العدو الوهمي بالتصدع، ثم أصبحت غير صالحة لتبرير ارتفاع الإنفاق العسكرى فى الغرب بالنسبة للقادة العسكريين ومنتجي السلاح والمسئولين السياسيين.. وعندما انقض صدام حسين على الكويت بعد ذلك بشهور قليلة مهددا بذلك - كما قيل- إمدادات الغرب بالنفط، جاء هذا الاعتداء فى الوقت المناسب تماما، وكان التوقيت دقيقا إلى درجة أن البعض لم يشأ أن يصدق أنه حدث مصادفة ليقدم (للعالم المتمدين) عدوا وهميا جديدا هو (الإسلام) وتم تجاهل الحقيقة وهى أن صدام حسين لا يمثل الإسلام، كما أن نورييجا مثلا لا يمثل المسيحية، ولكن مع ذلك تكاملت الأيديولوجية لصورة العدو الجديد..

وفى سنة ١٩٩٣ قدم صمويل هانتجتون - مدير المعهد الشهير للدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفاد - نظرية مفادها أن الصدامات العسكرية المستقبلية ستحدث على طول الشريط الواقع بين الحضارات، خاصة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية. وبذلك تم الترويج للصدامات المستقبلية على أنها صدامات لا يمكن تحاشيها، وكان الاستقبال الإيجابى لهذه الدعوى فى وسائل الإعلام الغربية مخيفا حقا، مما يثبت - فى رأى جيرنوت روتر- أن حرب الحضارات التى تنبأ بها كانت قد بدأت بالفعل فى عقول الغربيين من قبل أن يعلن هانتنجتون نظريته !

ويقول المستشرق الألماني في دراسته: التي ترجمها الدكتور ثابت عيد الباحث المصرى المقيم في سويسرا - إن التنافر وعدم التوافق المزعوم بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي - من وجهة نظر الغربيين - حقيقة لا ريب فيها، ومن النادر إبراز نقاط الاتفاق بين الإسلام والمسيحية واليهودية التي تفوق نقاط الخلاف بينها، ولا يتحدثون عن أن منشأ الديانات الثلاث هو المنطقة العربية، وأن إبراهيم هو الأب الأول لجميع الأديان، وأن التوحيد هو الجوهر في الديانات الثلاث، وهي تتفق في أن الجنة والنار هما جزاء العمل في الدنيا. ولكن العامل الذى يفرق بين الديانات الثلاث هو اعتقاد كل منها أنه هو الذى يملك الحقيقة المطلقة. والتصورات العدائية المتبادلة لا تتعلق أساسا بخلافات عقائدية، والدليل على ذلك أن التناقض عند كلا الطرفين ليس بين الإسلام والمسيحية، ولكنه بين الإسلام والغرب، وهذا يعني أن نقطة الانطلاق تتمثل في كتلتين ثقافيتين تسمى الأولى باسم دينها، وتسمى الثانية باسم موقعها الجغرافي وليس باسم دينها، وهكذا يتم النقاش على مستويين مختلفين، ولذلك لا يتحقق التفاهم بين الطرفين. ويضاف إلى ذلك سوء الفهم كسبب آخر لهذه التصورات العدائية، فكل فريق يعتبر أنه على صواب وأن كل ما يخالف القيم التي يعتنقها خطأ، وفي القرون الوسطى مثلا ظهرت (ملحمة رولاند) وفيها أن العرب يعبدون محمدا ﷺ وابوللو، وتيرفاجانت، أى إن المسلمين لديهم الثالوث. والتهمة الثانية التي كانت رائجة في الغرب في القرون الوسطى هي أن المسلمين يعبدون الله، ويعبدون معه (فينوس) إلهة الحب عند الرومان، وكان الدليل على ذلك عندهم أن المسلمين جعلوا يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع، ويوم الجمعة في القرون الوسطى كان يوم (فينوس)، بينما كان يوم الأحد يوم الإله. وهكذا كان الجهل من أكبر أسباب سوء الفهم والعداوة..

ويقول المستشرق الألماني جيرنوت روتر: إن الجهل وقصور الفهم هما أيضا ما يجعل الغربيين الآن يعتبرون الإسلام مساويا للإرهاب والتطرف والعنف. ولا يتفهم الغربيون التيارات المختلفة داخل الإسلام، مثل التيار التقليدى والتيار الإصلاحي والتيار الصوفي، وتيار المثقفين الذين يؤمنون بالإسلام كديانة.. وهم مسلمو الثقافة فحسب. مثلما يشعر بعض الغربيين المنكرين لوجود الله بانتمائهم إلى الثقافة الغربية المسيحية، والغربيون يركزون رؤيتهم على المتطرفين الذين

يسمون أنفسهم (الإسلاميين) ويتجاهلون وجود المسلمين المسالمين، وهذا التجاهل يتم لأنه يخدم المصالح الاقتصادية والسياسية للغرب !..

وحين ينتقل جيرنوت روتر بعد ذلك إلى الكتب التى تدرس للتلاميذ فى ألمانيا عن الإسلام.. يقول: إن كتب التاريخ تتوقف فقط عند ثلاثة أحداث عسكرية حين تتناول موضوع اتصال الغرب المسيحى بالعالم الإسلامى، أولها معركة (بلاط الشهداء) المسماة موقعة (تور وبوايتيه) سنة ٧٣٢ التى أنقذ فيها شارل مارتل الغرب - كما يقال - من الاجتياح الإسلامى، ومازال تمجيد هذا الحدث التاريخى يمثل جزءا من المعارف الأساسية فى الغرب، بالرغم من أن هذه الحملة من وجهة نظر المسلمين عديمة الأهمية من الناحية الاستراتيجية العسكرية.. والحدث الثانى الذى يدرسه التلاميذ هو الحملات الصليبية، ومع أن الغرب لم يعد يمجدها كعمل بطولى عظيم، إلا أن الحسرة على فقدان القدس تظهر تلميحا فى كل ما يقرؤه المرء أو يسمعه عن هذا الموضوع، ويتم تمجيد الأمير أويجن (الفارس النبيل) كمنقذ للغرب والمسيحية، لأنه هزم الأتراك، وكل ذلك يجرى تحت الشعار الذى يبدو أنه لا يمكن استئصاله وهو أن مقصد الإسلام الوحيد هو التوسع بالغزو والحرب وأن الدول التى كان حكامها مسلمين كان هدفها التوسع. وتمثل فكرة (الحديد والنار) فكرة نمطية ثابتة فى إطار المشاعر العدائية تجاه الإسلام- وبذلك فإن الإسلام والمسلمين - وفقا لهذه الفكرة - يتسمون بالعنف والعدوانية بطبيعتهم، وبالتالى فهم يمثلون تهديدا للحضارة الغربية، ولم يتغير شىء من هذه الصورة منذ القرون الوسطى برغم كل الخبرات التاريخية.

ويقول المستشرق الألمانى: إنه إذا كان الغربيون قد استمتعوا فى ذلك الوقت بتصوير محمد ﷺ كوحش شيطانى مخيف، وبالروايات التى تصف المسلمين وهم يقطعون أطراف الصليبيين وهم أحياء، وينزعون أحشاءهم من أجسامهم. فقد احتل مكانها اليوم كتب مثل (سيف الله) و(سيف الإسلام) و(السيف الأخضر).. إلخ.. ويأتى دائما الحديث عن (مشاعر الجماهير الإسلامية التى لا يمكن التنبؤ بها).. على حد تعبير الصحفى الألمانى شول لاتور، تماما مثل الحديث عن (الرغبة العربية فى تدمير الذات). ويتحدثون عن التاريخ العربى بالقول: بأن

حلم تأسيس وطن عربى كبير تبدد منذ سنة ٦٢٢ ويتحدثون أيضا عن المذابح والاغتيالات وأعمال العنف التى يقوم بها مسلمون.. ويقولون: لقد قضت نشوة القتل والاستشهاد فى مراحل متقطعة على محاولات بناء دولة مستقرة ذات توجهات عقلانية. وتظهر فى كتابات مؤلفين كثيرين مثل جيرهارد كونسلمان وغيره فكرة نمطية أخرى مع العنف هى القول بأن المسلمين عامة والعرب خاصة ليسوا عقلانيين.

ويقول المستشرق الألمانى: إن فكرة الجهاد من مبررات القول فى الغرب بأن الإسلام دين العنف. وقد أعلنت الجماعات الإسلامية المتطرفة الجهاد شعارا لها لإضفاء الشرعية الدينية على أعمالها الإرهابية، ولا يجد العلماء المسلمون منبرا فى الغرب يمكنهم من خلاله توضيح أن الجهاد شرع فى حالة الدفاع عن النفس، وأن يعلنوا رفضهم للإرهاب الذى تقوم به هذه الجماعات ويبينوا أنه لا علاقة له بالإسلام..

ويقول إن العداء المتبادل بين الغرب والمسلمين يستند فى كتابات المتشددين الإسلاميين إلى حقائق تاريخية محددة بداية من الحروب الصليبية ومرورا بالقضاء على المسلمين واليهود فى أسبانيا وطردهم منها، وعبورا بمحاكم التفتيش حتى عصر الاستعمار والانتداب، وانتهاء بتأسيس دولة إسرائيل وسياسة الاقتصاد العالمى التى توصف بأنها استغلالية وإمبريالية، والتى يطبقها الغرب بمساعدة بعض الحكومات فى الشرق الأوسط. كذلك تدخل دول الغرب فى الشئون الداخلية للدول الإسلامية والعربية. وإدعاء الولايات المتحدة بحقها فى الهيمنة على العالم.. كل ذلك يغرس فى المسلمين شعور العداوة، وأضيف إليه أخيرا عمليات التصفية الجسدية للمسلمين التى قام بها الصرب فى البوسنة..

وهكذا يصل المستشرق الألمانى إلى أن المخاوف متبادلة.. مخاوف فى الغرب بأنه مهدد من العالم الإسلامى، ومخاوف فى العالم الإسلامى من التهديد المستمر من الغرب، ولهذا الخوف ما يبرره وهو تهديد حقيقى - كما يقول - تهديد مادى وتهديد ثقافى، والوهمَ الغربى بأن المسلمين لا عقلانيين يقابله وَهْمُ

المتشددين الإسلاميين بانحطاط الغرب أخلاقيا، ويعبر كل من عالج هذه الموضوعات على الجانبين عن الخوف من فقدان الهوية الحضارية..

ويقول المستشرق الألماني: بجانب فكرة عدوانية الإسلام، تحتل مكانة المرأة في المجتمعات الإسلامية الصدارة في صورة العدو، وهذه أيضا فكرة نمطية ثابتة تعود جذورها إلى القرون الوسطى، فقد نتج عن التصور الإسلامي عن الجنة على أن فيها الحور العين ذوات البكارة الأبدية.. والحق الشرعي لكل مسلم في الزواج في الدنيا من أربع نساء.. فقد ساعد ذلك على تثبيت صورة الإسلام على أنه (الوليد الشهواني للشيطان) ومحمد (صلى الله عليه وسلم) على أنه (وحش جنسي) وهذا ما كتبه في نهاية القرن الحادي عشر ايمبريخو رئيس كاتدرائية مدينة ماينتس في ألمانيا وقال: إن المسلمين يحتفلون بجميع أشكال الزواج التي تحرمها الشريعة الإلهية، ولأنهم جردوا المرأة من حقوقها الطبيعية فإن المرأة المسلمة تسعى إلى ممارسة السحاق مع نظيرتها، ويمارس الرجل اللواط مع مثيله.. بل خلافا للتقاليد يقيم الأخ مع أخته علاقة آثمة، ولا تمانع الأخت المتزوجة أن يكون الشيطان شريكا لزوجها في لقائها، والأبناء يهتكون عرض أمهم والبنت تغتصب أباها، والشريعة الجديدة - الإسلام - تحلله.

ويعلق المستشرق الألماني جيرنوت روتر على هذه الكتابات فيقول: إنها كتابات كاذبة وضيعة، أراد أصحابها أن يصرفوا الأنظار عن الأوضاع الموجودة في الغرب المسيحي، وبما يحدث في الأديرة.. أما الإسلام فليس فيه مثل تصورات الغرب العدائية، إلا أن لفظ (الحريم) مازال يلعب دورا في هذا السياق، ولم تغير فكرة الغرب عن تعدد الزوجات في الإسلام حقيقة أن الزوجة الواحدة هي القاعدة في العالم الإسلامي والتعدد هو الاستثناء، كذلك لم تتغير فكرة المسلمين عن (الإباحية الجنسية) في الغرب..

ويضيف المستشرق الألماني: إن الفكرة النمطية السائدة في الغرب عن اضطهاد المرأة في المجتمعات الإسلامية أصبحت راسخة. والحقيقة أن الغرب يريد أن يغطي على وجود (بيوت النساء) المخصصة للزوجات اللاتي يعتدى أزواجهن عليهن في الغرب المسيحي. وهكذا فإن توظيف وضع المرأة المسلمة في خلق صورة

مكروهة ومبتذلة للعدو يبدو أنه يهدف إلى صرف الأنظار عما يقابلها من العيوب الذاتية القائمة فى الغرب.

ويضيف: وبالمقابل فإن لدى المتطرفين المسلمين تصورات مغلوطة عن وضع المرأة في الغرب، فيرون أن المرأة فى الغرب تسير عارية فى الشوارع ولا يفهمون أن هذه حرية شخصية من وجهة نظر الغربيين، ويرون أيضا أن المرأة فى الغرب مستباحة جنسيا، ويشيرون إلى المجلات والأفلام الجنسية كدليل على الانحطاط الأخلاقى فى الغرب، ويتحدثون عن تفكك الأسرة وعزلة الإنسان، وانتشار المخدرات وارتفاع نسبة الانتحار فى أوروبا والولايات المتحدة.. وكما أن الحجاب أصبح فى نظر الغرب رمزا لاضطهاد المرأة فى العالم الإسلامى، فإن الملابس المثيرة للمرأة فى الغرب فى نظر المتشددين الإسلاميين إهانة للمرأة.. وهكذا فإن أيديولوجية كل منهما تجعل كل طرف يتهم الآخر بمعاداة المرأة، بينما يمارسها هو..

ويقول: إن صورة الإسلام فى الغرب بعد انتهاء الحروب الصليبية تعرضت لتحولات.. ففى القرون الوسطى كان السائد احتقار كل ما هو عربى وكل ما هو إسلامى.. وبعد فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وزحف الأتراك نحو أبواب فيينا ظهر سيناريو التهديد الإسلامى مرة أخرى، واعتبر مارتن لوثر (١٤٨٣ – ١٥٤٦) أن الإسلام هو (العدو الخارجى) وأن بابا روما هو (العدو الداخلى)، وعندما جاء عصر التنوير بداية من القرن السابع عشر، ثم عصر الرومانسية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وحتى عام ١٨٣٠، ومع حركة الاستشراق بدا وكأن الغربيين قد تجاوزوا تصوراتهم العدائية تجاه الإسلام. وكتب الفيلسوف الألمانى ليبنتز سنة ١٧١٠ فى كتابه عن نظرية العدل الإلهى يقول: إن محمدا ﷺ لا يبتعد عن القواعد الأساسية للدين وقام أتباعه بنشر دعوته فى أقاصى آسيا وأفريقيا ولم تكن المسيحية قد وصلت إلى هذه المناطق بعد، وقضوا على الخرافات الوثنية التى كانت تتعارض مع المذهب الصادق للتوحيد وخلود الروح.. وبعد ذلك جاء فى ألمانيا قمم الأدب ليسنج الناقد والكاتب المسرحى (١٧٢٩ – ١٧٨١) وديكارت (١٧٨٨ – ١٨٦٦) والشاعر المعروف جوته (١٧٤٩ – ١٨٣٢) ونظروا إلى

الشرق باحترام، وتحدث جوته عن العرب بحماس، ولكن حماسه فتر عندما تعرض لمحمد ﷺ وقال عنه: إنه نصب حول العرب غلافا دينيا كئيبا، وعرف كيف يحجب عنهم الأمل فى أى تقدم حقيقى. ولكنَّ رأى العامة فى الغرب ظل يحمل الصورة السلبية عن الإسلام والمسلمين، وأكبر دليل على ذلك هو انتشار أعمال الكاتب الشعبى الألمانى كارل ماى (١٨٤٢ - ١٩١٢) الذى طبع فى عقول أجيال كاملة من الناطقين بالألمانية صورة المسلمين على أنهم أشخاص محتالون متجهمون، يتميزون بالوحشية، ولكن ينتصر عليهم (المجاهد فى سبيل المسيح) الذى يسميه كارل ماى فى رواياته (كارا بن نيمسى). وقد امتلأت كتابات كارل ماى بالتعبير عن إحساس الغربيين بالتفوق، وهو إحساس ازداد قوة بعد غزو نابليون لمصر، وساد بعده لدى الأوروبيين الاعتقاد بأنهم ملزمون بالقيام برسالة حضارية فى الشرق .

وفى تحليل لأسباب خوف الغرب من الإسلام يقول جيرنوت روتر: إن الشعور بالتهديد الإسلامى اختفى فى عصر الاحتلال والانتداب الأوروبى للعالم الإسلامى بسبب تفوق الغرب تكنولوجيا وعسكريا. وبالرغم من استمرار هذا التفوق حتى يومنا هذا، فإنه تم إحياء عنصر التهديد فى العقود الأخيرة، ويرجع ذلك إلى أربعة أسباب:

السبب الأول: أن الغرب والكتلة الشرقية سابقا قدما كميات هائلة من الأسلحة الحديثة إلى دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا التى نالت استقلالها، وهذه الأسلحة يخشى الغرب استخدامها ضد أوروبا، أو على الأقل ضد المصالح الأوروبية والأمريكية فى المنطقة، وهذا الفرض قد يكون نظريا، ولكنه يتم الترويج له، كما يتم التهويل فى الحديث عن (القنبلة الذرية الإسلامية) للتخويف من المسلمين.

السبب الثانى: أن أعدادا كبيرة من المسلمين هاجرت ومازالت تهاجر إلى دول الغرب، وقد شجعت الدول الغربية هذه الهجرة فى البداية، حتى أصبح الأتراك فى ألمانيا ومواطنو شمال أفريقيا فى فرنسا هم الأغلبية بين المهاجرين وطالبى اللجوء السياسى، وأدت هذه الزيادة الكبيرة إلى تصاعد موجة العداء نحو

الأجانب، وهو عداء موجه نحو المسلمين فى المقام الأول، ويركز هذا العداء على الرموز الإسلامية وأولها الحجاب..

السبب الثالث: أن العالم الإسلامى يعانى من توترات اجتماعية واقتصادية، كما يعانى من أزمة الهوية الحضارية، ويعانى كذلك من فشل محاولاته لتطبيق الأيديولوجيات الغربية مثل الاشتراكية والقومية، وأدت هذه العوامل إلى إحياء معايير ورموز إسلامية عند طبقات اجتماعية معينة، وكان الخصم فى هذه الحالة هو (الأوساط الحاكمة) فى تلك الدول الإسلامية، وفى مقابل ذلك يشعر الغرب بأنه هو المستهدف من هذا العداء الإسلامى ويتردد فى الغرب التعبير عن الخوف من (التطرف الإسلامى)..

السبب الرابع: أن زوال العدو الشيوعى أيقظ الرغبة فى أوساط معينة فى الغرب لإيجاد (عدو جديد) ولما كانت صورة الإسلام -كعدو- مستترة، أو كامنة فى الغرب منذ ألف سنة على الأقل، فقد كان من السهل أحياؤها..

هكذا تبدو صورة الإسلام والمسلمين فى نظر مستشرق ألمانى حرص على أن يكون موضوعيا فى بحثه، فعرض وجهات النظر المختلفة وكشف لنا حقائق العداء للإسلام فى الغرب، وكان منصفا حين أرجع هذا العداء إلى تعارض المصالح والأهداف بأكثر من تعارض العقائد، وهذه قضية تحتاج إلى دراسة مستقلة..

وللدكتور ثابت عيد ترجمة ممتازة لدراسة أخرى عن صورة الإسلام فى الأدب الألمانى فى العصر الوسيط نقلها عن الألمانية للمفكر الألمانى هوبرت هيركومر، أستاذ الأدب الألمانى بجامعة برن بسويسرا، وهو على العكس من كثير من المفكرين الغربيين لا يحمل عداء للإسلام.. بل إنه ينادى (لن يكون هناك سلام عالمى بدون تحقيق السلام بين الأديان).. وهو يبحث عن أسباب كراهية بعض المستشرقين للإسلام مما جعلهم لا يرون فيه غير العيوب والمساوئ، ويبدأ بحثه من عام ١٠٩٥ حين أعلن البابا أوربا نوس الثانى فى مؤتمر كليرمون الكنائسى قيام الحملة الصليبية الأولى، فأنطلق (جنود المسيح) يهتفون (هذه مشيئة الرب)

فى حملات صليبية متتالية (لتحرير) القدس وفلسطين، وينقل هيركومر عن الأمير السورى أسامة بن منقذ (١٠٩٥ - ١١٨٨) ما كتبه فى مذكراته ومنها:

(.. .. كنت إذا زرت بيت المقدس، دخلت المسجد الأقصى، وكان إلى جانبه مسجد صغير جعله الإفرنج كنيسة، وكان جنود الحراسة أصدقائى يُخْلُون لى ذلك المسجد الصغير أصلى فيه فدخلته يوما، ووقفت للصلاة وكبرت فهجم على واحد من الإفرنج.. إلخ).. وكان هذا الفارس الصليبى الذى التحق لتوه بقوات الاحتلال المسيحية، كان يعتقد أنه لا توجد صلاة إلاّ على الطريقة المسيحية، ولم يتصور إمكانية الصلاة بطريقة أخرى، وقد نشأ هذا الفارس وتربى دينيا فى مجتمع أوروبى مسيحى، فى إطار نظام محدد من المعايير والقيم ويفسر كل شىء بطريقته الخاصة، وله أيضا تقييم ثابت لكل ناحية من نواحى الأرض، فمن المشرق توجد الجنة، كما تقول التوراة والأناجيل، ومن المشرق صعد المسيح إلى السماء، ومن المشرق سيعود المسيح إلى الأرض ليكون القاضى للعالمين، ومن المشرق ينتظر المسيحيون الخلاص، ولهذا السبب نجد أن صحون الكنائس متجهة إلى الشرق، بينما الصلاة عند المسلمين تختلف عن ذلك، ولكن هاجم الفارس الصليبى أسامة بن منقذ وهو يصلى لأنه وجده متجها فى صلاته إلى وجهة أخرى غير الشرق فهو متجه إلى الكعبة التى تقع جنوبا بالنسبة للقدس، ووجده يؤدى الصلاة واقفا ثم راكعا، ثم ساجدا، ثم جالسا، فرأى أن هذه ليست صلاة، لأنه لا يتصور أن هناك صلاة غير الصلاة التى يعرفها هو. .

وهذه هى بداية الفجوة. . الشعور بأنى (أنا) على صواب و (الآخر) على خطأ. وبالتالى فإن الاختلاف يؤدى إلى العداء !

ويشير هوبرت هيركومر إلى أن سر العداء يرجع إلى استنكار كل طرف لثقافة الآخر، وينقل وصف برنارد رئيس دير كليرفو لفرسان المعبد الصليبيين بقوله: إنهم لا يمشطون شعورهم أبدا.. ونادرا ما يستحمون ويظهرون أفظاظا، ويعتليهم الغبار، فإذا أنذرت الحرب يسعون لإثارة الرعب فى قلوب الأعداء وينقضّون وكأنهم يرددون من المزامير (أبغض مبغضيك يا رب وأمقت من يقاومونك) وهم يعتبرون أعداءهم من الغنم وليسوا من البشر !

هكذا كان الصليبيون يعتبرون المسلمين كفارا، ويقولون عنهم: إنهم (جنس حيواني حقير) و (كلاب وخنازير) وإن كان في الغرب أصوات متسامحة لمن هم أكثر اطلاعا على الدين الإسلامي من زعماء الفكر المسيحي، ولكن أصوات المتعصبين والمحرضين كانت هي الطاغية على الأصوات الأخرى المتسامحة . .

وعندما جاء الملك الناصر أظهر تسامحا تجاه الغزاة المسيحيين، وأطلق سراح الأسرى، فأرسل إليه البابا جريجور السابع خطاب شكر ذكر فيه أن (الإله الواحد يؤمن به كل منا، وإن كنا نفعل ذلك بطريقة مختلفة، ونحن نسبح بحمده يوميا، ونعبده كخالق ومسير للكون)، وكان هذا الخطاب من البابا يبدو وكأنه معجزة، حتى إن الصليبيين - جنودا وضباطا - رفضوا الاعتراف بأنهم يواجهون إحدى ديانات التوحيد القريبة جدا من ديانتهم في الإقرار بإله واحد، وبالصلوات اليومية، والصيام، والزكاة، فقد كانت معرفة الصليبيين بالقرآن محدودة جدا- صحيح أن أول ترجمة لمعاني القرآن ظهرت سنة ١١٤٣ بقلم روبرت الكيتوني، ولكن الأوربيين كانوا يريدون توظيف ترجمة معاني القرآن للطعن في الإسلام، وكان روبرت الكيتوني الإنجليزي الذي يعيش في مدينة طليطلة الأسبانية يترجم تراث المسلمين في الهندسة والفلك من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية وأنجز هذا المشروع الكبير بتكليف من رئيس دير مدينة كلوني - بطرس المبجل - واشترك في هذا المشروع مسلم اسمه محمد، ولاشك أن هذه الترجمة الدقيقة لمعاني القرآن قد أظهرت للغرب اللاتيني أوجه الاتفاق بين القرآن والإنجيل، خاصة ما جاء في القرآن عن سيدنا إبراهيم، وسيدنا عيسى، والسيدة مريم البتول، ومع ذلك لم يفكر أحد في ذلك الوقت في التوصل إلى حد أدنى من الاتفاق والتفاهم بين المسلمين والمسيحيين على أساس كتابيهما السماويين، ولكن على العكس من ذلك استغلت ترجمة روبرت الكيتوني لمعاني القرآن إلى اللاتينية للطعن في الإسلام على مدى قرون طويلة . .

وجاء مارتن لوثر مؤسس الكنيسة البروتستانتية الإصلاحية، وتدخل لإلغاء قرار أصدرته بلدية مدينة بازل بحظر نشر ترجمة معاني القرآن، وكان السبب في طلب مارتن لوثر نشر هذه الترجمة، كما أعلن ذلك بنفسه (لقد استيقنت بأنه

لا يمكن عمل شيء أكثر إزعاجا لمحمد ﷺ وللأتراك، ولا أشد ضررا لهم من جميع أنواع الأسلحة، من ترجمة قرآنهم، ونشره بين المسيحيين، عندئذ سيتضح لهم أى كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن، المليء بالأكاذيب والخرافات)..

مارتن لوثر مؤسس المذهب البروتستانتى لم يكتف بذلك، ولكنه وصف النبى ﷺ بأنه (خادم العاهرات وصائد المومسات) وكان يقول: (أرى أن القساوسة عليهم أن يخطبوا الآن أمام الشعب عن فظائع محمد حتى يزداد المسيحيون عداء له، ويقوى إيمانهم بالمسيحية ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم فى الحرب، ويضحوا بأموالهم وأنفسهم)..

يقول هوبرت هيركومر: إن موعظة كهذه كان من شأنها أن تؤثر على المسيحى بأكثر من طبول الحرب.. بل تمنحه قلب أسد حقيقى فى ساحة القتال.

ويقول: إن المتعصبين المسيحيين كانوا يتهمون الإسلام بالزندقة، وكان ذلك سهلا عليهم، ويشيرون إلى آيتين فى القرآن هما الآيتان ١٧١ و١٧٢ من سورة النساء الرافضتان لعقيدة التثليث المسيحية، ولكن زعماء الكنيسة كانوا قد قرروا فى اجتماع (نيكيا) سنة ٣٢٥م أن الابن والأب شيء واحد، وبعد هذا القرار كان كل من يتجرأ على التشكيك فى هذا المذهب الملزم إلى الأبد يستبعد فورا من الكنيسة الكاثوليكية، ويصير معرضا لغضب الله.

ويقول أيضا: إن المسيحيين – فى ذلك العصر – اعتبروا من سماه المسلمون نبيا، وخاتما لسلسلة الأنبياء التى بدأت بآدم، اعتبروه رجلا عاش حياة داعرة، ولم يتورع وذاع ذلك بين المسيحيين فى أوروبا المتعطشين للتوسع والانتصار، عن طريق خلق الأكاذيب وترويجها، هذه الأكاذيب التى نتجت عن أساطير عدوانية وهمية. بل إن بعض الأوربيين ادعوا أن رسول الإسلام ﷺ كان فى الأصل كاردينالا كاثوليكيا تجاهلته الكنيسة فى انتخابات البابا فقام بتأسيس طائفة ملحدة فى الشرق انتقاما من الكنيسة، واعتبرت أوروبا المسيحية فى القرون الوسطى أن محمدًا ﷺ المرتد الأكبر عن المسيحية الذى يتحمل الوزر عن انفصال نصف البشرية عن المسيحية.

إلى هذا الحد كان الاتجاه العدائى القائم على الاختلاق وقد كان فى الأصل لأسباب سياسية واستعمارية توسعية يكتسى بثوب عقائدى يعادى الإسلام دون محاولة جادة لفهم حقيقة الإسلام ورسول الإسلام ﷺ. وطبعا كان المسلمون فى غياهب الجهل فلم يعلموا بكل ما كان يقال فى الغرب عن دينهم ورسوله ﷺ.

ويشير هيركومر إلى ما كتبه دانتى وهو يصف الجحيم فجعل الرسول ﷺ فى الحفرة التاسعة فى ثامن حلقة من حلقات جهنم، ومعه على بن أبى طالب، ويضيف المفكر الألمانى أن من غرائب الأوهام المسيحية الكاذبة عن الإسلام اتهام المسلمين بعبادة الأصنام، وتذكر ملحمة رولاند الفرنسية القديمة (حوالى سنة ١١٠٠م) أسماء هذه الأصنام: أبوللن، وتيرفا جنت، وماجوميت، وهذا الثالوث الفلكى تم تطويره فى الترجمة الألمانية فى عصر اللغة الأدبية الألمانية الوسيطة الذى يمتد من القرن الحادى عشر حتى القرن الرابع عشر، حتى صوروا (الكفرة) أى المسلمين وهم يدعون آلهتهم هذه قبل المعارك، ويقول هيركومر إن هذه النسخة من الملحمة مازالت فى كتاب بعنوان (كارل الأعظم) يرجع تاريخ نشره بين عامى ١٢١٥ و١٢٣٣ وتحتوى على خرافة الصنم (ماجوميت) ويقصد بهذا الاسم (محمد) (ﷺ).

وفى القرن الثالث عشر تغيرت النظرة إلى الإسلام جزئيا فعرف الأوروبيون أن المسلمين لا يعبدون الأصنام، واكتشفوا كذب القصة التى لقيت رواجا فى الفترة السابقة، وملخصها أن المسلمين قتلوا رئيس الأساقفة (تيمو السالزبورجى) لأنه حطم الأصنام التى يعبدها المسلمون (!). وظهر فى أوروبا أن المسلمين لا يعبدون إلا إلها واحدا، وأن الإسلام شريعة سماوية، وأن المسلمين يعترفون بالمسيح وحوارييه وأتباعه. ولكن بقيت الفكرة الغريبة المضللة بأن المسلمين يقدسون المضلل محمدا ﷺ أى أن الطعن فى الإسلام أصبح أقل، ولكنه بقى فى الرسول ﷺ ، إلى أن جاء أرنولد الليوبيكى، ومع أنه اعتبر محاربة الصليبيين للمسلمين واجبا دينيا لأن المسلمين - كما قال- هم (كتيبة الشيطان)، إلا أنه

وصف إيمان المسلمين بالله وصفا موضوعيا، وذكر احترام المسلمين للمسيح باعتباره رسولا رفعه الله جسما وروحا إلى السماء، ولكنه أيضا أساء إلى الرسول ﷺ واسماه (ماوميت)، وذكر جيرهارد أنه زار الأماكن القديمة المسيحية وقال (إن المسلمين والمسيحيين يتدفقون على هذه الأماكن معا لتأدية الصلاة، كما ذكر أنه تأثر جدا بالخشوع العميق الذى يؤدى به المسلمون صلاتهم.

وهكذا يستطرد الباحث الألمانى هوبرت هيركومر فى عرض وشرح الأعمال الأدبية والفكرية فى ألمانيا وأوروبا عموما التى صورت المسلمين على أنهم (الكفرة) ووجهت سهام العداء للرسول ﷺ وأساءت إليه وشوهت صورته وصورة الإسلام والمسلمين فى عقول العامة، ومن الطبيعى أن يكون لهذا الميراث العدائى الذى شارك فيه رجال دين، وأدباء، وفلاسفة، من الطبيعى أن يكون لهذا الميراث آثار مترسبة فى الوعى أو فى اللاوعى الغربى عموما.

وقد يكون طبيعيا عندما تنشأ عداوات وحروب مثل الحروب الصليبية أن تكون هناك حرب نفسية وعملية تعبئة نفسية وشعورية ضد (العدو) لتبرير الاعتداء عليه، خاصة وأن الأوروبيين هم الذين جاءوا لغزو المسلمين وليس العكس.. ومادامت عملية الغزو الاستعمارية قد جاءت بادعاء أنها حرب صليبية مقدسة من أجل إعلاء كلمة المسيح ومحاربة الكفرة، فكان من الضرورى اختراع واختلاق ونسج مجموعة هائلة من الأكاذيب لبث الكراهية والعداء للإسلام والمسلمين فى نفوس الأوروبيين عموما حتى لا يرتفع صوت بمعارضة هذه الحملات، وفى نفس الوقت لرفع معنويات الجنود وإقناعهم بأنهم فى (حرب مقدسة) دفاعا عن العقيدة، وبالتالى فإن مصيرهم الفردوس ورضا الرب..

وهكذا اختلطت الأطماع الاستعمارية الغربية بالعقائد الدينية، وسخروا العقيدة سلاحا من أجل تبرير وتمرير هذه الأطماع الاستعمارية.. وإلى اليوم سوف نلاحظ أن كل اتجاه لمعاداة الإسلام. ليس الدافع إليه دافعا عقائديا دينيا فى الأساس. ولكن الدافع الأساسى دافع سياسى واقتصادى وراء أطماع للسيطرة والهيمنة، ولأن العزف على وتر الدين هو عزف على الوتر الحساس الذى يجعل

الناس يندفعون إلى القتال، ويقبلون على الموت بالرضا، فإن عامل الدين كان أداة أو وسيلة سخرها الاستعمار الغربى لتحقيق أطماعه الحقيقية ولم يكن (نشر راية المسيح) هو الهدف الحقيقى على أية حال، وهذا ما اكتشفه المسيحيون فى مصر والعالم العربى، ولذلك لم يتجاوبوا مع الصليبيين الذين رفعوا راية المسيح، وانضم المسيحيون فى الشرق إلى المسلمين وحاربوا الصليبيين، وأدركوا أن دورهم فى هذه الحرب هو نفس دور المسلمين وهو (الدفاع عن الوطن من غزو الفرنجة). وكانت الحرب الصليبية عند المسيحيين المصريين حربا استعمارية وليست حربا دينية.

ولم يكن غريبا ما ذكره المفكر الألمانى هوبرت هيركومر عن موقف توماس الإكوينى فى كتابه (الشامل فى الرد على الكفرة) وهو الكتاب الذى مهد الطريق أمام العمل التبشيرى فى أسبانيا، وهذا الكتاب خصصه توماس الاكوينى للدفاع عن المسيحية والطعن فى الإسلام، ونقل فيه الاتهامات القديمة بأن (ماوميت) ويقصد به الرسول محمدا ﷺ، قد أغوى الشعوب بوعوده لها بالمتع الشهوانية، وبالتالى لم يجد الشهوانيون أية صعوبة فى اتباعه، ويقول توماس الاكوينى: (لم يؤمن برسالته إلا المتوحشون من البشر الذين كانوا يعيشون فى البادية).

ومع ذلك فقد كان فى الغرب بعض أصوات حاولت إنصاف الإسلام، يذكر منها الباحث الألمانى الكاردينال (نيكولاوس الكوسى) و(رامون لول). أما نيكولاوس الكوسى فقد كان عالم لاهوت عاش فى الفترة من عام ١٤٠٠ حتى ١٤٦٤، كما كان فيلسوفا وسياسيا وتابعا للكنيسة فى الوقت ذاته، وله كتاب بعنوان (نظرات فى القرآن) يشمل دراسة جادة عن الإسلام، أهداها إلى البابا بيوس الثانى فى عصر النهضة، كما ألف كتابا بعنوان (السلام بين الأديان) بمناسبة فتح العثمانيين للقسطنطينية سنة ١٤٥٣ أظهر فيه أن الأديان جميعا تتضمن فكرة أساسية واحدة، برغم تنوع طقوسها واختلاف عاداتها، ويرى أن الله تعالى أكبر وأعظم من أن يستطيع دين واحد أن يحتويه، وأن كل دين من الأديان السماوية لا يرى

إلا جزءا من الحقيقة دون أن يستحوذ دين منها على الحقيقة بأكملها، أى إن الحقيقة مقسمة بين هذه الديانات، وكل دين يرى ما لا يراه الدين الآخر، ولا يوجد دين سماوى على حق ودين سماوى على باطل، بل إن الديانات الثلاث تجتمع وتتكامل على الحق.

أما رامون لول فقد عاش فى الفترة بين عامى (١٣٣٢ و١٣١٥) وله كتاب بعنوان (كتاب الكافر والحكماء الثلاثة) يشتمل على حوار دينى بين أربعة أشخاص، أولهم ينكر وجود الله، والثانى مسيحى، والثالث يهودى، والرابع مسلم، ويحاول المؤمنون الثلاثة أن يوضحوا للكافر حقيقة أن الله موجود، وأن بعث الموتى يوم القيامة حقيقة، وهذه المناقشة تدور فى جو من الود والاحترام، ولا يحاول طرف أن يظهر تفوقه على الآخرين، وفى النهاية يؤمن الكافر بالله، ويشعر بالأمل.

المفكر الألمانى فى دراسته العميقة التى بذل الدكتور ثابت عيد مجهودا كبيرا فى ترجمتها وراجعها مع المؤلف نفسه، يختتم دراسته بالقول بأنه لابد من استنباط دروس الحاضر من نظرات الغرب السلبية والإيجابية للإسلام فى القرون الوسطى، وهى تكشف التشويهات والمطاعن والشتائم التى تكشف عن قوة العداء، وتخدم موقفا يتسم بالجهل، ويقوم على تقسيم الشعوب بطريقة تعسفية إلى أعداء وأصدقاء، ويقول: لا يمكن التخلص من هذه المواقف السلبية من خلال تبادل المواقف السلبية، ولكن لابد من اللقاء الشخصى، والحياة اليومية المشتركة، وعندما تتساقط أقنعة التشويه، ويظهر الوجه الإنسانى الحقيقى فسوف يمكن كسر هذه الحلقة الشيطانية لتشويه (الآخر).

ويقول أخيرا: إن مؤسسات الغرب الكنسية كانت لها إسهامات مخزية فى تشويه صورة العرب والأتراك على مر قرون طويلة، ويعيد هيركومر الإشارة إلى الوثيقة التى أصدرها زعماء الكنيسة فى اجتماعهم منذ حوالى ثلاثين عاما، وأشارت إلى خطاب جريجور السابع إلى الملك الناصر منذ حوالى تسعمائة سنة، وفى خطاب جريجور السابع وعنوانه (بيان عن علاقة الكنيسة بالأديان غير

المسيحية) قد تضمن فقرة تقول: (نظرا لما حدث على مر القرون من خصومات ونزاعات بين المسلمين والمسيحيين، ينصح المؤتمر الكنائسى المقدس الجميع بعدم الالتفات إلى الماضى والسعى بإخلاص إلى التوصل إلى تفاهم متبادل، والتعاون على حماية وتشجيع العدالة الاجتماعية والقيم الأخلاقية، ودعم السلام والحرية للبشر جميعا).

وهذه خاتمة مبشرة لهذه الدراسة القائمة.

ولاشك أن البدء بصفحة جديدة ممكن دائما إذا خلصت النوايا.

ولابد من إشارة إلى باحثين ألمان أنصفوا الإسلام فى السنوات الأخيرة مثل آن مارى شيمل، وفى نفس الوقت نستطيع فهم جذور العداء التى عبر عنها سلمان رشدى والكاتب الفرنسى ميشيل هوليبيك الذى قال أمام المحكمة: (إن ازدرائى للإسلام لم يتغير).

وإذا أردنا الدفاع عن الإسلام فإن ذلك يجب أن يكون هناك، وليس هنا؟!

العداء للإسلام وصل إلى سويسرا !

كنت أظن أن روح العداء للإسلام فى الولايات المتحدة ودول أوروبا ولا يمكن أن تصل إلى سويسرا . لأن صورة الشعب السويسرى فى ذهنى أنه أرقى الشعوب، وأكثرها ثقافة حيادًا وإنصافًا ، وأقلها تأثرًا بالدسائس والمؤامرات التى ناصبت الإسلام العداء منذ بداية نشأته وظلت تطارده على امتداد التاريخ لأكثر من أربعة عشر قرنًا .

ولكن الباحث المصرى المتميز الدكتور ثابت عيد بجامعة زيورخ بسويسرا فاجأنى بترجمة من اللغة الألمانية لكتاب بعنوان (الإسلام فى سويسرا)للباحثين كريستوف بيتر باومان ، وكريستيان ياجى ، مع مقدمة كتبها عالم الأديان السويسرى هانس كينج ، فدفعنى هذا الكتاب إلى البحث عن المزيد من المراجع والمعلومات عن صورة الإسلام فى سويسرا ربما تفيد فى تنبيه الغافلين والمستسلمين لأحلام اليقظة فى العالم الإسلامى .

يشير عالم الأديان السويسرى هانس كينج فى المقدمة إلى رسالة وصلته من المسيحيين فى مصر تتضمن إعلانا على صفحة كاملة فى صحيفة هيرالد تريبيون الأمريكية فى عدد ٥ نوفمبر ١٩٩٨ موقعا من ٢٠ شخصية مرموقة فى مصر و ٢٠٠٠ من مشاهير الكتاب والصحفيين ورجال الأعمال والمحامين والأطباء والفنانين والمطربين، جميعهم أقباط مصريون، ويقول الإعلان: (إن مسيحى مصر يشجبون المحاولات المتواصلة لقوى الظلام العدائية الذين يروجون مزاعم باطلة عن اضطهاد الأقباط فى مصر، فى حين أن الحقيقة أن الأقباط يمارسون شعائر دينهم بحرية فى مصر، ويشيدون كنائسهم بالرغم من البيروقراطية الحكومية، كما أن علاقاتهم بالمسلمين ودية جداً، وهم مندمجون كلية فى المجتمع، ويقر البيان بوجود ما يدعو أحيانا إلى الشكوى، إلا أن هذا يرجع إلى أفراد وليس إلى الحكومة المصرية.

ويعلق البروفيسور هانس كينج على هذا البيان بقوله: هكذا يعلن مسيحيو مصر اعتراضهم على دسائس الأجانب!، ويضيف: إننا في عصر لا يروج فيه المسيحيون عن الإسلام إلا السلبيات، فيأتي هذا النداء من المسيحيين في مصر كاحتجاج على التصورات العدائية عن الإسلام التي يروجها المسيحيون، وغير المسيحيين في الغرب.. وبالطبع يوجد أيضاً في مصر وفي الدول الإسلامية الأخرى مسلمون يغرسون تصورات عدائية عن المسيحية، وليس هذا بمستغرب، فالتصورات العدائية عن (الدين الآخر)مهما كانت متحيزة أو باطلة، فهي أسلوب مريح للغاية، ويمكن استخدامه بسهولة، كما أن التصورات العدائية تؤدى وظيفة سيكولوجية للشخص، ووظائف سياسية اجتماعية للمجتمعات، فهي تخفف الأعباء عن الذات، وتقنع الإنسان بأنه ليس (نحن)، وليس أصدقاؤنا الذين يتحملون الوزر، ولكن (العدو)وحده هو الذى يتحمل الوزر كله، وكذلك فإن الإحساس بالذنب.. والشعور بالنقص .. والإحباطات.. والمشاعر العدوانية.. كل ذلك يمكن تحويله إلى الخارج، وإسقاطه على (العدو).. أى إن (التصورات العدائية)تسهل لنا إيجاد (كبش الفداء).. والتصورات العدائية لها مهمة أخرى فوق كل ذلك، فهي تساعد على التماسك، ومهما اختلفنا في أمور كثيرة، نظل متماسكين (ضد العدو)وهكذا يمكن فهم (سيكولوجية العداء في الغرب للإسلام واختياره كعدو مشترك) لأن وجود عدو مشترك يجعلنا متماسكين، فالتصورات العدائية تشجع على التفكير بأسلوب الكتل.

التصورات العدائية أيضاً تساعد على الاستقطاب، وتجعل الخيار أمامنا، إما هذا وإما ذاك، وتقسيم البشر وتوظيفهم على أساس: صديق أو عدو.. والتصورات العدائية تؤدى إلى التنشيط واليقظة.. تجعل من حقنا أن ندافع عن أنفسنا ضد الآخرين سواء كان الآخرون هم الغرباء، أم الأعداء، وسواء كان (الآخرون) في الداخل أم في الخارج.. وبذلك فإن (الريبة) وحدها لا تكفى، ولن يكون مبرراً استخدام (الأعمال) العدائية، والعنف، سواء العنف المادى، أم النفسى، أم السياسى، وحتى العسكرى، فالتصورات العدائية تحسم حالة التردد والحرج من القتل.. إن التصورات العدائية تؤدى بسهولة إلى الحرب الباردة، كما تؤدى إلى الحرب الساخنة.

وأعتقد أن هذا التحليل للباحث السويسرى هو أفضل ما يمكن قوله لفهم ضرورة وجود (عدو) للغرب.. وعندما انتهى وجود العدو السوفيتى كان (الإسلام) هو المرشح الأول ليكون (العدو). لأن الغرب لا يمكن أن يتفوق ويحتفظ بتفوقه إلا بإيجاد (عدو)يحقق له ما ذكره البروفيسور السويسرى هانس كينج.. ولكنه يطرح بعد ذلك سؤالا صعباً: هل يمكن تغيير التصورات العدائية؟.. ويجيب: بالقطع إن هذه التصورات ليست أفكاراً خالدة أو من الضرورات الثابتة،ولذلك يمكن أن تفقد معناها وتصبح غير ذات موضوع. كما حدث فى تصورات الغرب العدائية تجاه النظام السوفيتى، ولكن التصورات العدائية يمكن أن تنتقل من الروس إلى المسلمين والعرب واليابانيين.. ومَنْ يا ترى سيأتى عليه الدور؟.. وفى نفس الوقت فإن تصحيح التصورات العدائية ممكن، ويمكن أن ينقلب الأعداء أصدقاء كما حدث مع دول أوروبا، وذلك عندما يتم التركيز على الجوانب المشتركة والواجبات المشتركة.

ويقول: إنه يوجد حالياً خمسة وعشرون نزاعاً إقليمياً تتورط فيها أربعون دولة، وغالباً ما تلعب الأديان فيها دوراً، وللحق فإن الإسلام ليس وحده فى هذه النزاعات.. ويرفض الباحث السويسرى نظرية صدام الحضارات الذى تقوم الأديان بإشعاله والذى يقال: إنه واقع لا محالة، لأنه لن يكون هناك سلام بين الأمم، بدون سلام بين الأديان.. وإن حوار الأديان أظهر أن الإسلام أيضا بوسعه أن يسهم فى تشكيل نظام أخلاقى إنسانى مشترك، يتكون من القيم المشتركة والمعايير الثابتة.

ويقول: إنه ليس صحيحاً أن خوف الغرب من الإسلام لم يبدأ إلا بعد سقوط الشيوعية، وتفكك الاتحاد السوفيتى ، وأثناء حرب الخليج، لأن خوف الغرب من الإسلام قديم قدم الإسلام ذاته. ولكن ينبغى أن نفرق بين نوعين من الخوف: خوف له ما يبرره من أسباب مقنعة، وخوف مبنى على الأوهام، فالحضارة الإسلامية بدأت مرحلة الانحطاط حوالى سنة ١١١١ ميلادية، وهى السنة التى تمثل بداية عصر الحضارة الأوروبية . ومنذ ذلك الوقت وأوربا تتقدم، والمسلمون يتأخرون، فأوربا قوية، والمسلمون ضعفاء ، والقوى لا يخشى الضعيف إلا عن جهل بقوته وضعف الآخر، أو ربما عن مرض نفسى يتوهم فيه القوى نفسه

ضعيفاً ، وأن خصمه الضعيف قوى، وينتهى ثابت عيد من بحثه إلى أن مخاوف الغرب من الإسلام لها سببان: الجهل، والخبث، فهناك فئة الجهلاء فى الغرب يسمون أنفسهم (خبراء فى شئون الشرق الأوسط) دون أن يكونوا قد درسوا تاريخ الإسلام والعرب، ودون أن يفهموا عقلية تلك الشعوب، وهؤلاء يتاجرون بتخويف الغربيين من الإسلام ولكن عن خبث، ولعل برنارد لويس خير من يمثل هذه الطائفة، وأغلبها من ذوى الاتجاهات الصهيونية.

ويورد الدكتور ثابت عيد حوارا طريفا قال فيه لأحد أساتذة الدراسات السياسية الألمان: لماذا المخاوف المزعومة من الإسلام وهى مخاوف ليس لها ما يبررها فالمسلمون اليوم فى حالة ضعف وهم عاجزون عن تصنيع دراجة أطفال دون الاستعانة بالتكنولوجيا الغربية، بينما الغرب لديه أسلحة فتاكة، وقنابل مدمرة، تكفى لسحق المسلمين، بل تكفى لتدمير الكرة الأرضية، ويقول: الحمد لله أن الغرب لم يعدم المتخصصين العقلاء الذين يحاولون تصحيح صورة الإسلام المشوهة فى الغرب، منهم عميدة الاستشراق الألمانى البروفيسورة آنا مارى شيمل، وهانس كينج أشهر علماء الأديان السويسريين، والمستشرق الألمانى جرنوت روتر أستاذ الدراسات الإسلامية فى جامعة هامبورج.

أما كتاب (الإسلام فى سويسرا) الذى ألفه كريستوفر بيتر باومان، وكريستيان ياجى، فإنه يبدأ بالحديث عن المذاهب الإسلامية ويقول: إن المتداول فى الغرب أن الشيعة طائفة متطرفة، وفى ذلك تعميم سطحى، ثم ينتقل إلى الحديث عن المرأة فى القرآن فيقول: إن القرآن يميز بين علاقة الإنسان بربه من ناحية، وعلاقة الإنسان بالإنسان من ناحية أخرى، ففى علاقة الإنسان بالله يتساوى الرجل والمرأة أمام الله، كما جاء فى الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ (النساء : ١) فالمرأة فى الإسلام لم تخلق للرجل كما يقول البعض بل إن الرجل والمرأة خلقا ليكمل أحدهما الآخر، ويساوى الإسلام بين الرجل والمرأة فى الجزاء والحساب والعقاب: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(غافر: ٤٠) وبعكس رواية الإنجيل، لا يتهم القرآن حواء وحدها بمعصية الله، بل إن آدم أيضا كان شريكا لها:

﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ... وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الأعراف: ١٩-٢٤).

ويقول المؤلفان إن الإسلام لا يساوى بين المرأة والرجل فى كل شيء، فلكل منهما حقوق وواجبات منفصلة، فالرجل مسئول عن الإنفاق على الأسرة، وهو الذى يمثل الأسرة أمام المجتمع، والمرأة تنجب الأطفال، وتقوم بتربيتهم، والرجل هو رب العائلة، والمرأة تدين له بالطاعة: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ (النساء: ٣٤).

والرسول ﷺ أوصى بحسن معاملة النساء والرفق بهن. وتثير مسألة تعدد الزوجات فى الإسلام الكثير من الجدل فى أوربا ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ﴾ (النساء: ٣).

ويبرر المسلمون ذلك بأن تعدد الزوجات له أسباب تاريخية ، حيث كان عدد النساء يفوق عدد الرجال في الجاهلية وصدر الإسلام بسبب الحروب وارتفاع عدد القتلى من الرجال، وبالتالي زيادة الأرامل، فكان حل هذه المشكلة في نظام تعدد الزوجات، وبينما يقول الحديث: (الجنة تحت أقدام الأمهات)ورفع بذلك شأن المرأة إلى أعلى درجة ومع ذلك فإن المرأة لا تتمتع بحقوق الرجل في الدول الإسلامية في الحياة اليومية ، وفي الحياة العامة..

ولقد لعبت رواية (ليس بدون ابنتي) التي كتبتها المسلمة الأمريكية الجنسية بيتي محمودي دورا كبيرا في تشويه مكانة المرأة في الإسلام، والإساءة إلى الإسلام في الغرب بشكل عام، فقد بيع من الترجمة الألمانية لهذه الرواية ثلاثة ملايين نسخة. والرواية تحكي مأساة زواج فاشل بين مؤلفة الرواية ومسلم إيراني. وعامة الغربيين يعممون أحداث هذه الرواية، حتى إن بعض المسلمات في سويسرا قمن بتوجيه نقد لاذع لمن انتقدوا هذه الرواية وقالت إحداهن: قبل أن ينتقد السويسريون وضع المرأة في الإسلام، عليهم أن يصلحوا أوضاعها في سويسرا، فالمرأة في سويسرا حتى الآن لا تحصل على نفس أجر الرجل إذا قامت بنفس العمل، وحتى عهد قريب كانت المرأة السويسرية في بعض المناطق لا يحق لها الإدلاء بصوتها في الانتخابات.. والسويسريون يؤسسون بيوتا خاصة للنساء المضطهدات الهاربات من تعذيب أزواجهن الذين يقومون بضربهن وإساءة معاملتهن، ووضع المرأة في الكثير من الدول الإسلامية اليوم يشبه وضعها في سويسرا حتى فترة ليست بعيدة. ويستنكر السويسريون الحجاب، والفصل بين النساء والرجال، وتزويج الآباء بناتهن في سن مبكرة.

ويبدي المؤلفان انزعاجهما من السيدات المسلمات اللاتي يرتدين الحجاب، بينما كان الحجاب في الجامعات ممنوعا في تركيا حتى أكتوبر ١٩٩٠، وتواجه السيدات المحجبات في سويسرا مشاكل عديدة، ويتعرضن في الطريق للسباب والشتائم، وقد تمتد أيدي المعاكسين إلى الحجاب لتمزيقه، ويسجل الكتاب شكوى إحدى المسلمات في سويسرا قائلة: (في سويسرا يوجد أيضا مسيحيات محجبات مثل الراهبات والممرضات. فلماذا يضايقوننا نحن فقط؟) ويقول المؤلفان: إن

حصول سيدة مسلمة محجبة على مسكن غالبا ما يكون أمرا عسيرا، وقد يكون الحجاب سببا للطرد من العمل.

يقول المؤلفان أيضا: إن الاهتمام بالإسلام ازداد فى السنوات الأخيرة، كما يتضح من الكم الهائل من الكتب والمقالات وبرامج الإذاعات وشبكات التليفزيون التى تعالج موضوع الإسلام. وليس نقص المعلومات فقط هو المشكلة، ولكن المعلومات المتحيزة هى التى تسهم فى نشر الصورة المشوهة عن الإسلام، فكتاب مثل (ليس بدون ابنتى)يجد رواجا وقبولا من القراء أكثر آلاف المرات من أى كتاب موضوعى عن الإسلام، ومثل هذه الكتب تؤكد وتثبت تصورات الأوربيين الخاطئة عن الإسلام. ويضيف المؤلفان: إن الخمينى أسهم فى تشويه صورة الإسلام فى الغرب. ويواجه الباحثون الأوربيون مشاكل جمة عندما يبحثون عن مسلم متدين ليجيب لهم عن بعض الأسئلة المتعلقة بالإسلام، أو لمراجعة ما كتبوه أو قرءوه، فاللغة تقف عائقا، فضلاً عن أن المسلمين يتشاجرون دائما ويتبادلون الاتهامات بعدم فهم الإسلام أو بالبعد عن الإسلام.

يقول المؤلفان: إن الجهل بالإسلام فى سويسرا يبدأ بتسمية المسلمين (المحمديين) ويعتبر معظم المسلمين هذه التسمية إهانة لهم، لأنهم لا يعبدون محمدا ﷺ ولكن يعبدون الله، وبعض الباحثين السويسريين يفرقون بين لفظ (الله) بالألمانية GOTT ولفظ (الله) عند المسلمين، ويقولون إنهم يعبدون GOTT بينما يعبد المسلمون الله ALLAH وكأن هذا إله غير ذاك، ولا يفهمون أن مفهوم اللفظين واحد.

ويتساءل المؤلفان: (لماذا لا نعرف إلا القليل عن بعضنا البعض؟).

ويجيبان بأن السبب هو الخوف المستتر من الآخر، وبسبب الكراهية المتبادلة لا يسعى أى طرف إلى حوار مع الطرف الآخر، وليس لدى أى طرف استعداد كاف لمعرفة واكتشاف عقيدة الآخر، ويضاف إلى ذلك اعتماد السويسريين فى معرفتهم عن الإسلام على كتب غير موضوعية فى الغالب، ومتحيزة ضد الإسلام، مثل: (سوف يفترسنا الإسلام) و (التحدى الإسلامى) و(سيف الإسلام)، وتكشف عناوين أمثال هذه الكتب عن مضمونها، كذلك فإن من المؤكد أن المناهج الدراسية المقررة فى كثير من دول الغرب أسهمت فى

الإبقاء على هذا المستوى المتواضع من المعلومات عن الإسلام، ويظهر العداء بشكل واضح عندما يبحث المسلمون عن مكان لبناء مسجد فإنهم يواجهون الاعتراضات على ذلك.

هل يمثل الإسلام تهديدا للغرب؟

يجيب المؤلفان عن هذا السؤال بأن حرب الخليج لم تكن سبب ظهور مخاوف الغرب من الإسلام، كما لم يكن تزايد أعداد المسلمين في أوربا سببا لهذه المخاوف، لأن معظم مخاوف الغرب من الإسلام كانت موجودة بالفعل على المستوى الشخصي، ومن خلال التقارير الصحفية عن استخدام الأتراك السكاكين في المعارك التي تنشب فيما بينهم أو مع جنسيات أخرى. وازدادت التصورات الخاطئة والمتحيزة عن (الأجانب الأشرار)، ولأن معظم الأتراك مسلمون فقد ظهرت المعادلة التي تقول: إن المسلم يعني طعنات سكين. وقد انتشرت هذه المعادلة لفترة طويلة، دون مناقشة هل الجرائم بين المسلمين أكثر من الجرائم بين المسيحيين، والإسلام والمسيحية يرفضان الجريمة بنفس الدرجة؟ ولكن الخوف من العنف يطفو على السطح دائما كلما أثيرت فكرة إنشاء مركز لتجميع اللاجئين في سويسرا.

ويتحدث المؤلفان عن مسلسل تليفزيوني من أربعة أجزاء عرضته القناة الثانية الألمانية كتبه الصحفي الألماني بيتر شول لاكور بعنوان (سيف الإسلام وكانت الفكرة التي غرسها هذا المسلسل في أذهان من شاهدوه من الأوربيين أن الإسلام لن يمكن وقفه إلا باستخدام السلاح، بعد أن قدم المسلسل نماذج عديدة استخدم المسلمون فيها العنف ضد خصومهم، مما أثار مخاوف كل من تابعوه، فضلا عن أن أعمال الخوميني (الوحشية) لا تزال حاضرة في أذهان الأوربيين، وفتواه بإهدار دم سلمان رشدي بسبب كتابه (آيات شيطانية)بالرغم من أن إيران رجعت عن هذه الفتوى، وتجول سلمان رشدي بحرية في معرض فرانكفورت للكتاب في عام ١٩٩٨. ولكن الأوربيين يتحدثون دائما عن موجة العنف الإسلامي على أنها في تصاعد مستمر، كما أن عدد الدول المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية في تزايد مستمر، وكل ذلك ساعد على تزايد مخاوف الغرب من الإسلام. ويقول: المؤلفان إن المسيحيين الذين يمارسون النقد الذاتي لابد لهم أن يتذكروا الأحداث المخزية في تاريخ الكنيسة قبل أن يعلنوا استنكارهم للإسلام.

يؤكد المؤلفان مرة أخرى: أن الصراع بين الإسلام والمسيحية حقيقة ثابتة، حيث يرى كل منهما أنه الدين الحق، ولدى المسيحيين عدد من الجمعيات التبشيرية هدفها تنصير المسلمين، وقد أصدر البابا يوحنا بول الثانى منشورا بابويا فى يناير ١٩٩١ طالب فيه بتكثيف الحملات التبشيرية، وعلى الرغم من ذلك فالحقيقة أن الإسلام هو أكثر الأديان انتشارا، وهذا يشير إلى نجاح الدعوة الإسلامية، وكذلك فإن أعداد المسلمين الذين يعيشون فى الغرب فى تزايد مستمر، وحسب تعداد ١٩٩٠ تعدى عددهم فى سويسرا ١٣٠ ألف مسلم، وفى ألمانيا أكثر من مليون ونصف مليون، وقد انتشرت المخاوف من أن هذه الأعداد المتزايدة من المسلمين جاءت إلى سويسرا وألمانيا بهدف نشر الإسلام فى البلدين، مع أن تفنيد هذا الادعاء سهل، لأن تزايد أعداد المسلمين فى العالم يرجع إلى أن نسبة تزايد المواليد فى دول العالم الثالث التى ينتمى إليها المسلمون مرتفعة جدا، وبزيادة عدد السكان يزداد الفقر، أى إن المسلمين يزدادون عددا ويزدادون فقرا فى نفس الوقت، ولهذا يتطلعون إلى الهجرة إلى الدول الغنية فى وسط أوربا بحثا عن فرص عمل وسعيا لتحسين مستوى معيشتهم، وهذا هو سبب هجرة المسلمين إلى أوربا، وليس السبب رغبتهم فى الدعوة للإسلام.. فمعظم العمال المسلمين فى سويسرا عمال بسطاء، غير مثقفين، أو من طالبى اللجوء السياسى، وهم إن كانوا متدينين فإنهم لا يتطلعون إلى نشر دينهم بين الشعب السويسرى..

وإن كان لفظ (التبشير) فى المسيحية يكاد يتطابق مع لفظ (الدعوة) عند المسلمين، وكما أن التبشير فرض فى المسيحية كما جاء فى إنجيل مرقص (١٦ - ١٦): (اذهبوا إلى العالم أجمع وكرزوا (أى قوموا بالتبشير) بالإنجيل للخليقة كلها) فلا يوجد مقابل لذلك فى الإسلام، وعلى العكس يقول القرآن:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾

(يونس: ٩٩، ١٠٠)

ويقول المؤلفان بالإضافة إلى ذلك: إنه على الرغم من وضوح هذا المبدأ القرآنى فإن الواقع قد يختلف أحيانا عن النظرية، فالمسلمون فى دول وسط أوربا يقومون بالدعوة، ولكنها دعوة داخلية، أى تقتصر على تعليم ودعوة المسلمين فحسب، بمعنى محاولة إحياء الحس الدينى لدى المسلمين غير المتدينين.

ويبحث المؤلفان عن أسباب المخاوف، ويصل بهما بحثهما إلى أن اختلاف العقليات، وعدم إتقان لغة الآخر، يؤديان إلى صعوبة الفهم المتبادل، وتظهر مخاوف السويسريين من الإسلام عندما تبحث مجموعة من المسلمين عن مكان يمارسون فيه عبادتهم، ولأن السويسريين يخشون من الإسلام منذ البداية فإنهم يرفضون منح المسلمين التصاريح لبناء مساجد، ومن بين الحجج التى يسوقها السويسريون لموقفهم قولهم بأن المسلمين لا يحسنون معاملة المسيحيين فى العالم الإسلامى، حتى إنه كان ممنوعا على قوات الحلفاء فى السعودية أثناء حرب الخليج أن تحتفل بأعياد الميلاد (وهذا غير صحيح) فى الوقت الذى يسمح فيه المسيحيون للمسلمين بإقامة مساجد وبناء مراكز إسلامية، ويرى المؤلفان أن هذا الادعاء صحيح جزئيا حيث أقامت السعودية ثلاثة مراكز إسلامية فى سويسرا بينما الجالية السعودية لا يتعدى أفرادها ألف سعودى، (السعودية لا تقيم المراكز والمساجد للسعوديين فقط ولكن للمسلمين المقيمين من أية جنسية).

ويقول المؤلفان: إن نسبة الأطفال الأجانب فى بعض دور الحضانة السويسرية يصل أحيانا إلى ٧٥٪ من عدد الأطفال، ومن هذه النسبة عدد كبير من الأطفال المسلمين، وذلك يمثل فى ذاته حقيقة مزعجة جدا لكثير من السويسريين، حيث يتساءل بعضهم: كيف يمكننا تدريس الثقافة المسيحية وتأصيلها لدى أطفالنا فى الحضانة، فى حين أن معظم الأطفال ليسوا مسيحيين؟ وهذه الأوضاع لا تقلق السويسريين المعادين للأجانب فحسب، بل إن هناك فئة كبيرة من السويسريين الآخرين يخشون فقدان الهوية نتيجة لهذه التغيرات. ويقول المؤلفان: الواقع أن فقدان التدين، والابتعاد عن المسيحية بدأ فى عائلات سويسرية كثيرة قبل ذلك بوقت طويل، ومن السهل جدا اتخاذ الأجانب كبش فداء، ولكن ذلك لن يحل

المشكلة، فإذا كان التدين غير موجود أصلا فى الأسرة، فمن الصعب على الحضانة، أو المدارس أن تعوض هذا النقص.

يقول المؤلفان: إن مستوى المعلومات لدى أصحاب كل دين عن دين الآخر متواضع، فالمسلم العادى لا يعرف عن الدين المسيحى فى الغالب إلا القليل، ونادرا ما يكلف المسلم نفسه عناء معرفة المسيحية بقراءة الإنجيل.. ويتحفظ المسلمون على عقيدة التثليث، ويرون أن المسيح تلقى إنجيلا واحدا من الله، ولكن أتباعه جعلوه خمسة أناجيل، ويجهل المسلمون تاريخ الكنيسة كما يجهل المسيحيون تاريخ الإسلام، وتوجد بالإضافة إلى ذلك تصورات خاطئة لدى المسلمين عن المرأة الأوربية، حيث يحكمون عليها من خلال ما ترتديه من ملابس تبدو لهم شبه عارية، يضاف إلى ذلك أن معظم المسلمين فى سويسرا وألمانيا لا يتمتعون سوى بقدر ضئيل من الثقافة، ومعرفتهم بالإسلام محدودة جدا، بالرغم من تمسك بعضهم بالعبادات. ويشمل هذا الجهل أو نقص المعلومات هؤلاء الذين يعلنون إسلامهم من الأوربيين، وغالبا ما تكون معلوماتهم عن المسيحية أيضا متواضعة جدا.

لذلك - كما يقول المؤلفان - لابد من التفريق فى المسيحية والإسلام بين الدين واتباعه ولا ينبغى الخلط بين ديانة مَّا والطريقة التى يعيش بها أصحاب هذه الديانة، ولا يمكن استنتاج تعاليم ديانة معينة من خلال سلوك اتباع هذه الديانة، على الرغم من أنهم قد يترددون بانتظام على الكنيسة أو المسجد، كما لا يمكن الحكم على دين من خلال حياة فرد واحد من اتباع هذا الدين، أو عن طريق التقارير الصحفية التى تميل إلى المبالغة والتهويل. فالفرد المسلم لا يمكن اعتباره ممثلا للإسلام كله.. وكذلك الحال بالنسبة للفرد المسيحى والمسيحية. فكما توجد اتجاهات مختلفة فى المسيحية توجد أيضا فى الإسلام اختلافات ثقافية، واجتماعية، وسياسية، تبعا للاتجاه العقائدى، واختلاف البلاد الإسلامية. والطريقة المثلى لفهم العقيدة هى دراسة الكتب السماوية ذاتها، أو الكتب التى تعطى القارئ فكرة عن تلك العقائد. وبعكس المسيحية التى رفضت الاعتراف بالقرآن على مر القرون، واعتبرته من تأليف محمد ﷺ يعترف القرآن بالكتب السماوية الأخرى ومنها الإنجيل.

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ويشير المؤلفان إلى كتاب من تأليف الباحث السويسرى هانس كينج بعنوان (مشروع أخلاق عالمية)يقول فيه: (لن يكون هناك سلام عالمى بدون سلام بين الأديان)فإذا كانت سويسرا لا تستطيع أن تسهم فى تحقيق السلام العالمى، فلا أقل من أن تعمل على تحقيق التعايش السلمي بين مختلف الأديان، والجنسيات، والأجناس في داخلها. ويضيف المؤلفان: لا يختلف اليوم اثنان على استحالة تجاهل وجود المسلمين فى أوربا. وهناك تطورات إيجابية تشير إلى التفهم المتزايد للإسلام فى سويسرا. فليس المطلوب إدخال المسلمين فى المسيحية، ولكن المطلوب هو الحوار، ولذلك أصبحت جمعيات التبشير السويسرية منذ اجتماعها سنة ١٩٩١ لا تعتمد على (مبشرين)للتبشير بالمسيحية فى مختلف دول العالم. ولكن تعتمد على موظفين يتقنون الحوار.

ويتحدث المؤلفان عن المهاجرين المسلمين فى سويسرا، وقد أصبح عددهم أكثر من ١٣٠ ألف مسلم، وهم مثل كل المهاجرين يواجهون فى البداية مشكلة التأقلم مع المجتمع الجديد. فالناس فى سويسرا يتحدثون لغة أخرى، ولهم سلوك مختلف، وملامحهم قد تبدو غريبة، ويلبسون ملابس غير معتادة، وطعامهم غير مألوف، وعلاقة الرجال بالنساء على غير ما اعتاد المهاجرون، ونظم التعليم مختلفة، والأجور تبدو مرتفعة ولكنها تتضاءل بسرعة عند سداد قيمة الإيجار والاكتواء بنار الأسعار، وفضلا عن ذلك فالعمل مختلف، وأوقاته مختلفة، ونظمه وقوانينه، وأساليب الإدارة الحديثة، وعادات عجيبة.. كل ذلك يمثل مشاكل يواجهها المهاجرون جميعا، وكما أثبت عالِم الاقتصاد والاجتماع يوخايم هوفمان نووتني: فإن القاعدة أن وضع المهاجرين فى المجتمع يكون فى مرتبة ثانية وهم يواجهون مشكلة مزدوجة، فمن ناحية يجد المهاجرون الجدد أنفسهم أمام تحد جديد يجعلهم يكافحون من أجل تحسين وضعهم الاجتماعى فى بلد المهجر. ومن ناحية أخرى عليهم أن يظهروا دائما أمام أبناء بلدهم الذين لم

يهاجروا، والذين هاجروا معهم، بمظهر المحتفظين بأصالتهم، وهذا يعنى المحافظة على شرف العائلة وسمعتها فيما يخص البنات والنساء حتى لو أدى ذلك إلى مشاكل شائكة فى مجتمع يمارس التعليم المختلط.

وعدد المسلمين الذين يحملون الجنسية السويسرية وفقا لتعداد عام ١٩٩٠ يبلغ خمسة آلاف مسلم تقريبا، منهم عدد كبير ليس سويسرى الأصل، ولكنه نشأ فى عائلة مسلمة، أما السويسريون الذين يعلنون إسلامهم فلا يترددون كثيرا على المساجد، لأن اللغة تبقى عائقا كبيرا بالنسبة لهم، على الرغم مما يشعرون به من جاذبية نحو الإسلام، وبعكس ألمانيا، لا يوجد فى سويسرا جمعيات إسلامية للمسلمين الناطقين بالألمانية باستثناء الجماعات الصوفية.. وقد وصل عدد المسلمين فى سويسرا وفق إحصاء ١٩٩٠ إلى ١٣٠ ألف مسلم أى ٢٪ من السكان تقريبا، وهم من دول العالم الإسلامى المختلفة، ونسبة منهم حصلت على الجنسية السويسرية، كما يوجد عدد غير قليل من السويسريين أعلنوا إسلامهم وتزوجوا من مسلمات، ولكنَّ هناك أيضا عددا كبيرا من السويسريين يشهرون إسلامهم دون أن يكون الزواج هو الدافع لذلك، وعدد السويسريات اللاتى يدخلن فى الإسلام بدون ارتباط بزوج مسلم فى تزايد مستمر، وتأثير الأقلية المسلمة فى سويسرا على الحياة السياسية والثقافية ضئيل جدا، ويعتبر الإسلام ثالث أكبر الأديان فى سويسرا، إلا أنه ما زال يمثل أقلية دينية، ويذهب كثير من المسلمين إلى المساجد فى الأعياد، وفى صلاة الجمعة. أما الأطفال المسلمون فإنهم يواجهون مشكلة الانقسام بين ثقافة علمانية غربية، وثقافة إسلامية شرقية.

وعن مشاكل المسلمين فى سويسرا يقول المؤلفان: إن منها الصيام فى رمضان، فإنه حين يأتى رمضان فى فصل الصيف ترتفع درجة الحرارة، وتزداد ساعات النهار، ويختلف الأمر عن الصيام فى دولة إسلامية حيث يصوم فيها الجميع، وتقل ساعات العمل، أما فى مجتمع علمانى مثل سويسرا فإن المسلم الصائم عليه أن يمارس عمله كالمعتاد، ولأن معظم المسلمين يمثلون عمالة غير مؤهلة فإنهم يقومون بالأعمال الشاقة والقذرة، ويكون الصيام بالنسبة لهم مشقة كبيرة، لأن المجتمع يطالبهم بالإنتاج بذات الطاقة التى يعملون بها فى سائر شهور السنة.

كذلك فإن تأدية الصلوات الخمس فى مواقيتها مشكلة حيث يرفض مديرو الشركات والمصانع منح العمال المسلمين فترة للصلاة والسبب هو الجهل بالإسلام، ومعاداة الأجانب، والخوف من كل ما هو غريب. ويعبر عن ذلك أحد المديرين بقوله: (لابد أن يتأقلم هؤلاء المحمديون على الحياة هنا، هل يعتقدون أننا نريد أن يصبح الإسلام دين الدولة فى سويسرا ؟)ومشكلة أخرى أن معظم المسلمين فى سويسرا يجهلون قواعد العبادات فى الإسلام، فلا يعرفون أن الجمع بين الظهر والعصر ممكن للضرورة، ويترتب على ذلك أن معظمهم يترك الصلاة كلية بمجرد أن يواجه بتعذر تأدية بعض الصلوات فى مكان العمل، وبعد ذلك قد يفقدون كل ما يربطهم بالإسلام وأخلاقياته وروحه.

مشكلة أخرى.. هى الحصول على اللحم المذبوح وفقا للشريعة الإسلامية، وكثير من المنتجات الغذائية تحتوى على دهن الخنزير ويكتفى بذكر أنها تحتوى على (دهن حيوانى). والذبح على الطريقة الإسلامية ممنوع فى سويسرا بالقانون، ولذلك يضطر المسلمون إلى أكل اللحوم المتوافرة على الرغم من أنها ليست مذبوحة بالطريقة الإسلامية، بينما تشترى فئة أخرى من المسلمين ما تحتاج إليه من لحوم من محلات الجزارة اليهودية حيث لا يأكل اليهود لحم الخنزير، ويذبحون الحيوان، ولا يقتلونه بالصدمة الكهربائية أو بالرصاص على الطريقة السويسرية.. وليس هناك غير قلة من المسلمين يخالفون القانون ويذبحون الحيوان بالطريقة الإسلامية، والشائعات المتداولة تقول إن المسلمين فى سويسرا يذبحون الماعز والخرفان خفية فى حمامات البيوت ولكن ذلك غير صحيح، بينما فى العاصمة الألمانية برلين أصبح منذ عام ١٩٨٩ مسموحا بذبح الحيوان ولكن بعد تخديره أولا والتأكد من ذلك طبيا، وتقوم بعض محلات الجزارة فى سويسرا بالذبح فى فرنسا فى مذبح خاص يستخدمه اليهود وبعد ذلك يقومون باستيراد هذه اللحوم إلى سويسرا بتصريح خاص.

ليست هذه كل مشاكل المسلمين فى سويسرا.. هناك مشكلة تربية الأطفال.. فالأطفال المولودون فى سويسرا يتقنون إحدى لغات سويسرا، ويتحدثون لغة آبائهم فى البيت، لكن لغة الآباء تتحول مع الوقت إلى لغة أجنبية بالنسبة

لهم، والشيء نفسه ينطبق على الثقافة والدين، فالأطفال يعيشون في عالمين، أو ثقافتين مختلفتين، دون أن يشعروا بالانتماء الكامل لإحداهما. أما بنات المسلمين فتواجههن مشاكلُ عديدة بسبب اختلاف التقاليد الإسلامية عن تقاليد المجتمع السويسرى فى الاختلاط، والجنس، والزواج، ولا تقل مشاكل الآباء عن مشاكل الأبناء صعوبة، فتأدية حقوق المجتمع السويسرى، ومحاولة التأقلم مع عاداته وتقاليده غالبا ما تصطدم من الناحية الأخرى بالتعاليم الإسلامية والعادات الشرقية.

والهرم الاجتماعى فى سويسرا كما يقول المؤلفان فى قمته السويسريون، وبعدهم الألمان، ثم النمساويون، ثم الفرنسيون، ثم الإنجليز، ثم الإيطاليون، ثم الأسبان، ثم البرتغاليون، ثم اليوغسلاف، ثم الأتراك، ثم السود، ثم طالبو اللجوء السياسى.

ويمثل الأتراك أكبر جالية مسلمة فى سويسرا من ناحية العدد، وهم أكثر الجاليات تنظيما و٩٠٪ من المساجد فى سويسرا وألمانيا أسسها أتراك، ولأنهم نشطون فقد صار السويسريون يعتقدون خطأ أن كل ما هو تركى لابد أن تكون له علاقة بالإسلام، ويختلف الأتراك المقيمون فى سويسرا فى موقفهم من الحكومة التركية، فبعضهم يرفض التعامل معها، بينما لا يمانع البعض الآخر من التعامل معها، ويتراوح عدد المنظمات الإسلامية التركية التى تتلقى معونات من الحكومة التركية بين عشر وعشرين منظمة. بينما يبلغ عدد المسلمين اليوغسلاف حسب إحصاء ١٩٩٠ حوالى ٣٥ ألف مسلم يتحدث معظمهم اللغة الألبانية، ولكنهم غير منظمين مثل الأتراك. وتلتقى جماعة منهم فى مسجد فى زيورخ من وقت لآخر. وفى بازل تلقى خطبة الجمعة أحيانا باللغة الألبانية. أما السعوديون المقيمون فى سويسرا فعددهم حوالى ١٥٠٠. وعلى الرغم من ضآلة العدد فإن نفوذ السعودية فى سويسرا كبير وحضورها قوى - كما يقول المؤلفان - وذلك بسبب الميزانية الضخمة التى تخصصها السعودية للدعوة الإسلامية، وقد رفضت السلطات السويسرية الترخيص ببناء مسجد جديد فى برن، وقد شيدت السعودية مسجدا كبيرا فى العاصمة جنيف وهو يتسع لمئات المصلين وفيه مكان خاص للسيدات ويحتوى على مكتبة، وقاعة اجتماعات، وقاعة محاضرات، ومعمل لغات،

ومطبخ، ويضم مكانا لحفظ جثث الموتى المسلمين إلى حين إرسالها للدفن فى بلادها الأصلية. وقد افتتح هذا المسجد عام ١٩٧٨ وتم تحويله إلى وقف إسلامى مستقل عن الحكومات الإسلامية، وتلقى فيه خطبة الجمعة باللغة العربية، وتترجم ترجمة فورية إلى اللغتين الإنجليزية والألمانية.. ويوجد فى مدينة بازل خمسة مساجد يجتمع فيها للصلاة بين ٥٠٠ و ٩٠٠ مسلم، وتتراوح نسبة المتدينين بين المسلمين فى سويسرا بين ٢٠٪ و ٢٥٪ وهى فى تزايد مستمر، ونظرا لتزايد أعداد السويسريين الذين يترددون على الكنائس، فإنهم يقولون: هل سنسمع قريبا صوت المؤذن بدلاً من أجراس الكنائس؟

يقول المؤلفان: كلما كانت الاختلافات الثقافية بين بلد المهجر وبلد المنبع كبيرة ازدادت مشاكل المهاجرين صعوبة، وكمثال لذلك نجد أصحاب الأعمال السويسريين يفضلون العمال من البرتغال عن العمال الأتراك، لأن العمال البرتغال لا يسببون مشاكل فى أماكن العمل بعكس الأتراك الذين يواجهون صعوبة فى التأقلم مع نظم العمل فى سويسرا وإطاعة أوامر القيادات النسائية، ولا توجد دراسات عن (الصدمة الحضارية) التى يواجهها المهاجرون إلى سويسرا من مختلف دول العالم، ولكن المرجح أن هذه الصدمة أشد بالنسبة للمهاجرين المسلمين الذين نشئوا فى مجتمعات إسلامية محافظة أو متشددة، وتعتبر (العودة إلى الإسلام) بين المهاجرين تعبيرا عن الاحتجاج على ما يواجهونه فى بلد المهجر من تمييز واضطهاد، وإن كان المسلمون المتعلمون لا يواجهون أية صعوبة فى التأقلم مع المجتمعات الحديثة، ومن هؤلاء: الأطباء، والمهندسون، وأساتذة الجامعة، أما الطبقات الدنيا من المسلمين وأصحاب التعليم المتواضع والثقافة السطحية شديدة التمسك بالشكليات على حساب جوهر الدين فهى التى تواجه مشاكل التأقلم.

كتاب آخر أهدانى الدكتور ثابت عيد ترجمة وتلخيصا له، بعنوان (العالم العربى فى عيون السويسريين: الشرق الأوسط بؤرة الصراعات)تأليف أريك جيسلنج وأرنولد هوتينجر، والفصل الأول من الكتاب بعنوان (دار الإسلام ودار الحرب)، يقول فيه جيسلنج: هناك زعم بأن سكان الشرق الأوسط يتصرفون تصرفا عاطفيا وليس عقلانيا. وإنى أشعر بأننا - كأوربيين - نتحمل جانبا من

المسئولية عن تأسيس دولة إسرائيل وعن الاستعمار، ولقد اكتشفنا منذ تولى الخومينى السلطة أن العالم العربى لديه أولويات مختلفة عن الأولويات عندنا، فنحن نفترض أن الحرية هي أسمى ما يمكن أن يتملكه الفرد، ونحن نتقبل نتيجة لذلك الشعور بعدم الأمان، فنحن مسئولون عن كل عمل من أعمالنا، ونحن مستعدون لأن نتحمل عواقب كل أعمالنا، أما العالم الإسلامى، فقد علمنا أنه من الممكن أن يؤدى انعدام الحرية إلى الشعور الداخلى بالأمان واليقين، وكان الخومينى يقول: (إذا فعلت هذا فأنت تقترب من الله قليلا، وإذا لم تتبع ذلك فإنك تبتعد عن الله)فإن هذا النظام يمنح الأفراد إحساسا عميقا بالأمان والطمأنينة، وهذا شيء لا يفهمه الكثيرون في الغرب. ويرد عليه هوتينجر فيقول: نحن أيضا كان لدينا في الماضى حضارة يحكمها الدين وأوامره، والكنيسة كانت تقول: (هذا مسموح وذاك محرم) وفى الإسلام ما زال الوضع هكذا إلى حد مذهل. فمنذ القرون الوسطى (من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر)تطورت الحضارتان فى اتجاهين مختلفين، فعلى أحد جانبى البحر المتوسط ظهرت حركة النهضة والإصلاح والتنوير، وجعلت الأولوية للعقلانية، والتكنولوجيا، وأخيرا الثورة الصناعية، بينما ظلت الصورة الدينية الإلهية للعالم قائمة على الجانب الآخر من البحر المتوسط. وصحيح كانت هناك ديانتان قبل هذا التطور، لم تعترف أى منهما بالأخرى، دانتى اعتبر محمدا ﷺ زنديقا، ولا شك أن المسلمين أيضا كانوا ينظرون إلى المسيحيين باحتقار، ولكن مع ذلك كانت هناك حضارتان فى العصور الوسطى متشابهتان من حيث إن كلا منهما محكومة بالشريعة أو بالقانون الإلهى، وكانت كل منهما تعرف الأخرى، وخاصة المسلمين فلم يكن المسيحيون بالنسبة لهم غرباء، لأن المسيحيين عاشوا فى الدول الإسلامية كطائفة دينية معترف بها، صحيح أنهم كانوا في منزلة أقل من المسلمين، ولكنهم كانوا يتمتعون بحمايتهم، ولم يظهر الخندق الكبير الذى لم يعد ممكنا عبوره حتى يومنا هذا إلا عندما بدأ فى الغرب التطور العقلانى سريعا، عن طريق ديكارت مثلا، وفصل الغرب بين الدين والعقلانية، وشهد البحر المتوسط تصادم الحضارتين مرارا وتكرارا.

ويتوقف جيسلنج عند مفهوم دار الإسلام ودار الحرب عند المسلمين، فيقول إن دار الإسلام تعنى الخضوع والقبول، ودار الحرب هى العالم الأجنبى الغريب، ومن المرجح أن الطرفين افترضا أن هناك ما يشبه منطقة نفوذ مشتركة بينهما كحل وسط فيما بينهما، وهى منطقة كان يوجد بها نوع من التسامح المتبادل. وبصفة عامة ظلت الحدود الفاصلة بين العالمين قائمة من الناحية النظرية ولكن ما يشغلنى بصورة دائمة هو قلة ما يعرفه كل طرف عن الطرف الآخر.

ويقول هوتينجر: إن المسلمين لم ينظروا إلى المسيحيين كمثل أعلى لهم، وكانت المسيحية بالنسبة لهم ديانة ناقصة، وثقافة ناقصة أيضا، وعندما يكون صاحب الثقافة المسيطرة هو الأقوى، تتكون لديه مشاعر الاحتقار للثقافة الأضعف، ويظل هذا الاحتقار لفترة طويلة، حتى عندما تنقلب الظروف، وتصبح الثقافة الأضعف سابقا هى الأقوى والأهم بعد ذلك. وهذا ما حدث للمسلمين، كانت أوربا تزداد قوة وأهمية، وظل العثمانيون متفوقين من الناحية العسكرية لقرون طويلة، وكان المسلمون حتى أواخر القرن الثامن عشر يعتقدون أن الدول الأوربية عديمة الأهمية، وأنهم ليسوا بحاجة إلى الاهتمام بها، فالمسيحيون واليهود كانوا معروفين من قديم للمسلمين. وكان أهل الذمة فى الإسلام من المسيحيين واليهود وغيرهم هم الذين انهزموا أمام المسلمين، ولكن حدث فى أوربا تطور عكسى.. فقد ترجم يوحنا يعقوب هوتينجر معانى القرآن قبل أن يهتم المسلمون بالديانة المسيحية لفترة طويلة، ومع روح النهضة، والبحث عن طريق إلى الهند.. (وكان هذا الطريق معروفا للمسلمين منذ قرون)، ومع روح التنوير، ظهر فى أوربا اهتمام بالثقافات الأخرى، وبدأ الأوربيون ينظرون إلى هذه الحضارات كشىء مختلف جدا، ولكن له صلة بهم فى نفس الوقت، وهذه الروح الجديدة كانت موجودة عند المسلمين فى فجر الإسلام، ولكنها تكاد تنعدم فى العصور المتأخرة، فلم ير المسلمون أنهم مضطرون للتعلم من الأوربيين، أو اقتباس بعض عناصر الحضارة الغربية، إلا فيما بعد، عندما ظهر تفوق الأوربيين بصورة واضحة جدا، ولم يكن ذلك عن حب ولا من موقف أساسى، ولكنه حدث إجباريا، حين ظهر تفوق الأوربيين وقوتهم، ولذلك فإن المسلمين يتعلمون من الغربيين على كره منهم فى حقيقة الأمر.. فليس لدى المسلمين بحث علمى ولكن عندهم تقليد

واقتباس إجبارى.. لقد كان المسلمون فى البداية متفوقين.. ثم خلدوا إلى الراحة بعد ما حققوه من نجاح، وعاشوا فى استرخاء، ولم يشعروا بحافز يدعوهم للاهتمام بالحضارات الأخرى، بينما حدث العكس فى الحضارة الغربية، التى بدأت منذ عصر النهضة تنطلق نحو الخارج، وتهتم بالحضارات الأخرى، وحدث نفس الشيء فى التجارة.. تجار مدينة البندقية كانوا يذهبون إلى الإسكندرية.. ولكن أبناء الإسكندرية لم يذهبوا إلى مدينة البندقية.. كان حب المعرفة فى عصر النهضة الأوربية شيئا غير مألوف أدى إلى تغيير علاقة الحضارتين بعضهما ببعض فى أوربا.

ويقول جيسلنج: عندما حدثت اتصالات بين أوربا والعالم الإسلامى فى العصور المبكرة اعتبر العرب الذين ذهبوا إلى أوربا فى ذلك الوقت أن التنوع والتعدد فى أوربا تخلفا سواء تعدد اللغات أو تعدد الثقافات.. لأن المسلمين كانوا يرون أن الحضارة ينبغى أن تكون حضارة واحدة.. واللغة يجب أن تكون واحدة.. والثقافة.. والدين.. كل شيء يجب أن يكون واحدا.. وهذا أمر ينظر إليه الفكر الغربى على أنه سلبى بينما يعتبره المسلمون إيجابيا، وينظرون إلى التنوع والتعدد فى الغرب على أنه ظاهرة همجية. ومن ناحية أخرى فإن الإسلام يرفض قبول البدع، ومن ناحية أخرى هناك استثناء إذا كان من شأن (البدع)تقوية المسلمين بتكنولوجيا الأسلحة من الأعداء الأجانب مثلا فيكون ذلك مسموحا به، وهذا ما فعله الإيرانيون فى فضيحة (كونترا – إيران) فلقد حاولوا الابتعاد عن الغرب ولكنهم قبلوا الأسلحة الحديثة من الأمريكيين.

ويعلق هوتينجر على ذلك بقوله: لقد وجد العثمانيون أنفسهم مضطرين إلى اقتباس الأنظمة الحربية من الأوربيين، واقتبسوا الأسلحة، ثم الزى، ثم صناعة البارود، وهكذا بدأ التيار الجارف لما يطلق عليه (التغريب). وما زال الوضع هكذا مع (البدع)حتى اليوم. لقد ضيع المسلمون قرونا برفضهم الجديد واعتباره من (البدع)حتى أغلقوا باب الاجتهاد.. وفتحوا باب الجمود القائم منذ ذلك الوقت واستمر هذا الجمود حتى بداية النهضة فى العالم العربى فى أواخر القرن التاسع

عشر وأوائل القرن العشرين. والواقع أن هذا الجمود ما زال مستمرا حتى الآن، ففي الجامعات مثلا، لا يوجد نظام للتعليم أو البحث العلمي بالمعنى الأوربي الحديث، بينما اقتبس اليابانيون نظام البحث العلمي الأوربي، ولكن المسلمين لم يفعلوا ذلك، ويرجع ذلك إلى استمرار العلاقة التقليدية بالعلم، فالمرء يتعلم من كتاب، ويحفظ ما في هذا الكتاب، ويتقن ما فيه، فيصير بذلك (عالما)، لأن لفظ (علم)في اللغة العربية يعني العلم بما هو موجود، وهذا العلم يكون الحصول عليه بالحفظ، أما البحث والاكتشاف فشيء آخر.. إنه إضافة معلومة جديدة إلى العلم القائم.. وهذا هو ما ظل شيئا مريبا في الإسلام منذ إغلاق باب الاجتهاد في القرن التاسع وأوائل القرن العاشر، منذ وفاة الإمام الغزالي عام ١١١١ ميلادية، ويمثل هذا التاريخ تقريبا نهاية عصر ازدهار الحضارة الإسلامية وبداية ازدهار الحضارة الأوربية.

ليس هذا كل شيء في الكتاب القيم الذى لخصه وترجمة الدكتور ثابت عيد.. ولكن في ذلك الكفاية لنعرف كيف يفكرون في سويسرا.. وما هي أحوال المسلمين والإسلام هناك..

وما يثيره المفكرون السويسريون يستحق أن ندرسه جيداً وبموضوعية، ويدور حوله حوار معهم ولا يكفي أن نحاور أنفسنا ونكشف لأنفسنا ما فيه من أخطاء..

وشكرا للدكتور ثابت عيد.

قبل وبعد ١١ سبتمبر
المسلمون هم الضحية !

قبل تفجير برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك ومبنى وزارة الدفاع الأمريكية في واشنطن كانت حملة الكراهية للإسلام والمسلمين قائمة في الولايات المتحدة، ولكن الحملة بعد هذه الأحداث الإجرامية التي وقعت في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ تحولت إلى حالة عامة من الكراهية.

وامتدت هذه الحالة من الولايات المتحدة إلى دول أوربا، وكان واضحا أن هناك من ينفخ في النار ويعمل على توجيه مشاعر الكراهية والسخط على الإرهاب إلى كراهية وسخط على المسلمين عموما، وذلك بتصوير المسلمين جميعا على أنهم إرهابيون، وأن هذا الإرهاب مصدره الإسلام ذاته كدين يدعو أتباعه إلى (الجهاد) ضد الكفار، ويعتبر غير المسلمين جميعا كفارا، بل يسمح للمسلمين بالحكم على مسلمين بأنهم كفار !.

ولوزير الدفاع الأمريكي مستشار مسلم هو الدكتور يحيى هندى، وهو في نفس الوقت رئيس المجلس الفقهي لشمال أمريكا ورئيس المؤتمر العام لشئون المسلمين في أمريكا، وقد زار الدكتور يحيى هندى القاهرة في سبتمبر ٢٠٠٢ وأدلى بأحاديث صحفية قال فيها: إن اللوبي اليهودي وبعض الجماعات الأخرى التي تناهض الإسلام في الولايات المتحدة عملت على استغلال أحداث سبتمبر لبناء سد منيع بين الأمريكيين والإسلام، وهدفهم من ذلك منع انتشار الإسلام في الولايات المتحدة وأوروبا، وقال أيضا: إن هذا الحادث حول النظريات والأيديولوجيات السياسية التي سيطرت على أفكار السياسيين في العالم في الآونة الأخيرة، وكان تأثيره بالغا على العلاقة بين الديانات السماوية، بعد شيوع الاتهام للمسلمين عن هذا الحادث، وانتهز اليهود الفرصة لخدمة أهدافهم

فى الشرق الأوسط، فساعدوا على تأجيج الحملة ضد الإسلام والمسلمين، وأدى ذلك إلى انتشار الفزع والخوف لدى المسلمين فى الولايات المتحدة، لكن الإعلام الأمريكى، والإعلام الغربى عموما ظل يعبر عن موقف عدائى ضد الإسلام والمسلمين وهو الموقف الذى ظل الإعلام الغربى ثابتا عليه منذ سنوات عديدة بسبب سيطرة اليهود على وسائل الإعلام، وتأثير ما تردده وسائل الإعلام على عقول ومشاعر وآراء الشعب الأمريكى، وانعكس ذلك فى إساءة معاملة المسلمين. ورغم تصريحات بعض المسئولين بأن الحرب فى أفغانستان وغيرها هى حرب على الإرهاب وليست حربا على الإسلام فإن الرأى العام السائد يتبنى نظرية مؤامرة المسلمين على الغرب.

وقال مستشار وزير الدفاع الأمريكى فى تصريحاته: إن المسلمين فى الولايات المتحدة تعرضوا بعد هذه الأحداث لممارسات عنصرية وعدوانية، وذلك بعد توجيه الاتهام إلى المسلمين. فقامت وسائل الإعلام بشن حملة على المسلمين وعلى الإسلام عامة وليس على المجرمين وحدهم.

وقال أيضاً: إن فى الولايات المتحدة من يحاربون الإسلام والمسلمين بعد أن أصبحت كل الولايات لا تخلو من مسلمين، كما أصبح فيها ٦ آلاف مؤسسة إسلامية تشمل مساجد ومدارس وجمعيات للدفاع عن حقوق المسلمين فى أمريكا.

وفى الاتحاد الأوروبى مكتب فى فيينا عاصمة النمسا لمراقبة التمييز والحد من كراهية الأجانب برئاسة بوب بوركينز والسيدة بياتا فينكلر، وبعد الهجمات الإرهابية فى الولايات المتحدة فى سبتمبر ٢٠٠١ أعد هذا المكتب تقريرا عن ردود الأفعال المناهضة للإسلام والمسلمين فى دول الاتحاد الأوربى الخمس عشرة، وسجل هذا التقرير الأعمال وردود الأفعال التى اتخذت طابعا عدوانيا، وتغييرا واضحا فى سلوك قطاع من الأوروبيين تجاه المسلمين، ويشير التقرير إلى أن الجاليات الإسلامية أصبحت هدفا للاعتداء، وأن الاعتداء يتزايد ، كما يتزايد الشعور بالخوف من المسلمين فى الرأى العام الأوربى عموما، ويظهر هذا الشعور فى الأعمال العدوانية، والتحرشات التى يتعرض لها المسلمون، رجالا ونساء وأطفالا والسيدات المسلمات المحجبات بوجه خاص.

ويتحدث هذا التقرير الذى صدر فى أغسطس ٢٠٠٢ عن مظاهر التوتر بين الأوروبيين والمسلمين، ويؤكد أن الأمور وصلت إلى مرحلة تفوق كل ما كان قبلها، مما يقتضى بذل الجهود والقيام بالمبادرات لتهدئة هذه الحالة من الكراهية والاعتداءات التى يتعرض لها المسلمون، ويقدم التقرير تحليلا للاعتداءات التى وقعت على المسلمين فى كل دولة من دول الاتحاد الأوروبى والتى تمثل اعتداءات على حقوق الإنسان، ويسجل قيام بعض الدول الأوروبية بمحاولات لتطويق ومنع تفاقم هذه الحالة.

وفى هامبورج بألمانيا جرت محاكمة منير المتصدق وهو شاب مغربى متهم بالإرهاب والانضمام إلى تنظيم القاعدة والتدريب فى معسكراتها فى أفغانستان، فتحولت المحاكمة من اتهام لشخص إلى اتهام بالإرهاب لعموم المسلمين وللدين الإسلامى، وحين وصفت تريستانا مور مراسلة الإذاعة البريطانية جو المحاكمة قالت: إن وسائل الإعلام العالمية توافدت على تلك المدينة الألمانية المشهورة تاريخيا بتقاليدها الليبرالية، ولكنها أصبحت مشهورة باستضافتها لمجموعة من الإرهابيين عاشوا فيها سنين دون أن يلفتوا الأنظار، ووصفت تجمع حشود من قوات الشرطة المجهزة تجهيزا كاملا بمعدات مكافحة الشغب وملئوا الشوارع المحيطة بالمحكمة، ووضعوا المتهم فى قفص زجاجى مقاوم للرصاص، وسادت فكرة أن مسجد القدس فى الحى الإسلامى فى هامبورج هو المكان الذى يلقن فيه الشباب فكر التشدد والإرهاب، كما انتشرت فكرة أن (كل مسلم هو مشروع إرهابى) وقال أحد المسلمين لمراسلة الإذاعة البريطانية: إن الرئيس الأمريكى بوش يشعل النار بما يسميه الحرب على الإرهاب ولكن المسلمين الأبرياء يعانون. وسمعت المراسلة أيضا من يقول: إن كل ما يفعله المسلمون هو خلق المشاكل، كما سمعت كذلك أن المسلمين غير موثوق فيهم فى أى مكان يوجدون فيه وأن الغضب يولد الانتقام وأن المتهم قد يكون مجنونا، ولكن انظر إلى الرئيس بوش ورئيس الوزراء البريطانى تونى بلير. انهما أيضا مجنونان، إنهما يخططان لحرب ثانية ضد مسلمين.. أليس هذا جنونا ؟.

وما سمعته مراسلة الإذاعة البريطانية يعكس حالة التوتر والشكوك والغضب على الجانبين.

وربما كان عنوان المقال الذى نشرته صحيفة (لاستامبا) الإيطالية يوم ٨ سبتمبر ٢٠٠٢ معبرا عن الحالة التى يعانى منها المسلمون فى الغرب فقد كان عنوان المقال (حرب ضد الإرهاب أم ضد الإسلام) وقالت فيه: إن الدول الأوربية والولايات المتحدة اتخذت قرارا بالحرب ضد الإرهاب، دون أن تكون هذه الحرب موجهة إلى الإرهاب من جانب مجموعات الباسك فى أسبانيا، أو جماعات الإرهاب وعصابات المخدرات فى كولومبيا، أو جماعات التأميل فى سرى لانكا، أو الإرهاب فى أيرلندا، ولكن هذه الحرب موجهة فقط إلى الإرهاب الإسلامى، دون تحديد لمفهوم الإرهاب، وهل تعتبر كل صورة من صور العنف أو التهديد بالعنف إرهابا إذا كانت لتحقيق أهداف سياسية ؟.. فإذا كان الأمر كذلك فسوف يعتبر إرهابا قصف الأحياء السكنية فى لندن فى الحرب العالمية الثانية، وإلقاء أمريكا القنبلة الذرية على هيروشيما، وإذا اندرج تحت مفهوم الإرهاب النضال المسلح لحركات التحرير الوطنى، فسوف يعتبر إرهابا نضال الأفغان ضد الاحتلال السوفيتى الذى كانت ترعاه وتدعمه الولايات المتحدة.. وسوف تعتبر المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال الألمانى إرهابًا.. واليوم توجه الحرب ضد الإرهاب وضد التهديد الإرهابى الذى يطلقون عليه (الإرهاب الإسلامى) الموجه إلى الولايات المتحدة والعالم الغربى فقط، أما (الإرهاب الإسلامى) الموجه إلى أى جهة أخرى فلا يهم!.. ومنذ أعوام والمذابح دائرة فى الجزائر بلا رحمة، وبدون أن يتخذ المجتمع الدولى أية مبادرات لوضع نهاية لها، وقد أصدر (والتر لاكور) كتابا ذكر فيه أن (الإسلام) متورط فى ستة عشر نزاعا من العشرين نزاعا التى تفجرت فى أنحاء متفرقة من العالم خلال عام ٢٠٠٠ فقط. أما مؤسسة (بيت الحرية) الأمريكية التى تعد تقاريرها عن حقوق الإنسان فى العالم فقد ذكرت فى عام ٢٠٠٠ أنه من بين ٥١ دولة (محرومة من الحرية)فى العالم توجد ٤٦ دولة كل سكانها أو جزء كبير من سكانها يعتنق الدين الإسلامى. كما لو كان هناك ارتباط بين الإسلام وغياب الديمقراطية، وبين الإسلام والإرهاب وبين الإسلام ومعاداة الغرب.

وفى هذا المقال بقلم بوريس بيانكيرى يقول: أن الإطار العام والفلسفى للحرب ضد الإرهاب ليس كل شىء، ولكن الأهم هو العلاقة بين العالم الإسلامى والعالم

غير الإسلامى، علما بأن العالم الإسلامى فى داخلـه جماعـات متطرفـة وأصوليـة تهدف إلى توجيه الضربات إلى القيم الغربية، وفـرض القـانون الإسـلامى والقيـم الإسلامية فى جميع أرجاء العالم عن طريق القوة و (الجهاد)، وهكذا بعـد أفـول الاستعمار الاستيطانى يزداد اليوم تأثير ونفوذ الإسـلام فـى العـالم بصورة تفـوق العادة، وسكان العام الإسلامى يزدادون، ويتغلغلون فـى عديـد مـن الـدول خـارج العالم الإسلامى،وهناك مـن يؤكـد أن التشـدد الإسـلامى ينمـو ويـزداد، ويكسـب تعاطف الطبقات الشعبية،كمـا أن هنـاك مـن يـرى أن الـدول الإسـلامية المعتدلـة تتعرض للخطر بينمـا هـى التـى تقوم بـالدور الأساسـى فـى تحقيـق التوازنـات السياسية والاقتصادية.

وفى النهاية يقول المقال: إن أحداث ١١ سبتمبر جعلتنا نحدد التساؤلات دون التوصـل إلى إجابات لها، ويقول المتشائمون فى الغـرب: إنـه فـى جميـع المنـاطق التى يتجاور فيـها الإسـلام مـع الثقافـات الأخـرى تكـون الجماعـات الإسـلامية المتطرفة عدوانية بصورة لا يمكن تجاهل أو تقليل حجمها، والتحليلات متناقضة تدل على أننا وسط مستنقع، وأننا أمام منافسة بين الثقافات المختلفـة، وهـذا هـو الدرس الأول للحادى عشر من سبتمبر !

وفى فرنسا من يرى أن الدرس الثانى لأحداث سبتمبر من وجهـة نظرهـم هـو استحالة أو صعوبة التعايش مع الإسلام. وقـد عـبرت عـن هـذا الاتجـاه صحيفـة الفيجارو الشهيرة فى عددها الصـادر يـوم ١١ يوليـو ٢٠٠٢ فـى مقـال بقلـم لـور موندوفيل بعنوان (الأوروبيون يتساءلون عن كيفيـة التعـايش مـع الإسـلام) يقـول فيـه: إن الأوربيـين يشـعرون منـذ أحـداث الحـادى عشـر مـن سـبتمبر بأنـهم لا يفهمون حقيقة التهديد الإسلامى، وهذا ما جعل هذا التهديد الإسلامى محـور اهتمام الحكومات فى أنحاء أوروبا، ويزداد التركيز على هذا التهديد تحت ضغط الرأى العـام، والرغبة فى ضبط تدفق الهجـرة مـن الـدول الإسـلامية إلى أوروبـا، حتى وصل المسلمون إلى بلاد الشمال مثل الدانمرك، وهولندا، والسويد، وهى بلاد كانت تعتبر دائما ومنذ أمد بعيد ملجأ آمنا ومتساهلا لكـل القـادمين إليـها سـواء كانوا سياسيين أم غير سياسيين،ولكن الأمر اختلف بعـد ١١ سـبتمبر، حتـى إن الوزير الهولنـدى روجـين فـان بوكسـتل صـرح لمراسـل صحيفـة الفيجـارو عقب

خروجه من اجتماع كان مخصصا لموضوع المهاجرين إلى هولندا فقال: إن هناك اتفاقا في وجهات النظر بين وزراء الاتحاد الأوربى فى هذا الاجتماع على ضرورة معرفة (من هم الأعداء)وذلك بواسطة أجهزة المخابرات للبحث عن المشتبه فيهم والمشكوك في أمرهم. وقالت الفيجارو: إن المخابرات الهولندية وضعت أجهزة تسجيل بالصوت والصورة سرا فى مساجد هولندا، وبثت إحدى قنوات التليفزيون ذات يوم تسجيلات لما يجرى داخل أربعة مساجد، وكان أحد الأئمة يدعو للتخلص من الرئيس الأمريكى جورج بوش ورئيس الوزراء الإسرائيلى أريئيل شارون. وإمام آخر كان يشيد بالعمليات الاستشهادية الفلسطينية. وبعد ذلك استدعى الأئمة الأربعة إلى تحقيق قضائى، وطلب البرلمان الهولندى إجراء دراسة متعمقة عن الإسلام لتطويق المسلمين فى هولندا.

وقالت الفيجارو فى هذا المقال: إن مشكلة الحكومة الفرنسية مع المسلمين المقيمين في فرنسا أنها لا تجد هيئة أو شخصًا يمثل المسلمين يمكن التحدث معه، وقد طلب وزير الداخلية من المسلمين تنظيم تمثيلهم فى فرنسا وانتخاب مجلس لتمثيل الثقافة الإسلامية، ولكن المسلمين منقسمون ولا يتفقون على شخص واحد أو هيئة واحدة. وقالت صحيفة الفيجارو: إن المعارضة شديدة من جانب الحكومة لإقامة معاهد لإعداد الأئمة المسلمين. كذلك واجهت المعارضة في فرنسا الدعوة التى نادى فيها أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة فريبورج الفرنسية لتجميع المسلمين فى فرنسا بهدف الحفاظ على هويتهم الإسلامية والتعايش مع المجتمعات التى يقيمون فيها فى نفس الوقت.

ونفس الاتجاه نجد له أصداء في بريطانيا. وعلى سبيل المثال نشرت صحيفة هيرالد تريبيون يوم ١٤ أكتوبر ٢٠٠٢ مقالا بقلم جيرشوم جورينبرج بعنوان (انظر من يرقد مع اليمين المسيحى ؟) قال فيه: إن الائتلاف المسيحى فى أمريكا يساند إسرائيل بقوة، وينظم المسيرات التى تضم الآلاف لإعلان تأييدهم لها. وبعض اليهود الأمريكيين ومنهم الزعماء الذين لم يقبلوا من قبل أن تكون لهم صلة أو علاقة باليمين المسيحى، لكنهم يشيرون الآن إلى وجود تحالف سياسى جديد ومهم بين اليهود واليمين المسيحى فى أمريكا. ويقولون: إن إسرائيل لابد أن ترحب بمساعدة هذه الجماعات المسيحية التى تعلن صراحة عن حبها للدولة

اليهودية، ويقول جيرشوم جورينبرج: إن هذه العلاقة فى أمريكا بين إسرائيل واليهود من ناحية وتيار اليمين المسيحى من ناحية أخرى هى فى حقيقتها علاقة استغلالية غريبة، لأن مبادئ الإنجيليين المحافظين تمثل من حيث المبدأ مشكلة للإسرائيليين ولليهود الأمريكيين، فى مقابل فائدة وهمية قصيرة الأجل، ولذلك فإن من الأفضل لليهود أن يتعاملوا مع الإنجيليين وفقا للمثل العبرى القائل (تعامل مع الآخر وتشكك فيه) بقبول هذا التحالف. وفى نفس الوقت تعريف الجماهير اليهودية بأوجه الاختلاف بينهم وبين اليمين المسيحى حتى ولو كانوا فى بعض الأحيان يتبعون نفس السياسات التى يتبعها اليهود.

ويقول المقال: إن وجهة نظر اليمين المسيحى تجاه إسرائيل تنبع من ازدواج الموقف اللاهوتى لليمين المسيحى، فقد كان لهم من قبل موقف مناهض لليهود، كانوا يعتبرون الشعب اليهودى شعبا مصابا بالعمى الروحى لعدم اعترافه بالمسيح. ولكن تيار اليمين المسيحى فى ذات الوقت يقول: إن الوعود الإلهية لليهود وعود مباركة، ومبارك كل من يؤيد إعادتهم إلى أرضهم، واليمين المسيحى يعتبر الوجود الإسرائيلى فى حد ذاته دليلا على تحقق نبوءات التوراة وبخاصة النبوءة التى تقول (إما أن يموت اليهود أو يعترفوا بالمسيح) فاليمين المسيحى يحب إسرائيل كتأكيد للعقيدة المسيحية والأصولية المسيحية، ولذلك أعلن القس جيرى فالويل أن مولد دولة إسرائيل من أكثر الدلائل المثيرة التى تشير إلى العودة الوشيكة للمسيح المنتظر.. وقال البروتستانتى جاك ميلر: إن إسرائيل تلقى تأييدا من جانب المسيحيين الأصوليين فى أمريكا أكبر مما تلقاه من اليهود أنفسهم، لكنه أيضاً أكد أن محرقة (أوشفيتز) التى أعدم فيها هتلر اليهود كانت مجرد مقدمة لما سوف يحدث لليهود عند اقتراب نهاية العالم.

ويقول اليهود الذين يدعون إلى مزيد من العمل جنباً إلى جنب مع اليمين المسيحى: إن هذه الفكرة لا تمنع من التعاون مع اليمين المسيحى. وكتب ابراهام فوكسمان مدير رابطة مكافحة التشهير: إن هذه المعتقدات الدينية تتحدث عن مستقبل مجهول، بينما يقدم لنا هؤلاء المسيحيون تأييدهم الآن، ويخطئ الذين يرون أنه سيأتى يوم سيكون على اليهود فيه إما أن يؤمنوا بالمسيح وإما أن يقبلوا الموت، لأنهم يعيشون فى عالم أصبح مختلفا كل الاختلاف.

يقول جيرشوم جورينبرج: إن اليهود عندما يتجاهلون هذا الفكر اللاهوتي المسيحي فإنهم يحطون من قدر أنفسهم ويهبطون إلى مستوى الإنجيليين المحافظين. وهم أيضاً يخاطرون بإهدار سنوات من الحوار بينهم وبين الكاثوليك والبروتستانت الذين اضطلعوا بالمهمة الصعبة لإعادة تقويم الموقف المسيحي تجاه اليهود، وسيصبح من الصعب على اليهود تأكيد هذا التقويم في حالة عمل الجماعات اليهودية البارزة مع الجماعات المسيحية التي تنكر اليهودية ولا تعترف بها.. هل الأزمة الإسرائيلية هي التي تبرر لإسرائيل تجاهل هذه الاعتبارات ذات الجذور الممتدة في الزمان لكي تضمن تأييدا مباشرا وتكتيكا كما يقول البعض ؟.

ويقول الكاتب أيضاً: إن موقف اليمين المسيحي يمثله ويفسره من ناحية أخرى خطاب السيناتور إنهوف أمام مجلس الشيوخ في مارس ٢٠٠٢ وقال فيه إن على إسرائيل أن تحتفظ بالضفة الغربية لأن الله ذكر هذا، وهذا الموقف من جانب السيناتور إنهوف وأمثاله لا يعتبر فقط تأييدا لإسرائيل ولكنه أيضاً تأييد للسياسات المتشددة التي تسمى (الأصولية اللاهوتية المسيحية).. واليهود من جانبهم لديهم كل الأسباب التي تدفعهم للتحدث مع الإنجيليين المحافظين في حوار عقائدي صريح مباشر يحدد بوضوح نقاط الخلاف ونقاط الاتفاق.

وهكذا نفهم المعنى الذي قصده الكاتب - وهو بالمناسبة يهودي ويعيش في القدس - وما يقصده هو أن هناك تحالفا بين اليهود والإسرائيليين من ناحية واليمين المسيحي والأصوليين في المذهبين البروتستانتي والإنجيلي في أمريكا من ناحية أخرى، وأن هذا التحالف أساسه الإيمان بصدق النبوءات الخاصة بوعد الله لليهود بأن يعطيهم هذه الأرض !.

هل يدرك العرب والمسلمون هذه الحقيقة التي يرددها اليهود والمسيحيون الأمريكيون وهي حقيقة تضيف عاملا عقائديا في العلاقة بين إسرائيل وأمريكا يضاف إلى العوامل السياسية؟!.

والصورة التي رسمها روى هاترسلي عن حال المسلمين في بريطانيا قد تضيف جديدا في فهم مشاعرهم، وهم يعيشون في مجتمع يرفض اندماجهم فيه، وفي

نفس الوقت يعيب عليهم البريطانيون عدم قدرتهم على التكيف والاندماج في مجتمع غربي، وهم يحملون الجنسية البريطانية ولكن يظل تصنيفهم في المجتمع على أنهم (المهاجرون).

ويقول روى هاترسلي في مقاله المنشور في صحيفة التايمز البريطانية يوم ٢١ مايو ٢٠٠١ بعنوان (تصنيف مسلمي بريطانيا يلهب المشاعر) يقول فيه: إن مصطلح (مهاجر)يثير حنق الشباب والفتيات المسلمين الذين ولدوا في بريطانيا، واكتسبوا أغلب العادات البريطانية، وإن كان الجيل الأول من المسلمين المهاجرين قد قبلوا التمييز في المعاملة، وعملوا بأجور أقل في نفس العمل الذى يقوم به البريطانيون، وعاشوا في مساكن رديئة، وعوملوا بدون أقل قدر من الاحترام، فإن أحفادهم تدفعهم نشأتهم البريطانية إلى توقع الأفضل والمطالبة به. والبريطانيون يتحدثون عن المسلمين وكأنهم جميعا من جنس واحد ولهم خصائص واحدة. وهذا في حد ذاته نوع من التنميط العرقي، وينطوى على تحامل قد لا يكون متعمدا إلا أنه في غاية الخطورة. لأن المسلمين في بريطانيا من جذور اجتماعية وثقافية مختلفة، بحيث لا يستطيع المسلم المهاجر إلى بريطانيا من أوغندا مصاحبة مسلم مهاجر من باكستان مثلا، وإن كان هناك أمور مشتركة بين الجميع مثل تحريم شرب الخمر ولحم الخنزير وصيام شهر رمضان، إلا أنهم بعد ذلك مختلفون تبعا للخصائص والموروثات الخاصة بالدول التى جاءوا منها..

ويصف روى هاترسلي عضو مجلس العموم السابق ما حدث بعد ظهور رواية سلمان رشدى (آيات شيطانية) فقد أحرق المسلمون صورته خارج المساجد في بعض أنحاء بريطانيا، وقذفوا بالحجارة المكتبات التى تعرض هذه الرواية، أما المسلمون من سكان (سبارك بروك) وأصولهم من كشمير فقد دعوا إلى اجتماع عبروا فيه عن الغضب. والمسلمون القادمون من بنجلاديش وهم من أصول ريفية فلم يكن من اليسير عليهم التأقلم على الحياة الأوربية في بريطانيا. والشباب المنحدر من المهاجرين من كشمير وباكستان يتأرجحون الآن حول الخطوط العرقية الفاصلة، وعبر عن هذه الحالة المهندس خالد محمد مرشح حزب العمال في

(بيرى بار) بقوله: (من الممكن التأقلم مع المجتمع البريطانى دون الذوبان الكامل فيه)، وكان برنامجه الانتخابى تمثيل المسلمين فى بريطانيا فى الشكوى من سوء أداء المدارس فى أحياء المسلمين، ومشكلة الفقر بعد التقاعد. وقال روى هاترسلى فى مقاله: إن (التهميش)هو المشكلة الحقيقية للمسلمين فى بريطانيا.

والصحف الإيطالية والأمريكية والعربية تتحدث عن الكاتبة الإيطالية التى تعيش فى نيويورك أوريانا فالاتشى وقد اشتهرت فى أوربا بعد صدور كتابها (الغضب والكبرياء) وبعد توالى نشر مقالاتها التى تناصب العرب والمسلمين العداء وتكيل لهم الشتائم بلغة هابطة. وبعد ١١ سبتمبر كتبت مقالا جديدا للهجوم على الإسلام نشرته صحيفة (كوريرا دى لاسيرا) أشهر الصحف الإيطالية على صفحة كاملة تحت عنوان (لنتذكر) تربط فيه بين مشهد انهيار برجى مركز التجارة العالمى بمشهد القتلى الأمريكيين فى حرب فيتنام، وتتساءل عن أسباب الغيرة والكراهية تجاه أمريكا، وتجيب: إن الذين يكرهون أمريكا إنما يكرهونها لأنها مجتمع يقوم على الحرية والمساواة، منذ ثورة الاستقلال الأمريكية التى تفجرت عام ١٧٧٦ قبل الثورة الفرنسية،وكان زعماؤها - ابتداء من القس بنجامين فرانكلين إلى توماس جيفرسون وجورج واشنطن - هم المدافعين عن هذه القيم الأمريكية من خلال (إعلان الاستقلال) الذى قام الأوربيون بتقليده بعد ذلك. وهذا الإعلان هو الذى حول الرعايا إلى مواطنين وجعل الشراذم شعبا له كرامة، وامتد أثره إلى شعوب العالم لتحريضهم على التمرد على الاستبداد، والمطالبة بحكم أنفسهم بأنفسهم، والحرص على الحرية الفردية بعكس الشيوعية التى سحقت الفرد لإعلاء كلمة الدولة وحولت الجميع إلى فقراء. أما فى أمريكا فكانت ثورة الرعاع من أجل أن يتساوى البيض والسود والصفر ويتساوى الأغنياء والفقراء.. وأمام إرادة الشعوب فى الحرية خسر البريطانيون ، والألمان، والروس، والنازيون ، والفاشيون، والشيوعيون والفيتناميون.

ثم تصل الكاتبة إلى الإسلام فتقول: إن المشكلة هى أن (أبناء الله)ليسوا من المسلمين، ثم توجه إلى بابا الفاتيكان سؤالا: هل صحيح أنك طلبت من المسلمين أن يصفحوا عن الحروب الصليبية التى قام بها أسلافك من أجل استعادة قبر المسيح

المقدس؟.. وهل طلبوا الصفح منك.. الصفح عن اغتصابك لهذا القبر المقدس؟.. وهل سألوك الصفح عن إخضاعهم شبه جزيرة ايبريا المسيحية التى تشمل البرتغال وثلاثة أرباع أسبانيا واستمر استعمارهم لها طوال سبعة قرون، ولو لم تتحرك الملكة ايزابيلا والملك فردناندو لطردهم فى عام ١٤٩٠ لكنا جميعا الآن نتحدث اللغة العربية؟.. وهم أيضاً لم يعتذروا عن الجرائم التى ارتكبوها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر حيث كانوا يخطفون أجدادى ويضعون السلاسل فى أقدامهم وأيديهم ورقابهم وينقلونهم إلى الجزائر وتونس وطنجة والقسطنطينية لبيعهم فى الأسواق ليكونوا عبيدا، ويتخذون الفتيات خليلات، إلى أن تأسست جمعيات تحرير العبيد البيض فى الجزائر والمغرب وتركيا وهذه الجمعيات أسسها الرهبان الإيطاليون، وكانت الكنيسة الكاثوليكية هى التى تفاوضت من أجل الإفراج عن هؤلاء العبيد ودفع الفدية لهم.

وتستمر أوريانا فالاتشى فى مقالها فى توجيه خطابها إلى بابا روما فتقول: إنك تحيرنى يا قداسة البابا،فقد عملت كثيرا من أجل إسقاط الاتحاد السوفيتى، وكان لك الفضل فى تحقيق هذه المعجزة التى تعيشها أوربا بعد أن تحررت من الشيوعية. وروسيا تطلب الدخول فى حلف الأطلنطى، ولينينجراد استعادت اسمها القديم بطرسبرج، والرئيس الروسى بوتين أصبح صديقا للرئيس الأمريكى بوش، فهل بعد كل هذا تقوم بمغازلة المسلمين وهم أسوأ ألف مرة من ستالين، ويريدون إنشاء مسجد فى الفاتيكان ؟.. يا قداسة البابا أنت تذكرنى برجال البنوك من اليهود والألمان الذين كانوا يقرضون هتلر الأموال طلبا للنجاة، ثم وجدوا أنفسهم بعد سنوات قليلة فى أفران الغاز !.

ثم تقول: إننا نعرف اليوم كل شىء عن الأصولية الإسلامية، وبعد مرور شهرين فقط على كارثة نيويورك برهن ابن لادن على أننى لم أخطئ عندما أعلنت فى كتابى (الغضب والكبرياء)أنكم لا تفهمون، ولا تريدون أن تفهموا. إن هناك حربا صليبية مضادة.. حرب أديان يطلقون عليها.. الجهاد أو الحرب المقدسة. والغرب بالنسبة لهم - يجب أن يفتحه المسلمون، ويجب أن يعاقب المسلمون الغرب ويجبره على الخضوع.. وقد برهن ابن لادن على أن هذه الحرب حرب أديان، وعلى كل العرب والمسلمين أن يقفوا معه ومن يقف على الحياد فهو كافر،

وأن من يقبل شرعية المؤسسات الدولية فإنه كافر لأنه يتخلى عن الشرعية الوحيدة الصحيحة وهى الشرعية المستندة إلى القرآن.

ثم تمضى فى حَبْكِ أكاذيبها فتقول: إن الكراهية ضد الغرب تزداد وتشتعل مثل النار التى تغذيها الرياح. وتتضاعف أعداد الأصوليين الإسلاميين ثم تتكاثر مثل الخلايا السرطانية التى تبدأ بخلية واحدة ثم يزداد العدد إلى ما لا نهاية .. وهذه الكراهية للغرب تمتد من أفغانستان إلى السودان، ومن إندونيسيا إلى باكستان، ومن ماليزيا إلى إيران، ومن مصر إلى العراق، ومن الجزائر إلى السنغال، ومن سوريا إلى كينيا، ومن ليبيا إلى تشاد، ومن لبنان إلى المغرب، ومن فلسطين إلى اليمن، ومن السعودية إلى الصومال ..!..

ومن لا يصدق ذلك فعليه أن يتأمل فى الحشود التى تظهر على شاشات التليفزيون التى تعج بها شوارع إسلام أباد وميادين نيروبى، ومساجد طهران والوجوه المتوحشة، وقبضات الأيدى المهددة، وصور ابن لادن، والنار التى تحرق العلم الأمريكى،والدمى التى تحمل ملامح بوش، وهم يصيحون : الله أكبر.. الله أكبر.. الجهاد .. الجهاد .. إنهم ليسوا قلة من المتطرفين والمتعصبين، بل هم ملايين من المتطرفين والمتعصبين.. مما يدل على أن ابن لادن ليس إلا قمة جبل الجليد الذى يظهر على السطح، وفى الأعماق ملايين يعانون من الفقر وينعم زعماؤهم بالثراء، ويعيشون فى ظلمات العصور الوسطى، و ٦٠٪ منهم على الأقل أميون، ويرفضون، أو يجهلون قيم الحضارة، والحرية، والتقدم ، والعدل، والديمقراطية، هؤلاء المسلمون يشعرون بالغيرة من الغربيين، ويبهرهم نظام الحياة الغربية، ويتهمون الغرب بأنه السبب فى الفقر المادى والفكرى الذى يعيشون فيه.

ولا تكتفى أوريانا فالاتشى بكل هذه الأكاذيب والاتهامات الملفقة وتضيف: يخطئ من يظن أن (الحرب المقدسة)انتهت مع تشتت نظام طالبان فى أفغانستان فى نوفمبر ٢٠٠١، وبعد خروج النساء الأفغانيات فى كابول بدون (النقاب)ويذهبن إلى المدارس وإلى الأطباء ومصففى الشعر، وأزواجهن وقد حلقوا

ذقونهم بعد هزيمة طالبان، كما رفع الإيطاليون شارة النظام الفاشى بعد هزيمة موسوليني.. يخطئ من يظن أن ذلك يعنى أن الأمر انتهى .. لأن أفغانستان تعاقبت عليها فى السنوات العشرين الماضية مراحل حلقوا فيها الذقون ثم عادت مرة أخرى، وتخلت فيها النساء عن النقاب ثم عدن إليه مرة أخرى.. وتذكروا أن الذين فجروا مركز التجارة العالمى فى سبتمبر ٢٠٠١ لم يكن من بينهم أفغانى واحد، مما يعنى أن الأصوليين منتشرون ولهم مراكز قيادة وتدريب فى كل مكان غير أفغانستان.

وتصل إلى أخطر من كل ما قالته حين تختم مقالها بأن أفغانستان فى شمال الجمهوريات الإسلامية للاتحاد السوفيتى السابق، وفى الغرب إيران وتجاورها العراق التى تقع على حدود سوريا ثم لبنان وبجوارها الأردن ثم السعودية، وفيما وراء البحر الأحمر القارة الأفريقية بدولها الإسلامية: مصر وليبيا والصومال وشبابها الذين يهللون للحرب المقدسة، مما يدل على أن الصدام بيننا وبينهم ليس صداما عسكريا، وإنما هو صدام ثقافى ودينى، ولذلك فإن انتصاراتنا العسكرية لن توقف هجمات الإرهاب بل سوف تشجعها وتزيد من حدتها.. إن الأسوأ بالنسبة لنا لم يأت بعد..

من قرأ كل هذا الهراء الذى يقطر حقدا وكراهية ويحرض على الكراهية والعداء للمسلمين ويسعى إلى جعل الصراع دينيا.. ليصبح صراعا مستمرا على مدى الدهر ولا ينتهى ..؟

من صاحب المصلحة فى ذلك ؟..

وقبل أن يتساءل المسلمون لماذا كل هذه الكراهية فى الغرب للإسلام والمسلمين فإن الغربيين هم الذين يتساءلون: لماذا يكرهنا العرب والمسلمون، وبدلا من أن يبحث المسلمون عن (ميراث الكراهية) عبر القرون فإن الغربيين هم الذين يبحثون عن هذا الميراث فى الجانب الإسلامى ! ! أى إن صناعة الكراهية فى الغرب تعمل فى اتجاهين: فى اتجاه تشويه الإسلام أمام الرأى العام الغربى واتجاه لتوجيه الاتهام إلى المسلمين بأنهم هم الذين يكرهون الغرب، وهذا ما فعلته صحيفة هيرالد تريبيون الأمريكية فى عددها الصادر يوم ١٢ سبتمبر ٢٠٠٢ ففى مقال

بعنوان (ميراث من الكراهية)بقلم الصهيونى المعروف برنارد لويس قال: إن المسلمين يرون أن الإسلام كان أعظم حضارة على وجه الأرض وحمل الحضارة والدين إلى الشعوب الهمجية الكافرة التى كانت تعيش خارج حدود العالم الإسلامى، ولكن كل شيء تبدل بعد ذلك،وبعد أن كان المسلمون يقومون بغزو العالم المسيحى ويسيطرون عليه تمكنت القوى المسيحية من غزو المسلمين والسيطرة عليهم، وتزايد لدى المسلمين الشعور بالإحباط على مدى قرون ورأوا فى هذا التغير انقلابا فى قانون السماء وقانون الطبيعة. وبلغ هذا الشعور بالإحباط ذروته فى وقتنا الحاضر وتظهر هذه المشاعر فى المناطق العديدة التى يتصادم فيها المسلمون مع غير المسلمين كما حدث فى البوسنة، وكوسوفا، والشيشان، وإسرائيل، والسودان، وكشمير، والفلبين، وغيرها، والهدف الرئيسى لحالة الغضب هو الولايات المتحدة باعتبارها زعيمة العالم المتحرر فى الغرب وزعيمة العالم المسيحى، والتى يعتبرها البعض زعيمة عالم الملحدين.

ويُرجِع برنارد لويس ميراث الكراهية للغرب فى العالم الإسلامى إلى أن رجال السياسة فى العالم العربى وبعض دول العالم الثالث الأخرى، استطاعوا أن يحققوا بعض مآربهم بالانحياز إلى إحدى القوى العالمية ضد الأخرى، من ذلك انحيازهم إلى فرنسا ضد بريطانيا، وانحيازهم لقوات المحور فى الحرب العالمية الثانية ضد الحلفاء الغربيين، وانحيازهم للاتحاد السوفيتى ضد الولايات المتحدة... ورغم أن المسرح تغير بعد سقوط الاتحاد السوفيتى وسيطرة قوة عظمى واحدة على العالم هى الولايات المتحدة فإن السيناريو بقى عندهم كما هو، وبعض الزعماء العرب يبذلون جهودا كبيرة من أجل إيجاد بديل للاتحاد السوفيتى ليكون هذا البديل نصيرا وراعيا لتوجهاتهم المناوئة لأمريكا، فى الوقت الذى تبنَّى فيه فريق رؤية مغايرة، وأبرزهم أسامة بن لادن. ورؤية هؤلاء تتلخص فى أنهم حاربوا حربا مقدسة ضد الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان وانتصروا عليه، والاتحاد السوفيتى كان إحدى القوتين الملحدتين، كما أنه كان القوة الأكثر غلظة، وبعد ذلك فإن محاربة الولايات المتحدة قد تكون أيسر بكثير وهى الدولة اللينة المدللة، ويضيف برنارد لويس أن روح الكراهية ظلت تنمو باطراد لسنوات طويلة، وتفاقمت حدتها نتيجة لتصرفات بعض الزعماء الذين تصفهم أمريكا

بأنـهم أصدقاؤهـا وحلفاؤهـا وتراهـم شـعوبهم دمـــى متحركـــة تمســك أمريكــا بخيوطها. وهنا – كما يقول – يبرز تساؤل على جانب كبير من الأهمية، رغم أنه لا يثار كثيرا، يتعلق بالســبب وراء ازدرائـهم لأمريكـا علـى هـذا النحـو، وهـو الأسلوب الذى تنتهجه أمريكا ويصفونه بأنه أسـلوب بـذىء، وفاسـد، وخطـير، لمـا لـه مـن تأثـير فـى إفسـاد المجتمعـات الإسـلامية، ومـاذا كـان يعنـى آيـة الله الخومينى بتكـــراره وصـف أمريكـا بأنــها (الشـيطان الأكـبر)؟.. والشـيطان ليـس مستعمراً، أو مستغلا ولا غازيا للآخرين، ولكنه يضلل، ويغـوى، ويوسـوس فـى الصدور كما جاء فى القرآن. وقد يعبر عن هذا المفهوم مقال نشر فى جريدة عربية دفاعا عن تعدد الزوجات قال كاتبه: إن تعـــدد الزوجـات يعتـبر جريمـة يعـاقب عليها القانون فى الـدول الغربيـة، ولكـن ذلـك يعتـبر منافيـا للطبيعـة البشـرية واحتياجاتها، لأن الرجال لا يقربون نساءهم عشرة أيـام كـل شـهر أثنـاء الـدورة الشهرية، وتطول هذه المدة أثناء فترة الحمل، وفى الغرب يباح الزنـا والدعـارة، أما فى الإسلام فالبديل هو تعدد الزوجات، ويؤكـد الكـاتب علـى أن هـذا البديـل يوفر للزوجة مكانة محترمة، ويعطى لأبنائها صفة شرعية.

ويعلق برنارد لويس بقوله: قد نوافق على ذلك إذا كنا نوافق الكاتب على رأيه فى العلاقة بين الرجـل والمـرأة، ويقصـد بذلـك أن رؤيـة المسـلمين لهـذه العلاقـة محصورة فى الجنس بينما هى فى الغرب علاقة إنسانية أولا ويـأتى الجنـس فـى المرتبة الثانية. برنارد لويس يشير بخبث إلى ما يتكرر فى الكتابات الغربية من أن المسلمين حسيون، متعطشون للجنس ولا يـرون فـى المـرأة إنسـاناً ولكـن يـرون فيها هدفا جنسيا فحسب.

ويستطرد فى مقاله فيقول: إن النتيجة التى وصل إليها ابن لادن وغيره هى أن الولايات المتحدة صارت ضعيفة ، ومصابة بالذعر ، وعـاجزة عـن القيـام بـأى رد فعل. وهكذا جاءت جرائم الحادى عشر من سبتمبر نتيجة لهذا الاعتقاد، وكانت فى نفس الوقت الشرارة الأولى لحملة واسعة النطاق تـهدف إلى طـرد الأمريكيـين وحلفائهم من الجزيرة العربية وبقية الدول الإسلامية، والإطاحة بمؤيدى أمريكا المستبدين، وتمهيد الطريق للصراع العالمى الأخير. ولابد أن الضربة الفعالة التـى وجهتها أمريكا لقواعدهم فى أفغانستان كانت صدمة هائلة للمنظمـات الإرهابيـة

دفعتهم إلى تغيير حكمهم على أمريكا بالضعف والتردى الأخلاقى، وعلى أمريكا أن تتأكد من أنهم لن يعودوا إلى حكمهم السابق غير الصحيح على أمريكا لأنهم لا يفهمون كيف تسير الأمور فى مجتمع ديمقراطى.

لا نحتاج إلى القول بأن برنارد لويس صهيونى، وكل كتاباته تقطر سما عندما يتحدث عن العرب والمسلمين، ومع ذلك لابد أن نقرأ ما يكتبه لنرى كيف يفكرون وإلى أى مدى هم بارعون فى المغالطة وقلب الحقائق وتصوير الجلاد على أنه الضحية، والحديث عن الضحية على أنه الجلاد.

ولا أعرف لماذا يركز برنارد لويس دائماً على ما يسميه كراهية العرب والمسلمين لأمريكا، ولا يتحدث عن الكراهية لأمريكا فى أوربا وآسيا وأفريقيا ؟.. ولا يذكر أن أوربا وأمريكا هى التى احتضنت الشيخ عمر عبد الرحمن، وأبا قتادة، وأبو حمزة المصرى وهى التى صنعت أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة، بل هى التى صنعت طالبان أيضا ! وغيرهم..

فى أوربا يرون أن الصفوة السياسية فى أمريكا تنظر إلى أحداث الحادى عشر من سبتمبر على أنها (هدية القدر) والفرصة الفريدة لكى تتأكد زعامة أمريكا للعالم إلى الأبد، بحجة قيادتها للصراع الدولى ضد الإرهاب، ولا أحد يعلم إلى أين سيؤدى هذا الطريق. وأن هذه الأحداث التى وقعت والقوة الأمريكية فى ذروتها تشير إلى بداية الغروب التدريجى الأمريكى، فهذه الحرب ستطلب التعبئة القصوى لموارد أمريكا الاقتصادية والسياسية والعسكرية والمعنوية ولا تريد أمريكا أن تعترف بأن الإرهاب له أسباب، ومادام قد بقيت الأسباب فسوف يستمر وجود الإرهاب، ولذلك فإنها سوف تدفع ثمناً باهظاً لقيادتها لهذه الحرب التى تسميها الحرب على الإرهاب، والخطورة الحقيقية فى استخدام أمريكا للتكنولوجيا المتقدمة لضمان الهيمنة العالمية، ولكن سرعان ما استوعب الإرهابيون هذه التكنولوجيا وبذلك سيكون هؤلاء الأشرار قادرين على إثارة الفوضى فى العالم وفى أمريكا بهذه التكنولوجيا وبتنظيم جديد يعتمد على جماعات سرية عابرة القوميات يصعب اكتشافها والاحتياط من هجماتها إلا عن طريق منظمات مماثلة. وما تفعله أمريكا الآن أقرب إلى ما جرى قبيل الحرب العالمية الأولى وكان السبب فى إشعالها، وأن انهيار أمريكا بنفس الطريقة التى

انهار بها الاتحاد السوفيتى لا يمثل تهديدا كبيرا، ولكنَّ هناك خطرا من نوع آخر. فهناك أمريكيون لديهم مخاوف من الانعزال نتيجة عدم القدرة على تحمل أعباء الهيمنة العالمية، وإذا عادت الولايات المتحدة إلى وعيها فستكون لذلك آثار إيجابية كثيرة على العالم.

هذا ما يقال فى صحف أوربية ولا يحتج عليه الأمريكيون ولكنهم يحتجون على كل كلمة أو حلقة فى مسلسل تليفزيونى أو مقال من عربى أو مسلم !.

وفى جميع دول العالم تقريباً أصوات وأقلام تعبر عن رفض الاتجاه الأمريكى للسيطرة على العالم بالقوة بحجة محاربة الإرهاب. فلماذا تستنكر أمريكا أن يكون فى العالم العربى والإسلامي من يرفض أيضاً هذه الهيمنة. كما أن فيه من يؤيدها على طول الخط؟ أليست أمريكا قلعة حرية الرأى فلماذا تستنكر الرأى حين يصدر عن عربى أو مسلم؟.. ومن يسعى إلى الاحتفاظ بالهوية الوطنية والقومية والإسلامية ويرفض ذوبان حضارته فى حضارة أخرى لماذا تعتبره خطرا عليها ؟ ولماذا ترفض أمريكا دعوة المسلمين والعرب إلى حوار وتعايش الحضارات بديلا من نظريتها المفضلة التى تروج لها بكل الوسائل عن صراع وصدام الحضارات ؟..

أسئلة كثيرة يطرحها المسلمون ولا يجدون من أمريكا إجابة عنها.

حرب عقائد . . أم حرب مصالح ؟

من الصعب .. بل من المستحيل متابعة وحصر ما ينشر من كتب ومقالات ضد الإسلام، تساهم في تعبئة نفوس الأمريكيين والأوروبيين ضد هذا الدين وأهله، تجعلهم يصدقون أنه يمثل خطرا عليهم وعلى العالم.. ومن الصعب كذلك فهم أسباب هذا الإصرار الغريب على صناعة العداء بين المسلمين وشعوب الغرب، ويدعو ذلك إلى التساؤل: هل هى مؤامرة ؟.. وإذا كانت مؤامرة فمن الذى ينسج خيوطها ؟.. ولماذا ؟.. ومن المستفيد منها؟.. وهل يمكن أن تستمر المؤامرة منذ بداية ظهور الإسلام وحتى اليوم ولا تتوقف حتى بعد مرور أكثر من ١٤٠٠ سنة ؟..

وهناك من يرفض فكرة وجود مؤامرة، ويقول: إن المؤامرة ليس لها وجود إلا فى عقول من يصدقون بوجودها، ويقول أيضا: إن التفسير التآمرى للأحداث وللتاريخ هو فى ذاته من علامات التخلف والجهل وعدم القدرة على فهم حقائق الأمور بعقلية علمية .. وإن عقلية التصديق بالخرافات مازالت مسيطرة على الذين يفسرون الأحداث ويرجعون كل مشكلة أو أزمة إلى شياطين المتآمرين بدلا من البحث عن الأسباب الحقيقية لهذه الكراهية.

وكذلك هناك من يقول: إن صورة الإسلام مشوهه لأن واقع المسلمين مشوه وردىء ومتخلف وملىء بالسلبيات. وهذا شىء يجب الاعتراف به وليس من مصلحة المسلمين إنكاره، وأن عدم مساهمة المسلمين فى الحضارة الحديثة حقيقة من حقائق هذا الزمان، فلماذا ننكرها ؟.. ولماذا نقول إن من يذكر هذه الحقائق متآمر علينا ؟.. والأجدر بنا أن نعترف بواقع التخلف وانتشار الجهل، والأمية، والخرافات، والتفكير العشوائى، وعدم القدرة على الوصول إلى إنتاج التكنولوجيا الحديثة، كما فعلت الصين وكوريا وسنغافورة. ويضاف إلى ذلك عدم القدرة على استيعاب العلوم الحديثة، أو تحويل المجتمع الإسلامى إلى مجتمع المعلومات،

أو الدخول فى عالم أصبح الإنتاج الأهم والأعلى قيمة هو إنتاج المعرفة .. ولماذا لا نعترف بأن المسلمين مازالوا يحلمون بالعودة إلى الماضى بدلا من التفكير والعمل للمستقبل وهم سعداء بإقامة مجتمع بدائى فى قلب العالم الإليكترونى ويرفضون ويدينون معطيات الحضارة الحديثة ؟.. هؤلاء الذين يقولون كل ذلك يقولون أيضا : إذا أردتم تصحيح صورة المسلمين فعليكم بتصحيح الأصل أولا ، لأن تصحيح الصورة مع بقاء الأصل المشوه لن يحقق شيئا ولن يقنع أحدًا لأنه لن يكون إلا تزويرا وتزييفا ..

ففى مجلة نيوزويك الأمريكية نجد مقالا كتبه زاكارى كاربيل يوم ١٤ يناير ٢٠٠٢ بعنوان (معركة النخبة المحدودة من الخبراء)عن الحرب ضد الإرهاب، وأن المسلمين والعرب فى رأيه هم الذين تقع عليهم وحدهم المسئولية عن انتشار التطرف والعنف فى العالم، وفى رأيه أيضا أنه ليست هناك وسيلة لحماية الغرب من هذا الإرهاب الإسلامى سوى الحرب.. والقوة المسلحة.. والقصف المنتقم!

يقول كاربيل فى مقاله : إن الأزمات الجديدة سوف تكشف عن ظهور خبراء جدد، وفى محاكمة الإرهاب سنرى كثيرين يمثلون الادعاء، ويستخدمون كل وسائل الإعلام وأولها التلفزيون وشبكة سى .إن .إن الإخبارية الأمريكية. وسنرى أيضا كثيرا من المحامين للدفاع. ويضيف كاربيل : إن الأمريكيين اليوم يهتمون بما يقال عن الإسلام، ونتيجة لذلك ظهرت مجموعات من الخبراء ليشرحوا الإسلام للشعب الأمريكى، فنجد أستاذا بجامعة بيرنستون يتحدث فى شبكة تليفزيون B.B.C وأستاذا من جامعة جون هوبكنز يتحدث عن الإسلام على شبكة تلفزيون C.B.S ومدرساً بجامعة جورج تاون يتلقى أسئلة أثناء ظهوره على شبكة سى. إن. إن ويجيب عنها كخبير فى الإسلام.. وهكذا يظهر حشد من الخبراء إلى دائرة الضوء خصوصا بعد هجمات ١١ سبتمبر وخاصة أن القلق لدى الأمريكيين يدفعهم إلى التساؤل : هل هناك ما يمكن أن يحقق الالتقاء بين الإسلام والغرب ولو فى نقاط معينة ؟.. وهل يستطيع العالم أن يتفادى التدمير بهذا

التطرف الانتحارى ؟.. والأمور بالنسبة للرأى العام تستلزم التبسيط، ولذلك يلجأ كثيرون إلى التبسيط لفهم هذا الصراع القائم بين الغرب والمسلمين بالقول بأننا الآن فى مواجهة (معهم)!!

وأستاذ جامعى مثل برنارد لويس يعتبر خبيرا بارزا وهو فى نظر كثيرين فى الغرب عليم بالإسلام، وهو مؤرخ بجامعة بيرنستون، ولد ونشأ فى بريطانيا، ويبلغ من العمر ٨٥ عاما، وله أكثر من عشرين كتابا، وفى كل كتاباته يردد: (إن الإرهاب اليوم ليس إلا جزءا من صراع طويل بين الإسلام والغرب).. وفى مقال له فى صحيفة (نيويورك تايمز)الأمريكية كتب: (إن أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة الذى يعمل بقيادته قد لا يمثلان الإسلام، ولكن أفعالهم جاءت من طبيعة الحضارة الإسلامية).. وبرنارد لويس لديه فكرة راسخة منذ سنوات هى: أن الإسلام قائم على نظام أخلاقى مختلف عن النظام الأخلاقى فى الحضارة اليهودية- المسيحية، ويذكر آيات من القرآن يفسرها على أنها تدعو المسلمين إلى ممارسة العنف ضد غير المسلمين. ولأن برنارد لويس خبير بالتاريخ، وعالم لغويات، ويجيد اللغة العربية إجادة تامة، كما يجيد اللغة التركية ولغات أخرى، فإنه يوجه النقد إلى الباحثين الذين لا يحسنون فهم النصوص العربية الإسلامية. وبعد ١١ سبتمبر أعلن أن هذه الحرب هى حرب بين الأديان وأن موقف أسامة بن لادن وأتباعه يتلخص فى معنى واحد: نحن - المسلمين - ضد الغربيين، ويدعو برنارد لويس الباحثين إلى فهم أهداف هذا الإرهاب، كما يفهمها أصحابه. ولقد هاجمه إدوارد سعيد وقال: إن ما يقوله برنارد لويس عن الإسلام ليس إلا دعايات زائفة وأفكاراً سطحية مثل (الإسلام) فى مقابل (الغرب) وإدوارد سعيد أستاذ الأدب المقارن بجامعة كولومبيا من مواليد فلسطين وتعلم فى القاهرة ويعيش فى الولايات المتحدة منذ سنوات بعيدة ويحمل الجنسية الأمريكية، وهو المدافع القوى عن الحق العربى وعن الإسلام فى مواجهة المستشرقين واللوبى الصهيونى..

وفى نقده لبرنارد لويس قال إدوارد سعيد : إن ما يقوله برنارد لويس ليس له وجود؛ فليس هناك (نحن) و (هم). والحقيقة الظاهرة الآن أن السياسة

الأمريكية تتسم بالقسوة وتحولت إلى العنف فى أوقات معينة، وهذا ما ينطبق على الصراع مع المسلمين، فإذا لم تقم الحكومات الغربية بحملات عدائية على المسلمين والعرب فلن يحارب أحد ولن يموت أحد من أجل مفاهيم مجردة مثل (الغرب) و (الإسلام)، وأن رؤية العالم على أساس هذا التصنيف الذى يذكره برنارد لويس لا يخدم إلا الذين يسعون إلى التدمير والهيمنة ويقولون إن الإسلام هو (الوحشية) و (النزعة الدموية) لكى يقدموا للغرب المبرر للسيطرة على العالم الإسلامى. وكذلك فإن الذين يرفعون شعار الإسلام للدعوة إلى وصف الغرب بأنه فاسد وكافر ولا يؤمن بالله، كما قال ابن لادن، فهؤلاء أيضا يقومون بالدور الرئيسى لتبرير هجمات كالتى وقعت فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ..

ونعود إلى مقال كاربيل فى نيوزويك فنراه يعلق بعد ذلك بقوله: ليس كل الباحثين فى مواجهات حادة، كما حدث بين إدوارد سعيد وبرنارد لويس.. بل إن هناك من الباحثين من يحاولون البحث عن إجابة للسؤال : لماذا يعانى العالم الإسلامى والشرق الأوسط صعوبات فى التعامل مع العالم الآن ؟.. ولماذا لم تزدهر الديمقراطية فى الشرق الأوسط؟.. ويعلق على ذلك فؤاد عجمى الأستاذ بجامعة جون هوبكنز بالعاصمة الأمريكية واشنطن، وهو عالم اجتماع مميز، ومعلق فى برامج شبكة تلفزيون C.B.S الإخبارية، مولود فى لبنان، ويتساءل أيضا: لماذا يتسم الشرق الأوسط الآن بالجمود ؟.. ويقول: إن من يستطيع الإجابة عن هذا السؤال هم الذين يعيشون فى الشرق الأوسط، ولا يفيد أن تأتى الإجابة من باحث أمريكى أو أوروبى عن طبيعة المشكلة فى العالم العربى، أو فى أفغانستان، لأن العرب والأفغان لن يسمعوا ما يقوله الأمريكيون والأوروبيون، ولأن الأمريكيين والأوروبيين نادرا ما تكون لهم القدرة على فهم العرب والمسلمين فهما صحيحا..وقد كتب فؤاد عجمى مقالا فى نيويورك تايمز قال فيه : (على الأمريكيين أن يقبلوا الحقيقة وهى أنهم أغراب على العالم العربى، وإذا حدث أى تغيير فى العالم العربى لابد أن يأتى من داخله وليس من خارجه، وإن فشل المثقفين فى العالم العربى يرجع إلى أنهم لا ينظرون إلى الداخل ليروا الواقع عندهم بعين ناقدة، ولكنهم ينظرون دائما إلى الخارج وإلقاء اللوم على طرف أجنبى، وتسير الجماهير فى هذا الاتجاه وراء النخبة والمثقفين حتى إن العرب

والمسلمين أصبحوا فى حالة ارتباك ولم يدركوا حقيقة مَنْ هُمْ ؟ ومن الذى زج بهم فيما هم فيه ؟ وهكذا وقع الجميع فى حالة (خداع النفس).. أما الحل وأما العلاج .. فيأتى حين يتمكن المثقفون العرب من النظر بموضوعية متجردة إلى أوجه القصور الثقافى فى واقعهم، وبذلك يمكنهم النهوض من الحالة التى هم فيها من الركود الاقتصادى، والأمراض الاجتماعية .

أما جون اسبوزيتو الأستاذ بجامعة جورج تاون، وهو كاثوليكى، يرأس مركز التفاهم الإسلامى المسيحى بجامعة جورج تاون بواشنطن، فإنه يقول: ليس هناك إسلام واحد، ولكن هناك أكثر من إسلام، ولا توجد أصولية إسلامية واحدة ولكن توجد أكثر من أصولية إسلامية، وهذا ما يفسر كيف كان آيات الله فى إيران أشد المسلمين انتقادا لفكر طالبان فى أفغانستان. ويقول اسبوزيتو: إن الانقسامات بين الأصوليين الإسلاميين واضحة مثل الانقسامات بين المسيحيين الإنجيليين، وإن كانت الديمقراطية فى العالم الإسلامى تمر بمرحلة عصيبة لكن غياب الديمقراطية ليس له علاقة بالإسلام، ولكن الشرق الأوسط يمر بمرحلة شبيهة بالمرحلة التى مرت بها أوروبا فى بداية عصر النهضة، وكما استغرق انتقال أوروبا من ممالك إقطاعية إلى ديمقراطيات تعتمد على اقتصاديات السوق الحرة زمنا طويلا، فإن تحول العالم الإسلامى لن يتم بصورة سريعة، وسلسة، وسلمية، ولكن التغيير سيحدث على أية حال لا محالة .

وينهى كاربيل مقاله بالقول بأن الذين يتحدثون عن الإسلام على أنهم خبراء فى فهمه ينقسمون إلى قسمين، قسم من نتاج العداوة وخبراء العلاقات العامة المشتغلين بإثارة الكراهية تجاه الإسلام، وهؤلاء لا يتحدثون إلا عن السلبيات والفضائح السياسية فى العالم الإسلامى وينسبونها إلى الإسلام ذاته. وقسم ثان من الباحثين الجادين اكتسبوا الحكمة من الدراسة الجادة للإسلام. والحروب تحتاج إلى الخبراء الحقيقيين كما تحتاج إلى القادة الحقيقيين، وهؤلاء هم الذين يعرفون كيفية إدارة هذا الصراع بين الغرب والإسلام .

هكذا ينتهى زاكارى كاربيل إلى نتيجة مؤداها أن الصراع والحرب بين الغرب والإسلام أمر محتوم، ولذلك يدعو إلى أن يتولى إدارة هذا الصراع، وهذه الحرب الخبراء الحقيقيون الذين يعرفون الإسلام بالدراسة الجادة لسنوات طويلة ولا يكتفون بمجرد توجيه الاتهامات المرسلة !

وفى تعليقه على مقال كاربيل يثير الدكتور حسن وجيه أستاذ اللغويات والتفاوض الدولى عدة ملاحظات، الملحوظة الأولى: أن هذا المقال يؤكد (إعلام القائمة) الشائع فى الإعلام الغربى بخصوص قضايا العرب والمسلمين، وإعلام القائمة هو الإعلام الذى يعتمد على وجود قائمة من (الخبراء)فى الغرب هم الذين يتحدثون دائما عن العرب والإسلام، والإعلام الغربى عادة لا يستعين بغيرهم، وهم يعلمون ما هو مطلوب منهم ويقولون فى وسائل الإعلام ما هو مطلوب، وهؤلاء تحليلاتهم نمطية وأسيرة قوالب ثابتة، وبمجرد ذكر اسم أحدهم تستطيع معرفة ما سيقوله والدكتور حسن وجيه وقد عاش فى الولايات المتحدة عدة سنوات فى البحث والدراسة يؤكد أن الإعلام الأمريكى إعلام موجه، وليس إعلاما حرا كما هو شائع، وهو إعلام أسير لنظام (إعلام القائمة)مما يفرض على العرب والمسلمين أن يوجهوا جهودهم الدبلوماسية والإعلامية الجماعية لكسر احتكارات الإعلام الأمريكى.

ويشير أيضا إلى التبسيط المخل فى الفكر الأمريكى الذى يمثله كاربيل وكثيرون غيره، بالقول مثلا بأن إرهاب اليوم هو جزء من صراع طويل بين الإسلام والغرب، ومثل القول بالثنائية المتعسفة (الإسلام فى مواجهة الغرب) وهذه المواجهة إنما هى من نتاج الإعلام الغربى من قبل أن يصدر أسامة ابن لادن بياناته ومن قبل أن تبث قناة الجزيرة أحاديثه التى اتخذها برنارد لويس وأمثاله ذريعة لتأكيد هذه المواجهة، ومبررا لاستعداء الغرب على الإسلام والمسلمين. والغرب يعلم جيدا من هم هؤلاء الذين (اختطفوا الإسلام)وتستروا بعباءته لارتكاب جرائمهم ولا يمكن أن تنسب أعمالهم إلى الإسلام كدين سماوى.

وهناك قلة من الكتاب الغربيين يكشفون أوراقهم، ويخلعون الأقنعة، ويناقشون الصراع أو الحرب الموجهة ضد الإسلام والمسلمين على أنها ليست فى حقيقتها حرب عقائد وإن كانت تقدم للرأى العام الغربى على أنها كذلك

ولكنها حرب مصالح، ويعترفون بأن العداء لأمريكا فى العالم الإسلامى يرجع إلى ما يلمسه المسلمون من انحياز أمريكا ضد حقوق ومصالح المسلمين، بينما تمضى أغلبية الكتاب والمعلقين فى الغرب على اتهام الإسلام ذاته واتهام المسلمين وحدهم بما وصل إليه الحال فى العلاقات بين المسلمين والغرب من توجس وحساسية.. فكاتب مثل مارفين أوت نشر فى صحيفة هيرالد تريبيون الأمريكية مقالة يوم ٩ يناير ٢٠٠٢ بعنوان (لماذا كل هذه الكراهية تجاهنا؟ إنها بسبب فشلهم فى مواكبة الحداثة)يقول فيها أن هناك إجابات واضحة للتساؤل عن كراهية العرب والمسلمين لأمريكا، وهذه الإجابات تشمل سياسة الولايات المتحدة تجاه الصراع الفلسطينى الإسرائيلى، والتواجد الأمريكى البارز فى الشرق الأوسط. ولكن مثل هذه التفسيرات ليست وحدها السبب الرئيسى للشعور بالكراهية، ولذلك فلو أن أمريكا غيرت سياستها فى القضية الفلسطينية، وقللت تواجدها فى الشرق الأوسط، فلن يؤدى ذلك إلى زوال الكراهية والتوتر بين الغرب والعالم الإسلامى، والعالم العربى، لأن جذور الغضب العربى والإسلامى تجاه الغرب ترجع فى الأساس إلى الفشل التاريخى للعالم الإسلامى فى مواكبة الحداثة. والحداثة هى نتاج منظومة معقدة من المعرفة، والقيم، والسلوك، والعادات، ظهرت فى أوروبا خلال عصر النهضة فى القرن السادس عشر، وأصبحت موجة عالمية كاسحة اتخذت أمريكا مركزا لها .

ويقول مارفين أوت: إن الحداثة فرضت على المجتمعات غير الغربية اختيارا صعبا، وكان عليها أن تختار التوافق مع قدرات الغرب، وامتلاك هذه القدرات، أو أن تختار التبعية ! وقد تأثر تاريخ التنمية الاقتصادية فى آسيا وأفريقيا بهذا الصراع الأساسى، وتحقق النجاح فى آسيا وخاصة فى الصين، وكوريا، واليابان، وعموما فى جنوب شرق آسيا، وكان نجاح آسيا بسبب قدرتها على حل شفرة الحداثة. والحداثة هى المرحلة الأخيرة من التطور الذى شهده العالم عبر تاريخه الطويل، وقد أصبح جزء كبير من دول آسيا يسير الآن فى طريق الحداثة، أما العالم الإسلامى فلم يستطع أن يحقق ذلك بالرغم من أنه يمثل قطاعا كبيرا من المجتمع العالمى. وإن كانت بعض الدول الإسلامية قد حققت درجة من النجاح

في مواكبة الحداثة مثل ماليزيا، وتركيا، وإندونيسيا، وبنجلاديش، ودولة إسلامية أخرى لديها إمكانية مواكبة الحداثة هى إيران، وأن الأمر الذى يلفت النظر هو أن هذه الدول الإسلامية التى نجحت فى السير على طريق الحداثة ليست ضمن الدول العربية، أما المساحة الشاسعة التى تشغلها الدول العربية من الخليج إلى جبل طارق فمازالت فى جوهرها مجتمعات غير متقدمة. ولا يكفى استخدام قياس التقدم بمستوى الدخل، والا فسوف تبدو الدويلات والممالك الغنية بالبترول متقدمة، وهذا غير صحيح، لأنه بدون البترول ستصبح هذه الدول ضمن قائمة أفقر الدول وأكثرها تخلفا، وإذا نفد البترول غدا فسوف تهوى هذه الدول سريعا إلى اقتصاد يقوم على النخيل والجمال والصحراء ! وقد يكون هذا التصور قاسيا، ولكن حقيقته تكمن فى هذا الخطر الإرهابى الذى يهدد الغرب .

ويضيف أن الحداثة تستمد كيانها ويتم قياسها بناء على مجموعة من القيم والأفكار مثل الاعتماد على العلم، وعلى المنهج العلمى التجريبى، والعقلانية، والكفاءة، وعندما تسود هذه القيم لابد أن ينتج عنها نظام سياسى واقتصادى واجتماعى متقدم. وفى الولايات المتحدة فإن الأساس الذى تستند إليه السلطة هو المؤسسات القوية المتميزة .. والشركات العملاقة، التى ليس فى العالم الإسلامى مثيل لها أو قريب منها .. فليس فى هذا العالم شىء قريب ولو من بعيد لمؤسسة مايكروسوفت للبرمجيات، أو المؤسسة الطبية العملاقة (جونس هوبكنز ميديكال)، أو شىء يشبه من قريب أو من بعيد القوة الجوية الأمريكية، بينما يوجد فى كوريا مثلا عشرات الشركات الكبرى المتعددة الجنسيات مثل (هيونداى) و (دايو) ناهيك عما فى اليابان، ولا يوجد فى العالم الإسلامى كله شركة واحدة بحجم واحدة من هذه الشركات.. والعلم والتكنولوجيا هما أساس هذه المشروعات، والعالم العربى مازال بعيدا عن امتلاك العلم والتكنولوجيا !

ويقول مارفين أوت: صحيح أن العالم الإسلامى أرسى فى القرن السابع عشر مبادئ العلوم والرياضيات، واستمر على ذلك خمسين عاما، ولكن الأمر المحير

الذى لا يستطيع أحد الإجابة عنه هو: لماذا - بعد كل هذا التقدم - يعارض الإسلام العلم الحديث، حتى إن جميع العلماء المسلمين لا يمثلون سوى نسبة ١٪ فقط من جملة العلماء فى العالم. وفى الوقت نفسه تزخر إسرائيل وحدها بعدد من العلماء يفوق مجموع العلماء فى كل العالم الإسلامى. ومن الناحية السياسية فإن العالم الإسلامى يجد صعوبة كبيرة جدا فى تفهم أو ممارسة الديمقراطية، ومرة أخرى نجد أن الدول الإسلامية الديمقراطية، أو حتى شبه الديمقراطية، دولا غير عربية، إذ إن شكل النظام السياسى العربى من المغرب حتى العراق هو الشكل الأوتوقراطى .. ومقاومة العقل العلمانى فى العالم الإسلامى يظهر فى رفض الديمقراطية، ووضع المرأة كتابع للرجل، ويحدث ذلك باسم الإسلام، وبالاستناد إلى أن الإسلام يفرض الطاعة للحاكم والتسليم لله. ولذلك فإنه فى الوقت الذى أتاح فيه الإصلاح والتنوير فى الغرب فرصة إيجاد مساحة للعلم والتجريب السياسى والاقتصادى، انزلق العالم الإسلامى إلى مرحلة أصبح فيها العقل أقرب إلى المكانة التى كان عليها فى أوروبا عندما كانت سجينة فى ظلام العصور الوسطى. وعلى أية حال فإن المجتمعات التى ترفض قيم الحداثة سوف يظل مكتوبا عليها أن تبقى على ما هى عليه من الضعف والتخلف، وكذلك فإن الشعوب المتغطرسة التى تعيش أسيرة لأمجادها التاريخية فى الماضى، فإن النتيجة الحتمية التى ستصل إليها وتبقى فيها هى فقط الشعور بالغضب والإحباط الذى يتحول إلى عداوة مقاتلة عندما تجد بطلا متحدثا باسمها مثل أسامة بن لادن، ومن الممكن القضاء على ابن لادن، ولكن الخطر لن يزول حقيقة إلا عندما يجد الإسلام طريقه الصحيح، ويتخذ القرار لنفسه بنفسه، ويكتشف مفاتيح الوصول إلى الحداثة، ويخرج من عصر القرون الوسطى !..

باختصار فإن مارفين أوت يردد الفكرة الراسخة فى الغرب بأن المسلمين والعرب متخلفون وجهلاء وفقراء، وهذا هو السبب الوحيد الذى يجعلهم يكرهون الغرب لأنه متقدم وقوى وغنى. كما يردد الفكرة المحببة لدى الباحثين والمشتغلين بالإعلام فى الغرب من أن الإسلام هو العقبة التى تعوق تقدم المسلمين.

أليست هذه هى صناعة العداء ؟.

وماذا نقول أيضاً عما كتبه فيجل أولف ماتيور فى صحيفة فرانكفورتر الجماينة أشهر الصحف الألمانية فى مقال يوم ١٦ نوفمبر ٢٠٠١ بعنوان (انتهاكات حقوق الإنسان موجودة فى كل مكان، ولكنها صارخة فى العالم الإسلامى) وتحدث فيه عن الدول الإسلامية دولة دولة دون أن يستثنى منها أحداً، وقال فيه: إن دراسة الأوضاع فيها جميعاً تكشف أنها حليفة مهمة للغرب، وفى بعضها استقرار اقتصادى جيد نسبياً، ومعظمها لم توقع على معاهدات حقوق الإنسان ونظم الحكم فيها يمكن أن توصف بأنها ديكتاتورية، وفيها قيود حرية الصحافة وحرية الاجتماع، ويحظر فيها توجيه النقد إلى الحكام، وكل السلطات فى يد الحكام فى الواقع. وفى بعض الدول الإسلامية تخضع الصحافة للرقابة، وتمنع بعض الصحف الأجنبية. وفيها دساتير تنص على مبادئ مهمة مثل استقلال القضاء، وافتراض البراءة فى المتهم، والحق فى الدفاع. ولكن هذه المبادئ المكتوبة لا تنفذ فى عدد من الدول الإسلامية فضلا عن التوسع فى عقوبة الإعدام. وفى بعض الدول الإسلامية أعطيت المرأة الحق فى التصويت فى الانتخابات، وفى بعضها أعطيت الحق فى الترشيح للمجالس النيابية، وفى بعضها تتولى المرأة وظائف مهمة، لكن ذلك يتم فى حدود ضيقة لا يمكن تجاوزها. وفى بعض الدول الإسلامية تخضع القوانين وأنظمة الحكم للتفسير المتشدد للقرآن، ويسيطر المتشددون على الأمور بعقلية المذاهب المتشددة التى كانت موجودة فى القرن الثامن عشر، ويحظر فى بعض الدول الإسلامية أن ترتاد المرأة المطاعم والأماكن العامة.

ويقول الكاتب الألمانى: إن من المحظورات فى العالم الإسلامى أن يمارس المواطنون حقهم فى إبداء رأى معارض لما يقرره الحكام، وبعض الدول الإسلامية ليس فيها أحزاب سياسية، أو منابر للمعارضة، ويخضع القضاء الجنائى للتوجيه من السلطات الحاكمة تبعاً للظروف. وفى بعض الدول الإسلامية يتم تنفيذ عقوبة الإعدام بقطع الرقبة بالسيف أمام الجماهير. وليس من الممكن معرفة أعداد المعتقلين السياسيين فى أية دولة من الدول الإسلامية، وبعض هذه الدول لا يستطيع الصحفيون الأجانب الدخول أو التجول فيها أو لقاء المواطنين بحرية، وتتلخص سياسة عدد كبير من الدول الإسلامية فى عبارة واحدة (السعى دائما إلى

الاحتفاظ بالسلطة). وفى إحدى الدول الإسلامية اكتشفت منظمات حقوق الإنسان أن سجن النساء لا توجد فيه مرافق صحية ولذلك تنتشر فيه الأوبئة، ويعتبر خروج المرأة بدون النقاب جريمة جنائية عقوبتها الجلد، فضلا عن خضوع المجتمعات الإسلامية للمراقبة طول الوقت من خلال أجهزة متعددة، وأجهزة الإعلام فيها خاضعة للحكومات ويستحيل إبداء رأى مختلف عما تقرره الحكومات، وممارسة التعذيب أمر مألوف فى معظم الدول الإسلامية.

ويقول الكاتب الألمانى أيضاً أن الفساد ينتشر فى الدول الإسلامية، وأجهزة الشرطة والقضاء وهذا لا يتفق مع المعايير الموجودة فى أية دولة دستورية من دول الغرب المتقدمة، ومن يخرج على القواعد الراسخة يجد حسابا عسيراً.

وما ينشر للإساءة إلى الإسلام فى الغرب أكثر من ذلك بكثير، ومن ذلك مقال ايريش فولات فى عدد مجلة دير شبيجل أكبر المجلات الألمانية يوم ٢ يونيو ٢٠٠١ تحت عنوان (من كان محمد؟.. وما هو سر الإسلام؟).. وفيه أن الخيال الواسع للرواة وصف النبى محمدا ﷺ بأنه كان ضعيفا تجاه العطور والنساء، وقد رأى أهل مكة أنه قد أصابه (مس من الشيطان) وأن رسالته (أضغاث أحلام) وكان أكثر أتباعه من الطبقة الدنيا، وظل فى مكة ١٢ عاما يدعو إلى الإسلام فلم يؤمن به سوى بضع عشرات فاضطر إلى الهجرة فى يوم ١٦ يوليو عام ٦٢٢ ميلادية، وكانت الهجرة مرحلة جديدة فى تاريخ العالم، إذ بدأ صعود محمد صلى الله عليه وسلم كالنيازك، حيث أسس فى المدينة دعامة قوية للإسلام ووضع قواعد إمبراطورية عالمية. وكانت المدينة تعانى من الصراعات بين قبيلتين عربيتين تمثلان نصف السكان، ولذلك كانت المدينة تبحث عن شخص من خارجها يوحد كلمتها تحت لواء أية رسالة، ولهذا كانوا على استعداد لتقبل دعوة محمد الذى أصبح الحكم بين المتنازعين، ووضع ميثاقا للتضامن بين القبائل لإقامة مجتمع موحد، وفى هذا الميثاق دعا إلى ترك الربا والقمار والخمر، وحدد نظام تقسيم الميراث من يأخذ النصف ومن يأخذ الثلثين ومن يأخذ الثلث فقط، وأوجب على التاجر أن يزن بضاعته بأمانة، وفرض القصاص على السارق بقطع يده، ونظم كل مجالات الحياة من تنظيف الأسنان وغسل اليدين إلى المعاشرة الزوجية، فالله فى دينه يهتم بكل الأمور سواء كانت كبيرة أم صغيرة، وفى هذا

يختلف عن المسيح الذى كان مبدؤه كما قال إنجيل يوحنا: (مملكتي ليست في هذا العالم) أما في الإسلام فلا يوجد منذ البداية هذا الفصل بين الدين والدنيا.

وفي هذا المقال أيضاً: إن محمدا ﷺ حسَّن وضع الفقراء، ولكنه لم يفكر مطلقا في إلغاء نظام الرق، ومن المزعج حقا موقفه المتأرجح من العنف، ولذلك عندما قام بترسيخ مكانته في المدينة بدأ في الغزوات حتى إنه في إحدى المرات أمر المسلمين بشن الهجوم على قافلة يملكها أهل مكة وكان ذلك في أَحَد الأشهر الحرم التي يُحرَّم فيها القتال، وبذلك خرق السلام المفروض في تلك الأشهر، وبررت الآية ٢١٧ من سورة البقرة هذا الخرق وأقرت القتال في الأشهر الحرم، وحين انتصر المسلمون في غزوة بدر اعتبر المسلمون هذا النصر من الله، ولكن عندما هاجمهم أهل مكة للانتقام في غزوة الخندق لجئوا إلى تكتيك دنيوى هو حفر خندق واسع حول المدينة فلم تتمكن خيول الأعداء من اجتيازه، ولم يقل المسلمون إن هذا النصر من الله !.

ويقول المقال: إن محمدا ﷺ عندما تأهب لغزو مكة كان عليه أن يعالج مشكلة اليهود في المدينة، وكان يكن لهم الاحترام، ويتوقع منهم أن يعترفوا بالإسلام ويعتبروه تطورا واستمرارا لعقيدتهم، ولكن اليهود لم يعترفوا بمحمد نبياً، وخرقوا العهد الذى كان قائماً بينهم وبينه، وجاء تغيير قبلة المسلمين من القدس إلى مكة صدمة لأتباعه. ويقول المقال: (وادعى محمد نسبه إلى الأب الأول إبراهيم، بأن أعلن أن إبراهيم كان المسلم الأول، وزعم محمد أن إبراهيم أحضر قديما الحجر الأسود إلى الكعبة وصلى فيها. وبذلك فالإسلام ليس المكمل للأديان ولكنه أصل كل الأديان التي تقوم على مبدأ التوحيد).. ويستشهد المقال بقول عالم الدراسات الإسلامية الهولندى سنوك هورجرويه، بأن الإسلام أكثر الإبداعات الدينية عبقرية على الاطلاق، كما يزعم المقال أن محمدا ﷺ نجا بصعوبة من محاولة لقتله قام بها شخص يهودى، وانتقم لذلك من اليهود بطردهم من المدينة، وبعد ذلك تمتع اليهود مع المسيحيين بامتيازات باعتبارهم (أهل الكتاب) ويختلف وضعهم عن وضع المشركين الكفار، وأصبح لهم الحق في العيش بحرية في المجتمعات التي يحميها المسلمون نظير ضريبة على كل فرد منهم تسمى (الجزية) وعندما بدأ الانحلال في مجتمع مكة يتسبب في تشتت

شمل العشائر والقبائل (وساد نظام القيم التقليدى بما فيها من الانحلال والفساد، وتدهور حال الأغنياء وأصبح العامة معدمين، دخل جيش المسلمين مكة بدون قتال بقيادة محمد ﷺ ليملأ هذا الفراغ الروحى والسياسى وبذلك فتح مكة بدون قتال)!.

ويقول المقال: إن محمدا ﷺ حطم الأصنام فى ساحة الكعبة، وجعلها مكانا لعبادة الله الواحد، وتعامل بتسامح ورحمة متناهية مع أعدائه السابقين ودعا إلى الإخاء بدلا من الانتقام، وكان يفضل الدبلوماسية لنشر تعاليم دينه، ويعتبر الزواج ضمن هذه السياسة، فقد تزوج ١٣ زوجة أكثرهن كن أرامل من أجل أن يربط أصولا أخرى إلى نسبه وكانت الجوارى يمثلن بالنسبة له عبئاً إلى جانب المتعة، فكان يئن تحت وطأة مكائد زوجاته، فلقد كان رجلا ولم يكن ملاكاً !.

ويقول المقال: إن محمدا ﷺ توفى يوم ٦ يونيو عام ٦٣٢ ميلادية تاركا تسع زوجات وقفن على قبره فى المدينة، وفى ساعاته الأخيرة كان يرى المستقبل وحذر من حدوث انقسامات بين أتباعه فقال: لقد تفرق اليهود إلى ٧١ فرقة، والمسيحيون إلى ٧٢ فرقة، أما أنتم فسوف تتفرقون إلى ٧٣ فرقة، وانتشر الإسلام بعد ذلك بسرعة، ولكن تحققت نبوءة محمد ﷺ فتفرق المسلمون وتنازعوا فيما بينهم، ولم يمر ثلاثون عاماً على وفاته حتى وقع الشقاق الكبير حيث رأت جماعة من المؤمنين أن علىَّ بن أبى طالب، ابن عم النبى، هو الوحيد الذى يستحق أن يكون خليفة له، وحدث الانقسام بعد مقتل الإمام على عام ٦٦١ ميلادية بين شيعته وغالبية المسلمين، وينتظر معظم هؤلاء الشيعة إلى اليوم عودة الإمام الثانى عشر الذى اختفى فى القرن التاسع بطريقة غامضة، وهؤلاء هم الذين يشعرون بأنهم مغلوبون، ويؤمنون بالاستشهاد وتعذيب الذات بطريقة أقرب إلى الهوس، وفى إيران مازال رجال الدين إلى اليوم يتصرفون على أنهم نواب للإمام الثانى عشر وأشهرهم زعيم الثورة آية الله خومينى، وإن كان الشيعة يتخذون القرآن مرجعاً لهم مثل أهل السنة، إلا أنهم يرفضون الأحاديث التى يستند إليها أغلبية أهل السنة، ويتهم الشيعة كثيرين من الصحابة بالتحريف، ويتم تداول حوالى نصف مليون حديث عبارة عن خليط من الروايات

المشكوك في صحتها، والتفسيرات المتسرعة نسبيا للأحاديث، ولم يتم إقرار سوى تسعة آلاف حديث منها بشكل عام بالرغم من أنها تتضمن بعض الأخطاء! ، ويسمح أهل السنة بانتقاد تلك الأحاديث فى نطاق ضيق، ولكنهم متفقون على القرآن الذى يشمل ١١٤ سورة بها ٦٢٣٦ آية، ويذكر مكان نزول كل آية منها فى مكة أو المدينة، ولكن المصحف ليس مرتبا ترتيبا زمنياً بحسب النزول، ولكنه مرتب بطريقة أخرى، والإسلام دين بدون خطايا موروثة، بدون ثالوث، بدون بابا، بدون وسطاء، وبدون ابن لله على الأرض. وفى القرآن، آيات تؤيد مبادئ من الإنجيل.

ويقول: سواء كان القرآن هو كلام الله، أم من عمل إنسان عبقرى، فإن الأفكار والعقول تختلف اليوم عندما يتعلق بتفسير موقف الإسلام من المرأة والحرب. ويقول البعض فى الغرب إن المبادئ التى جاء بها القرآن غير إنسانية، بينما يقول البعض الآخر: إن المبادئ فى القرآن تقدمية. وإن كان وزير الأوقاف المصرى حمدى زقزوق قال فى حديث مع مجلة دير شبيجل أن القرآن لم يذكر أبدا أن النساء ليس لهن الحق فى التعليم والعمل، وأن القرآن يرفض كل أنواع الظلم الاجتماعى الأخرى الواقعة على المرأة، مثل القيود التى كان يفرضها نظام حكم طالبان فى أفغانستان. إلا أن مقال ايريش فولات يعود مرة أخرى إلى القول بأن الإسلام يؤسس مجتمع الرجال، وربما يكون قد فكر فى قضية عدم المساواة بين الرجل والمرأة ولكنه لم يتمكن من أن يتخطاها، لأن القرآن وضع قاعدة (الرجال قوامون على النساء)وإذا فعلت المرأة ما يخالف أمر زوجها يبيح القرآن للزوج أن يضرب الزوجة ويهجرها فى الفراش. !

يقول أيضا: إن الحجاب فرض على المرأة المسلمة من أجل حمايتها ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ (الأحزاب - ٥٩) وقد تسببت الحروب فى عهد النبى (ﷺ) فى وقوع العديد من النساء فى الأسر، وعرضهن للبيع فى سوق الجوارى، كما فقد كثير من النساء أزواجهن فى الحروب، وقد حرم القرآن البغاء، وسمح بالزواج بأكثر من واحدة بحيث لا يزيد العدد على أربع زوجات لكل رجل.

هل يحتاج الأمر إلى شرح كيف يشوهون الإسلام فى عيون الرأى العام فى الدول الغربية، وكيف يشوهون تاريخ الإسلام، وكيف يشوهون صورة الرسول ﷺ.؟

والورقة الرابحة التى يستخدمونها لإثارة الكراهية والعداء للإسلام هى الوضع المهين للمرأة فى الإسلام إلى حد حرمان المرأة من الحق فى الحياة، ومن الحرية التى هى حق لكل إنسان، كما قالت سوزان ساتشر فى مقالها فى صحيفة هيرالد تريبيون يوم ١٩ ديسمبر ٢٠٠١ بعنوان (النساء المسلمات يطالبن بالحق فى الحياة)وقالت فيه: إن المبادئ النظرية للإسلام تقرر الحقوق للمرأة، ولكن فى معظم الدول الإسلامية الرجل هو القانون، وهو المفسر للشريعة، وهو الذى يحدد الإطار الذى يجب أن تتحرك فيه المرأة. إذ يستطيع الرجل منع زوجته من السفر مستندا إلى حقه الشرعى فى ذلك، ويستطيع الأب أن يزوج ابنته رغما عنها، ويتحتم عليها بالشرع والقانون طاعته، ويستطيع الزوج حبس زوجته والعيش معها فى حياة خالية من الحب فيما عدا بعض حالات استثنائية، والزوجة مقيدة لا تستطيع الفكاك من قيود الزوجية كأنها فى سجن أما الرجل فيستطيع تحرير نفسه من الزوجية بمجرد التلفظ بكلمة واحدة: الطلاق!

وإن كان زمن حبس المرأة فى البيت طَوال عمرها قد انتهى فى بعض الدول الإسلامية، إلا أن معظم المجتمعات الإسلامية مصممة على أن الحداثة تتعارض مع الإسلام، والنساء يطالبن بتعديل القوانين والنظم التى تفرض على المرأة أوضاع التبعية للرجل، لكن هذه الدعوات تواجه بالمعارضة باعتبارها مخالفة لأحكام شريعة الإسلام. هذه القيود من موروثات المجتمعات الشرقية، ومن تفسيرات القرآن والسنّة، ومن شيوع الاتجاه إلى رفض الثقافة العالمية العصرية والانكفاء على ثقافة العصور الوسطى. فى ظل هذه العوامل يبدو الإسلام على أنه عائق للتقدم.

تقول الكاتبة الأمريكية: إن الشريعة الإسلامية تفرض القوانين التى جعلت المجتمعات الإسلامية مجتمعات للرجال، ومجتمعات أبوية، كما هو الحال فى القرون الوسطى، وهناك حركة نسائية تطالب بحقوق الإنسان للمرأة ولكن هذه

الحركة تواجه صعوبات دينية وقانونية واجتماعية، وتواجه معركة ضارية من المتعصبين، مع أن النساء المسلمات يؤكدن دائما أنهن لا يردن المساواة بالصورة التى تمارس بها المرأة حريتها فى الغرب، ولكنهن يردن المساواة فى إطار الشريعة ووفقا للتفسير المعتدل للنصوص القرآنية. ومع ذلك فإن المرأة التى تطالب بذلك تتهم بأنها عدو للإسلام وعميلة من عملاء الغرب. والحركات الإسلامية المتشددة تجعل من موضوع المرأة موضوعا للصراع على السلطة مع الحكام المسلمين المعتدلين. وقد رفض الإسلاميون فى البرلمان الكويتى منح المرأة الحق فى التصويت فقط وليس فى الترشيح فى الانتخابات، وقاوم الإسلاميون اتجاه الحكومة فى الأردن لإنهاء حق الرجال فى قتل النساء فى قضايا الشرف، وفى المغرب انقسم المجتمع عندما اقترحت الحكومة إلغاء التفرقة فى القوانين بين حقوق المرأة وحقوق الرجل. وفى عام ٢٠٠٠ سار أكثر من ٤٠٠ ألف شخص فى مظاهرة عامة للتعبير عن رفضهم لذلك الاتجاه باعتباره اعتداء على مبادئ الشريعة الإسلامية.

والأكثر إثارة ما حدث من جدل عنيف تحول إلى معركة أكثر من أن يكون حوارا عندما طُرِحَ مشروعٌ لتعديل قانون الأحوال الشخصية لإعطاء المرأة الحق فى الطلاق بدلاً من أن يفرض عليها العيش بالإكراه مع رجل لا تطيقه، كذلك قاوم التيار الإسلامى فى المغرب مشروع قانون لرفع سن زواج الفتيات إلى ١٨ سنة بعد أن كان ١٥ سنة، ومنع تعدد الزوجات فى بعض الأحوال، والسماح للمرأة بعد الطلاق بحضانة أطفالها حتى لو تزوجت برجل آخر، وحق المرأة فى الاحتفاظ بالهدايا التى قدمها لها الزوج بدلاً من القانون الحالى الذى لا يعطيها الحق فى استرداد إلا ما كانت تملكه قبل الزواج من ممتلكات شخصية. ونظمت الجماعة الإسلامية حملة لتوجيه الاتهام لمؤيدى هذا المشروع بأنهم عملاء يعملون على هدم العالم الإسلامى وتدمير ثقافته ونشر الثقافة والبدع الغربية، وأعلنت هذه الجماعة أنها هى (خط الدفاع) الوحيد عن الإسلام عند غزو الثقافة والأفكار الأجنبية. وقالت ابنة زعيم هذه الجماعة نحن نرفض هذا المشروع لمجرد أنه مقدم من نساء متأثرات بالثقافة والعقلية الغربية ، والقانون فى المغرب لا يعطى المرأة الحق فى الطلاق إلا برفع دعوى أمام المحكمة وقبول دفع أى مبلغ يطلبه

الزوج مقابل قبوله للطلاق! وقال زعيم الجماعة الإسلامية: إذا وضعنا نظاما مثل الغرب بأن تأخذ الزوجة نصف ما يملكه الزوج عند الطلاق فلماذا تبقى معه؟

وتقول الكاتبة: إن المسلمين يرددون أن النبي ﷺ أمر المسلمين بمعاملة المرأة باحترام، ولكن الذى يحدث أن هذا الاحترام تحول إلى السيطرة والاستعباد.

هل رأيت كيف ينظرون، وكيف يتحدثون عن الإسلام؟

وفى صحيفة هيرالد تريبيون أيضا وفى يوم ١٠ يناير ٢٠٠٢ مقال بعنوان: (ليس صراع الحضارات بل صراع المصالح) بقلم أميتاب آكاريا قال فيه: إن انهيار نظام طالبان فى أفغانستان بالقوة العسكرية الأمريكية يعنى هزيمة النظرية التى ظهرت من رماد الحرب الباردة عن صراع الحضارات، وكانت هجمات ١١ سبتمبر على الولايات المتحدة أول اختبار لهذه النظرية، وتأكدت بعد أن استخدم الرئيس الأمريكى بوش تعبير (الحملة الصليبية) بما ينطوى عليه من إيحاء بأن هذه حرب مسيحية ضد المسلمين. وكذلك أعلن الإرهابيون أن الهجمات التى يقومون بها هى حرب إسلامية ضد المسيحيين واليهود، ومع ذلك فقد ثبت من رد الفعل لدى الحكومات والشعوب فى العالم أن هذا ليس صراعا بين الحضارات، ولكنه صراع على المصالح، أما قضية الحضارات فلم يكن لها إلا دور هامشي.

فقد أدانت الدول الإسلامية جميعها هذه الهجمات الإرهابية، وأقرت حق الولايات المتحدة في الانتقام من طالبان وعرض البعض منها تقديم مساعدات مالية وعسكرية، وأدانت ابن لادن الدول الإسلامية من السعودية حتى باكستان، ومن إيران إلى إندونيسيا، وأعلن الرئيس الباكستانى ومساعدوه رفضهم لهؤلاء الإرهابيين لأنهم يقدمون صورة سيئة عن الإسلام، بالرغم من رعاية باكستان لطالبان على مدى سنوات طويلة، وبالرغم من الغضب الشديد الذى أبداه المتطرفون فى باكستان، عرضت باكستان تقديم المساعدات للقوات الأمريكية المقاتلة ضد طالبان والقاعدة. وهذا ما فعلته ميجاواتى سوكارنو رئيسة إندونيسيا.

ويقول المقال: إن إيران كذلك، التى ظلت عشرات السنين تقود الحملات الإسلامية الثورية ضد الولايات المتحدة أعلنت رفضها لحركة طالبان، لأن

إيران في ظل الحكم الإصلاحي الذي يقوده محمد خاتمي وجدت في الحرب الأمريكية على طالبان فرصة للتخلص من نظام معاد لها كان قائما على حدودها، وقدمت كل الدول الإسلامية المصالح، وانضمت إلى المبادئ الدولية الجديدة، وتراجعت لديها العاطفة والهوية الدينية. والثقافية التي كانت تقول إنها تتخطى الحدود.. وعلى سبيل المثال فإن باكستان كانت محتاجة إلى مساندة أمريكا وإقرارها للنظام العسكري الحاكم فيها، وإندونيسيا كان تأييدها بالغ الأهمية لأمريكا لإعطاء الشرعية للحملة العسكرية الأمريكية ضد الإرهاب في العالم، فإندونيسيا أكبر دول العالم الإسلامي، وفي مقابل هذا الموقف حصلت من أمريكا على مساعدات اقتصادية وسياسية.

وفي ماليزيا - كما في إندونيسيا - كانت الحرب على الإرهاب فرصة للحكومة فيهما لقمع المتطرفين الإسلاميين الذين كانوا في موقف التحدى الدائم للحكومتين، وسببا في إثارة الفوضى والشغب. وهكذا تقبلت الدول الإسلامية حرب الولايات المتحدة باعتبارها إقرارا بحق كل دولة في الدفاع عن نفسها، دون أن يفكر أحد طبعا في أن يكون هذا الحق لطالبان أيضا.. وعندما خُيرت الدول الإسلامية بين الانضمام إلى أمريكا أو الانضمام إلى الإرهابيين، وقفت دول العالم في جبهة واحدة لم يسبق لها مثيل ضد الإرهابيين، وذلك بالرغم من التحفظات التي تبديها الحكومات والشعوب الإسلامية بشأن السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، والقلق الذى يسود العالم الإسلامي بسبب تساقط القتلى المدنيين في فلسطين بعد وصول شارون إلى الحكم. وفي أفغانستان في الحرب الأمريكية في أفغانستان لقتل أسامه بن لادن والظواهري والملا محمد عمر، ويضاف إلى ذلك التخوف من الهيمنة العسكرية والسياسية والاقتصادية الأمريكية على العالم.

ويخلص المقال إلى أن نظرية صراع الحضارات لم تكن هي المحرك للدول على المستوى الداخلي أو على المسرح الدولي، وأدان الزعماء المسلمون الهجمات الإرهابية باعتبارها عملا يتعارض مع الإسلام، ولم يتحقق ما كان يقال من أن الدول الإسلامية التي أيدت أمريكا في حربها على الإرهاب في أي مكان سوف تعاني من التمزق الداخلي والمنازعات الدينية والعرقية، فلم يحدث شيء من ذلك.. ففي باكستان استطاع الجنرال برويز مشرف التصرف بجرأة ضد المتطرفين

وفشلت المظاهرات الإسلامية المعارضة لأمريكا، كما فشلت الجماعات الإسلامية في إندونيسيا في محاولتها حشد الجماهير لمعارضة الحرب الأمريكية، وفي ماليزيا توقف رئيس الوزراء ماهاتير محمد عن إلقاء الخطب المعارضة للهيمنة الأمريكية، ومنع المجاهدين في ماليزيا من السفر إلى أفغانستان للقتال في صفوف طالبان.

وينتهي المقال إلى أن ردود الفعل الدولية تجاه الهجمات الإرهابية في ١١ سبتمبر تدل على أن عنصر الدين وعنصر الحضارة لا يمكن أن يكونا البديل عن المصالح باعتبارها هي الدوافع الأساسية التي تحرك الدول وتحكم العلاقات الدولية، ويمكن في ضوء هذه الحقيقة فهم موقف الدول الإسلامية في رفض نداءات طالبان وابن لادن للحكومات والشعوب الإسلامية لتأييده والوقوف معه.. لأن المصالح كانت هي الدافع لتحديد موقف الدول الإسلامية، كما كانت الدافع لمواقف الدول الأوربية، وبالطبع كانت هي الدافع للحرب الأمريكية.

ومعنى ذلك أن كل نظرية تقال مثل صراع الحضارات وغيرها ليست إلا غطاء للتمويه وإخفاء الأسباب الحقيقية لما يجرى في العالم من حروب وصراعات في القرن الحادي والعشرين.

فتوى ضد الإسلام !

صناعة العداء للإسلام فى نفوس الشعوب الغربية وقادتها تتم بإتقان يفوق إتقان الغرب فى صناعة منتجاته التكنولوجية الحديثة. وصناعة الكراهية تبدو صناعة كبيرة تستخدم كل وسائل التأثير والإقناع العاطفى والمنطقى، وتعمل بإلحاح على إثارة مشاعر الكراهية والخوف معا من الإسلام والمسلمين.

فى فرنسا صدر كتاب بعنوان (فتوى ضد الغرب) مؤلفه رولاند جاكار وهو كاتب معروف له العديد من الكتب السياسية مثل: (الخرائط السرية لحرب الخليج) و(نهاية الإمبراطورية الحمراء) و(كارلوس: الملف السرى) و(من واشنطن إلى كلينتون) وهو أيضا رئيس المركز الدولى لرصد الإرهاب فى باريس. والقضية الأساسية للكتاب هى التأكيد على مدى خطورة تغلغل الإسلام المتطرف فى الدول الأوروبية، وبالذات شبكة الإرهاب الجزائرى التى يكرر القول بأنها أكبر خطر على فرنسا. ويصور رولاند جاكار حال فرنسا عندما يصل المسلمون المتطرفون فى الجزائر إلى السلطة، ويبدءون تنفيذ سيناريو الحرب على الفرنسيين، ويدعى أنهم يرون أن رسالتهم المقدسة الحرب على الكفار، وهذه الحرب لن تكون مستحيلة، بل لن تكون صعبة، إذ يكفى أن يطلق هؤلاء المسلمون صاروخا على ميناء مارسيليا فيقتل ويصيب عشرات من الفرنسيين.

والغريب أن المؤلف يؤكد أن وزارات الدفاع والخارجية والداخلية الفرنسية قامت بدراسة العديد من السيناريوهات المشابهة، أكدت أن مخاوف من أن تنجح محاولات الإسلاميين للحصول على السلاح النووى، ويشير إلى ما ذكره أبو حمزة المصرى الذى يعتبره أحد المُنظِّرين الأيديولوجيين للجماعات الإسلامية المسلحة، وهو مقيم فى لندن وحصل على حق اللجوء من الحكومة البريطانية، وقد قال فى حديث لمجلة أنصار الشريعة: (إذا كانت الحرب النووية هى الوسيلة الوحيدة

للدفاع عن المسلمين، ففى هذه الحالة يجب شن هذه الحرب، والإسلام يبرر هـذا العمل عند الضرورة كما يبيح أكل لحم الخنزير فى حالة المجاعة).

يقول المؤلف: إن الدول الغربيــة تـأخذ موضـوع (الخطـر النـووى الإسـلامى) بجدية شديدة خاصة بعد إعلان باكستان عن تجربتها النوويـة، ويقـول: إن هـذا الخطر دفع بريطانيا وفرنسا إلى تصنيع صاروخ جديد جو - أرض اسمه (سكالب) سيتم إنتاجه قريبا، وهذا الصـاروخ يتـم توجيهـه عـن طريـق الأقمـار الصناعيـة لضرب الأهداف المحددة له. ويكرر المؤلف أن امتلاك السلاح النووى هـو الشغل الشاغل عند قادة التطرف الإسلامى.. ويقول أيضا: إن زعيم الإرهاب الدولى أسامة ابن لادن قـام بتمويـل عشرات الطلبـة المسـلمين لدراسـة الهندسـة النوويـة فـى الجامعات الكبرى فى العالم بهدف التوصل إلى تصنيع سلاح نووى صغير.

ويتحدث جاكار عن مناخ الإرهاب فى العالم الإسلامى ويبدأ بنمـوذج الجزائـر فيقول: إنـها عانت مـن خلـل اقتصـادى منـذ خـروج الاحتـلال الفرنسـى منـها، وفشلت تجربتها الاشتراكية بعد الاستقلال، فلجأت منذ عام ١٩٨٦ إلى الإسلام، وتبنـى الجزائريـون الميثـاق الوطنـى الـذى يؤسـس الاقتصـاد الليـبرالى ويجعـل المرجعية للإسلام. وفى عام ١٩٨٩ صدر فى الجزائر دستور جديـد يقـر التعدديـة السياسية، ويعلن السعى إلى بناء الديمقراطية. وفى أول انتخابات بلدية فـى ظـل هذا الدستور الجديد حققت جبهة الإنقاذ الإسلامية انتصارا كبيرا، ثم فازت فى الدور الأول فى الانتخابات التشريعية التى أجريت فى ٢٦ ديسمبر ١٩٩١، وكان من المتوقع أن تحصل الجبهة على الأغلبية فـى انتخابـات الإعـادة أيضـاً .. وكـان مقرراً لها ينـاير ١٩٩٢، ولكـن الجيـش تدخـل وألغـى نتـائج الانتخابـات، وتم تشكيل المجلس الأعلى للدولة فى مارس ١٩٩٢ واختـار علـى كـافى رئيسـاً لـه، وبعدها بدأت مرحلة الاضطراب التى لم يشهد تاريخ الجزائر مثلـها منـذ حـرب التحرير، وفى هذه الحرب الأهلية دخلت الجزائر دائرة العنف التى تسببت فى مقتل عدد لا يقل عن ٦٠ ألف شخص، وفقـا لتقريـر وزارة الخارجيـة الأمريكيـة عام ٢٠٠٢، وانتشرت الفوضى وأعمال القتل التى تقوم بها الجماعـات الإسـلامية فى داخل الجزائر، وانتقلت إلى الجالية الإسـلامية الجزائريـة التـى تعيـش فـى

فرنسا والتى يبلغ تعدادها ثلاثة ملايين مسلم، وهذه الجالية الإسلامية - كما يقول المؤلف - هى الأرض الخصبة للجماعات المتطرفة لنشر أفكارها بينهم، وتجنيد العديد من المسلمين فى صفوفها.

ثم ينتقل المؤلف إلى النموذج الإسلامى فى أفغانستان فيقول: إن السوفييت عندما قرروا اجتياح أفغانستان فى ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩، كان هذا الغزو هو إشارة للعالم الإسلامى للتحرك وتنفيذ أكبر حملة عالية للتعبئة، وتجنيد المتطوعين من جميع الدول الإسلامية للقتال ضد السوفييت فى أفغانستان، وأسفرت هذه الحملة عن تشكيل (الفيلق الإسلامى العالمى) الذى استطاع إلحاق الهزيمة بالجيش الأحمر. وانتهى الأمر بانسحاب الاحتلال السوفييتى تاركا العاصمة كابول فى حالة من الفوضى والبلبلة. وبعد عقد من الزمان قضاه هؤلاء المقاتلون المتطوعون فى الحرب ضد السوفييت باسم الإسلام ودفاعا عن العقيدة، كانوا قد أصبحوا على درجة عالية من الكفاءة القتالية فى حرب العصابات فى الجبال، وفى القرى والمدن، وأطلق عليهم اسم (الأفغان العرب)، وكان قد تم اختراقهم من الدول الغربية وفى مقدمتها الولايات المتحدة، وبعد أن انتهت المهمة التى جندتهم أمريكا لها بالقتال ضد السوفييت، أصبحوا إرهابيين إسلاميين، وأداروا أسلحتهم فى اتجاه الغرب، وبعد أن كانوا شركاء للغرب فى تحقيق أهدافه ومخططاته لمدة عشر سنوات، أصبحوا يهددون الأمن والسلام فى العالم بممارستهم لأعمال العنف وقيامهم بعمليات إرهابية.

ثم ينتقل إلى البوسنة، فيقول: إنه فى عام ١٩٩٢ بدأ الإسلاميون فى القيام بالدور الذى قاموا به من قبل فى أفغانستان، حيث وجه زعماء الأصولية الإسلامية الدعوة إلى (سائر المؤمنين) لخوض حرب مقدسة جديدة، مع فارق كبير، هو أن الحرب كانت هذه المرة فى قلب أوروبا وليست فى آسيا مثل حرب أفغانستان أو فى أفريقيا مثل حرب الجزائر. وبدأت كتائب الإسلاميين تضع قواعدها فى البوسنة. ويعتمد المؤلف على ما سمعه من بعض المصادر العربية من أن المسئول عن إنشاء فيلق وكتائب المؤمنين فى البوسنة هو القائد الأفغانى قلب الدين حكمتيار زعيم أحد الأحزاب الإسلامية فى أفغانستان. وفى شهر

أغسطس ١٩٩٢ كان هذا الفيلق تحت قيادة ضابط إيرانى سابق اسمه أحمد صهيب. وتم تأمين الفيلق عسكريا ببعض الجزائريين الأفغان، وبدأ المجاهدون الإسلاميون يتسربون إلى البوسنة، ويدربون عناصر جديدة على السلاح، وأصبح جيشهم هو الجيش الثالث فى البوسنة. والجزء الأكبر فيه يتكون من المتطوعين الإيرانيين التابعين للقوات الخاصة الإيرانية، ومن الأتراك، والأفغان العرب، وبعض المتطوعين من الإخوان المسلمين المصريين والباكستانيين.. وجمع هذا الفيلق أيضاً عناصر من مقاتلى حزب الله فى لبنان، وحركة حماس الفلسطينية، وعناصر من معسكرات الملياردير السعودى أسامة بن لادن، وبعد توقيع اتفاق دايتون لم يغادر هؤلاء المقاتلون أوروبا ليعودوا إلى بلادهم كما حدث بالنسبة للمقاتلين فى أفغانستان، وبقى عدد كبير منهم مقيما فى أوروبا ليشكلوا نواة التطرف التى تهدد الغرب.

ويتحدث عن وجود منظمة إسلامية دولية لا مركزية تمثل شبكة تخضع لتوجيه قيادات دينية إسلامية لها تأثير بالغ على أتباعها، وهذه المنظمة معادية للغرب، وتعارض عملية السلام فى الشرق الأوسط. وعمليات الجهاد فى أفغانستان والبوسنة تتلقى الدعم والتمويل من هذه الشبكة الإسلامية الدولية ومن البنوك الإسلامية، وهذه الشبكة هى التى تجند وتدرب عناصر جديدة وتدفع بها للجهاد هنا وهناك. ويقول المؤلف تعليقا على أن الإرهاب الإسلامى أكثر تطورا وتحديدا لأهدافه من المنظمات الإرهابية الدولية التى تنتمى إلى اليسار المتطرف التى اختفت، لأن الإرهاب الإسلامى يركز على مطالب سياسية أولها (إقامة نظام إسلامى) وفى مقدمة هؤلاء حسن الترابى زعيم الجبهة الوطنية الإسلامية فى السودان الذى كان يدعو إلى (أسلمة) المجتمعات الإسلامية بأن تكون العلوم والفنون وأوجه الحياة كلها إسلامية، وبإقامة نظام سياسى إسلامى عالمى، ويليه الشيخ عمر عبد الرحمن الذى رحل إلى الولايات المتحدة، وكان يشرف على إدارة مسجد فى بروكلين، ثم اتهم بالتورط فى الإرهاب فى أعقاب الهجوم الأول على مركز التجارة العالمى فى نيويورك، وقبل ذلك سبق اتهامه بالتحريض على اغتيال الرئيس المصرى الراحل أنور السادات، ولم تثبت للعدالة المصرية إدانته.

ويذكر المؤلف من بين القادة الدينيين الذين يملكون القدرة على تعبئة المجتمع الإسلامي الشيخ عبد الله الهرارى المشهور باسم الحبشي الذى يقيم فى منفاه فى لبنان بعد هروبه من أثيوبيا، وهو المرشد الروحي للمسلمين في أثيوبيا. ويضيف المؤلف إلى قائمة الزعامات الدينية المؤثرة الزعيم الأفغاني قلب الدين حكمتيار رئيس حزب إسلامي في أفغانستان الذى كان يتلقى الدعم من المخابرات الباكستانية خلال فترة الاحتلال السوفيتي لأفغانستان ، وأصبح فى عام ١٩٩٥ رئيسا للوزراء في أفغانستان. ويقول المؤلف إن حزب حكمتيار يقوم بتدريب المجاهدين الإسلاميين القادمين من الجزائر وأوروبا. ويتهم المؤلف الزعيم الروحى للشيعة فى لبنان الشيخ محمد حسين فضل الله، والشيخ راشد الغنوشي زعيم حركة النهضة الإسلامية في تونس، ويقول: إنه ينتمي إلى أسرة لها تأثيرها في المغرب العربي. كما أن له علاقات وثيقة بزعماء جبهة الإنقاذ الإسلامية فى الجزائر.

وبعد أن يتحدث باستفاضة عن دور الزعماء الدينيين في تشكيل وتوجيه وإدارة المنظمات الإسلامية الأصولية (المتطرفة) عبر العالم، يتحدث عن تمويل هذه الحركات والمنظمات الإسلامية، فيقول: إن البنوك الإسلامية تقوم بالدور الأكبر كمصدر لتمويلها، ويقول: إن هذه البنوك ظهرت إلى الوجود في عام ١٩٦٩ مع ارتفاع أسعار البترول الخام تعبيرا عن رغبة الدول المنتجة للبترول في إيجاد وسيلة لإعادة توظيف ما لديها من بترو دولارات في الاقتصاد العالمي، فقررت إنشاء نظام مصرفي مؤثر ومختلف عن النمط السائد للبنوك الغربية، وبعد ذلك بدأت هذه البنوك في تقديم المعونات لنشر الدعوة الإسلامية، وتوسيع نطاق نظام اقتصادى إسلامي جديد مختلف عن النظام الاقتصادى الغربي، وأصبح أحد هذه البنوك وهو بنك التضامن الإسلامي بالسودان أحد أهم عشرة بنوك في العالم، ثم انتشرت البنوك الإسلامية خلال عقد الثمانينات فى أكثر من ٢٠ بلدًا عبر العالم من بينها سويسرا، ولكسمبرج، وماليزيا، وتركيا، والسودان، وتونس، وجزر البهاما، وغيرها من الدول فى أرجاء العالم.

وما يثير اهتمامنا بمثل هذه الكتب أنها تلقى رواجا واهتماما، ولها تأثير بالغ فى تشكيل رؤية الغرب للإسلام والمسلمين. وهى رؤية سلبية لا ترى فى الإسلام شيئاً يستحق القبول.

وفى فرنسا أيضاً نشرت مجلة الاكسبريس مقالا مطولا يوم ١٣ سبتمبر ٢٠٠١ فى أعقاب الهجوم على برجى مركز التجارة العالمى ووزارة الدفاع الأمريكية، كتبه دنيس جامبار والين لويو بعنوان (الحرب ضد الغرب) ويقول المقال: إن الاعتداءات المروعة التى وقعت فى الولايات المتحدة اعتداءات غير مسبوقة، وهى بداية عهد جديد فى تاريخ العالم وتؤكد وجود فجوة بين الحضارات وتطرح مسألة حتمية الرد الأمريكى. فقد بدأت الحرب العالمية الثالثة يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر فى الساحل الشرقى للولايات المتحدة، وهى حرب عالمية من نوع جديد لم يحدث مثلها من قبل بين الإرهاب الإسلامى والغرب، فلم يكن أحد فى الغرب يعرف الموعد أو المكان الذى سيضرب فيه من نسميهم (المحاربون فى سبيل الله) وقد ظلوا ينتظرون هذه الساعة سنوات طويلة، ويشحذون خلالها أسلحتهم خلالها تنفيذا لأمر القرآن لهم: (إن الله مع الصابرين) وفجأة، وفى هذا الصباح المفزع، وخلال دقائق معدودة، اشتعل قلب أمريكا فى مانهاتن، مثلما اشتعل ميناء بيرل هاربور فى الحرب العالمية الثانية. وحدث ذلك بصورة لم تخطر على بال أكثر مخرجى الأفلام المأساوية جنونا وجرأة. وللإنسان أن يتصور أثر ذلك الحادث الذى لم يكن متخيلا ، والذى ظهر فيه عجز أقوى دولة وهى تشاهد انهيار برجى نيويورك وهما رمز الانتصار الأمريكى، كما تنهار قصور الرمال التى يشيدها الأطفال. ولن تنسى أمريكا حالة الخوف والحنق التى اجتاحتها وهى تشاهد فى واشنطن لهيب النيران يلتهم جناحا من مبنى البنتاجون العظيم، وعمدة نيويورك يعلن فى ذهول أن على الأمريكيين أن يصلوا على أرواح هذا العدد المهول من القتلى.

ويقول المقال: إن هذه ليست المرة الأولى التى توجه فيها ضربة لأقوى دولة فى العالم، وتصيب أبراجها. ففى عام ١٩٩٣ هزت شحنة ناسفة مركز التجارة العالمى ذاته، وكانت المؤامرة مدبرة فى الأحياء الفقيرة التى يسكنها المسلمون فى

نيوجرسى، وكانت تلك ضربة للكرامة الأمريكية، وتبين أن الذين قاموا بها مجموعة من المبتدئين المغامرين المغمورين من حوالى عشرة فلسطينيين مسلمين مهاجرين ، من بقايا المجندين فى أفغانستان انقلبوا على أمريكا التى جندتهم ودربتهم. ثم جاء هجوم ١١ سبتمبر الذى كانت الكراهية العمياء للغرب هى الدافع إليه، وقد تم التخطيط له بدقة زمنية جهنمية، تدل على أن الإرهاب الإسلامى تحول من عمل ارتجالى إلى استراتيجية للرعب. ففى الساعة الثامنة و ٤٤ دقيقة وقع الانفجار المروع فى قمة أحد برجى مركز التجارة العالمى، وساد اعتقاد فى البداية بأن هذه طائرة تابعة لإحدى شركات الطيران الأمريكية، وأن الانفجار حادث من الحوادث الجوية المؤلمة ناتج عن مشكلة فنية أو عن خطأ بشرى، ولكن بعد ١٨ دقيقة ارتطمت طائرة بوينج أخرى تابعة لشركة خطوط جوية أمريكية بالبرج الثانى، وبعدها مباشرة علق أحد الطيارين بقوله فى برنامج تليفزيونى: إنه يمكن استخدام طائرة مدنية فى عمل حربى. وسرعان ما أدركت واشنطن أنها حرب شاملة، حيث تم إخلاء البيت الأبيض مقر الرئيس الأمريكى، والبنتاجون مقر وزارة الدفاع، وأعلن الرئيس جورج بوش وهو على متن طائرة السلاح الجوى الأمريكى: إن هذه (مأساة وطنية).. وتم إخلاء (قلاع الغرب) مثل البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى، وبورصة نيويورك، وحاولت المخابرات الأمريكية وهى مدججة بالمدافع الرشاشة تغطية الكارثة، وأعلنت إحدى شبكات التليفزيون أن أمريكا فى حالة تأهب قصوى، وهذا ما لم يحدث من قبل إلا فى حالة واحدة عندما نشبت أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢، واجتاح الذعر (ميدان التايمز) واحتشدت الجماهير أمام واجهة وكالة رويترز فى مانهاتن، ولم يحدث مثل هذا الحشد أمام شاشات وكالة الأنباء إلا فى عام ١٩٤٥ عند استسلام اليابان وانتهاء الحرب العالمية الثانية.

ويمضى المقال فى تصوير أثر هذا الهجوم عندما انهار أول برج وبعدها ببضع دقائق انهار البرج الثانى، ثم تحطمت طائرة بوينج تربط خط شيكاغو نيويورك، وبعدها أصابت طائرة بوينج ضخمة من طراز ٧٦٧ البنتاجون فى الصميم، وتكلم نيوت جنجريتش زعيم ثورة المحافظين السابق التى أعلنها عام ١٩٩٥ فقال: إن هذه بيرل هاربور القرن العشرين.

ويكرر المقال الادعاء بأن المسلمين فى كابول وإسلام إباد وأزقة غزة القذرة كانوا يضحكون ويحمدون الله ويرفعون الأعلام، بينما كان الأمريكيون يجهشون بالبكاء أمام صورة الكارثة على شاشات التليفزيون، والجماهير فى دول الغرب يعيشون لحظات من الذهول والتأثر.وبذلك يسعى المقال بخبث إلى تعميق شعور العداء فى الغرب للمسلمين باختلاق واقعة لم تحدث خصوصا بعد أن تكشف أن مشهد الفلسطينيين وهم يرقصون كان مشهدا قديما فى موقف مختلف تأييدا للمقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلى. ولكن إحدى شبكات التليفزيون المغرضة أعادت بثه وكأنه تعبير عن فرحة المسلمين بما حدث للأمريكيين، ولم تهتم شبكات التليفزيون بمتابعة الشعور بالصدمة والرفض فى الجماهير الإسلامية لهذا العدوان على المدنيين الأبرياء.

ويدعى المقال أن المسلمين لم تبدُ عليهم الدهشة لهذه الكارثة، وبدا كأنهم كانوا يتوقعون منذ أعوام أن ينزل العقاب بأمريكا باعتبارها مسئولة عن جميع الآلام التى تسببها للمجتمع الإسلامى.

ويقول: إن دراسة أسباب نشأة الأصولية الإسلامية ترجع إلى مشاعر الإحباط التى تجد جذورها فى الماضى البعيد، من الجراح التى خلفتها الحروب الصليبية، والصدمة بعد استيلاء الصليبيين على القدس فى المرة الأولى فى أواخر القرن الحادى عشر. فضلا عن فقدان العالم الإسلامى لتفوقه تدريجيا ، وصعود الحضارة اليهودية المسيحية، مما أثار الضيق لدى المسلمين خصوصا بعد أن وجدوا أنفسهم مضطرين للاستسلام لهذا التفوق الغربى عليهم. وفى الوقت الذى صعد فيه الغرب إلى القمر ظل العالم العربى الإسلامى مضطرا للاعتماد على الغرب لاستخراج البترول من أرضه، وأدى تزايد قوة إسرائيل وشعور الإحباط بسبب القضية الفلسطينية إلى تزايد الشعور بالإحباط وتحول شعور الإحباط إلى سخط على الغرب وكراهية له، فقد فرضت الدولة اليهودية الصغيرة التى تضم أربعة ملايين نسمة فقط الواقع الذى يعكس فشل العالم الإسلامى، كما فرضت وجودها عسكريا واقتصاديا، وإجمالى الناتج القومى لإسرائيل يساوى إجمالى الناتج القومى الذى يحققه ٢٠٠ مليون عربى. ويضاف إلى ذلك أن سلسلة الحروب الإسرائيلية العربية وما أسفرت عنه من هجرات ومذابح، ثم حرب الخليج التى

خاضتها الولايات المتحدة وحلفاؤها الغربيون ضد عراق صدام حسين، كل ذلك أدى إلى تعميق الشرخ بين الحضارتين الغربية والإسلامية.

ويضيف المقال أن أهم دوافع كراهية المسلمين للغرب هو التطور الهائل الذى حققه الغرب، والفقر المزرى الذى يعيش فيه المسلمون، والوجود الأمريكى فى الدول العربية والإسلامية. وفى أعقاب الهجوم الانتحارى على المدمرة الأمريكية فى ميناء عدن باليمن فى أكتوبر ٢٠٠٠ ولقى خلاله ١٧ جنديا حتفهم، عبّر ابن لادن عن هذه المشاعر حين تحدث بسخرية عن (ضعف القوة) العسكرية الأمريكية، ويقول المقال: إزاء الشعور الجياش بالكراهية، وفى زمن الانتحاريين ماذا يمكن للغرب أن يفعل ؟.. وماذا يفعل الإسرائيليون إزاء ما أعلنه الشاب الفلسطينى الذى انقض بسيارة مفخخة على موقع عسكرى إسرائيلى قائلاً: (إن الإسرائيليين يرتكبون خطأ جسيما إذا اعتقدوا أن بامكانهم القضاء علينا، فنحن تعودنا على التعرض للمعاناة) ويعلق المقال بأن هذا الشعور بالإحباط يتجاوز حدود الخلاف بين الأصولية الإسلامية والغرب. ويكرر ما قاله صمويل هنتنجتون عن حتمية الصراع بين الحضارتين الإسلامية والغربية، ويقول: إنه فى حقيقته صدام بين الأغنياء والفقراء، وبين السادة الجدد والعبيد السابقين.

والفتاوى ضد الإسلام كثيرة.. فالكاتب الأمريكى جون أوسولليفان فى مقاله فى صحيفة (ناشيونال ريفيو) الأمريكية بعنوان (فريق متحفظ لا يدرك الحقيقة) فى أكتوبر ٢٠٠١ بعد أحداث سبتمبر مباشرة يقول فيه: إن الرئيس الأمريكى بوش قال: إن الحرب الأمريكية على الإرهاب وليست على الإسلام. وقال رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير أيضا: إن الإسلام دين سلام وتسامح وأن الأعمال التى يرتكبها الإرهابيون ضد تعاليم القرآن. وكرر ذلك بعض السياسيين والمسئولين عن تكوين الرأى العام. والهدف من هذه التصريحات تخفيف آثار هجوم المواطنين الأمريكيين على المهاجرين المسلمين. بالإضافة إلى محاولتهم تشجيع الحكومات العربية والإسلامية الموالية للغرب على قبول استخدام القواعد العسكرية الأمريكية الموجودة فى أراضيهم فى الحرب ضد العراق. أما محاولتهم لمنع المضايقات التى تعرض لها المهاجرون المسلمون فكان القصد منها ضمان

ألا يُقدِّم هؤلاء المهاجرون الدعم أو المأوى لشبكة الإرهاب التى تتزايد المخاوف مما يمكن أن تفعله بعد ١١ سبتمبر.

ثم يقول أوسولليفان إن التعقل فى التأكيدات الرسمية عن براءة الإسلام والمسلمين من الإرهاب، لا يعبر عن الحقيقة التى يؤمنون بها، فهم يؤمنون بخطورة الإسلام الثورى الذى يعتنقه أسامة بن لادن وأتباعه من المسلمين فى كل مكان حتى فى داخل الولايات المتحدة. وبالرغم من أنه لا يوجد فى الإسلام سلطة دينية مركزية على غرار الفاتيكان بالنسبة للكاثوليكية، فإن هناك كثيرا من الملالى الذين يقرون (الجهاد) الذى يقوم به بن لادن وأتباعه ضد أمريكا، ويصدرون الفتاوى بقتل القادة المسلمين المعتدلين. وهناك آيات فى القرآن تبرر الحرب المقدسة ضد الغرب وضد إسرائيل، كما أن هناك بعض التقاليد الإسلامية شجعت فى الماضى على الكراهية والعدوان ضد غير المسلمين من أصحاب العقائد الأخرى. وهذه التقاليد الإسلامية هى التى تُذكى كراهية كثير من المسلمين لثقافة الغرب، وهى الثقافة التى تسود العالم بدلا من الإسلام، والحكومات الغربية تعرف ذلك وتعترف به عندما تعبر عن خوفها من إسقاط الشارع العربى للحكومات الموالية للغرب إذا حدثت أخطاء فى حرب الغرب على الإرهاب.

ويقول المقال: إن الكلمات عن الإسلام المسالم هى فى حقيقتها مُسكِنَات، ولكنها ليست زائفة تماما، لأن هناك محاولات مسالمة وتقدمية فى الإسلام تسعى إلى التوفيق بينه وبين العلم والليبرالية ورأسمالية السوق والحضارة الحديثة عموما. وهذه المحاولات كانت فى السنوات الأخيرة فى موقف دفاعى تجاه صعود الإسلام الثورى الذى يمثل الفلسفة السياسية – الدينية للإرهاب. وهذا الإسلام الثورى يعمل على فرض الأصولية الإسلامية ويدين النظم القائمة فى الدول الإسلامية بأنها فاسدة، ويرفض الغرب ويعتبر أنه يعيش فى الانحلال داخليا، وتقوم سياساته الخارجية على الأطماع والجشع. ولأنهم يعتبرون الغرب عنيفا وسخيفا، فإن الغربيين يرون أن عقائدهم هى عقائد شعوب جاهلة وفقيرة. ولكن هذه العقائد يعتنقها عدد من الحاصلين على أعلى الشهادات الدراسية والعلمية من جامعات الغرب، ولديهم مهارات فنية متقدمة، وموارد مالية هائلة.. كما

يعتنق هذه الأفكار الشباب المتعطل.. أى إن هذه الأفكار العدائية يعتنقها مسلمون مثقفون كما يعتنقها الجهلاء.

ويرى جون أوسولليفان أن الإسلام الثورى لا ينبع من الإسلام وحده، بل له جذور غربية وإسلامية. فهو كما وصفه بحق جيمس بينيت المعلق بوكالة يوناتيد برس (ابن غير شرعى للأصولية الإسلامية والدراسات الغربية عن الماركسية الجديدة) وترجع جذوره إلى الجزيرة العربية، أما عناصره الغربية فتستند إلى النظرية القائلة بأن ثروة وقوة الغرب هى نتيجة سرقته واستغلاله للعالم الثالث. وهى النظرية التى نشرها لينين بعنوان (الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية) وتفرعت عنها فى الخمسينات والستينات نظرية الاستعمار الجديد. ورغم أن الاقتصاديين صاروا يعتبرون هذه الأفكار مجرد كلام فارغ فإن ملالى الإسلام الثورى يعتمدون عليها للدعوة إلى استقلال ورخاء العالم الإسلامى، وهذه الأفكار هى التى تحرك الحرب الإرهابية ضد الغرب وضد الحكومات الصديقة للغرب.

وينتهى أوسولليفان إلى نتيجة غريبة، وهى أن الإسلام الثورى يشبه الشيوعية والنازية فى اعتماده على العنف. والأيديولوجيات الثلاث توصف بأنها (المبادئ المسلحة)، ولذلك يجب هزيمتها بالحرب وليس فقط بالفكر. ولقد كانت النازية والشيوعية سببا لحروب أهلية طويلة فى الغرب، وبمجرد هزيمتها فى الحرب أو فى الصراع الأيديولوجى والاستراتيجى والاقتصادى تلاشى وجودهما ضمن القوى الفكرية والفلسفية، وإن كانت الماركسية مازالت حية تترنح فى أقسام الأدب والسياسة الفاسدة فى جامعات الغرب !

ويقول الكاتب إن هذا الإسلام الثورى يثير هو الآخر حربا أهلية غير معترف بها فى صفوف المسلمين، ولكن الدلائل تشير إلى أن الحضارة الإسلامية تفتقر فى ذاتها إلى العوامل الأساسية لتفادى هذا الخطر؛ لأن الاستياء شديد جدا فى العالم الإسلامى من أمريكا والغرب عموما. وهذا يجعل كثيرا من المسلمين يشعرون بالتعاطف مع أية قوة إسلامية تتحدى أمريكا والغرب، وليس أمام الغرب وأمريكا إلا هزيمة هذا الإسلام الثورى فى ميدان الحرب، والغرب قادر على ذلك.

هل يمكن أن يكون هناك فتوى أكثر عداوة للإسلام وتحريضا على إعلان الحرب على العالم الإسلامى من مثل هذه الفتوى ؟

والمفكرون العرب والمسلمون يؤمنون بأن نظرية صراع الحضارات نظرية مفتعلة، ويكررون الإعلان بأن الحضارة الإسلامية تؤمن بالتعايش والحوار والتعاون بين الحضارات، ولكن كثيرا من مفكرى الغرب يكررون الإعلان عن إيمانهم بصدق هذه النظرية. والمقال الذى نحن بصدده يعيد شرح هذه النظرية فيقول: إن الساحة الجيوبوليتيكية التى نشأت بعد انهيار حائط برلين وانهيار الاتحاد السوفيتى السابق شهدت فى نفس الوقت تغييرا جذريا فى العلاقات بين الدول، وظهرت المواجهة الأيديولوجية والصدام بين الحضارات، واعتقد الغرب أنه يجب على العالم كله أن يتبنى القيم الغربية، وهو فى ذلك مدفوع بانتصاره على الشيوعية، ومقتنع بأن الديمقراطية الغربية ذات صبغة عالمية وليست مقصورة على الغرب فقط. وهكذا كان الصلف الغربى، والإيمان بالنظرية القائلة بأن الخلاص سيتحقق على يد أمريكا، سببا فى فعل لدى المسلمين فتحول الوعى الإسلامى إلى تلاحم إسلامى، وبلغت هذه الظاهرة حدا من القوة جعلها تتجاوز حدود الدول العربية التى رسمت حدودها الدول الغربية. توحد الغرب وأصبحت للحضارة الغربية السيادة على حساب دول إسلامية وعربية ضعيفة ومجزأة كما ظهر ذلك فى حرب الخليج فى مطلع التسعينات. وظهر من يقول: إن ما لم تنجح الحكومات العربية فى تحقيقه سوف يحققه الدين الذى يتجاوز الدول،ويشكل خميرة الإرهاب الذى يضرب اليوم الولايات المتحدة ودول الغرب المذعورة.

وهذا المقال ليس الوحيد فى هذا الاتجاه، ولكنه مجرد نموذج لآلاف المقالات المماثلة والأكثر حماسة فى تحريض القوى الغربية ضد الإسلام والمسلمين. ويكرر الجميع الرجوع إلى صمويل هنتنجتون واعتبار نظريته (كتاب نبوءات) وقوله بأن الحضارات تصنع أكبر القبائل البشرية، وأن الصدام بين الحضارات، إنما هو نزاع قبلى على مستوى العالم. كما يكررون ما كتبه المستشرق برنارد لويس عام ١٩٩٠ : أن الغرب يصطدم الآن بحالة فكرية، وحركة تتجاوز حدود المشكلات والسياسات والحكومات التى تجسدها. ويضيف هذا المقال أن ما نراه من

إرهاب إسلامى هو رد الفعل غير المنطقى الغائر فى نفوس أبناء هذا (الخصم القديم) تجاه تراثنا اليهودى - المسيحى، وتجاه وضعنا المتميز اليوم، وإزاء توسع ونمو وازدهار التراث والحضارة اليهودية المسيحية. ويؤسس المقال على كل تلك المقدمات والأسباب النتيجة الجاهزة فى عقول كثيرين من القادة السياسيين والمفكرين والكتاب فى دول الغرب، وهى أن يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بما حدث فيه من هجوم غير مسبوق، وسقوط عدد هائل من الضحايا، يبدو أنه أول يوم فى تلك (الحرب الحضارية) بين الإسلام والغرب. وكما حدث فى الصدام بين الديمقراطية الغربية والشيوعية الذى استمر قرنا من الزمان، فإن الصدام بين الإسلام والحضارة المسيحية التى أصبحت الآن الحضارة الغربية قديم جداً وعمره يزيد على ألف عام، اختلفت أيضا حدته باختلاف الوضع السكانى، والنمو الاقتصادى والحماسة الدينية فى كلا المعسكرين.

وقد بلغ التوتر أشده من جديد لأن الهوة الاقتصادية بين الغرب والعالم الإسلامى آخذة فى الاتساع، مع النمو السكانى الذى يتزايد بسرعة فى الدول الإسلامية وتتزايد معه مشكلة البطالة، فإن العقيدة الإسلامية تزدهر فى تلك التربة الخصبة، ويريد المسلمون استعادة زهو حضارتهم وفخرهم بها فى مواجهة الحضارة الغربية المزدهرة. وفى رأى المسلمين أن ما يحدث للفلسطينيين يعبر عن ازدراء الغرب للعالم العربى والإسلامى. وقد كان مؤتمر الأمم المتحدة لمناهضة العنصرية الذى عقد فى مدينة ديربان بجنوب أفريقيا دليلا على هذا اليأس وتبريرا لاندلاع العنف الإسلامى الدامى الخطير، وقد اشتعلت فى هذا المؤتمر الدعوة إلى مساواة الصهيونية بالعنصرية والتنديد بالدول الاستعمارية. ولن يتوقف المتطرفون عند هذا الحد، ولكنهم سوف يستمرون فى التمادى فى ترويع العالم الغربى الذى يعتقدون أنه جبان، وعلى استعداد للخضوع والاستسلام بالعنف والضغط على أمريكا وإسرائيل. وبالمقابل لا تستطيع أمريكا وحلفاؤها الغربيون أن يظلوا مكتوفى الأيدى أمام الأعمال الحربية التى يقوم بها الإسلاميون. وفى النهاية فإن الرئيس الأمريكى جورج بوش الذى ليست لديه دراية كبيرة بالمسائل الدولية سوف يضطر إلى الثأر كما يقول المقال، وبالنسبة للأوربيين فليس أمامهم إلا أن يتضامنوا مع الشعب الأمريكى الذى قدم لهم العون

مرتين في القرن العشرين. ومع أن (العدو) غير محدد، وغير معروف، ومن الصعب الإمساك به، فإنه من الضرورى إيجاد وسائل للرد على الهجوم دون الانسياق إلى تحويله إلى نزاع عام.. فقد أثبت التاريخ أنه لا يمكن الرد على القوة بغير القوة. ولهذا السبب فإن هجمات سبتمبر الأسود تضع الألفية الثالثة على الطريق الرهيب المؤدى لحرب جديدة بأشكال جديدة تختلف عن حروب الماضى، وبهذه الحرب يتم احتواء الكراهية العمياء التى جعلت أمريكا تتشح بالسواد مهما كان الثمن .

هذه رؤية غربية للإسلام والمسلمين وقضاياهم، وهذه هى بعض الفتاوى الغربية التى تحرض الغرب على العالم الإسلامى كله.

وتكتمل الفتوى ضد الإسلام بمقال نشرته صحيفة هيرالد تريبيون الأمريكية يوم ١٢ سبتمبر ٢٠٠١ ، أى بعد اليوم التالى لأحداث سبتمبر، والمقال بقلم الكاتب الأمريكى المعروف وليم فاف بعنوان: (الهجمات تكشف أن الشجاعة السياسية هى الوسيلة الوحيدة للدفاع) .. يقول فيه: إن المسئولين العسكريين ومراكز البحوث والدراسات الاستراتيجية التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية، توقعت حدوث هجوم على الولايات المتحدة، وظلوا عشرات السنين يتصورون سيناريو هذا الهجوم. وبالعقلية التكنولوجية للبنتاجون والمزاج الهندسى للمجتمع الأمريكى توصلوا إلى أن هجوم الإسلاميين سيكون بأسلحة الدمار الشامل، وربما تستخدم فيه تقنية عالية، مع احتمال أن يكون الهجوم بالصواريخ، أو بالأسلحة النووية، أو الكيماوية، أو البيولوجية الفتاكة. ولم يخطر ببال الذين أعدوا خطط الدفاع إمكان استخدام الطائرات التجارية، مع أن الولايات المتحدة سبق أن تلقت درسا منذ ٦٠ عاما تقريبا ولكنها لم تتعلم منه، حين ضلت طائرة قاذفة متوسطة الحجم طريقها فى الضباب واصطدمت بمبنى (امباير ستيت) فى نيويورك، وكان وقتها أعلى مبنى فى الولايات المتحدة.

ويوم ١١ سبتمبر تكرر تطبيق هذا الدرس لإحداث رعب شامل فى الولايات المتحدة أدى إلى إغلاق مراكز القيادة الحكومية، وإخلاء المراكز التجارية فى المدن الكبرى، وكانت الآثار النفسية والسياسية لهذا الهجوم أكبر بكثير من الحجم الهائل للخسائر، لحدوثه بشكل مفاجئ، ومأساوى. وبما أن مصدر الهجوم مازال

مجهولا، فإن الخوف والرعب يزدادان، وبذلك حقق الهجوم تأثيره المنشود، وأثبت أن وسائل الدفاع ذات التكنولوجيا العالية التى تفخر بها الولايات المتحدة يمكن اختراقها بأساليب بسيطة وخادعة. واحتمال تكرار مثل هذا الهجوم قائم ما دامت هناك طائرات مدنية وقطارات، وأنظمة لتوليد الطاقة، ومنشآت عامة، وما دام هناك أناس يذهبون إلى العمل وإلى الأسواق، فكل ذلك يمكن اختراقه وتدميره أو استغلاله بطرق تؤدى إلى إلحاق الخسائر النفسية والسياسية والبشرية بالمجتمع ككل.

ويقول وليم فاف: إن الانتقام من الإسلاميين لن يؤدى إلى وقف احتمالات الرد منهم بانتقام مضاد، وهذا ما يحدث فى إسرائيل، فإن قتل الإسرائيليين للفلسطينيين لم يوقف هجماتهم، بل استدعى المزيد من عمليات الاستشهاد. كذلك فإن القول بأن الولايات المتحدة فى حاجة إلى أنظمة دفاع أكثر تعقيدا مما هو متوافر لديها حاليا لن يجدى بعد أن ثبت أن البنتاجون والمخابرات المركزية الأمريكية، ووكالة ناسا للفضاء، وبقية أجهزة الأمن القومى الأمريكية لم تقدر على منع هجوم ١١ سبتمبر، وهى غير قادرة مستقبلا على منع وقوع مثل هذا الهجوم بطريقة أخرى، ولا توجد أنظمة دفاع تكنولوجية ضد هذا النوع من الهجوم، وليس هناك وسيلة إلا أن يكون رد الفعل الأمريكى على هذا الهجوم بشكل آخر. والدرس الذى يجب أن تتعلمه أمريكا من التاريخ هو أنه ليس هناك دفاع حقيقى سوى التقدم بجدية وجرأة لإيجاد حلول سياسية للصراعات الداخلية فى داخل المجتمع الأمريكى، وحلول للصراعات بين أمريكا وأطراف خارجية، والاستنتاج المباشر أن هجوم ١١ سبتمبر كان بسبب الموقف الأمريكى المؤيد لإسرائيل. وقد ظلت الولايات المتحدة لأكثر من ثلاثين عاما ترفض القيام بجهود حقيقية، وغير متحيزة، لإيجاد حل للصراع العربى الإسرائيلى، وقد تدخلت كشريك فى مشكلة الشرق الأوسط لسنوات طويلة، ولكنها لم تتعامل مع المشكلة بدون تحيز لأحد الجانبين، والنتيجة ازدياد الأزمة وتعقدها، وانفصال الجانبين الفلسطينى والإسرائيلى، وهما الآن يعيشان أزمة مشتركة ومأساة متبادلة، وبتفجيرات ١١ سبتمبر تكون الولايات المتحدة قد حصلت على نصيبها من مأساة الشرق الأوسط.

هذا بالضبط ما قاله الكاتب الأمريكى وليم فاف، فى صحيفة هيرالد تريبيون الأمريكية فى اليوم التالى مباشرة لهجوم ١١ سبتمبر .

وفى اليوم التالى - أى يوم ١٣ سبتمبر ٢٠٠١ - كتب آلان أبلار فى صحيفة الموند مقالا بعنوان (هل لليمين الأمريكى المتطرف صلة بحادث الاعتداء على نيويورك وواشنطن ؟) قال فيه: إن هذا الهجوم جعل أمريكا تدرك أن فى عقر دارها شبابا ينتمون إلى حركات هامشية وحاقدة تتزايد شعبيتها، كما اكتشفت أنها تَأْوى رجالا غاضبين على استعداد للتضحية بأرواحهم للتنفيس عن غضبهم ونزعتهم التدميرية، كما فعل الشاب الأمريكى تيموثى ماكفاى الذى دمر مبنى المباحث الفيدرالية فى أوكلاهوما فى ١٩ أبريل ١٩٩٥ وقتل ١٦٨ أمريكيا، ولم يكن عضوا فى ميليشيا أو جماعة يمينية متطرفة. ولكنه كان على اتصال بهذه الحركات، وقد تم إعدامه فى ١١ يونيو ١٩٩٥، وقام أنصار مبدأ تفوق الجنس الأبيض بإعلان رفضهم للسلطة الفيدرالية الأمريكية وارتكبوا حادثين، وقامت السلطات بمحاصرة أحدهم فى منطقة روبى ريدج عام ١٩٩٢، ومحاصرة طائفة أنصار ديفيد واكو فى تكساس، وأسفر تدخل مكتب التحقيقات الفيدرالية (اف.بى.آى) عن مقتل ٨٠ شخصاً، وهؤلاء كانوا يشعرون بأنهم مهمشون فى أمريكا المزدهرة.

وظهرت فى أمريكا جماعات أطلق عليها الجيش الأمريكى اسم (جماعات الكراهية) تكونت داخل الجيش الأمريكى ذاته، وشكلت لجنة تحقيق برئاسة الجنرال لارى جوردان.. وقامت اللجنة بزيارة عدد كبير من القواعد العسكرية فى الولايات المتحدة ، وفى أوروبا، وآسيا.. وجاء فى التقرير الرسمى لهذه اللجنة أنها قامت بدراسة المناخ السائد بين الجنود الأمريكيين، وكان الهدف الحقيقى لهذه الدراسة التعرف على مدى خطورة وجود جنود داخل الجيش أعضاء فى (جماعات الكراهية) أو متعاطفين معها.

وتم التعرف على ١٢ متطرفاً فقط فى (فورت براج) التى كان تيموثى ماكفاى يعيش فيها عام ١٩٩١، وكانت جماعة سرية أطلق عليها اسم (القوات الخاصة الخفية) قد نشرت خطابا بعنوان (المقاوم) .. وهذا الخطاب كان يحمل معتقدات اليمين الأمريكى المتطرف، وأعلن مركز النهضة الديمقراطية ومقره أطلنطا أنه قام

بإحصاء فى عام ١٩٩٥ تبين منه وجود عدد من النشطاء في حركات تؤمن بسيادة وتفوق الجنس الأبيض يصل عددهم بين ٢٥ ألفا و ٣٠ ألفاً، منهم أربعة آلاف من المتطرفين يحلقون رءوسهم، ويمكن إضافة ما يقرب من ٢٠٠ ألف من المتعاطفين دون أن يؤخذ فى الاعتبار وجود ١٠٠ ألف عضو تقريبا من مختلف الميليشيات من الأمريكيين المعادين للحكومة، دون أن يكونوا بالضرورة ممن لديهم معتقدات عنصرية. وهناك صلات وعلاقات غير رسمية بين مختلف الميليشيات والجماعات المناهضة للحكومة، وإن كان الباحث الأمريكى المتخصص فى دراسة هذه الجماعات قد ذكر أن المنظمات التى تنتمى إلى «جماعات الكراهية» تعمل مستقلة عن بعضها وليست هناك قيادة مركزية تصدر لها التعليمات. إلا أن ذلك لا يمنع من وجود اتصالات منظمة بين هذه الجماعات، بدليل ثبوت علاقة وطيدة بين تيموثى ماكفاى وتيرى نيكول المتهم الثانى فى حادث تفجير مبنى المباحث الفيدرالية فى أوكلاهوما مع أوساط الميليشيات المتطرفة. والخطر الحقيقى لهذه الحركات أنها عبارة عن أشخاص متفقين فى النزعة والهدف، ولكنهم يعملون بصورة منفردة، كما فعل تيموثى ماكفاى.

والفكرة فى هذا المقال أن فى داخل أمريكا جماعات متطرفة تعمل ضد الحكومة الأمريكية وضد الملونين، ولها عناصر فى داخل الجيش الأمريكى، وقد يكون فى ذلك مفاجأة للبعض. ولكن ذلك كله نشر فى أمريكا من قبل فى أعقاب حادث تفجير أوكلاهوما.

وإذن فإن الإرهاب الإسلامى ليس الإرهاب الوحيد في العالم، ولكن هناك جماعات إرهابية فى كل القارات وكل الدول تقريبا بما فيها أمريكا ذاتها.

وهذه الحقيقة تتم التغطية عليها لكى يبقى الاتهام موجها إلى الإرهاب الإسلامى وحده، وتكون الحرب على المسلمين وحدهم، وتكون هذه الحرب هى التطبيق العملى للفتوى المتكررة بأن الإسلام دين يدعو فى تعاليمه ومبادئه إلى العدوان والإرهاب. وأنه الخطر الجديد الذى يهدد الحضارة والديمقراطية والازدهار الاقتصادى فى الغرب..!

تشويه القرآن فى ترجمته على أيدى أعدائه !

عندما أشار مسلسل فى التليفزيون المصرى إلى كتاب بروتوكولات حكماء صهيون مجرد إشارة.. ودون تصريح أو تلميح إلى أنه يمثل المخطط السرى للصهيونية العالمية للسيطرة على العالم، قامت ثورة لم يسبق لها مثيل فى الولايات المتحدة فى الإعلام، والكونجرس، والأحزاب السياسية، وجمعيات حقوق الإنسان، ومنظمات محاربة التمييز، ووصلت هذه الحملة الشرسة إلى حد توجيه الاتهامات بسوء النوايا لدى العرب والمسلمين تجاه الديانة اليهودية، والتهديد برفع دعاوى لمحاكمة المسئولين عن تقديم هذا المسلسل بتهمة معاداة السامية، وهى تهمة تعاقب عليها قوانين بعض الدول بالسجن. ووصلت الأزمة إلى حد تحرك القيادات السياسية والتهديد بقطع المعونات الأمريكية لمصر. وحاول السفير الأمريكى فى القاهرة التدخل.. ووصلت الضغوط إلى درجة لا يصدقها عقل!

وفى إسرائيل كانت الحملة أكبر وأشد شراسة، وبلغت إلى الحد الذى جعل الرئيس الإسرائيلى يبعث برسالة رسمية إلى الرئيس مبارك يطلب منه التدخل شخصيا لمنع إذاعة هذا المسلسل، وكان الرد أن المسلسل مجرد عمل فنى عن مقاومة المصريين للاحتلال البريطانى ليس فيه ما يسىء إلى الديانة اليهودية، ومصر لا تسمح بأى مساس بالعقائد الدينية اليهودية والمسيحية والإسلامية، والإسلام يعترف بالديانات السماوية وبالرسل جميعا دون تفرقة.

حدث هذا الزلزال من أجل دقائق فى مسلسل تليفزيونى ورد فيها مجرد ذكر بروتوكولات حكماء صهيون على أنه كتاب موجود ومشكوك فى صحته.

أما حملات العداء والتشويه اليومية للإسلام والمسلمين فى كل وسائل الإعلام المقروءة، والمسموعة، والمرئية فى الولايات المتحدة ودول أوربا، فإنها مستمرة على أنها من علامات الديمقراطية الغربية وممارسة لحرية الرأى وحرية التفكير، ودون أن يتحرك العالم الإسلامى حركة منظمة أو غير منظمة لمواجهة هذا السيل من الافتراء والتشويه. وحتى عندما وصل الأمر إلى تشويه القرآن الكريم وهو الكتاب المقدس عند المسلمين الذى يحتوى على كلام الله سبحانه وتعالى قوبل ذلك بالسكوت..

وفى دراسة للدكتور ثابت عيد الباحث المصرى فى جامعة زيورخ عن ترجمة معانى القرآن منذ جورج سيل (١٦٩٧ - ١٧٣٦) الذى ترجمها إلى اللغة الإنجليزية وقال فى مقدمتها: إن محمدا فى الحقيقة هو مؤلف القرآن، وهو الذى اخترعه، وهذا أمر لا يقبل الجدل. وإن كان من المرجح أن المعاونة التى حصل عليها من الآخرين ليست قليلة .

وايجانس جولد تسيهر مستشرق مجرى الأصل، معظم كتاباته بالألمانية ويعتبر من أكبر المستشرقين الألمان، كان يهوديا متعصبا متحاملا على الإسلام. قال عنه الشيخ محمد الغزالى فى كتابه «دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين»: إنه من أعمدة المستشرقين ودهاتهم، ولا شك أنه قرأ كثيرا من الأصول والمصنفات الإسلامية، ولكنه منذ قرأ وكتب، لم يحمل بين جنبيه إلا فؤادا مترعا بتكذيب الإسلام، فهو يدس إصبعه فى كل شىء، ليتخذ من أى شيء دليلا على أن محمدا كاذب، وقرآنه مفتعل، وسنته مختلقة، والإسلام كله منذ جاء وإلى أن بلغنا (مجموعة مفتريات).. (وقال عنه الدكتور محمد البهى فى كتابه (الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى): عرف بعدائه للإسلام، وبخطورة كتاباته عنه، ومن محررى دائرة المعارف الإسلامية)، كتب عن القرآن والحديث، ومن كتبه (تاريخ مذاهب التفسير الإسلامى) المترجم إلى العربية .

هذا المستشرق أشاد به أساتذة ومفكرون مسلمون كبار مثل الدكتور عبد الرحمن بدوى، والدكتور أبو العلا عفيفى رغم ما فى كتاباته من تشكيك فى أصول الإسلام، والدأب فى إثبات أن رسول الإسلام ﷺ لم يأت بجديد، ولكنه سرق كل

شيء من اليهود والمسيحيين. ولأنه كان ذا منزلة كبيرة بين المستشرقين وصاحب مدرسة في الاستشراق فقد أثر في كثير من الدارسين للإسلام الألمان وغير الألمان، ومازال تأثيره مستمرا إلى اليوم، ولا تزال كتبه المليئة بالسموم تعتبر من أهم مراجع طلبة الدراسات الإسلامية في جامعات أوربا.. بل والجامعات العربية!

وتضم قائمة المستشرقين الذين دسوا السم في دراساتهم وشوهوا صورة الإسلام في عقول المثقفين في الغرب باول كراوس (١٩٠٤ - ١٩٤٤)، وهو من كبار المتعصبين اليهود، برغم أن مصر استقبلته وعينته مدرسا للغات السامية في الجامعة المصرية سنة ١٩٣٦ وبرغم معاشرته للمصريين، إلى أن وجد منتحرا في مسكنه بالزمالك في القاهرة عقب عودته من رحلة إلى القدس في عطلة صيف ١٩٤٤. وقد كتب الدكتور عبد الرحمن بدوى عنه أنه كان صديقا حميما له، ولم يكن هناك سبب في حياته الشخصية يدعوه للانتحار. والخيط الوحيد لتفسير هذا اللغز المحير أنه حدث يوم ٦ نوفمبر ١٩٤٤ أن قتل إرهابيون إسرائيليون اللورد موين الوزير البريطاني المقيم في الشرق الأوسط، وقبضت الشرطة المصرية على القتلة، وحوكموا، وحكم عليهم بالإعدام، ونفذ الحكم، وقد وجدت الشرطة المصرية معهم عنوان مسكن باول كراوس، وتبين أن القتلة من عصابة شتيرن الإرهابية الإسرائيلية، وقد يكون كراوس منتميا إلى عصابة شتيرن، وأنه حين كان في القدس، وقع عليه الاختيار للاشتراك في قتل اللورد موين وقد رأت عصابة شتيرن أنه عقبة في سبيل النشاط الصهيوني لإنشاء دولة إسرائيل، وتصوروا أنه يمالئ العرب، أو في القليل يحارب الإرهاب الصهيوني ضد الإنجليز في فلسطين التي كانت آنذاك تحت الانتداب البريطاني، وكان على كراوس أن يختار بين الاشتراك في عملية الاغتيال أو أن ينتحر، وهو في الحالتين مقتول، فيبدو أنه اختار الحل الثاني.. هذا هو رأى الدكتور عبد الرحمن بدوى وهو من زملائه المقربين كما ذكره في كتابه (موسوعة المستشرقين).

ويلاحظ الدكتور ثابت عيد أن اليهود كانوا الأكثر اهتماما بدراسة الإسلام والعلوم الإسلامية، ويتساءل ما الذى يدفعهم إلى ذلك أكثر من غيرهم؟!.. ويجد الإجابة في قول الباحث السويسرى ارنولد هوتينجر بأن اليهود كانوا -

وما زالوا - أكثر الناس اهتماما بالعالم العربى، وهذا ما يفسر كثرة عـدد اليـهود بين المستشرقين.. أمثال جولد تسيهر، وباول كـراوس، وجـرو نبـاوم، وبرنـارد لويس، وجوزيف فان إس.. وغيرهم.. وهم ليسوا فقط يـهودا.. ولكنـهم يحملـون للإسلام عداء شديدا. ويعتبر باول كراوس نموذجا للمستشرق الحاقد على الإسلام وأصوله وعقائده وحضارته وعلومه وعلمائه حتـى إنـه ألـف كتابـا للتشـكيك فـى إنجازات جابر بن حيان فى الكيمياء وكتب فى ذلك بحثا بعنوان (تحطم أسطورة جابر بن حيان)، كما أنه عنى عناية خاصـة بنشر تـراث الملاحـدة فـى التـاريخ الإسلامى بهدف تشكيك المسلمين فى دينهم.

ويتساءل الدكتور ثابت عيـد مـرة أخـرى: لـماذا اهتـم الغربيـون بأشـعار عمـر الخيام قبل أن يهتم بـها المسـلمون؟ ويجـد الإجابـة فـى أنـهم أرادوا نشـر هـذه الأشعار لما فيها من إغراق فى التغزل فى الخمر ومصاحبـة الغانيـات والدعـوة إلى الاستمتاع بالحياة وبالحرية المطلقة بلا قيود دون أن يتفهموا ما وراءها من معان لا يفهمها إلا المتصوفون، فالخمر والسكر والحـب عنـد عمـر الخيـام تعبـير عـن النشوة التى يشعر بها المتصوف وهو غارق فى الحب الإلهـى، ولذلـك لم يتوقـف المستشرقون عند تراث الخيام باعتباره من عظمـاء علمـاء الرياضيـات فـى القـرون الوسطى. واهتم المستشرقون أيضاً اهتمامـا شـديدا بشـخصية ابـن الراونـدى لأنـه ملحد، ولذلك قام باول كـراوس بنشـر وترجمـة مؤلفاتـه لأن فيـها هجومـاً علـى الإسلام فى صميمه، وتطعن فـى أسـس العقيـدة. وهـى مـن المؤلفـات التـى كـانت تهدف إلى هدم الإسلام وتُعرف على أنها ذروة الزندقة والإلحاد.

أما المستشرق جوزيف فان إس الذى يعمل أستاذ كرسى فـى معـهد الاستشـراق بجامعة تيبنجن فى ألمانيا، فيقول الدكتور ثـابت عيـد: إنـه قابلـه ليناقشـه فـى موضوع الإعجاز اللغوى فى القرآن الكريم فوجـده يشـن هجومـا عنيفـا علـى لغـة القرآن، ويدافع عن مسيلمة الكذاب، ويوجه الشتائم إلى المؤرخين المسلمين لأنـهم أطلقوا عليه اسـم (الكـذاب)، وحـين قـال لـه ثـابت عيـد: إن محاولـة مسـيلمة الكذاب تقليد القرآن مضحكة، ولغتـه فـى غايـة الركاكـة زأر فـى وجهـه غاضبـا وقال: هذه أقاويلكم أنتم - المسلمون - وهى كاذبة. وما كاد هذا المستشـرق يسـمع

عن مشروع الباحث العراقى الدكتور عبد الأمير الأعسم لجمع كل ما كتبه ابن الراوندى وكل ما كتب عنه حتى سارع بتشجيعه ومساعدته، بل إنه ساهم ببحث خاص فى هذا المشروع بعنوان (الفارابى وابن الراوندى).. ويتهكم «جوزيف فان إس» على الله - سبحانه وتعالى - ويسخر من المسلمين فى كتابه عن الإسلام ويقول فيه: إن الله يتكلم اللغة العربية ولا يخطئ فى النحو! أستغفر الله.

ويقول ثابت عيد: إن جوزيف فان إس شديد التحامل على الإسلام عندما يكون فى قلعته فى جامعة تيبنجن، ولكن عندما تضطره الظروف للسفر إلى دولة إسلامية فإنه يلبس قناعا آخر فلا يتحدث عن الإسلام إلا بالمدح، ومنذ سنوات جاء إلى القاهرة لإلقاء محاضرة فى الجامعة الأمريكية فتحدث عن الجامعات فى بلاد الإسلام، وامتدح الإسلام، ولما عاد إلى ألمانيا استمر يواصل السب واللعن فى الإسلام: ويقول ثابت عيد: إن عداء جوزيف فان إس للإسلام أشد من عداء سلمان رشدى صاحب رواية (آيات شيطانية) التى تضمنت اتهامات مقذعة للإسلام وللرسول ﷺ وزوجاته وبناته.

وكان المستشرق السويدى صامويل نيبرج (١٨٨٩ - ١٩٧٤) يبحث فى التراث العقلانى عند المسلمين. ونشر بمساعدة العالم المصرى أحمد أمين كتاب (الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد) للخياط وامتدح المعتزلة وقال: إنهم دافعوا عن الإسلام دفاعا مجيدا، ولكن صامويل نيبرج ما كاد يصل إلى بلاده حتى شن غارة على المعتزلة متهما إياهم بأنهم كانوا متعصبين ولعبوا دورا كبيرا فى نشر الإسلام!

ويذكر ثابت عيد المستشرق اليهودى الهولندى جاك فاردينبورج وهذا المستشرق أستاذ كرسى الأديان بجامعة لوزان بسويسرا وله كتاب بعنوان (الإسلام فى مرآة الغرب) وزوجته أيضا يهودية متعصبة، حصلت على الدكتوراه فى الأدب العربى فى جامعة اكسفورد تحت إشراف أستاذ مصرى هو الدكتور مصطفى بدوى، وعندما سألها ثابت عيد لماذا اختارت الأدب الإسلامى قالت له: لكى أتحاشى المواقف الصعبة عندما أذهب إلى الدول الإسلامية، مع أنها هى التى قالت: (إن محمدا سرق منا الصيام فى يوم عاشوراء، وأنه كتب القرآن بنفسه).

والملاحظة التى ينبهنا إليها ثابت عيد هى أن المستشرقين حين يتحدثون عن الأدب العربى يتحدثون عنه بموضوعية واحترام، وحين يتحدثون عن العقيدة الإسلامية تمتلئ كتاباتهم بالطعن فى الإسلام، والمثال على ذلك بروكلمان (تاريخ الأدب العربى) وهو عبارة عن فهرست لكتابات العرب فى مختلف فروع العلم، ويتحدث فيه عن التراث الأدبى والعلمى فى الإسلام بتقدير واضح، ولكن كتابه (تاريخ الشعوب الإسلامية) ملىء بالسخرية والطعن فى الإسلام خاصة عندما يتناول ظهور الإسلام. وسيرة الرسول ﷺ، وتطور العقيدة فى الإسلام، ومثله أيضا المستشرق مونتجومرى وات فهو يمجد الإسلام فى كتابه (فضل الإسلام على الحضارة الغربية) بينما يمتلئ كتابه (الإسلام) بالطعن والتشكيك فى الدين الإسلامى.

ويتحدث ثابت عيد عن المستشرق الألمانى مانفريد أولمان زميل جوزيف فان إس وهو متخصص فى دراسة تاريخ الطب فى الإسلام فى جامعة تيبنجن بألمانيا وله كتاب (الطب فى الإسلام).. وهذا المستشرق يكره العرب بشدة، وينتهز كل فرصة للسخرية منهم، ومن تخلفهم، وكذلك المستشرق السويسرى بينديكت راينرت الذى قال لإحدى تلميذاته المسلمات: أنا لا أحب أن أرى أى مسلم فى معهد الاستشراق بجامعة زيورخ ! وقال لثابت عيد: يؤسفنى أنك مسلم ! لأنه لم يعجبه دفاع ثابت عيد عن الإسلام فى أحد أبحاثه.

لماذا ترجم المستشرقون معانى القرآن مبكرا وما زالوا يفعلون ذلك؟.. الإجابة رغبتهم فى توظيف هذه الترجمة للهجوم على الإسلام والإساءة إليه فى مراكز الاستشراق، وفى أذهان المثقفين وأيضا لمحاولة تشكيك المسلمين فى دينهم، تمهيداً للقضاء على ثقافتهم. ومن بين القلائل الذين تحدثوا بإنصاف عن الإسلام الأب روبير كاسبار الذى قال: إن الغرب لم يفهم الإسلام على حقيقته أبدا، ولم يحاول ذلك أبدا.. وحتى خيرة المسيحيين القلائل الذين كانوا يعيشون فى جوار مع الإسلام من أمثال يوحنا الدمشقى، وتيودور أبى قرة، وبولس الصيدونى، فإنهم لم يتمكنوا من إدراك جوهر الإسلام، ولعل ذلك يرجع إلى أن الغرب المسيحى اكتفى على مدى قرون طويلة بتلطيخ الإسلام، ونبى الإسلام، بأسخف الأقوال، دون أن يكلف نفسه عناء دراسة هذه العقيدة. فأول ترجمة لاتينية

للقرآن لم تظهر إلا فى القرن الثانى عشر، أى بعد خمسة قرون من ظهور الإسلام، وتمت هذه الترجمة بمبادرة من بطرس المبجل وتحت إشراف أسقف دير كلونى، وهذه الترجمة، والترجمات التالية لها لم يكن لها هدف سوى أن تكون مادة لتوجيه الإدانة ضد القرآن والتى شارك فيها عدد من أشهر الباحثين.

ويقول المفكر الألمانى هوبرت هيركومر عن أسباب ترجمة معانى القرآن الكريم لأول مرة إلى اللغة اللاتينية: إنه يبدو أن جنود وضباط الصليبيين رفضوا الاعتراف بأنهم يواجهون إحدى ديانات التوحيد القريبة جدا من ديانتهم، فى الاعتراف بوجود الله، والصلوات اليومية، والصيام، والزكاة، وكانت معرفة الصليبيين بالقرآن محدودة جدا. وإن كانت أول ترجمة لاتينية لمعانى القرآن قد ظهرت سنة ١١٤٣ وقام بها روبرت كيتون، لكن الأوربيين كانوا يتطلعون إلى توظيف ترجمة معانى القرآن للطعن فى الإسلام. وكان هذا الإنجليزى - روبرت كيتون - الذى يعيش فى مدينة طليطلة بأسبانيا يترجم تراث المسلمين فى الهندسة والفلك إلى اللاتينية، وبدلاً من أن تكون ترجمة معانى القرآن وسيلة للتفاهم والتقارب استغلت هذه الترجمة للطعن فى الإسلام على مدى قرون طويلة، حتى إن بلدية مدينة بازل فى سنة ١٥٤٢ منعت نشر هذه الترجمة اللاتينية، ولم تسمح بطباعتها إلا بعد تدخل مارتن لوثر مؤسس المذهب البروتستانتى وقال مارتن لوثر: لا يمكن عمل شىء أكثر إزعاجا لمحمد أو الأتراك، ولا أشد ضررا من جميع الأسلحة، من ترجمة قرآنهم ونشره بين المسيحيين، عندئذ سيتضح لهم أى كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن. فهو ملىء بالأكاذيب والخرافات، وقال عن الرسول ﷺ: (إنه خادم العاهرات، وصائد المومسات)، وقال أيضاً: بعد ظهور الأتراك على حقيقتهم، أرى أن القساوسة عليهم أن يخطبوا الآن أمام الشعب عن فظائع محمد حتى يزداد الشعب عداوة له، ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم فى الحرب.

والمستشرق الفرنسى بلاشير هو الآخر أكد أن الهدف من ترجمة معانى القرآن إلى اللغات الأوربية تشكيك المسلمين فى دينهم وقال: كانت المبادرة - إلى ترجمة معانى القرآن - قد انبثقت عن عقلية الحروب الصليبية، وهذا ما سجلته الرسالة

التى وجهها بطرس المبجل إلى القديس برنار مرفقة بنسخة من الترجمة، كما كان الهدف أيضاً الرغبة الشديدة فى إزالة كل أثر للإيمان به من أذهان المسلمين.

وحتى القرن السابع عشر كانت هناك أصوات قوية فى الكنائس الغربية تعارض نشر ترجمة معانى القرآن. وأصدر البابا الكسندر السابع الذى ولد عام ١٦٥٥ قرارا بمنع ترجمة القرآن أو نشره، وبعد واقعة تدخل مارتن لوثر لنشر أول ترجمة لاتينية لمعانى القرآن أصبح هناك اتجاه قوى فى الغرب لا يمانع من ترجمة القرآن إلى اللغات الأوربية، لتوظيف هذه الترجمة فى توجيه الطعنات إلى الإسلام وكتابه ورسوله.

وظل الاهتمام الأكبر للمستشرقين بجمع ونشر الأقوال الإلحادية فى الإسلام. وكل من يطعن فى الإسلام من المسلمين أنفسهم يجد التأييد فى الغرب، من أمثال المهاجر السورى بسام طيبى الأستاذ فى جامعة جوتنجن فى ألمانيا فقد تخصص فى الكتابة فى الإساءة إلى الإسلام ففتحت أمامه الأبواب، ووجدت كتاباته رواجا شديدا.

والمستشرق الصهيونى باول كراوس كان أكبر باحث فى الغرب عن كتابات وأفكار الملحدين من المسلمين، ومثله المستشرق الإيطالى فرانسيسكو جابرييلى، والمستشرق السويدى نيبرج. ولذلك نجد المستشرق الألمانى فان إس يهتم بمسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوة وحاول تقليد القرآن ويبدى إعجابه (بالآيات) التى ابتدعها مسيلمة مثل: (يا ضفدع ابنة ضفدع، نقى ما تنقين، أعلاك فى الماء، وأسفلك فى الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين) كما جاء فى تاريخ الطبرى ومثل قوله: (والليل الدامس والذئب الهامس ما قطعت أسيراً من رطب ولا يابس). كذلك اهتم فان إس بما جاء فى سيرة ابن هشام عن النضر ابن الحارث الذى سبق مسيلمة الكذاب فى محاولة تقليد القرآن، وقال عنه ابن هشام: .. وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كانوا يؤذون رسول الله ﷺ، وينصبون له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكر فيه الله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه فى مجلسه ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه، فهلم إلىّ، فأنا

أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً مني؟ وقال ابن هشام عن النضر بن الحارث: .. وهو الذى قال فيما بلغني: سأنزّل مثل ما أنزل الله!

مثل هذا الكلام الفارغ - الذى يقرؤه المسلم ويرى فيه تعبيرا عن الجنون أو الإلحاد الذى بلغ أقصى درجاته، ويرفضه ولا يهتم حتى بقراءاته - يجد اهتماما كبيرا من المستشرقين ويركزون أبحاثهم حوله. ومن هؤلاء أيضا المستشرق الإيطالى فرانشيسكو جابرييلى الذى اعتنى عناية فائقة بالتراث الإلحادى فى كتابات ابن المقفع، وسجل ما ذكره ابن خلكان عن الخليفة المهدى الذى كان يتتبع الزنادقة، لتنقية المجتمع الإسلامى من شرورهم، وقد نشر فان إس الأقوال الإلحادية لابن المقفع فى محاولته لتقليد القرآن بمثل قوله: تأمل صنيع الله بأهل الشام، وقد شملتهم الآثام، وكثر فيهم الإجرام، فيومئذ حين أظلتهم الآطام، والقادمين من الشرق بالخيام، إن ربك صب عليه سوء العذاب، إنه لا يعجل العقاب، وله الجزاء الأوفى يوم الثواب وقوله: يا أيها الناس قد نُسب أهل العراق إلى الشقاق والنفاق، وفى مائها الزعاق، ويظهرون طاعتهم للخلاق، إن ربك هو أعلم بمن حاد عن طريقه، وهو أعلم بالمعتدين، وأوفى للمهتدين. وقد تضمن كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى (من تاريخ الإلحاد فى الإسلام) ما ذكره فرانشيسكو جابرييلى عن ابن المقفع، ونبش المستشرق باول كراوس فى كتابات أبى بكر الرازى وهى تفوق الحصر فى الطب والعلوم حتى عثر فيها على أقوال فيها زندقة فنشرها سنة ١٩٣٩ فى القاهرة تحت عنوان (رسائل فلسفية) تحدث فيها عن كتابين من الميراث الإلحادى للرازى هما (مخاريق الأنبياء) و (نقض الأديان)، ويقول أبو بكر الرازى مشككا فى الدين: من أين أوجبتم أن الله اختص قوما دون قوم وفضّلهم على الناس وجعلهم أدلة لهم، وأحوج الناس إليهم؟ ومن أين أجزتم فى حكمة الحكيم أن يختار لهم ذلك ويعلى بعضهم على بعض، ويؤكد بينهم العداوات، ويكثر المحاربات، ويهلك بذلك الناس ويقول أبو بكر الرازى أيضا: إنكم تدّعون أن المعجزة قائمة موجودة - وهى القرآن - وتقولون من أنكر ذلك فليأت بمثله، ثم قال: إن أردتم بمثله فى الوجوه التى يتفاضل بها الكلام، فعلينا أن نأتيكم بألف مثله من كلام البلغاء والفصحاء والشعراء، وما هو أطلق منه ألفاظا، وأشد اختصارا فى المعانى، وأبلغ أداء

وعبارة، وأشكل سجعا، فإن لم ترضوا بذلك، فإنا نطالبكم بمثل الذى تطالبونا به . ويقول: وأيم الله، وأقسم بالله لو وجب أن يكون كتاب حجة، لكانت كتب أصول الهندسة والمجسطى (كتاب الفلك تأليف بطليموس) الذى يؤدى إلى معرفة حركات الفلك والكواكب، وكتب المنطق، وكتب الطب التى فيها علوم مصلحة الأبدان، أولى بالحجة مما لا يفيد نفعا ولا ضراً، ولا يكشف مستورا (يعنى القرآن الكريم) ويقول أيضا: من ذا يعجز عن تأليف الخرافات بلا بيان ولا برهان إلا دعاوى أن ذلك حجة، وهذا باب إذا دعا إليه الخصم سلمناه وتركناه وما قد حل به من سكرة الغفلة والهوى، مع أننا نأتيه بأفضل منه من الشعر الجيد، والخطب البليغة، والرسائل البديعة مما هو أفصح وأطلق وأسجع منه، وهذه معانى تفاضل الكلام فى ذاته، فأما تفاضل الكلام على الكتاب فلأمور كثيرة فيها منافع كثيرة، وليس فى القرآن شيء من ذلك الفضل، إنما هو فى باب الكلام، والقرآن خلو من هذه التى ذكرناها ..

لولا أن ناقل الكفر ليس بكافر، ولولا أن كشف ما يفعله المستشرقون يستلزم تقديم نماذج مما يقولون وما يستندون إليه من كتابات الزنادقة المسلمين، لما وجدت فى نفسى الجرأة على كتابة مثل هذا الكلام السفيه، وتعالى الله عما يصفون.

ولكن مسيلمة الكذاب وابن المقفع، والرازى لم يكونوا وحدهم ولكن هناك غيرهم مثل قسطا بن لوقا (٨٢٠ – ٩١٢). يقول ابن أبى أصيبعة عنه فى كتابه (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء): قسطا بن لوقا البعلبكى قال سليمان بن حسان إنه طبيب حاذق، نبيل، فيلسوف، منجم، عالم بالهندسة والحساب. وكان فى أيام المقتدر بالله.. ونقل كتبا كثيرة من كتب اليونانيين إلى اللغة العربية، وكان جيد النقل، فصيحا باللسان اليونانى والسريانى والعربى، وأصلح نقولا كثيرة، وأصله يونانى، وله رسائل كثيرة فى صناعة الطب وغيرها، وكان حسن العبارة، جيد القريحة. وكتب أبو عيسى يحيى بن المنجم إلى قسطا بن لوقا، وحنين ابن اسحاق، رسالة فى إثبات نبوة محمد (ﷺ) فكيف كان ردّ قسطا بن لوقا على هذه الرسالة؟ لقد سعى إلى التشكيك فى أسس الإسلام، متهكما على نظرية إعجاز القرآن، مهاجما لغة الوحى، طاعنا فى صحة الإسلام.

يقارن قسطا بن لوقا بين النص القرآني من ناحية، وشعر هوميروس من ناحية أخرى، في محاولة للتشكيك في إعجاز القرآن، ويقول: ولما كان لهوميروس قدرة على تأليف الشعر، ولا يمكن لأحد أن يأتي بمثل شعر هوميروس، يكون هوميروس عندك نبيا، سيما وقد أتى فيه بمعان جليلة القدر جدا، ومن أجل الصناعات، حتى ذكر فيه معاني في الطب عجيبة .. إلى أن يقول: (ولم أر الأمر في كتابك - القرآن - جاريا على هذا المجرى، فإنك لا ترجع فيه إلى صنعة من الصناعات فيقول من حفظه وفهمه أقصى فهم: إن أخباره جعلته في تلك الصناعة رئيسا، فإنك إن ذكرت الإعراب كان الذى يفاد عن الأعراب من كتاب سيبويه وغيره من كتب العرب أكثر مما يفاد منه (أى من القرآن) وإن ذكرت الفقه كان الذى يعلم من كتب أبى حنيفة وابن عُلَيّة وغيرهما من الفقهاء أكثر من الذى يفاد منه (القرآن) وإن ذكرت الشعر والخطب كان الذى يفاد من علمهما من الكتب بهما أكثر من الذى يفاد منه (القرآن) وإن ذكرت الأخبار كان في التوراة والمسند وغير ذلك من كتب الأخبار أكثر مما فيه (القرآن) ويواصل طعنه في القرآن فيقول قسطا بن لوقا: (على أنى رأيت قوما يأتون بلفظ من هذا الكتاب (القرآن) ويقيمون لفظا آخر بحذائه، ويقولون لو حصلت هذه اللفظة لكان أحسن وأليق بالمعنى، من ذلك قولهم لو كان مكان قوله (تعالى) والنجم إذا هوى يقول والنجم إذا علا لكان ذلك أقرب إلى المعنى لأن ذلك حلف، ولا يحلف بالنجم في هويه بل في أحسن حالاته، أعنى علوه وارتفاعه..

ومثل هذه الأقوال يبحث عنها المستشرقون ليستخدموها في تعميق الكراهية والعداء للإسلام في الغرب.

وأكبر شخصية ملحدة في تاريخ الإسلام هو ابن الراوندى، وقد عاش في بغداد في النصف الأول من القرن الثالث الهجرى بين عام ٢٠٥ وعام ٢٤٥ هجرية، وكان من متكلمي المعتزلة ثم فارقهم، وصار ملحدا زنديقا يلازم أهل الإلحاد، فإذا عوقب على ذلك قال: إنما أريد أن أعرف مذاهبهم، ويقال: إن اباه كان يهوديا وأسلم، وكان بعض اليهود يقولون لبعض المسلمين: ليفسدن عليكم هذا كتابكم كما أفسد أبوه التوراة علينا، ويقال: إنه قال لليهود: قولوا: إن موسى قال: لا نبى بعدى، وكان لا يستقر على مذهب، حتى إنه وضع لليهود كتاب

(البصيرة) ردا على الإسلام مقابل أربعمائة درهم أخذها من يهود سامرا، فلما أخذ المال أراد نقض ما في كتابه هذا حتى أعطوه مائة درهم أخرى. وله كتاب (الزمرد) يبرهن فيه على إبطال النبوات، وكتاب (الفرند) في الطعن على رسول الله ﷺ، وكتاب (التاج) في الرد على الموحدين، وكتاب (عبث الحكمة) وكتاب (الدامغ) في الرد على القرآن، وكتاب (فضيحة المعتزلة).. وتصدى له فلاسفة المعتزلة من أمثال أبى الحسن الخياط، و أبى على الجباتي، والقاضي عبد الجبار.

وقال ابن الراوندى (إن الرسول (ﷺ) أتى بما كان منافرا للعقول مثل الصلاة، وغسل الجنابة، ورمى الحجارة، والطواف حول بيت لا يسمع ولا يبصر، والعدو بين حجرين لا ينفعان ولا يضران، وهذا كله لا يقتضيه عقل، فما الفرق بين الصفا والمروة إلا كالفرق بين أبى قبيس وحرى (جبلان فى مكة) وما الطواف بالبيت إلا كالطواف على غيره من البيوت) ويقول: إن الملائكة الذين أنزلهم الله يوم بدر لنصرة النبى (ﷺ) بزعمكم، كانوا مغلولى الشوكة، قليلى البطشة على كثرة عددهم واجتماع أيديهم وأيدى المسلمين، فلم يقدروا على أن يقتلوا زيادة على سبعين رجلا.. أين كانت الملائكة يوم أحد لما توارى النبى (ﷺ) ما بين القتلى فزعا، وما باله ما ينصروه فى ذلك المقام)؟.. ويقول عن القرآن: (إنا نجد فى كلام أكثم الصيفى شيئا أحسن من إنا أعطيناك الكوثر).

وما قاله ابن الراوندى كثير.. ولا أريد أن أنقل كل ما قاله وذكره الدكتور ثابت عيد فى بحثه، أريد فقط أن أدلل على أن صناعة العداء للإسلام كانت من خارج الإسلام، وكانت أيضا من الطابور الخامس الذى كان محسوبا على المسلمين وأساء إلى الإسلام، وأعطى للمستشرقين وأعداء الإسلام فى الخارج ما يحاربون به الإسلام.

وهدفى من ذلك أن أحذر المسلمين لكى ينتبهوا إلى كل كلمة تقال على لسان مسلم أو غير مسلم، ولا يستبعدوا أن يكون فى صفوف المسلمين خائن لربه ودينه..

أما عن ترجمات معانى القرآن التى قام بها المستشرقون الألمان فإن الدكتور ثابت عيد يقول عنها: إنها ترجمات جزئية وليست كاملة لمعانى القرآن، وأحدث وأفضل ترجمة لمستشرق ألمانى لمعانى القرآن هى التى قام بها رودى بارت

سنة ١٩٦٦، ويشير إلى مقال للمستشرق الألمانى أوجست فيشر بعنوان (فى مسألة ترجمات القرآن)، وقد أثبت فيه أنه ليس هناك كتاب عربى له هذا القدر الهائل من الترجمات مثل القرآن وتزداد هذه الترجمات من سنة إلى أخرى، ولكن لم تتم ترجمة معانى القرآن إلى اللغات الأخرى ترجمة دقيقة وصادقة لصعوبة نقل هذه المعانى إلى لغات أخرى، وعدم وجود المؤهلين لهذا العمل، وفيشر ينتقد جميع المترجمين الألمان لمعانى القرآن الكريم لأسباب كثيرة؛ من بينها عدم إلمام معظمهم بقواعد النحو العربى وبالأساليب والتعبيرات اللغوية العربية، ولأن غايتهم هى البحث فى القرآن عن عناصر مسيحية ويهودية وتجاهلهم لحقيقة أن هذا القرآن عربى، ويضرب فيشر مثلا على الأخطاء التى وقع فيها المستشرقون الألمان الذين ترجموا معانى القرآن فيقول: إنهم لم يفهموا معنى أربع آيات من الآيات الخمس المكونة لسورة (المسد) فقد أخطئوا فى ترجمة معانى أربع آيات، والآية الوحيدة التى نجحوا فى ترجمتها كانت الآية الثالثة (سيصلى نارا ذات لهب).. ومع ذلك فقد لاحظ الدكتور ثابت عيد أن فيشر نفسه وقع فى خطأ فاحش مثل كل المستشرقين، إذ اعتبر القرآن من تأليف محمد ﷺ، ونظر إليه على أنه نص أدبى لا يختلف كثيرا عن النصوص الأدبية فى الشعر والنثر العربى، وبالتالى اعتقد أنه يمكن إخضاعه للتحليل اللغوى والتاريخى والتعامل معه، كما يتم التعامل مع أى نص آخر فى التراث العربى، وعلى ذلك قال: إن القرآن يعيبه انعدام النظام فى تركيب وترتيب الآيات. وإن السور الطويلة تتكون من آيات غير متجانسة، ونزلت فى أوقات متباينة ومتباعدة، وهذا يجعل مهمة المترجمين أكثر صعوبة!!

هكذا نرى حتى المستشرقين الذين يبدون تفهما للقرآن متفقين مع من لم يفهموه فى أنه ليس نصا إلهيا، وليس من وحى السماء، ويكررون جميعا أنه من تأليف نبى الإسلام ﷺ، ويعلق ثابت عيد على ذلك بقوله: كيف إذن نستطيع أن نعول على هؤلاء القوم ونأتمنهم على ترجمة القرآن ترجمة صحيحة، إذا كانوا لا يؤمنون أصلا بأنه كتاب سماوى؟.

وينقل ثابت عيد عن المستشرق الألمانى المعاصر كريستوف بيرجل عدم رضاه عن الترجمات التى تمت حتى الآن، ويقول عيد إن كريستوف بيرجل متخصص فى

دراسة العلوم الطبية عند العرب، وهو تلميذ عميدة الاستشراق الألمانى الدكتورة أنّا مارى شيمل، ويعتبر من كبار المترجمين الألمان للشعر العربى والآداب الفارسية، وبلغت عبقريته فى الترجمة إلى درجة إتقان ترجمة الشعر العربى والفارسى إلى شعر ألمانى، وقد نال أكثر من جائزة تقديراً لإسهاماته المتميزة فى ترجمة الآداب العربية والفارسية إلى اللغة الألمانية، وفى حوار مع ثابت عيد قال له: إن المستشرقين الألمان لم يتمكنوا من ترجمة معانى القرآن ترجمة دقيقة يمكن الاعتماد عليها، ولذلك فهو يضطر إلى ترجمة الآيات القرآنية التى يحتاج إليها بنفسه، وإن كانت ترجمة رودى بارت جيدة إلا أن أسلوبها ردىء لا يرقى بأية حال إلى الأسلوب الإعجازى للقرآن..

ومع ذلك فإن ترجمة رودى بارت تحظى باحترام كبير فى معاهد الاستشراق فى أوربا ويعتبرونها أفضل ترجمة ألمانية لمعانى القرآن، وقد ظهرت هذه الترجمة فى مجلدين؛ أولهما يتضمن ترجمة النص القرآنى صدر عام ١٩٦٦. والثانى يتضمن تعليقات وفهارس وصدر عام ١٩٧١، ولكن رودى بارت عاد فى عام ١٩٧٤ ونشر مقالا بعنوان (البحوث القرآنية) أشار فيه إلى أنه كرس الجزء الأكبر من حياته العلمية فى دراسة القرآن وترجمة معانيه إلى اللغة الألمانية، وأنه قرأ ترجمة ريتشارد بيل الإنجليزية لمعانى القرآن التى ظهرت سنة ١٩٣٧، وعلى ترجمة بلا شير الفرنسية التى نشرت عام ١٩٤٩، واطلع اطلاعاً وافيا على تفسير الطبرى فى أجزائه الثلاثين المطبوع فى القاهرة عام ١٩٠٣، فى عشرة مجلدات، وعلى تفسير الزمخشرى فى أربعة مجلدات الصادر فى القاهرة عام ١٩٥٣، وكذلك رجع فى بعض المواضع إلى تفسير البيضاوى - فى مجلدين طبعة ليبزج سنة ١٨٤٦، وأنه فى منتهى الحرص والحذر وهو يرجع إلى هذه الكتب، على عكس المترجمين الآخرين الذين نقلوا بعض التفسيرات الغامضة، وأنه كان على وعى بضرورة ترجمة النص بمعناه الذى أخبر به محمد (ﷺ)، كما أنه حرص على تفسير القرآن بالاستعانة بالقرآن ذاته، ومع ذلك فإنه يعترف بأنه وقع فى بعض الأخطاء فى ترجمته لمعانى القرآن.

ويعلق ثابت عيد على ذلك بأن رودى بارت عبقرى، ولكن ماذا تنفعنا عبقريته إذا كان لا يؤمن أصلا بصحة ما يترجمه وإذا كان همه الأكبر إثبات أن محمدا ﷺ سرق هذا وذاك من النصارى واليهود، وإذا كان يتعامل مع القرآن كما يتعامل مع أى نص أدبى، وقد ظهر ما يخفيه فى ضميره دون أن يدرى حين قال: إن السورة الثانية (البقرة) تتحدث فى الآيات من ٦٧ حتى ٧٣ عن ذبح بقرة، ويبدو أن الآيات من ٦٧ حتى ٧١ مطابقة تماما لما ورد فى التوراة.

ولا يملك الإنسان إلا أن يتفق مع ما توصل إليه ثابت عيد من أن ترجمة معانى القرآن إلى اللغات الأجنبية يستحيل على غير المسلمين أن يقوموا بها بدقة.. وقد أخطأ رودى بارت فى ترجمة «النبى الأمي»، ولأن المستشرقين يدعون أن الرسول ﷺ هو مؤلف القرآن، فهم يرون أنه لابد أن يكون متقنًا للقراءة والكتابة، ولذلك جاءت قريحة رودى بارت بترجمة كلمة (الأمى) إلى كلمة (الوثنى) أو (الكافر) وهكذا يحرفون الكلم عن مواضعه، كذلك فعل رودى بارت بلفظ (الجهاد) الذى يعرّفه الجرجانى فى كتابه (التعريفات) فيقول (الجهاد هو الدعاء إلى الدين الحق) إلا أن الأوربيين مازالوا مصممين على أن الجهاد يعنى الحرب المقدسة ضد غير المسلمين، وحتى رودى بارت - الذى يعتبر أكثر المترجمين دقة - ترجم لفظ الجهاد إلى لفظ الحرب.. وهكذا.. فإن الترجمة التى تعتبر أفضل ترجمة لمعانى القرآن تتضمن طعنا فى الإسلام وتشكك فى قواعده وأصوله..

ولم تظهر ترجمة صحيحة باللغة الألمانية لمعانى القرآن إلا ترجمة دار بافاريا للنشر والإعلام فى مدينة ميونخ التى استغرق إعدادها عشر سنوات وأصبحت أول ترجمة ألمانية وافية وصحيحة أعدتها لجنة من عشرة مترجمين خمسة عرب وخمسة ألمان، وتتميز بأنها تضم ترجمة النص وترجمة تفسيره أيضا.

وما حدث ويحدث فى ألمانيا يحدث فى كل دول أوربا، وفى الولايات المتحدة وفى الغرب عموما. ويكفى أن تقرأ كتاب الدكتورة زينب عبد العزيز الأستاذة الجامعية المعروفة المتخصصة فى دراسة الحضارة وقد أتمت كل مراحل تعليمها باللغة الفرنسية، وكتابها بعنوان (محاصرة وإبادة موقف الغرب من الإسلام) لنرى كيف تتم صناعة العداء للإسلام من النصوص التى تستشهد بها مثل ميشيل

لونج الـذى كتـب يقـول: إن الكنيسـة تعتـبر المسيح خـاتم الرسـالة لذلـك فـهى لا تعترف بنبى الإسـلام. ومثـل موريـس بوكـاى الـذى كتـب فـى مقدمـة كتابـه (الإنجيل القرآن والعلم)، يقول: (إن المسيحية لا تأخذ فى الاعتبـار أيـة ديانـة بعد المسيح، وبذلك تستبعد القرآن، ومثل الفيلسوف الفرنسى بونو دى كونديلاك الذى قال فى كتابه (التاريخ الحديث) عن نزول القرآن على الرسـول ﷺ: (لقد كوّن مشروعه بمحض الصدفة، وسانده بفضل جـرأة احتيالـه، واستطاع أن يتمه لأن الظروف سـاعدته علـى ذلـك، فقـد كـان مصابـا بـالصرع، وذات يـوم فاجأتـه زوجته (كاديج) فى إحدى النوبات وتخيلت أنه فى حالة وجد.. واستغل محمد (ﷺ) سذاجتها وأكـد لهـا أنـه يـرى الرؤيـا وأن الله يحدّثـه خلالهـا عـن طريـق الملاك جبريل، وقامت (كاديج) بنقل ذلـك إلى نسـاء أخريـات معلنـة أن زوجـها نبى، وانتشر الخـبر، وتراكمت النبـوءات مـع تراكـم الكـلام وتزايـده، فقـامت الجماهير باتباع ذلك الرجل المهم الذى أقنعهم بسخاء خياله، وقد صدر هذا العام « عام ١٧٦٧ ».

وقبـل ذلـك قـال الأب لويـس موريـرى فـى (القـاموس التـاريخى الكبـير) سنة ١٦٧٤: (محمد نبى مزيف، عربى الموطن، ولد عام ٥٧١، فقد والديـه وهـو طفل، وقام عمه أبو طالب بتربيته، ودفعه الفقـر إلى أن يخـدم عنـد أحـد التجـار العرب، وعند وفاة هذا التاجر قام بإمتاع أرملته (كاديج) لدرجة أنه تزوجـها، وأصبح وريثها الوحيد، فاستخدم أموالها فى خدمة طموحاته.. وبعد ذلك شـارك كل من باتيراس وهو هرطقى يعقوبى، والأب سرجيوس، وهو راهب نسـطورى، وعاونه بعض اليهود على تجميع قرآنه، وبذلـك أصبـح دينـه مكونـا جزئيـا مـن اليهوديـة، وجـزءا آخـر مـن أحـلام هرطقيـة واستسـهالات جنسـية لطبيعـة منحرفة.. وقامت جماعة مـن اللصوص الذيـن لا يعرفـون الله ولا الديـن باعتنـاق هذه الديانة).

والأديب الفرنسى بيير بيل كتب سنة ١٦٩٧ فى (القاموس التاريخى والنقدى قائلا عن الرسول ﷺ (إن الملاك جبريل قد علمه وصفـة (الطبيـخ) التـى تمنحـه قوة فائقة للاستمتاع بالنسـاء.. وكـان يتبـاهى بـأن وصفـة هـذا (الطبيـخ) تقـوى الكلى، وعندما أكل منها أول مرة كان من القوة بحيث هزم أربعين رجـلا، ومـرة

أخرى ضاجع أربعين امرأة دون أن يتعب).. وهذا ما قاله عالم الإنسانيات الفرنسى دومنيك بودييه فى سنة ١٦٣٢ فى كتابه (التاريخ العام للأتراك): (إن المعجزات من علامات الأنبياء.. وبما أن محمدا لم يكن بوسعه أن يقدم للناس ما يؤكد معجزاته، فقد استعان بالخدع والخرافة ليسوق أفكار شعبه الفظ الجاهل ويفرضها على كل العرب، وفى محاولة منه لاستتباب المشرع بمعجزات جديدة كان يجمع الشعب فى الميدان العام ليكون شاهدا على أن روح الله ينزل عليه، وبينما هو منساق فى اختراع الأقاصيص الجديدة، كانت هناك حمامة مدربة تطير من مكان مًا قرب منكبيه وتلتقط الحب الذى كان يضعه لها فى فتحة أذنه موهما العرب بذلك أنها كانت تملى عليه إرادة الله وكلمات شريعته).

هل يمكن أن يصدق إنسان عاقل مثل هذه الخرافات؟! ولكن ما حدث أن كثيرا من الأوربيين صدقوها ضمن الحملة على الإسلام وكتابه ونبيه.. وفى كتاب الدكتورة زينب عبد العزيز مئات من النصوص والإشارات إلى كتب ومراجع من هذا النوع منذ القرن السادس الميلادى حتى اليوم.. وحتى اللورد كرومر فى كتابه (مصر الحديثة) سنة ١٩٠٨ قال: (إن القرآن هو المسئول عن تأخر مصر فى مضمار الحضارة الحديثة). وذلك ما اتبعه المستشرق الفرنسى المشهور جاك بيرك فى ترجمته للقرآن التى صدرت عام ١٩٩٠.

والحقيقة أن ما جاء فى دراسة الدكتورة زينب عبد العزيز لترجمة جاك بيرك لمعانى القرآن إلى الفرنسية يعتبر مفاجأة للعرب وللمسلمين، لأن جاك بيرك معروف عند الباحثين العرب والمسلمين بأنه منصف للعرب وللمسلمين، حتى إنه حصل على عضوية مجمع اللغة العربية فى مصر، وهذه الترجمة استغرقت ما يزيد على عشر سنوات على حد قوله، وهو يقول: إنه أقدم على ترجمة معانى القرآن لأنه لاحظ أن كثيرا من الناس والمفكرين ينبذون الآن الصورة المادية للحياة المعاصرة، ويرفضون المجتمع الاستهلاكى، هذا المجتمع المادى المحض، ويفضلون مدينة الإسلام الروحية على المدينة المعاصرة وينادون بالعودة إليها. فكأنه أراد بهذه الترجمة الحد من هذه الموجة الآخذة فى الانتشار فى الانجذاب إلى الإسلام.

وتلخص الدكتورة زينب عبد العزيز المحاور الأساسية التى تناولها فى المقدمة ومنها :

- التشكيك فى نزول وترتيب وتجميع القرآن.
- تأثر القرآن بالشعر الجاهلى، وبالفكر اليونانى القديم.
- تأثر القرآن بمزامير داود.
- احتواء القرآن على أساطير ترى التاريخ سلسلة من الكوارث.
- فظاظة صورة الله كما هى واردة فى القرآن.
- غموض التعبير فى الأحكام مما سمح للمفسرين بحرية التصرف وكانت النتيجة أن كل مذهب غير مقبول من المذاهب الأخرى.
- تناقض الشريعة التى جاء بها القرآن مما أدى إلى ظهور الجماعات الإسلامية وإلى القول بعدم فصل الدين عن السياسة.
- ضرب العلمانية الحديثة.
- إثارة قضية خلق القرآن التى تحولت إلى فتنة بين المسلمين.
- تحريف القرآن للأساطير.
- اتهام المفسرين بإلغاء بعض الآيات أو تحريف معناها.
- وجود تشابه بين مفهوم الله فى القرآن ومفهوم الله فى الفكر اليونانى، وخاصة بارمنيدس، وتأثر القرآن بأصداء القانون المدنى وتقنين الكنيسة السورية، والأخذ من الميراث الجاهلى وميراث اليونانيين بعد أن فرض على كل منهما تعديلات استعلائية صارمة.
- إن مشكلة الإسلام اليوم الانفصال بين العقيدة ومسيرة العالم الفعلية، بل مسيرة العالم الإسلامى نفسه، فالإسلام يلجأ إلى الأصول ولا ينقلها إلى الحاضر، و (الذكى) الحقيقى هو الذى يحول الذكرى إلى مستقبل، وهى عملية خلاقة تدمج العصرية بالأصالة لمواجهة التجديدات التى يجب على كل نظام فى العالم الحالى أن يقترح الحلول المكنة لها، فالثورة

التكنولوجية والعلمية تتعدى مراحل لم تصل إليها من قبل، وانعكاسات هذه الثورة على التصرفات الفردية والجماعية، والتوحد المتزايد للكرة الأرضية والتحديات الناتجة عنه، بالإضافة إلى متطلبات جماهير العالم الثالث فى مجال الحريات، وحقوق الإنسان، والرفاهية.

جاك بيرك ترجم سورة (الإسراء) فجعلها (المسيرة الليلية) وأضاف إلى هذا العنوان عنوانا آخر هو (أو أبناء إسرائيل). وهذا - طبعا - غير وارد فى المصاحف. وترجم اسم سورة (غافر) إلى (المؤمن أو المتسامح)، وسورة (النصر) ترجمها إلى (النجدة المنتصرة). ولم يستخدم كلمة (النصر) الفرنسية أبدا رغم أنها تكررت فى القرآن ما يقرب من مائة مرة، وكأنه يأبى كتابة النصر للإسلام أو كتابة أن الإسلام انتصر. وسورة (الفتح) ترجمها بما معناه (أن كل شىء ينفتح)، وسورة (الروم) ترجمها باسم (روما) عاصمة إيطاليا! وسورة (الملك) ترجمها بكلمة تعنى (الملكية) علما بأن كلمة المُلك بمعنى ملكوت الله موجودة فى اللغة الفرنسية ومستخدمة فى العهد القديم والعهد الجديد فى الإنجيل. وسورة (التكاثر) ترجمها إلى ما معناه (التنافس عن طريق العدد).

تقول الدكتورة زينب عبد العزيز إنه لا يمكن أن تكون هذه الأخطاء صدرت عن المستشرق الكبير جاك بيرك بدون قصد فهذا مستبعد لمن كان فى مثل مكانته العلمية، والتفسير الوحيد لذلك أنه تم بسوء قصد. بدليل أنه أصر على ترجمة كلمة (الرسول) ومعناها فى القرآن النبى ﷺ فلم يستخدم كلمة النبى ليبعد عن ذهن القارئ معنى النبوة واستخدم كلمة معناها (المرسل) أو المرسال. ولم يستخدم كلمة مسجد ولها مقابل بالفرنسية معروف واستخدم كلمة تعنى جزءا من الكنيسة حول المذبح تتم فيه المراسم الطقسية. وقد تعنى مكانا مقدسا بصفة عامة، كما استخدم كلمة أخرى مشتقة من اللاتينية معناها (كنيسة صغيرة تستخدمها جماعة معينة. وبهذه المعانى ترجم (المسجد الحرام). وترجم إسراء الرسول إلى المسجد الأقصى بأنه إسراء فى لحظة من الليل إلى (النهائى) لكيلا يربط القدس بالإسلام !

وجاك بيرك يعرف اللغة العربية جيدا، بل هو ضليع في اللغة العربية، ويعرف معنى كل كلمة بمنتهى الدقة، فكيف يترجم كلمة (الألباب) إلى كلمة (النخاع) في الفرنسية وهو يعلم أن وقعها في الترجمة يثير السخرية لدى القارئ الفرنسي، ومع أن كلمة (الألباب) وردت في القرآن ست عشرة مرة إلا أنه لم يترجمها بمعناها المقصود أو المنطقي والذى يعنى (ذوى العقول) أو (ذوى الأفهام). وكيف يترجم (إن الله لا يخلف الميعاد) فلا يقول إن (الميعاد) هو وعد الله أو وعيده ولكن يترجمها بكلمة (راندفو). وحذف من سورة آل عمران في الآية قوله تعالى: (وأنزل التوراة والإنجيل) فلم يذكر هذه العبارة وتوقف عند منتصف الآية الرابعة عند قوله تعالى (وأنزل الفرقان).

أما أسلوبه في وصف الله فقد ترجم ما ورد منه في القرآن بكلمات معناها أن القرآن يشير بروعة مرعبة إلى الذعر الذى سيصيبكم أمام الحاكم (ويقصد الله) وهاهى ذى القشعريرة تسرى في أبدانكم عند مجرد ذكر اسمه. وتناول مضمون الآية (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) إلى ما معناه: (أن الله يمحو ويبدل ويؤكد النبوءات وفقا لهواه) ويترجم (لكل أجل كتاب) بما يفهم منه أن القرآن هو المقصود وأن القرآن له أجل، وينسب هذا المعنى زورا إلى أبى بكر الصديق ويضع في الهامش أن مصدره في ذلك الطبرى في المجلد ١٣ صفحة ١١١ السطر ١٤ وهو متأكد أن هذا التزوير لن يكتشفه أحد ولن يرجع أحد إلى المرجع الأصلى للتأكد منه:

وتشير الدكتورة زينب عبد العزيز إلى أن ترجمة جاك بيرك بما فيها من تحريف وتشويه وإساءة ليست الوحيدة وقد صدرت بعدها ترجمتان إلى اللغة الفرنسية، وتطالب بتشكيل لجنة لترجمة القرآن لأن هذا العمل يفوق قدرة فرد مهما يكن علمه، لأن هذا المشروع يحتاج إلى خبرات وتخصصات متعددة في اللغة والنحو، والتاريخ، والسيرة، والفقه، والأصول وغيرها..وما نقلته عما صدر من ترجمات القرآن ليس إلا قطرة من بحر.. هناك ما يفوق الحصر من الأخطاء والتشويه للقرآن والإسلام وللرسول عليه الصلاة والسلام.

وأرجو أن يتفهم القارئ أنى نقلت بعض ما قيل عن الإسلام والرسول ولم أنقل كل ما قيل، وما لم أذكره مما لا يطاق ولا يقبله ضمير المسلم، ولكن فقط أردت أن

أوجه لطمة على وجه من يقولون: بأنه ليس هناك عداء للإسلام في الغرب لعلهم يفيقون، وأردت أيضاً أن أوجه لطمة للمسئولين عن الدفاع عن الإسلام لكي يشعروا بمدى التقصير الذى ارتكبوه في حق الإسلام، ولأقول إن مئات الملايين من الدولارات التى أنفقت على هذا الجيش من العلماء ذهبت هدرا.

وأخيرا أرجو أن تتذكروا أن ناقل الكفر ليس بكافر.

مَن وراء الحملة على الإسلام ؟

فى تقرير لمعهد جوته انترناسيونس برس الألمانى أن العوامل السياسية الخفية دفعت المستشرقين الألمان والدارسين للإسلام عموما إلى اتباع الحذر فى التعامل مع الدين الإسلامى والتاريخ الإسلامى، فلم يُترجم إلى اللغة الألمانية غير عدد متواضع من الكتب العربية والإسلامية بسبب العلاقة الخاصة بين ألمانيا وإسرائيل.

ومن هذه الكتب التى يشير إليها التقرير كتاب (العالم الإسلامى) الذى يشرح دور المسلمين كقوة عظمى فى العهد العثمانى ثم أصبح المسلمون الآن مجرد فريق يتفرج على ما يحدث فى التاريخ دون أن يكون له دور فيه سوى دور هامشى، ومثل كتاب (انتقام الرب) للكاتبة الفرنسية جيل كيبل وقد ترجم إلى الألمانية، وهو يتحدث عن الجماعات الأصولية الإسلامية وخطرها.

وما يحدث فى ألمانيا يحدث فى دول أوربا، ويحدث ما هو أسوأ منه فى الولايات المتحدة.

ففى فرنسا صدر كتاب بعنوان (الإسلام فى أوربا) تأليف روبير بيتسولفى وفرنسوا زبال، يكرر أن فى الفكر الجمعى الأوربى اتجاها عاما نحو الإسلام يدخل الخوف منه فى نفوس الأوربيين، ونتيجة لذلك فإن هناك ازدواجا فى مواقف الأوربيين من الإسلام، وهذه المواقف تتراوح بين الانجذاب إلى هذا الدين من ناحية، والخوف والقلق منه من ناحية أخرى. وهذا ما أدى إلى ما تعانيه الجاليات الإسلامية فى بريطانيا من العنصرية، وإن كانت العنصرية فى بريطانيا غير منظمة، ولا توجد أحزاب أو تيارات سياسية تبلور وتجسد هذه النزعة العنصرية، كما يفعل حزب الجبهة الوطنية فى فرنسا مثلا، ومع ذلك فإن أبناء

الجاليات الإسلامية يعانون فى بريطانيا من التفرقة والتمييز بسبب انتمائهم إلى الإسلام، وهذه التفرقة وهذا التمييز دفعا المسلمين فى بريطانيا إلى الانغلاق، والتزمت، والتمسك بالتقاليد والعادات التى نشئوا عليها فى مجتمعاتهم الإسلامية الأصلية.

ويقول الكتاب إن بريطانيا عرفت العنصرية من قبل، ولكنها كانت عنصرية إزاء الملونين، أما اليوم فإن العداء فى بريطانيا قائم على أسس ثقافية دينية، ويستخلص الكتاب أن المجتمع البريطانى ذاته ليست لديه الرغبة فى أن تنصهر الجاليات الإسلامية وتذوب فيه وتصبح جزءا من نسيجه! وإن كان المسلمون لا يواجهون عقبات عندما يمارسون شعائرهم الدينية، أو عندما يعلمون أبناءهم الإسلام، أو يقيمون المساجد، على عكس ما يحدث فى هولندا، فإن المسلمين يجدون العقبات عندما يريدون ممارسة عباداتهم، سواء فى صيام رمضان، أم فى الذبح طبقا للشريعة الإسلامية، وفى الفترة الأخيرة أصبح ممنوعا عليهم إلقاء خطب الجمعة باللغة العربية بعد صدور قرار من الحكومة بأن تكون الخطبة والدروس الدينية باللغة الهولندية، وبعد أن وضعت الحكومة كاميرات تسجل بالصوت والصورة كل ما يقال داخل المساجد.

ويقول الكتاب: إن هولندا اشتدت فيها الحملة على المسلمين وظهر الخطاب المعادى للإسلام على ألسنة رجال السياسة ورجال الدين والمثقفين مستغلين ما جاء فى رواية (آيات شيطانية) لسلمان رشدى من اتهامات وطعن فى العقيدة الإسلامية وفى نبى الإسلام (ﷺ)، وتجسد ذلك فى كتاب صدر بعنوان (سقوط هولندا بلاد السذج) وهو من تأليف مؤلف أخفى اسمه واستخدم اسما مستعارا هو (محمد رسول)، وفى هذا الكتاب تخويف للشعب الهولندى من أن هولندا سوف تسقط فى أيدى المسلمين، وأن الجماعات الإسلامية المهاجرة إلى هولندا ليست إلا قنبلة موقوتة سوف تنفجر عندما تجد الفرصة. ويصف الكتاب المسلمين بأنهم مجرمون، وأن الإجرام تأصل فيهم من عقيدتهم، وهم يعانون من العقد الجنسية، ولذلك يركزون الدعوة الإسلامية على المرأة ويصورونها على أنها شيطان، وأنها منبع الشرور فى العالم ويشتدون فى القسوة عليها، والمسلمون أيضا ميالون إلى العنف، والفساد جزء لا يتجزأ من سلوكهم وتكوينهم الأخلاقى، كذلك

فإنهم يحملون فى أعماقهم كراهية لغير المسلمين ورغبة دائمة فى الاعتداء عليهم إن استطاعوا.

وفى هولندا «الحزب الشعبى للحرية والديمقراطية» تقوم مبادئـه علـى إعـلان العداء السافر للإسلام والمسلمين، وقد نظم هذا الحزب ندوة عن الإسلام والمسلمين فى الغرب تحدث فيها زعيم الحزب واشتد فى الحملة توجيه الاتهامات وإثـارة مشاعر الكراهية ضد الإسلام والمسلمين، على الرغم من أن هولندا تعطى المسـلمين الذين يحملون جنسيتها حق التصويت فى الانتخابات المحلية.

ويقول الكتاب: إن فى أسبانيا حساسية خاصة تجـاه الإسـلام والمسـلمين، فقـد عاشت تحت الحكم الإسلامى العثمانى ثمانية قرون ازدهرت فيها حضارة عظيمة انتهت بعد ذلك بسقوط غرناطة عام ١٤٩٢، وصدر بعد ذلك قـانون عـن الأجـانب فى أسبانيا فى يونيو ١٩٨٥ أعطى لليهود امتيازات خاصة لم يعطها للمسلمين.

وكذلك الحال فى إيطاليا، فقد ظل الجنوب الإيطـالى خاضعـا للحكـم الإسـلامى عدة قرون، وترك ذلك رواسب وآثـارا عدائيـة أثـرت فـى مشـاعر الإيطـاليين مـن الحكام والقادة والمثقفين، كما تـأثرت علاقـة إيطاليـا بالإسـلام بوجـود الفاتيكـان الذى ظل يناصب العداء للإسلام قرونا طويلة، كمـا تـأثرت هـذه العلاقـة بوجـود الأحزاب الشيوعية القوية التى ظلت لها الهيمنـة علـى عقـول المفكريـن والصفـوة لفترة طويلة واشتركت فى الحكم على مدى السنوات السابقة على انهيار الاتحاد السوفيتى، وهذه الأحزاب خاضعة لما فى النظرية الشيوعية والفكر الماركسـى مـن فلسفة مادية وإنكار الأديان عموما والنظرة الدونية للإسلام على وجه الخصوص، وما زال هذا التأثير المزدوج ملموسا حتى اليوم.

وفى عـام ١٩٩٨ قـررت منظمـات المسـلمين بريطانيـة مطالبـة وزيـر الداخليـة بتعديل قـانون العلاقـات العرقيـة البريطـانى الـذى يحظـر التميـيز علـى أسـاس الأصول العرقية، لكى يشمل حظر التمييز بسبب الدين أيضا، وذلك لكى يكتسب المسلمون حصانة قانونية تحميهم من التمييز ضدهـم، ولجـأت هـذه المنظمـات إلى المحكمة العليا بطلب تعديل هذا القـانون ليشـمل المسـلمين، فـأصدرت المحكمـة العليا فى ٢٧ أكتوبر ١٩٩٨ حكمها برفض هذا الطلـب، واسـتندت المحكمـة فـى أسباب حكمها إلى أن المسلمين فى بريطانيا ينتمون إلى ديانة وليـس إلى مجموعـة

عرقية، وذلك على الرغم من أن القوانين البريطانية تحمي اليهود والسيخ ولا تمتد هذه الحماية القانونية إلى المسلمين.

وكان السبب فى تحرك المجلس المحلى فى ميرتون بجنوب بريطانيا أن أحد كبار أعضاء الحزب الوطنى البريطانى العنصرى، وهو بول بالارد قد قام هو وجماعته بشن حملة ضد المسلمين بعد أن سُمح لهم بتحويل بدروم قديم إلى مسجد، وشملت هذه الحملة توزيع منشورات وتعليق ملصقات تسيء إلى المسلمين، وتعرَّض المسلمون أثناء الصلاة للإهانات وبصق عليهم أنصار بول بالارد. واعتبر الادعاء العام أن الأدلة التى قدمت إليه لا تكفى لتوجيه الاتهام إلى بالارد، خاصة أن بالارد أنكر أن الملصقات التى ضبطت فى حوزته عندما ألقى القبض عليه فى يناير ١٩٩٧ تخصه، واعترف بالارد بأن ما تعرض له المسلمون تهديد وإهانة، لكن الادعاء العام قرر أن المسلمين لا تشملهم الحماية المقررة فى قانون العلاقات العرقية، وبالتالى لا يمكن توجيه الاتهام إلى بالارد بالإساءة إلى جماعة عرقية طبقا لهذا القانون.

ومنذ سنوات والمنظمات البريطانية الإسلامية تقوم بجهود فى أوساط أعضاء مجلس العموم من أجل تعديل القانون البريطانى بحيث يتعامل مع المسلمين كما يتعامل مع اليهود والسيخ الذين يوفر لهم القانون حماية قانونية ضد التمييز والتفرقة، وتناضل هذه الجماعات لكى تقرر وزارة التعليم تدريس الدين الإسلامى للتلاميذ المسلمين فى المدارس البريطانية.

وفى ١٣ مارس ١٩٩٥ نشرت صحيفة السياسة الكويتية نقلاً عن (ميدل ايست جورنال) دراسة كتبها ب. أ. روبيرسون بعنوان (أوربا والإسلام بين اللغز والحقيقة: الإسلام يتحول فى نظر الغرب إلى حركة توسعية بعدما كان سدا أيديولوجيا قائما فى وجه الشيوعية الملحدة) قال فيه: إنه منذ أواخر السبعينات زاد التركيز فى الغرب على موضوع إمكانية تحول الإسلام إلى قوة سياسية تهدد أوربا وباقى أرجاء الغرب، وخلال هذه الفترة ساهم عدد غير قليل من الأحداث فى تسليط المزيد من الأضواء على مسألة الإسلام والمسلمين مثل الثورة الإيرانية، والحرب العراقية الإيرانية، واغتيال الرئيس المصرى أنور السادات، وعمليات اختطاف الغربيين على يد حزب الله فى لبنان، وحرب الخليج الثانية فى ١٩٩١، والمدى الذى بلغه صدام حسين فى كسب جماعات إسلامية فى الشرق الأوسط

وشمال أفريقيا، وانتهاء الحرب الباردة وزوال التهديد الشيوعي بما أحدثه من فراغ محسوس فى الشعور بالخطر عند الغرب. وعزز الاتجاه إلى الإسلام ظهور النقاش النظرى حول صدام الحضارات، واتهام الغرب للدول الإسلامية بعدم احترام حقوق الإنسان، فى حين اتهم المسلمون الغرب بأنه غارق فى المادية والانحلال مما يمثل خطرا على المجتمع الإسلامى.

ويقول التقرير: إن الشعور بالقلق المتزايد كان يكمن فى هذا الجدل، ومع ازدياد المهاجرين المسلمين إلى أوربا، وطبيعة هؤلاء المسلمين، أصبح القلق على أشده وزاد من القلق ظهور الكساد الاقتصادى فى الغرب، وقد أدت كل هذه العوامل إلى تزايد الضغوط الشعبية على الحكومات لفرض القيود على تدفق هؤلاء المهاجرين إلى أوربا.

وإزاء ذلك اتخذت حكومات أوربا والولايات المتحدة واليابان مواقف حذرة تتسم بالحساسية من الإسلام، وتزايد موقف الحذر مع السياسة الأمريكية الجديدة التى بدأ تنفيذها الرئيس جورج بوش فى التعامل مع المشكلات فى الشرق الأوسط بالتهديد بالقوة أو باستخدام القوة. وبما أن أوربا لها مصالح اقتصادية وتجارية فى الشرق الأوسط منها توريد الأسلحة، فقد توسعت فى علاقاتها التجارية والاقتصادية مع دول المنطقة، وساهم هذا التوسع فى استقرار الاقتصاد الأوربى، ولكن ذلك أدى إلى زيادة تأثير دول الشرق الأوسط على المصالح الأوربية، وتضاءلت قدرة الأوربيين على فرض إرادتهم للدفاع عن هذه المصالح.

ويتساءل التقرير: هل الخطر الإسلامى قائم فعلا، أو هو محتمل على المدى القريب أو البعيد؟ وهل هذا الخطر يتهدد أشخاصا، أو يتهدد جماعات، أو يتهدد الشعب، أو الدولة، أو يتهدد النظام الدولى؟ ويجيب بأن هذا الخطر قد يكون عائدا بجذوره إلى الصدام التاريخى بين أوربا التى كانت مسيحية وبين العرب، والعثمانيين بعدهم. أما القلق الأوربى- فى أواخر القرن العشرين- من الإسلام فإنه راجع إلى الثورة الإيرانية فى ١٩٧٩ التى أطاحت بحليف قوى للغرب كانت له أهمية استراتيجية كبيرة حين أطاحت بشاه إيران، وزاد القلق بسبب لغة الثورة الإيرانية المعادية للغرب، وهى لغة لها قاموس خاص بها جاء بمفردات جديدة مثل (الشيطان الأكبر)، وجاءت أيضا بفكر يبرر اختطاف الرهائن، والدعوة العلنية إلى تصدير الثورة، واعتبر الغرب أن هذه الثورة ترفض

القوانين والمعايير الدولية، وتتطلع إلى تغيير البنية القائمة فى الشرق الأوسط. وإن كانت طموحات هذه الثورة - بالنسبة لدول المنطقة - إذا تم تجريدها من اللغة الحماسية العدائية فإنها لن تختلف عن طموحات شاه إيران الذى كان يريد أن يجعل من إيران قوة إقليمية، غير أن الولايات المتحدة كانت ترى أن تطلعات الشاه وقدراته تتوافق مع استراتيجيتها العالمية، أما إيران الثورة فقد اعتبرتها الولايات المتحدة خطرا يتهدد النظام الإقليمى والمصالح الغربية.

ويقول التقرير: إن الغرب كان ينظر إلى الإسلام فى السابق على أنه أحد السدود الأيديولوجية فى مواجهة الشيوعية الملحدة، والآن بعد غياب الشيوعية، أصبح الغرب يعتبر الإسلام حركة توسعية، خاصة وأن الثورة الإيرانية دأبت على تطوير نزعة متشددة معادية للغرب. وفى لغة الخطابة كانت تردد أصداء لغة الخطابة للقومية العربية عندما كانت فى أوج العداء للغرب، مع اختلاف أهداف الثورة الإيرانية عن أهداف القومية العربية. وقد تعمق القلق فى الغرب من إمكانية ظهور دول إسلامية أخرى على النموذج الإيرانى، ويخشى الغرب من أن بعض الدول التى تتخذ خطا إسلاميا متشددا يمكن أن تنقلب ضد الغرب وتهدد المصالح الحيوية الأوربية والأمريكية، فضلاً عن وجود دول معينة تعتنق فكر البعث المعادى للغرب، وإن كانت فكرة البعث عن ضرورة الوحدة العربية لم تتحقق إلا مرة واحدة فى أيام دعوة عبد الناصر المحمومة للقومية العربية، إلا أن هذه الوحدة التى قامت بين مصر وسوريا لم تدم طويلا. والآن هل يستطيع الإسلام المُسَّيس أن يحقق ما استحال تحقيقه بالوحدة السياسية والاقتصادية عندما كانت أيديولوجية القومية العربية هى السائدة؟

ويقول التقرير: إن الغرب قلق أيضا لصعوبة احتواء الدول العربية والإسلامية، وإدماجها فى إطار أيديولوجية الغرب؛ وذلك لوجود قوى وضغوط فى كل مجتمع عربى وإسلامى، تمثل عقبة فى احتواء الغرب لهذه الشعوب. ويضاف إلى ذلك أن هذه الدول بدأت تسير فى طريق الاندماج فى الاقتصاد العالمى، وقد أدى ذلك إلى ظهور طبقات وشرائح من المجتمع ترتبط مصالحها بمصالح شبكة عالمية، وأصبح ذلك ملموسا فى تدفق الأموال والمنتجات، وتزايد الاتصالات وانتقال الناس والأفكار والنماذج الثقافية، وكان لابد لهذا التداخل

بين الغرب والعالم العربى والإسلامى من أن يؤثر على الثقافة والهوية والأمن فى العالم العربى والإسلامى، وأدى ذلك بدوره إلى ظهور ردود فعل دفاعية وهجومية، وأدت ردود الفعل هذه إلى تراجع على الجانبين فى الانفتاح على الآخر، وكان لذلك تأثيرات ونتائج استراتيجية واقتصادية. ويضاف إلى كل ذلك أن الحوار بين الدول العربية والإسلامية والغرب يجرى فى ظل اختلال كبير فى القوة لكل من الطرفين وعدم التوازن فى جميع المجالات عسكرياً واقتصاديا وتكنولوجيا، مما يجعل الحساسية بين الطرفين مستمرة، والشعور بأن العلاقات هشة ومعرضة لنكسات. وفى هذا السياق ظهرت الحركات الإسلامية، ونشأ فى الغرب الشعور بالخطر والتهديد من جانب الإسلام. فهل فى طبيعة الإسلام تهديد للآخرين؟ هذا السؤال لا يجد الغرب الإجابة الواضحة عنه. لأن الإسلام ليس عقيدة واحدة، وليس عقيدة ثابتة كما يبدو أمام الغربيين، فهم يرون أنه يتغير من زمن لآخر، وليس واضحا أمام الغرب وجود موقف موحد ومتجانس من الإسلام يمكن أن يؤدى إلى استراتيجية سياسية واحدة للبلاد الإسلامية أو حتى للدول العربية على الأقل!

ووسائل الإعلام فى الغرب عجزت عن إدراك المعنى الكامن فى الاختلاف والتنوع فى مفاهيم وقيم وفقه المسلمين، خاصة مع وجود جماعات من المسلمين كل منها تقدم تفسيرا وفهما مختلفاً للإسلام عما تقدمه الأخرى، مما يعنى أن المسلمين أنفسهم لا يفهمون الإسلام فهما واحدا، والاختلافات بين المسلمين تدور حول جوهر الإسلام ذاته وحول المعتقدات الإسلامية. حتى إن بعض الجماعات تحكم على غيرها بالكفر والخروج من الملة، والأمر لا يقف عند حد التعددية الدينية، ولكنه يصل إلى التعددية التشريعية والفقهية. وقد يكون الإسلام دينا ثابتا على التوحيد، ولكن توجد فى علم الفقه وعلم اللاهوت اختلافات وتفسيرات متعارضة، بينما أصبح على الفقه الإسلامى أن يتعامل مع سلسلة من القضايا والمشكلات الحديثة. وهناك مشكلة أخرى ينطوى عليها الدين الإسلامى ناتجة من تعدد الآراء والاختلافات فى التفسير بين المحافظين من ناحية، والمعتدلين فى الوسط، والمتطرفين الداعين إلى النضال ضد الطرف الآخر من المسلمين، والمواجهة بين جماعات وطوائف المسلمين ليست بسبب الأمور والقضايا الفرعية،

ولكن بسبب التعارض فى مفاهيم الدين واللاهوت والسياسة، وخصوصا ما يتعلق بالموقف من الدولة ومن الأوضاع القائمة فى المجتمع، وهذه المواجهة ظهرت وانتشرت على امتداد السنوات المائة والخمسين الماضية، مع ظهور جماعات وحركات فى العالم الإسلامى كانت ردا على الاستعمار والإمبريالية الغربية، ومقاومة للتدخل الغربى فى شئون المجتمعات الإسلامية، وكان الدافع لهذه الجماعات والحركات السعى إلى استعادة الهوية الثقافية والحضارية المميزة، والتطلع إلى تقرير المصير.

ويقول التقرير: إن هذه الحركات الإسلامية متنوعة ومختلفة فيما بينها، ولكن ما يجمع بينها هو عدم قبول أنظمة الحكم فى الدول الإسلامية التى تسير وفقا للطراز الأوربى. وقد تحولت هذه الجماعات إلى حركة دولية لها هدف عام هو استعادة الثقافة والقيم التى تحكم المجتمع وفقا لشريعة السماء، كما تتفق فى القول بأن المجتمع الإسلامى أصبح مخترقا بمؤسسات ذات أصول إمبريالية واستعمارية، وتردد أن هدف الإصلاح الدينى عندها يتمثل فى رسم حدود واضحة بين المؤسسات الحالية الموروثة عن الاستعمار، وبين المؤسسات الإسلامية كما ينبغى أن تكون فى مجتمع يستمد كل شىء من الشريعة. ولأن هذه الجماعات تعمل على إقامة مؤسسات تساعد الطبقات الدنيا فإنها تتمتع بقدر غير قليل من الجاذبية لدى بعض الفئات فى الريف والحضر.. من الأميين والمتعلمين.. خاصة فى الفترة التى أعقبت عام ١٩٦٧ فى الشرق الأوسط بعد أن تم افتضاح ضعف العالم العربى افتضاحاً صارخاً فى مواجهة أعدائه، وفى مواجهة العالم الخارجى. وازدادت شدة النقد خاصة من الطرف الإسلامى المتشدد الذى ركز هجومه على الحكومات لعدم قدرتها على حماية ثروة الأمة، وعدم وفائها بالالتزامات الإسلامية تجاه المجتمع، وأيضا بالهجوم على الحكومات الغارقة فى الفساد، والحكومات التى تطبق سياسات تتناقض مع مصالح المواطنين وفقاً لتعاليم الإسلام.

يقول التقرير: إن كل ذلك انعكس على الأوضاع السياسية فى الدول الإسلامية، وأدى إلى عدم الاستقرار، والشعور بالاخفاق، على الصعيدين الداخلى

والخارجى، وظهرت مراجعات وانقسامات داخل الحركات الإسلامية. فإن نجاح هذه الحركات فى توسيع قاعدتها فى أحد المجتمعات الإسلامية التقليدية نتيجة عوامل خاصة بهذا المجتمع أو ذاك فى العالم الإسلامى. سواء كانت عوامل عرقية، أو لغوية، أو ثقافية، أو تاريخية، أدى إلى ظهور جماعات أخرى أقل تشددًا، وظهرت خلافات وانشقاقات ناتجة عن الصراع من الجماعات حول قضايا التحديث ومدى إفسادها للنموذج الإسلامى. فهناك جماعات تفضل العمل وفق برنامج قائم على التحديث ضاربة عرض الحائط بالقيم التقليدية الموروثة، وتتعامل - لذلك - مع الجماهير بمستوى معرفى مختلف، ويكتفى بأن تكون لها قاعدة جماهيرية ضيقة، وهذه الجماعات هى التى فضلت الخيار الصعب، وتقبلت أن تدخل فى مواجهة مع المنظمات والجماعات الإسلامية الأخرى التى تطرح دعوة جذابة لجماهير أوسع إلى المفاهيم التقليدية للدين، وللقيم الثقافية والاجتماعية، وللعلاقات السياسية، ونظام الحكم، وأدى هذا الاختلاف الجوهرى إلى مأزق واجهته الجماعات الإسلامية على اختلافها. نتيجة التعارض فى فهم العقيدة والطقوس الدينية والعبادات، وأيضا بسبب التناقض بين رؤية كل منهما للاستراتيجية والتكتيكات لنشر الرسالة.

ويضيف التقرير أن هناك سمة أخرى من سمات الإسلام تدل على التعقيد الذى يعوق وحدة المسلمين، وهى عدم وجود نص يحدد جهة أو فئة أو طبقة معتمدة توضح للمسلمين ما تريده الشريعة وما يريده الله منهم على وجه التحديد وبما لا خلاف عليه، وهذا ما أشار إليه رايموند بيكر فى كتابه (الخوف من الإسلام)، فالمسلم يقيم علاقته بالله مباشرة، دون أن يكون ملزما باتباع رجل دين معين، أو مؤسسة دينية معينة، وقد أدى ذلك إلى أن كل مؤمن بالإسلام يستطيع إقامة علاقة مباشرة مع الله ويكون هو عالم اللاهوت، ومفسر الشريعة لنفسه، وهذا المنطق يعتمده كثير من المسلمين، وبالتالى فليس هناك أى تنظيم للدعوة، ويستطيع أى شخص عادى أن يعتلى المنبر ويعظ الناس بما يراه، ويستطيع أى شخص أن يفسر الشريعة لنفسه وللآخرين، ويستطيع أى شخص أن يدعو إلى تكوين جماعة تتبعه وتتبع تفسيراته الخاصة. ونتيجة لذلك فإن الحكومات فى

الدول الإسلامية تجد صعوبة فى الرقابة على المتحدثين والعاملين باسم الدين الإسلامى، وإن كانت الحكومات تقوم بتعيين رجال الدين وتحاول رقابة ما يقال فى المساجد إلا أن الظاهرة التى تعرف باسم (الإسلام غير الرسمى) تطفو على السطح، ويشدد قطاع الإسلام غير الرسمى الهجوم على رجال (الإسلام الحكومى) ويتهمونهم أمام الناس بالتقاعس عن حماية الدين كما ذكر باتريك جافنى فى دراسته عن (الإسلام الشعبى) المنشورة فى حوليات الأكاديمية الأمريكية للعلوم السياسية والاجتماعية عام ١٩٩٢.

يقول التقرير: إن المشكلة فى العالم الإسلامى أن الحركات والروابط الإسلامية مستقلة، ترفض رجال الدين، وترفض المؤسسات الدينية، وترفض تدخل الحكومة، كما أن الحكومات لا تستطيع التحكم فى آراء ومعتقدات رجال الدين الرسمى وغير الرسمى، وليس أمام الحكومات إلا فرض قيود على عدد من الجماعات الإسلامية، وسد طرق العمل السياسى أمامها.

وهذا التقرير يحتاج إلى إعادة قراءة لأن ما وراء السطور هو الأهم، وسوف نجد نقاطا كثيرة تحتاج إلى الرد والتصحيح.. ولكن من الذى قرأ..؟ ومن الذى اهتم بالرد..؟ ولمن يتوجه بالخطاب لتصحيح المفاهيم الخاطئة؟.. هل يتوجه إلى المسلمين؟، أو يتوجه إلى من يؤمنون وينشرون هذه المفاهيم فى الغرب..؟

ومن الذى فكر فى الوصول إلى إجابة عن هذه الأسئلة تؤدى إلى عمل لتصحيح الكثير من المفاهيم الخاطئة عن الإسلام والمسلمين؟

وتبدو الأصابع الصهيونية وراء كثير مما ينشر فى الصحافة الأمريكية، لتخويف الأمريكيين والغربيين عموما من الإسلام. ومثال ذلك المقال الذى نشر فى مجلة نيوزويك الأمريكية فى مايو ١٩٩٥ بعنوان (هل يمكن لأوربا أن تتغلب على الكراهية والتعصب وتعيش فى سلام مع المسلمين المهاجرين؟) ويسعى المقال إلى إقناع قارئه باستحالة التغلب على مشاعر الكراهية والتعصب ضد الإسلام فى أوربا، واستحالة التعايش السلمى بين الأوربيين والمهاجرين المسلمين. ويبدأ المقال بإشارة لها تأثيرها النفسى على القارئ الغربى المسيحى فيقول: إنه توجد كنيسة صغيرة فى زاوية فى أحد شوارع ايست اند فى لندن يرجع تاريخ إنشائها

إلى عام ١٧٤٣، وعلى مدى تاريخها استخدمت للصلاة لطوائف مسيحية مختلفة. وفى وقت من الأوقات كانت كنيساً يهودياً، أما اليوم فقد تحولت إلى مسجد للمسلمين، وتبدو الكنائس المجاورة خالية من المصلين. وعلى واجهته وضعت لافتة تدعو إلى إحياء الخلافة الإسلامية. وفى بعض الزوايا فى باريس ظهرت أيضا عملية الإحياء للإسلام فى أوربا، ففى حى يدعى (نقطة الذهب) فى مونمارتر حيث تتلألأ كاتدرائية القلب المقدس، تجمع مئات المسلمين فى مستودع تم تحويله إلى مسجد للاستماع إلى شيخ يبلغ من العمر الثانية والثمانين. وفى سياق خطبته قال: (إن المستقبل فى يد الله)، ويقصد بذلك أن المستقبل فى أوربا سيكون للإسلام، وهذه رسالة لم يكن أحد يتوقع سماعها فى قلب أوربا.

ويقول الكاتب الصهيونى فى نيوزويك: لقد جاء المهاجرون المسلمون إلى دول أوربا ليقيموا فيها، وقد ارتفعت المآذن فوق مدريد وإيطاليا وغيرها، وذلك بعد مرور أكثر من ١٢٥٠ عاماً على نجاح القائد الفرنسى شارل مارتل فى صد المسلمين عندما كانت جيوشهم على أبواب (بواتييه) و(تور)، واليوم أصبحت أوربا من جديد ميداناً لنشاط الإسلام، كما يقول عالم السكان الفرنسى جان كلود تشيسنيه.

ويقول: إن الكثير من مفاهيم الغرب عن الإسلام مصدرها ما يحدث فى العالم الإسلامى من اضطرابات سياسية وأحداث مرعبة، والصراع الأوربى مع المسلمين فى البوسنة حيث المسلمون هم الضحايا، وزاد من نذر الشر الإسلامى على أوربا التطرف الإسلامى فى شمال أفريقيا وشبه القارة الهندية، وفتوى الخومينى بإهدار دم سلمان رشدى بسبب ما فى كتابه (آيات شيطانية) من تجديف، وأضيف إلى ذلك إعلان سكرتير عام حلف شمال الأطلنطي ويلى كلايس، وكذلك إعلان ستيلا ويمنجتون من المخابرات البريطانية بأن (الإسلام هو الخطر الجغرافى- السياسى فى المستقبل). ونتيجة لذلك أصبح المسلمون هدفا مفضلا للهجمات العنصرية من تيار الفاشية الجديدة والساسة اليمينيون، وهؤلاء تتزايد أعدادهم مع ترنح الاقتصاد الأوربى. وفى الوقت نفسه فإن الإسلام يؤثر الآن فى الحياة اليومية فى أوربا بوسائل لا حصر لها، ويمتد تأثيره إلى كل شىء تقريبا من الأدب، إلى الثقافة الشعبية، وحتى الأزياء. وتتضاعف فى أوربا المساجد

والمدارس الإسلامية، وظهرت محلات بيع اللحم والمخابز الإسلامية فى كثير من المدن الأوربية الكبيرة، حتى إن العالم الفرنسى جيل كيبل مؤلف كتاب (من الله إلى الغرب) وكتب أخرى عن الأصولية الإسلامية قال: إن أوربا فى الإسلام اليوم، والإسلام فى أوربا، أى إن وجود الإسلام أصبح حقيقة فى الحياة الأوربية. وقد أراد د. تشيسنيه إثارة مشاعر الغربيين ضد الإسلام فقال: إن أعداد المسلمين أصبحت تفوق أعداد اليهود والبروتستانت فى دول أوربا ذات الأغلبية الكاثوليكية مثل بلجيكا، وفرنسا، وإيطاليا، وأسبانيا، وفى المحصلة النهائية فإن المسلمين فى أوربا يزيد عددهم على عشرة ملايين، وهناك المزيد فى الطريق، ونتيجة انخفاض معدلات المواليد فى أوربا وزيادة متوسط الأعمار فإن أوربا تعتمد على المهاجرين؛ لأنهم عمالة رخيصة وتمثل دعماً لنظام الرعاية الاجتماعية فيها، ولأنهم أقرب مورد للعمالة المهاجرة لدول أوربا - فيما عدا ألمانيا - فى البلاد الإسلامية المجاورة لأوربا. حتى إن فرنسا تتوقع أن يزيد عدد سكانها من العرب والمسلمين على ستة ملايين وربما ثمانية ملايين خلال السنوات الخمس عشرة القادمة، أى ما يزيد على ١٠٪ من عدد سكان فرنسا المتوقع فى ذلك الوقت. ويقول تشيسنيه: إن أوربا عقيمة ولكنها غنية، والعالم العربى والإسلامى فقير ومزدحم بالسكان. ولكن مسلمى أوربا أبعد ما يكونون عن الوحدة، فهم ينحدرون من بلاد وأعراق وطوائف مختلفة، وإن كان بعضهم يمارس الشعائر الدينية بحماس، إلا أن الكثيرين إما غير واثقين من أنفسهم وإمّا غير متمسكين بالدين، ومع ذلك فهناك نوع من الوحدة بينهم بسبب العجرفة والتجاهل اللذين يحيطان بهم. وفى استطلاع للرأى أجرى فى فرنسا فى عام ١٩٩٤ قال غير المسلمين فى فرنسا إن فكرتهم عن الإسلام تتلخص فى: التعصب أولا، والخنوع ثانيا، ورفض القيم الغربية ثالثا.

ويقول: إن أى مسلم يشعر فى هذه الأيام منذ اللحظة الأولى التى يدخل فيها أوربا بالتوتر، حيث ينظر إلى المهاجرين ذوى البشرة الداكنة نظرة فيها الكراهية والرفض. ويعانى المسلمون المهاجرون من الغضب نتيجة البطالة، وهناك اضطرابات حدثت فى فرنسا وبلجيكا نتيجة شعور المسلمين بالظلم، ويكررون الشكوى من مطاردة البوليس لهم. وفى نفس الوقت ازدادت المخاوف

فى نفوس الأوربيين من الإسلام الذى يبدو أمامهم وكأنه استعاد قوته، وأدى ذلك إلى وجود مناخ من التوتر، كما أدى إلى تبادل عدم الفهم، وإحياء التاريخ الطويل من الحملات الصليبية، وحملات الجهاد، والثورات القومية العربية، إلى الإرهاب والإرهاب المضاد، بحيث يبدو من المستحيل كسر أو تغيير هذا القالب. وتفسر كارين ارمسترونج مؤلفة كتاب (الحروب المقدسة) وكتاب (تاريخ الله) مشاعر الغرب تجاه المسلمين فتقول: (إن كراهيتنا للمسلمين فى أوربا تعود إلى حقبة الحروب الصليبية، وقد تطورت فى الوقت نفسه إلى جانب معاداة السامية).

والأمر الآن فى أوربا يختلف عما كان عليه يوم كانت أوربا فى أمس الحاجة إلى العمالة الرخيصة من المهاجرين المسلمين، فقد كانت هناك مثلا معاهدات هجرة خاصة بين بلجيكا وكل من المغرب وتركيا منذ عام ١٩٦٤ حتى عام ١٩٧٤، وتمت بمقتضاها دعوة المهاجرين المسلمين للقدوم مع عائلاتهم للعيش فى بلجيكا ليحلوا مكان الإيطاليين والأسبان واليونانيين والبرتغاليين الذين أصبحت أجورهم عالية، وكان قدوم المهاجرين المسلمين مرغوبا فيه لأنه يحقق فائدة للاقتصاد فى بلجيكا، وقد شجعتهم الحكومة على إنجاب الأطفال لتعويض النقص فى السكان، وكانت الحكومة البلجيكية تعرض على المهاجرين المسلمين القادمين عليها نشرات دعائية لإغرائهم بالإقامة فى مدن جديدة خضراء فيها وسائل الراحة، ويتوافر فيها الشراء بالأجل، وجاء المهاجرون المسلمون، وأنجبوا أطفالهم، وبعد سنوات بدأ الحديث فى بلجيكا عن مشكلة الهجرة!

وينقل مقال نيوزويك عن البروفيسور الفرنسى أوليفيه روى قوله: بأن ما يزعج الأوربيين تجاه الإسلام أنه يبدو من المستحيل فهمه واستيعابه، وليس هناك نتيجة للرفض الأوربى للمسلمين المقيمين فى أوربا سوى زيادة الغضب فى نفوسهم.

ويشرح المقال حال المسلمين المهاجرين فى أوربا، ويضرب مثالا بما يحدث فى ألمانيا منذ أوائل التسعينات عندما بدأ المجتمع الألمانى يظهر كراهيته للمهاجرين والأجانب وللمسلمين منهم بصفة خاصة، وبدأ التراجع فى سياسة

الهجرة، وتحول المهاجرون واللاجئون إلى ضحايا، بعد أن أغلق المجتمع الألمانى الأبواب فى وجوههم، وأصبحوا هدفا سهلا لهجمات اليمين، وجاء رد الفعل من جانب المهاجرين الأتراك المسلمين بظهور عصابات من الشباب يقومون بضرب كل من يشتبهون فى أنه من النازيين الجدد، وبعد ذلك تحول كثير من الشبان الأتراك إلى الجماعات الإسلامية بحثا عن الدعم والمساندة لديها. ولكن الأتراك فى ألمانيا انقسموا بعد أن قام الجيش التركى بالحرب ضد الأكراد فى جنوب شرق تركيا، وعمل الأتراك الأكراد على الرد على هجمات الجيش التركى بالقيام بهجمات على البنوك ووكالات السفر والمؤسسات الثقافية التركية فى ألمانيا، وبدأ الانقسام بين الأتراك ينمو فى الداخل والخارج تبعا للانتماء العرقى، حيث يعيش الجانب الأكبر من الأتراك فى ألمانيا حياة يغلب عليها الدين، وينسحبون من المجتمع الألمانى، ويعيشون فى أحياء خاصة بهم، ولا يتعلمون اللغة الألمانية، وهذه الجماعات هى التى يسهل على الجماعات الدينية المتطرفة الوصول إليها والتأثير فيها.

وفى هذا المقال تحليل لأسباب ظهور الجماعات الإسلامية المتطرفة فى ألمانيا وغيرها من دول أوربا فيقول: إن الصراع الاجتماعى لا يمثل غير سبب واحد ضمن أسباب أخرى عديدة، فالإسلام يزدهر فى أوربا فى الوقت الراهن كعقيدة، بينما لا تزال المسيحية ضعيفة، وفى نفس الوقت سقطت الشيوعية وأصبحت مكروهة ومشوهة. وكذلك فإن الفاشية الجديدة التى ظهرت فى ألمانيا وفرنسا وغيرها من دول أوربا ليست إلا تعبيرا بدائيا عن كراهية ورفض لما وصل إليه الغرب، وبذلك أصبح الغرب يعيش مرحلة ليس فيها أيديولوجية قوية تستقطب الاهتمام. وبعد أن انتهى الخصم الأكبر للغرب فإنه يبحث عن الخصوم.. من هم؟، وأين هم؟ لذلك نجد البريطانيين بعد انهيار الاتحاد السوفييتى أكثر حساسية تجاه المسلمين والشخصية الإسلامية دون غيرها من المهاجرين إليها. وتعبيراً عن حالة بريطانيا فى هذه المرحلة قالت كارين ارمسترونج: إن الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفييتى انتهت، ويوشك أن يكون الإسلام هو البديل على الصعيد النفسى ليصبح هو الخصم للغرب وتكون الحرب الباردة من الغرب ضد الإسلام!

وهذا يفسر ما حدث فى عام ١٩٩٠ عندما قام النازيون الجدد بإلقاء رءوس الخنازير داخل القاعة الأمامية فى المسجد المعروف فى الجزء الشرقى من لندن. كما ألقوا فى المسجد أجزاء من لحم الخنزير لأنهم يعلمون أن المسلمين يعتبرون أن لحم الخنزير (نجس) ومع ذلك لم تبلغ إدارة المسجد عما حدث وقررت عدم إثارة الموضوع فى الصحافة، وقال نائب مدير المسجد: إن هؤلاء العنصريين يريدون الشهرة، وسوف نحرمهم منها. إلا أن حادثة أخرى وقعت ولم يتمكن أحد من إخفائها، وذلك فى عام ١٩٩٢ حين أشعل أحد الأشخاص النار فى قاعة المؤتمرات فى المسجد فاحترق أثاثها، ولم يمنع وقوع كارثة محققة سوى الاستجابة السريعة من جانب أجهزة الإطفاء فى لندن.

وفى هذا السياق كتب توماس فريدمان مقالا فى صحيفة (نيويورك تايمز) عدد ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٢ بعنوان (على المسلمين نزع فتيل القنبلة المقدسة) ، أشار فيه إلى بعض عمليات التفجير التى يقتل فيها الفلسطينيون عددا من المدنيين الإسرائيليين، دون أن يشير إلى عدد الحوادث التى قامت فيها سلطات الاحتلال الإسرائيلى بقتل المدنيين الفلسطينيين وفيهم أطفال ونساء وشيوخ.

والمقال فى صورة خطاب من الرئيس الأمريكى جورج بوش إلى قادة العالم الإسلامى يقول فيه على لسان بوش: دعونى أكن صريحا، إننى أزداد قلقا من أن نكون فى طريقنا نحو حرب بين الحضارات، هل تعلمون عدد الجماعات التى اعتنقت الدين الإسلامى حديثا فى أمريكا؟.. إنهم كثيرون وليست لدينا مشكلة فى ذلك، وهكذا نحن، ولكن من أنتم؟، ويقول أيضا: إننى أعرف أن جنودا إسرائيليين قتلوا عشرات الأطفال الفلسطينيين أثناء الانتفاضة، وهذا أمر مخز، ولكننى لم أسمع الجنرالات أو الحاخامات يشكرون الرب لأن أبناءهم قتلوا الأطفال المسلمين، إن الجنود الذين يطلقون النار على الأطفال مخطئون، والعمليات الانتحارية الفلسطينية أيضا خطأ، ولا يوجد إله يبارك أيا منهما.

ويذكر فريدمان حوادث إرهابية اتهم بارتكابها إسلاميون، ويعلق على ذلك على لسان الرئيس بوش فيقول: لعلكم تفهمون الآن لماذا يتم أخذ بصمات الأصابع لكل من يقيم فى أمريكا من الدول العربية.. وأنتم تقولون إن ذلك يحدث لأننا نساند إسرائيل، وأنا أعلم أننا يجب أن نعمل المزيد للوصول إلى السلام، ولكننى

لا أعتقد أن الممرضة الأمريكية التى قتلها مسلم، أو القنبلة التى فجرها مسلمون فى جزيرة بالى الأندونيسية كانت لأننا نساند إسرائيل، وأنا أعتقد أن ما يحدث له علاقة بظهور الإسلام المتشدد بينكم، وهو ليس رد فعل لإسرائيل، ولكنه رد فعل لنظم الحكم الفاشلة، وثروة البترول المبددة، والايديولوجيات المحطمة (الناصرية) وجيل من الأوتوقراطية، والأمية، مسلح، وغاضب، وهذا ما أدى إلى ظهور هذا التعصب القاسى الذى يكره حتى المسلمين المعتدلين. ولكن القيم التى ينشرها هذا الجيل من المسلمين المتعصبين ستؤدى إلى الدمار لكم كما ستؤدى إلى الصراع معنا. كما كتب برينك ليند ساى الباحث فى معهد (كاتو) فى بحثه فى مجلة (ناشيونال ريفيو) يقول: (لا توجد عقيدة تجعل من حفظ النصوص القديمة عن ظهر قلب بدون فهم، وكبت الأسئلة حولها، ومنع نقدها أو إظهار الاستياء منها، واستعباد المرأة، والإذعان الذليل للسلطة، يمكن أن تكون الوصفة لتحقيق أى شىء غير الانحدار الحضارى).

ثم يقول على لسان الرئيس بوش : (إن الذين يعتنقون الإسلام المعتدل سلبيون. بينما يجب أن نحارب هذا التشدد القاسى، ونحن أيضا عندنا متعصبون متشددون، ولكنى أبعدت نفسى علانية عن هؤلاء المسيحيين الذين يشوهون سمعة الإسلام، وترفضهم الأغلبية المعتدلة ووسائل الإعلام عندنا باستمرار، وهم ليست لهم الهيمنة على مجتمعنا، نحن عندنا حرب أهلية ضد التشدد. والآن فإننى أطالبكم بأن تكون لديكم حربكم أيضاً ضد التشدد. ولا تقولوا إنكم لا تستطيعون؛ ففى إيران خرج الطلبة الشجعان فى مظاهرات المواجهة والتحدى للمتشددين المتطرفين فى مجتمعهم معرضين حياتهم للخطر من أجل محاربة الذين يريدون العودة بالإسلام وبدولتهم إلى العصور المظلمة.. وإذا لم تكن عندكم حرب داخل حضارتكم فسوف تكون هناك الحرب بين حضارتكم وحضارتنا، دعونا إذن نخصص العام القادم لمحاربة التشدد فى الداخل حتى يمكن الحفاظ على العلاقات بيننا.

وما فى هذا المقال من مغالطات لا تخفى على فطنة القارئ.. فإرهاب الدولة الإسرائيلية ليس إرهابا، ومقاومة الاحتلال هى التى تعتبر عندهم إرهابا. وفى أمريكا متشددون ولكن الأغلبية لا تؤيدهم. فلماذا لا يرى ما فى العالم الإسلامى

من رفض الأغلبية المعتدلة للمتشددين، ورفض الإرهاب باسم الإسلام . وإدانة كل أعمال الإرهاب؟ والابتعاد عن الذين يشوهون الإسلام دليل كاف على أن العداء للإسلام انتهى، بينما الواقع أن جميع القادة والمفكرين والسياسيين والمثقفين، وعامة المسلمين، يبتعدون عن المتشددين ويتبرءون منهم ويدينون أعمالهم فلماذا لا يكون ذلك كافيا لاقناع السيد توماس فريدمان بأنه منحاز. ويرى السيئات حسنات لأنها ترضيه، بينما لا يرى الحسنات على الجانب الآخر فى العالم الإسلامى!!

ولكنه أحد الصناع المهرة للعداء ضد الإسلام والمسلمين والدوافع معروفة.

وبالنسبة للصحف الشعبية فى بريطانيا فإن الإسلام ليس خطراً فقط. بل إن هذه الصحف تتحدث عنه على أنه (دين بدائى)!! ولذلك كانت تغطية هذه الصحف لزواج نجم الكريكت الباكستانى عمران خان تمثل خير دليل على ذلك؛ إذ حذّر المعلقون فى هذه الصحف من أن زوجته التى اعتنقت الإسلام (جمايما جولد سميث) ستعيش حياة من القهر وراء الحجاب، وستعانى من اضطهاد أشقاء وشقيقات زوجها، على أساس أن المرأة فى المجتمع الإسلامى تعيش حياة ذليلة، تعانى فيها من القهر والقسوة وسوء المعاملة..

فإذا كانت هذه هى نظرة المجتمع الغربى للإسلام والمسلمين فكيف يتعامل الغرب مع العدد المتزايد من المسلمين ضمن سكان أمريكا ودول أوربا جميعا..؟

لقد تغيرت نظرة المجتمع الغربى إلى الإسلام والمسلمين، وأصبحت الدول الغربية تعلن الضيق بوجود المسلمين فيها، وعبر عن ذلك هيلموت كول حين كان مستشارا لألمانيا بقوله: (إن ألمانيا ليست بلد هجرة) وردَّد معظم الساسة الألمان مثل هذا القول بصيغ مختلفة، ومع ذلك فإن وجود المسلمين فى أوربا أصبح حقيقة واقعة، فقد اندمج الأتراك المسلمون فى المجتمع الألمانى وأنشئوا نحو ٣٧ ألف شركة ومؤسسة تستخدم نحو ١٣٥ ألف عامل ويمثل العمال الألمان ١٥٪ فيها، واستقر المهاجرون الأتراك المسلمون فى ألمانيا وأنجبوا وكبر أبناؤهم وظهر الجيل الثالث، وبعضهم يتحدث الألمانية، ومع كل ذلك فإن المسلمين الذين أصبحوا مواطنين ألمانا لا يزيدون على ٤٪ فقط، حتى مع دعوة حزب الخضر إلى سياسة ليبرالية مع الأقلية المسلمة.

وبالمقارنة فإن ٧٥٪ من مسلمي بريطانيا مواطنون بريطانيون، لكنهم لم يحصلوا على الجنسية حتى يمكن اعتبارهم مثل سكان ويلز أو اسكوتلاندا، ولكن يعتبرهم القانون البريطاني مجموعات مثلهم مثل السود، والهنود، وينظر إليهم البريطانيون كمجموعة وليس كأفراد. ومن حين لآخر تصدر عن الحكومة البريطانية إشارات مطمئنة للمسلمين تخفف عنهم ما يذوقونه من تمييز، وأدت هذه السياسة الحكومية إلى تحقيق نجاح ملحوظ خفف من السخط السياسي والتعصب والحماس الديني، ومع ذلك فلم يستفد المسلمون من هذا الوضع في بريطانيا. وحتي الآن لا توجد مؤسسة أو منظمة واحدة تتحدث باسم المسلمين في بريطانيا جميعا، ولكن الأمر كما قال الدكتور زكي بدوي إمام مسجد لندن الكبير: (إن أي شخص يقف ويدعي أنه يتحدث نيابة عن اثنين أو عشرة من المسلمين وليس هناك من يتحدث نيابة عن كل المسلمين) ومعنى ذلك أن ما بين المسلمين عقيدة مشتركة وليس ثقافة مشتركة، وفضلا عن ذلك فإن كثيراً من المسلمين يعيشون في بريطانيا كما لو كانوا ما زالوا يعيشون في قراهم التي هاجروا منها!

ولا تمثل الثقافة المشتركة مشكلة بالنسبة للمهاجرين المسلمين في فرنسا، لأن الفرنسيين يفرضون ثقافتهم فرضاً على كل من يعيش في فرنسا، والجانب الأكبر من الجدل العام حول المجموعات الإسلامية يظهر في شكل خطابي مناهض للمهاجرين، على الرغم من أن الموقف الرسمي المعلن للحكومة الفرنسية هو عدم التفرقة بسبب الدين واللون، والقول بأن فرنسا تعيش على أساس أن فكرة (الأقليات) غير مقبولة بموجب الدستور. ومع ذلك فإن المهاجرين المسلمين في فرنسا يواجهون المتاعب من المعاملة القائمة على التمييز، ويظهر ذلك من حين لآخر كما حدث عندما منعت التلميذات المحجبات من دخول المدارس الفرنسية، ويقول (أوليفييه دوى) مؤلف كتاب (فشل الإسلام السياسي): إن الجدل حول الحجاب مرتبط بقضية دقيقة وحساسة أخرى تتعلق بنظام الزواج، ففي الإسلام يتزوج الرجل بأكثر من زوجة مسلمة في وقت واحد. ويحرم الإسلام على المرأة المسلمة أن تتزوج رجلا غير مسلم، ومع ذلك فإن ٢٠٪ من النساء المسلمات في فرنسا تزوجن رجالا من غير المسلمين، وهذا ما يسبب صدمة عميقة لعائلاتهن،

ومع كل جيل جديد تزداد الأعداد أكثر..!. ومثل هذه الأوضاع لا تسر أمثال الشيخ عبد الباقى صحراوى (٨٢ سنة) الذى كان يقف إماما فى المسجد بعد صلاة الجمعة ليقول للمصلين: (يعتقد الفرنسيون أن عليهم أن يدمجوا المسلمين فى مجتمعهم ليصبحوا فرنسيين ويتخلوا عن كل ما يمثلونه ويمتلكونه من قيم ومبادئ، بل ويتخلوا عن الإسلام ذاته، فعليك أن تشرب الخمر وإلا فلن تصبح فرنسياً. وإذا ما تمكن أمثال هذا الشيخ من فرض آرائهم فلن يستوعب المجتمع الفرنسى المسلمين! وكان الشيخ وأنصاره يواجهون هذا القول بالرفض والرد بإصرار (إذا أردت للإسلام أن ينمو ويكبر، فيجب أن يكون فى فرنسا مسلمون حقيقيون يمكن أن يصبحوا قوة).

وينتهى مقال نيوزويك إلى أن الخطوط مرسومة، والحواجز موضوعة، وسيكون حل الصراع صعباً، إذ تعيش ثقافتان متعاديتان على أرض أوربا وامتدت إلى أمريكا، تكره كل منهما الأخرى على مدى أكثر من ألف عام على هذه الأرض، وإذا لم يتم العثور على وسائل لتقريب الثقافتين، لبناء مستقبل مشترك على هذا الماضى المنقسم، فقد تواجه أوربا وأمريكا سنوات لا حصر لها من الاضطراب.

هكذا يشعلون فتيل الكراهية للإسلام والمسلمين بدهاء وذكاء شديدين، وما عليك سوى العودة إلى قراءة ما وراء سطور مقال نيوزويك لترى كيف يثيرون مشاعر الأوربيين والأمريكيين على الإسلام والمسلمين..؟

هل الصهيونية وراء هذه الحملة الشديدة للاضطهاد والكراهية..؟

هذا سؤال يحتاج إلى أكثر من دليل لتصديق الإجابة عنه.

ولقد قيل كثيرا: إن الصهيونية كانت وراء فوز الكاتب نايبول البريطانى الجنسية بجائزة نوبل فى الأدب لعام ٢٠٠١ وهو أصلا من ترينداد، وقد أثار فوزه بهذه الجائزة العالمية الكبرى ردود فعل شديدة فى العالم، حتى فى السويد عاصمة جائزة نوبل، فقد استقبلت صحافتها ذلك بتحفظ شديد، وهاجم النقاد الأكاديميون فى السويد لجنة جائزة نوبل لمنحها الجائزة لهذا الكاتب المتعصب الكاره للإسلام، وقالت: إن ميوله العنصرية معلنة، وعداءه للإسلام صريح فى كتاباته، أما فى بريطانيا التى عاش فيها الكاتب ٥٢ عاما، فقد نشرت مقتطفات

من كتاباته التى يتهجم فيها على الإسلام. وعبر بعض الكتّاب السويديين عن سعادتهم لفوز نايبول لأنه مثير للَجدل، وأشادوا بقدرته على التعبير عن (المقهورين)، مبررين مواقفه المعادية للإسلام. فى رواية (وصف حياة) يقول نايبول: (إن اعتناق الإسلام يعنى أن تمسح تاريخك، وأن تسحق بالأقدام ثقافة الأجداد، وأن تردد ما يقوله المسلمون من أن هذه الثقافة لا وجود لها) وقد علق أحد النقاد السويديين على مثل هذه الأقوال لنايبول فقال: لهذا السبب منحت الأكاديمية السويدية الجائزة إلى هذا الرجل الذى يشهر علنا ازدراءه للإسلام. وهو بكتاباته يضع الأمور على حافة هاوية.. وجاءت إليه الجائزة بعد شهر واحد من هجمات سبتمبر فى نيويوركٍ وواشنطن، والمسلمون مطاردون فى جميع أنحاء العالم، فجاء أدب نايبول متوافقاً مع نظام الرئيس الأمريكى جورج بوش، وجهاز المخابرات الأمريكية، والدعاية السياسية الأمريكية وقالت الكاتبة لينا بورديبو فى صحيفة (داجيتس نيهيتر) السويدية واسعة الانتشار: إن فى. اس. نايبول اثار الجدل الواسع للكتابات التى ساوى فيهاٍ بين الإسلام والاستعمار حتى إن واحدا من أكبر أصدقائه على مدى ثلاثين عاماً هو الكاتب باول ثيروكس أصبح من ألد أعدائه.

وفى لندن نشرت صحيفة (الجارديان) الصادرة يوم ١٢ أكتوبر ٢٠٠١ مقتطفات من كتابات نايبول التى يهاجم فيها الإسلام، وعلقت بأنه فى الوقت الذى ينزلق فيه العالم إلى حافة الحرب، عبر نايبول عن أفكاره حول تأثير الإسلام بقوله: إن الإسلام يملك تأثيراً ضاراً على الناس الذين يعتنقونه، لأن المطلوب من المسلمين أسوأ بكثير من إلغاء الشخصية القومية الذى كان يسعى إليها الاستعمار القديم.

هكذا تعددت التعليقات التى تقول: إن حصول نايبول على جائزة نوبل فى الأدب يأتى فى إطار الحملة التى يقوم بها الغرب على الإسلام، والتى ازدادت قوة وشراسة بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. واتفق النقاد الغربيون أنفسهم على أن نايبول مشهور بكتاباته ضد الإسلام وباتجاهاته العنصرية المتشددة، وأن حصوله على نوبل يدعم الشكوك حول الجائزة ومن يقومون باختيار من يستحقونها، لأن كتابات نايبول تؤكد على أن الإسلام مثل البوذية والهندوسية،

ويقول عن الإسلام: إنه دين وثنى، وإنه دين سطحى. ومنح الجائزة لهذا الكاتب بالذات ليس إلا دعما للهجمة الشرسة على الإسلام بالسلاح والفكر.

وهكذا فإن جائزة نوبل كانت تمنح لمن يوجهون السهام ضد الاتحاد السوفييتى ضمن الحملة عليه أثناء الحرب الباردة، كما منحت لأنصار إسرائيل من مختلف الأجناس والجنسيات، وأخيراً هاهى ذى تمنح لمن يوجهون السهام للإسلام ضمن الحملة عليه فى الحرب الجديدة عليه. ولم يعد أحد يفكر أن نوبل تمنح لأسباب سياسية وليس فقط لأسباب موضوعية محايدة، وربما لهذا السبب لم يبد كاتبنا العظيم نجيب محفوظ احتفالا كبيراً بجائزة نوبل حين جاءت إليه.

ولكن فوز نايبول بالجائزة كان رسالة لكبار المبدعين والكتّاب فى العالم: من أراد أن يحصل على نوبل منذ الآن فلا يكفى أن يكون عبقريا ولكن يجب أن يكون عدوا للإسلام أيضا!

لماذا تكون معاداة السامية جريمة
ومعاداة الإسلام حرية رأى؟

أصبح سلمان رشدى من أهم المجندين فى الحرب على الإسلام. وسلمان رشدى اسم اكتسب شهرة عالمية لا يستحقها، فهو فى حقيقته كاتب روائى من الدرجة الثانية، وهو هندى الأصل، يحمل الجنسية البريطانية، كان مسلما ثم أعلن عدم إيمانه بالإسلام دينا. ولكنه لم يكتسب الشهرة الواسعة إلا بروايته (آيات شيطانية)، وبعد فتوى الخومينى بإهدار دمه وإباحة قتله وتخصيص مكافأة لمن يقتله. وازدادت شهرته وأصبح نجما من نجوم المجتمع البريطانى. ينافس نجوم السينما، وترجمت هذه الرواية إلى عدة لغات، وبيعت منها ملايين النسخ، وانهالت عليه الشهرة، ووجهت إليه الدعوات لزيارة الولايات المتحدة ودول أوربية عديدة، وهو فى الولايات المتحدة يُستقبل استقبال الملوك، مقابل ما يكتبه من مقالات تساهم مساهمة كبيرة فى صناعة الكراهية للإسلام. وما يكتبه سلمان رشدى يترجم على الفور إلى أكثر من لغة، وكأن هناك جهة مًّا وجدت فيه ضالتها المنشودة، لأنه - كما يتصورون - يعرف الخبايا والأسرار فى الإسلام، وما دام الخومينى بنفسه قاد الحملة عليه، وهاجمته كل المؤسسات الدينية والإعلامية فى العالم الإسلامى، فلابد أن ما يقوله يصيب نقاط الضعف ويثير غيظ المسلمين ويقدم أكبر خدمة لمن يريدون تشويه صورة الإسلام فى الغرب، وإثارة حفيظة المسلمين، وزيادة الوقيعة بين الغرب والإسلام.

وكان إجماع النقاد فى الغرب على أن الرواية لا تستحق شيئا من الاهتمام الذى لقيته؛ فالأسلوب معقد وسخيف، والبناء الروائى مفكك، وهى فى مجملها رواية ركيكة ومملة. وكل ما فى الموضوع أن المؤلف ملأ صفحاتها بالسب والقذف فى الإسلام والقرآن والرسول ﷺ وصحابته وآل بيته، وأعلن أنه فخور لأنه تخلص

من هذا الدين ومعتقداته وقال إنها معتقدات تدل على تخلف الشعوب الإسلامية، واستخدم ألفاظا بذيئة، واختلق وقائع كاذبة نسبها إلى الرسول ﷺ. ولم يترك شخصية لها قدرها في التاريخ الإسلامي إلا وجّه إليها السباب والاتهامات بألفاظ مقذعة، وأشار إلى الرسول صلى الله عليه وسلم باسم (ماهاوند) وقال عنه عليه الصلاة والسلام: إنه شرير، ونبي مزيف، مصاب بالصرع، ومعرض لنوبات من الهلوسة، ولا يتورع عن القيام بأي عمل مهما يكن متعارضا مع الأخلاق ما دام يحقق له أغراضه، ويصور زوجات الرسول - أمهات المؤمنين - على أنهن مجموعة غانيات يعملن في بيت للدعارة يحمل اسم (الحجاب)، وتروي كبيرتهن كيف تزوجها النبي هي والسيدة عائشة في يوم واحد، ويصور كبير الملائكة من مؤيدي اللواط، وجبريل عليه السلام على أنه بذيء اللسان، ويدّعي أن الشيطان خدع الرسول ﷺ وأجرى على لسانه عبارات ادعى الرسول أنها آيات منزّلة من الله تذكر أوثان الجاهلية: اللات، والعزى، ومناة، على أن لها شفاعة عند الله، ويدّعي أيضا أن الصحابي الجليل سلمان الفارسي - رضي الله عنه - قام بتزوير القرآن وخدع بذلك الرسول ﷺ.

وقال سلمان رشدي في روايته ما هو أكثر من ذلك مما سبق أن أشرت إليه في أحد فصول كتابي (الغرب والإسلام).

وأرجو أن يسامحني الله، ويسامحني القارئ، لأنني لا أستطيع تكرار كل ما قاله، وإن كنت أعلم أن ناقل الكفر ليس بكافر، وأن واجب المسلمين أن يعرفوا ماذا يقال عن دينهم ورسولهم وقرآنهم، لأن تجاهل ذلك يجعلنا نعيش في عالم غير واقعي وندفن رؤوسنا في الرمال لكي ننكر الأمور التي يعرفها ويصدقها ويتناقلها كثيرون في الغرب.

وليست رواية سلمان رشدي وحدها المليئة بالسموم، ولكن تصريحاته وأحاديثه الصحفية ومحاضراته فيها ما هو أكثر بشاعة، ومقالاته التي تنشرها الصحف البريطانية والأمريكية تقطر سما.

في صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية كتب مقالا بعنوان (كفى تطرفا) No More Fanaticism as Usual في عدد ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٢ يقول فيه: لقد مر أسبوع

مظلم فى عالم الإسلام العجيب، فقد نشأ صدام بين الإسلام ومنظمى مسابقة ملكة جمال العالم، حين تجرأت بعض المشتركات فى المسابقة وأعلنتْ الاعتراض على حكم أصدرته محكمة نيجيرية تنفذ الشريعة الإسلامية فى أحكامها. وكانت القضية على امرأة نيجيرية أدينت بارتكاب جريمة الزنا. فحكمت عليها المحكمة بتطبيق الشريعة الإسلامية بالرجم بالحجارة حتى الموت. واحتجاجا على هذا الحكم هددت المتسابقات القادمات من جميع أنحاء العالم بمقاطعة المسابقة، فاضطرت حكومة نيجيريا إلى الإعلان بأنها لن تنفذ الحكم. وبعد ذلك تجرأت كاتبة نيجيرية اسمها (ايسيوما دانيال) فى مقال نشرته فى صحيفة مسيحية تصدر فى العاصمة النيجيرية قالت فيه: لو كان النبى محمد (ﷺ) حيا اليوم، ربما كان سيتزوج واحدة من أمثال تلك المرأة الفاجرة التى تظهر بالمايوه أمام الناس!. وبدأ المسلمون فى نيجيريا الاحتجاج على هذا المقال. ويقول سلمان رشدى (لقد بدأ المؤمنون المسلمون المهمة المقدسة التى يدعوهم إليها دينهم وهى: القتل، والنهب، والحرب، والدعوة إلى قطع رأس كاتبة المقال.

وقال سلمان رشدى أيضا فى مقاله: من يستطيع أن يلوم هؤلاء المسلمين إذا كان رئيس نيجيريا نفسه قد ألقى اللوم على الصحيفة وكاتبة المقال، كما ألقى اللوم أيضا على سيدات من أصل بريطانى جريمتهن فى نظره أنهن من أنصار المساواة بين الرجل والمرأة لأنهن أظهرن الاستياء من القرار الذى صدر بنقل مسابقة ملكة جمال العالم من نيجيريا وإقامتها فى بريطانيا. وقال سلمان رشدى: يبدو أن فكرة إلقاء المسئولية على القتلة والذين قاموا بعمليات السرقة والنهب وإشعال الحرائق بعيدة عن اهتمام المسلمين!

وقال: إن ما حدث من المسلمين فى نيجيريا حدث مثله فى جمهورية إيران الإسلامية، فقد ثار المسلمون ضد واحد منهم له تاريخ سياسى مجيد فى تنفيذ تعاليم الإسلام هو (هاشم أغاياري) الذى فقد إحدى ساقيه فى المعركة الإسلامية الشهيرة حين استولى الطلبة على السفارة الأمريكية فى طهران واعتبروها (سفارة الشيطان الأكبر) بقرار من رجال الدين الذين تولوا قيادة الثورة الإسلامية الطائشة - على حد قوله - وكان سبب الثورة على هاشم أغاياري أنه وجّه انتقادا إلى آيات الله من الجناح المتشدد الذين يسيطرون على مقاليد الأمور فى الدولة،

ويقول سلمان رشدى: ليس من الضرورى أن يكون لديك أفكار وقحة عن النبى (ﷺ) لكى تستحق القتل، فإن إثارة مشاعر المسلمين أمر سهل ولأى سبب أقل من ذلك بكثير. ولكن آلاف الشباب الإيرانيين قاموا بمظاهرات احتجاج اعتراضا على حكم الإعدام على الكاتب الإيرانى هاشم أغايارى فى قضية من قضايا الرأى ليس فيها مساس بالعقيدة من قريب أو بعيد، وكان رد فعل المرشد الأعلى للثورة الإيرانية آية الله على خامئنى معارضا لهؤلاء الشباب المؤيدين للإصلاح. وجاء فى بيانه إليهم عبارات التوبيخ. وكان بذلك إشارة البدء للهجوم المضاد على الإصلاحيين عموما، فقد حرك أكثر من عشرة آلاف شاب من المتطرفين طافوا بشوارع طهران لإعلان تأييدهم للإسلام المتشدد ومعارضتهم للدعوة إلى الإصلاح أو التسامح. !

ويمضى سلمان رشدى فى تعبئة مشاعر القارئ الغربى ضد العالم الإسلامى كله فيقول: إن فى مصر أيضا كان مسلسل تليفزيونى (فارس بلا جواد) يعرض للجماهير العريضة ويدعو إلى معاداة السامية، ويتحدث عن (بروتوكولات صهيون) على أنه كتاب حقيقى فيه المخطط اليهودى السرى للاستيلاء على العالم، بينما هو كتاب مزيف، وثبت منذ عهد بعيد أنه وثيقة مزورة من صنع البوليس السرى التابع للقيصر نيقولا الثانى وتم تسريبها كحقيقة تاريخية. وطبعا لا يذكر سلمان رشدى أن مصر ليست فيها معاداة للسامية، ولكن فيها رفض لاعتداءات إسرائيل على الأرض والشعب الفلسطينى. ولا يذكر أن كل ما جاء فى هذا المسلسل أن هناك كتابا وقع فى يد بطل الرواية أراد أن يعرف ما فيه وعملت منظمة صهيونية على منعه من الوصول إليه، وانتقل البطل من الكتاب إلى الواقع فذهب ليساهم فى الدفاع عن فلسطين فى مواجهة العصابات الصهيونية التى كانت تغتصب أرضها وتقتل شعبها دون تمييز ولا تستثنى النساء أو الشيوخ أو الأطفال.

لا يذكر سلمان رشدى شيئا من هذه الحقائق طبعا، لأنه لو ذكر شيئا منها لحرم من الأضواء والأموال التى تنهال عليه، ولذلك قال: نعم، هذه هى مصر نفسها التى تخضع فيها وسائل الإعلام للرقابة الشديدة لمنع أية كلمة تمس

السلطة، ولا تمنع بطل المسلسل من القول بأنه يمارس حرية الرأى حتى لـو كـان هذا الرأى فيه إساءة إلى الصهيونية، وهو يعلن الوعود بأن يقدم المزيد!

ولا يكتفى سلمان رشدى بتمرير الكذبة المعهودة عن أن الإعلام فى مصـر مقيـد برقابة شديدة، لأن مثله لا يمكـن أن يفـهم ولا يريـد أن يفـهم أن فـى مصـر الآن حرية إعلام، وحرية رأى، ولو أراد أن يفهم ذلك فما عليـه إلا أن يقـرأ الصحـف الحزبية، بل والصحف القومية التى يسميها هـو وأمثالـه صحفـا حكوميـة، وأن يشاهد ندوات التليفزيون، أو يشاهد الأفلام التى تـهاجم الفساد وتوجـه النقـد إلى الوزراء وتـهاجم رئيس الوزراء وسياسات الحكومة.. الخ.

ويقول سلمان رشدى بعد ذلك: دعنا لا ننسى القصة المروعة للسيدة الهولنديـة المسلمة (آيان هيرسى على) التى اضطرت إلى الفرار مـن هولنـدا لأنـها قـالت: إن الرجال المسلمين يضطهدون المرأة المسلمة، وأغضب هذا القول الرجال المسلمين إلى الدرجة التى أدت إلى توجيه تـهديدات لها بالقتل!

ويتساءل سلمان رشدى بخبث: هل جمع كل هذه الأفعال البشعة معا فيه ظلـم للإسلام؟ ويجيب: ربما..! ولكن جمع هذه الأحـداث المختلفـة معـا يكشـف عـن شىء مشترك بينها؛ فقد اتُهمت آيان هيرسـى الهولنديـة بأنـها (سـلمان رشـدى الهولندية)، واتُّهم آغايارى بأنه النسخة الإيرانية من سـلمان رشـدى، واتُّـهمت ايسيوما دانيال بأنـها النموذج النيجيرى لسلمان رشدى، ومنذ شهرين قلت إننـى أكره ما يفعله الإسلاميون فى العالم حين يجعلـون اسمى شعارا، ولكننـى بـدأت أعيد التفكير فى هذا الموقع الذى وضعونى فيه، إذ يبدو لى الآن أنه ليس سيئا إلى الدرجة التى كنت أتصورها، فأن تكـون سـلمان رشـدى ومعـك أشخاص آخـرون يعتنقون أفكارك ويطلق الآخرون عليهم سلمان رشدى، فأكون واحدا بين كثـيرين من أمثالى، فإن ذلك يدفعنى إلى الشعور بالرضا والفخر بهذه الجماعة التى أنتمى إليها.. وعلـى الرغـم مـن كـل شـىء فـأين الغضـب مـن المسلمين تجـاه كـل هـذه الأحداث.. وكيف يسكت المسلمون على هؤلاء الذين اختطفوا حضارتـهم القديمـة بما كان فيها من الحب، والتفكير الفلسفى، والفن؟ لماذا لا يصرخ المسـلمون رفضـا لما يفعله دعاة العنصرية، واضطهاد المرأة وسيادة الذكـور، والمتعصبـون، وأنصـار

الاستبداد والعنف..؟ على الأقل فى إيـران يتظـاهر الطلبـة، ولكـن أيـن يسـتطيع الإنسان أن يسمع فى العالم الإسلامى أصوات المسلمين الذيـن يدعـون إلى التسـامح والعدالة ويستنكرون ما يفعله المسلمون المتطرفون فى نيجيريـا، ومصـر، والـدول العربية، وهولندا؟ وحتى المسلمون فى الغرب فإنهم أيضـا صـامتون بصـورة غـير طبيعية على هذه الأمـور الشـائنة، وإذا كـانت هنـاك أصـوات تعلـن رفـض هـذه الأعمال من المتطرفين فنحن لا نستطيع سماع أصوتهم..!

وهذه هى العبارة الوحيدة التى قالها سلمان رشدى ومعه الحق فعـلا.. فـهناك أصوات كثيرة جدا، وعالية جدا، ترفض وتدين التطرف والإرهاب والعنف باسـم الإسلام، وتشرح حقيقة الإسلام على أنه ديـن التسـامح، والحـب، والتعـاون مـع سائر البشـر دون تفرقـة، لأن مـن قواعـد هـذا الديـن أن النـاس جميعـا سواسـية كأسنان المشط ولا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود على أساس اللـون أو الجنس أو الدين، ولكن هذه الأصوات التى تنطـق بـالصدق لا تصـل إلى الغـرب بدرجة كافية.

سلمان رشدى لا يريد، وربما لا يستطيع أن يصرح بأن الإسلام أول دين أرسـى مبادئ حقـوق الإنسـان، والحريـة الدينيـة، ويكفى أنه أطلق الحرية بغير حدود ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ (الكهف - ٢٩ -) فهل بعد ذلك جدل حول الحرية الدينية فى الإسلام.؟

ويختم سلمان رشدى مقاله الملىء بالسموم بقوله: إذا كـانت الأصـوات المعتدلـة فى الإسلام لا تستطيع وليـس لديـها العزيمـة للإصـرار علـى تحديـث ثقافتـهم، وتحديـث عقيدتـهم أيضـا، فقـد يكـون علـى المسلمين الذيـن يعتـبر كـل منــهم (سلمان رشدى) هم القادرين على القيام بذلك، وكل واحد منـهم وإن كـان يواجـه الاضطهاد والإنكـار فإنـه سـيكون سـببا فـى ظـهور اثنـين.. أو عشـرة.. أو ألـف (سلمان رشدى)، وهؤلاء سوف يكونون قادرين على النـهوض بـهذه المهمـة، لأن عقول الناس ومشاعرهم واحتياجاتهم لن يستطيع أحد إبقاءها أسيرة هذا السـجن إلى الأبد! والعالم الإسلامى اليوم فى سجن ليس على يد الغربيين ولكـن علـى يـد المسلمين الذين يقاتلون من أجل الإبقاء على أبواب العالم مغلقة فـى مواجهـة قلـة تحاول فتح الأبواب المغلقة لهـذا السـجن.. ومـادامت الأغلبيـة صامتـة، فسـوف

تكون هذه الحرب حربا يصعب على المعتدلين تحقيق الفوز فيها. ولكن في النهاية، سوف يحطم شخص ما أبواب هذا السجن، أو هذا ما نأمل حدوثه.

سلمان رشدى مستمر وبقوة فى الإساءة إلى الإسلام. ولا أحد يرد عليه. فالبعض يظن أن التجاهل هو أفضل وسيلة للرد على هذا الفكر المعادى. والبعض ينبرى للرد عليه أمام المسلمين فى داخل البلاد الإسلامية وباللغات التى لا يعرفها الغرب.. متى ندرك أن السكوت يفهم فى الغرب على أنه علامة الرضا أو على الأقل علامة ضعف الحجة فى مخالفة هذه الاتجاهات العدائية.. والأهم من ذلك إذا كنا نكلم أنفسنا، لإقناع أنفسنا بأن أمثال سلمان رشدى تنطوى قلوبهم على حقد أسود ولا يصلح معهم حوار أو جدل، وندافع عن الإسلام أمام أنفسنا وبلغاتنا، دون أن نذهب إلى هناك ونخاطب الغرب بلغته، فلماذا نلوم الغرب ونحمله وحده مسئولية الدفاع عن الإسلام إذا كنا نحن لا نفعل ذلك بعمل يومى وبكل الوسائل..؟

قبل هذا المقال كتب سلمان رشدى فى صحيفة الجارديان البريطانية مقالا بعنوان (خطة للعقول المغلقة) فى عدد ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٢ علق فيه على رواية (بلا تفورم) للكاتب الفرنسى ميشيل هوليبيك وما فيها من قذف وإساءة للإسلام. وقد رفعت أربع هيئات إسلامية وأكبر مسجدين فى فرنسا دعوى أمام القضاء الفرنسى بطلب محاكمته بتهمة العنصرية والتحريض على كراهية ديانة المسلمين، وانضم إليها الاتحاد الوطنى للمسلمين الفرنسيين. ولكن سلمان رشدى يدافع عن هوليبيك ويقول: إنه أهم الكتّاب الفرنسيين الموهوبين، وقد حصل لذلك على جوائز متعددة، مما يلزم كل الرجال الصالحين الوقوف إلى جانبه ومساعدته، ويضيف: إن الاتهامات الموجهة إليه تافهة وسخيفة، ومن هذه الاتهامات أنه فى مقابلة صحفية مع مجلة (لير) Lire الفرنسية فى العام الماضى قال عن الإسلام: (إنه دين غبى)، وقارن بين القرآن والكتاب المقدس وقال: إن الكتاب المقدس (على الأقل مكتوب بشكل جميل، لأن اليهود يتمتعون بالموهبة الأدبية) ويقول سلمان رشدى: ربما أثار هذا التعليق من هوليبيك واحدا أو اثنين من غير المسلمين، لأن هوليبيك نسب الموهبة الأدبية إلى اليهود وحدهم مما يعنى أن كتّاب العهد الجديد المسيحيين ليست لديهم مثل هذه الموهبة. ومع ذلك

لم يتحرك المسيحيون ضد هوليبيك، لأن الفرد فى أى مجتمع إذا لم يكن حرا فى أن يقول علانية رأيه وأنه يفضل كتابا على آخر، فكيف يمكن لهذا المجتمع أن يعتبر نفسه مجتمعا حرا، وبالمثل فإن أى مسلم يقول إن القرآن أفضل من الكتاب المقدس فعليه أن يتقبل الإدانة لإهانة غير المسلمين، والصحافة هى التى ستصدر الحكم!

أما عن قول هوليبيك بأن الإسلام أغبى دين فإن سلمان رشدى يقول: هذه وجهة نظر! وهناك نقطة يجب أن تكون مفهومة هى أن مهاجمة أفكار أو معتقدات أو نظم أو أيديولوجيات الناس لا تعنى مهاجمة هؤلاء الناس، وهذا بالتأكيد مبدأ من المبادئ الأساسية للمجتمع المفتوح. ولكل مواطن أو جماعة حق الشكوى من التمييز العنصرى. ولكن لا يحق لهم الشكوى من عدم قبول أفكارهم أو من إعلان رفضها، حتى وإن كان التعبير عن عدم القبول أو الرفض بأسلوب غير مهذب، لأنه لا يمكن قبول وجود أسوار لحماية الأفكار، أو النظريات الفلسفية، أو الاتجاهات، أو المعتقدات من النقد أو الرفض. ويقول سلمان رشدى إن رواية بلاتفورم التى قدمت فى الدعوى تحكى عن تجارب وحياة شخصية بطلها واسمه ميشيل أيضا مثل اسم المؤلف، وقد قتله رجل مسلم، ومن خلال سرد الأحداث والمشاعر يذكر هوليبيك ملاحظات قاسية فيها ازدراء للمسلمين، والغرض الذى يطرحه الكاتب فى هذا النقد الساخر من الإسلام والمسلمين أنه يعبر عن صعوبات واجهها المؤلف فى حياته الخاصة. لأن هوليبيك اسمه الحقيقى (ميشيل توماس) وقد أخذ لقب جدته بعد أن تزوجت والدته رجلا مسلما واعتنقت الإسلام. وحيث تُعتبر حياة الكاتب وسيرته الذاتية هى المفتاح الرئيسى لفهم معنى رواياته، وحيث يُعتقد أن الروايات مستمدة من قصص حقيقية مستترة، فإن التفاصيل التى عانى منها المؤلف هوليبيك فى حياته هى التى دفعته إلى رفع صوته تعبيرا عن الاندهاش والسخرية. وقال: يجب أن يكون من حق المؤلف خلق شخصيات من جميع الأنواع. ولا يمكن إجبار المؤلف على خلق شخصيات طيبة وعدم خلق شخصيات شريرة. وإذا كان الكتّاب والروائيون لا يستطيعون وصف النازيين، والمتطرفين المسلمين، دون أن توجه إليهم اتهامات بأنهم هم أنفسهم نازيون أو متطرفون، فإنهم فى هذه الحالة لن يمكنهم القيام بعملهم كما يجب.

ويقول سلمان رشدى فى ختام هذا المقال دفاعا عن هولييبك: إن الذين يوجهون الاتهام إلى هولييبك بمعاداة الإسلام يدّعون أنهم يفعلون ذلك نتيجة خوفهم من أن تؤدى كتابات هولييبك وأمثاله إلى زيادة موجة العداء ضد الإسلام والمسلمين فى الغرب بعد ١١ سبتمبر، ولكنهم أخطئوا التقدير لأن الذى يزيد العداء للإسلام والمسلمين ليس ما كتبه هولييبك، ولكن الذى يزيد العداء هو هجومهم على الكاتب. وهذا الهجوم هو الذى يؤدى إلى الانتكاسة فى هذا الوقت الحساس. وإذن فقد خسر الجانبان القضية، فقد تم تدمير سمعة هولييبك، وكشف خصومه المسلمون أنفسهم مرة أخرى، وأظهروا أنهم معارضون لعالم يؤمن بحرية القول.

سلمان رشدى يكتب مقالاته ويؤسسها على مغالطات: أولها أنه اعتبر مجرد الإشارة إلى البروتوكولات فى مسلسل (فارس بلا جواد) معاداة للسامية وطالب بمنعه وتدخل الدولة، وفى نفس الوقت اعتبر إهانة الإسلام فى رواية هولييبك مجرد عمل فنى فى عالم حر يؤمن بحرية القول..! وثانيها.. إنكار أن القانون الفرنسى يحظر معاداة السامية، وسبق أن حوكم المفكر الفرنسى الكبير روجيه جارودى بتهمة معاداة السامية لأنه أعلن رأيه فى أن ضحايا اليهود فى معسكرات النازية لم يكونوا ستة ملايين وأنه يعتقد أنهم كانوا أقل من ذلك ولا يوجد دليل على صحة هذا الرقم.. لم يشكك فى وجود معسكرات تعذيب.. ولم يشكك فى وجود ضحايا.. فقط أراد دليلا يؤكد صحة الرقم العلنى عن عدد الضحايا.. ومع ذلك واجه الاضطهاد ولم يرحموه فى شيخوخته.

لماذا تكون معاداة السامية جريمة عظمى لا تغتفر، ولا تكون كذلك معاداة الإسلام؟!

وكلمة الحق تجد أحيانا من يقولها فى الغرب فقد قالت الإذاعة البريطانية (بى. بى. سى) يوم ١٦ سبتمبر ١٩٩٨ - قبل أحداث سبتمبر بعامين كاملين - تحت عنوان: (الصحافة البريطانية تشعل الإسلاموفوبيا (مرض الخوف من الإسلام) وقالت: إنه بعد حادث تفجير السفارتين الأمريكيتين فى كينيا وتنزانيا فى أغسطس ١٩٩٨ شعر العالم بصدمة. وعندما وجه الاتهام إلى أسامة بن لادن تزايد القلق لدى المسلمين من أن تؤدى هذه الأعمال المنسوبة إلى مجموعة واحدة من الراديكاليين إلى ردود فعل سيئة على المسلمين فى مناطق أخرى من العالم

ولا شأن لهم بتنظيم القاعدة أو زعيمه ابن لادن، ولذلك أصبح المسلمون في بريطانيا يشعرون بالخوف من أن تسيء أفعال المتطرفين إلى المعتدلين المسلمين. ويعتبر المسلمون وسائل الإعلام البريطانية المسئولة عن ذلك، لأنها تشعل النار في (الإسلاموفوبيا) وتعوق بذلك المساعي لاندماج المسلمين في المجتمع البريطاني، وتشجع على تصاعد نزعة التمييز ضدهم. ويعتبر قادة المسلمين أن الصحفيين البريطانيين يميلون إلى إغفال الحديث عن المسلمين الذين يعتنقون آراء أكثر اعتدالا، ويركزون مقالاتهم وأخبارهم وتعليقاتهم على المسلمين المتطرفين مما يعطي للرأي العام البريطاني انطباعات مثيرة عن الإسلام والمسلمين عموما. فالمسلمون المعتدلون في أنحاء العالم، وفي بريطانيا، يرفضون أعمال المتطرفين، ولكن الصحافة البريطانية تتجاهل هذا الموقف، وأشارت الإذاعة البريطانية إلى مدير لمؤسسة إسلامية للرعاية الاجتماعية اسمه يوسف بهلوي قال: إن عددا من المندوبين الصحفيين والكتّاب اتصلوا به وسألوه عن رأيه في الأعمال التي يقوم بها المتطرفون الإسلاميون وخاصة تفجيرات كينيا وتنزانيا، فعبّر لهم: عن رأيه في إدانة هذه الأعمال الوحشية التي لا تعبر عن الإسلام، وقال لهم إن الإسلام يرفض قتل المدنيين الأبرياء عشوائيا، ويرفض إرهاب الناس، وإن الإسلام دين سلام وليس دين عدوان. فلما اكتشفوا أنه يتحدث معارضا هذه الأعمال الوحشية وينكر أنها أعمال تمثل الإسلام والمسلمين لم يعجبهم ما قاله ولم ينشروا كلمة منه، لأنهم كانوا يريدون مسلما يقول لهم ما يريدون أن يسمعوه ويعلن تأييده لهذه الجماعات الإرهابية وابتهاجه بما فعلوه باسم الإسلام!

وقالت الإذاعة البريطانية تعليقا على ذلك إن القلق يزداد بين المسلمين نتيجة تزايد المشاعر العدائية للإسلام في بريطانيا، ويزيد من هذا القلق لدى المسلمين في بريطانيا عدم وجود صوت موحد يعبر عنهم.

وأشارت الإذاعة البريطانية إلى إنشاء المجلس الإسلامي في بريطانيا عام ١٩٩٧ الذي يسعى إلى مواجهة التحامل على المسلمين، ومقاومة التمييز ضدهم، والرد على الأسلوب المتطرف المعادي لهم في الإعلام وفي المجتمع البريطاني، وقد عبّر أحد أعضاء هذا المجلس عن الدور الذي يحاولون القيام به فقال: إنه يتمثل في كبح جماح الراديكالية الإسلامية في بريطانيا،

والتعبير عن الجيل الجديد من المسلمين فيها، وهو جيل ليس مستعدا لتقبل التمييز العنصرى، وإذا وجدوا قوى تدفعهم إلى الحائط وتشعرهم بالإحباط وفقدان الأمل فى المساواة فسيكون لهم رد فعل. وقد يتحولون إلى القيام بأعمال إرهابية لكى يصل صوتهم ويتم الاعتراف بحقهم فى معاملة بدون تمييز. وقال هذا العضو واسمه الدكتور زاكولا خان: (نحن نعمل على تجنب الوصول إلى هذه الحالة ولذلك نقاوم التمييز ضد المسلمين لكى يشعروا بالأمان والاستقرار).

هذا ما قالته الإذاعة البريطانية عن دور الإعلام البريطانى فى زيادة المخاوف من الإسلام والمسلمين كان ذلك قبل أحداث سبتمبر، ومن الطبيعى أن الأمور ازدادت سوءا بعد سبتمبر، وقد تم حشد جميع وسائل الإعلام فى الولايات المتحدة ودول أوربا لإثارة الخوف والكراهية أكثر وأكثر من الإسلام والمسلمين.

وفى صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية الصادرة يوم ١١ ديسمبر ٢٠٠٢ ما يؤكد أن الأمور ازدادت سوءا، فقد نشرت مقالا كتبه كريج سميث من باريس بعنوان (العنصرية ازدادت بعد ١١ سبتمبر) قال فيه: إن المسئول فى الاتحاد الأوربى المختص بمراقبة العنصرية حذر من تزايد الانحياز ضد المسلمين فى أوربا منذ هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ مع تفاقم الصراع الإسرائيلى الفلسطينى بعدها. وفى تقرير عن العنصرية فى أوربا تم تسليمه إلى قادة دول الاتحاد الأوربى الخمسة عشر أثناء اجتماع القمة الأوربية فى بروكسل، وهو من إعداد المركز الأوربى لمراقبة العنصرية وإرهاب الأجانب الذى يرأسه بوب بركيس، وفى هذا التقرير الرسمى الذى وضع أمام أعلى مستويات القيادة فى دول أوربا جميعا جاء فيه: أن العنصرية وصلت إلى حد من الخطورة لا يمكن السكوت عنه، بعد أن أصبحت جزءا لا يتجزأ من أوربا. وأصبح على قادة الاتحاد الأوربى التعامل مع العوامل الاجتماعية والاقتصادية التى تشعل العنصرية والتحامل، كما ذكر التقرير أن المضايقات التى يلاقيها المسلمون تزداد، وخصوصا السيدات اللاتى يضعن الحجاب.

والمهم أن رئيس مركز مراقبة العنصرية فى الاتحاد الأوربى وجه اللوم فى تقريره إلى وسائل الإعلام الفرنسية وإلى المعلقين والسياسيين؛ لأنهم يعملون على

إثارة العنصرية بمعالجاتهم لقضايا العولمة والبطالة والإسلام، وقال أيضا: إن السياسيين الأوربيين أطلقوا العنان للأحزاب اليمينية المتطرفة لإثارة المشاعر ضد الهجرة والمهاجرين والأجانب، رغم أن استمرار الهجرة ضرورى للنمو الاقتصادى فى الدول الأوربية، ولكن قادة الأحزاب اليمينية المتطرفة - كما قال - يتلاعبون بالسياسة ويسعون إلى تحقيق شعبية بإثارة المشاعر ضد المهاجرين بدلاً من التعامل مع القضايا الحقيقية التى تحتاج إلى التفكير والحوار بجدية.

وقد انتشر صدى هذا التقرير فى باريس حيث أبلغ وزير العدل الفرنسى، بيير بيديه الجمعية التشريعية الوطنية (البرلمان) بأن الأحداث الأخيرة تدل على زيادة تدعو للقلق فى الجرائم التى تقع بسبب معاداة المسلمين واليهود، وأن فرنسا وهى التى تضم أكبر عدد من المسلمين واليهود بين الدول الأوربية شهدت أكبر موجة للعنف المعادى للمسلمين واليهود، ونتيجة لذلك وافقت الجمعية الوطنية بالإجماع على مشروع قانون يشدد العقوبات على الأعمال العنصرية والأعمال المعادية للسامية. وأحيل المشروع إلى مجلس الشيوخ، وجاء هذا القانون الجديد ضمن برنامج واسع المدى لمحاربة الجرائم العنصرية تنفذه الحكومة اليمينية المعتدلة التى يرأسها جين بيير رافارين لإلزام المسئولين فى الأقاليم بإحالة المسئولين عن الهجمات العنصرية والمعادية للسامية إلى القضاء.

وهذه شهادة أخرى من أعلى هيئة فى أوربا بما يقوم به الإعلام فى أوربا ضد الإسلام والمسلمين. والغريب أن تهمة معاداة السامية تلاحق دون رحمة من يتناول اليهود أو اليهودية أو يوجه النقد إلى إسرائيل والحكومة الإسرائيلية، ولكن التمييز ضد المسلمين لا يجد مثل هذه الحماية أو نصفها.

وفى مجلة تايم الأمريكية واسعة الانتشار فى العدد الصادر فى ١٦ ديسمبر ٢٠٠٢ موضوعان عن الإسلام، الأول بعنوان (الوجوه الجديدة للإسلام) والثانى بعنوان (مكان على المائدة) قالت فى المقال الأول: إن المسلمين الأوربيين أصبحوا يعبّرون عن آرائهم، ويعيدون تقييم عقيدتهم، ومواقفهم من الاندماج فى المجتمعات الليبرالية العلمانية، ولذلك فإن الإسلام فى أوربا يمر الآن بمرحلة تحول. فقد رفع لاجئ كردى قادم من تركيا دعوى على وزارة الداخلية مطالبا بتعويض عن قرار بإلزامه بالإقامة الجبرية فى

مدينة جلاسجو الأمريكية حيث تعرض هو وأسرته لهجمات عنصرية وانتهاك لحقوقه الإنسانية. وفى باريس أقامت شابة جزائرية دعوى على رئيسها فى العمل لأنه أصدر قرارا بفصلها من العمل فصلا تعسفيا لمجرد أنها رفضت خلع الحجاب تنفيذا لأوامره.

وقالت التايم إن أوربا فيها ١٢ مليونا ونصف المليون مسلم يعانون من البطالة، ومنذ أحداث ١١ سبتمبر أصبحوا يعانون من تزايد مشاعر الخوف منهم وعدم الثقة فيهم من غير المسلمين، وقد ظهرت بوادر التوتر عندما حاولت الحكومة الفرنسية إنشاء مجلس إسلامى يتحدث بصوت واحد باسم المسلمين وتتعامل معه الحكومة. وبدأت المنظمات الإسلامية الفرنسية فى اختيار ممثليها بالانتخاب ولكن وزير الداخلية نيكولا ساركوزى ألغى هذه الانتخابات، عندما وجد أن أغلبية الأصوات سوف يحصل عليها اتحاد المنظمات الفرنسية الإسلامية وهو اتحاد يمثل أغلبية المساجد فى فرنسا التى يبلغ عددها ١٥٠٠ مسجد، والمشكلة أن هذا الاتحاد متحالف مع الإخوان المسلمين الذين يلزمون الفتيات بالحجاب فى المدارس الحكومية ولا تسمح الحكومة الفرنسية بذلك، وأمام أوربا طريق طويل عليها أن تقطعه قبل أن تسمح باعتبار الإسلام الدين الثانى فيها، ولكنَّ هناك جيلا من شباب المسلمين يعبّرون عن رفضهم للعنصرية والخوف من الإسلام، والأحكام الجاهزة التى تدين الإسلام. من هذا الجيل الجديد الناشط السياسى دياب أبو جهجاه Jahjah الذى يبلغ من العمر ٣١ عاما ويعيش فى بلجيكا وهو من أصل لبنانى. وكان رئيس وزراء بلجيكا قد اتهم دياب والاتحاد الأوربى العربى الذى ينتمى إليه بالتحريض على أعمال الشغب التى وقعت فى شوارع إحدى المدن عقب مقتل مدرس مغربى على يد رجل بلجيكى مريض عقليا. ولكن دياب حوَّل مزاعم رئيس الوزراء إلى نقد ومساءلة لتوجهات الحكومة البلجيكية من المسلمين الذين يبلغ عددهم ٤٠٠ ألف فى بلجيكا، وأثار دياب التساؤل: هل المسلمون فى هذه الدولة مواطنون من الدرجة الثانية؟. وماذا ستفعل الحكومة للقضاء على التوتر العنصرى المتزايد؟. ولماذا يعانى كثير من البلجيكيين المسلمين من الجيل الثانى من الشعور بالاغتراب؟. وهل يستمر الموقف فى هذه المدينة (انتورب Antwerp) حيث تزيد نسبة البطالة فى معظم مجتمعات المهاجرين

على ٣٠٪. ودياب وصل إلى بلجيكا من لبنان عام ١٩٩١ وفقا لسجلات الهجرة باعتباره لاجئا سياسيا، وأسس في عام ٢٠٠٠ الاتحاد الأوربي العربي الذى يضم الآن ألف عضو من مختلف دول أوربا، وكان دياب قد ظهر في مكان الحادث بعد مقتل المدرس المغربي بنصف ساعة، وقال إنه حضر إلى مكان الحادث لكي يحاول تهدئة المسلمين الغاضبين الذين ارتكبوا أعمال الشغب على مدار ليلتين كاملتين، وألقت الشرطة القبض عليه واتهمته بالمسئولية عن إثارة أعمال العنف، ولكن المحكمة حكمت ببراءته لعدم كفاية الأدلة. وبعد الإفراج عنه أعلن دياب أنه يحلم بإنشاء مجلس أوربي موحد للمسلمين العرب في سائر دول أوربا يتمتع بسلطة تسمح له بالضغط على الحكومات الأوربية لكي تضع مصالح ومشاعر المسلمين في حساباتها، خاصة أن المسلمين في رأيه- كما قال- لهم ثلاثة مطالب أساسية: المطلب الأول أن يجد الأطفال المتحدثون باللغة العربية فرصة التعليم في مدارس بلجيكية، والمطلب الثاني: إيجاد فرص عمل للمسلمين لحمايتهم من البطالة وما يمكن أن تؤدى إليها، والمطلب الثالث: السماح للمسلمين بالاحتفاظ بالعادات والثقافة الإسلامية دون اعتراض، وعلى سبيل المثال منع التمييز ضد الفتاة التي ترتدى الحجاب.

وفي مقال التايم حديث عن نموذج آخر لسيدة تدعى آن صوفي رولد Anne Sofie Roald سويدية اعتنقت الإسلام في الثمانينات، وهي الآن أستاذ مساعد متخصصة في العلاقات المصرفية والهجرة بجامعة مالمو Malmo بالسويد، وهي تقول دائماً: إن الذين يشاهدونها وهي ترتدى الحجاب لا يتقبلون ذلك منها، وحتى أسرتها لا تتقبل ذلك، على الرغم من أنها تعتقد أن السويد والنرويج ربما تكون أفضل الدول التي يمكن أن يعيش فيها المسلمون. إلا أن الظروف تغيرت، وأصبح الخلط شديداً بين الإسلام والسياسة، وعلى سبيل المثال فإن الجماعات الفلسطينية المناضلة ضد الاحتلال أضافت صبغة دينية إلى ما تقوم به من أعمال المقاومة التي كان يقوم بها من قبل فلسطينيون بدافع الوطنية. وبذلك أصبح العالم يحمّل الإسلام والمسلمين المسئولية عما يفعله هؤلاء القاتلون، وكذلك الحال بالنسبة لما فعلته السودان، وما فعله ابن لادن. ومنذ ١١ سبتمبر أصبح النقد للإسلام يتزايد، وتقول آن صوفي إنها أثناء إلقائها إحدى المحاضرات قال لها أحد الحاضرين: إن الإسلام مصدر كل الشرور في العالم.

والنموذج الثالث فى مقال التايم لسيدة أخرى اسمها آيان هيرسى على Ayaan Hirsi Ali وهى هولندية من أصل صومالى عمرها ٣٣ عاما كانت تعتنق الإسلام. ولكنها أعلنت فى ربيع ٢٠٠٢ أنها لم تعد مسلمة وقالت: إن الإسلام دين متخلف بأقصى درجة، وإن ملايين النساء المسلمات فى أنحاء العالم يعانين من الاضطهاد باسم الإسلام. وقالت: إنها ترفض ما فى القرآن من فرض البقاء فى البيوت على النساء، وما فيه من حق الأزواج فى ضرب زوجاتهن إذا لم يجدوا منهن الطاعة.

أما المقال الثانى فى تايم فهو بعنوان (مكان على المائدة) بقلم دانيال بنيامين Daniel Benjamin وستيفن سيمون Steven Simon وقد عمل كل منهما مستشارا لمجلس الأمن القومى الأمريكى من عام ١٩٩٤ حتى ١٩٩٩، ويقول المقال: إن أوربا كانت نقطة الانطلاق لهجمات ١١ سبتمبر وربما يكون الإرهابيون من الشرق الأوسط ولكن معسكرهم الأساسى كان فى أوربا. ومنذ ١١ سبتمبر قامت السلطات الأوربية بإلقاء القبض على أكثر من ٢٠٠ من الإرهابيين المشتبه فيهم، ولكن ذلك ليس كافيا، لأن الإسلاميين السياسيين الراديكاليين يقيمون فى أوربا ليس فقط لأنها وفّرت لهم الملجأ الآمن، ولكن لأنهم يعتبرونها أرضا خصبة لتنشئة جيل جديد من الإرهابيين. وعلى الرغم من الإنجازات الديمقراطية فى أوربا فإن معظم دولها ما زالت تفتقد القدرة على قبول التعددية، ولذلك فإن مجتمعات المهاجرين المسلمين يعيشون فى دول أوربا كعمال ضيوف ومهاجرين فى مرحلة ما بعد الاستعمار، وهم يشعرون بالامتنان لهذه الدول الأوربية ولكن الكثير من أبنائهم يعانون من الإبعاد الاجتماعى والاقتصادى، ويجدون أن (الإسلام النضالى) هو الذى يقدم لهم الهوية ويفسّر لهم الوضع المتدنى الذى يعيشون فيه، ويعطى لأصواتهم قوة للتعبير عن استيائهم من هذا الوضع.

ويقول المقال: بعض استطلاعات الرأى فى بريطانيا أظهرت أن أغلبية الشباب من المسلمين لديهم استعداد للقتال من أجل بريطانيا، ولكنهم مستعدون أيضا لحمل السلاح مع أسامه بن لادن! وفى تقديرات أجهزة الأمن البريطانية أن ثلاثة آلاف شاب مسلم بريطانى على الأقل هاجروا من بريطانيا إلى أفغانستان خلال التسعينات للتدريب، والتعليم الدينى. وهناك دول أخرى لم تعلن أعداد أمثال

هؤلاء الشباب، ويؤكد وجود فرنسيين وألمان بين المعتقلين فى جوانتانامو أن المجاهدين البريطانيين لم يكونوا وحدهم المسلمين الأوربيين الذين انجذبوا إلى طالبان والقاعدة.

ويقول المقال كذلك: إن العالم الإسلامى يوجد فيه الآن نوع من الإصلاح، ولكنه إصلاح ردىء، لأن التزمت والتشدد فى طريقهما للعودة إلى الظهور، وهناك شكل من الدين أكثر تشددا يرفض اندماج المسلمين فى المجتمعات غير المسلمة، ويؤكد على تفوق الإسلام، ويطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية، وهذا الإسلام المتشدد هو الذى يحل تدريجيا محل الإسلام المعتدل الذى كان سائدا لفترة طويلة. ولكن الأموال التى تدفقت من دول الخليج، والتفسير الراديكالى للقرآن، وإصرار الوعاظ المسلمين على أن المسلمين الذين يعيشون في أوربا إنما يعيشون فى (دار الحرب)، ويسعون إلى تحويل المجتمعات المسلمة الأوربية إلى أحياء إسلامية، وقيامهم بإبراز الخلافات مع الاتجاهات الأوربية، بذلك كله خلق هؤلاء الوعاظ والأئمة الراديكاليون أرضا خصبة لتنشئة الإرهابيين وحمايتهم.

ويقول أيضاً: إن المسلمين فى أوربا كلها يعانون من زيادة نسبة البطالة، وسوء الحالة الصحية، وانخفاض مستوى التعليم، وهم محرومون من الحق فى أن يكون لهم من يمثلهم فى البرلمانات، والفرص قليلة فى الحصول على وظائف أمام الشباب من المسلمين، ومع انتشار أفكار ابن لادن فى المساجد، وعلى مواقع الإنترنت، تبدو الظروف الداعية للشباب لاعتناق الإسلام الراديكالى باقية على الدوام، وتجعل رفض الأوضاع الحالية للمسلمين على أساس دينى بدلاً من لجوئهم إلى التعبير عن شكاواهم على أساس علمانى وسياسى، وما دامت المسائل تتحول إلى مسائل دينية فإنها تصبح مما يستحيل الحوار أو التفاوض حولها. وفى أوربا تحديات أمام الأوربيين وقادتهم، فإن الكثيرين منهم يرفضون اختلاط العناصر فى المجتمعات الأوربية، ولذلك يجب على الدول الأوربية أن تقوم بأعمال إيجابية لتوفير التعليم والوظائف والمساكن للأقليات المسلمة، خاصة فى الولايات المتحدة، وسيساعد ذلك على التقليل من الشعور بالاغتراب لدى المسلمين فى دول الغرب، ويجب أن تعمل الدول الأوربية على السماح ببناء المساجد بتمويل من الدولة، وإدخال التعليم الإسلامى فى

المدارس. وبذلك تجارى الحكومات سخاء التيارات المتطرفة التى تؤثر فى المسلمين الأوربيين عن طريق بناء المساجد والمدارس، والأئمة الذين ينافسون الراديكاليين فى تشددهم!

ويقول المقال فى النهاية: إن أكثر الطرق فعالية لإقناع المسلمين الأوربيين بأنهم جزء من العالم الأوربى أن يعجل الاتحاد الأوربى بضم تركيا إلى الاتحاد بعد أن تعهدت حكومتها الإسلامية الجديدة بنشر تبنى القيم الأوربية المتعلقة بالتسامح والتعددية، وعلى أوربا أن تبدأ بخطوات عملية لمنع صراع الحضارات.

ولم يقل المقال شيئا عما يحدث فى الولايات المتحدة للمسلمين فيها الذين يحملون الجنسية الأمريكية، ولم يقل ماذا على الولايات المتحدة أن تفعل لمنع صراع الحضارات التى نشأت هذه النظرية ولقيت رواجا فيها.

وأظن بعد هذا ليست هناك حاجة إلى تعليق، وقد تكرر الاعتراف بما يعانى منه المسلمون من تحيز وعنصرية ومعاداة، دون أن تكون لهم قوانين تحميهم، فالقوانين فقط للعقاب على معاداة السامية، أما معاداة الإسلام والعرب فليس عليها عقاب ولا حساب، والهجوم على الإسلام مباح باعتباره ممارسة لحرية الرأى.. أما المساس ولو بكلمة عن اليهود فهو جريمة لا تغتفر تهتز لها الحكومات.. وتفتح أبواب السجون!

البعض فى أمريكا يريدون الحرب ضد الإسلام . . وليس ضد الإرهاب !

فى كل صباح تنتشر مئات المقالات، وتصدر عشرات الكتب تعمق معاداة الإسلام وتزيد المخاوف من المسلمين فى الولايات المتحدة ودول أوروبا. ومع الأسف فإن الذين يجهلون ذلك فى العالم الإسلامى كثيرون. والذين يدفنون رءوسهم فى الرمال وينكرون أن فى الغرب معاداة للإسلام أكثر. والذين لا يريدون أن يقرءوا أو يعرفوا ما يقال عن الإسلام أكثر وأكثر تصوُّرا منهم أن الجهل نعمة. (!) ومع ذلك فإن سيل الكتب والمقالات متدفق بقوة وببراعة. على أيدى مفكرين وأكاديميين وكتّاب وصحفيِّين، ورجال دين، ورجال سياسة. وفنانين، ودعاة الديمقراطية وحقوق الإنسان.. إلخ.

ولا أستطيع أن أكتم دهشتى حين يقول واحد من أهل الرأى فى العالم الإسلامى بثقة غريبة ومريبة بأن هذه الحملة لكشف ما يقال عن الإسلام فى الغرب نعطيها حجما أكبر من الحجم الحقيقى، وأن هذه الأقوال صادرة عن قلة فى الغرب، لا تأثير لها ولا أحد يأخذ أقوالها مأخذ الجد، ومن الأفضل ألا نشغل أنفسنا بواحد أو اثنين من الكتّاب الذين لا قيمة لهم. لا أستطيع أن أكتم دهشتى لأنى أرى كتّابا غربيين لهم وزنهم يعربون عن الانزعاج الشديد لهذه الموجات من الكراهية والعداء، ويعلنون أن انتشارها على النحو الذى صارت إليه ليس فى صالح الغرب. لا أستطيع أن أكتم دهشتى لأن الغربيِّين يزعجهم هذا الكم الهائل من العداء للإسلام، والمسلمون لا يشعرون بمثل هذا الانزعاج، ولا يحركون ساكنا للدفاع عن دينهم، وعن مصالحهم المهدَّدة، لأن هذا العداء سوف يأتى يوم قريبا كان أم بعيدا ويعبّر عن نفسه بالعدوان.. لا أستطيع أن أكتم دهشتى لأن المنكرين يرون الرئيس الأمريكى يطالب بتخفيف مشاعر الكراهية للإسلام والمسلمين، ويفعل ذلك بعض القادة الأوربيين. فلماذا يفعلون ذلك إذا لم تكن المسألة قد

تجاوزت حدود الرأى ودخلت فى طور جديد هو تعبئة الرأى العام فى الولايات المتحدة ودول أوربا لاعتبار أن العدو الوحيد للغرب فى هذه المرحلة هو الإسلام؟

لا أستطيع أن أكتم شعورى بالدهشة عندما اقرأ مقالا كتبه ويليام فاف فى صحيفة هيرالد تريبيون يوم ٥ ديسمبر ٢٠٠٢ بعنوان (توقفوا عن اعتبار الإسلام عدوا).. وقال فيه: إن مجموعة من أهل الفكر فى واشنطن يعملون على تحويل الحرب ضد الإرهاب التى تشنها الولايات المتحدة فى عهد إدارة الرئيس جورج دبليو بوش إلى حرب ضد الحضارة الإسلامية، وضد الدين الإسلامى - وفى هذه المجموعة من التيار المحافظ الجديد New conservative شخصيات مؤثرة فى الفكر والقرار فى أمريكا من أمثال اليوت كوهين الأستاذ بكلية جون هوبكنز للدراسات الدولية المتقدمة، وكينيث أديلمان kenneth adelman مستشار هيئة السياسات فى البنتاجون (وزارة الدفاع) والذى كان يعمل قبل ذلك إلى جانب الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان.

وهذه المجموعة ذات النفوذ والتأثير توجِّه انتقادات علنية إلى الرئيس بوش بسبب ما قاله مؤخرا من أن الحرب الأمريكية ليست ضد الإسلام، ولكنها ضد الإرهاب فقط. وهم يقولون: إن الإسلام نفسه هو العدو لأمريكا، لأن الدين الإسلامى والحضارة الإسلامية قائمان على التعصُّب، وعلى معاداة القيم الغربية، وعلى دعوة الناس إلى الدخول فى الإسلام وعلى التوسع وعلى القوة والعنف فى التعامل مع الآخرين. وهذه المجموعة تبنى موقفها على إقناع الأمريكيين بأن الإسلام كان معاديا للغرب قبل أن توجد إسرائيل،ولذلك فإن الصراع الإسرائيلى الفلسطينى ليست له علاقة بأزمة الإسلام مع الغرب.. ويقول ويليام فاف: إن هذا الموقف الفكرى جديد قد لا يقنع به كثيرون، ولكن يعزز هذا الاتجاه موقف قطاع من مجتمع البروتيستانت الإنجيليين فى الولايات المتحدة يرددون ويؤكدون أن الإسلام هو (الشر) ومن هؤلاء رجل الدين الذى أشرف على مراسم تنصيب الرئيس بوش عام ٢٠٠١، ويعلق ويليام فاف على ذلك بقوله: إن أمثال كوهين وأديلمان وأتباعهما الكثيرين فى المجتمع السياسى الأمريكى مازال عليهم أن يفسروا أسباب دعوتهم إلى الحرب ضد الإسلام والحضارة الإسلامية، أى ضد أكبر دين على الأرض بعد المسيحية يضم أكثر من مليار مسلم منتشرين فى القارات الست.

ويقول ويليام فاف: إن هؤلاء المفكرين وقعوا تحت تأثير نظرية صمويل هنتنجتون القائمة على المغالطة،وذات التأثير الضار على الغرب وعلى الإسلام معا، لأن هذه النظرية تعتبر أن الحضارات هى المسئولة عن المواقف السياسية، بينما هى فى حقيقتها ظواهر ثقافية، وهؤلاء المفكرون يصدرون أحكامهم على المسلمين ليس على أنهم بشر كسائر البشر فيهم الصالح والشرير، ولكنهم يحكمون على المسلمين بالإدانة لأنهم مسلمون، فالحكم على الهوية وليس على الأفعال هو الخطأ الذى وقعوا فيه ولم يلتفت إليه كثيرون، وهؤلاء ينتقلون من حتمية الحرب على الإسلام والمسلمين إلى حتمية وشرعية الحرب ضد العراق وشعب العراق، باعتبار أن الشعب لابد أن يتحمل مسئولية ما تفعله حكومته حتى إذا كانت حكومة استبدادية تمارس القمع وليس للشعب رأى فى سياساتها وقراراتها.

ويقول ويليام فاف تعليقا على ذلك:إن ما يقولونه عن العراقيين يمكن أن ينسحب على الإيرانيين والسعوديين، والمصريين، والإندونيسيين، والباكستانيين. وإذا كانت الشعوب مسئولة عما تفعله حكوماتها فلابد أن ينطبق ذلك على الأمريكيين أيضا.. وبناء على هذا المنطق فإن الشعب الأمريكى يحمل جانبا كبيرا من المسئولية عما تفعله حكومته، ولا يغيِّر من ذلك أن بعض الأفراد من المواطنين الأمريكيين يعارضون هذه الأفعال.. ومع ذلك فلا المسلمون ولا الأمريكيون يستحقون الموت بسبب انتمائهم إلى دين أو إلى حضارة، سواء لقى هذا الدين وهذه الحضارة قبولا أم رفضا، والتفكير بهذه الطريقة هو التفكير الاستبدادى الذى يتساوى مع النزعة العنصرية. فالعدو فى نظر هؤلاء يعتبر عدوا بسبب هويته وعقيدته وليس بسب أفعاله، والقول بأن المسلم هو (العدو) سواء كان رجلا أم امرأة، أم طفلا، بسبب الهوية الثقافية أو الدينية وليس بسبب ما يفعله من عمل عدائى، هو الفكر العنصرى بعينه، وهو الفكر الذى كان القادة الألمان أيام الحكم النازى منذ ستة عقود يحرضون - بناء عليه - الشعب الألمانى على شن الحرب على اليهود لأنهم يهود، ولأن النظرية العنصرية الألمانية كانت تعتبر اليهود فى مرتبة أدنى من مرتبة الألمان عنصريا، وتعتبر اليهود أعداء

للألمان لأن هؤلاء يهود وأولئك ألمان دون نظر إلى سلوك وأفعال اليهود. فقد كان كافيا فى الفكر النازى أن يكون اليهودى يهوديا ليكون عدوا للألمانى ولألمانيا، وعلى هذا الفكر بررت النازية النزعة إلى إبادة اليهود، ومثل هذه النظرة – التى تنطوى على التعميم فى العداء – ما حدث فى الثورة الشيوعية خلال نفس الفترة –منذ ستة عقود – فقد كان الشيوعيون يتلقون الأوامر بقتل ملاك الأراضى والأغنياء وأفراد الطبقة الأرستقراطية (الكولاك) وأصحاب المحلات التجارية، وأصحاب المهن والرأسماليين، والمنشقين عن الحزب الشيوعى. وأضافوا إليهم اليهود أيضا، وكان المبرر لقتل كل هؤلاء أنهم أعداء النظام الشيوعى ليس بسبب مواقفهم العدائية، ولكن بسبب أنهم ملاك أراض ورأسماليون ومهنيون ويهود! ! وذلك يجعلهم أعداء بالضرورة للنظام الذى يريد القضاء على الطبقية والمعارضة..

ويصل ويليام فاف من ذلك إلى أن معاداة المسلمين فى الغرب لأنهم مسلمون كمعاداة اليهود فى النازية، لأنهم يهود، ومعاداة المهنيين وغيرهم فى الثورة الشيوعية لأنهم كذلك. وهذا هو التفكير الاستبدادى الذى يمثل أكبر اتهام لأنه يضاف إلى مراحل الإبادة الجماعية التى حدثت فى القرن العشرين بنفس المبررات. ولكن أديلمان وكوهين ومن يتفقون معهم فى الدعوة إلى الحرب ضد الإسلام، يوجهون العداء إلى ثقافة ليست مسئولة مسئولية سياسية عن أعمال الحكومات بدلا من توجيه النقد السياسى وليس العقائدى، إلى القادة السياسيين وليس إلى الشعوب المؤمنة بدين معين، وإلى الحكومات والقادة والأفراد إذا صدرت منهم أعمال عدائية. أما التعميم والخلط بين العقائد الدينية والمؤمنين بها، والمواقف السياسية للحكومات، والجرائم التى يرتكبها أفراد، ووضعها جميعا فى سلة واحدة وإعلان الحرب عليهم جميعا، فإن ذلك أمر يتجاهل مبدأ مسئولية كل فرد عن تصرفاته دون أن تمتد المسئولية إلى غيره، ومسئولية كل حكومة عن أعمالها دون أن تمتد المسئولية إلى شعوبها، لأن هذا الخلط سيؤدى إلى كارثة تاريخية، والحروب إذا قامت لأسباب ثقافية ودينية فلن تكون لها نهاية، ولن تصل إلى حل للصراع، لأن الثقافات والأديان والعقائد لا يمكن التفاوض عليها، ولا يمكن التوصل إلى حل للاختلافات فيما بينها. وإذا سادت أفكار التيار المحافظ الجديد فى أمريكا فإن المسلم سوف يعتبر عدوا لأمريكا وأوربا لأنه

مسلم، وسيكون الغرب عنده هو العدو لأنه الغرب. مادام هذا التيار يعتبر الإسلام هو العدو لأنه إسلام ويدعو إلى حرب ضد المسلمين لأنهم مسلمون، وبذلك سوف تصل الأمور إلى النقطة التي يفقد فيها الجميع التحكم في مستقبلهم.

ويستدرك ويليام فاف فيقول: إن ذلك كله غير صحيح لأن الصدامات الواقعة اليوم بين أمريكا وعناصر فى المجتمعات الإسلامية تعكس حقيقة أخرى غير صراع العقائد والحضارات والثقافات.. إنها تعكس الصراع على السلطة داخل المجتمعات الإسلامية.. وهذا الصراع قائم بين المتشددين والمعتدلين، وبين أعداء التقدم وأنصاره، وبين التقليديين والمتعصبين السياسيين والمجددين والمصلحين السياسيين.. ويضاف إلى ذلك أن هناك جماعات وحكومات إسلامية معروفة في صراع مع حكومة الولايات المتحدة بسبب موقفها من إسرائيل ومستقبل الفلسطينيين وأيضا بسبب السيطرة على البترول، ويضاف سبب آخر هو سياسة فرض النفوذ الأمريكي، وفرض التواجد العسكرى الأمريكي في أراضي الدول الإسلامية، وهذه الصدامات بين المسلمين والأمريكيين - في حقيقتها - لأسباب سياسية، وهى صدامات خطيرة ولا يمكن التهوين منها، وهى فى حقيقتها أكثر عنفا مما تبدو الآن، ولكنها ليست حربا دينية. وإن محاولة تحويلها إلى حرب دينية عمل غير مسئول.

وقبل ذلك بأيام خرج (بات روبرتسون) وهو شخصية أمريكية معروفة يملك قناة تلفزيونية إنجيلية والمرشح السابق للرئاسة الأمريكية وقال فى التليفزيون: إن المسلمين فى الفترة الأخيرة مصممون على قتل اليهود. وإن أى أمل فى التفاوض على اتفاق سلام بإعطاء المسلمين الأراضى ليس إلا مجرد وهم، وأضاف: أتمنى أن يستيقظ اليهود فى أمريكا ويفتحوا عيونهم، ويقرءوا ما يقال عنهم.. فإن ادولف هتلر كان سيئا، لكن ما يريد المسلمون أن يفعلوه باليهود هو الأسوأ. بماذا نصف ما قاله بات روبرتسون علنا فى التلفزيون؟. هل نخطئ إذا قلنا إن هذه دعوة للكراهية؟. أليس فى هذه الأقوال خلط شديد وسموم قاتلة مثل اعتبار الصراع الفلسطيني الإسرائيلى صراعا بين (اليهود) و (المسلمين) أى صراعا دينيا بين أصحاب عقائد تتصادم،وليس صراعا بين (الإسرائيليين) و (الفلسطينيين)

أى صراعا سياسيا بين صاحب الأرض وبين من يريد اغتصابها؟. وأعتقد أن ما فى هذه الكلمات من تحريض صريح على كراهية الإسلام ومعاداة المسلمين لا يحتاج إلى شرح أو تعليق.. وبات روبرتسون مع القس جيرى فالويل ليسا إلا اثنين فى كتيبة لتعميق العداء والكراهية للإسلام. ولذلك قال فالويل علنا، إنه قرأ كتاب المسلمين (القرآن) فوجد أن محمدا (ﷺ) كان رجلا عنيفا رجل حرب وقال: أعتقد أن محمدا كان إرهابيا.. وكانت تعليقات فالويل سببا فى قيام عدد من الهندوس بالهجوم على بعض المسلمين وقتلوا منهم عشرة فى غرب الهند بعد أن أثارت هذه الكلمات مشاعر الهندوس ضد المسلمين. ومن يدرى ماذا ستكون عليه ردود الأفعال مستقبلا فى أنحاء العالم.

وصحيفة واشنطن بوست هى التى قالت فى أول ديسمبر ٢٠٠٢: إن كينث ألدمان عضو مجلس السياسة الدفاعية فى البنتاجون رفض ما قاله الرئيس بوش عن أن الحرب ليست على الإسلام، ولكنها حرب على الإرهاب.. وقال كينث ألدمان: إن محمدا ﷺ مقاتل وليس داعية سلام.. وقالت واشنطن بوست: إن الخوف يسيطر على المسلمين الأمريكيين من أن يكون الصقور المتشددين فى إدارة بوش قد كسبوا المعركة خاصة بعد أن أعلن إليوت كوهين عضو المجلس الاستشارى فى البنتاجون والخبير فى الدراسات السياسية الدولية أن الإسلام وليس الإرهاب هو العدو للولايات المتحدة، وبعد أن أعلن بول ويريش أحد النشطاء المؤثرين فى البيت الأبيض أن الإسلام فى حرب معنا.. وبعد أن أعلن أستاذ قانون أمريكى مشهور بأن إسرائيل لها الحق فى ارتكاب جرائم حرب ضد الفلسطينيين، وسخرت شخصيات معروفة فى مقابلات تلفزيونية من حرص المعتقلين المسلمين فى معتقل جوانتانامو الأمريكى على أداء صلاة التراويح وهم مقيدون فرادى بالسلاسل فى أقفاص حديدية، وبعد أن أعلن عن إحباط الأمن الأمريكى للخطة التى كانت مدبرة لتفجير مسجد الملك فهد أثناء تجمع المسلمين الأمريكيين لصلاة العيد.

ولم تتوقف موجة العداء عند حدود الولايات المتحدة بل امتدت منها حتى وصلت إلى روسيا. وفى تقرير لصحيفة الحياة اللندنية أن شهر رمضان فى روسيا

شهد أجواء من الشكوك والاتهامات التى أحاطت بالمسلمين بعـد عمليـة احتجـاز الرهائن فى أحد مسارح موسكو. وما تبعها من حملة إعلامية ضارية ضد الإسلام رافقتها إجراءات بوليسية لم يسبق لها مثيل ضد المسلمين. وكانت هذه الحادثـة بمثابة الفتيل الذى أشعل مشاعر التطرف القـوى والعـداء للإسـلام وأطلـق حملـة ضارية استهدفت المسلمين حتى أصبحـت كلمـة (إسـلامى) مرادفـة فـى الإعـلام للتطرف والإرهاب، فى حين شددت الرقابة على أماكن تجمعـات أبنـاء الجاليـة الإسلامية فى موسكو وتضمنت الحمـلات عمليـات مداهمـة واعتقـالات عشـوائية بالمئات دون توجيه تُهم محددة إليهم، وشـكا المسـلمون فـى موسـكو مـن تعسـف رجال الشرطة فى التعامل معهم فى الأسواق والأماكن العامة وعند المساجد حيث تتمركز دوريات للتدقيق فى أوراق الخـارجين مـن الصـلاة فـى المسـاجد وتفتيـش السيارات، ووصلت الحملة إلى المدارس، حيث تكررت حـوادث تعـرّض الأطفـال المسلمون فيها للضرب من زملائهم الذين يتهمونهم بأنـهم إرهـابيون. وكـل هـذه الاعتداءات تعنى أن الحملة الإعلامية المعادية قـد أثمـرت ونجحـت فـى إحـداث خلط فى الأذهان بين الدين الإسلامى والتطرف، ونقل تقرير الحياة قول متحـدث فى قناة تلفزيونية: إن القرآن يستخدم كدليل ومرشد للتطـرف،ودعـا كـاتب فـى صحيفـة ازفسـتيا إلى إغـلاق المساجد، وإجبـار المسـلمين علـى تغيـير دينـهم أو طردهم..

وليس فى روسيا كلها سوى ساعة واحدة فى قنـاة تلفزيونيـة حكوميـة واحـدة تبث برنامجا قصيرا للمسلمين كل يـوم جمعـة، وقـد أصبـح هـذا البرنـامج هدفـا للـهجوم حتـى إن إحـدى الصحـف الروسـية وصفتـه بأنـه دعـوى إلى التطـرف، وهاجمت المذيعة التى تقدمه لأنـها محجبـة، كمـا هـاجمت إذاعـة الأذان،وذكـر التقرير على لسان الشيخ محمود فيلتوف إمام مسجد منطقة (أترادنوبة) مـن أن تفرق كلمة المسلمين فى روسيا، والخلافات بين قادتهم وعدم توافر إمكانات مالية كافيـة لمواجهـة الهجمـة الإعلاميـة كـل ذلـك يوفـر أرضيـة خصبـة للمـهاجمين للاسلام.. وهكذا تبدو الصورة فى روسيا.

والشيء الغريب أن المسلمين يعقدون كل يوم ندوة، وينشر كل يوم تصريح علـى لسـان قادتـهم السياسـيين والدينيـين، لإعـلان أن الإسـلام يرفـض نظريـة صـراع

الحضارات، ويدعو إلى التعاون بين البشر جميعاً و لا يفرق بين الناس على أساس الجنس واللون أو الدين فكلهم لآدم، واختلافهم لحكمة أرادها الله لكي يكون التفاعل بين المختلفين محققا لمصالحهم جميعاً، واللوحة الفنية الجميلة لا يمكن أن تتكون من لون واحد، ولكنها تكتسب جمالها من تعدد الألوان، ومن الاختلاف بين الضوء والظل، وهكذا خلق الله الكون، الاختلاف فيه ثراء وتنوع والتكامل فيه ممكن بل ضرورى لتقدم البشر جميعاً. هذا ما يقوله قادة الرأى والسياسة والدين المسلمين، ولكن فى الغرب تكتسب نظرية صراع الحضارات، انصاراً يتزايدون يوماً بعد يوم، وينشرونها فى الرأى العام الأمريكى والأوروبى حتى أصبحت على كل لسان تقريبا وكأنها من المسلمات التى لا تحتاج إلى دليل أو مراجعة.

هذه النظرية أعلنها أستاذ العلوم السياسية صمويل هنتنجتون عام ١٩٩٣ وبلغت شهرته الآفاق بسببها. وقد خصصت مجلة لوبوان الفرنسية مقالا طويلا فى عدد ١٤ سبتمبر ٢٠٠١ للإشادة بعبقرية هنتنجتون ونظريته بعنوان (الرجل الذى تنبأ بصدام الحضارات) بقلم اليزابيث ليفى وقالت فيه: من الممكن أن تكون حرب الثقافات قد بدأت، وكل شيء يوضح بأن التسلسل المزعج للأحداث كما ذكرها بدأت تتحقق فالطائرات الانتحارية التى دمرت مركز التجارة العالمى قد تكون إعلانا لحرب الإسلام على الغرب، وهنتنجتون الذى عمل مستشاراً للرئيس الأسبق جيمى كارتر ويعمل الآن أستاذا للعلوم السياسية بجامعة هارفارد نبه إلى هذه الحرب بقوله: إذا كان القرن التاسع عشر قد شهد صراع القوميات المستقلة، وشهد القرن العشرون صدام الايديولوجيات، فإن القرن الحادى والعشرين سيشهد صدام الحضارات، لأن الحدود بين الثقافات والأديان والعرقيات ستكون من الآن فصاعدا مثاراً للانقسامات، ويرجع ذلك إلى أن الديانات تمثل قلب الحضارات السبع التى اقتسمت العالم، والديانات قوى أكثر خطورة، وغموضا، من الأيديولوجيات، وحيث إن انهيار الشيوعية قد أدى إلى اختفاء العدو المشترك للغرب والإسلام، فقد أصبح كل معسكر من معسكرى الغرب والإسلام هو التهديد الرئيسى للآخر).

وتقول اليزابيث ليفى إن الغرب عليه أن يواجه عدوه الطبيعى حاليا. وهو الإسلام. وسيكون عدوه بعد ذلك الحضارة الكنفوشية فى الصين. أما الذين يعتقدون أن الخطر على الغرب يأتى من الجماعات المتطرفة فقط فهم ضحية اعتقاد ساذج وسطحى، لأن الطابع القتالى والعنيف للمسلمين فى نهاية القرن العشرين حقيقة لا يمكن إنكارها، وخلال ألف وأربعمائة عام ثبت أن المشكلة الرئيسية بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية. ولكن المشكلة أن الإسلام حضارة مختلفة وأصحابها مقتنعون بأن ثقافتهم هى الأرقى، وأن قوتهم هى الأضعف. فالمشكلة بالنسبة للإسلام لا تكمن فى أجهزة المخابرات أو وزارة الدفاع الأمريكية، ولكنها تكمن فى أن حضارة الغرب أيضاً حضارة مختلفة، وأصحابها مقتنعون بأن حضارتهم حضارة عالمية، ومؤمنون بتفوق هذه الحضارة على ما عداها، وبتفوقهم وقوتهم وقدرتهم، يؤمنون بأن ذلك يعطيهم الحق فى نشر هذه الحضارة فى جميع أنحاء العالم، وأمام مقاومة هذا الهدف فإن الحرب الشاملة لا مفر منها، وقد بدأت فعلا مع بداية تفكك الإمبراطورية السوفيتية وكانت البداية فى أفغانستان.

وتقول إليزابيث ليفى، إن المبرر للحرب أن أفغانستان هى المأوى المزعوم لأسامة بن لادن، وبين انعدام بصيرة الغرب، والجمود الإسلامى اجتمعت عناصر المأساة، والأمريكيون هم الذين أعطوا السلاح والأموال بسخاء لهؤلاء المجاهدين فى أفغانستان لكى يحاربوا السوفييت نيابة عنهم، وقاموا بذلك بتقوية وتسليح الذراع التى انقلبت عليهم بعد ذلك، وقد فعلوا ذلك أيضا مع طالبان.

ويوضح هنتنجتون الموقف كما يراه فيقول: فى الوقت الذى يشهد فيه الغرب انتصارا للعالم الحر يشهد المسلمون انتصارا للإسلام. ومن هنا فإن الصراع الذى انتهى بهزيمة الجيش السوفيتى لم يتوقف، واستمر فى التصاعد. ومنذ عام ١٩٧٩ حدث ما يشبه الحرب بين الحضارات، إذ كان المسلمون يرون أن الغرب يشن حرباً ضد الإسلام، والغرب يرى أن جماعات إسلامية تشن حربا ضد الغرب عموماً، ومن البديهى إذن أن تندلع الحرب فعلا.

وتقول إليزابيث ليفى: إن صمويل هنتنجتون شرح تفصيليا سيناريو نهاية العالم، وسبق أن تنبأ بها زميله فرانسيس فوكوياما الأستاذ بجامعة هارفارد الذى يؤمن بأن الرأسمالية ستصبح هى صورة المستقبل للبشرية، والذى أعلن أن مصدر الفخر للغرب أنه انتصر إلى الأبد، وانهارت الشيوعية إلى الأبد ، وأن المسلمين والصينيين والهنود وسائر الشعوب ستسارع بالانضمام إلى نظام الاقتصاد الغربى الحر بعد أن أصبح هو النظام الوحيد و لا بديل له. وبالإضافة إلى ذلك فإن ادعاء الغرب بأن دفاعه عن مصالحه ليس إلا لدواع أخلاقية ومعنوية ادعاء فيه استهانة بعقول الشعوب. فالغرب يحشد قواه للدفاع عن مصالحه ويدَّعى أنها مصالح المجتمع الدولى كله، غير أن ما يريدون فرضه كنوع من العالمية يراه الآخرون نوعا من الإمبريالية. والحقيقة أن التأكيد على المبادئ الإنسانية والعالمية يتماشى مع مداومة الحديث في الغرب بلغة مزدوجة؛ فنحن ندافع عن الديمقراطية بشرط ألا تؤدى الديمقراطية إلى حكم الأصوليين الإسلاميين، وننادى بخطر الانتشار النووى بالنسبة للعراق وإيران ولكن لا نحظر ذلك على إسرائيل. ونقول بأن حقوق الإنسان تمثل مشكلة فى الصين، ولكن لا نقول ذلك عن دول أخرى صديقة لأمريكا تنتهك فيها حقوق الإنسان. وفى ظل هذه الظروف، فإن الفرصة الوحيدة للبقاء بالنسبة للغرب وعلى رأسه أمريكا، قد تكون الإقلاع عن فرض تصوراتهم فى كل مكان فى العالم، والتراجع عن فكرة (القرية الكونية الصغيرة) التى تقودها أمريكا.

وصمويل هنتنجتون يرى عدم مصداقية نظرية أمريكا التى تعطيها الحق فى التدخل فى الشئون الداخلية للدول والتى صاغتها فى نظرية (التدخل الإنسانى) ولذلك قال: إن الاعتقاد الغربى بأن هناك رسالة عالمية لثقافة الغرب ينطوى على ثلاثة عيوب، أولها أنها نظرية كاذبة، وثانيها أنها نظرية غير أخلاقية، وثالثها أنها نظرية تؤدى إلى نتائج خطيرة لأن أى تدخل من الغرب فى شئون الحضارات الأخرى سيكون من أكثر العوامل خطورة وسيؤدى إلى زيادة عدم الاستقرار. والحقيقة المؤكدة أن الصدام بين الإسلام والغرب حول الوجود والهوية، يستتبعه صراع جغرافى- اقتصادى قد يصل إلى زوال أحد الطرفين كما قال الباحث الأمريكى ألكسندر ديلى، أما هنتنجتون فإن القضية بالنسبة له

واضحة، وتتلخص فى أن هناك هجوما على الغرب من خصوم واثقين من أنفسهم وهم ضعفاء فى نفس الوقت ولا يرون من الغرب إلا النقائص والجرائم ويرون أن الغرب متجه إلى الأفول، ومن الصعب الانقياد للغرب مادامت أسطورة أمريكا التى لا تقهر قد انهارت تحت أنقاض برج التجارة العالمى، على الرغم من أن القوة الأمريكية لم تكن أبداً بمثل هذا الجبروت الذى صارت إليه بدون منازع خلال السنوات الأخيرة، ومع ذلك فإن اعتداءات الحادى عشر من سبتمبر يمكن أن تكون شهادة ميلاد لكيان إرهابى جبار يناسب حجم (القوة الكبرى)، ولا أحد يستطيع التنبؤ بعواقب هذا الصراع وإن كان التاريخ يشهد بأن تحطم الأسطول الأمريكى فى ميناء بيرل هاربر كان نقطة انطلاق ورد الفعل الذى أسفر عن الانتصار العسكرى والسياسى للولايات المتحدة. إلا أنه يبقى سؤال تطرحه الباحثة اليزابيث ليفى هو: هل إذا تأكدت الشبهات حول مسئولية ابن لادن، ستبقى نظرية اعتبار الإسلام العدو الأبدى للغرب؟، وتجيب على هذا التساؤل بقولها: إن فكرة انقسام العالم إلى حضارات كبرى انتهت ولم يعد لها ما يبررها، وإذا بدأت الحرب فى وول ستريت،حى المال والبورصة ورجال الأعمال فى نيويورك، فمن الممكن ألا تكون هذه الحرب بين الإسلام والغرب، وتكون حربا فى هذا (العالم الواحد) الذى يعيش تحت وطأة السوق الواحدة، وما يؤدى إليه نظام السوق الحرة من ازدياد أعداد الفقراء والمنبوذين وازدياد العنف بينهم كلما شعروا بالدونية.

ومن ناحية أخرى، فقد تحدث هنتنجتون نفسه عن (ثقافة دافوس) حيث يتجمع كبار رجال المال والأعمال والسياسة لتكريس نظام الاقتصاد الحر وفتح الأسواق أمام الدول الصناعية الكبرى، واعترف بأنه حتى فى داخل البلاد الغنية، فإن ثقافة دافوس لا تحرك سوى النخبة ولا تحرك الشعوب. وقد كتب هنتنجتون يقول: إن الحكومات والجماعات والمؤسسات الغربية مثل البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى قد حاولت ملء الفراغ الايديولوجى بقواعد الاقتصاد الارثوذكسى الجديد والديمقراطية السياسية، وفى الصراعات الحضارية، على عكس الصراعات الأيديولوجية، فإننا ننحاز إلى إخواننا. وتقول اليزابيث ليفى: إن هنتنجتون بقوله هذا يتناسى الانقسامات التى مرت بالمجتمع الإسلامى أثناء

حرب الخليج، ويرى على العكس أن حرب الخليج كانت لحظة حاسمة للتحرك الإسلامى. وإذا كان صدام حسين بالنسبة للكثيرين طاغية فقد اعتبروه واحدا منهم، والمشكلة تكمن فى أن أمريكا تحت ستار أنها تؤدى رسالة، وتنشر القيم، فإن سلاسل المحلات والمنتجات الأمريكية تنتشر وتحقق مبيعات هائلة لكل شعوب العالم، دون أدنى مراعاة لحقوق الدول والشعوب، وأخيراً فإن الطائرات الانتحارية من المحتمل أن تهدد مواقع خارج أمريكا، ويكون هدفها السادة الجدد لهذا العالم الذى لم تعد فيه حدود، والذى يخضع للرأسمالية الطاغية التى لم تعد احتكاراً قاصراً على الغرب وحده.

وكما قال أستاذ العلوم السياسية الأمريكى بنيامين باربر فإن العالم موزع الآن بين قوتين متناقضتين ومتكاملتين فى نفس الوقت، وكل منهما غير مستعدة للتعايش هما الشركات العملاقة التى تتحكم فى الأسواق والأذواق فى العالم من ناحية، وقوى التطرف والجهاد من ناحية أخرى، مع أن بشائر العصر الجديد تشير إلى أنهما سوف يعملان معاً فى نفس المكان، وفى نفس الزمان، وبعيداً عن الصراع، وازدراء القوة الأمريكية يمكن أن تتوافق مع التطلع إلى اتباع نظام الحياة الأمريكى، وقد عبر بنيامين باربر عن فكرته هذه لتبسيطها فقال: إن ستة أشخاص من الشباب بوسعهم ارتداء الجينز والاعتياد على شرب الكوكاكولا، وأكل الهامبورجر، وسماع موسيقى الراب، ومع ذلك يقومون بتفجير طائرة ركاب أمريكية، وفى نهاية المقال تقول اليزابيث ليفى: بدلا من الصدام بين الإسلام والغرب، ألم يكن الاقتران الدامى بين (الجهاد) و (التكنولوجيا الحديثة) هو الذى تم فى سماء نيويورك يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ؟..

هكذا نرى كيف يؤسس مفكرون فى الغرب نظرية تبرر الحرب ضد الإسلام، ونرى فى نفس الوقت من يحاول تفنيد هذه النظرية، وإن كانت أصوات الداعين للعداء والحرب هى الأقوى والأقرب إلى صناع القرار.

أما الداهية الإسرائيلى شمعون بيريس فقد طرح نظرية فى منتهى الخبث خلط فيها أولاً بين الإسلام والإرهاب دون أن يذكر اسم الإسلام، وطرح فيها الحل

الوحيد أمام الغرب لحماية نفسه من هذا الإرهاب بعزل الارهاب أى عزل الإسلام. وطرح هذه الرؤية الكاتب الأمريكى توماس فريدمان وهو أشد خبثا من بيريس، فى مقال بعنوان: (شدوا أزر الاخيار فى الحرب الأهلية الإسلامية) فى عدد ١٥ سبتمبر ٢٠٠١ فى صحيفة هيرالد تريبيون الأمريكية قال فيه: إذا كان الهجوم الإرهابى الذى تعرضت له الولايات المتحدة يوم ١١ سبتمبر ونفذته خلية إرهابية واسعة الانتشار يعادل اندلاع حرب عالمية ثالثة، فقد حان الوقت للتفكير فى آثارها الجيوبوليتيكية المحتملة على المدى البعيد، وكما أفرزت الحربان العالميتان الأولى والثانية نظما وتقسيمات جديدة، فإنه من المحتمل أن يحدث نفس الشيء فى هذه الحرب، فما هو الشكل المحتمل لهذا التقسيم؟.

ويطرح توماس فريدمان تصور شمعون بيريس الذى تولى عدة مرات منصب وزير الخارجية ومنصب رئيس الوزراء فى إسرائيل، ويقول بيريس: لقد اكتشفوا منذ عقود أن التدخين يسبب السرطان، وسرعان ما بدأ الناس يطالبون بتخصيص أماكن خاصة للمدخنين، وأماكن أخرى لغير المدخنين، والإرهاب هو سرطان هذا العصر، وطوال عقد من الزمان كانت معظم الدول تنكر هذه الحقيقة أو تميل إلى تلمس أسباب لتبرير استمرارها فى التعامل مع الإرهابيين. ولكن بعدما حدث فى نيويورك وواشنطن يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فإن كل شخص أصبح يدرك أن الإرهاب هو السرطان وأنه خطر علينا جميعاً. ولذلك يجب على كل دولة أن تقرر الآن ما إذا كانت تفضل أن تكون دولة مدخنة أو أن تصبح دولة غير مدخنة، أى هل ستكون دولة تدعم الإرهاب أو دولة لا تدعمه؟ وبيريس يقصد بذلك أن هناك نوعا من التقسيم للدول فى طريقه للظهور، وأن الولايات المتحدة ستضع عددا من الدول فى قسم المدخنين المؤيدين للسرطان، أى المؤيدين للإرهاب، وتضع الدول الأخرى فى القسم الثانى الذى يرفض ويقاوم الإرهاب معها.

ويقول توماس فريدمان: إن ذلك كما لاحظ شمعون بيريس لا يمثل صراعا بين الحضارات، أو بين العالم الإسلامى من جانب ضد المجتمعات المسيحية والهندوسية والبوذية واليهودية على الجانب الآخر، لأن الصراع الحقيقى ليس بين الحضارات ولكن داخل الحضارات، بين المسلمين، والمسيحيين، والهندوس، والبوذيين، واليهود، ذوى الرؤية العصرية والتقدمية، ضد الآخرين من ذوى

الرؤى المتخلفة التى تنتمى إلى القرون الوسطى، وسيكون خطأ كبيراً إذا استبعدنا العالم الإسلامى من هذا التحالف فإن ذلك يجعلنا لا ندرك كيف أن معظم المسلمين يشعرون بأنفسهم أنهم يعيشون فى دول ضعيفة، ويتطلعون إلى الولايات المتحدة بوصفها نموذجا مثاليا، ومصدر إلهام لهم.

وكان (ستيفن كوهين) الخبير فى شئون الشرق الأوسط قد لاحظ أن الرئيس الأمريكى الأسبق لينكولن قد ذكر فى حديثه عن أهل الجنوب الأمريكى فى أعقاب الحرب الأهلية أنه يتعين ألا ننسى أنهم يصلون لنفس الإله الذى نصلى له، ولذلك ذكر ستيفن كوهين أن الأمر ذاته ينطبق على العديد والعديد من المسلمين، ولذلك يجب علينا أن نحارب هؤلاء المسلمين الذين يؤدون الصلاة لإله الكراهية وحده، غير أننا لا نود أن نخوض حربا مع الإسلام ومع الملايين من المسلمين الذين يتوجهون بالصلاة لنفس الإله الذى نصلى له، فالإرهابيون الذين اعتدوا على الولايات المتحدة فى سبتمبر ٢٠٠١ هم قوم يصلون لإله الكراهية ، ولم يستهدفوا من وراء إرهابهم تغيير مسار سياسة معينة للولايات المتحدة، لأنهم لم يتقدموا بأية مطالب، فإرهابهم مدفوع بالحقد وحده، وبمعتقدات عدمية تؤمن بأن المجتمع فاسد وينبغى تدميره. وكانت أهداف ذلك الإرهاب تبدأ من المؤسسات التى تشكل عصب النموذج الأمريكى من أسواق المال، إلى القوات العسكرية لذلك فإنه يجب استئصال جذور هؤلاء الإرهابيين والقضاء عليهم. ولكن يجب أن يتم ذلك بالطريقة التى لا تجعل أمريكا هى العون الرئيسى لأسامة ابن لادن على تحقيق أهدافه، لأن هؤلاء الإرهابيين لا يريدون قتل الأمريكيين فقط، ولكنهم يفكرون بشكل استراتيجى،ويرغبون فى إشعال نار هذا الانتقام الأمريكى الذى لا يفرق بين الإرهابيين، والمسلمين الآخرين، وسيكون ذلك انتصارهم النهائى، لأنهم ينظرون إلى العالم على أنه صراع بين الحضارات، ويعملون على أن تكون هذه هى نظرة كل مسلم لينضم إلى جهادهم.

ثم يعود توماس فريدمان إلى نظرية شمعون بيريس عن السرطان الإسلامى فيقول: إن الأمريكان لم يتمكنوا من التغلب على شركات السجائر الكبرى إلا عندما قام أشخاص من داخل هذه الصناعة بكشف كثير من أسرارها للرأى العام، وأبدوا معارضتهم لها ولرؤسائهم الذين يروجون لمرضى السرطان، وبالمثل

فإن الفرصة الوحيدة للتغلب على هؤلاء الإرهابيين المتطرفين لن تكون فى الهجوم عليهم فقط، مع أن ذلك أمر ضرورى، غير أنه ليس كافياً، لأنه سرعان ما سيخلفهم جيل آخر، ولذلك فإن مجتمعاتهم، والمتدينين من دينهم، هم الذين يمكنهم أن يقيدوا حركتهم وينزعوا عنهم الشرعية، ولن يحدث ذلك إلا عندما تعترف أغلبية المسلمين بأن أسامة بن لادن وأتباعه يقودونهم إلى الدمار، وإلى تشويه صورة دينهم ومجتمعاتهم ، وهذه الحرب الأهلية داخل الإسلام بين العصريين والمتخلفين سوف تستمر لسنوات وخاصة فى الجزائر ، والأردن ، وباكستان، ومصر، والسعودية، الأمر الذى يتطلب استراتيجية اقتصادية وسياسية ، واجتماعية، مماثلة للاستراتيجية العسكرية الأمريكية فى ضخامتها وقوتها وتطورها. وإن عدم الرد بشدة على الهجوم الإرهابى الذى تعرضت له الولايات المتحدة فى ١١ سبتمبر سوف يؤدى إلى تنفيذ هجوم أسوأ على أمريكا فى المستقبل، وسيؤدى إلى اندلاع حرب بلا نهاية مع الإرهابيين، ولكن الرد دون تفرقة بين الذين يصلون لإله الكراهية والذين يصلون إلى نفس الإله الذى نصلى له، سوف تسفر عن حرب بين الحضارات لن يكون لها آخر،حرب قد تجعل الجميع فى قسم المدخنين (المدعمين للإرهاب) !.

إذا كان كل ذلك وأكثر منه يقال عن الإسلام والمسلمين، وإذا كان وزير الأوقاف العالم الفاضل الدكتور محمود حمدى زقزوق قد ذكر بنفسه فى حديث صحفى إن العداء للإسلام يتخذ صفة علمية وإنسانية وتقدمية وحضارية، وأن المسلمين لذلك يجب أن يسلحوا أنفسهم بنفس الأسلحة، وأضاف إلى ذلك حقيقة مفزعة، إذ قال: إن المستشرقين الفوا ٦٠ ألف كتاب للهجوم على الإسلام بينما المسلمون نائمون.. وقد أرضى الدكتور زقزوق ضميره العلمى حين أعلن هذه الحقائق، ويبقى أن يستكمل ما بدأه لتصحيح المفاهيم الغربية المضللة عن الإسلام.

وهل يكفى ما أعلنته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة فى وثيقة وزعتها فى ١٦ ديسمبر ٢٠٠٢ أن دعت فيها المسلمين إلى وقفة حازمة لرفض المحاولات التى يبذلها أعداء الإسلام للإساءة إلى الدين الإسلامى. وذكر الدكتور عبد العزيز التويجرى مدير المنظمة أن الأمة الإسلامية مطالبة بممارسة النقد الذاتى البناء، والمصارحة الداخلية الإيجابية لإيجاد السبل لإخراجها من

الأزمة الثقافية والحضارية التى تعيشها، وضرورة القيام بتغيير جذرى لآليات العمل وأساليب التعامل مع الغرب لمخاطبته بلغته وبمنطقه والتمكن من التأثير فى المجتمع الغربى.

هل فى هذا البيان الكفاية ؟.. وماذا بعده ؟؟.

وقد أطلق المسلمون البريطانيون موقعاً على شبكة الإنترنت لمواجهة موجات العداء المتزايدة ضد المسلمين فى الغرب. يشرح حقيقة الإسلام بعد الحملة الشعواء من التشويه التى تعرض لها عقب أحداث سبتمبر ٢٠٠١ وبعد توجيه الاتهام فى هذه الأحداث إلى المسلمين وخاصة من العرب وما تلاها من تشويه متعمد للإسلام فى العالم.

هل فى ذلك الكفاية أمام القوة الطاغية الشاملة المعادية للإسلام والمسلمين؟..

هل يكفى بيان أو موقع على الإنترنت وأمامنا مقال خطير للدكتور بهجت قرنى فى ملف الأهرام الاستراتيجى الصادر فى يناير ٢٠٠٢ بعنوان (الصورة النمطية للعربى والمسلم فى الغرب)، يقول فيه: إن روبرت جرفيس الأستاذ الشهير للعلاقات الدولية فى جامعة كولومبيا فى نيويورك يعتبر من خبراء العلاقات الدولية الذين تماثل شهرتهم شهرة كيسنجر وهنتنجتون ، وقد أسس شهرته على موضوع (التصورات) وتأثيرها السياسى، وقال: إن سلوكنا لا يقوم على الحقائق، ولكن يقوم على تصوراتنا لهذه الحقائق وكيفية إدراكنا لها، فإذا كان أحدنا مصابا بعمى الألوان مثلا ورأى قميصا أصفر بينما هو فى الحقيقة أزرق، فإنه سوف يصدق بأنه أصفر، ويتصرف على هذا الأساس عند اختياره، ومن هنا تنبع أهمية موضوع صورة العربى والمسلم فى الخيال الشعبى الأمريكى، ويلخصها الدكتور بهجت قرنى فى خمسة تصورات وفقا للأبحاث المتعددة التى أجريت فى أمريكا:

العربى المسلم: بدوى، غير متحضِّر، خسيس، تقوم حياته على الخطف والغزو القبلى.

الراقصة الشرقية: المبتذلة، الرخيصة، التى تهدف فقط إلى اثارة الغرائز.

رجل البازار، التاجر، الشره، الذى يساوم طوال الوقت وهدفه استنزاف أكبر قدر من نقودك.

البليونير: محدث نعمة، مقامر، مستهتر، يحاول شراء كل شيء حتى النساء وكرامة الآخرين.

الإرهابى: قاذف القنابل ، الوحشية كامنة فى ثقافته، وسلوكه البربرى قائم على ذبح الأطفال والنساء لتحقيق أهدافه، عديم الإنسانية فى تنشئته وليد لظروف البيئة المحيطة به. هذه هى صورة المسلم!!

ويشير الدكتور بهجت قرنى إلى لقاء له مع بعض الليبراليين الأمريكيين عبروا فيه عن تخوفهم من تأثير هذه التصورات السلبية وتقديمها على أنها جزء لا يتجزأ من الثقافة العربية الإسلامية، وقد يفلت الزمام لمن يروجون للحديث عن (التلوث الثقافى) الذى يهدد المجتمع الغربى نتيجة لوجود بعض العرب والمسلمين الأمريكيين، وقد تستغل بعض الجماعات المتطرفة هذا الظرف المواتى للمطالبة بنوع من (التطهير الثقافى) كما حدث فى البلقان.

إذا كان الأمر كذلك..

لمن نتوجه بالسؤال.. أو بالرجاء .. أو بالأمل؟.

الحرب على الإسلام اشتعلت!

روجت دوائر العداء للإسلام فى أمريكا رسم الكاريكاتير للرسام الأمريكى المعروف دوج مارت ونشر أولا فى صحيفة (كلاهاس ديمقراط) ثم نشرته صحف أخرى بعد ذلك، وفى هذا الرسم صور الرسول (ﷺ) وهو يقود سيارة محملة بالمتفجرات، وكتب تحتها (ماذا سوف يقود محمد؟) وهذا الرسم وحده أشد خطراً من مائة مقال فى الهجوم على الإسلام، لأنه يرسخ الفكرة العنصرية المعادية للإسلام والمسلمين، ويؤكد الصورة النمطية السلبية عن الإسلام والرسول (ﷺ). وقد نبه إلى ذلك رئيس مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية وقال: إن الإعلام الأمريكى يعيش الآن موسما مفتوحا للهجوم على المسلمين ومقدساتهم وشعائرهم، ولم تتحرك جهة للاحتجاج على وصف الرسول (ﷺ) بالإرهاب وبأنه القدوة للمسلمين فى القتل والتفجير.. ولم يتقدم الأزهر بمذكرة احتجاج.. ولا تحرك السفير فى أمريكا.. وكأن الأمر لا يستحق الانزعاج!

ولابد أن يكون أحد فى الأزهر قد قرأ تقرير الأستاذ محمد وهبى من واشنطن فى (المصور) عما حدث فى مدينة سانت لويس أثناء المؤتمر السنوى للكنيسة المعمودية، وقد بلغت هذه الكنيسة من الأهمية ما جعل الرئيس جورج بوش يوجه خطابا من خلال القمر الصناعى إلى هذا المؤتمر، وقال القس جيرى فاينز الرئيس السابق للمؤتمر ومن أشهر الزعامات الدينية فى أمريكا: إن النبى (ﷺ) كان شاذا!! وكان تعليق زملائه فى نفس الكنيسة عن هذه السفالة: إن هذا ما وصل إليه استنادا إلى بحوث قام بها عن الإسلام.

وجاء فى هذا التقرير: إن الهجوم الوقح على الإسلام ورسوله (ﷺ) أصبح عادة بين القيادات الدينية، والغالبية العظمى منهم إنجيليون يؤيدون إسرائيل بحماسة شاذة، بالإضافة إلى التهجم المستمر من زعامات دينية على رأسهم بات

روبرتسون الذى كان مرشحا للرئاسة فى أمريكا من قبل، وجيرى فالويل، وفرانكلين جراهام، وجيمى سواجارت صاحب الفضائح الجنسية والمالية التى اهتزت لها أمريكا قبل بضع سنوات. ومن الأمثلة ما طالب به جيمى سواجارت يوم ١٠ نوفمبر ٢٠٠٢ بطرد كل الطلبة المسلمين الأجانب من الجامعات الأمريكية. وقال: إن العرب يلفون حفاضات الأطفال على رءوسهم، وحزام مراوح السيارات على خصورهم، ويجب علينا أن نقول لكل مسلم من المسلمين الذين يعيشون بيننا: إنك إذا نطقت بكلمة واحدة فستختفى فوراً وأضاف: إن رسولهم مارق وشاذ!

أما بات روبرتسون المرشح السابق للرئاسة الأمريكية والذى يعتبر من أهم الزعماء الإنجيليين فقد بلغت به البذاءة إلى حد وصف المسلمين بأنهم أسوأ من النازيين وأن النبى (ﷺ) متطرف، ولص، وقاطع طريق، والإسلام (خدعة كبرى) والقرآن الكريم (مجرد سرقة من الأفكار الدينية اليهودية)، وقد أعلن الرئيس الأمريكى جورج بوش مبادرة أسماها (المبادرة الإيمانية) وحصلت المنظمة التى أنشأها بات روبرتسون هذا على نصف مليون دولار من الأموال المخصصة لهذه المبادرة!

وجيرى فالويل وصف الرسول (ﷺ) بأنه إرهابى، ووصف الزعيم الإنجيلى فرانكلين جراهام الإسلام بأنه (دين شرير وكريه). ونقل محمد وهبى عن جون مونتفيل الذى يرأس برنامج الدبلوماسية الوقائية بمركز الدراسات الدولية والاستراتيجية فى واشنطن قوله: بأن ما يحدث من هجوم على الإسلام فى أمريكا يمكن أن يدفع نحو تصادم حضارى بين العالم الإسلامى والغرب، وأضاف: لقد تلبدت الأجواء بصورة خطيرة على عدة مستويات أهمها التشويه الخطير لصورة الإسلام والمسلمين فى الغرب.. وعلل جون مونتفيل هذا الهجوم الضارى بأنه من تداعيات هجوم سبتمبر ٢٠٠١ على أمريكا، والدور السلبى لوسائل الإعلام الأمريكية فى هجومها على الإسلام والمسلمين، بالإضافة إلى أن بعض القيادات المؤثرة فى الكنيسة الإنجيلية ليست على مستوى ثقافى يجعلها تتحدث عن الإسلام بموضوعية لأنها لا تعلم الكثير عن الإسلام، كما أن هناك تحالفا بين هذه الكنيسة وبين إسرائيل والقوى التى تؤيدها فى أمريكا، وهذه

الكنيسة تؤمن حرفيا بأن عودة السيد المسيح مرتبطة بهجرة كل يهود العالم إلى إسرائيل، وما يتبع ذلك من انهيار إسرائيل. ويعقب ذلك ظهور السيد المسيح. وإسرائيل من جانبها تستفيد من النفوذ السياسى المتزايد لهذه الكنيسة وجهودها الناجحة لدفع يهود أمريكا للهجرة إليها..

وفى مجلة نيوزويك الأمريكية كتب فريد زكريا رئيس الطبعة العربية فى عدد ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٢ عن حديث القس جيرى فالويل فى برنامج (٦٠ دقيقة) فى التليفزيون الذى قال فيه: إن النبى محمدا (ﷺ) كان إرهابيا، وذكر أن أقوال فالويل هذه تبدو كأنها جزء من اتجاه وهناك غيره كثيرون، ففى مناسبات عدة وصف بات روبرتسون النبى محمدا (ﷺ) بأنه لص، وقاطع طريق، ووصف الإسلام بأنه عملية اغتيال كبيرة، وكذلك فإن فرانكلين ابن القس بيلى جراهام، انضم إلى هذه الجوقة، ووصف الإسلام مراراً بأنه دين شرير جدا، وتكررت إهانة الإسلام فى افتتاحيات ومقالات الصحف الأمريكية التى ووجهت بالصمت من البيت الأبيض، ومن غالبية القادة السياسيين والدينيين من التيار الرئيسى فى أمريكا. والذين يهاجمون الإسلام فى أمريكا ليسوا شخصيات مغمورة، بل هم من أشهر القادة الدينيين فى الولايات المتحدة، ولهم اتباع بعشرات الملايين، ولهم – أيضاً – نفوذ سياسى هائل، فقد دعا الرئيس جورج بوش القس بيلى جراهام لتلاوة الصلاة فى حفل تنصيبه رئيسا. ولذلك فإن برامج التبادل الثقافى، وبرنامج الدعاية الأمريكية الموجه إلى المسلمين لإقناعهم بأن أمريكا صديق لهم، لن يكون له تأثير فى مقابل هذا الصخب المتعصب من القادة الدينيين، وعلى مدى العقد المقبل ستكون القضية الأولى فى السياسة الأمريكية هى علاقتها مع ١٢٠٠ مليون مسلم فى أنحاء العالم، وإقامة علاقة صحيحة مع المسلمين سيكون لها تأثير أعظم على حماية مصالح أمريكا، بما فى ذلك حياة المواطنين الأمريكيين، وإن حملة فالويل، وروبرتسون، وجراهام التى تفيض بالحقد والكراهية إنما تقوم بإشعال النار التى يمكن أن تكبر لتصبح حريقا هائلا فظيعا.

ويقول مقال نيوزويك الأمريكية إن أحداث ١١ سبتمبر حلت مشكلة ملحة بالنسبة للأصوليين، فخلال العقود الماضية كان هؤلاء يبحثون عن أعداء لهم،

وقد وجدوا أن الهجوم على المسلمين هدف أسهل بكثير من الهجوم على الشذوذ الجنسى وحق الإجهاض وغير ذلك من سلبيات المجتمع الأمريكى.

هذا ما قاله رئيس تحرير الطبعة العربية لمجلة نيوزويك الأمريكية.!

وفى الصحافة الأمريكية كل يوم عشرات المقالات تهاجم الإسلام، وتصفه بالنازية، والتخلف، كما قال كيفين بيكر Kevin Baker فى مقال بعنوان (الجانب الأعلى للإسلام الراديكالى) فى صحيفة نيويورك تايمز يوم ١٥ ديسمبر ٢٠٠٢، من أن الإسلام قوة دمار، لكنه قوة دمار يمكن أن تفتح الطريق أمام نظام ديمقراطى جديد فى الشرق الأوسط، وتلك هى النظرية الرائعة التى قدمها فرانسيس فوكوياما، ونادافا ساامين Nadav Samin وملخصها: أن العالم الإسلامى اليوم فى وضع يماثل وضع أوربا فى بداية العصر الصناعى، عقب الهجرات الكبرى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من الريف إلى المدن، حيث كان ملايين الفلاحين الأوربيين البؤساء ذوى الأفكار المشوشة ينضمون إلى الحركات الراديكالية مثل الفاشية والشيوعية، وبالرغم من الدمار الذى تسببت فيه هذه الحركات الراديكالية فإنها عجلت بإزالة العوائق التى كانت تمنع ظهور الديمقراطية الليبرالية، وهكذا الحال فى العالم الإسلامى، فإن الريفيين يهاجرون من القرى المتخلفة إلى الأحياء الحضرية الواسعة فى القاهرة، والجزائر، وعمان، تاركين وراءهم (إسلام الريف) المرتبط بالأمية وعدم التعلم، ولكن هذه الهجرات أدت إلى اضطرابات فى نفوس الرجال والنساء الذين يعانون من الحرمان وسط مجتمعات مرفهة، فيتحولون إلى أشخاص يعانون من الاغتراب والغضب، ولا يجدون أمامهم إلا اللجوء إلى الجماعات الإسلامية المتطرفة، التى تتحدى السلطة التقليدية القائمة، كما فعل أسامة بن لادن بفتواه ضد الولايات المتحدة، فقد كان يعلن فى نفس الوقت التحدى للسلطة الشرعية فى العالم الإسلامى، وهو بذلك يشبه هتلر عندما كان يصدر منشورا، ولينين عندما كان يصدر مرسوما، وكما أدت النازية والشيوعية إلى كارثة الحروب العالمية، فإن هذه الكوارث أفادت أوربا، وكانت (كارثة) الحرب العالمية الأولى هى التى ساعدت أوربا على التخلص من النظام القديم والدخول فى عصر الحداثة، كذلك فإن تطرف الجماعات الإسلامية ربما يؤدى إلى (كارثة) لا سبيل إلى

مواجهتها واحتوائها إلا بالقوة العسكرية، وسوف تؤدى المواجهة بالقوة العسكرية إلى تغيير العالم الإسلامى.

هكذا يروجون للقيام بشن حرب على العالم الإسلامى من أجل تغييره ليكون متوافقا مع الأهداف والمصالح الأمريكية. فالإسلام هو العدو، ومحاربة التطرف والإرهاب الإسلامى هى القضية التى تبرر تغيير العالم الإسلامى بالقوة وفق إرادة أمريكا.

وإذا أردنا أن نفهم لماذا كل هذا العداء للإسلام فى أمريكا وأوربا، فسوف نجد لهذه الظاهرة أسبابا متعددة دينية، وسياسية، واقتصادية يطول شرحها، ولكنّ هناك سببا جديدا شرحه باحث أمريكى متخصص هو (سين يوم) Sean Yom فى دراسة بعنوان (الإسلام والعولمة) فى مجلة السياسات والمجتمع الدولية الأمريكية عدد أبريل ٢٠٠٢ وعرضه مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية فى مجلة (قراءات استراتيجية) عدد ديسمبر ٢٠٠٢، وملخص الدراسة.. أن الإسلام عاجز عن الدخول فى نظام العولمة الذى تقوده أمريكا، لأنه بطبيعته يعارض العولمة والقيم العلمانية، ولذلك فإن حركة الإحياء الإسلامى الحديثة، والأصولية الإسلامية هما عائق كبير للعولمة.. ويقول الباحث الأمريكى: لقد ترتب على انتهاء الحرب الباردة وجود فجوة أيديولوجية، وحاول كثير من الباحثين وضع نظريات جديدة للعلاقات الدولية تعبر عن الصراع العالمى بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، وهؤلاء الباحثون هم الذين وصفهم البعض بأنهم منظرو الفوضى العالمية، لأنهم قالوا: إن العولمة هى عملية تجزئة وتآكل سيادة الدول، وإعادة تشكيل الولاء الاجتماعى والدينى من جديد، وتنبئوا بانقسام العالم دينيا وحضاريا، مما يعنى الدخول فى عصر من العنف العرقى والثقافى، وبناء على هذا التفكير رأوا أن إحياء الأديان، وإحياء الدين الإسلامى بصفة خاصة، سيؤدى إلى التمرد ضد التحديث، والعولمة، والعلمانية، بينما العولمة هى عملية صهر للأسواق، وذوبان للدول القومية بدرجة لم يشهدها العالم من قبل، وسيؤدى ذلك إلى ارتباط الدول والمؤسسات بعضها ببعض بأقوى وأسرع من ذى قبل، وسوف يسيطر على العالم شعور بالقلق نتيجة للسرعة التى تتم بها العولمة الاقتصادية، وفتح الحدود للتجارة وللهجرة البشرية، وللسياحة

وللاتصال الثقافى العابر للقوميات، وعلى الجانب الآخر فإن الدين، خاصة الدين الإسلامى توجد به فوارق فى الرؤى السياسية بين الحضارات المختلفة.

وتصل هذه النظرية بعد ذلك إلى القول بأن العولمة، و ما نتج عنها من شعور بعدم الإحساس بالأمان، سيدفع المسلمين للاصطدام بالشعوب غير المسلمة، ووفقا لهذه النظرية فإن الإسلام يمثل الفكر المحافظ، ويضمر نوايا العنف وهو عدو للعالم غير المسلم!

تقول الدراسة: إن الإسلام – كما فى الخيال الشعبى، أو فى عقول أصحاب نظرية الفوضى العالمية – هو كما جاء وصفه فى رواية جون بوتشان عام ١٩١٦ (هو عقيدة قتال) ورجل الدين فى الإسلام مازال يقف على المنبر ويحمل فى إحدى يديه المصحف، وفى اليد الأخرى يحمل السيف،ويرى أن الموت هو طريق المسلمين إلى الجنة.

نظرية الفوضى العالمية هذه تستحق أن نفهمها، لأن كثيرين فى الغرب يؤمنون بها، وهؤلاء يرون أن الإسلام غير قادر على التعايش مع الحضارات والديانات الأخرى فى عصر العولمة، لأن الثقافات والديانات تشتبك فى هذا العصر بشكل غير مسبوق، ويرون أيضا أن (الهوية) إذا قامت على أساس الدين، خاصة الدين الإسلامى،فإنها ستؤدى بدون شك إلى اندلاع الصراعات والنزاعات، ولذلك يرى أبرز المفكرين أن القوى الأيديولوجية سوف تعوق العولمة وستكون هى المصادر الأساسية للنزاعات العنيفة. وهذا ما جعل مفكرا مثل ليون هادر يصف الإسلام بأنه الخطر الأخضر.. بل وشبهه بالسرطان الذى ينتشر فى مختلف أرجاء الكون ويشكل تحديا لشرعية القيم الغربية، وقد دفع ذلك كله لإثارة موجة من القلق فى العالم الإسلامى بسبب الهيمنة الغربية، وأدى ذلك إلى معارضة كثير من المسلمين للحضارة الغربية وابتكاراتها الفكرية مثل الديمقراطية، والليبرالية. وهذا ما دفع المستشرق المعروف برنارد لويس إلى القول بأن العلمانية والعولمة تعارضهما موجة من الرفض فى العالم الإسلامى، وهذا ما يؤيده هنتنجتون حين قال: مادامت هناك مناطق فى العالم لا تقبل انتصار وتفوق الحضارة الغربية، فإن الصراع حتمى وإن مفهوم (الأمة) فى الإسلام يتعارض بشدة مع فكر التفوق والسيادة فى الغرب، وهذا ما يجعل الصراع أمرا لا مفر منه بين الحضارة

الإسلامية والعالم الغربى خاصة مع ظهور الحركات الأصولية الإسلامية التى تمثل حركات سياسية واجتماعية وثقافية، وتحاول إحياء الشعائر الإسلامية، وهى-لذلك-خطر كبير على العولمة! وعلاوة على ذلك-كما يرى هنتنجتون-فإن هناك ميلا وغزيرة إسلامية للصراع والعنف، كما هو ظاهر حاليا فى البلاد الإسلامية، مما يمثل مؤشرا على تزايد العنف فى علاقات الإسلام بالحضارات والديانات الأخرى!

وأخيرا يرى روبرت كابلان أن القيم الغربية نابعة من العلمانية، بينما القيم الإسلامية نابعة من الدين والاختلاف قد يؤدى إلى حروب، كما حدث فى أفريقيا وجنوب شرق آسيا، والبلقان.. ويضاف إلى ذلك أن آثار الصراعات القديمة بين الإسلام والغرب مازالت مؤثرة فى الحاضر، كما ظهر فى يوغسلافيا. وفى النهاية يصل أصحاب هذا الفكر من هنتنجتون إلى برنارد لويس إلى روبرت كابلان إلى أن الغرب سوف يواجه بهجوم إسلامى انطلاقا من الادعاء بأن الإسلام كدين وأيديولوجية يعادى الغرب والعولمة معا، ومن الممكن أن يتوحد العالم الإسلامى فى غضبته ضد العولمة، ويحاول تحقيق حلمه الخاص بتفوق الإسلام، وسيبقى الإسلام حاجزا بين المسلمين وبقية العالم، كما سيبقى عاجزا عن القيام بدور فى المجتمع العالمى، وغير قادر على إفراز نظام حكم جيد.

والمشكلة عند أصحاب هذه النظرية أنهم ينطلقون من فكرة واحدة هى أن دور الدين يجب أن يتناقص مع تصاعد العولمة، وقد عبر عن ذلك بوضوح هارفى كوكس عام ١٩٦٥ فى كتاب بعنوان (المدينة العلمانية) قال فيه: إنه خلال عقود قليلة سوف يتحقق انهيار الدين إلى الحد الذى يجعل العالم يتحول إلى الإلحاد، وستحدث عملية تحويل للمجتمعات إلى الديمقراطية، والتعددية الثقافية، وتحديث المجتمع، ولكن هذه النظرية لم تثبت صحتها، لأن الدين مازال يمثل قوة اجتماعية وأيديولوجية، وتنتشر الحركات المعارضة للعلمانية فى مختلف أرجاء العالم بين غير المتدينين، كما تنتشر بين المتدينين بما فى ذلك الكنائس الأمريكية التى تحاول إحياء الشعور الدينى.

روبرت أليسون، مفكر أمريكى له كتاب بعنوان (اختفاء الهلال) قال فيه: إن الأمريكيين ورثوا عن أوروبا صورة شبح الإسلام كدين نشأ من الطغيان، ويؤيد

القمع الديني والسياسي والجمود الاقتصادى، ويقول: إن الأمريكيين استسلموا لهذه الفكرة ولم يهتموا بالبحث.. هل هي صحيحة أو لا؟.. لأنها فكرة مناسبة لهم سياسيا، وقد استخدم الأمريكيون العالم الإسلامى مرارا وتكرارا كنقطة مرجعية لإظهار تميزهم وقوتهم، ويقول أيضا: إن الأمريكيين فى أثناء الأزمات يبتدعون أفكارا معادية للإسلام، وقد أصبح لديهم احتياطى كبير من النماذج السلبية فى العالم الإسلامى تعمل أجهزة الإعلام على ترسيخها وتثبيتها حتى أصبح لهذه القوالب الفكرية دور كبير فى صنع السياسة الأمريكية نحو الدول العربية والإسلامية، وفى هذا الاحتياطى من الصور والأفكار عن الإسلام لدى أمريكا ما يكفى لإثارة الخوف والشكوك، وترى الصفوة الحاكمة فى أمريكا أن الدين اعتقاد شخصى، وليس تنظيما كاملا لكل نواحى الحياة، كما يراه المسلمون، ولذلك يعتبرون (الظاهرة الإسلامية) ظاهرة مخالفة وغير عادية، وبالتالى يرون أن الإسلام دين مبهم ومتطرف ويمثل تهديدا دائما..

ويفسر ذلك جراهام فولر مدير مجلس المخابرات الأسبق بقوله: نحن شعب غير مؤهل ثقافيا لفهم السياسة الدينية، ولذلك يرى الأمريكيون أن المسلمين أعداء للديمقراطية، ويسعون إلى التوحد ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (الأنبياء: ٩٢) ويناضلون من أجل تحرير بلادهم، وهذا ما يفسر المخاوف فى ذهن الأمريكيين من (الجهاد) الذى يتحدث عنه المسلمون. وقد حدد المسئولون عن التخطيط الاستراتيجى بعض الدول الإسلامية، وبعض الجماعات فى قائمة الخطر القائم على الولايات المتحدة ومصالحها. وتعتبر أمريكا أن هذه الدول (الرجعية) و(الخارجة على القانون) و(الشريرة) ترعى الإرهاب وتجارة أسلحة الدمار الشامل، وأنها تستعمل لغة الأيدلوجية الإسلامية وتقدم مساعدات إلى المتطرفين الإسلاميين أعداء عملية السلام فى الشرق الأوسط، والنظم العربية الموالية للغرب.. وهذا ما جعل فريق العمل الخاص بالإرهاب والحرب غير التقليدية فى مجلس النواب الأمريكى يعد تقريرا أعلنه فى ١٩ مارس ١٩٩٠ وجاء فيه: إن المسجد هو الموقع المتقدم للجهاد الذى يبدأ منه المتطرفون (الجهاد) ضد الغرب، ومع أهمية النفط لاقتصاد الغرب فإن الصراع على الشرق الأوسط هو أول مواجهة بين الشكل الجديد للإسلام وبين العالم اليهودى - المسيحى وتنتشر

فكرة المواجهة بسبب رفض المتشددين الإسلاميين للنفوذ المتزايد للغرب فى المجتمعات الإسلامية.

والآراء المعارضة للإسلام تلقى رواجا فى أمريكا، مثل رأى عاموس بيرلوتر الذى يردد كثيرون ما قاله من أن طبيعة الإسلام تتعارض مع الديمقراطية، وتحتقر الثقافة السياسية الديمقراطية بأكملها وتتخذ منها موقف العداء، وأن الثقافة الإسلامية عدوانية، ومتشددة، وعنيفة تماما مثل الحركات الفاشية والبلشفية، والنازية، ولا يمكن أن تتوافق مع الغرب المسيحى العلمانى. وهذا ما يفرض على الولايات المتحدة وأد الاتجاه الإسلامى الذى يقول: إنه يعادى الغرب فى مهده! . وهذا ما عبّر عنه والتر ماكدوجال أحد مساعدى الرئيس الأسبق نيكسون حين دعا إلى تحالف أمريكا مع روسيا لحماية العالم المسيحى من عدو مشترك هو العالم الإسلامى. وكذلك عبّر عن هذا الاتجاه دانيال بابيس بقوله: إن الإسلام قوة متشددة رجعية مدفوعة بكراهية الفكر السياسى الغربى، ويقول: إننا فى الخط الأمامى لصراع يعود تاريخه إلى مئات السنين، لأننا الذين نقف ضد الذين يريدون إلقاء القيم الغربية فى البحر، كما فعلوا من قبل مع الصليبيين، وأن تحدى المسلمين للغرب أقوى من التحدى الشيوعى، فالمسلمون يخالفون سياستنا، ويقول بابيس: إن الإسلام ليس الخطر الجديد على الغرب فقط، ولكنه الخطر الجديد على العالم كله. ولذلك - كما يقول - يجب محاربة الإسلاميين وهزيمتهم، ويجب أن يتوقف اليسار الأمريكى عن اللغة اللينة التى يتحدث بها عن المسلمين، لأن (عصر الإسلام) ربما يكون على وشك أن يبدأ من جديد، ويكون الإسلام قد حل محل الأيديولوجيات الراديكالية العلمانية الأخرى، ويصبح بذلك هو الخطر الرئيسى، ولهذا يجب إيقاف المسلمين عند حدهم.

وقبل ذلك قال الفيلسوف الفرنسى المعروف ماكسيم رودينسون: إن المسيحية الغربية تنظر إلى العالم الإسلامى على أنه خطر أكثر من اعتباره مشكلة، وقبل ذلك ردد هذا الرأى المؤرخ البريطانى الراحل ألبرت حورانى الذى قال: إن الإسلام منذ ظهوره وهو يمثل مشكلة لأوربا، فالأوربيون ينظرون إلى الإسلام بمزيج من الخوف و الدهشة، ولذلك لم يستطيعوا أن يقبلوا محمدا (ﷺ)

على أنــه نبـى حقيقـى، أو يقبلـوا بصحـة الوحـى الـذى نـزل عليـه، ويـرون أن الإسـلام ديـن كـاذب، وتم نشـر الإسـلام بالسـيف، وكمـا قـال أحـد الغـزاة الصليبيين فى القرن الثالث عشر: لقد بـدأ الإسلام بالسـيف، وانتشـر بالسـيف، وسينتهى بالسيف..

وهذا المعنى عبر عنه البروفيسور ريتشارد بوليـت الأسـتاذ بجامعـة كولومبيـا فقال: إن الأمريكيـين تقبلـوا بسـرعة فكـرة أن الثقافـة الإسـلامية فيـها العنـف والتطرف، ولذلك فلا يمكن قبولهـا أو التعـامل معـها، وقـد يـؤدى ذلـك التشـدد الأمريكى إلى ظهور نوع جديد من معاداة السامية يستند إلى الإسـلام بـدون دليـل أو برهان.

عّبر عن هذا المعنى أيضا الرئيس الأسبق ريجان حين قال: إنه يرى احتمـالات وقوع حرب دينية إذا عاد المسلمون إلى الفكرة القائلة بـأن الطريـق إلى الجنـة هـو الاستشهاد فى محاربة المسيحيين واليهود،ولم يدرك الرئيس ريجان طوال فترة رئاسته أن المسلمين لا يحاربون المسيحيين واليـهود، لأنـهم مسـيحيون ويـهود، ولكنهم يحـاربون الاحتـلال، لأنـه احتـلال، وليـس للاحتـلال ديـن، بدليـل أن المسلمين حاربوا احتلال صدام حسين للكويت، ولكن مجموعة التخطيط السياسـى فى وزارة الخارجية الأمريكيـة كشـفت أن القضيـة تكمـن فـى أن أنصـار الجنـاح المتشدد فى مؤسسة السياسة الخارجية يعملون على رسم خـط علـى الرمـال ضـد الإسلاميين المتطرفين، وفى نفس الوقت فإن الرئيسين كارتر وريجان همـا اللـذان قدما المساعدات بالمال والسلاح للجماعات الإسلامية فـى أفغانسـتان عندمـا كـانت أمريكا تريد توظيف مقاومة هـذه الجماعـات للاتحـاد السـوفيتى لصالحـها، ثـم واجه كارتر الصدمة بقيام الثورة الإيرانية،ولم تكن صدمة، لأن سياسة الولايـات المتحدة كانت قائمة على اعتبار شاه إيران رجل بوليس لحماية المصالح الأمريكية فـى منطقـة الخليـج، ولذلـك كـان سقوط الشاه كارثـة اسـتراتيجية للولايـات المتحدة، وكارثة سياسية لكارتر نفسه، كما قال بريجنسكى نائب مستشار الأمـن القومى الأسبق..

ومن بين من عمل فى مجلس الأمن القومى – جارى سيك – اعـترف بـأن هنـاك تحيزا ثقافيا عميقا، وسوء فهم لدى الأمريكيين عن الإسلام. كما أن لديهم شعورًا

بأن هناك تناقضا بين نظامين للقيم والمفاهيم.. تناقض بين الموقف الإسلامى وهو موقف قائم على النظرة الدينية للعالم، وموقف أمريكا والغرب عموما وهو موقف قائم على العلمانية والمصالح، وبالرغم من أن كارتر والخمينى متدينان - كما قال جارى سيك - فإن الفارق بينهما كبير ولا يشتركان فى شىء.. فالخمينى - كما يقول - نموذج بدائى لنبى العصور الوسطى القادم من الصحراء متحمسا للحقيقة المطلقة، ويعبد إلها قاسيا منتقما يدعو أتباعه إلى ثأر العين بالعين، والسن بالسن جزاء لمخالفة أى إنسان للقانون الإلهى، وهذا النموذج الإسلامى يمزقه الحقد على كل من يتجاسر على معارضة نظرته.. وهكذا - كما يقول جارى سيك - فإن التوتر سيظل قائما بين المتدين والعلمانى، وسيؤدى ذلك دائما إلى فشل المسلمين والغربيين فى تفهم مخاوف وأمانى بعضهما البعض، لأن شقة الخلاف لا سبيل إلى تضييقها بين ثقافتين مختلفتين، بحيث تبدو أى محاولة لإيجاد تفاهم بينهما مستحيلة، ويبرر جارى سيك أفكاره بقوله: نحن جميعا أسرى افتراضاتنا ومسلماتنا الثقافية والشخصية، وهذا ما يجعل الأمريكيين يرون أن فكرة إقامة دولة إسلامية فكرة سخيفة، تتعارض مع التاريخ الحديث وهذا التاريخ نتاج الثقافة والتقاليد فى الغرب، ولذلك فإن صانعى السياسة الأمريكية ليسوا مستعدين للتعامل مع دولة يحكمها الدين ويرون أن ذلك أمر غير محتمل.

ومنذ سقوط شاه إيران انتشر وتعمق فى أمريكا والغرب شعور بالعداء للعالم الإسلامى بأسره، خاصة بعد استيلاء الإيرانيين على السفارة الأمريكية فى طهران واعتبار من فيها أسرى، فكان هذا الحادث بداية استغلها كثيرون لتعميق المخاوف والقلق من الإسلام والمسلمين، واعتبار الإسلام فى ذاته خطرا على المصالح والأهداف الأمريكية..

وقد حدث تحول فى عام ١٩٧٩ بالنسبة للموقف الأمريكى من الإسلام، ففى هذا العام قام الاتحاد السوفيتى بغزو أفغانستان، وعندئذ أجمع صانعو القرار الأمريكيون على أن الصدام الاستراتيجى الذى له الأولوية هو الصدام مع المعسكر الشيوعى، ويمكن تأجيل الصدام والمواجهة مع الإسلام، وكتب الرئيس كارتر فى يومياته: إن غزو السوفيت لأفغانستان يعتبر أخطر تطور يشهده العالم، ويمكن أن يهدد السلام منذ الحرب العالمية الثانية.. وهذا ما جعل الإدارة الأمريكية

تقوم بتعبئة المقاومة الإسلامية ضد السوفييت، وبدأت المخابرات الأمريكية فى قيادة هذه العملية بإثارة المشاعر المعادية للشيوعية، وقررت الاستعانة فى ذلك بمن أسمتهم (رجال الدين الأصوليين) ويقول بريجنسكى عن ذلك: كانت الولايات المتحدة تعمل على استغلال الإسلام واستخدامه ضد الاتحاد السوفيتى وكانت تحرض القادة الإسلاميين على محاربة القوى الراديكالية العلمانية الكافرة..

وفى عهد ريجان ظهرت عبارات العداء للإسلام والمسلمين على ألسنة المسئولين فى إدارته، وكان وزير الخارجية جورج شولتز يوجه الاتهامات إلى (الإسلام المتطرف)..

وكذلك كان وزير الدفاع كاسبار واينبرجر يتحدث عن التعصب والعداء للغرب عند المسلمين. وفى مناسبات عديدة استخدم ريجان نفسه لغة عدائية فى الحديث عن الإسلام والمسلمين، وعقب انتخابه فى عام ١٩٨٠ أجرى مقابلة مع مجلة تايم قال فيها: إن المسلمين يعتقدون أنهم إذا لم يقتلوا مسيحيا أو يهوديا فلن يدخلوا الجنة. وفى أعقاب غزو إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢ قدّم ريجان اقتراحا لإشراك المعتدلين العرب فى عملية السلام بين العرب وإسرائيل وقال: إن ذلك يجب أن يتم قبل أن تضع موجة الأصوليين الإسلاميين المعادين للسلام الحكومات العربية الموالية للغرب فى موقف الدفاع، وعندما أصدر ريجان أمره بقصف ليبيا عام ١٩٨٦ قال للشعب الأمريكى: إنه يضرب البربرية والإرهاب الإسلامى العالمى، وأكد نائب الرئيس دان كويل عام ١٩٩٠ على وجود صلة مباشرة بين الشيوعية والنازية، والأصولية الإسلامية.

وهكذا لم تكن الجماعات الإسلامية المتطرفة فى أفغانستان موضع رعاية ودعم مباشر من الولايات المتحدة إلى أن رحل الاحتلال السوفيتى من أفغانستان فرأت الولايات المتحدة أنهم مصدر إزعاج وقلق لها ولحلفائها، خاصة بعد أن بدأت الفصائل الأفغانية فى توجيه أسلحتهم ضد بعضهم البعض وضد أهداف عربية وأمريكية،ووجه أصدقاء أمريكا اللوم لها لأنها هى التى وضعت الأساس لشبكة الإرهاب باسم الإسلام.

وعندما جاء الرئيس جورج بوش الأب إلى السلطة عام ١٩٨٩ دارت فى مؤسسة الرئاسة والخارجية مناقشات حول الإسلام، ووصلت المناقشات إلى أن الحركات الإسلامية انتشرت فى أنحاء العالم العربى، وأدى ذلك إلى جعل الإسلام فى مقدمة اهتمامات السياسة الخارجية الأمريكية، ومعرفة ما إذا كان الإسلام يتمشى مع الديمقراطية أم لا ؟.. وتزايد قلق المسئولين فى إدارة بوش الأب بعد ما حقق الإسلاميون مكاسب فى الانتخابات فى بعض الدول العربية، وظهور حكومة الجبهة الإسلامية فى السودان، وارتبط فهم أمريكا للإسلاميين بانتهاء الحرب الباردة، والفراغ الاستراتيجى نتيجة انهيار الاتحاد السوفيتى، وانتهاء حشد أمريكا لقواها لمحاربة (امبراطورية الشر) فى عصر الحرب الباردة، وهكذا بدأ بعض صناع الرأى والقرار فى أمريكا فى التفكير فى أن الإسلام يمكن أن يكون محل الشيوعية كعدو عالمى جديد، وبالتالى فهو الذى يجب أن يكون محور الاستراتيجية الجديدة للولايات المتحدة، وهذا ما عبّر عنه وزير الخارجية فى عهد بوش الأب حين قال: إن الأصولية الإسلامية متناقضة مع الغرب، ومع القيم الديمقراطية ومع مبادئ حرية التجارة، والمبادئ والقيم التى تؤمن بها أمريكا ودول الغرب،ولذلك فعلى أمريكا أن تتغاضى عن مسألة الديمقراطية مادامت ستخرج عنها الأصولية الإسلامية، وأن الحسابات الأمنية والاستراتيجية هى التى تدعو إلى شكوك الأمريكيين نحو الإسلاميين، ويبدو أن بعض المسئولين الأمريكيين يعتبرون الإسلام السياسى حركة شعبية ذات جذور تاريخية تشبه الحركات القومية الثورية فى العالم الثالث، وهى الحركات المناوئة لأمريكا، وأمريكا لا تقبل التحديات للنظام العالمى الذى تتولى قيادته، فإن هيبة أمريكا ومصالحها وحلفاءها وسمعتها هى التى تحرك سياساتها.

وكان أول بيان أمريكى واضح عن سياسة حكومة بوش الأب من الإسلام فى الخطاب الذى ألقاه مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى إدوارد ديجيريجيان فى ميريديان هاوس فى واشنطن فى يونيو ١٩٩٢، و قد هاجم فيه أولئك الذين يتخذون من العملية الديمقراطية مطية للوصول إلى السلطة لهدم الديمقراطية والانفراد بالسلطة الدكتاتورية بعد ذلك..

وأعلن مساعد وزير الخارجية تفسير خطاب بوش بأن نهاية الحرب الباردة جعلت الدعامتين الرئيسيتين للسياسة الأمريكية هما: حل النزاع العربى الإسرائيلى، والوصول إلى نفط الخليج، و هما على قمة الاهتمامات الأساسية للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط لعدة عقود من السنين.. ويضاف إليهما دعامة ثالثة هى مجموعة من القيم الأساسية مثل: تأييد حقوق الإنسان.. والتعددية الحزبية، والمشاركة الواسعة فى الحكم.. ورفض التطرف.. ومحاربة الإرهاب..

وقال نائب وزير الخارجية أيضا: إن إدارة الرئيس بوش الأب لا ترى حتمية المواجهة بين الغرب والإسلام، ولا ترى أن الإسلام يهدد السلام العالمى، وترى أن هذا الفكر مفرط فى السذاجة بالنسبة للواقع المعقد.. وترى الإدارة أيضا رفض القول بأن هناك تصادما بين الإسلام والغرب بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، وأضاف: لقد انتهت الحروب الصليبية منذ وقت طويل، والأمريكيون يرون الإسلام قوة حضارية تاريخية من القوى التى أثرت على ثقافتنا وساهمت فى إثرائها.. وقال: إن كان هناك اختلاف بين الأمريكيين وغموض شديد حول الجماعات التى تسعى لإصلاح مجتمعاتها وفقا للقيم الإسلامية، فإنه تجب التفرقة بين الجماعات الإسلامية المعتدلة والجماعات المتطرفة، وقال: إنه يمكن تفسير التطرف الإسلامى على أنه تعبير عن الإحباط، وعدم توافر فرص سياسية واجتماعية، ولذلك يجب رفض تفسير هذه الظاهرة الإسلامية على أنها تعبير عن كراهية للغرب نابعة من طبيعة الإسلام ذاته.

وكان الرئيس بوش الأب قد نجح فى بناء التحالف لتحرير الكويت، واستطاع الرد على النقد الموجه من العرب بأن أمريكا تكيل بمكيالين بين العرب وإسرائيل، وذلك حين ضغط على حكومة الليكود برئاسة إسحق شامير للمشاركة فى مؤتمر السلام فى مدريد عام ١٩٩١.. وإيقاف بناء مستوطنات جديدة فى الأراضى الفلسطينية المحتلة.. وبذلك أصبحت للولايات المتحدة الهيمنة فى الشرق الأوسط وتزايد مؤيدو أمريكا فى المنطقة وأصبحوا يتطلعون إليها من أجل الزعامة وتحقيق العدل والسلام فى المنطقة..

وعندما جاء الرئيس بيل كلينتون إلى السلطة احتفظ بمساعد وزير الخارجية إدوارد ديجيريجيان مهندس سياسة سلطة الرئيس بوش الأب نحو الإسلام. وأعلن كلينتون أن البعض فى أمريكا يصرون على أن هناك عقبات دينية فى علاقات أمريكا والشرق الأوسط وأنه لا سبيل إلى تخطى هذه العقبات أو تحقيق الوئام بين الجانبين، وهؤلاء يرون أن الصدام بين معتقداتنا وثقافتنا حتمى لا محالة.. وأعتقد أن هؤلاء مخطئون، فأمريكا يجب أن ترفض فكرة حتمية الصدام بين الحضارتين، ويجب أن تحترم الإسلام.

واستمر كلينتون فى الاهتمام بعملية السلام بين العرب وإسرائيل. وتأمين النفط وتشجيع الديمقراطية،واقتصاد السوق، وفى فبراير ١٩٩٣ نظمت الحكومة الأمريكية ندوة لمدة أسبوع فى وزارة الخارجية حول السياسات الإسلامية، حضرها كبار صانعى السياسة، كما حضرها وزير الخارجية وارين كريستوفر ومادلين أولبرايت وكانت مندوبة أمريكا فى الأمم المتحدة وصدر بيان عن نتائج الندوة أعلنه مسئول فى البيت الأبيض قال فيه: لدينا سياسة نحو الإسلام والنزعة الإسلامية وكل ما فعلته الحكومة هو وضع مجموعة من النقاط للبحث لمعالجة المسألة الإسلامية وشكلت وزارة الخارجية مجموعة من المسئولين لدراسة هذه المسألة، وقد أحاط أعمال هذه المجموعة جو من السرية، ولم ينشر شىء عنها، أو عن نتائج أعمالها.. وبعد ذلك نظمت وزارة الخارجية مؤتمرا دعت إليه عددا كبيرا من المسئولين من مختلف الوكالات والهيئات لتعريف مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية وتوفير المعلومات والقدرات للتعامل بفاعلية مع الإسلام..

ويمكن معرفة سياسة إدارة كلينتون من خلال حديث كل من مستشار الأمن القومى فى ذلك الوقت انتونى ليك فى مايو ١٩٩٤، ومساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى روبرت بلليترو فى نفس الفترة من مايو ١٩٩٤..

وقال مستشار الأمن القومى: لقد واجه الشرق الأوسط خيارا بين طريقين، طريق يؤدى إلى مستقبل يسيطر فيه المتطرفون على أسلحة الدمار الشامل ويشكلون خطرا على إسرائيل وعلى أصدقاء الولايات المتحدة فى المنطقة، وطريق آخر يؤدى إلى التقدم الديمقراطى، و الرخاء الاقتصادى، والاستقرار والأمن فى

المنطقة. فالتقسيم الجوهرى فى الشرق الأوسط يقوم على العنف والقمع والعزلة من ناحية، والسلام والحرية والحوار من ناحية أخرى، والصراع بين الاتجاهين صراع بين الخير والشر، ونحن مع الدول التى لها مواقف مشابهة لنا، وتشاركنا أهدافنا فى السوق الحرة، وتوسيع نطاق الديمقراطية، ومنع انتشار أسلحة الدمار الشامل..

وقال الرئيس كلينتون أمام البرلمان الأردنى فى أكتوبر ١٩٩٤: إن الولايات المتحدة ترى أن هناك صراعا فى الشرق الأوسط بين الطغيان والحرية، بين الرعب والأمن، بين التعصب والتسامح، بين العزلة والانفتاح، وهو صراع قديم قدم الزمان بين الخوف والرخاء.. ورفض كلينتون فكرة صراع الحضارات والديانات، وقال المسئولون فى إدارته: إنه يفسر الإسلام السياسى تفسيرا أكثر تحررا وإن كان بلليترو قد أعلن أن التركيز على القيم التقليدية فى العالم الإسلامى يتعارض مع الغرب والقيم الغربية، وفى نفس الوقت أعلن كلينتون العكس وقال: إن القيم التقليدية تتمشى مع قيم الغرب، وتتفق القيم الإسلامية مع القيم الأمريكية من حيث التمسك بالدين، وصالح الأعمال، والحرص على الأسرة وعلى المجتمع، وقال: إن شعوبنا يمكن أن تعيش فى انسجام ووئام مع بعضها، وكثيرا ما كان كلينتون يستشهد بالتسامح الذى غرسه النبى محمد (ﷺ) فى أتباعه وأنصاره وتأثرت به الشعوب التى تؤمن بأديان أخرى.

وفى خطابه أمام البرلمان الأردنى ركّز كلينتون على أن أمريكا عليها أن تكون الجسر بين النظم الروحية المختلفة ولا تقوم بدور الدولة المحاربة، ويجب تنفيذ استراتيجية لدعم المعتدلين فى المجتمع الإسلامى، وغرس الإيمان بالتعايش والحوار.

وبعد شهور أكد كلينتون من جديد أن الإسلام قوة كبيرة للتسامح والاعتدال فى العالم، وتتمشى فيه النزعة التقليدية مع القيم الغربية، وأن الولايات المتحدة تحمل احتراما للإسلام، وتتمنى التعامل مع المسلمين لحماية الإسلام، وضمان مستقبل أفضل لنا ولهم.

وعندما زار كلينتون إندونيسيا عام ١٩٩٤ ذهب إلى المسجد الكبير فى العاصمة جاكارتا والقى كلمة قال فيها: حتى وإن كانت هناك بعض المشاكل مع الإرهاب

القادم من الشرق الأوسط، فإن الإرهاب لا يمت إلى الإسلام بصلة.. ولا يمت إلى دين أو ثقافة.

وقال مساعدو كلينتون: إنه يرى أن التطرف الإسلامى يتخذ الدين قناعا لإخفاء أهدافه للوصول إلى السلطة السياسية، ولذلك تجب التفرقة بين الإرهاب وبين المفاهيم والمبادئ الإسلامية الحقيقية، وقال مستشار وزارة الخارجية – تيموتى ويرث – فى الكونجرس: يجب ألا يسبب لنا سوء استخدام هذه الجماعات للغة السياسة الإسلامية أى خلط فى أذهاننا بين الإرهاب والإسلام.. ومشكلتنا ليست مع الإسلام أو المسلمين.. إنما مع العنف والإرهاب من أى شخص بغض النظر عن دينه وقوميته وسلالته..

هكذا كان هناك صوت فى أمريكا يرفض إيجاد صلة بين جرائم بعض المسلمين وبين الإسلام ومبادئه، ويرفض مبدأ المسئولية الجماعية لسائر المسلمين عن جرائم بعضهم.. وقال هؤلاء: يجب ألا نسمح لأعمال أقلية عنيفة من أية ملة بأن تشكل مواقفنا نحو شعوب بأكملها.. وقالوا أيضا: إن الولايات المتحدة تنظر بجدية إلى الدور المشروع للإسلام فى مجتمعات المنطقة بغض النظر عن تلاعب بعض المتطرفين بالمبادئ والقيم الإسلامية، ورفضوا ما يقوله بعض المفكرين من أن الإسلام حل محل الشيوعية فى العداء للغرب.. وقالوا: ليس هناك خلاف بين أمريكا والغرب والإسلام، فنحن نحترم الإسلام كأحد الأديان العظمى فى العالم وكحركة حضارية كبرى..

قالوا ذلك وأكثر منه.. وسمعنا.. وشعرنا بالأمان، ولكن الآن انقلبت الأحوال وأصبحنا نقرأ ونسمع أكثر ما يخالف ذلك من المسئولين والمفكرين..

لماذا انقلب الفكر فى دوائر صنع الرأى ودوائر صنع السياسات؟!

هل يكفى القول بأن أحداث ١١ سبتمبر هى السبب؟!..

هل يمكن أن يؤدى حادث واحد مهما تكن حجته إلى تغيير كامل فى سياسة دولة عظمى وبهذه السرعة.. تغيير هو فى حقيقته انقلاب.. من النقيض إلى النقيض؟.. هل يمكن أن يحدث ذلك فجأة.. أو أن هناك جذورا وأسبابا وعوامل

ساعدت على أن يكون هجوم ١١ سبتمبر هو الشرارة التى أشعلت النار التى كانت مختفية تحت الرماد؟!.

وهل هناك قوى لها مصالح فى إشعال الحرب على الإسلام والمسلمين.. والإيقاع بين الغرب والعالم الإسلامى؟!.

هل هذا الافتراض بعيد؟!..

ودور إسرائيل فى صناعة العداء للإسلام فى الغرب يؤكده الكاتب الإسرائيلى حاييم بارعام حين قال: إنه منذ انهيار الاتحاد السوفيتى وسقوط الشيوعية، حاول زعماء إسرائيل حشد الولايات المتحدة وأوربا فى المعركة ضد الأصولية الإسلامية وصوروها على أنها أكبر عدو، وبأن القيمة الاستراتيجية لإسرائيل أنها تقف فى وجه هذا العدو، كما قال الرئيس الإسرائيلى الأسبق هرتزوج أمام البرلمان البولندى فى عام ١٩٩٢: إن وباء الأصولية الإسلامية ينتشر بسرعة.. وهذا الوباء لا يمثل خطرا على الشعب اليهودى فقط.. بل إنه خطر على البشرية جمعاء.. وقال شمعون بيريس رئيس الوزراء ووزير الخارجية الإسرائيلى السابق: لقد أصبحت الأصولية الإسلامية الخطر الأعظم فى عصرنا، وأن مساوئ الأصولية أكثر خطرا من النازية والشيوعية. وأن الأصولية الإسلامية تشبه الشيوعية فى اتباعها المبدأ المكيا فيلى بأن الغاية تبرر الوسيلة، وعلّق على هذه الحملة الإسرائيلية الين شيوليفو المسئول السابق بوزارة الخارجية الأمريكية بقوله: إن الحملة المعادية للإسلام فى الولايات المتحدة توحى بأن آراء الزعماء الإسرائيليين يتبناها أنصارهم وآخرون يزداد عددهم.

وإن كان المسئولون الأمريكيون ينكرون الدور الإسرائيلى فى صناعة العداء للإسلام والمسلمين فى الغرب عموما وفى أمريكا على وجه الخصوص. وقولهم: إن المصالح الأمريكية هى الاعتبار الوحيد فى صناعة السياسة الأمريكية تجاه المسلمين، فإن الواقع يقول: إن اللوبى الإسرائيلى له دور كبير. وإن العداء الأمريكى للمسلمين يرتبط بالمصالح الأمريكية حقا، ويدخل ضمن هذه المصالح

العلاقة الخاصة جدا بين أمريكا وإسرائيل. ومعاداة أمريكا لكل من يظهر العـداء لإسرائيل، ولو بالإشارة، وهذا ما كان يقصده الرئيس السابق بيل كلينتـون حـين قال أمام البرلمان الأردنى فى أكتوبر ١٩٩٤: إن أمريكا سوف تتصدى لقوى الظلام التى تعارض عملية السلام بين العـرب وإسـرائيل. وكـان الانطبـاع الـذى أراد أن يتركه هو أن أمريكا تعادى من يعادى إسرائيل، وتحارب من يقـف أمـام سياسـة إعادة تقسيم المنطقة وفرض السلام فيها وفقا لمطالب إسرائيل.

ولو أن موجة العداء والتهديد بالحرب كانت موجهـة إلى الجماعـات المتطرفـة وحدها لكان ذلك مفهوما، ولكن فى الغرب من يعمل بدهاء وخبـث علـى أن يبـدأ العداء على أنـه موجه إلى جماعات التطرف والإرهاب وحدها، ثـم يمتـد العـداء، وتتسع الحرب لتشمل الإسلام ذاته والمسلمين ذاتهم..

وهذه هى المشكلة.

الأصابع الخفية وراء العداء للإسلام

قالت الإذاعة البريطانية يوم ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٢: إن الرئيس الأمريكى جورج بوش أغضب أنصاره بسبب عبارة قال فيها: إن الإسلام دين يقوم على أساس السلام والتعاطف مع الآخرين، وكان يقصد بذلك إزالة آثار العبارة التى أعلن فيها أن الولايات المتحدة سوف تشن حربا صليبية، وقال بعد ذلك إنها زلة لسان.

وذكرت الإذاعة البريطانية أن أنصار بوش المحافظين قالوا: إن الرئيس مخطئ فى توجهه للتقارب مع المسلمين، وكتب بول ويريتش، وهو أحد المحافظين البارزين: إن الإسلام فى حالة حرب مع أمريكا، والإسلام ليس دين سلام أو تسامح!! وذكرت الإذاعة البريطانية أن العديد من المحافظين يعلنون أن الرئيس بوش متردد فى قول الحقيقة تجاه الإسلام مخافة أن يزعج حلفاءه من العرب المعتدلين!

وفى أول يناير من عام ٢٠٠٣ نظمت الجمعية الإسلامية الأمريكية مؤتمرا فى ولاية شيكاغو تحت عنوان: (المسلمون فى أمريكا) حضره آلاف من أبناء الجالية الإسلامية الأمريكية لبحث أوضاع المسلمين الأمريكيين بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، وكيفية مواجهة الاتجاهات والأفكار التى سادت الولايات المتحدة بعد هذه الأحداث، وتناول المؤتمر طبيعة المعركة التى يخوضها المسلمون الأمريكيون من أجل الحصول على الحقوق المدنية، وقال رئيس الجمعية الإسلامية الأمريكية فى كلمته: إن المسلمين الأمريكيين يمرون بفترة حرجة بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١، ويواجهون المصاعب، وقال د. زاهر بخارى أحد مسئولى الحلقة الإسلامية فى شمال أمريكا: إن المسلمين الأمريكيين يواجهون ثلاثة تحديات: التحدى الثقافى، وتحدى الهدف، وتحدى المنهجية، وأضاف: لقد

كان من السهل قبل هذه الأحداث الإجابة عن سؤال: ما هو الإسلام؟ بالقول بأنه دين السلام، ثم الحديث عن أركانه الخمسة، ومبادئه.. ولكن الأمر أصبح أكثر صعوبة بعد سبتمبر، فقد أصبحت الأسئلة أكثر تعبيرا عن الشك وسوء الفهم والتأثر بالأكاذيب التى يبثها الإعلام، حول مفهوم الجهاد والفتح، والحدود، ومن هم (الكافرون) فى نظر الإسلام؟ وكيف كان سلوك المسلمين مع غير المسلمين عبر التاريخ؟ وغير ذلك من الموضوعات والأسئلة التى لم تكن واردة فى أذهان المواطنين الأمريكيين من قبل.

وكتب جراهام فولر مقالا يوم ١٠ سبتمبر ٢٠٠٢ قال فيه: إن التوتر بين العالم الإسلامى والغرب لم يكن أسوأ مما وصل إليه بعد أحداث سبتمبر، وإن أسامة بن لادن نجح فى إحداث مواجهة بين العالم الإسلامى والولايات المتحدة، على الرغم من أن الأثر البعيد لهجمات ١١ سبتمبر مازال غير واضح سواء بالنسبة للولايات المتحدة أم بالنسبة للشرق الأوسط، لكن الأمور سيئة للغاية وقد تسوء أكثر.. أما بالنسبة لبقية العالم فالنتائج تمثل كارثة، لأن الولايات المتحدة تمارس الآن نفوذا قويا وضغطا كبيرا على عدد كبير من دول العالم بطرق لا ترضى هذه الدول، وأصبحت المسائل الأمنية تحتل الأولوية الآن فى العلاقات الدولية قبل المساعدات الاقتصادية أو الاستثمارات أو التنمية البشرية، والإرهاب أصبح القضية الأولى على جدول أعمال أى مباحثات دولية.. أما بقية القضايا فأصبحت هامشية..

وبالنسبة للمسلمين – كما قال جراهام فولر– فإن الآثار أسوأ بكثير، بسبب الضغوط القوية التى تمارسها الولايات المتحدة على غالبية الدول الإسلامية، وخصوصا الدول العربية، وبعد أن أطاحت الولايات المتحدة بنظام طالبان، وكان ذلك ضربة لمصالح باكستان، وأيضا بسبب اعتداءات الولايات المتحدة على العراق. كما أن علاقة الولايات المتحدة بالفلسطينيين وصلت إلى الأسوأ، وباسم الحرب على الإرهاب تعمل الولايات المتحدة جنبا إلى جنب مع أكثر الحكومات الإسرائيلية قسوة ويمينية. وإضافة إلى ذلك استفاد قادة روسيا والهند والصين والفلبين من الحرب على الإرهاب للانقضاض على الأقليات المسلمة فى بلادهم، وأصبحت علاقات روسيا والهند مع واشنطن أقوى مما كانت عليه لعقود طويلة..

واليوم تحوم الشبهات حول المسلمين أينما ذهبوا، ليس في الولايات المتحدة فقط.. بل على مستوى العالم أيضا، والمسلمون في الولايات المتحدة والغرب عموما أصبحوا تحت المراقبة الشديدة، وأصبح حصول المسلمين على تأشيرات إلى الدول الغربية مسألة صعبة، واستفاد بعض حكام الدول الإسلامية من الحرب على الإرهاب لتعزيز قبضتهم وقمعهم لشعوبهم، وهكذا فقد المسلمون حريتهم. وفي الولايات المتحدة تعزز موقف الجماعات المؤيدة لإسرائيل والجماعات المسيحية الصهيونية، وتيار المحافظين الجدد ذوى الأطماع الإمبريالية، وقد منحهم أسامة بن لادن سلاحا قويا، وزاد الهجوم الفكرى والسياسى ضد الإسلام والمسلمين ولم يعد من يحاول توضيح الموقف الإسلامى والعربى للأمريكيين قادرا على الحصول على فرصة لعرض هذا الموقف فى وسائل الإعلام، لأن هذه الوسائل مفتوحة لمن يتعاطفون مع الأفكار المعادية والتى تلصق الإرهاب بالإسلام، وينظر غالبية الغربيين إلى المدارس الدينية فى العالم الإسلامى على أنها مدارس لتدريب الإرهابيين، ومن الصعب الآن أن يجادل أحد لصالح الإسلام، ليس فى أمريكا وحدها، ولكن فى أى مكان فى الغرب.. وقد أثبتت نظرية هنتنجتون صحتها عن صراع الحضارات. وعلى المسلمين أن يدركوا المخاطر التى تنتج عن قناعتهم بأن (الفكر الجهادى) هو الأسلوب الأمثل للتعامل مع الغرب أو مع أى شخص آخر، وأن الطريقة التى يفسرون بها تعاليم الإسلام وممارسة هذا التفسير سيكون لها أكبر الأثر على مستقبل العلاقة بين الإسلام والغرب، فهل سيأخذون بالتفسير الذى يشجع على العداوة أو بالتفسير الذى يتمشى مع العالم المتحضر؟.

هكذا يفكر الأمريكيون الآن.. إنهم يحمّلون المسلمين جميعا مسئولية جريمة ارتكبها عدد محدود من الإرهابيين، وانسياقا وراء هذا المفهوم يبررون العقاب الجماعى للمسلمين بإعلان الحرب عليهم، والتضييق عليهم فى التنقل والسفر، ووضعهم تحت المراقبة واعتبارهم مجرمين إلى أن يثبت العكس.

وهذا ما يؤكده الكاتب البريطانى فيكرام دود Vikram Dodd فى مقاله بجريدة الجارديان يوم ٢٠ ديسمبر ٢٠٠٢ بعنوان: (المسلمون المعتدلون يخشون أن تؤدى الحرب إلى زيادة عزلتهم).. ويقول فيه: إن المجلس الإسلامى البريطانى حذّر من أن العدوان من جانب الولايات المتحدة وبريطانيا سوف يساعد الإرهابيين وحدهم، كما حذّر الأمين العام للمجلس إقبال ساكرانى Sacranie: من إن الإسلام

محاط بالكراهية والغضب اللاعقلاني، ويقول الكاتب البريطاني تعليقا على هذه الحالة: يبدو أن إرهاب ١١ سبتمبر لم يهدم أكبر برجين في العالم فقط، ولكنه هدم أبراجنا العالية من المساواة في الحقوق، وكان رد الفعل هجمات بالسباب والضرب للمسلمين البريطانيين. وسوف تؤدى الحرب على العراق إلى مزيد من التمزق الاجتماعي، وقال الأمين العام للمجلس الإسلامي البريطاني أيضا: إن المسلمين في بريطانيا منبوذون ومبعدون، وهم مطالبون بالاندماج في المجتمع البريطاني، بينما المجتمع البريطاني يرفض اندماجهم، وقد صدرت تصريحات تسهم في تعميق (الإسلاموفوبيا).. وقال أيضا: إن اعتقال عدد من المواطنين البريطانيين في العالم لأنهم مسلمون يمثل خطأ كبيرا.

ويقول أيضا: لا يستطيع أحد أن ينكر أن المسلمين يتعرضون للضغوط والمضايقات بأشكال مختلفة في الولايات المتحدة ودول أوربا، حتى إن مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي (إف. بي. آي) كان المتحدث الرئيسي في المؤتمر الكبير الذي عقده المجلس الإسلامي الأمريكي في ٢٧ يونيو ٢٠٠٢ في مدينة الإسكندرية بولاية فرجينيا، وقال في كلمته أمام المؤتمر: إن أحداث ١١ سبتمبر أثرت بعمق على المسلمين الأمريكيين، وإن الجالية الإسلامية عانت من نتيجة هذه الهجمات، ووجد المسلمون الأمريكيون أنفسهم أهدافا للهجمات والتهديدات، وأعمال التمييز العنصري، وواجهوا التشكيك في إخلاصهم بسبب دينهم وأصولهم العرقية وتعرض مسلمون أمريكيون للشتائم، وألحقت أضرار ببعض المساجد، وانتهكت حرمتها، وتعرض عدد من المسلمين الأمريكيين للتهديد، وهوجم أفراد ليسوا مسلمين خطأ على أنهم مسلمون.. بل تم قتل البعض.. وعلق مدير مكتب التحقيقات الفيدرالية على ذلك بقوله: إن هذه الهجمات ضدكم وضد أفراد جاليتكم، تستحق الشجب كالإرهاب.. بل إنها أيضا هجمات ضد الإنسانية. وتحدث بعد ذلك عن قلق المسلمين الأمريكيين وعن جرائم الكراهية ضدهم، وختم كلمته بمطالبة المسلمين الأمريكيين بالتعاون مع مكتب التحقيقات الفيدرالي الذي يعمل فيه ١١ ألف ضابط ولا يستطيعون مكافحة الإرهاب بدون هذه المساعدة كما فعل المضيفون والركاب الشجعان على الطائرة الأمريكية التي كان ضمن ركابها شخص إرهابي يخفي قنبلة في حذائه وتغلبوا عليه، بينما هم يجتازون المحيط الأطلنطي في رحلتهم من باريس إلى نيويورك.

وقال مدير مكتب التحقيقات الفيدرالية: إننا نحتاج إلى مساعدة منكم لتعليم ضباط المكتب كيفية التعامل مع المجتمعات الإسلامية فى أمريكا وفى كل العالم، وكلما كانت معرفة المحققين بالثقافة الإسلامية أفضل، كانت تحقيقاتهم فعّالة أكثر. ومثال ذلك أن ضابطا من المكتب فى أطلنطا ذهب لمقابلة امرأتين من أصل أفغانى، وسارت المقابلة بصورة جيدة وعامل الضابط المرأتين باحترام، ولكنه وجد فيما بعد أنه انتهك التقاليد الأفغانية بالجلوس فى بيت هاتين السيدتين بدون حضور رجل أفغانى خلال المقابلة. وذهب اثنان من ضباط المكتب بعد ذلك للقاء أربعة مندوبين أفغان على مائدة عشاء لمعالجة الخلافات، وخرج الجميع وقد أدرك كل منهم أسباب القلق ووجهة نظر الآخر، وكانت النتيجة أن أعد مكتب التحقيقات الفيدرالية برنامجا باسم (مد الجسور وردم الفجوة) لتعريف الضباط بالتقاليد والثقافة الإسلامية.

وطالب مدير مكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكيين المسلمين بالتعاون مع ضباط المكتب، كما تعاون الطيارون الأمريكيون من أصول أفريقية وحاربوا بشجاعة ضد الأعداء فى أجواء أوربا فى الحرب العالمية الثانية، ومثل الهنود من قبيلة (نفاهو) الذين وضعوا بلغتهم المعقدة – وهى على وشك الانقراض – شفرة سرية لقوات مشاة البحرية الأمريكية فى مسرح العمليات فى المحيط الهادى،وكانت شفرة لا يمكن حل رموزها أبدا.. وقال: واليوم تواجه أمريكا حربا عالمية جديدة أشد خطورة، وتواجه تهديدات مراوغة وتحركات تكتيكية متغيرة باستمرار للإرهابيين، وتواجه أعداء غير ظاهرين، وأسلحتهم هى أدوات الإرهاب من سيارات مفخخة وقنابل قذرة، والجبهة الأمامية لهذه الحرب هى أمريكا، وشوارعها ومدنها ومناطقها السكنية، وعلينا فى مكتب التحقيقات الفيدرالية أن نقوم بدورنا، ونحن نعتمد على الجالية الإسلامية الأمريكية لتقوم بدورها فى التعاون معنا.

وكان فى اعتراف مدير مكتب التحقيقات الفيدرالية بما يلاقيه الأمريكيون المسلمون من سوء المعاملة ما يكفى للرد على من أنكروا وجودها.

وبول فندلى عضو الكونجرس لمدة ٢٢ عاما له كتابان: الأول بعنوان (من يجرؤ على الكلام) وقد ترجم إلى اللغة العربية تناول فيه تأثير اللوبى الصهيونى على

السياسة الأمريكية الداخلية والخارجية، والكتاب الثانى بعنوان (كفى صمتا) تناول فيه تشويه صورة الإسلام فى أمريكا بصراحة فى مواجهة الضغوط التى يتعرض لها كل من يحاول إنصاف الإسلام فى أمريكا.

وبول فندلى حاصل على العديد من الجوائز، وعلى وسام من رتبة قائد وهو أرفع وسام فى ألمانيا، وحصل على جائزة أكاديمية لينكولن من جامعة إلينوى الأمريكية، وجائزة حقوق الإنسان من المنظمة الدولية لمكافحة التفرقة العنصرية، وجائزة المنتدى العربى الأمريكى المناهض للعنصرية، وألقى محاضرات عديدة فى الجامعات الأمريكية، وفى مصر، وكندا، وبريطانيا، وماليزيا، وجنوب أفريقيا، والأردن، واليمن، والإمارات، وحصل على العديد من درجات الدكتوراه الفخرية من جامعات لينكولن، وليندنوود، وإلينوى ومن جامعة صنعاء باليمن.

وفى كتابه (كفى صمتا) يقول: إن صورة العالم الإسلامى كانت غامضة فى ذهنه مثل كل الأمريكيين، ولم تساعد الحكومة الأمريكية على توضيح أو تصحيح هذه الصورة، ولكن زيارته إلى اليمن كانت نقطة تحول فى حياته، فقد اكتشف خلالها الحضارة الإسلامية، ولمس أن هذه الحضارة تعتمد على قيم الشرف والكرامة، وأن التسامح قيمة أساسية فيها، لا تختلف - كما كان يعتقد - عن أصول المسيحية التى ينتمى إليها، ويقول إنه لم يكن مهتما بالأقلية المسلمة فى أمريكا وإنجازاتها فى المجالات العلمية، والتجارية والأكاديمية، ولكنه بعد فوزه فى انتخابات الكونجرس عام ١٩٨٠ اتهمه خصومه السياسيون بمعاداة السامية بعد أن عرفوا علاقته بالعالم الإسلامى ومطالبته بحقوق الفلسطينيين فى بلدهم، وكلما قابل أمريكيا يهوديا كان يجد نفسه دائما فى موقف الدفاع عن أفكاره مما جعله يكتب هذا الكتاب.

ويقول بولى فندلى: إنه عندما كان فى السادسة من عمره كان يذهب إلى مدارس الأحد بمدينة (جاكسونفيل) بولاية إلينوى، وكانت المعلمة تلقن الأطفال معلومات خاطئة عن الإسلام والمسلمين، فتقول: إن المسلمين شعب بدائى وعنيف، يعيش فى الصحارى، ويعبد إلها غريبا، وتكرر (أنهم ليسوا مثلنا)، ويعلق على ذلك بأن المعلمة هى أيضا تعلمت هذه الأفكار ممن سبقوها وهكذا..

ثم يقول: فى اليمن سألت مرافقى: هل تسمح حكومة إسلامية لغير المسلمين بممارسة عبادتهم، فرد عليه: طبعا، فالمسيحية وغيرها من الديانات موضع ترحيب، وحرية الأديان مكفولة، وأشار إلى كنيسة فى الطريق وقال: هذه واحدة وأمثالها كثير، ويعلق على ذلك بأنه اندهش لأنه لم يكن يعلم هذه الحقيقة وقد بلغ الثالثة والخمسين من عمره. وفى يوم الجمعة شاهد جموع المصلين فانبهر بالمشهد، وعندما زار المتحف الحربى فى صنعاء دهش عندما رأى فتاة تقوم بدور المرشدة، وعلم أنها طالبة فى كلية الصيدلة، وكانت ترتدى ملابس غربية بلا حرج.. ويقول: هذه الزيارة جعلتنى أبدأ فى الاهتمام بتفهم الإسلام والاختلاط بالمسلمين فى لوس أنجلوس، وشيكاغو، ونيويورك، وكذلك فى القاهرة، وجدة، وعمان، وماليزيا.. وفى نيوجرسى ذهب بول فندلى إلى المسجد فوجد مشهدا غير مألوف فى المجتمع الأمريكى هو وقوف المصلين من جميع الأجناس يصلون معا كتفا إلى كتف، وقابل شابا أمريكيا قال له: إنه اعتنق الإسلام وهو فى الأربعين من عمره، لأنه وجد فى هذا الدين الطمأنينة، واكتشف أن المرأة فى الإسلام لها كيان مستقل اقتصاديا واجتماعيا، ولا تأخذ اسم زوجها، كما أن لها ذمة مالية منفصلة، وتستقل بدخلها المالى، ولا تجبر على ضم أموالها إلى أموال زوجها، كما يحدث فى الغرب، ولذلك يقول بول فندلى: وجدت أن قيم العدالة والحرية هى أهم القيم الاجتماعية فى الإسلام. وأعجبت بحرص المسلمين على أداء الصلوات فى مواعيدها، وقال لى أحدهم: الصلاة صلة بالله ويجب أن نكون على صلة دائمة بالله..

ويتحدث بعد ذلك عن سيدة مسلمة تقوم بدور كبير فى الحياة الاجتماعية، هى السيدة نور نصير وهى خبيرة مالية، ورئيسة لمنتدى إسلامى دولى، هدفه تعميق روح التعايش بين أصحاب الديانات المختلفة، وزوجها (نور) باحث اقتصادى مولود بالمغرب، وسمع منهما آيات من القرآن لا تفرق بين الناس بسبب الدين أو الأصول العرقية وتذكر أن الناس جميعا من أب واحد وأم واحدة، وأن حكمة الله فى الاختلاف بين الناس أن يتعارفوا لا أن يتصارعوا.. ويقول: وجدت أن من يقرأ القرآن فسوف يدرك على الفور أن ما يقال عن أن الإسلام دين عنف ليس إلا كذبا وافتراء، خاصة أنه وجد أن الإسلام يعترف بالدين المسيحى

وبالدين اليهودى، ولو تمت دراسة الإسلام دراسة جيدة فسوف يكتشفون الأصول الأخلاقية التى تقارب بين الإسلام والمسيحية واليهودية، وسوف تتوقف مدارس الأحد عن ترديد مقولة: (إن المسلمين ليسوا مثلنا) ويقول: إنه لاحظ أن بعض أصدقائه المسلمين لا يؤدون الصلاة بانتظام، وهؤلاء يشبهون بعض المسيحيين الذين لا يذهبون إلى الكنيسة إلا فى الأعياد، ومع ذلك فهم مسيحيون.. ويقول: إنه يتفق مع الأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا فى أن المسيحيين يمكنهم أن يتعلموا الكثير من المسلمين، ويتفق مع ما قاله فى محاضرة جامعة اكسفورد عام ١٩٩٣: إن الحضارة الإسلامية كانت حضارة عظيمة. وأسهمت فى تقدم الحضارة الغربية، وينقل عن الأمير تشارلز قوله: (إن الإسلام يمكنه اليوم أن يعلمنا وسيلة أفضل لفهم العالم والحياة فيه، بعد أن أصبحت المسيحية تعانى من وعكة، وأصبحت مهددة بالانقراض، ففى قلب الإسلام تكمن رؤية كلية للعالم، فالإسلام يرفض فصل الإنسان عن الطبيعة ويرفض فصل العلم عن الدين، ويرفض فصل العقل عن المادة، كما يحافظ الإسلام على رؤية موحدة للبشر وللعالم على السواء) وبسبب ما قاله عن الإسلام والمسلمين هُزم بول فندلى فى انتخابات الكونجرس عام ١٩٦٨.

ويروى بول فندلى كيف أن السود كان يجلبهم النخاسون ليعملوا عبيدا عند السادة البيض فى أمريكا، وكان أكثرهم مسلمين من أفريقيا، وكان أسيادهم يجبرونهم على ترك ديانتهم، ولذلك كانت أمريكا موطنا لأغلبية من المسلمين منذ القرن السادس عشر، ولكن هذه الحقيقة التاريخية لا يعرفها الأمريكيون، ولا يحبون الاعتراف بها.. ويشير إلى محمد على كلاى معجزة الملاكمة ومحبوب الجماهير فى جميع أنحاء العالم، وقد اعتنق الإسلام، وبعد اعتزاله بدأ الاهتمام بقضية حقوق الإنسان فى العالم، وبقضية السلام، ويعتبر محمد على كلاى وجها مشرفا للولايات المتحدة، قالت عنه (نيويورك تايمز): إنه بأخلاقه الرياضية غير عالم الرياضة فى العالم وأيضا بتسامحه الشديد، ودعوته إلى نبذ العنصرية التى كان يجسدها منافسه جو لويس.. ويذكر قول كلاى: (لو لم أكن مسلما لكنت قد أسلمت الآن وعلى الفور).. ويشير بول فندلى أيضا إلى اللاعب الأسطورى كريم عبد الجبار، وهو مسلم أمريكى من أصل

أفريقى، تم اختياره كواحد من أشهر لاعبى كرة السلة فى عام ١٩٩٥، ولاعب كرة السلة شريف عبد الرحيم الذى حقق بالفوز بطولات لفريقه، وتبرع بمائة ألف دولار للمدارس الإسلامية، ولويس فراخان زعيم جماعة أمة الإسلام الأمريكية التى تدير أكثر من مائة مسجد فى الولايات المتحدة، وأنشأ مدارس إسلامية.. وكانت بدايات هذه الجماعة مضطربة عقائديا، إلا أن ليونارد محمد تولى بعده زعامة (أمة الإسلام)، وأعلن أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وكانت هذه نقطة تحول فى تاريخ هذه الحركة نحو الإسلام الصحيح بعد الممارسات الغريبة عن الإسلام التى أدخلها لويس فراخان. ويؤكد بول فندلى – مستشهدا بالإحصائيات – أن مسلمى أمريكا هم الأقل من حيث معدلات البطالة، ومن حيث معدلات الجرائم، وكثير منهم لهم شهرة بتفوقهم العلمى والأدبى والتجارى، مثل أحمد زويل الحاصل على جائزة نوبل فى الكيمياء، وهو مصرى المولد، وجاء فى حيثيات الجائزة أن اختراعاته فتحت مجالا جديدا فى العلوم التكنولوجية، ثم يذكر أسماء كثيرة لعلماء مسلمين أمريكيين، منهم البروفيسور البرت شفيتزار أستاذ العلوم الإنسانية، ومدير معهد دراسات ثقافات العالم بجامعة نيويورك، والبروفيسور إبراهيم أبو لغد رئيس قسم العلوم السياسية بجامعة نورث ويسترن بولاية إلينوى، والبروفيسور شريف بسيونى الأستاذ بجامعة دى بول بشيكاغو، والبروفيسور هشام شرابى الأستاذ بجامعة جورج تاون، والمخرج السينمائى المشهور مصطفى العقاد، وغيرهم كثيرون.

ويؤكد بول فندلى أن الجالية الإسلامية فى الولايات المتحدة من أكثر الجاليات نموا، وربما يكون ذلك سببا لما تلاقيه من متاعب.. ويركز على مكانة الأسرة فى الإسلام والترابط الوثيق بين أبناء العائلة، وشعور المسئولية لدى كل فرد عن أبويه وأفراد أسرته.. ويقول: إنه قضى سنواتٍ من الاتصال بالمسلمين فى مختلف دول العالم، لكن ذلك لم يكن كافيا ليكون ملماً بكل دقائق هذا العالم، إلا أنها جعلته يحكم على الإسلام والمسلمين حكما واقعيا، ويتفهم كيف أن الصورة سيئة فى الولايات المتحدة، حتى إن كل جريمة يرتكبها مسلم ينسبها البعض فى أمريكا إلى الإسلام والمسلمين، كما حدث مع المجرم ريجينالد كورى الذى اقتحم أحد البنوك فى مدينة (نيو آرك) فى يوليو ١٩٩٩، وصاح فى الجميع: بسم الله..

معى قنبلة.. ولا أتردد فى قتل نفسى معكم فى سبيل قضية الإسلام.. ضعوا كل الأموال فى حقيبتى.. وعلى الرغم من أن هذا الشخص مجرم ككل المجرمين من أى دين، فلا يمكن أن يؤدى إلى القول بأن الإسلام هو الذى قام بسرقة البنك، وقد كان رد فعل هذه الجريمة عنيفا ضد الإسلام، حتى إن أحد الأمريكيين حاول إشعال النار فى مركز كولورادو الإسلامى، وقام رجل آخر بإطلاق النار على مسجد بمدينة ممفيس، فأصيب المسجد بتلفيات، كما أصيب أحد المصلين، وقام بعض الأمريكيين المتطرفين بإلقاء القاذورات على المسلمين والوقوف أمام المساجد ليشربوا الخمر ويتعاطوا المخدرات، ويأتون بكلابهم للتبول على جدار المسجد!

ويذكر فندلى أنه بعد انتفاضة الأقصى فى أكتوبر ٢٠٠٠، وبينما كان المسلمون يؤدون الصلاة فى المركز الإسلامى بجنوب كاليفورنيا، قذف بعض الأمريكيين الحجارة على مبنى المسجد، فتناثر الزجاج على المصلين، وقال أحد مسلمى المنطقة: إنه من الضرورى أن يعرف هؤلاء الناس من نحن حتى لا نصبح أهدافا للتعصب كلما تأزمت الأمور فى الشرق الأوسط..

ويضيف أن بعض النماذج السيئة نشأت داخل الكونجرس نفسه، فإن هناك من يعمل على تشويه صورة الإسلام عند صناع القرار السياسى فى أمريكا، وقد نبه رالف برايانتى إلى ذلك عندما أشار إلى كتاب صدر فى أعقاب تفجير مبنى التجارة العالمى عام ١٩٩٣ من تأليف جوزيف بودانسكى، وهو محرر فى مجلة سلاح الطيران الإسرائيلى، وقال فيه بالنص: (إن الإرهاب الإسلامى قد أعلن الجهاد على الغرب عامة، وعلى الولايات المتحدة خاصة).. ويعلق فندلى على ذلك بأن مثل هذه الأقوال تزيد من مخاوف الأمريكيين، وترسخ الصورة السيئة عن الإسلام، حتى إن بعض السياسيين والمواطنين تناسوا أن دستور الولايات المتحدة دستور علمانى وأن أمريكا ليست دولة دينية، وأصبحوا يعلنون أن أمريكا دولة مسيحية، وأن الإسلام هو الخطر الذى يهددها بعد زوال الخطر الشيوعى، وحتى بين المفكرين والأكاديميين هناك من يردد هذه الأقوال، ويصوغها فى نظريات تبدو علمية، مثل عاموس بيرلموتر الذى أعلن أن الإسلام يشن حربا ضد المسيحية والصهيونية والرأسمالية الغربية. والبعض يجعل (الخطر الأخضر) أى

خطر الإسلام، و(الخطر الأصفر) أى خطر الصين، هما أكبر أعداء أمريكا فى هذه المرحلة.

ويتفق بول فندلى مع البروفيسور إدوارد سعيد، وهو أستاذ أمريكى مشهور بجامعة كولومبيا من أصل فلسطينى يحمل الجنسية المصرية والجنسية الأمريكية، ويتساءل: ماذا حدث للأكاديميين الأمريكيين من أمثال جوديث ميلر، وصامويل هنتنجتون، ومارتن كرامر وغيرهم، فقد أصبحوا يرددون أقوال ونظريات الأكاديميين الإسرائيليين عن خطر الإسلام، واعتباره التهديد الشامل للديمقراطية والليبرالية الاقتصادية الغربية، ويرددون أن الإسلام بطبعه معاد للسامية، ويكررون ذلك فى كل وسائل الإعلام التى ترحب دائما بهم وتريد المزيد فى هذا الاتجاه، حتى أصبحت كلمة الإسلام مرادفة للقتل والإرهاب فى الوعى الغربى، وهذه الأفكار - كما يقول فندلى - تنبت فى نفوس حاقدة على الإسلام، كما فعل ستيفن إمرسون فى برنامج تليفزيونى عرض فى عام ١٩٩٤ بعد تفجير مبنى التجارة العالمى، وكان عنوان البرنامج (الجهاد فى أمريكا: بحث فى التطرف الإسلامى فى الولايات المتحدة) وكان هذا البرنامج مسيئا للإسلام بشكل فج ووقح، وترك أثرا بالغا فى الوعى الجماهيرى، ورسخ مفهوم الإرهاب بوصفه مرادفا للإسلام.. وقد بدأ معدو البرنامج بتعريف الجهاد الإسلامى بأنه زرع قنابل موقوتة لقتل الأبرياء فى كل مكان فى العالم، وكانت الرسالة التى عمل البرنامج على توصيلها إلى المشاهدين أن الأصولية الإسلامية هى الخطر الأعظم على الدول الغربية وعلى الديمقراطية..

وقد حاول أندرو بيترسون فى كتابه (الدفاع عن الإسلام) شرح مفهوم الجهاد فى الإسلام على أنه جهاد النفس لفعل الخير، وهو جهاد ضد الظلم، ودفاع عن النفس أمام الاعتداء على المسلمين، ولكن (إمرسون) فعل بالإسلام فى برامجه فى التليفزيون ما كان يفعله السيناتور جوزيف مكارثى أيام موجة المكارثية فى الخمسينات من القرن العشرين فى هجومه الضارى على الشيوعية والاشتراكية، فلقد اتهم مكارثى موظفى الحكومة الأمريكية - أو بعضهم - بعدم الولاء لأمريكا، وبالتجسس لحساب الاتحاد السوفيتى، وكذلك فعل إمرسون فى برامجه مؤكدا على أن مسلمى الولايات المتحدة يتلقون مساعدات مالية من

الخارج، ويحاولون تكوين امبراطورية إسلامية فى أمريكا (!) وليس ذلك فقط. بل إن إمرسون ظل يكرر فى برامجه التحذير من وجود ميليشيات عسكرية إسلامية منتشرة فى أنحاء كثيرة فى العالم وفى أمريكا، ليقوموا بأعمال التخريب فى الدول الغربية، كما يؤكد إمرسون فى مقالاته التى يكتبها عن الخطر الإسلامى على أن المنظمات والجمعيات الإسلامية فى الولايات المتحدة أصبحت مرتعا للأصوليين الإسلاميين، وأن الإرهاب يمتد من الخرطوم والقاهرة إلى بروكلين، ومن غزة إلى واشنطن (!).. ويقدم بول فندلى مثالا على ذلك من مقال فى صحيفة (وول ستريت) المعروفة، كتبه إمرسون ليؤكد فيه أن الإسلاميين يتخذون المساجد والجمعيات الإسلامية فى أمريكا المقار التحتية لنشاطهم الإرهابى.

ويتساءل بول فندلى: كيف انتشر تعبير الأصولية الإسلامية في جميع وسائل الإعلام فى دول الغرب تعبيرا عن الصورة السيئة للإسلام، مع أن هذا المصطلح لا يعرفه الإسلام أصلا، ولم ينتشر إلا حديثا، وعلى أقلام وألسنة الغربيين أنفسهم؟ ويتساءل أيضا عن معنى ما حدث للمسلمين فى أعقاب تفجير مبنى أوكلاهوما، والإجماع على توجيه الاتهامات إلى المسلمين مما أدى إلى حالة من الكراهية عمت الشارع الأمريكى؟ ونتيجة لذلك تعرض المسلمون لمضايقات كثيرة، وكان المحققون يأمرون باعتقال أعداد كبيرة لمجرد أنهم من أصول عربية وأن دينهم الإسلام! ثم أثبت التحقيق أن المسلمين أبرياء، وأن الذى فجر المبنى هو الأمريكى المسيحى تيموثى ماكفاى، فهل قال أحد إن هذا هو الإرهاب المسيحى أو إن هذا هو الإرهاب الأمريكى؟.. ولولا أن الضابط تشارلز هانجر شاهد ماكفاى بعد الحادث يقود سيارته بسرعة، وبدون رخصة قيادة، ورأى أسلحة فى السيارة فقام بالقبض عليه، ولولا أن المصادفة كشفت الحقيقة ماذا كان سيحدث؟ يقول فندلى: لو لم يتم القبض بالمصادفة على ماكفاى كانت ستسود ادعاءات إمرسون وغيره من جهابذة وخبراء الإرهاب الذين رددوا بثقة أن الإسلام وراء هذه الجريمة.

ويقول: إن أسامة بن لادن أساء إلى الإسلام والمسلمين أكثر مما أساء إمرسون وأمثاله، فقد ظهر ابن لادن بعد حادث أوكلاهوما فى برنامج على شبكة (بى.بى.سى)، وكان البرنامج يتحدث عن ابن لادن على أنه المدافع

عن الإسلام، وكانت عبارات ابن لادن دموية وشريرة تدعو إلى قتل الأمريكيين في كل مكان، وقال ابن لادن: إن أمريكا هى العدو الوحيد للإسلام، وقد ساد الرعب الجالية الإسلامية بسبب هذه التصريحات التى أدت إلى زيادة تيار العداء لهم.. وبذلك تعرض مواطنون أمريكيون للغضب والإهانة دون سبب سوى أنهم مسلمون، وبعد هذا البرنامج ظل المسلمون الأمريكيون يتلقون رسائل ومكالمات تهديد بالقتل، وتعرضوا لمضايقات فى العمل والشارع والاجتماعات.. إلخ.. وأخرجت هوليود عشرات الأفلام تسىء للإسلام وللعرب، وتصور المسلمين فى أبشع صورة، وأسهمت بذلك فى ترسيخ الصورة السيئة عن الإسلام والمسلمين.

ويروى بول فندلى أن حوارا دار مع ستة ركاب فى الطائرة أثناء رحلة إلى شيكاغو أجمعوا على أن الإسلام هو الخطر الحالى الذى يواجه الولايات المتحدة.

ويصل بول فندلى إلى الحقيقة المسكوت عنها فى أمريكا، فيقول: إن أعضاء اللوبى الصهيونى فى أمريكا يساهمون فى نشر نماذج وصور سيئة عن الإسلام والمسلمين، ويصورون الإسلام دائما على أنه دين عنف، وسفك دماء، والمسلمين على أنهم مجرمون وإرهابيون، ويفسر ذلك بأنهم يستخدمون الهجوم على الإسلام والمسلمين كاستراتيجية لتبرير ممارسات العنف غير الشرعية التى تمارسها السلطات الإسرائيلية فى الأراضى الفلسطينية المحتلة، كما أنهم يحصلون بهذه الحملة على دعم كبير ومستمر بالمال والأسلحة والتكنولوجيا المتقدمة من الولايات المتحدة للدولة الإسرائيلية.. وينقل عن أحد كبار الضباط الأمريكيين واسمه جون بيرد أن هذا الدعم الأعمى من أمريكا لإسرائيل وتغلغل اللوبى الصهيونى فى السياسة الأمريكية له آثار سلبية على أمريكا، فإنه يؤدى إلى تدمير المصالح الأمريكية فى مناطق كثيرة، منها الدول العربية، ويجعل الولايات المتحدة تبدو فى المحافل الدولية فى صورة الدولة الظالمة، خاصة بعد أن قامت أمريكا بالاعتراض عدة مرات على محاولات الأمم المتحدة لإرسال مراقبين لحماية أرواح المدنيين الفلسطينيين من بطش القوات الإسرائيلية.

ويقول: إذا سمحنا بالربط بين الدين الإسلامى والإرهاب، لمجرد أن هناك إرهابيين مسلمين، فإن ذلك سيؤدى إلى إدانة الدين المسيحى والدين اليهودى

بالإرهاب، لأن هناك حوادث يرتكبها إرهابيون مسيحيون ويهود، بينما الحقيقة التى يجب أن تكون ماثلة دائما أن الأديان السماوية لا تدعو إلا للحب والخير والسلام والعدل بين البشر أجمعين، ويستشهد بما قاله ديفيد وترز أحد الكتاب الدينيين: (فى أمريكا عندما نفكر فى الإسلام نستحضر على الفور الصورة التى تبثها وسائل الإعلام وتصور فيها العنف. ومعظم ما تبثه وسائل الإعلام الأمريكية يتضمن معلومات خاطئة وبعيدة عن حقيقة الإسلام)..

وهكذا وجدنا فى أمريكا من يقول الحقيقة، وهذا شىء نادر الآن، ولذلك سمى كتابه (كفى صمتا) أو (لا تستمروا فى الصمت أكثر من ذلك) Silent no more وإن كان قد دفع ثمن إعلان كلمة الحق فى وقت يسود فيه الباطل فى بلاده..

ويقول بول فندلى: إن الأمريكيين يعتقدون أن حكومة (طالبان) هى النموذج الحقيقى لكل دولة إسلامية بسبب قلة معرفتهم بالإسلام، وهذا جعل مخاوف الغرب تتزايد حول مستقبل أية حكومة إسلامية يمكن أن تنشأ فى أى مكان فى العالم، لأن حكومة طالبان الهمجية شوهت صورة الإسلام أكثر مما فعل كل أعداء الإسلام، وأدى ذلك إلى مخاوف فى أمريكا من أن يندمج المسلمون الأمريكيون فى المجتمع الأمريكى، ويصلوا إلى مواقع مؤثرة فى السلطة والحكم فى المستقبل.

ويقول أيضا: إن الرأى العام الأمريكى يعتقد أن نظام الشورى الإسلامى غير ديمقراطى، لأنه يختلف عن النظام الأمريكى، وينقل ما قاله مراسل الإذاعة البريطانية رحيم الله بوسفراى: (إن الحكومات التى تطلق على نفسها اسم حكومات إسلامية ما هى إلا محاولات تصيب أو تخطئ، إلا أنها لا تصبح هى الإسلام.. وفى الحقيقة فإن هذه الحكومات ليست إسلامية)..

ويقول: إن الإسلام يحرم تعاطى المخدرات والاتجار فيها، بينما اقتصاد حكومة طالبان كان يعتمد على تجارة المخدرات، خاصة الهيروين والأفيون، وكانت تجارة المخدرات هى المصدر الرئيسى للدخل القومى فى أفغانستان فى فترة حكمهم، وقد بررت ذلك دينيا بحالة الفقر التى يعيش فيها الأفغان، وهذا غير صحيح، لأن كبار ملاك الأراضى هم الذين يتحكمون فى سوق المخدرات، ويعود ناتج هذه التجارة إليهم، ولم تتحسن أحوال الفقراء فى أفغانستان.. بل ازدادت سوءاً..

ويضاف إلى ذلك أن وضع المرأة فى نظام طالبان ونظرة الاحتقار وسوء المعاملة لها تجعل طالبان بعيدة عن الإسلام، فالقوانين التى منعت المرأة من الخروج بدون زوجها حتى فى الحالات الضرورية، وحظر لجوء المرأة إلى طبيب مع ندرة وجود طبيبات من النساء، وحرمان المرأة من التعليم واعتبار مشاهدة التلفزيون حراما شرعا، وأمثال هذه القوانين لا صلة لها بالإسلام، ولكنها أساءت إلى الإسلام فى العالم.

ويقول بول فندلى: إن إلقاء اللوم على الغرب وحده فى تشويه صورة الإسلام أمر غير موضوعى، حيث يوجد كثير من المسلمين يشوهون صورة الإسلام بممارساتهم السيئة، وتفسيرهم المضلل للنص القرآنى، وهؤلاء يتسمون بعدم التسامح، والتعصب، ومن ناحية أخرى فإن العالم الإسلامى كله يستحق اللوم بسبب سلبياته وعدم التصدى لما يسىء إلى دينهم، ولا يعملون بما فيه الكفاية لتصحيح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام فى الغرب، وبهذه السلبية جعلوا الغرب يعتقد بصحة هذه الأكاذيب.

ومن أمثلة هذه الأكاذيب فكرة الغرب عن تحقير الإسلام للمرأة، وهذه الفكرة منتشرة حتى بين الأكاديميين. وهناك مئات الكتب وآلاف المقالات تردد هذه الفكرة، مثل كتاب (الزواج والأسرة) الذى كتبه (ديفيد نوكس) و(كارولين شاخت) الذى يدور حول مظاهر احتقار المرأة فى العالم الإسلامى، فلا يجوز لها أن تسبق زوجها أو أن تسير إلى جانبه ومكانها دائما فى المواقع الخلفية فى البيت وفى الاجتماعات، ولا يمكنها تناول الطعام إلا بعد أن يفرغ زوجها وأولادها الذكور من طعامهم لتأكل ما يتبقى منهم، ولا يمكنها الحديث مع زوجها فى وجود آخرين، وفى النهاية يقول المؤلفان إن الإسلام ينظر إلى المرأة على أنها (لا شىء)!

ويذكر واقعة عايشها، فقد طلب المعلم فى إحدى مدارس ولاية أوهايو من التلاميذ كتابة موضوع عن معاملة المرأة فى الشرق الأوسط ومقارنتها بمعاملة المرأة فى الولايات المتحدة، وذهب التلميذ المسلم (كريم) إلى والده وذكر له أنه كتب أن المرأة فى الشرق الأوسط فى وضع مهين وفق تعاليم الدين الإسلامى، وضرب أمثلة مما فى كتاب الزواج والأسرة، وذهل الأب المسلم وقال لابنه: لكن هذا غير

صحيح، فرد عليه الابن قائلا: أنا أعلم أنه غير صحيح، ولكنى إذا قلت غير ذلك فلن أحصل على درجات النجاح، كما أن المعلم عرض علينا فيلما يصور المرأة المسلمة في أوضاع مهينة.. كذلك الحال بالنسبة لموضوع تعدد الزوجات، وتوجيه الاتهامات إلى الإسلام بسببه، ونظام تعدد الزوجات يثير في الغرب الرفض على أساس أنه نظام بدائى يرجع إلى عصر العبودية، ولم يقتنع أحد ممن حضروا محاضرة للسفير الأردنى مازن النشاشيبى حين قال إن نظام تعدد الزوجات من دعائم الحياة القبلية الصحراوية ولكنه غير منتشر بكثرة فى المدن أو حتى فى الريف، وكانت له أسباب اجتماعية في الماضى، وهو أمر اختيارى فى العقيدة وليس فرضا على كل مسلم.. بل إن قلة قليلة جدا من الرجال هى التى تجمع بين أكثر من زوجة فى وقت واحد.. ويذكر فندلى ما يثيره الحجاب والخمار فى نفوس الغربيين.. كما يذكر ما كتبته زينب البرى من أن منصب الرئيس ونائب الرئيس فى الولايات المتحدة مقصور على الرجال بينما وصلت المرأة فى بعض الدول الإسلامية إلى منصب الرئيس ورئيس الوزراء وهى أعلى مناصب السلطة والحكم، كما حدث فى إندونيسيا وبنجلاديش وباكستان وتركيا، وإن المرأة الأمريكية انتظرت مائة واثنين وثلاثين عاما لكى تحصل على حق التصويت بينما هذا الحق مكفول للمرأة فى معظم الدول الإسلامية.

ويتحدث عن موضوع آخر يثار كثيرا فى حملات الهجوم على الإسلام والمسلمين هو (ختان البنات) ويرى الغربيون أن ذلك يمثل جريمة ضد المرأة ترجع إلى العصور الهمجية، وينقل عن عدة مصادر إحصائيات تقول إن نسبة ٨٤٪ من الفتيات فى مصر تجرى لهن هذه العملية البشعة، ومعظم هذه العمليات تجرى فى البيوت بدون إشراف طبى مما يؤدى فى بعض الحالات إلى مضاعفات، وأحيانا تؤدى إلى الوفاة. ويذكر فندلى أن وزير الصحة المصرى د. إسماعيل سلام أعلن فى عام ١٩٩٨ تحريم ختان الإناث وقال: إنها ليست من الإسلام ولكنها عادة قديمة منذ أيام الفراعنة، فتعرض لهجوم الأصوليين، وتبين أن هذه العادة منتشرة بين مختلف الطبقات وتتم سرا، ويقول أخيراً: كلما زادت حالات الختان فى بلد فلابد أن تتأكد من سوء حالة البلاد الاجتماعية والتعليمية. وتقارير المنظمات الدولية تؤكد أن الختان ينتشر فى الدول ذات الأغلبية

المسلمة، والعكس صحيح، فالدول ذات الأغلبية المسيحية لا ينتشر فيها الختان، وكذلك إسرائيل.

وفي كتابه (من يجرؤ على الكلام) يذكر بول فندلى الضغوط والمؤامرات التى تعرض لها بعد كتاباته ومحاضراته لإنصاف الإسلام والمسلمين ومطالبته بحقوق للفلسطينيين، ويقول: بعد ١٩ عاما قضيتها عضوا فى الكونجرس قامت لجان العمل السياسى والأفراد الموالون لإسرائيل بتنظيم حملة ضدى فى انتخابات ١٩٧٩ وجمعوا تبرعات هائلة لذلك، ولكنى حصلت على الفوز بشق الأنفس فى انتخابات الحزب الجمهورى الأولية، ويقول: إنه فى هذه الحملة إكتشف التأثير الخفي للوبى الإسرائيلي على مسرح السياسة الأمريكية، حتى إن كبار السياسيين لا يستطيعون إعلان آرائهم خوفا من هذا اللوبى الإسرائيلى، ومن الاتهامات التى ستوجه إليهم فى الصحف اليهودية فى طول البلاد وعرضها، ومن تهمة العداء للسامية التى يمكن أن تقضى على مستقبل أى إنسان فى أمريكا.

ويقول: إنه كان على علاقة وثيقة مع الرئيس ريجان، ولكن أثناء حملة ريجان الانتخابية تلقى إنذارا من اللوبى الصهيونى بأنه إذا أظهر تقاربا مع بول فندلى فسوف يخسر أصوات نيويورك، وكان لهذا الإنذار تأثير على ريجان ومنظمى حملته الانتخابية، وحتى الفنان الكوميدى المعروف بوب هوب وافق على مساعدة بول فندلى فى حملته الانتخابية عام ١٩٨٠، ولكنه تراجع وأبلغ فندلى أنه يتعرض لضغط شديد من اليهود فى كل أنحاء البلاد، ووصل الأمر إلى حد أن محامى بوب اليهودى الذى يتولى أعماله لمدة ٣٥ عاما هدد بالتخلى عنه، وقال بوب هوب (إن الضغوط تتجاوز المعقول وليس لها مثيل من قبل)، وذكرت وكالة أنباء اسوشيتد برس أن أنصار إسرائيل الأمريكيين عادوا إلى صب الأموال فى حملة ملتهبة لإزاحة النائب بول فندلى عن مقعد الينوى الوسطى، وعلى الرغم من أن ريجان تشجع وعمل على مساعدته، كما تشجع جورج بوش وكان نائبا للرئيس وزميلا له فى مجلس النواب وحضر أحد المؤتمرات الانتخابية لتأييده، لكن اللوبى الصهيونى كان أقوى من الجميع. وخسر بول فندلى مقعده فى مجلس النواب الذى ظل يشغله ١٩ عاما بسبب قوله كلمة حق عن الإسلام والمسلمين، وعن حق الفلسطينيين فى وطن.

ويقول إن أكثر المنظمات تأثيرًا على الكونجرس الأمريكي هي اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للشئون العامة (إيباك) وما أن يذكر اسم هذه اللجنة أمام أى عضو فى الكونجرس حتى يمتقع وجهه، لأن إيباك هى صاحبة السلطة الغالبة بين المجموعات الضاغطة فى أمريكا. حتى إنها هى التى تتحكم فى تصرفات الكونجرس الخاصة بالشرق الوسط، ويكاد جميع أعضاء مجلسى الشيوخ والنواب يطيعون بلا استثناء أوامر هذه اللجنة لأنها القادرة على إنجاحهم فى الانتخابات أو القضاء عليهم، وقد أصبحت إيباك مرادفة للسلطة الطاغية.. وقالت عنها صحيفة نيويورك تايمز (إنها أقوى التجمعات ذات المصلحة فى السياسة الخارجية لأمريكا، وأحسنها إدارة، وأكثرها نفوذا فى واشنطن) وقال النائب السابق بول ماكلوسكى بصراحة أكثر (إن إيباك تُرهب الكونجرس) ولم يقل أحد مثل هذه العبارة الصريحة غيره وإن كان الكثيرون من أعضاء الكونجرس يتفقون معه فى الرأى سرا.

وإن كانت (إيباك) قد أصبحت أقوى المنظمات اليهودية، فإن هناك ٣٨ منظمة يهودية رئيسية أخرى مثل رابطة مكافحة التشهير، وبناى بريت، والصندوق الوطنى اليهودى. والنداء اليهودى الموحد. واللجنة الأمريكية اليهودية، وإيباك هى الجزء الظاهر للعيون من اللوبى الذى يعتمد نفوذه على المؤسسة التى بناها يهود أمريكا فى أنحاء البلاد وتعمل بواسطة أكثر من ٢٠٠ تجمع وطنى، وأشهر نشرة تصدرها (إيباك) اسمها (أخبار الشرق الأدنى) توزع على ٦٠ ألف شخصية كما توزع على الصحف وأعضاء الكونجرس وكبار المسئولين الحكوميين. ومن الناحية الفعلية فإن تجمعات اللوبى اليهودى فى أمريكا هى امتداد للحكومة الإسرائيلية. وقد اتضح ذلك عام ١٩٨١ عندما وزعت (إيباك) على أعضاء الكونجرس بيانا رسميا تدافع فيه عن قصف إسرائيل المفاعل النووى العراقى، ووصل هذا البيان إليهم قبل أن يصدر رئيس وزراء إسرائيل هذا البيان.

ويقول فندلى: لا تجادل أية منظمة يهودية فى التزامها علانية بالمواقف والسياسات التى تتخذها إسرائيل، والمثال على ذلك عندما أعلن الرئيس الأمريكى ريجان خطة السلام أيدها مدير (إيباك) التنفيذى توماس داين بحماسة شديدة، ولكن بمجرد أن رفضتها إسرائيل لزم الصمت ولم يقل كلمة عنها. ويذكر

فندلى (دون بيرجون) السفير الأمريكى السابق الذى قال: (إننا كنا فى وزارة الخارجية نتندر فنقول إذا أعلن رئيس وزراء إسرائيل يوما أن الأرض مسطحة وليست كروية فسوف يصدر الكونجرس قرارا بذلك خلال ٢٤ ساعة). وقال ستيفن روزنفيلد الكاتب الكبير في صحيفة واشنطن بوست إن (إيباك) هى القوة السياسية اليهودية الرئيسية فى أمريكا اليوم.

ويضيف فندلى: بمرور السنين تغلغل اللوبى الموالى لإسرائيل فى نظام الحكم بأكمله، وحتى رئيس الولايات المتحدة يلجأ إلى (إيباك) كلما واجهته مشكلة سياسية معقدة لها علاقة بالنزاع العربى الإسرائيلى. وعندما واجه الرئيس ريجان معارضة علنية لوجود مشاة البحرية الأمريكيين فى لبنان فى أكتوبر ١٩٨٣ لجأ إلى (إيباك)، فساندته فى الكونجرس ومررت التشريع الذى كان يريد تمريره لمنحه سلطات واسعة تتجاوز قانون الحرب الأمريكى. وحين أراد ريجان زيادة المساعدات الخارجية ٧ مليارات دولار عام ١٩٨٣ ساعدته (إيباك) فى الحصول على موافقة الكونجرس. وصدر بيان من جون ولهيلم المدير التنفيذى للجنة الرئاسية التى وضعت هذا المشروع يحمل المديح والامتنان للوبى المؤيد لإسرائيل لموافقة الكونجرس على المساعدات الخارجية التى اقترحها الرئيس (!)

ويقول أيضا إن (إيباك) هى التى رسمت الاستراتيجية لزيادة المعونة الأمريكية لإسرائيل عام ١٩٨٣ رغم أن الحكومة عارضت هذه الزيادة، وعندما أعلنت إيباك أن هذه الزيادة مجرد اختبار لمعرفة من يقف مع إسرائيل ومن ضدها، لم يعترض أحد فى الكونجرس على الزيادة، وغلبت الحكومة على أمرها.!

ويقول فندلى إن (إيباك) ليس فيها غير عدد محدود من الموظفين، ولكنها تعمل بعدد كبير من المتطوعين المنضبطين، وبالتعاون مع رئيس الولايات المتحدة أحيانا، ويقتصر دورها على دعم سياسات إسرائيل دون صياغتها، ولذلك فهناك اتصال يومى بينها وبين السفارة الإسرائيلية فى واشنطن، كما يجتمع مديرها التنفيذى بمسئولى السفارة مرة فى الأسبوع على الأقل. والاجتماعات التى يعقدها أعضاء (إيباك) هى الوسيلة لحشد المجندين، ويشارك فى هذه الاجتماعات

الشخصيات الإسرائيلية والأمريكية البارزة (ويُذكر أن كلينتون كان يحضر هذه الاجتماعات وهو فى منصب الرئيس، وأن هيلارى كلينتون لم تحصل على تأييد إيباك لانتخابها عضوا بمجلس الشيوخ إلا بعد إلقائها خطابا فى مؤتمر نيويورك تراجعت فيه عن تصريحها بأن الفلسطينيين لهم الحق فى إقامة دولة) ويحضر هذه المؤتمرات السفير الإسرائيلى فى واشنطن، وكبار مساعدى الرئيس فى البيت الأبيض، وأعضاء بارزون فى مجلسي الشيوخ والنواب، ولم ينجح جورج بوش الأب فى انتخابات الرئاسة إلا بعد أن اجتمع مع المسئولين فى (إيباك) وهو نائب الرئيس ريجان وتعهد أمامهم بالاستمرار فى محاربة (اللاسامية) فى الأمم المتحدة، وإلغاء قرار الأمم المتحدة باعتبار الصهيونية حركة عنصرية، واتهم منافسيه فى الانتخابات عن الحزب الديمقراطى بالتساهل إزاء معاداة السامية. !

وأمام مؤتمر (إيباك) عام ١٩٨٣ وقف رئيس مؤتمر الحزب الجمهورى الخاص باختيار مرشحى الحزب فى انتخابات الكونجرس ووصف نفسه بأنه عضو فى (إيباك) بحكم الواقع، وحضر معه ٤٣ من أعضاء مجلس النواب و١٦ من أعضاء مجلس الشيوخ! وذكر نائب مدير (إيباك) آرت تشوتن أن المنظمة عقدت حلقات دراسية فى مختلف أنحاء أمريكا زودت فيها الفئة الموالية لإسرائيل بما يلزم من مهارات ليكون لها تأثير فعّال فى العمل السياسى لاختيار أصحاب الأصوات القوية المناصرة لإسرائيل. وتوثق (إيباك) علاقاتها مع جماعات وروابط مسيحية.. وقال مدير (إيباك) إن هدف هذه العلاقات (إدخال هذه الطوائف فى إيباك)، وتقام (مائدة دينية سنوية لصلاة الفطور لأجل إسرائيل)، وتعمل (إيباك) على نشر رسالتها بين آلاف الطلبة فى المدارس الثانوية والجامعات، وتنظم هى والهيئات اليهودية الأخرى رحلات إلى إسرائيل تساعد على إنشاء قاعدة شعبية لبرنامج (إيباك). وعلى سبيل المثال كانت رحلة ١٩٨٢ لمدة أسبوع واشترك فيها ١٥٠٠ يهودى أمريكي، وقال مسئول إيباك المسئول عن الرحلة (لقد أخذوا فكرة عن أروع ما يمكن أن يتصوروه فى أى بلد، وتركت أثرا عميقا، وخلقت روحا للقضية، وعادت بتبرعات) وقال أيضا: (إن المشرفين على الرحلة أعدوا لها على أساس علمى.. فهم يعرفون كيف يضغطون على كل الأزرار، ولذلك ملأت هذه الزيارة نفوس أفراد الرحلة بالرهبة، وهذه الرحلات دورية ومنتظمة، ولا تقتصر على اليهود فقط، بل إنها تشمل حكام الولايات، وأعضاء

فـى الكونجـرس، وأعضـاء فـى المجـالس التشـريعية فـى الولايـات، وزعمـاء الطوائف، وكبار الصحفيين ورجال الإعلام، وتنظم (إيباك) أيضا رحـلات للقـادة السياسيين فى الأحزاب والكونجرس، وبعـض هـذه الرحـلات تتحمـل الحكومـة نفقاتها على أنها (رحلة عمل)، وهنـاك فئـة أخـرى قـد يكون لها نفوذ محتمل ولا يفطن إليها أحد غالبا، هى فئة موظفى الكونجـرس، وهـؤلاء تعمـل (إيبـاك) علـى التأثـير عليـهم وتنظـم لهـم رحـلات مجانيـة إلى إسـرائيل بالتعـاون مـع الجماعات الإسرائيلية، وتعمل (إيباك) فى نفس الوقت على إبعـاد مـن تسـتطيع إبعادهم من المشاركين فى الحياة السياسية الأمريكية عن زيارة البـلاد العربيـة، والذى يزور هذه البلاد تعمل على التأثير عليه قبل أو بعد الزيارة بوجهات نظـر إسرائيل دون سواها. وعندما نظمت الجمعية الوطنية للأمريكيين المنحدريـن مـن أصـل عربـى رحلـة مجانيـة إلى الأردن دعـت إليـها جميـع النـواب الأمريكيـين وزوجاتهم، استطاعت (إيباك) التأثير عليهم، فلـم يذهـب سوى ثلاثـة نـواب.. ولا تترك (إيباك) كلمة تنشر لإنصـاف الإسـلام أو الفلسـطينيين إلا وتـرد عليـها بمقالات مضادة، وفى عـام ١٩٨٣ أصـدرت كتابـا أنيقـا بعنـوان (قائمـة الأعـداء: الحملة لتشويه إسرائيل) وتضم أسماء ٢١ منظمة و٣٩ شخصية تعتبرها (إيبـاك) أهم أعداء المصالح الإسرائيلية، وقد وضعت فى قائمـة الأشـرار شـخصيات مهمـة مثل وكيل وزارة الخارجية السابق جورج بول، والسفراء المتقاعدين سيلى وأندرو كيلجور وجون وست، وجيمس أكنز، والسيناتور السابق جيمس أبو رزق، وعـدد من العلماء واليهود المنشقين.

وفـى الوقـت ذاتـه أصدرت رابطـة مكافحـة التشـهير (بنـاى بريـت) قائمـة أخـرى بأسمـاء الأعـداء بعنـوان (الدعايـة الموالية للعـرب فـى أمريكـا) ضمـت أسماء ٣١ منظمة و٣٤ شخصية، وهذان الكتابان هما (القائمة السوداء) التى أعلنوا عليها الحرب فى كل مكان، وحكموا عليها بالفشل والندم.

ليس هذا كل شىء.

إن بول فندلى يقول أكـثر مـن ذلـك بكثـير عـن (إيبـاك). لكـن ذلـك قـد يكفـى للإجابة عن السؤال. !

أمريكا والإسلام!

هناك شبه إجماع بين مفكرى وقادة الغرب على أن إدارة الرئيس جورج دبليو بوش قد قامت بانقلاب فى السياسة الأمريكية، وغيَّرت التحالفات والتوجهات فجأة، وجعلت من أصدقاء الأمس أعداء اليوم، مما أثار المخاوف لدى أصدقاء اليوم من أن يصبحوا أعداء الغد.. مع غياب الضمان والأمان وتكرار التهديدات باستعمال القوة.

وبعد أن كانت الولايات المتحدة أكبر نصير للحريات أصبحت على رأس قائمة المنظمات العالمية لحقوق الإنسان باعتبارها أكبر دولة فى العالم تنتهك حقوق الإنسان، وتعتدى على الحريات فى الداخل بقوانين الأمن الأخيرة التى صدرت بعد ١١ سبتمبر. وفى الخارج بالتدخل فى الشئون الداخلية للدول وانتهاك السيادة وعدم احترام القوانين الدولية والاستهانة بالشرعية الدولية بينما تحارب عددا من الدول بحجة أنها لا تنفذ قرارات الشرعية الدولية ولا تقيم وزنا لسيادة القانون.

وكانت الولايات المتحدة النصير الأكبر للإسلام والمسلمين باعتبارها دولة علمانية لا تنحاز إلى دين ولا تعادى أحد الأديان، ولكنها أصبحت تعلن أنها دولة مسيحية، وتعلن انحيازها لليهودية والمسيحية وتزداد فيها أصوات العداء للإسلام والمسلمين.. وتصدر عنها تصريحات تستنكر فيها العداء للإسلام، بينما الأعمال والمواقف تشهد بعكس ذلك..

والدليل على ابتعاد الولايات المتحدة عن العالم الإسلامى أن مدير المخابرات المركزية الأمريكية جورج تينيت وقف فى حفل عشاء أقامه مركز نيكسون فى شهر ديسمبر ٢٠٠٢ وقال: إن على الولايات المتحدة أن تقترب من العالم

الإسلامى لكى تفوز بالحرب ضد الإرهاب، وقال أيضـا: إن أمـان دولتنـا يتحقـق بمراعاة التوازن.. وهذه الكلمات التى نقلتها وكالة أسوشيتد برس الأمريكية تدل أولا على أن هذا المسئول الكبير يعترف بأن الولايات المتحدة ابتعدت عـن العالم الإسلامى، كما يعترف بأن السياسـة الأمريكيـة الحاليـة تفتقـد إلى التـوازن، أى إنها سياسة منحازة وغير حكيمة.. وغير متوازنة.

ولقد سافر عدد من كبار المثقفين المصريين إلى الولايات المتحدة فى ينـاير ٢٠٠٢ وأجروا حوارات مع مجموعات مـن المثقفـين الأمريكيـين للتعـرف علـى رؤيتـهم لجوهر الأزمـة القائمـة فـى العلاقـات العربيـة الإسـلامية-الأمريكيـة ومحاولـة البحث عن الفرص والوسائل المتاحة لإصلاح ما فسد من هذه العلاقة عقب أحـداث سبتمبر ٢٠٠١، وكانت هذه الرحلة بدعوة من الرئيس السابق بيل كلينتون الـذى أنشأ مؤسسـة أسماهـا (مؤسسـة وليـام جيفرسون كلينتـون الرئاسـية)، وكـانت المجموعة المصرية مكونة من الدكتور أحمد كمـال أبـو المجـد، والدكتـور ميـلاد حنا، وبعد عودتهما كتب الدكتور كمال أبو المجـد ملخصا لما دار، وبدأ بما أثاره الحاضرون، وهم من الصفوة السياسية والأكاديمية فـى الولايـات المتحـدة، حـول طبيعة الإسلام كدين وحضارة وأسلوب حياة، وعما إذا كانت هذه الطبيعة تحمـل فى نسيجها توجها عدوانيا يمكـن أن يتصـاعد ويصبـح إرهابـا، وتـرددت عبـارة (الجهاد الإسلامى) على ألسنة الحاضرين.. بل كـان عنـوان إحـدى النـدوات فـى نيويورك، وكان العنوان بالضبط هو (هـل هنـاك جـهاد إسـلامى ضـد أمريكـا؟)، وعلق الدكتور أبو المجد على ذلـك بـأن هـذا التسـاؤل يمثـل (حالـة) مـن التـأثر بالصورة السلبية التى يقدمها الإعلام الأمريكى عن جميع العرب والمسلمين، وقـد أصبحت حالة لا تفلح فى إصلاحها التصريحات الوديـة التـى صدرت مـن بعـض المسئولين الأمريكيين تجاه الإسلام، ودارت أحاديث حول ثلاثة أسباب لما أسموه (الإرهاب الإسلامى) أولها غياب المشاركة السياسـية الحقيقيـة، وثانيـها اتسـاع الهوة بين الأغنياء والفقراء، وثالثها انتشار التشرد الدينـى الـذى يحمـل العـداء للآخر سـواء كـان الآخـر فـى الداخـل أم فـى الخـارج، بينمـا كـان رأى الدكتـور أبو المجد والدكتور ميلاد أن الأزمة بين العـالم الإسـلامى وأمريكـا ليـس الديـن، ولكنها فى حقيقتها أزمة سياسية، فـهى تعبـير عـن الإحبـاط الشـديد، وخيبـة الأمل والعجز عن فهم بعض السياسات والمواقف الأمريكية خصوصـا فـى الصـراع

العربى الإسرائيلى، فالموقف الأمريكى منحاز لإسرائيل بصورة فجة وغير مسبوقة إلى حد استخدام الولايات المتحدة حق الفيتو فى مجلس الأمن على قرارات تمت صياغتها فى عبارات عامة وألفاظ فضفاضة ولا تتضمن إدانة صريحة لإسرائيل، على أمل أن تقبلها أمريكا كنوع من الترضية للعرب وللمسلمين ومراعاة مشاعرهم، وهذا الموقف الأمريكى يعطى لشارون أكثر بكثير مما ينتظره من الولايات المتحدة، وهل سمع أحد أو قرأ فى التاريخ أنه تم حصار زعيم أو رئيس فى مقره ومنعه من مغادرته كما تفعل الحكومة الإسرائيلية مع الرئيس عرفات، وفى نفس الوقت يطالبه خصمه وتطالبه أمريكا بأن يسيطر على شعبه وألا يفلت من سيطرته فرد واحد وإلا كان ذلك دليلا لا يناقش على مسئوليته الشخصية عن كل حادث عنف فردى يقع من واحد من شعبه!!.. وشارون يكرر أن الرئيس عرفات لم تعد له قيمة ولا تصدر من أمريكا إشارة تدل على الاعتراض على هذه الإهانات.. أليس ذلك كافيا لكى يُغرَس فى الشعب الفلسطينى والشعوب العربية إحساس عميق بالظلم والإهانة والاستخفاف؟ وهى مشاعر لا يستطيع أحد أن يمنع تحولها يوما ما إلى رغبة فى الثأر والانتقام.

ومن بين ما قاله الدكتور أبو المجد: إذا كانت مشاعر الغضب والإحباط قد أدت ببعض المسلمين إلى الفرار من الواقع بما فيه من مرارة، ومن الماضى بما فيه من أمجاد وانتصارات إسلامية، ومن المستقبل الذى يبدو غامضا، وانحازوا إلى مجتمعات مغلقة، انعزلوا فيها عن المجتمع، وأدت هذه العزلة إلى تكوين فقه خاص بهم أوصلهم إلى حرب لا تنتهى مع مجتمعاتهم أولا ثم مع العالم كله ثانيا، وقد تجاوزوا ذلك كله إلى الاستهانة بحرمة دماء الناس كلهم، ويفعلون ذلك وهم يظنون أنه (الجهاد) الذى شرعه الله للمسلمين، وأنه طريقهم إلى الجنة، لكن ذلك كله لا ينسب إلى الإسلام ولا يجوز أن يحاسب عليه سائر المسلمين، كما لو كانوا شركاء فيه، ذلك لأن المبدأ الإسلامى (لا تزر وازرة وزر أخرى) (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) وفى الفقه الجنائى فى الغرب مبدأ الجريمة شخصية والعقاب شخصى، فكيف تكون إدانة ملايين العرب والمسلمين لأن أفرادا منهم ارتكبوا أعمالا لم يستشيروا فيها أحدا ولم يقرهم عليها أحد..

وبالإضافة إلى ذلك فإن الحضارات ليست جامدة، ولكنها فـى حركـة وتطـور.. وكما أن الحضارة الغربيـة تعيـش الآن مرحلـة مراجعـة وتطـور بعـد الثـورات العلمية والتكنولوجية الكبرى فإن الحضارة الإسلامية أيضا فى مرحلـة مراجعـة وتطور لمسايرة ما فى هذا العصر من طفرات فى كل المجالات، والمثقفون فى العالم العربى والإسلامى يمارسون منذ سنوات عملية مراجعـة ونقـد ذاتـى بحثـا عـن طريق الإصلاح لأوضاعهم كلها، لكى تعيش المجتمعات الإسلامية فـى الحـاضر، وتعمل للمستقبل وتتخلص من الجمود والحياة فى الماضى، ولكن الغرب لا يـدرك أهمية هذا الجدل الدائر عندنا حول تحديث المجتمعـات العربيـة والإسلامية، وحول اكتشاف القيم المشتركة بـين الأديـان السـماوية، وحـول كيفيـة الالتحـاق بعصر المعرفة وبالعولمة.

والمهم فيما قاله بعض المفكرين الأمريكيين من أن توجيه ضربـات عسـكرية إلى دول أخرى غير أفغانستان سيؤدى إلى تغيير طبيعة الحملـة علـى الإرهـاب التـى بدأت بتصفية تنظيم القاعدة، ويتحول بها إلى مسار جديد هو تنفيذ اسـتراتيجية سياسية للولايات المتحدة يستخدم شعار محاربـة الإرهـاب لتنفيذهـا، ويتجـاوز حدود السلطة التى تملكها القـوة الكـبرى الوحيـدة فـى النظـام العـالمى الحـالى.. ولاشك أنـه أمر مثـير للدهشـة أن يعلـن الرئيـس الأمريكـى عـن احتمـال توجيـه ضربات عسكرية إلى ثلاث دول أسماها (محور الشر) هى العراق وإيـران وكوريـا الشمالية، وهى دول لا شىء يجمع بينها حتى توضع فى سلة واحدة.

وكـل هـذا يـؤدى إلى حقيقـة أن أمريكـا لا تقـود الحـرب علـى الإرهـاب والإرهابيين، ولكنها تقود الحرب على دول وشعوب.. وأنـها هى أيضـا تسـتخدم الإرهاب أحيانا.. وتستخدم الإسلام أحيانا أخـرى.. وتسـتخدم موضـوع احتمـال وجـود قـدرات لإنتـاج أسـلحة الدمـار الشـامل.. وكـل هـذه حجـج أو مبـررات لا أكثر.. وكل حرب فى التاريخ لها أهداف معلنة وأهـداف خفيـة، والأهداف الخفية هى الأهداف الحقيقية، وكل حرب لابد أن تدور تحـت شـعار براق عادل.. حرب من أجل القيم الديمقراطية.. حرب من أجـل السـلام.. حـرب من أجل القضاء على الشر.. وهذا ما حدث فى الحروب العالمية الكبرى والحروب المحلية الصغيرة وحتى فى المعارك والصراعات المحلية داخل حدود الدولة.

الأهداف والشعارات المعلنة شيء.. والأهداف والنوايا الحقيقية شيء آخر.. ولا توجد حرب في التاريخ ليس وراءها أطماع وبحث عن مكاسب سياسية واقتصادية. ليس هناك حرب للحرب.. وليس هناك حرب للتسلية.. وليس هناك حرب من أجل أهداف خيرية.. والشعوب لا تقبل التضحية بأبنائها وأموالها وقدراتها العسكرية تطوعا إنسانيا لعمل الخير.. الحرب تضحية كبرى.. ومغامرة.. وملحمة.. وخراب.. ودمار.. ودماء.. وأرواح.. فإذا لم يكن العائد منها يساوى كل ذلك فإن من يقوم بها مجنون!..

وعلينا أن نبحث لماذا الحرب؟

أجاب عن ذلك السؤال الكاتب الأمريكى توماس فريدمان فى نيويورك تايمز فقال: إنها حرب من أجل إحكام السيطرة الكاملة على بترول الشرق الأوسط..

والبروفيسور نعوم تشومسكى (٧٤ سنة) المفكر الأمريكى المشهور والأستاذ بجامعة بوسطن يرى أن الخطة سبق إعدادها قبل الأحداث الإرهابية فى سبتمبر، والعراق لديه ثانى أكبر احتياطى للبترول فى العالم، والولايات المتحدة تريد أن تستعيد السيطرة على هذا الاحتياطى، ولا علاقة لذلك بأسلحة الدمار الشامل، ولا بصدام حسين، وهى ستصل إلى هذا الهدف، ويمكنها بذلك هدم منظمة الأوبك، والتحكم فى إنتاج وأسعار النفط وفقا لما تريد، والقضية ليست مجرد حصول أمريكا على بترول العراق، لأن أمريكا ليست فى حاجة ملحة إليه، وهى تتوقع الاعتماد على موارد مضمونة أكثر فى حوض الأطلسى، ومع ذلك فإنها لن تستغنى عن بترول الشرق الأوسط، وقد أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية فى الأربعينات أن بترول الشرق الأوسط مصدر هائل للقوة الاستراتيجية وأعظم غنيمة فى تاريخ العالم، وبالطبع فإن الولايات المتحدة تريد السيطرة على هذه الغنيمة بالكامل، وبذلك تكون هى المسيطرة على مصادر الطاقة فى العالم، وبذلك تكون هى المسيطرة على العالم.

ليس ذلك فقط.. بل إن تشومسكى يرى أن الحرب الأمريكية تعطى الإدارة الأمريكية الحالية قوة وتجعلها قادرة على إسكات الخصوم والمعارضة لأن (أمريكا فى حرب) ومن يعارض يصبح ضمن الطابور الخامس الذى يعمل لإضعاف

الروح المعنوية والتأثير على سير الحرب لصالح الأعداء، وبذلك يضمن الرئيس بوش موقفا أفضل فى انتخابات الرئاسة القادمة أفضل من الموقف الضعيف الذى لم يحقق فيه الفوز بالمعنى الحقيقى، ولاشك أن ذلك كان له تأثير عليه، والرئيس بوش يعمل من الآن على تغيير المناخ السياسى فى الولايات المتحدة وتحويل أصوات الجميع إلى مؤيدين له، وبالحرب يغطى على الأزمات الداخلية العاصفة، الأزمة الاقتصادية، وأزمة نقص اعتمادات الرعاية الاجتماعية والصحية، وأزمة انهيار شركات كبرى، وأزمة تراجع النمو الاقتصادى، وأزمة البطالة، وأزمة تفجر قضايا فساد التى تقترب من الرءوس الكبيرة وأولها نائب الرئيس ديك تشينى لمسئوليته عن فضيحة شركة إنرون.. وسياسة بوش أن يشغل الأمريكيين عن التفكير أو الحديث فى مشاكلهم، ويتابعوا تحركات الجيوش الأمريكية، وانتصارات راعى البقر وأعماله البطولية لإنقاذ أمريكا من خطر محيط بها!

هذا ما قاله تشومسكى فى حوار مع مقدم البرامج الشهير حافظ الميرازى، وقال: إن بوش يريد أن يحقق انتصارا مدويا قبل الحملة الانتخابية بوقت كافٍ، لكى يحتفل بالنصر احتفالا يغطى على كل الأزمات، وينسى به الأمريكيون ما فقدوه من أرواح أبنائهم، ويقدم لهم الوعد بالسير نحو انتصار ثان، وبذلك يضمن التصفيق فى طول البلاد وعرضها عندما يطوف بها فى دعايته الانتخابية.

المسألة إذن ليست الإرهاب.. وليست الإسلام.. بل ليست صدام حسين.. ولا أسلحة الدمار الشامل!

ويضيف تشومسكى فيقول: إن تزايد الكراهية للسياسة الأمريكية يجب أن يوضع فى الحسبان، وفى أيام حكم أيزنهاور كانت الإدارة الأمريكية قلقة جدا بسبب حملة الكراهية ضد أمريكا فى العالم العربى، ولم تكن الكراهية من الحكومات.. بل كانت من الشعوب، وكان هذا الموضوع محل بحث موسع فى مجلس الأمن القومى، وانتهى إلى أن سبب الكراهية أن أمريكا هى التى تعوق التنمية والديمقراطية فى العالم العربى لكى تحقق مصالحها، وكل ما يهمها هو السيطرة على المنطقة.. وقال تشومسكى: تذكروا أن الذين يعملون فى الإدارة

الأمريكية الآن هم الذين دعموا صدام حسين أثناء ارتكابه الفظائع التى يحكمون عليه بالإدانة الآن بسببها، ولم يكن شيء مما يفعله صدام حسين منذ تولى الحكم خافيا على أمريكا فى يوم من الأيام، ولم يسمع أحد اعتراضا واحدا من أمريكا على كل ما فعله بما فى ذلك برنامج التسليح الذى كان يتم تنفيذه أمام عيون الولايات المتحدة.

ولكن تشومسكى له رأى أخطر فيما يتعلق بمستقبل الدولة الفلسطينية.

تشومسكى يرى أن من أهداف الإدارة الأمريكية فى هذه الحرب تنفيذ مشروع بوش الأب، ففى ديسمبر ١٩٨٩ صادقت الإدارة الأمريكية على خطة بيكر، وهى تنفيذ مشروع الحكومة الائتلافية فى إسرائيل فى ذلك الوقت (حكومة شامير وبيريز) وكانت النقطة الأولى أنه من غير الممكن أن تتواجد دولة فلسطينية، بما يعنى تأييد المشروع الإسرائيلى القديم الذى يعتبر الأردن هو أصلا دولة فلسطينية، وأنه من غير الممكن أن تتواجد دولة فلسطينية ثانية..

ثم إن تشومسكى يعيدنا مرة أخرى إلى الحديث عن الحرب على الإسلام.

يقول تشومسكى: إن الولايات المتحدة-فى حقيقتها-مجتمع أصولى متدين إلى أبعد حد.. بل إنه من أكثر المجتمعات الأصولية فى العالم، حيث يؤمن ٤٠٪ من الأمريكيين بأن العالم خلق منذ ٦ آلاف سنة، ويكرر تشومسكى: إن الأصولية فى الولايات المتحدة أعلى من الأصولية فى إيران، وكانت الأصولية كتلة سلبية فى المجتمع الأمريكى لزمن طويل، لكنها الآن أصبحت أكثر نشاطا فى المجال السياسى، وأظن أن ذلك بدأ فى عهد إدارة كارتر، وقد أضفى كارتر عليها بعض الهيبة وتبنى مواقف شبيهة بمواقفها، وعندما جاء ريجان أدرك الأصوليون أن هذه فرصتهم، فقد كان ريجان مسيحيا أصوليا، أو ربما تظاهر بأنه كذلك، وأصبحت الأصولية الدينية ظاهرة مهمة فى الحياة السياسية الأمريكية فى تلك الفترة إلى أن جاء بوش الأب فوقف فى طريقها وعمل على كبح جماحها لأنه كان ليبراليا، وكان رجل دولة، وكان مختلفا عن الرجال الذين أحاطوا بريجان وكانوا مجموعة من الصقور المتطرفين.. ولكن اعتبارات السياسة هى التى تحكم تصرفات الإدارة الأمريكية، وإذا اقتضت المصالح الأمريكية إعلان الحرب على

دولـة تسـود فيـها الأصوليـة المسـيحية فلـن تـتردد، وقـد حـدث ذلـك فعـلا فـى الثمانينات أثنـاء مـا كـان يسـمى (الحـرب الأولى علـى الإرهـاب) عندمـا قـامت الكنيسة الكاثوليكيـة بتبنـى مـا أسمـوه الموقـف المنحـاز للفقـراء، ورأت المصـالح الأمريكية أنه لابد من تدميرهـا، فبـدأ الأمـر باغتيـال أحـد الأسـاقفة، وانتـهى باغتيال ستة مفكريـن يسـوعيين بـارزين ثـم أعقبـهم اغتيـال أعـداد كبـيرة، ثـم عشرات الآلاف من المزارعين.

ويقول تشومسكى: إن تحويل أسامة بن لادن المعركة مع أمريكا إلى صراع دينى بين الإسلام والغرب يعجب اليمين المسيحى، الـذى يسـعى إلى خلـق صـراع بـين الحضارات..

يقول تشومسكى: إن صدام الحضارات غير موجود، ولكن من الممكـن إيجـاده، وعلى سبيل المثال فقد أعلنت المخابرات الأمريكيـة أن صـدام حسـين لا يمثـل أى خطر إرهابى، لكن هذا الخطر سوف يوجد (!).

ويفسر تشومسكى ذلك بأن الهجوم على العراق قد يؤدى إلى موجة من الإرهاب الإسلامى الراديكالى فى أنحاء العالم.. وهذا احتمال قـائم.. وإذا حـدث فسـيكون الشرارة لصدام الحضارات الذى يسعى إليه المتطرفون.

أعتقـد أن صراحـة تشومسـكى التـى تقـدم الحقـائق عاريـة دون مواربـة ودون مناورات هى التى تجعلنا نفهم ما تحت السطح فى السياسة الأمريكية، وما يقال عن صراع الحضارات، وحتمية الصدام بين الغرب والإسلام.

وليس تشومسكى فقـط هـو الـذى يعلـن الحقيقـة بصراحـة، فـهناك مـن يعلـن بصراحـة أيضـا أن الحـرب فـى حقيقتـها حـرب علـى الإسـلام، وأنـها التعبـير العسكرى عن (الإسلاموفوبيا) التى أصبحت سائدة فى أمريكا أيضا، وعلى سـبيل المثال فإن البروفيسور نيانج Nyang أستاذ الدراسات الأفريقيـة بجامعـة هـاوارد بواشنطن يقول: إن المسلمين يعاملون فى أمريكا الآن، كما كان الكاثوليك يعـاملون فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فقد كان الكـاثوليك مـهاجرين مـن بلاد وأصول عرقية مختلفـة، ولكـن كـان يُنظـر إليـهم، كمـا لـو كـانوا مجموعـة واحدة، كذلك لا يدرك الأمريكيون الاختلافات بين المسلمين من حيث ثقافـة كـل

بلد من البلاد التى هاجروا منها، أو من حيث المذهب الذى يعتنقونه (سنة أو شيعة أو غيرهما) ولا من حيث الأصول العرقية (عربا أو آسيويين أو أفارقة) ويرون المسلمين كتلة واحدة، وهذا أول مظهر من مظاهر الإسلاموفوبيا، أى مرض الخوف من الإسلام، ولذلك فإن المسلمين يواجهون الاضطهاد الذى كان يواجهه اليهود أثناء حملات معاداة السامية، والألمان أيام الحملة على النازية والأمريكيون الزنوج أيام التفرقة العنصرية..

والبروفيسور جميس بنينج Penning أستاذ العلوم السياسية بكلية كالفن بولاية ميتشجن يقول: إن المسلمين فى أمريكا يواجهون الإسلاموفوبيا ويعانون من سوء المعاملة، ولكن عليهم أن يواجهوا المأزق الذى هم فيه بشجاعة، فإن عليهم أن يعملوا على الاندماج فى المجتمع الأمريكى، ويشعروا هم أولا - لكى يشعر الآخرون أيضا - أنهم جزء لا يتجزأ من المجتمع الأمريكى وليسوا جماعة منفصلة تعيش فى أمريكا، وفى نفس الوقت عليهم أن يتحملوا المتاعب نتيجة رفض المجتمع الأمريكى اندماجهم فيه ومعاملتهم كسائر الأمريكيين، لأن المجتمع الأمريكى يطالبهم بالاندماج، ويضطهدهم لأنهم لا يندمجون ويصبحون أمريكيين مثل الأمريكيين، وفى نفس الوقت يرفض المجتمع إعطاءهم فرصة للاندماج، وعلى المسلمين أن يجدوا لأنفسهم حلا لهذه المعضلة..

ودليل على ما يقوله جيمس بنينج : أن عبد الرحمن العمودى المسئول فى المجلس الإسلامى الأمريكى قدم تبرعا لحملة انتخاب هيلارى كلينتون عضوا بمجلس الشيوخ عن نيويورك، ولكنها رفضت التبرع لأن العمودى سبق أن أعلن عبارة تأييد للفلسطينيين، ومرة أخرى قدم المجلس الإسلامى الأمريكى تبرعا لحملة انتخاب الرئيس الحالى بوش الابن فأعادوا إليه التبرع لنفس السبب كما ذكرت صحيفة نيويورك تايمز، ومع ذلك أصدر المجلس الإسلامى الأمريكى بيانا طالب فيه الأمريكيين المسلمين بالمشاركة فى الانتخابات، وقال فى البيان (اجعلوا المرشحين والمسئولين يسمعون صوتنا)، ولكن المجتمع الأمريكى لم يرحب بهذا الاتجاه، ولم تجد هذه المشاركة ترحيبا حتى ممن أراد المسلمون تأييدهم فى الانتخابات.

ويفسر الدكتور ساشيدينا Sachedina – وهو أصلا من تنزانيا وتعلم فى إيران ويعمل أستاذا بجامعة فيرجينيا – هذه الظاهرة بأن اختلاف الثقافات يباعد بين المسلمين والأمريكيين، فالمهاجرون من بلاد إسلامية ينتمون إلى ثقافة سياسية أوتوقراطية لا تعرف مشاركة الشعب مشاركة حقيقية فى النظام السياسى، ويشعر المواطن فيها بأنه ليست له قيمة أو تأثير فى القرار، والإسلام يعلم أتباعه أن سلطة الحكم هبة من الله، والله يعطى لكل شعب الحكومة التى يستحقها، فالحكومة السيئة عقاب من الله، وموقف المسلمين سلبى من حكوماتهم، وشعارهم: إياكم أن تهزوا المركب، فقد تكون هذه الحكومة بسيئاتها أفضل من غيرها.. مثل هذه السلبية يقابلها المجتمع الأمريكى بالدهشة والاستنكار.. كذلك يواجه بالدهشة دعوة المجلس الإسلامى الأمريكى لأعضائه بأن يخرجوا من عزلتهم، ويشاركوا فى الحملات السياسية والحملات ضد المخدرات، والإيدز، والحمل فى سن المراهقة، والاشتباك مع الأحداث الاجتماعية اليومية..

المشكلة أن أغلبية المسلمين الأمريكيين من أصول أفريقية، وهؤلاء غير متعلمين ويصعب عليهم الاندماج فى مجتمع منظم، والاشتراك فى حوار ديمقراطى، بينما هناك مسلمون أمريكيون من أصول عربية فيهم كثير من المتعلمين، وبالطبع لا يمكن التفاهم بين المجموعتين مع وجود هذا الفارق الثقافى، والدكتورة ماكلود MaCloud مستشار المجلس الإسلامى الأمريكى تضيف سببا آخر هو أن بعض المسلمين البيض اكتسبوا من الأمريكيين النزعة العنصرية فلا يحبون مشاركة المسلمين السود مع أنهم هم الأغلبية.. وبذلك يخسر المسلمون البيض دعم هذه الأغلبية، وهذا ما يؤدى إلى عدم وجود كيان واحد وصوت واحد يعبر عن المسلمين فى أمريكا، ويدافع عن حقوقهم، مع أن المسلم الأمريكى الأسود المتعلم هو الأكثر فهما واندماجا فى المجتمع الأمريكى لأن وجوده أقدم.

هل أنت أمريكى أولا ومسلم ثانيا أو مسلم أولا وأمريكى ثانيا؟..

هذا السؤال هو محور المشكلة فى أمريكا كما هو محورها فى بريطانيا.. فى بريطانيا كان أول القتلى برصاص القوات البريطانية فى أفغانستان اثنين من تنظيم القاعدة تبين أنهما يحملان الجنسية البريطانية، وأنهما يقاتلان مع

طالبان (تلبية لنداء الإسلام) وأثيرت فى بريطانيا القضية على نطاق واسع، هل المسلمون المهاجرون الذين يعيشون فى بريطانيا ويحملون الجنسية البريطانية وأولادهم من الجيل الثانى ويجندون فى الجيش البريطانى، هل ولاؤهم للإسلام أو لبريطانيا؟.. وأجريت دراسات سألوا فيها أعدادا كبيرة من شباب المسلمين المولودين فى بريطانيا بعضهم مجندون فعلا وبعضهم على وشك التجنيد: إذا قامت حرب بين القوات البريطانية وقوات جيوش إسلامية.. هل تشارك إخوانك البريطانيين فى قتال المسلمين؟.. وكانت صدمة أن بعضهم أجاب بالنفى وقال: إنه لا يمكن أن يرفع السلاح لقتل مسلم، لأن المسلمين إخوة وارتفعت أصوات تقول: إذن فالمسلمون وأبناؤهم فى بريطانيا ليسوا بريطانيين، ولكنهم طابور خامس!

يحدث نفس الشىء تقريبا فى أمريكا.. خاصة أن أحد زعماء المسلمين السود أعلن أن المسلمين الأمريكيين السود يشعرون أن بلادهم الأصلية التى جاء منها آباؤهم وأجدادهم هى جنة الإسلام، وقد بدأ بعضهم يفضل السفر إلى هذه البلاد لتعلم الإسلام فيها، وبعضهم يشعر بأنهم متفوقون عن غيرهم من المسلمين البيض، ويعبر عن ذلك ظفر الدين أحد زعماء المسلمين السود فيقول: إن المسلمين السود فى أمريكا أصبح لهم (عقل أمريكى) وهو عقل ناقد يحلل ويفحص ولا يسلم بالأمور على علاتها، وثقافة السود تطورت نتيجة عصر العبودية وأصبحت أكثر قدرة على التحدى والمقاومة، ولذلك فإن إسلامهم إسلام أمريكى فريد ومتميز، لأنه لا يفهم أمريكا فهما حقيقيا إلا من ولد وعاش حياته فيها.

باختصار إن الحرب على الإسلام والمسلمين ليست خارج أمريكا فقط، ولكنها أيضا فى الداخل، وباختصار أكثر فإن المسلمين ليسوا فى نعيم لا فى داخل أمريكا ولا فى خارجها عندما يضطرون للتعامل معها، لأنها باختصار لا تحبهم!

لماذا لا يحبون المسلمين فى أمريكا وفى الغرب عموما؟.. الإجابة عند اوزدم سانبيرك تتلخص فى سببين: الأول أن الرأى العام فى الغرب لا يحصل على معلومات صحيحة عن الدول الإسلامية ولا يجد سوى الأفكار السطحية عن الإسلام، والسبب الثانى أن الرأى العام الأمريكى والأوروبى لديه استعداد للاستماع إلى ما يقوله المتشددون والمتطرفون الذين يقدمون أنفسهم على أنهم

زعماء إسلاميون، بينما صوت الإسلام الحقيقى المعتدل لا يصل إلى الرأى العام، وإذا وصل فإنه لا يلقى الاحترام، وهذا ما يسميه سانبيرك (التحامل الثقافى والدينى)، ويرى الغربيون عموما أنه ليست هناك دولة إسلامية عصرية تجمع بين الديمقراطية والتحديث، والدول الإسلامية لم تحقق نهضة صناعية ولا تقدما اقتصاديا، لأنها ليست أهلا لذلك.

ويشير سانبيرك إلى ملاحظة مهمة هى أن التطرف الموجود فى الدول الإسلامية ولد وتتم تغذيته من الدول الغربية، كما يشير إلى ملاحظة أخرى لا تقل أهمية هى أن نصف سكان مدينة كابول عاصمة أفغانستان قتلتهم طالبان والنصف الثانى قتلتهم القوات الأمريكية بغارات الطائرات التى لم تفرق بين أنصار طالبان وغيرهم.

ويصل فى النهاية إلى أنه يجب على الغرب الاعتراف بالحقوق الديمقراطية الطبيعية للشعوب الإسلامية أينما كانت بما لا يقل عما تحظى به حقوق غيرهم من شعوب الدول الغربية، وعلى الغرب أن يكف عن النظر إلى المسلمين على أنهم مختلفون عنهم اختلافا جوهريا، لأن هذه النظرة الاستعلائية سوف تسبب للغرب المزيد من الأضرار.

وفى النهاية.. هل الحرب التى تشنها أمريكا وتؤيدها الدول الأوربية حرب على الإرهاب.. أو على الإسلام؟.. أو هى حرب من أجل تأكيد السيادة الأمريكية فى النظام الجديد؟.. أو هى من أجل البترول؟.

ولن نفهم المسألة إلا إذا قرأنا المقال الخطير الذى كتبه وزير الدفاع الأمريكى دونالد رامسفيلد فى عدد مايو ٢٠٠٢ من مجلة (فورن أفيرز) وهى أكبر مجلة متخصصة فى الدراسات السياسية والاستراتيجية، وفى هذا المقال المنشور فى مايو ٢٠٠٢ بعنوان (تحويل الجيوش) قال صراحة: إن أمريكا سوف تحارب فى كل مكان للقضاء على عناصر الإرهاب، وعلى الفكر الذى يولد الإرهاب، وعلى النظم السياسية التى يمكن أن تؤيد الإرهاب الآن أو مستقبلا، وسوف تحارب بأحدث الأسلحة، كما ستدرب قواتها على الحرب بالأسلحة القديمة ليحاربوا بالطائرات والمدرعات والدبابات ويحاربوا أيضا بالبغال والحمير، وتسلق الجبال

على الأقدام، ولن تطبق نظرية «حربان فقط في وقت واحد»، ولكن ستطبق نظرية جديدة بالاستعداد لإشعال حروب متعددة في وقت واحد، والإبقاء على أربع قوات على الأقل مستعدة للحرب في أربعة ميادين للقتال في وقت واحد، مع القدرة على احتلال العواصم وتغيير أنظمة الحكم.

وقال رامسفيلد: إن الاستراتيجية الجديدة تتضمن التخلي عن سياسة (التهديد) وتنفيذ استراتيجية (تنفيذ التهديد فعلا).. ويقول: سوف نجعل أعداءنا يشعرون أنه ليست هناك نقطة في العالم بعيدة عن متناول أيدينا، وليس هناك جبل، أو كهف، أو خندق، ولا طريق للهرب يمكن أن يمنعنا من الوصول إلى من نريد الوصول إليه.

وقال أيضا: إن هدفنا في الاستراتيجية الجديدة التأثير على صناعة القرار عند الأعداء، وردعهم، ومنعهم من بناء أسلحة جديدة، وسيكون تواجد الأسطول الأمريكي كافيا لإقناع جميع الدول بعدم بناء أساطيل تنافسنا، لأن ذلك سيكون فوق طاقتهم، وسوف نعمل بنظامين: نظام علني ونظام سري، ونعمل بالتوازن بين الأسلحة التقليدية والأسلحة الحديثة جدا التي تعمل بالاستشعار عن بعد..

وأخيرا يقول رامسفيلد: يجب علينا عدم استبعاد أي شيء في الحرب..

هل يكفي ذلك مما قاله وزير الدفاع أو نحتاج إلى ما هو أكثر لكي نفهم؟..

هل نفهم؟

خاتمة
ما العمل ؟

ليس هذا كل ما قيل عن الإسلام والمسلمين.

ما قيل ويقال هجوما على الإسلام يمكن أن يملأ عشرات الكتب، وقد تكون هناك فرصة أخرى لمواصلة عرض جانب آخر مما يقوله وما يفعله صناع العداء للإسلام. وأيضا ما يقوله المنصفون للإسلام فى الغرب لأن الأمانة تقتضى عرض مواقف المفكرين الذين أحسنوا فهم الإسلام فى الغرب وكتبوا عنه بإنصاف وسيكون ذلك موضوعا لكتاب آخر إن شاء الله.

ولابد من وقفة فى النهاية ليسأل كل منا نفسه، ويسأل مؤسسات وعلماء الإسلام: ما العمل؟

وبدون مجاملة أو مراوغة لابد أن نعترف بأن المؤسسات والعلماء والحكومات كلهم مقصرون فى شرح وتوضيح حقيقة الإسلام والدفاع عنه فى الغرب.

ومع ذلك فإن الفرصة لم تضع إذا خلصت النوايا وصدقت العزائم.

وهناك مشروعات يرددها المسئولون منذ عشرات السنين ولم تتحقق.. ربما لأننا نفضل حل المشاكل بالكلام وليس بالعمل.

وعلى سبيل المثال:

● إنشاء مركز للدراسات الاستشراقية. فليس معقولا أن يكون فى أمريكا وأوربا مئات المعاهد ومراكز الأبحاث وأقسام الدراسات العليا فى الجامعات لدراسة عقائد وحضارة ولغة وتاريخ المسلمين، ولا يكون فى العالم الإسلامى مركز واحد ليكون مرصدا لما يقال وما يكتب عن الإسلام فى الغرب.

● إصدار سلسلة كتب تشرح حقائق الإسلام وأحكامه بوضوح لغير المسلمين فى الغرب، على ألاّ تكون - مثل الكتب المؤلفة باللغة العربية - مليئة بالألفاظ الرنانة والعاطفية. وإنما تكون ملتزمة بالمنهج العلمى، وبأسلوب موضوعى، وتعرض الإسلام بالمنطق ومخاطبة العقول. وتصدر بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والروسية وغيرها. فليس معقولا أن يكون عدد المؤلفات التى أصدرها المستشرقون منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين أكثر من ٦٠ ألف كتاب وهى كما يقول عنها الدكتور محمود حمدى زقزوق - الأستاذ الأكاديمى ووزير الأوقاف - كلها طعن فى الإسلام، وتشكيك فى القرآن، وهجوم على النبى ﷺ ، وهدم فى حضارتنا وتراثنا..

ليس معقولا أن يكون فى الغرب كل هذه السموم ونكتفى بمؤتمر هنا أو هناك أو زيارة وفد أو وفدين، أو بنشر مقال أو عشر مقالات فى صحف أو مجلات عندنا أو عندهم.

ووزير الأوقاف هو الذى اقترح إنشاء مركز علمى لدراسة المتغيرات المعاصرة لمعرفة مكان الإسلام والمسلمين منها، وهو الذى أعلن ضرورة إصدار موسوعة إسلامية عالمية بالعربية وثلاث لغات أوربية على الأقل تعرض أحكام الإسلام عرضا علميا، وبطريقة موضوعية تنأى عن الخلافات المذهبية الضيقة، وترد فى نفس الوقت على افتراءات ومزاعم الغرب التى يثيرها ضد الإسلام. وهذا العمل - كما قال الدكتور زقزوق - يقتضى تكوين هيئة إسلامية علمية عالمية، تضم خيرة العلماء من العالم الإسلامى، وتراعى الانتماء للإسلام وحده، ولا تخضع للانتماءات الإقليمية الضيقة. وهو الذى اقترح ترجمة معانى القرآن ترجمة منزهة من الخلط والخطأ، وبكل اللغات.

والدكتور زقزوق هو الذى اقترح أن تتبنى مؤسسات الدعوة جمع التبرعات من العالم الإسلامى لتمويل هذه الأعمال.

وهو الذى طالب بإنشاء جهاز عالمى للدعوة الإسلامية فى أمريكا ودول أوربا، يمتد ليشمل الأقليات الإسلامية فى كل مكان، لأنها تتعرض لمخاطر الغزو الفكرى، والمحو المنظم لعقيدتنا وذاتيتنا، على أن يمتد دور هذا الجهاز أيضا إلى

رعاية الأجيال الجديدة من أبناء المسلمين في أوربا وأمريكا، وهذه أجيال من الشباب تنشأ دون أن يعرفوا لغاتهم الأصلية، وإذا أرادوا معرفة الإسلام لا يجدون أمامهم إلا كتب المستشرقين فى كل مكان يستقون معلوماتهم منها، ومعظمها تشكيك فى الإسلام..

لذلك فإن مهمة هذا الجهاز العالمى للدعوة، توضيح حقائق الإسلام بمنهج علمي: منطقي وعقلاني، وأيضا يدخل ضمن مهام هذا الجهاز حماية المسلمين بالوراثة ورعاية الأجيال الجديدة من أبناء المسلمين الذين يعيشون فى الغرب.

وإذا كان هذا ما يقوله أستاذ ووزير مسئول، فما الذى يمنع من البدء فى العمل لتحقيق هذه المشروعات الكبرى..؟

وأضيف إلى ذلك ضرورة إيفاد بعثات إلى دول الغرب من علماء ومفكرين على دراية بما يوجه إلى الإسلام فى الغرب من انتقادات، ويجيدون الحوار والجدل باللغات الأجنبية، للقاء العلماء والأكاديميين، ورجال الإعلام والسياسة فى أمريكا ودول أوروبا، ولإيجاد صلات تسمح بالتفهم والتفاهم. كذلك من الضرورى توجيه الدعوة إلى القيادات الفكرية المؤثرة فى الدول الغربية لزيارتنا سواء من المتعاطفين مع الإسلام أم من صناع العداء له، ومن خلال اللقاءات مع كبار علماء الإسلام وأساتذة الجامعات يمكن توضيح أمور لا يستطيعون فهمها بدقة وهم بعيدون عن مراكز الفكر الإسلامى الحقيقى.

ولا نغفل أهمية بذل جهود سياسية ودبلوماسية من الدول والحكومات الإسلامية إلى جانب الجهود العلمية والثقافية والإعلامية وهناك مشروع قديم يتكرر احياؤه سنويا فى كل مؤتمر للقمة أو لوزراء الخارجية أو الإعلام فى العالم الإسلامى وهو إنشاء قناة فضائية لشرح حقائق الإسلام بجميع اللغات الأجنبية توجه إلى جميع شعوب العالم. وقد تكون هذه هى الفرصة ليظهر هذا المشروع إلى النور كاختبار لمدى جدية الدول الإسلامية فى الدفاع عن الإسلام.

وهنا لابد من وقفة مع المثقفين فى العالم الإسلامى، فإن عليهم فى الأساس المسئولية الأولى فى مواجهة فكر التطرف والإرهاب باسم الإسلام فى العالم الإسلامى، ومواجهة الكراهية والجهل بالإسلام فى الغرب وإن كانت هناك

جهود فردية فى هذين المجالين، إلا أنـها غـير كافيـة، وهـى جـهود مبعـثرة، وتحتاج إلى مؤسسة أو كيان ثقافى يشمل العالم الإسلامى، ليكـون منـارة هدايـة، ومركز إشعاع، للفكر الإسلامى المستنير.

ودعونا نأمل أن تتحول الأحلام إلى حقائق، وأن تتحول الأقوال إلى أفعال، وأن تتجمع الجهود المبعثرة فى كيان واحد، لكى يتحول حال الضعف إلى قوة، وحال التخلف إلى تقدم حضارى.. ولنقول:

هذا هو الإسلام على حقيقته.. وهؤلاء هم المسلمون حقا.

كتب أخرى للمؤلف

- البحث عن المستقبل.. المكتبة الأكاديمية ١٩٩٣.
- تاريخ ليس للبيع (طبعة ثانية).. دار المعارف ٢٠٠٠.
- الأمية الدينية والحرب ضد الإسلام.. هيئة الكتاب ١٩٩٦.
- ابتسامة صغيرة (مجموعة قصص).. هيئة الكتاب ١٩٩٧.
- الغرب والإسلام (طبعة ثانية).. دار المعارف ٢٠٠١.
- المصريون فى المرآة (سلسلة اقرأ) - دار المعارف ٢٠٠٠.
- الأقباط فى مصر والمهجر (طبعة ثانية).. دار المعارف ٢٠٠٢.
- معجزات الخلق والخالق.. دار المعارف ٢٠٠١.
- رحلة إلى الصين.. دار المعارف ٢٠٠٢.

الفهرس

رقم الإيداع		٢٠٠٣/٣٨٢٥
الترقيم الدولى	977-02-6425-3	ISBN

١/٢٠٠٢/٥٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج م ع)



هل هناك ، حقيقةً ، صناعة فى الغرب تُنتج العداء للإسلام؟

وماذا يقول قادة الفكر والسياسة ، وخبراء الاستراتيجية ، وجنرالات الحرب فى الولايات المتحدة ودول أوربا عن الإسلام، والقرآن، والرسول صلى الله عليه وسلم، على امتداد العصور؟

وما هى الدوافع الحقيقية للحروب التى يشنها الغرب ضد الدول الإسلامية منذ الحروب الصليبية وحتى اليوم؟

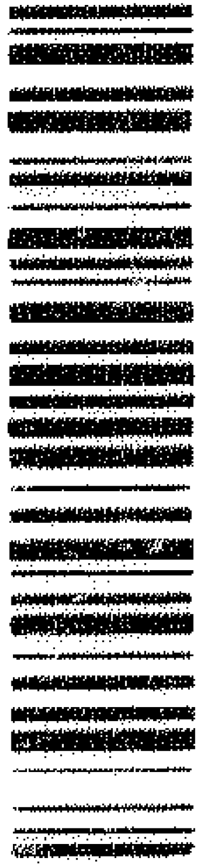
وما هى أسباب وأهداف الزلزال الذى يجتاح العالم الإسلامى بعد أحداث ١١ سبتمبر ويهدد حاضره ومستقبله؟ ومتى يتوقف؟

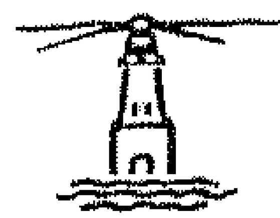
وهل لإسرائيل وجماعات الضغط الصهيونية فى أمريكا وأوربا دور فى إشعال نار الكراهية فى الغرب تجاه الإسلام والمسلمين؟

هذا الكتاب يقدم ملف معلومات بأقوال وكتابات الزعماء والمفكرين، والأعمال السينمائية والتليفزيونية فى الغرب، للتوصل إلى إجابة على هذه الأسئلة.

وفى الكتاب محاولة للإجابة على سؤال : ما العمل لإنقاذ المستقبل.. وحماية الإسلام من الزلزال القادم؟

رجب البنا





دار المعارف
٠٢٣٣٧١/٠١

